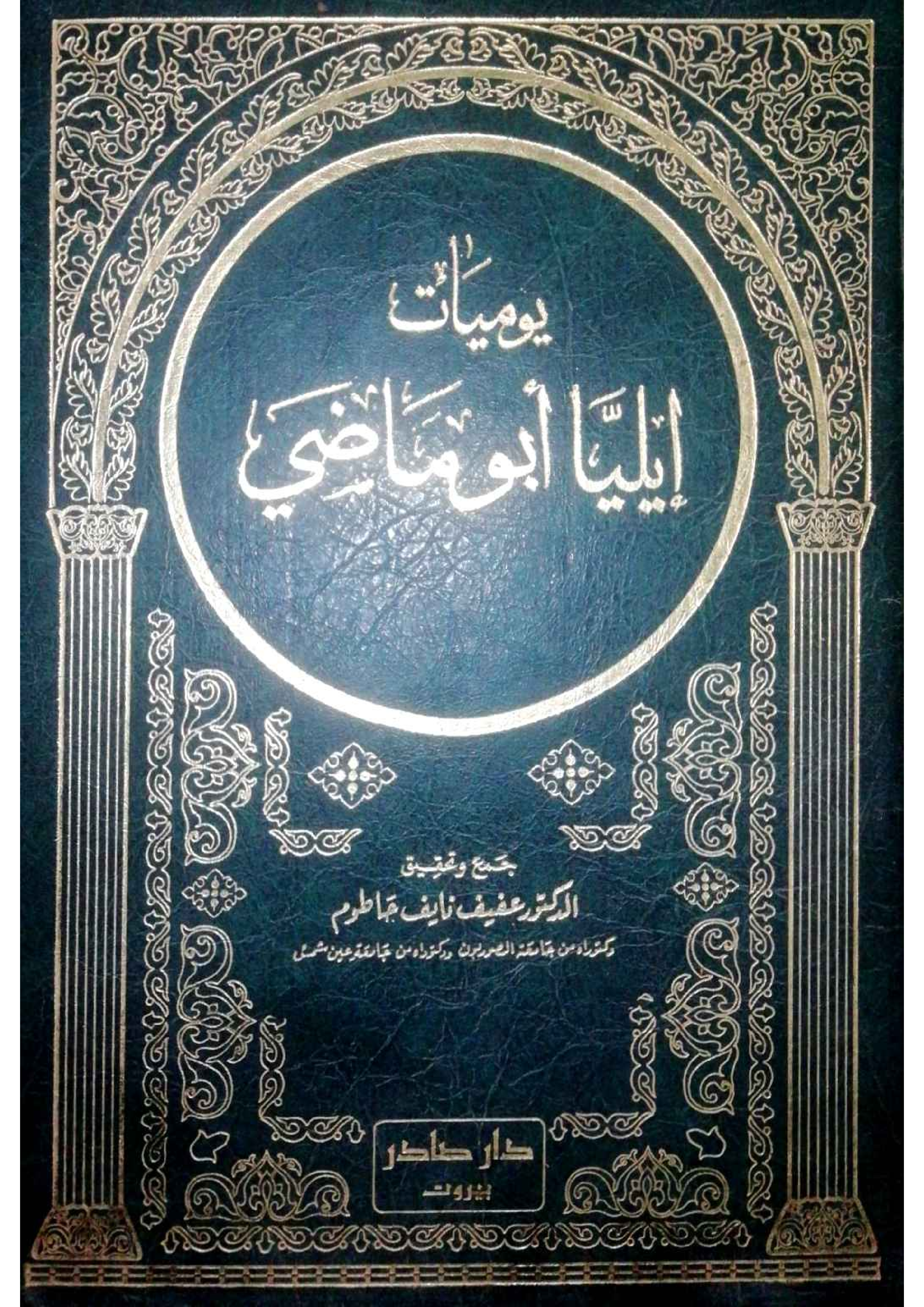

يوميات
إيليا أبو ماضي
جمع وتحقيق
الدكتور عفيف نايف حاطوم
دكتوراه من جامعة الصوربون ودكتوراه من جامعة عين شمس
دار صادر
بيروت

يوميات

إيليا أبو ماضي

الطبعة الأولى

بيروت 1433 هـ - 2012 م



تأسست سنة 1863

ص. ب ١٠ بيروت، لبنان

© DAR SADER Publishers
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4.910270 Tel: 910340
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

Yawmiyāt Iliyya Abū Māḍī

p. 452 - s. 17.5 x 25 cm
ISBN 978-9953-13-734-6



يوميات
إيليا أبو ماضي

جمع وتحقيق
الدكتور عفيف نايف حاطوم
دكتوراه من جامعة الصوربون ودكتوراه من جامعة عين شمس

دار صادر
بيروت



صورة لإيليا أبو ماضي

(سنسيناتي - الولايات المتحدة الأميركية)

16 آب 1915

مُقدِّمة

حياته

وُلد الشّاعر المهجريّ الكبير إيليا ضاهر أبو ماضي في قرية المحيدثة ـ لبنان في 21 أيار سنة 1890م. وحينما بلغ الخامسة من عمره أرسله والده إلى مدرسة الضيعة الابتدائية ولم يكد يمضي على وجوده فيها مدّة سنتين متتاليتين حتى بدأ يدرك في قرارة نفسه أنّه قد أصبح باستطاعته أن يصحّح بنفسه أخطاء معلّمه اللّغوية..

وحينما بلغ أبو ماضي الثامنة من عمره أرسله والده برفقة شقيقه الأكبر مراد إلى مدرسة اليسوعيّة في بكفيا.. وجلّ ما نعرفه عن طفولته في تلك الحقبة من حياته أنّه كان تلميذاً مجتهداً نجيباً وساخراً متهكّماً على نفسه وعلى وجهاء ضيعته..

ولقد كانت مخيَّلته قبل أن يتجاوز التاسعة من عمره مخيَّلة ضيّقة لا تتعدّى حدود السّواقي التي تفصل بين قريته والقُرى المجاورة لها حيث كان يعتقد بأنّ حدود العالم كلّه ينتهي عند حدود هذه السّواقي..

وحينما بلغ الحادية عشرة من عمره سافر إلى مدينة الإسكندريّة وبعد أيّام قليلة من وصوله إليها وجد نفسه وذلك في سنة 1901 يبيع الدّخان في دكّان خاله المدعو قبلان اسكندر.

ظلّ أبو ماضي يعمل في دكّان خاله هذا مدّة سنتين متتاليتين ولما وجد شقيقه الأكبر مراد يفتح دكّاناً خاصّاً به لبيع الدّخان انتقل على الفور لمساعدته حيث أنساه بعطفه وحَدْبه عليه مرارة فراقه لوالديه اللّذين كانت رياح الحياة القاسية قد حملته منذ سنوات قليلة بعيداً عنهما وهو بأشدّ الحاجة إليهما..

وقد ظلّ أبو ماضي يعمل في هذا الدكّان مدّة عام ونصف تقريباً ولم يفارقه إلاّ بعدما وجد شقيقه يبيع دكّانه، ليستقِلّ الباخرة عائداً إلى لبنان.

فما كان من أبي ماضي الذي كان بلغ آنذاك سنّ الرابعة عشرة من عمره إلاّ العودة ليعمل من جديد في دكّان خاله المدعو قبلان اسكندر..

ولَمّا ترامى إلى مسامع والد أبي ماضي الذي كان مقيماً آنذاك في المحيدثة أنباء تدخّل ابنه بالسياسة خاف عليه من السجن والاضطهاد ورأى أنّه لو ترك ابنه إيليا مقيماً في الإسكندريّة فيسبّب له الكثير من القلق ووجع الرَّأس فأرسل من أجل ذلك إلى ابنه مراد الذي كان قد سافر إلى الولايات المتّحدة مباشرة بعد وصوله إلى لبنان قادماً من الإسكندريّة رسالة قال له فيها: يا ابني لا أريد مالاً ولا مساعدة ولا هديّة ولكن برضاي عنك أبعث إلى أخيك ايليا أن يلحق بك وحبّب إليه السَّفَر لأنّ مصيره هنا وخيم العواقب.

فقرَّر أبو ماضي مغادرة الإسكندريّة مغادرة نهائيّة نزولاً عند رغبة والده ورغبة شقيقه مراد حيث وجد نفسه يغادرها في عام 1912م قاصداً لبنان وذلك قبل أن يسافر إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة.

غادر أبو ماضي الإسكندريّة في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران سنة 1912م عائداً إلى لبنان وبعد وصوله إليه بأيّام قليلة بدأ يتدخّل بالسّياسة من جديد حيث شرع يدلّ النّاس على أخطائهم بصراحته المعهودة وقصائده النّاريّة وآرائه الجريئة التي سبّبت له الكثير من العداوة والبغضاء..

وبعد إقامة له قصيرة في بلدته المحيدثة لم تتجاوز الثلاثة أشهر فقط أدرك أنّه ليس باستطاعته أن يبقى مقيماً في قريته تلك من غير أنْ يصادف فيها بعض المتاعب وذلك بسبب العصبيّة والحزازات الشخصيّة «فإذا حدث (قال أبو ماضي) أنَّ فريقاً فتح طريقاً جاء الخوري وسَدَّ الطريق، وهنا بدأت العرائض تتوالى فريق يطالب بفتحها وفريق يطالب بسدِّها».

فصَمَّم أبو ماضي من أجل هذه الأمور السطحيَّة التي تلعب السياسة فيها والمصالح الشخصيَّة دوراً فعّالاً على تقريب موعد سفره إلى أميركا الشماليَّة التي كان شقيقه مراد قد سبقه إليها بسنوات قليلة.

وصل أبو ماضي برفقة شقيقه الأصغر متري إلى نيويورك في عام 1912م ولقد صادف يوم وصوله إليها يوم عيد اكتشاف القارَّة الأميركيّة على يدّ كريستوف كولومبس ولم يكد نظره يقع وهو واقف على سطح السَّفينة التي كانت تقترب بركّابها رويداً رويداً من رصيف الميناء على تمثال الحرِّيَّة المنتصب على مدخل ميناء نيويورك حتى وجد نفسه يهتف بهذين البيتين من الشعر اللّذين نراه يقول فيهما:

نفسي اخْلِدي ودعي الحنين فإنَّما ... جَهْلٌ بعيد اليوم أَنْ نتشَوَّقا
أصبحت حيث النَّفس لا تخشى أذًى ... أبداً وحيث الفكر يغدو مُطْلقا

ولمّا أدرك أبو ماضي في قرارة نفسه بعد وصوله إلى نيويورك بأيّام قليلة أنَّ أرض شوارعها لم تكن في الحقيقة مفروشة بالذَّهب منتظرة حَسْبما قيل له كُلّ عابر سبيل لكي يضع منه في جيبه ما يشاء بلا مقابل انتقل منها قاصداً «سنسناتي أوهايو» التي كان شقيقه مراد يملك فيها متجراً صغيراً متواضعاً ولدى وصوله إليها التحق على الفور بمتجر شقيقه هذا حيث ظلَّ يعمل عنده مدَّة خمس سنواتٍ متتالية استطاع من خلالها التعرّف على السيِّد نجيب دياب صاحب جريدة «مرآة الغرب».

انتقل أبو ماضي عام 1918م إلى جريدة «مرآة الغرب» وذلك بعد أن وعده صاحبها السيِّد نجيب دياب بإطلاق يده في تحرير جريدته تلك كما لو كان صاحبها ومالكاً لها..

وفي عام 1920م أصبح أبو ماضي عضواً في الرابطة العلميّة التي كان قد أسّسها في مدينة نيويورك الأديبان الكبيران جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه..

وفي عام 1921م عقد أبو ماضي قرانه على الآنسة «دورا» الابنة الكبرى لصاحب «جريدة المرآة» السيِّد نجيب دياب الذي كان أباً لخمسة إناث..

وحينما أيقن أبو ماضي أن الكرسي الذي كان يجلس عليه في جريدة «مرآة الغرب» قد بدأ يتزحزح من تحته

رويداً رويداً قرّر أن يترك عمله هذا فيها وراح يفكّر بإصدار مجلّة أدبيّة على نفقته الخاصّة، ولقد وجد نفسه يرهن صكّ التأمين على حياته ليوفّر نفقات إصدار أوّل عدد من مجلّته التي سمّاها «السّمير» حيث أبصر العدد الأوّل من أعدادها النُّور بتاريخ 15 نيسان سنة 1929م.

قال أبو ماضي: أجل قد رجعت إلى حَوْمة الصَّحافة لأنّني أحسب كُلَّ يوم أنفقه في غير خدمة قومي وبلادي ولغتي ليس من عمري بل أنا اعتبر الفناء في أمّتي وجوداً والوجود في غير أمّتي فناءً. ولئن تدمني أشواكها أَحبُّ إلى نفسي من أَنْ ينثر عليَّ سواها الورود والرّياحين أنا لأمّتي ضاحكاً وباكياً وأنا لها ضاحكة وباكية.

ظلَّ أبو ماضي يصدر مجلّته الأدبيّة «السَّمير» مدَّة أربع سنوات متتالية كانت كلّها بالنسبة إليه سنوات قاسية عُجاف: «أربع سنوات (قال أبو ماضي) لم تنفتح فيها المسامع إلاّ على أنباء الكوارث ولم تقع الأيدي إلاّ على الدّموع والجراح فقد أَناخت الأزمة بكلاكلها على التجّار فسحقت كثيرين ورزح تحتها كثيرون وكان من نتائج هذا الكساد تكاثر عدد البطّالين حتى امتلأت بهم شوارع أميركا التي كان النّاس يتوهّمون أنّها مفروشة بالذّهب وصار المرء أينما سار ومشى تمتدّ إليه الأيدي المستعطية وتطرق أذنه هذه العبارة «أنا جوعان» وبين هذه الأيدي الممدودة أيدٍ طالما وزَّعت من قبل الصَّدقات وجادت بالهِبات وبين الشفاه التي خرجت منها هذه العبارة الهائلة: أنا جوعان شفاه كانت إلى عهد قريب لا يخرج منها القول إلاّ أمراً ونهياً»..

ولَمَّا وجد أبو ماضي أن مجلّته الأدبيّة «السَّمير» تلك لن تستطيع أن تعمّر طويلاً نظراً لتلك الضائقة الاقتصاديّة الخانقة ونظراً لكون صاحبها لم يكن يعضده حزب ولا هيئة بل كان يعتمد على بدل الاشتراك الزّهيد لمجلّته تلك قرّر أن يحوّلها من مجلّة شهريّة أدبيّة إلى جريدة سياسيّة يوميّة حيث تمكّن أن يصدر أوّل عدد من أعدادها بتاريخ 2 تشرين الثاني 1936م.

آثار أبي ماضي الأدبيّة

قضى أبو ماضي نحبه فجأةً بالسكتة القلبيّة في السّاعة الرابعة من ليلة الثالث عشر من شهر نوفمبر 1957م.

غادر أبو ماضي هذا العالَم الفاني تاركاً لنا وللأجيال الآتية بعدنا مجداً شعريّاً وأدبيّاً لا يقلاّن بحال من الأحوال عن الأَمجاد التي تركها كبار الشُّعراء الأَفذاذ والأدباء المجدّدين الأخيار في أدبنا العربي الحديث.

عرف النّاس أبا ماضي شاعراً يحبّب إليهم الحياة ويدعوهم للابتسام كلّما رماهم الدّهر بسهم من سهامه الطائشة ولكنّهم جهلوا أبا ماضي الكاتب والقصّاص، والناقد والمصلح الاجتماعي الكبير، والدّاعي إلى الإنسانيّة الموحّدة الخالية من التعصّب والحروب والحقد والضغينة والحسد فظلّ يعمل بجدّ ونشاط وبأسلوب بليغ فصيح على الوصول بالإنسان الفرد إلى مرتبة الإنسان السوبرمان..

وكان أبو ماضي قد بدأ يفكّر قبيل وفاته بحجب جريدته «السّمير» عن الأنظار ليتمكّن من الانصراف انصرافاً كلّيّاً إلى العناية بآثاره الأدبيّة علّه يتمكّن من جمعها في كتاب قبل أن يسحب النِّسيان ذيله عليها..

بعث أبو ماضي عام 1957م إلى الأديب محسن جمال الدِّين الرسالة التالية وذلك رَدّاً على رسالته إليه:

«تسألني عن منظوماتي الجديدة إنَّها أشياء مبعثرة هنا وهناك وبعضها مشى عليه النِّسيان أمَّا «السَّمير» فهي الآن محجوبة لمرض أصابني منذ أربعة أشهر دنا بي من عالم الأبديَّة ولَمَّا برئت منه قرّرت اعتزال الصَّحافة والانصراف إلى العناية بآثاري الأدبيّة بعد أن استوفى نصيبي من الرّاحة».

فهذه الآثار الأدبيّة التي فكّر أبو ماضي بجمعها وإصدارها قبيل وفاته.. ليست سوى «يوميّاته» ومقالاته الأدبيّة التي كان ينشرها تباعاً في مجلّته الأدبيّة ثُمَّ في جريدته السياسيّة «السَّمير».

وقد بلغ بها حدّاً من الرَّوعة والإجادة أسلوباً ومعنًى جعل الأستاذ ميخائيل نعيمه يدلي برأيه فيها قائلاً: فيما يتعلّق بنشر أدباء المهجر الشمالي فلا يوجد سوى مقالات جبران التي تستحق النشر وكذلك أكثر «يوميّات أبي ماضي».

وكان الشّاعر جورج صيدح قد بدأ يجمع آثار أبي ماضي المتجسّدة في مجملها في يوميّاته تلك ولكن لم يتمكّن من أن يجمع منها سوى عدد قليل.

أمّا نحن فقد أسعفنا الحظّ أثناء وجودنا في مدينة نيويورك بزيارة منزل أبي ماضي في بروكلن - حيث استقبلتنا عقيلته السيّدة دورا بالتّرحاب وكذلك فعل ولداه الدكتور ريتشارد والدكتور بوب وكلاهما عالمان فلكيّان يدرسان في جامعة أوهايو ولم يبخلوا علَيَّ بالاطلاع شخصيّاً على جميع أعداد جريدة «السَّمير» التي كان أبو ماضي نفسه قد احتفظ بها في منزله. وبما أنّني لم أتمكّن من الاطلاع على جميع هذه الاعداد نظراً لضيق الوقت لديّ لَجأتُ إلى صاحب الجلالة «المقصّ» فأعانني على الاحتفاظ سِرّاً بما احتجت إليه من يوميّات ومقالات نقديّة واجتماعيّة وقصص ومذكّرات أحمقيّة.

أمّا آثار أبي ماضي الأدبيّة التي كان ينشرها في جريدة «مرآة الغرب» قبل وبعد أن أصبح مدير تحريرها فلم أتمكّن من العثور عليها... لا في مكتبات نيويورك ولا في أيّة مكتبة غربيّة. وقد قيل لي أنَّ الحريق الذي شبَّ في إدارة جريدة «مرآة الغرب» قد أتى عليها جميعاً.

فمعرفتنا لآثار أبي ماضي النثريّة تبدأ بحلول عام 1929م وهو العام الذي قرّر فيه إنشاء مجلّته الأدبيّة «السَّمير».

وإنّني بدوري أتوجّه بالشكر من صميم قلبي إلى دار صادر الغَرَّاء لتكرّمها بإصدار آثار أبي ماضي النثريّة في كتاب مستقل. وهو كتاب قيّم ومفيد تحتاج إليه المكتبة العربية كل الاحتياج.

والله وليّ التوفيق، ونعم الوكيل.

الدكتور عفيف نايف حاطوم
كلية الآداب - الجامعة اللبنانيّة

«فرمونت» أفهمت ؟

سمعان - أجل . فهمت ، عرفت . ولكن لماذا تسكر ؟ الجار داري نائمة ؟

بل - نائم ؟ انه دائماً في قلبي . فيخيّل له انه يريد ان يبرهن

ويشتم شيء لصديقه .

سمعان - الذي أطلقت عليه الرصاص السنة الماضية

بل - ومات الاسبوع الفائت . لقد سمعت ان داري يبكي في

مأتمه

سمعان - هذه علامة سيئة . اذا بكى رجل مثل هذا فالخطر عظيم

وهو قريب منه . فلا بدع اذا سكرت .

بل - الزواج الخمسة ... كبيرة . ولكنني تحدثني بالتوبة

والحياة ... كباقي الناس ممن الذين يكسبون رزقهم بعرق الجباه .

سمعان - «يرفع يديه» متذمراً بالله . ما أصاب هذه الدنيا ؟ اسمع

عندي شيء اريد ان اقوله لك . لدي مقدار من الاوراق

المزيفة التي لا يميزها أحد بينها وبين الاوراق الصحيحة . أبيعكها

بسعر رخيص جداً . ماذا تقول ؟ واذا لم تكن كانت جيبك

خالية فاني امهلك الى ان تصلح امورك . ويمكن أجعلها رخيصة

بل - ولكن يوماً انت الحكومة والسجن !

سمعان - دع عنك الوهم . ليس من الضروري ان تعرفها أنت بنفسك

صفحة بخط يد إيليا أبو ماضي

بضاعتنا ترد الينا

قُلْ للذين يتهامسُون في دوائِرهم الضيِّقة قائلين: لمن تكونُ «السَّمير» وأيَّ الأحْزَابِ تنصرُ؟ إنَّ هذه الجريدةَ ما أُنْشِئَت لِحزبٍ بِعيْنِـهِ، ولا لشخصٍ معلوم.

ليستْ «السَّمير» لطائِفةٍ دون أخرى، ولا لمعْشَرٍ دون معْشَرْ؛ الفكْرَة لا تَعرِفُ حُدُوداً، والأدَبُ لا يعرِفُ حِزْبيَّة.

كلّ الذين نكتب لهم إخواننا في الوطنيَّة، وهُم إخواننا في الألَم والفَرح.

وإخواننا في التَّاريخ وما حَوى. فليس في تاريخنا مجد لا نتقاسمه كلُّنا، وليس فيه مِنْ سيِّئَةٍ إلاّ وتلزمنَا كُلُّنا.

ليس في تاريخنا بطلٌ أو شاعِرٌ إلاّ وهو لنا كُلُّنا وليس في أرضِنَا جَمَالٌ ليس لكُلٍّ واحدٍ مِنَّا حصَّةٌ فيهِ.

ونحنُ عندما نفْتَكِرُ بأُمَّتِنا في هذا النِّطَاق الواسِع لا نرى فرقاً بين ابنِ الدَّسْكَرةِ المعْتزِلَة المُتنسِّكَة وابن المدينة المتحرِّكة المُزدَحِمَة ولا نجِدُ فريقاً أقْرب إلينا مِنْ فريق. فالكُلُّ للوطن أبناء. والكل بالوطن إخوان.

ولكننا وهذه نظرتنا في الحياةِ اليوميَّة لا نجدُ في شيءٍ مِنَ الحكْمَة أو الصَّواب أنْ نتوقَّع أنْ يكون كلّ النَّاس مِنْ رأْيٍ واحدٍ. ولكنَّنا نتوقَّعُ ونرجُو أنْ يتَّجه الكُلُّ في طريق واحد إلى الأحسن.

وعلى هذا نرحِّبُ بكُلِ رأيٍ يخالف ما نقول به وننشرُه ليكونَ لنا مثل هذا الحق في إبداءِ الآراءِ التي قد لا تتَّفِق وآراء الغَيْر. فنحن نعتقدُ أنَّ حرية الفِكْرِ هي الأساس الذي تقومُ عليه كُلُّ حرِّيَّة.

ولقد مرَّتْ بنا في الصَّحافة أدوارٌ كانت آراؤنا ونظراتُنا الوطنيَّة منْظُوراً إليها مِنْ كثيرين كأنَّها آراءٌ فوضويَّة. على أنَّ هذه الآراء الفوضويَّة يعْتنقُها اليوم أولئكَ المُخالِفُون المُعارِضُون، ويناِفحُون عنها كأنَّها وُلِدَتْ في أحضَانِهم ..

كُلُّ هذا حَسَنٌ وجميلٌ، ومقبُولٌ. وكُلُّ هذا ممَّا يُطْربُنا ويشْرَحُ صُدورنا لأنَّنا لا يهُمُّنا أن تكون الفكْرَة الطَّيِّبة لنا أو لِسِوانا بلْ الَّذي يهُمُّنا هو أن تنتشر ويأخذ بها النَّاس. الفكرة لا تُحْتكَرْ.

السَّمير: 12/ 11/ 1936

النمائم في المطاعم

يذهَبُ بعض النَّاس إلى المطاعم لكي يأكلوا ما طبَخ الطُّهاةُ مِنْ لحوم وأسماكٍ وبقولٍ وحبوب. وبعضهُم يذهبُون لكي يأكُلوا معها لحومَ النَّاس... فتراهُمْ ما عضَّ واحدهم على لُقمَةٍ إلاّ وعضَّ معها على أخلاقِ شخصٍ غائب، وما غيّبَ في حلقومه بلْغَةً[1] إلاّ وأطلّتْ بعدها مِنْ صدْرِهِ سخيمةٌ[2] على أديبٍ أو تاجر. فهُم هناك لينْصبوا ميزان الدّيْنونة لكلِّ مَنْ قصَّروا عنْه في مضمار أو لم يسِرْ معهُم في تيّار. وهم أبداً مِنْ مُحاسبَةِ النَّاس والتَّحكّكِ بالنَّاس في شُغْلٍ شاغِل، وهَمٍّ ناصِب. لكنَّهم لا يربحُون مِنْ هذا الشُّغْل الذي لا يفيد إلاّ خسارة الشُّغل الذي يفيد؛ وأتْعَبُ خلْق الله وأخْسَرُهم مَنْ جعَل عِبادَ الله شُغْله؛ ولَكِنَّ الكثيرين من بينهم يدفعهم الحسد من النَّاس إلى التَّصوُّر بأنَّ الله غير عادل في أحكامه، وأنَّ الحياة مخطئة في أعمالها، فيُقيمون أنفسهم قضاةً في الأرض، ويخْلو لهم الجوُّ في المطاعم فيُصدِرُون الفتَاوى والأحكامَ بأسرع وأهونَ من مَلْءِ القدح خمْراً، وذَرِّ الملح على الصَّحْفة.

ولَكِنَّ أحكامَهم لا تجيء إلاّ طائشة، لأنَّهم قبل الأكل يكونون جياعاً. وليس مع الجوع حكمَة ولا تعقّل. وبعد الأكل يكونون في حالة أقرب إلى التُّخْمة والتُّخْمَة تجعلُ الذّهن خاثراً كليلاً.

هي فترةٌ قصيرةٌ بالكاد تكفي لازْدِرادِ الطَّعام ولَكِنَّ هؤلاء الفلاسفة يحاولُون أنْ يحلُّوا في أثنائها كل قضايا الجالية الكبرى. وأنْ يفضُّوا كُلَّ مشكِلات العالم الخطيرة. فيتعذّر عليهم هَضْم الطَّعام! هذه فئةٌ من النَّاس فيها من النَّحل غدواتُه وروحاتُه ولكِن إلى غيْرِ الخيْر وفيها طبيعتُه عندما يُشْرِعُ حُمَاتَهُ[3] للَّسْع ولكنْ ليس لها جنَاه.

وفيها مِنه شرَهه إلى ما عِندَ غيْره. فهُمْ فئة يحومُون على الأزاهِرِ ليمتصُّوا حلاوتَها فإذا لم يبْقَ فيها حَلاوة هجرُوها إلى سواها.

كُلُّ النَّاس عرْضةٌ للوقوع تحتَ أنيابهم. وكلُّ النَّاس يخفّون في موازينِهم ولا يرْجحُ أحد في ميزان إلاّ إذا كانوا هُم معه في الكِفَّة. وبكلِمَة أخرى ما اعتَرَفوا لأحدٍ بفضلٍ إلاّ وجَعلُوا ذلك الفضلَ مُنْبثِقاً منهُم وصاعِداً عنْهُم. فهذا الأديبُ لم يرتفعْ له شأنٌ إلاّ لأنَّهم نصرُوه. وذلك التَّاجرُ لم ينجَحْ لأهليّةٍ فيه بل لما فعلُوه هُم في سبيله.

يذكرون النَّاس وينسوْن أنفسهُم لأنَّهم على ما يظهَر ليس لهم ما يستحقُّ الذِّكْر.

أمَّا لماذا لم يرتفِع لِهؤلاء الفلاسفةِ علَمٌ في دولةِ الأدبِ ولا خفَقتْ لهُم رايةٌ في ميدان التّجارة فذلِكَ

---

1 البُلْغة: ما يكفي لسدِّ الحاجة ولا يَفضلُ عنها.

2 السَّخيمة: الحقد والضَّغينة.

3 والحُمَةُ كُثْبَةُ السّمِّ أو الإبرة ج حُماة.

أمرٌ لا يجب أن يُسْأَلَ عنه أحد.

ولعلَّ الله أراد أن لا يكُون لهؤلاء في دولة الأَدب مكَانٌ ولا في دولة التِّجارة عَلَمٌ. رحْمَةَ بهذه وبتِلْكَ معاً.

وهكذا شاءَتْ حِكْمةُ الباري أنْ يظَلَّ في الأرضِ كثيرٌ مِنَ المَعايب والسَّيِّئات والآفات لأَنَّها إذا خَلَتْ منْها صارَتْ جَنَّةً ومات الشَّوق في النَّاس إلى الفِرْدَوس!

ننصَحُ لأَصْحابِ المطاعِم أن ينضَحُوا الأَغطية والصُّحون بماءِ الكبْريت بعد خرُوج هؤلاء لعلَّها تَتَطَهَّر، فجراثِيم النَّهائِم لا يُطهِّرها ماء النَّهر ولا ماء المطر.

ونقول لهؤلاء العضَّاضِين النهَّاشين ارْحَموا أنفسكم لا تذهبوا إلى المطاعِم وصُدُوركُم مُوْغَرة بالغلِّ لأنَّ الطعام على الغِلِّ يُورِثُ سوء الهضم وسوء الهضم مَجْلِبٌ للعِلَلْ.

السَّمير: 23 / 11 / 1936

ساعة خلوة

أنا الآن جالسٌ إلى مكتَبي. أنظرُ إلى الرَّسائِلِ المُتناثِـرة المُتلبِّدة فوقها كأوراقِ الشَّجَر فأحَارُ بأَيِّها أَبْـدأُ وعلى أيّها أُجيبُ.

كُلُّ شيءٍ حولي في هذه السَّاعة مِنَ اللَّيل جامِدٌ ساكِنٌ إلاّ القلمَ الذي يجْري على القِرْطَاس. وإلاّ دُخانَ السِّيكارة الذي يتصَاعَدُ ويتلَوَّى كالأفاعِي.

والتفِتُ بين فَينةٍ وأخرى فَيَقعُ نظَري على المَوْقِد الصَّغير الواقِف إلى جانِبِ الجِدار كَيهُودي عند حائِطِ المَبْكى.

واصْغي فلا أسمعُ إلا عَنِيْن التُّرام وزئيره كُلَّما مرَّ وما أكثَر ما يمُر.

فكأنَّه يريد أن يثْبِتَ لي دُون سائِر النَّاس أنَّه باقٍ في أتلنتِك أفْنيو ولم يندثر بَعْدُ.. فاذْكر أنا أنَّه سوف يندثِرُ في هذا الحي كما اندثر في كل مكان..

وما التُّرام إلاّ فكرةٌ بُلِيَتْ لتقُوم مقامها فِكْرةٌ أجْمل مِنْها وإنَّ في إسْتِغناءِ النَّاس في مواضِع كثيرة عن هذه المركَبَة التي تسيرُ بدون أن تجرَّها الجنُود والخيُول. أو يوقَدُ فيها فحْمٌ أو حطَب. لعبْرةٌ بالِغَةٌ للمفُكِّرين. وصَدْمَةٌ مؤْلِمةٌ لأَصحابِ العقُول الجامِدَة ففِي زَوالِها بهذه السُّرعة مِنَ الأَرض بعْدَ أن مرَّتْ الأَجْيال والنَّاس يحِنُّونَ إلى وُجُودِها بُرهَانٌ على مَبْلغ السرعَة الهائِلَة التي تسيرُ بها المدِينة إلى الأمام. ودَليلٌ ناصِعٌ على أنَّ العقْلَ البشريَّ لن يقِفَ عنِ النموّ وسيظلّ يخترعُ ويبتدع ما توالى اللَّيل والنَّهار.

عجباً.. لقد بدأتُ بذِكْرِ هذه الرسائِلِ لأَتكلَّم عنها فإذا بي لا أتكلَّم عنها.

لا بأس فما هذا التُّرام غير رسالة مفكِّرٍ إلى البشريَّة تمتَّع بها النَّاس زماناً وسهَّلَتْ أمامهم أنْ يفتحُوا

الشوارع ويَبْنُوا الدُوْر ويُعمِّروا الأراضي المَهجُورة ولكنَّهُم الآن ينصرِفُون عنها لأنَّ رسالة أخرى لِمُفكِّر آخرَ قد أغْنَتهم عنها.. والنَّاس أبداً يتبعُونَ الأَحسَنَ والأهْوَن.

قلْتُ إنِّي وحدي. والواقِعُ أنِّي لسْتُ وحْدِي. ففِي هذه الرَّسائِلِ التي أمامي شخصيَّاتٌ تتحدَّثُ إلَيَّ في هذا الوَرَقِ الصَّامِتِ أَحادِيْثَ فيها المُعْجِب وفيها المُطْرِب.

فهذه رسائل تترَقْرَقُ رُوْحُ الصَّداقة في سُطُورها ترَقْرُق الماءِ الصَّافي في كأسٍ مِنْ بَلُّور. وهذه رسالة يكادُ يَعْبَقُ مِنْها أرِيجٌ لأنَّ رُوحَ صاحِبِها كالزَّهرَة النَّدِيَّةِ في لطافتِها ووداعتِها.

وهذه رسالةٌ يحَاوِلُ صاحبها أن يُصوِّر سُروره بـ«السَّمير» ويتخَيَّرَ الكلام فإذا الكلام لا يعنيه. وإذا كُلُّ كلام دُون ما يَبْغي أنْ يقُول.

وهذه رسالة موجزةٌ ليس فيها غيرُ التَّحيَّة كأنَّ صاحبها يقول: إنَّ الكلام عبثٌ فَلْنَعْملْ لكي ننصرُ العاملين في حقْلِ الأدب والصَّحافة.

وهذه رسالة يُشيرُ فيها صاحبها إلى بعض الهنات المطبعيَّة في «السَّمير» ويكاد يقفِزُ معَ رسالتِهِ إلينا ليُصْلِح هذه الهنات [1] غَيْرَةً مِنْه على الجريدة التي يحِبُّها.

ولو جِئْتُ أُعدِّدُ هذه الرسائِل التي أمامي واذكرُ ما فيها لَوَجَبَ أن أبقى في مكتَبي إلى الصَّباح ويبْقى منها شيءٌ كثيرٌ. ويبقى في النَّفس شيءٌ كثير.

كاد يمرُّ الشَّهر على السَّمِير ولم نتحدَّث إلى أنصارِها بكلمةٍ على صفحاتها لأنَّنا أردنا أن تتحدَّث هي بمَا تحملُه إليهم من الآثار الطَّيِّبة والآراء والأخبار لِرَهْطٍ كبيرٍ مِنَ الكتَّاب.

فإنَّنا كما تشهَدُ أعدادها سائِرون بها مِنْ حسَنٍ إلى أَحْسن وسَنظلُّ نمشي بها إلى الأمام حتى تبلغ أبعد مدى تستطيع جريدة عربية في المهجر بلوغه.

وليس هذا بالأمر الكبير إذا أيَّدَنا الأنصار المُخلِصُون وتَضَافَرُوا على أن تكون جريدتهُم أعظم جريدة يوميَّة مِنْ كُلِّ وجْه.

السَّمير: 7/ 12/ 1936

حكايات كالأساطِير

لا جِدالَ في أنَّ الخيال في بلادِنا خصبٌ جداً وربَّما كان أخْصَب شيءٍ عندنا لأنَّ معظم ثروتنا مِنْ مخترعاته. غَيْرَ أنَّه خيَالٌ جَمُوحٌ غَيْرُ مُتَّزن ولا رحمة عندَه وليس للحقائِق قيمة في ميزانِه..

ولا يظُنُّ القارئ أنَّنا نتكلَّم عن أهلِ المبالغات مِنَ الشُّعراء الذين يسيِّرون النُّجُوم مواكِبَ في الأرض أو يُعلِّقُونها عقُوداً في نُحُوْر ليبَرْهِنُوا عن مقدرَتِهِم في الفن وعَن هُيامِهِم بالجمال أو يزلزِلُون

[1] الهَنات: الداهية ج هَنَوات.

الجِبال ويُصدِّعُون السماوات عندما يريدون الدَّلالة على أنَّهم في حُزْنٍ على مفقُود.

لا، نحنُ، لا نتكلَّم عن هولاء الشُّعراء الآن بل عن قَوْم يزاوِلُون الكتابة لهُم ولَعٌ بالتحدُّث إلى النَّاس عن الشُّعراء والكتَّاب وإنْ لم يتَّصِلُوا بهم وإنْ لم يعْرفُوا أين يقيمُون. أو شيئاً عن حياتِهم فترَاهُمْ يعتمِدُوْنَ الخَيالَ وحْدَهُ. ذلك الخَيال الجَمُوح العياث ويذهبُون يروون أحاديث لَمْ تُقَصّ وحِكايات لم تَقَعْ. يخلُقُها لهم التصْوير ويَصْعُب عليهم أنْ تبقى خفيَّة كأنَّها لم تُخْلَق فيُذيعُونَها ويتدَاولُونها كأنَّها حقائِق.

يدْفعُنا إلى هذه الكلمة حكاية كَتَبها أديبٌ في بغْداد عن مُنْشِئ «السَّمير» اشْتَمَلَتْ على مفارَقات غريبة وألغازٍ عجيبة فقد جَاء فيها أنَّ إيليا أبو ماضي كان مرة في الولايات المتَّحدة على نهر المسسبي؟! وأنَّ سيدة أميركية جميلة رأتْهُ مُطْرِقاً يفكِّر فسألتهُ مُسْتفسِرة فنظَمَ لها قصيدة بالإنكليزية!

وتقدَّم الكاتِبُ بهذه الحِكاية المصنُوعة إلى النَّاس كأنَّه جَاءَهم بآيَةٍ مُبيْنَة.

واليوم نقرأُ حِكاية أخرى عَنَّا مِنْ هذا الطِّراز في مجلة «المعارف» فيها الشَّاعر وفيها سيدة لبنانية مثقَّفة. ولكنَّها مِنْ مُخْتَرعَات ذلك الخَيال الجَمُوح أيضاً.

وقد قرأْنا الحكايتين وضحِكْنا كيف يتخيَّلُنا النَّاس ويتصوَّرُون كيف نعيشُ وننْظُم ونكْتب. وقد حَمَلَتْنا هذه الحكايات الغريبة على التَّفْكير في ما نقرأه مِنْ أمثالِها عَن سِوانا. وقَادَنا التَّفْكير إلى الشكِّ في صحَّتِها ولا سيَّما الحكايات المَنْسُوبة إلى أُناسٍ ذهَبُوا مِنْ هذه الدُّنيا ولَمْ يعُدْ في مقدِرتِهم أنْ يُكذِّبُوا ما يُلَفَّقُ عنهم.

إنَّ خيالنا خصبٌ ولكنَّه أحياناً يُنْبِتُ أشواكاً.

السَّمير: 11/ 1/ 1937

مِنْ لَوحِ الذَّاكِرة

لَمَّا زرْنَا قَبرَ الجندِي المجْهُول في أرلِنْغتُون شاهدْنا هناك سيَّارات مِنْ كُلِّ ولاية في الإتحاد الأميركي. ولكنَّك في الولايات المتحدة لا تَرى شيئاً مِمَّا تراهُ في سواها مِنْ اختِلاف الأزياء بل ترى القادِم مِنْ غرب البلاد في مثل ملابس القادم مِنْ شرقِها. أمَّا الوجُوه فلكُلِّ عُنْصرٍ سِماتُه وملامِحُه وليس في هذه البلاد ولاية أو منطقة استأْثَرَ بها عنصر واحد.

ولقد مرَرْنَا بالبيتِ الأبيض فإذا هُو ليس أظْهَر ولا أرْوَع بناء في العاصمَة وإن كان أشْهَر مِنْ كل بناء في العالم.

وكنَّا نَودُّ أن نزُور المكتبة الكبْرى للكُونغْرِس ولكنَّنا خِفْنا أن نستغرِقَ فيها فننسى كُلَّ شيء... وهكذا أَضعْنا فرصة في ضياعها ضياع لذاتٍ روحيَّة وعقليَّة كثيرة.

في أمثالِنا «كل الدُّرُوب تؤدِّي إلى الطاحُون» وهو مَثَلٌ لا يَصْدُقُ على دُروبِنا ولكنَّه لا يصدق لأنَّ صوت الطَّاحُون هو الذي يحمِلُ النَّاس في الدُّروب إليه.

وبناية الكابِيتول في واشنطون كالطَّاحون كل الدُّروب تؤدِّي إليها لأنَّها كُلّها تنتهي عندها. وأينما كُنْتَ في واشنطون والتفَتَّ استقرَّ بصرُكَ على قبَّة الكابِيتُول وهي تستحِمُّ بالأنوار.

وممَّا لاحظناه أنَّ النَّاس في العاصِمة لكثرة ما يشاهِدُون تلكَ المَبَاني الفخمَة العجيبة صارَتْ عِنْدَهُم مِنَ الأشياء العاديَّة المألُوفة كما هي بناية أمْبِير ستايْتْ في نيويورك عند سُكَّانها وتمثال الحرِّيَّة وأَنْفاق الصَّبواي وغيرها مِنْ عجائِب العصر الحديث فترى واحِدَهُم إذا سألَه الزَّائِرُ عن بناء أو أثرٍ تعجَّبَ من أشدَّ العَجَبَ وسرُّ تعجّبه عائدٌ إلى روعة الأثَرِ التي كانت قد ذهبت مِنْ نفسِهِ وذلك لإلْفَتِهِ إيَّاه والإلفة كما يقولون تُذْهِب الكُلْفَة [1]!

وكان أوّل شخصٍ خاطَبْتُه وسمعْتُ الرَّنَّة العربيَّة الحبيبة إلى أُذُنَيَّ صديقي الشَّاعِرُ الكبير مسعود سمَاحَه الذي تنكَّرتُ له على التلفون فأفضى إليَّ بأشياء وهو يظُنُّ أنَّه يحدِّث صديقا آخرَ في واشنطون.

ولكن أعجَب وأفخم ما رأيناه شخصية فيها جلال الشَّرق وروعة عصر اليازجيين والبستانيين وهي شخصيَّة رجل ضرير ألا وهو الأستاذ سليم حدَّاد الذي ما يزال محتفظاً بذاكرته القويَّة بالرغم من أنَّه قد جاوز الثمانين من عمره.

جلسنا إليه في دارِهِ يحِفُّ بِهِ أولاده الأكارِمُ فكنَّا نتصوَّر وهو يُحدِّثُنا عن صِباه عن البستانيين واليازجيين أنَّنا نعيش في عصرِهِم.

وهو كثير الحديث عن ذلك العَصْر وأهلِه. وقد قَصَّ علينا عنهُمْ حكاياتٍ لم نُدَوِّن مِنها إلا هذه النَّادِرَة التَّاريخيَّة وهي:

أنَّ أخاه المرحوم حنا حدَّاد الجهبذُ اللُّغَوي المشهُور كان من أعضاء الجمعيَّة الأدبيَّة العلميَّة التي أسَّسها الأمير محمد أرسلان والشيخ حسين بَيْهَم والمعلِّم بطرُس البُسْتَاني في بيروت سنة 1868.

وكانت أول رواية مثَّلتْها هذه الجمعية هي رواية «الاسكندر وداريوس».

وكان الأستاذ حنَّا حدَّاد مِنْ مُمثِّلي الرِّواية فمضَى فاسْتَعَار عباءَة مِنَ الشيخ نصَّار اليازجي وهو أكبَرُ أنْجَال المرحوم الشيخ ناصيف وقد توَفَّى إخوتُه كُلُّهم بالسلِّ إلا نصَّار فإنَّه مات بالحُمَّى في زَحْلة حيث كان ضامناً أراضي في البقاع.

وحدَثَ أنَّ حنَّا نسِي أنْ يردَّ العباءَة إلى الشيخ نصَّار الذي كان موْصُوفاً بمَيْلِهِ إلى الدُّعابة [2] والمُجُوْنِ [3] فلمَّا طال الوَقْت كتب إليه ما يلي:

---

1 والكُلْفة ما تكلَّفته من نائبة أو حقّ.

2 الدُّعابة: اللَّعب؛ وداعبه مازحه.

3 مجن مُجونا صَلُب وغَلُظَ ومنه الماجن لمن لا يبالي قولاً وفِعْلاً كأنَّه صلْبُ الوجه.

عباءةٌ ذهَبَتْ عنّي وما رجعت فيا ترى ما بها الأيّام قد صَنَعَتْ
سارَت لجمعية الآداب طالِبَةَ بحْر العلوم وظنّي أنّها ابتُلِعتْ
أمْ أنّها قد أصيبَتْ من عساكركُمْ فمزَقتها المواضي حينما سطعَت [1]
فإن تكُن قد قضَتْ نحباً نناشدكُمْ بدفنِها عند من في داره قَبَعتْ!
اللَّهم يا أرحم الرّاحمين ردَّ علَيَّ عباءَتي آمين واحفظها
مِنَ العثِّ والنَّار والزيوت كما حفظت يونس في بطن الحوت وإن
تكُن قد توالَتْ عليها الأيام فأنت قادر أن تحفظها كما حفظتَ أصحاب
الكهف بعد أربعمائة عام اللَّهُمَّ رُدَّ علَيَّ عباءَتي آمين!

ولعلّنا نتمكّن من زيارة العاصمة مرة أخرى فتكون لنا كلمةٌ مشْبَعةٌ بل كلمات لأنَّ في كُلِّ حجرٍ مِنْ مبَانِيها مجالاً واسعاً للفِكْرِ والقلم.

السَّمير: 23/ 1/ 1937

الإغراق المذموم في الشّعر

كثُرَ الإغراق المذمُوم في الشِّعر العربي بعْدَ طُغْيان أمواج الأدب الفارسي على الحياة العربيّة. أمّا قبل ذلك فكان الشعر العربي تفيضُ فيه روح البَداوة البعيدة عن التكلُّف والتَّصنُّع الخالية مِنَ الزُّلْفى [2] والمَلَقْ. لأنَّ الشَّاعر العربي كان في ذلك العصْرِ مطلُوباً لا طالِباً. ومقصُوداً لا قاصِداً. لا يُطوّع خاطِرَه ولا يُسخّر طبعه مِنْ أجل هِبة أو عطيّة أو مجلس شراب. ولا مِنْ أجل ضيعة أو ولاية.

وكان في قبيلته كالقائِد في جُنْدِه. يسلّيها ويُطرِبُها وهو فيها. ويمثّلُها أحسنَ تمثيل عندما يغيب عنها. وكانت هي شديدة الإعتزاز به لأنّه ناشرُ مكارِمِها وفضائِلها. والمحدّثُ عن عاداتِها وأطوارِها. والذّائِدُ عن حيَاضِ مجدِها وكرامتِها والمدوّنُ حكاياتها وحوادِثها ووقائِعها بأسلوب مِنَ الشِّعر ساذَج ولكنّه صادق.

فلمّا جاء شعراء الغُلُوّ والإغراق. اختلَط الأمر اختلاطاً فسَدَ معه الشعر وانْمَسَخَت حقيقة الشّاعر. فصار مِنَ المُتعذّر على مُطَالِع شِعرِهِ بعد حين أنْ يتبيَّن في وضوح صورة الشَّاعِر وصورة عصرِهِ وناسِهِ الذين كان يعايِشُهُم لأنّه كان يُهْمِلُ الأمر الواقِع الذي بيْن يدَيْه ليَصْطَنِع أموراً لا وجود لها أو يخلَع على الحقائِق أثْواباً مِنَ المُبالغَات تغيبُ فيها وتبدُو كأنَّها سواها.

وكان لا بُدَّ في هذه الحالة مِنْ تصنيفِ مَعانٍ وأقوالٍ لا يقرُّها العقل مثل هذا البيت الذي ولَّدَتْهُ

---

1 والماضي السَّيف ج مواضٍ.
2 الزُّلفى: القُرْبَة والمنزلة والطائفة من اللَّيل.

مُخيَّلة المُتنبِّي وهو:

وأعجَبُ منك كيف قدرت تنشا وقد أُعطِيْتَ في المَهْدِ الكَمَــالا

اجتاز هذا البيت ألف سنة مِـنَ الدَّهر وهو مشمُولٌ بالإعجاب ومشهُودٌ لصاحِبه بالقُدْرة على ابْتِكَار المعَاني لأنَّك عندَما تُلْقِي عليه نظرة تأْخُذك مِنْه روعَة الأُسلُوب ويُبْهِرك المَعنى الجديد وتهزُّك رنَّة الوَزْن فتترنَّم بِه طرَباً وأنت ذاهِلٌ عن موضع القُبْحِ فيه لأنَّ عقلك النَّاقِد المُمَحِّص لم تُتَح له فرصة يتمكَّن بها مِنْ نقدِهِ وتمْحِيْصه.

يتعجَّبُ المُتنبِّي في هذا البيت كيف قَدَرَ ممدوحه أن ينمُو ويكبُر وهو قد أُعْطِيَ الكَمال في المَهْدِ. وأنتَ لو بحثْتَ عن كَلام لا يفيد شيئاً لما وَجَدْتَ نمُوذَجاً أتَمَّ منْ هذا البيت فهو سخْفٌ ما بعْدَهُ سخف وكلام أشبه بكلام السّكارى والمجانين ففي صَدْرِ هذا البيت نسَبَ الشَّاعِرِ إلى مَمْدُوْحِهِ القُدرة على النشوءِ والنُّمُو وذلك بقدرته وليس بقدرة قادر.

وإذا انتقلْنا مِنْ صَدْر البيت إلى عَجْزِه إنتقَلْنا مِنْ ورطة مضحِكَة إلى ما هو أعظَم مِن الورطة المضحكة لأنَّنا نترك الشَّاعر يتعجَّب مِنْ أمرٍ معقولٍ لِنَجدَه يقرِّر أمراً غَيْر معقول ولا سبيل إليه حتى في الحُلُمْ الذي يجُوزُ فيه كل غريب. فقد زعَمَ الشَّاعر أنَّ مَمْدُوحه أُعْطِيَ الكَمال في المَهْدِ. فألْقَى عليه وشَاح الألوهيَّة وجعَلَ الكَمَال كأنَّه خَرزَةٌ تعلِّقها الأُمُّ في عُنُقِ الطفل. أو أنَّه صفة وراثيَّة تنتقِلُ مِنَ الآباءِ إلى الأبْناء. وناسياً أنَّ مَمْدُوحه ليس سوى بَشَرٍ كسائِرِ النَّاس وإنْ وُلِدَ في مَهْدٍ مِنَ الذَّهَب. ولا كَمَال لإنسان. وأنَّه هُو أيضاً إنسان لم يبلُغْ الكمَال ولن يبلُغَه وليس في مستَطَاعِه أنْ يتصَوَّر حالة الكمَال وإنْ كان شاعِراً فذّاً.

ولكنَّها وساوس ازْدَحَمَتْ في رأسِه فسَاقَها إلى ذلك المَمدُوح بيتاً مِنَ الشِّعر هو مِنَ الخُزَعْبَلاتِ[1] والشَّعْوذَاتِ والمخرقات[2]. ولكنَّه جازَ على سامِعِيْه وعاش عُصوراً طويلة. وكم مِنَ الخُزَعبَلات التي يحتفِظُ بها النَّاس كأنَّها تُراثٌ مقدّس.

كم مِنَ الخُزعْبَلات التي لَو هُوجِمَتْ كما هُوجِمَ هذا البيت مِنَ الشِّعر لقامَتْ قيامَة النَّاس على النَّاقِدِ فرمَوْه بالكُفْر واتَّهَموه بالزَّنْدَقة. أو قالوا عنْهُ إنَّـهُ معتُوْهٌ مأفُون. لذلك تجِد كثيرين مِنَ الفُهَماء يقفُون أمام أصْنام الخرافَات كأنَّهُم أصْنامٌ مِنْ طِين لأنَّهم يخْشَوْنَ أنْ تتحطَّم رؤوسهُم إذا هم وثَبُوا عليها فحطَّمُوها!!!

السَّمير: 25/ 1/ 1937

---

1 الخُزَعْبَلة الأضحوكة.

2 خرَق الشيء: إدّعاه كذبا.

العُيون السُّود

سَمِعَتْ إحدى السَّيدات المُنْشِد المعروف يوسف سلْوان يتغنَّى بقصيدةٍ لصاحبِ «السَّمير» مطلعها:

ليت الذي خلق العيون السُّوْدا خلق القلوب الخافقات حديدا

فاعترَضَتْ قائلة ـ لماذا كُلّ هذا التَّغنِّي مِنَ الشُّعراء بالعيُون السود. ما بال العُيون الزُرْق! أَليسَ فيها سحْر أليس فيها جَمَال؟ ألا تستهوي القُلوب كما تستهْوِيها تلك؟

بلى. كُلُّ عيُونهُنَّ جميلة وكُلّها فيها سِحْر

العيون السود التي تطلُّ منْها الأحلام سكْرى

والعيون البنفْسَجيَّة التي تتمشَّى في جوانِبها الحيرة

والعيون العسليَّة التي تطفو الأسرار فيها وتغيب

والعيون التي يثِبُ قلبك إلى عينيك عندما تراها

والعيون التي تحومُ عليك كأنَّها نسورٌ جبَّارة

والعيون التي تتوارى وراء أهدابها أشياء لتُوقِظ في روحك اشياء لا تتوارى

والعيون التي يتراقص فيها الهوى ويكاد يعربد

والعيون التي يمشي فيها الأمل الذاوي كالعليل المضنوك

والعيون التي يبدو فيها الأمل مستتراً باليأس واليأس مستتراً بالأمل

والعيون التي اسْتغرَقَتْ في الحيرة فلا أمل بادٍ فيها ولا يأس

والعيون التي تنظُر إليك كأنَّك أنت الملجأ الوحيد لها

العيون... كُل العيون...

التي تفيض حناناً

والتي تتدَّفق مهابةَ

والتي أمسكها الخوف مِنَ الغدْر فلم تتدَّفق

العيون التي تخترق قلبك كالسِّهام

والعيون التي تهزُّك كأنَّها تيار كهربائِي قوي...

أجل. كل العيون فيها سِحْر. وكُلها فيها قُوَّة على الإخْضَاع والفتْك. وإنَّما الشَّاعر ـ لسوء الحظ أو حسنه ـ عندما نظَم تلك القصيدة كان تحت تأثير العيون السُّود وحدها...!!!

هذا وطوبى [1] لمَنْ قال:

حب العيون السُود يحرق مهجتي وهوى العيون الزرْق يحرق...! [2]

السّمير: 4/ 2/ 1937

هَزْل في جِدّ

ضيف ولا كالضُيوف جاءَ إلى إدارة «السّمير» ولم يرجع. فارق العشير والأليف والمرتَع والمسْرح لم ينقُلْ معه حقيبة. ولم يحمِلْ صرَّة. ولا وضعَ نُصبَ خاطره مكاناً معيّناً ليَصلَ إليه ويستَريح. مَرَّ بالقُرى والدّساكر فما رآها. وبالحقُول والمَزارع فلَم يعلمْ بمُروره أحد لأنَّه جاء محْمولاً في قفَص كالسُلطان بيازيد عندما حَمَلَهُ جنكيز خان إلى بلادِهِ أسيراً.

ووقَفَتْ سيّارة أمام إدارة «السّمير» وخرَج منها صديقنا السيد خليل عقل القادِمْ مِن هُومر نيويورك وصَعَد إلى الإداره يحملُ في يَدِهِ علبة كبيرة مِنَ الكَرتون مثقُوبة الجوانب ثم رفَعَ غطاءها فأطَلَّ منها ديك وديك. طويل العُنُق تلمعُ في رأسِهِ عينان متوقّدتان كأنّهما جوهرتان صافيتان. سمينٌ في غيْرِ انْدِلاق ولا اندفاق. مُتّزن المشيَة لطيف الطلعَة. لا نفار فيه ولا شراسة. حتى كأنّما هو مُتخرّج مِنْ كُلّية الآداب في باريس. وكأنَّه في ريشِهِ الأحْمرِ الحبيك فارس في درع مِنْ نسيج الشَّفَق أو مِنْ جامد العاق.

وأطلقْناه فمشى يخطر في أرض المكتب غير مُتَهيّبْ ولا مُسْتَغْرِب والعُيون تنظر إليه وتكاد تَلتهمه لحَلاوته ورشاقته. ولمّا عرَف الحضور أنّه هدية إلى صاحب «السّمير» مِنْ صديقِهِ صاحب قصر الدَّجاج في هومر كادَ يسِيلُ لُعابهم وترقص أسنانهم شوقاً إلى لحمِهِ الطريء الذي لو لم يمسكه اهابه [3] لذاب. وكثُرَ العاطِفُون عَليه والمُعجبون به والرّاغبون في جلب الماء والحَبّ إليه كعادة النَّاس عندما يرجُونَ مَغنَماً أو يتوقَّعُون قضاء حاجة.

وكان مِنَ الواجِب أن تمتدَّ حياته إلى ثلاثة أيّام على الأقل لأنَّه ضيف ولَكِنَّ ضيق المَنازل في نيويورك وخُلوها مِنْ مكان لِذَوات الأجنحة حالَ دون هذا الأمر فمشتْ السكّين في عنُقِهِ في اليوم الثاني وصار الذي كان يسير على الأرض هيكلاً حيّا تسير به الصُحون مَرَقاً ولحْماً. وعظماً وشحْماً. وصارَ رأسه في جوف. وغابَتْ بقيّة أعضائِه في أجوافٍ اخرى. وانتقَلَتْ اللّذة مِنَ العُيون إلى البُطُون.

وهكذا تَخرَب جُسُوْم لِتَعْمُرَ جُسُوْم. وتَزْهَق أرواح في سبيل أرواح.

فقُلْ لِقَوم يجُودُون بالفُضُوْل مِنْ مالِهم أنظروا هذا المَخْلُوق وخذوا عنْهُ أمثولة في السَّخاء فقد جادَ

---

1 طُوبى: والطُوْبى الطِّيبُ وجمع الطَّيّبَةِ وتأنيث الأَطيب والحُسْنى والخير وطُوبى لك وطُوباك لُغتان.

2 فلعلَّ الشاعر المجهول أراد أن يقول في عَجُز بيته هذا: «وَهَوى العيون الزُرق يحرق دِيْني».

3 الإهَاب: ككتاب الجلد أو ما لم يدبغ ج آهِبَةٌ وأُهُبٌ وأَهَبٌ.

بروحِهِ ولسان حاله يردِّد قول السَّمَوْأل:

تسيلُ على حد السُّيوفِ دماؤنا وليست على غير السُّيوفِ تَسيلُ

أمَّا صديقنا صاحب الدِّيك خليل عقل فيجدُر بنا وقد نَعَيْنا إليه صاحب الطَّيْلَسان الأحمر أن نُعزِّيه بأنَّه إنْ كان قد تلاشى فقد تلاشى في قوم أحياء عاقلين مُدْركين يذكرونَ الدِّيك فيترحَّمُون عليه ويشكرون صاحبه الذي وهَبَهُ كريماً. وهذا خيرٌ مِنْ أن تفترسه الثَّعالب أو ترعَى في لحمِهِ الدِّيدان والحشرات. أو يغيب في بُطُون أناس لا يذكرون ولا يشكرون.

السَّمير: 25/ 2/ 1937

أحِبُّوا أعداءكُم

ما تردَّدت هذه العبارة في مَسْمع إنسان إلا ووقَف عندها مسْتَغرباً كيف يمكن أن يحب الإنسان عدُوَّه ورجع يقول ـ هذا أمرٌ مستحيل. هذا فوق الطَّبيعة البشريَّة.

ونحن نقول: إنَّه كذلك ولكنَّه ليس فوق الطَّبيعة البشرية المُدْرِكة معنَى الإخاء العام والحياة المُشتركة.

مَنْ هَو العَدو؟

هو إنسانٌ في بلدَتِكَ أو قريتك أو مدينتك.

هو إمَّا جارٌ قريبٌ أو غير قريب أراد بكَ السُّوء أو ساقَ إليك مضَرَّة. فأنتَ تَحْذَرُه في كُرهٍ وتتربَّص بِهِ الدَّوائِر لأنَّه يتربَّصُ بك الدوائِر [1].

على أنَّك قد نسيْتَ أنَّه إنسانٌ مثلك. كما نَسي هو أنك إنسان مثله وأَنَّ كِلَيْكُما أخٌ للآخر أحَبَّ أم كَرِه.

فإذا أنت أحببته وسَعَيْتَ لنفعِهِ بدلاً مِنَ السَّعْي لأذاه أفَدْتَ إنساناً لا بُدَّ لك مِنْ أن تحمِل شيئاً مِنْ أعبائِهِ مباشرةً أو بواسطة لأنَّه إذا إفتقَرَ وصَار عالةً على الحكومة فأنتَ الذي يعُوْلُه لأنَّك تدفع المكوس والضرائِب للحكومة التي تنفق عليه.

وإذا أصابَهُ مرضٌ مُعْدٍ فمِنْ مصلحتك أن تذُودَ عنْهُ هذا المرض لئِلاَّ يسرِي إليك وتصيرَ أنتَ ضحيَّةً له مثله.

فأنت ترى أن محبَّة العدو التي تحسبها فوق الطَّبيعة البشرية وأمراً مستحيلاً هي في مصلحتك وأمرٌ لا بُدَّ منه.

---

1 الدَّوائِر: الدَّائرة ما أَحاط بالشيء، والحَلْقَة، والدَّاهية. ويقال: دارت علي الدَّوائِر: نزلت به الهزائم.

وإنما يختلِفُ تفسير هذه الآية بإختلاف العُقول فمَنْ إتَّسعَ مدى فِكْرِهِ في الحياة وجَدَ أنَّ العدو كالحبيب يلزَمُكَ مِنْ أمرِهِ ما يلْزَمُه مِنْ أمرِك في هذه الحياة المشتركة المُتشابكة المُتداخِلة.

ثم يرى أنَّ المحبَّة أحسن وأشهى ثمراً.

هَبْ أنَّ لكَ عدُواً تكرهُهُ. مررْتَ بهِ يوماً فوجَدْتَه مَطرُوحاً في الشارع مُهشَّماً مرْضُوضاً أفلا تسرعُ إلى إغاثَتِهِ. أفَلا تدْعُو النَّاس إلى إعانتِه. أفلا تُشْفِقُ على هذا الإنسان المُجرَّح؟

إذن فلماذا تنتظر إلى أن يسقُطَ طريحاً مُجرَّحاً مُهشَّماً لتحبه أو لِتشْفِقَ عليه.

أحبِبْهُ وهو سليم فإنَّ الحُبَّ فيك له إذا أفادَهُ ذَرَّةً أفادكَ قِنْطَاراً. لأنَّ مُجرَّد طَردِ البَغْضاء مِنْ قلبِك هو أشرف ما تفعله نحو نفسك. فأحبِبْ عدوك وكُنْ له نِعْمَ النَّموذج والمِثَال.

أحبِبْهُ تشعر بفرح وغبطة وإنْ لم ينلْهُ مِنْ حُبّكَ فائدة.

إذن فهذه الآية ليسَتْ ممَّا يستحيل العمل بها إلاّ على الجاهِلِين. فلا تكُنْ مِنَ الجاهلين.

إقْتَدِ بالمصْلُوب صاحب هذه الحِكْمة البالغة. وليَكُنْ إيمانك بهِ مُرْتكزاً على دَعَامةِ الحُبِّ الشَّامِل والإخاء الكامِل.

السَّمير: 1/ 5/ 1937

كَلِمة إلى الأَبناء عن طريق الآباء

أمَّا وقد خرجَ الأولاد مِنَ المدارس بعضهم على أن يعود إليها ليُكمل ما بدأ به. وبعضهم على أن يدخلَ مدرسة الحياة ليختَار طريقه إلى الأماني التي تجُول في نفسِه. فيجْدُر بنا أن نذكِّرَ الآباء والأُمهات لعلَّهُم يذكِّرون أولادهم بأنَّ العِلم ليس له مكان ينحصِرُ ضمنَ تخُومه ولا زمان معلُوم ينتهي عنده وأنَّ الإكتفاء بالشَّهادات المدرسيَّة هو كاكتفاء صاحِب الحقل بأنَّه يملكُ حقلاً فإذا لم يغرسْ فيه الشَّجر وينقّيه مِنَ الحجارة والأشواك ويسهرُ عليه مِنْ آفات الحرِّ والقرِّ[1]. صار أرضاً موَاتاً وإنْ كان جيِّد التُّرْبة.

كثيرون هم الذين خرجوا مِنَ المدارس والكُلِّيات يحملون شهاداتها الرَّسمية ولَكِنَّ الذين استطاعوا أنْ يشقُّوا في معتركِ الحياة طريقاً جديداً وأنْ يتركُوا في الأرض دوياً قليلون.

ما الفائِدة مِنَ السَّيف المُغْمد والكنز المدفُون؟

إنَّ المدة التي يصرفها الولد في المدرسة هي فترة التَّأسيس والإستعداد للحياة خارج المدرسة.

ومثلما أحسَنَ المُهذِّبون تلقِينه فعلَيْهِ أنْ يُحسِنَ إستعمالها وأنْ يواظبَ على الإستِزَادة منها فما ذهَبَ

1 القرّ: قرَّ اليوم قرّاً بَرَدَ.

بالعِلْم شيءٌ كالإهْمَال.

وهناك فتيان موهُوبُون يجب أن يرعاهم الأهل ويُفسِحوا المجَال أمامهم لتظهَر مواهِبُهم وإلاّ أصابها ما يُصِيْب الورود في بستَان نامَ عنْهُ صاحبه فكثُرَ فيه العشب الطُّفيلي وخنَقَ ما فيه مِنْ رَيَاحِيْن.

وأهم شيء في حياة الناشيء المُتعلِّم أنْ يُدرِك أنَّه يستطيع أبداً أنْ يكون مُتعلِّماً حتى ولو كان في كل خيطٍ مِنْ ردائِهِ شهادة مدرسيَّة. لأنَّه إذا ماتَتْ في نفسِه الرَّغبة في الإقْتِبَاس أو غَلَبَ عليه الشُّعور بأنَّه قد بلغ حالة لا سبيل للزِّيادة عليها فكأنَّه قضى على عقلِهِ بالوقُوف وعلى رغائِبِهِ بالجُمود فتمضي عليه السنوات وهو على ما هو لم يكسبْ شيئاً غَير الشهادة.

فاسْهَروا على أولادكُم بعد المدرسة أكثر مِنْ سَهَرِكُم عليهم عندَما كانوا في المدرسة ولا تكْتَفُوا بأنَّهم أخذوا الشهادات ولا تدَعُوْهُم يَكْتَفُون بها.

السَّمير: 25/ 5/ 1937

عيد تكْريم المَوتى

بعدَ يومَيْن يخرجُ النَّاس مِنْ كُلِّ دار في كُلِّ مكان إلى كُلِّ مقبَرة لزيارة القَوم الذين لا يزورون أحداً وللسَّلام على أناسٍ لا يردُّون السَّلام.

يخرجُون إلى المقَابر مدفُوعين بعامِلِ الوفاء لأحبابِهِم الذين غابُوا في ظلمَاتِ الرمُوس. وباتُوا في أسر التُّراب الذي كانوا يستَنْكِفُون أن يعْلَقَ بأيدِيْهِم أو يقَع على ملابسِهِم.

وهناك في المدينَة السَّاكِتة الصَّامتة برغم تزاحُمِ السُّكان فيها تستيقظُ الذِّكريات الهَاجعَة وتنتفِضُ الأشواقُ الصَّريعَة فيصير الزَّائِر كلَّما اقترَبَ مِنْ ضَريح صاحِبِهِ خطوة رجَعَتْ به الذكرى سنين إلى الوراء. فتذكَّرَ كيف كان الميْتُ الثَّاوي تحت الثَّرى يتكلَّم ويبتسِم وكيف كان يطْرَب ويتألَّم وكيف كان يلبس ويأكل ويشرب.

ويتذكَّر ما عَمِلَ مِنَ الصَّالحات وما كان له مِنْ أطوار وعادات وأخلاق. ولا تكون في هذه الحالة إلا جميلة ونبيلة.

وتهيج عواطفه فلا يلبث أن يذرِفَ عَبْرَةً أو يُصْعِدَ زفْرَةً أو يزْرَع زهرة أو يجْثُوْ ويصلِّي.

هو يوم سُمِّيَ يوم تكريم الأمْوات ولكنَّه في الواقِع يوم تطْهرُ بِهِ نفوس الأحياء مِنْ أدْرَانِ الغرُور وتنطلِقُ عقولهُم مِنْ قيود المطَامِع ولو سُوَيْعَاتٍ قليلةٍ فتَنْجَلِي لهم الحقيقة الكبرى التي يتهرَّبُون مِنْ رؤيتها وهي أنَّ كُلَّ شيء إلى الزَّوال. وأنَّ النَّاس أخيراً لا تَفَاوُتَ بينهم ولا تفاضُلَ أمام نَوامِيْس الحياة..

ولكِن مِنَ النَّاس مَنْ يذهَب إلى المقَابِرِ في عيد الأمْوات غَيْر مدفُوع بعامل وفاء ولا بعامِلِ اعْتِبار

ولا للقيام بواجِب بل بعامل الحياء مِنَ الجيران أو متابَعَة لغيْرِهِ مِنَ النّاس. فيذهب ولا شيء في نفسِه غير الرَّغبة بأنْ تقع عليه العيون ويرجع لم يستفِدْ عبرة ولا حَزَّتْ في قلبه حسرَة. هو لا يخشى عتاباً ولا تلويماً مِنْ سكّان القبور الذين عَقَلَ المَوْت ألسنتهم وكَمَّ أفواههم. وسَدَّ أسماعهم فصَارَ سواء عندهم مُودِّد عن حُب ومتودِّد رِياء وخدَاعاً. لأنَّهم لا يتوقَّعون أن يصيبهم خير. ولا يُبَالُون أنْ يصيبهم شر.

بعد يومين تفرغ الدُّور وتمتلىء المقابر بالزوّار الذين يستطيعون اليوم أن يزرعُوا الزُّهور على القبور وأنْ يسكُبوا العبرات ويصعدوا الزَّفرات ولكنَّهُم بعدَ جِيْل لن يستطيعوا شيئاً مِنْ هذا لأنَّهُم لن يكونوا هنا.

إنَّهم يزاحِمُون الأحياء اليوم في المدُن والقُرى ويُنازِعُونَهم على الجاه والثروة. ولكنَّهُم في غدٍ سيزاحِمُون الأموات في الأجْدَاثِ لا على جاهٍ ولا على ثروَة بل على لا شيء!

أُذكُروا أيُّها النّاس المَوْتى وتَرَحَّمُوا عليهم سواء كانوا أنسِبَاء لكُم أو أحبَاباً. فكلُّهُم إخوانكم في الحياة والموت.

أُذكروهم واشْكُرُوْهم لأن الدُّوْر التي تسكنُونها والملابس التي ترتدُونها وجميع ما تتمتَّعُون به مِنْ أسبَاب الحضارةِ والرُّقِيِّ في هذا العصْر هُوَ مِنْ صنيْع النّاس الذين جاؤوا إلى هذه الدُّنيا قبلنا فغَرَسُوا وزرَعوا وبَنَوْا واختَرَعُوا ومهَّدُوا للَّذين بعدهم. هُم غرسُوا فأكَلْتُمْ. فاغرسُوا ليأكُلَ الذين يجيئوْنَ بعدكم.

فإذا ذكرتم أنَّهُم كانوا مِنَ المُحسِنين في حياتِهِم فلا تَنْسَوْا أنْ تقْتَفُوا آثارهم وتُحْسِنُوا كما أحسَنُوا. فإذا رجعتم بهذه الرُّوح مِنَ المقَابِر فقد رجعتُم بثروة ونَفْعٍ عَمِيم[1]. وتكونون قد كرَّمْتُم المَوْتى أَجَلَّ تكريم.

السّمير: 28/ 5/ 1937

مُقارنة بين الجمهور والبَحْر

ما أَشبَهْ الجمهور بالبَحْر.

مضَتْ الأجيال والدُّهور على البَحْر وهو يحمل السُّفن، وتُسْتَخرج منْهُ اللآلِيء، وتُصَاد الأسْماك، ويرسل السّحب في الفضاء فتهطِلُ في كُلِّ ناحية؛ وهُوَ هو لا يزال البحْر.

ومضَتْ الأجيال والدُّهور والجمهُور في كُلِّ مكان يستثمره أفراد يسيِّرون بقوَّته سفُن مطامعهم ويستخرجون ما في روحيَّته مِنْ لآليء مكنُونَة ويصيدون ثمرات قلوبه وأرواحه وجهوده.

---

1 العَمِيم: كُلُّ ما اجتمع وكثُرَ، ويقال: خَيْرٌ عَمِيمٌ.

ويجيء المؤرِّخُون فيُدوِّنون في بُطون الكتب أنَّ الملك فلاناً فتح الحصون وعَمَّرَ المدُن وأنشأ الدُور والمكاتب وأنَّ ذلك الأمير أسعَدَ البلاد وأَشقَى. ويَنْسَونَ الجمهُور الذي كان مِنْ وراءِ ذلك الملك وحولَ ذلك الأمير. كما ينسَى الذي يصِفُ سَيْر السفينة في البَحْر أنَّ البَحْر هو الذي حملَها ولَوْلاه لم توجَدْ السُّفن.

ويشبه الجمهور البَحْر من ناحية أخرى وهي أنَّه يثُور مثله فيدمِّرُ ويحطِّم ويغرق ويهلك ويتلف.

ولكن ثورة الجمهور كثَورة البَحْر، لا تطول إلاّ قليلاً ثم يرجع إلى سكِينَتِه وهدوئِه. وتعود السفن تسير فيه فيحملها راضياً مسرورا. ويستخرج الدُّر مِنْ أعماقِه فلا يردّ أحداً عن جواهره. وتؤخذُ مِنْه الأسماك ولا ترجع فلا ينُوْح عليها ولا يشعر بوحشة لفراقها وهي بناته.

ما أعجَب البَحْر!

ما أعجب الجمهور!

السَّمير: 26/ 6/ 1937

العيُون الضَّيِّقة

العيون للنَّظر. خُزْرها [1] ونُجْلها [2]. ونعني بالعُيون الخُزْر التي فيها ضيْق. والعُيون النُّجْل التي فيها سِعَة.

وهي للفهم أيضاً فإنَّك بمجرَّد النَّظر إلى عَيْنَيْ مُحدِّثُكَ أو الذي تتحدَّث إليه تعرفُ مبلغ صِدْقه أو كَذِبه في حديثِه. كما تعرفُ موقِعَ كلامك مِنْ نفسه أهُوَ موقِع رضَى أَمْ موقِع اسْتِيَاء أَمْ موْقِع مَلَلْ. فإنَّ كُلَّ ما يجُول في النَّفس يرْتَسِمُ في العُيون فإذا بهتَتْ فمعنى ذلك أنَّ مُحَدِّثَكَ حائِر أو أنَّه غير فاهم ما تقول أوْ أنَّ نَفْسَه في شلَل وقتي. إلى غَيْر ذلك مِنَ الحالات التي تدلّ عليها العُيون ولا يدلُّ عليها شيءٌ كالعيون.

رُبَّ لَفْتَةٍ أوْ نظْرَةٍ حوَتْ مِنَ المعاني ما لا يستَوْعِبُه كتاب ضخْمٌ. النَّفْس كلّها تطِلُّ مِنَ العَيْن. حتى ليَكَادُ المرء أنْ يرى فيها ما مضَى وما تأَخَّرَ مِنْ حياة صاحبِها.

ولو اجْتَمَعَ أبلَغُ الكُتَّاب في كُلِّ أُمَّةٍ وحاولُوا تصوير ما تنطَوِيْ عليه نظْرَةٌ يتبادَلُها عاشِقان لعادُوْا بالخَيبة التي يعود بها من يحاول نقل البَحْر بالجِرار.

في العيون أَسْرار لا تبدو إلاّ للعُيون.

---

1 الخُزْر: خَزِرَت العين خزَراً صَغُرَت وضاقت خِلْقَةً ج خُزْرٌ.

2 النَّجَل: سعة العين نَجِل كفرح فهو أَنْجَلُ ج نُجْلٌ ونِجال.

وفي كُلِّ المرئيَّات التي تقع عليها الأنظار معانٍ شتَّى وأسرار لا تُحصَى وإنَّما لا يراها إلاّ الذين رُزِقُوا مَع النَّظَر الثَّاقِب[1] قوَّة المُلاحظة والإستنتاج ومع هذه القُوَّة رَغبَة في رؤية الأُمُوْرِ والأَشياء كُلّها وإنْ كانت لَيسَتْ بالأُمور والأشياء التي يسْتَحسِنها الرَّائِي ويحبُّها.

أمَّا إذا سَاءَهُ أنْ يرى ما لا يتَّفق والذي يجب أن يرى.

أمَّا إذا لاحَتْ له حقيقة فأَشاحَ بنظَرِهِ عنها وادَّعَى أنَّه لم يرَها. وما دَام لَمْ يرَها فهي إذن غَيْر موجُودة.

أمَّا إذا استخْدَمَ عَيْنيهِ للنَّظَرِ في عيُوْبِ النَّاس أو النَّظَر في محاسِنِه أو ما يتَوَهَّم أنَّه مِنَ المَحاسِنِ فيه.

أمَّا إذا لاحَ لعيْنَيْهِ القمر فكَان أظْهَر شيء فيه عنده تلك الكُلْفة[2] السَّوداء في صفْحَة القمر. وإذا أشْرفَ على حديقةٍ غنَّاء عَمِيَ عَن محاسِنِها وانْشَغَلَ بذمِّ صاحبها الذي أقَام حولها الأَسْوار.

إذا كان هذا ما تُرِيْهِ عَيْنَاهُ فهْوَ مِنَ ذَوِيْ العُيون الخُزْرِ الضَّيِّقة ولو كانَتْ في محاجِرِهِ عُيون البَقَر الواسعَة. وعلى لغة ابْن الجَهْم[3] ـ عُيُون المَها[4]!!.

وصاحب هذه النفسيَّة حَسِيْر النَّظَر ولو نَفَذَ بِبَصَرِهِ إلى ما تحت الرَّغام[5]. وشاهَدَ ما وراءَ الغَمَام.

وارحمتا لأصحاب العيون الضيقة فإنَّهم ابداً في تعَب إنْ رأوا الأشياء كما هي وإنْ رأوها على غير ما هي...

لأنَّهُم إنْ رأَوْها كما هي جرَعُوْا الغُصَص. وإنْ رأَوْها على غَيْر حقيقتها شَوَّهَتْ أرواحهُم الصُّوَر المُشوَّهة التي دخلَتْ على أرواحِهِم.

فوارحمتا لهُم ووارحمتا للنَّاس مِنهم. ومَا أعظَم فضْلَ الله عندما يعفُو عنهُم.

السَّمير: 6/ 7/ 1937

---

1 الثاقب: وثَقَب رأْيُه نَفَذَ وهو مِثْقَبٌ كمِنْبَر نافِذ الرَّأْي والنَّجْم الثاقِب المرتفع.

2 الكُلْفَة: والكَلْفاء لون بين السَّواد والحُمْرَةِ والأَكْلَفُ الذي كَلِفَت حمرته فلم تَصْفُ من الإبل وغيره والكُلْفَة بالضَّمِّ لون الأَكْلَف أو حُمْرَةٌ كَدِرَةٌ.

3 عليّ بن الجهيم: هو عليّ بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة. كان شاعراً عبّاسيّاً متديّنا مجيداً عالماً بفنون الشعر وكان خصيِّصاً بالمتوكل. هجا المتوكل فنفاه سنة اثنتين وثلاثين ومئتين إلى خراسان.
كان صديقاً حميماً لأبي تمام وله ديوان من الشعر صغير وهو ممن شهر بشعره ووجد عند العامة والخاصّة وله في الغزل أقوال رقيقة عنيفة جيّدة لفظاً ومَعْنى كما يوجد له فيه أيضاً أقوال متسمة بالفحش والصَّراحة كُلَّ الاتّسام. توفي في سنة 249 هـ في خُراسان وهو بريد بين بالس وحَلَب. (راجع الغزل في العصر العبَّاسيِّ الأوّل ـ تأليفنا).

4 المَهَا: والمَهاة البقرة الوحشية ج مَهاً وفي الأصل المهى تحريف والصَّواب المها.

5 الرَّغام: ترابٌ ليِّنٌ أو رمل مختلط بتراب.

نجيب دياب

في مثل هذا اليوم مِنَ السنة الماضية وقَفَ الموت والحياة يتصارعَان.

فقالت الحياة ـ لا تزال لي بهذا الرَّاقِد في السَّرير حاجة لأنَّه لا تزال للنَّاس بهِ حاجة فدَعْه أيُّها الموت لي وللنَّاس.

فقال الموت ـ كُلُّ ما لَكِ أيَّتها الحياة هو لي. لن يجْدِيك الحرص شيئاً وليس لك أنْ تردِّيني عن أيِّ حيٍّ أريد أنْ ينتقل إلى مملَكَتي.

وكان الرَّاقد في السرير يصحُوْ حيناً فتظنُّ الحياة أنَّه قد رجع إليها. ثم يغفو طويلاً فيصفّق الموت بأجنحتِه تصفيقَ المنتصر الظَّافر.

ذلك يوم ما كان أهْوَله. وما أنس ولا أنس كيف كان يحاول النَّجيب أن يتكلم فتمنعه وطأة الداء أنْ يتكلَّم. وكيف كنَّا نحاول نحن أن نتكلَّم فتَعْلَق الألفاظ بالحناجِرِ. وتطلُّ العبَرات مِنَ المحاجِرِ. ويضطرب الأمر علينا حتى نحسَب كلَّ ما في الكون مشَوَّشاً مُضطَرِباً.

ذهبَ النَّجيب وبقِيَتْ اللَّوْعة عليه في قلوب بَنِيْه.

واسْتَراح مِنْ أعباء الحياة ثقيلها وخفيفها وكان لا يعرف في حياتِه للرَّاحة معنىً. فقد أصَابَهُ في السَّنوات الأخيرة مِنْ حياتِه ما عكَّرَ عليه صَفْوَ الحياة ولكنَّه كان برغْمِ الدَّاء الذي يعَانِيْه لا يشكُوْ ولا يتمَلْمَل كأنَّه يريد أن يعطي النَّاس أمثُولة في الصَّبْر على المكَارِه.

ولقد أنْقَضَتْ سنة كاملة على وفاتِهِ ولا يزالُ اولاده وأصدقاؤه يشعُرون كأنَّه توفي منذ أيَّام وبعضهم يذكره كأنَّه لمْ يمُتْ. وليس مَنْ عَرَفهُ إلاّ واسْتَوحشَ لغيابه.

كان غيوراً على أصدقائه، راغباً الخير للنَّاس، حتى للذين لا يرغبون له الخير، وكان حسن البادرة، رقيقاً مُسْتَمْلحاً حديثه، فالسَّمير التي تربط صاحبها بالفقيد أواصر الأدب والنَّسب، تنشر اليوم صورته تذكاراً لمرور سنة على وفاته وليست الصورة في الورقة غير ظلٍّ ضئيلٍ للصورة التي للفقيد في سويداء قلبي وقلوب جميع أهله ومحبِّيه.

السَّمير: 9/ 7/ 1937

فَتِّش عن المرأة

مِنْ أشهرِ الأمثال عند الفرنسويين قولهم «فتِّش عن المرأة» وهو قول اشتهر وشاع وردَّدَتْهُ الألسِنَة والأقلام ولا تزال تردِّدهُ كُلَّما وَقَعَتْ جريمة أو انْقلَبَ ملك عن عرشٍ أو تَدَحرَجَ مِنْ قمَّة الشُّهرة زعيم.

وسبب اشْتهار هذا المثل في فرنسا هو ما كان للمرأة في أيّام المُلوك والأشراف مِنْ التأثير في البَلاط والقصور فقد جاء على فرنسا حينٌ مِنَ الدَّهْرِ كانت فيه مقَدّرات الأمَّة الفرنسوية يديرها اثنان هما ـ المرأة والكاهِن ـ. الأولى بما لها مِنَ الدَّهاء والثاني بما له مِنَ السُّلْطان.

إنَّما هذا المثل الذي يجعل المرأة كالخَمرة مصدر العثَراتِ والزَّلاَت والشُّرور لا يصدق فيها إلاّ عندما يُدْمِن الإعتكَاف على الخمر. فإنَّ العِبرة ليست في الشيء بل في الطَّريقة التي يستعمله بها الإنسان.

قليلٌ مِنَ الخمر يُفرِحُ القلب. ولَكِنَ كَثْرتها تُضْعِف القلب والعَقْلَ معاً.

الخمرة في ذاتها غير مضِرَّة. وإنَّما إذا وُجِدَ مَنْ يشربها ويسيء شربها حصَلَ الخطر وكانت التَّبعة على الإنسان العاقِلِ الذي لم يستطِعْ مع عقلِهِ أنْ يتغلَّب على تلك التي لا تعقِلْ.

أنَّ المرأة كالخمرة على طول الخط ولكنَّنا ضربْنَا هذا المَثَل لِنرفَع بعض التَّبعة عن عاتِقِها في ما يُعْزَى إليها مِنَ الآفات ولا نعني بهذا المثل أنَّها مصدر النَّكبات.

لماذا يجب أن نلوم المرأة إذا مَدَّ شاب عنُقَهُ مِنَ النافذة وتمطَّى ليُشاهِد فتاة جميلة سائِرة في الشارع فسقطَ ودُقَّ عنقه؟

لماذا نُنْحي بالمَلام على المرأة إذا خسِر رجلٌ غنِيٌ ثروته مِنْ جرَّاء إسراف زوجته وتبذيْرها أليس هو مسؤولاً عن المال الذي يخرج مِنْ يده؟!

لماذا نعْزو إلى المراة كُلَّ الشرِّ وننسى الرَّجل وهو شريكها في كل ما يقَع مِنَ الأمور التي نحسبها شروراً.

ولماذا لا نحْصي لها الحسَنَات مثلما نحْصِي عليها السَّيِّئات ونضع هذه في كِفَّة وتلك في كِفَّة الميزان الأخرى ليحصل لدينا حُكمٌ عادل لا حَيفَ فيه ولا جنف.

إنَّ الذين ينظرون إلى المرأة مِنْ وراء هذه الزجاجة الحمراء لا يرون إلاّ ناراً محرقة ولكنَّهم إذا رفعُوْا الزجاجة الحمراء رأوْا النُّور المتألِّق. ويحسنُ بِهِم أن يروه. لأنَّهم بحاجة إليه. أمَّا إذا سقطت الزجاجة الحمراء وبقيت المرأة التي ينظرون إليها لهيباً لاذعاً. فيجب أن يعمَلوا على الوقاية مِنْ هذا اللَّهيب وأنْ يحصروا سخطهم بهذا النوع الشرِّير مِنَ النِّساء.

السَّمير: 12/ 7/ 1937

إلى أمّ العواصِم

في آخرِ هذا الأُسبوع ينطلِق مُنشيء «السَّمير» مِنْ بين المحَابِرِ والأقلام ويخرج مِنْ أكبَر عاصمة للمال في الدُّنيا إلى أجملِ وأفخم عاصمة في العالم مِنْ نيويورك إلى واشنطون.

مِنَ المدينة التي يشيد فيها دهاقِنَة المال هيَاكل عظَمَتهم إلى المدينة التي يكتب فيها أساطين السياسة

أسماءهم في سجلّ المجْد.

وليست هذه أول مرة يزور صاحب «السَّمير» ربّة البوتوماك فقد زارها السنة الماضية في شهر تموز وقضى فيها بضعة أيّام كانت ألذّ من أحلام الشَّباب وأطيب منْ سنة الكرى.

وكان الباعِثُ على زيارتِه إيّاها قومياً كالباعِثِ الذي يحمله على زيارتِها هذه السَّنة. فقد جاءته دعوة مِنْ عمدَة كنيسة القدِّيس جاورجيوس الأرثوذكسية لحضور المهرجان الكبير الذي تقيمه يومي السبت والأحد القادمين.

وكانت قد جاءته دعوات كثيرة مِنْ جمعيَّات وأفراد في أوقاتٍ مختلفةٍ ومِنْ ولاياتٍ مُتعدِّدة ولكنُّه لم يتمكَّن مِنْ تلبية أيّة دعوة في الشّهور الماضية بالرَّغم مِنْ حنينِه إلى الأصدقاء الذين يحِنُّون إليه. وبالرَّغم مِنْ إعتقاده أنَّ مِنْ واجب الصَّحافي أن يمتزج بالجماهير لِيقِف على أحوالها ويعرف مواضع الحسن فيها فيشير إليها لِيَزْدادَ منها. ومواضع القبح فينبه عليها لتعرض عنها. فإنَّ واجب الصَّحافي خارج مكتبه كواجبه في مكتبه. والتَّبعة التي يشعر بها نحو النَّاس وهو منفرد وحده.

سيذهب صاحب «السَّمير» إلى واشنطون ويحضر مهرجانها لا للنزهة ولا طلباً للرَّاحة وإنْ تكُنْ حاجته إليها شديدة بعد الجهاد المُضْنِك الذي نَصَبَ نفسه له. ولكنَّه ذاهب لمواصلة الجِهاد الذي يجب أن يستمرّ في سبيل تغليب الحَسَنِ مِنَ المباديء على غير الحَسَنْ. ونشْرِ التعاليم القويْمة المُفيدة ما اتَّسَعَ لها المَجال وأعانَتْ الوسائِل والظروف. فكُلَّما انتشر النُّور تقلَّصَ الظلام. وكُلَّما أكثرْنَا مِنْ زرْعِ الورود في أرضٍ قَلَّ الشَّوْك والعَوْسَج. وحبَّبْنَا إلى النَّاس رؤية الزَّهْر.

هذه عقيدتنا التي نتمشَّى عليها في حياتِنا الصَّحافية ولا نبالي على أيّة عقيدة يتمشَّى سوانَا فكثيرون لا يهنأُوْن ولا يطيب عيشهم إلا إذا أسدلُوْا البراقِعَ السَّوداء على أبصارِهِم لإعتقادِهم أنَّ النُّور يؤذيهم!

وكثيرون يحسَبون الحياة لهواً ولعِباً لأنَّهم لا يدركُون أنَّ العلى لا تبلغ إلاّ على جسرٍ مِنَ التَّعب والمشَقَّة.

سنكون في واشنطون العاصمة لنتَّصِل بقومِنَا وبما في العاصمة مِنْ مظاهر سنيَّة للمبادئ السَّامية التي كانت الدَّعائِم لهذه الجمهورية العظمى - وسنفكِّر لأنفسنا ولقومنا ونقول ونعمل على قاعدة تغليب الجمال على القُبْح. والخَيْر على الشَّرِّ. والالفَة والوئام على التفريق والخصام.

ونرجو أن تساعِفنا الظروف فنتمكَّن مِنَ القيام بجولة في ما وراء عاصمة البلاد مِنْ ولايات ونحقِّق آمال الأصدقاء التي هي آمالنا. إن شاء الله.

السَّمير: 28/ 7/ 1937

عن الطَّريق

أمران يجد فيهما الإنسان لذَّة وغبطة.

الأول ـ عندما يتسنَّى له أن يؤدي إلى شخص آخر فكرة تَتَلجْلَجُ في نفسِهِ أو يُعلن خاطراً يجول في رأسِهِ.

والأمر الثاني ـ عندما يسعده الحظ بالإصغاء إلى رجلٍ يؤدِّي إلى النَّاس فكرة جديدة قيِّمة أو يذيع رأياً ناضجاً.

في كلا الأمرين مجلبة للإرتياح والغِبْطَة. وكلا الأمرين كثير الحدوث في زمانِنا لأنَّه زمان صريح لا يعرف الكتمان.

وإنَّما هناك حالة ثالثة هي فوق الحالتين. أي حالة التحدُّث إلى النَّاس وحالة الإصغاء إلى المتحدِّثين مِنَ النَّاس. وهي حالة التأمُّل التي يجد المرء نفسه فيها عندما ينتقل إلى مسارح الطَّبيعة حيث تطلُّ معجزة مع كل ورقة مترَنِّحة وزهرة فوَّاحَة وقطرة لامعَة وغَيْمة سارية ونجمة متألِّقَة.

فللورقة الخضراء التي نبتَتْ في الغُصن ولم تكن فيه حكاية مدهشة تقصها على الرَّائي وهي صامتَة. هي حكاية الخلقِ والتَّكوين.

وللزَّهرة التي كانت سراً مضمراً خفياً فصارتْ كياناً يرتعش للنُّور والنَّدى والنَّسيم قصة أعجب وأغرب.

وكذلك لقطرات النَّدى. التي تلتمِع فوق العشب الأخضر كلآلِيء مُبعثَرة على بساط مِنْ سندُس. أحاديث يبلغ صداها إلى قرارَة النُّفُوس الشَّاعرة وإنَّما لم ينطق بها لسَان.

وهكذا الغيوم التي تتلبَّد وتتبدَّد.

أمَّا النُّجوم فكم تحدَّثَتْ مِنْ قبل للقُرون الخالية وكم تتحدَّث كُل مساء إلى النَّاس كُلَّما رفَعُوا إليها أبصارهم. ولا تزال على طول العهْد بها تبدو للنَّاس كلَّما نظروا إليها كأنَّها تولدُ كُلَّ ليلة.

ويشعرون هم لإختطافهِم بجلالها وجمالها كأنَّهم قد ولِدوا مِنْ جَديد...

لقد رأيْتُ في طريقي إلى واشنطون كل هذه الأوراق الخضراء والزَّهر الأنيق والنَّدى اللاَّمِع والغيوم السَّارية. والنُّجُوم الأزليَّة.

وكُنتُ كُلَّما تأمَّلتها ازْدَدْتُ لها حباً كأنَّ بيني وبينها مودَّة قربَى كانت مهملة مِنْ قبل مَنسيَّة.

وكنتُ وأنا أتأمَّل أعجبُ للعقل الأكبر الذي مِنْ وراء هذه المشاهِد العجيبة التي فيها كثير ممَّا في النَّاس مِنْ حالات وأطْوار.

مِنْ ذلك أنَّك ترى العشب ينبتُ في مكان تدُوسه الأقدام رائحة جائية فيذبل ويجف ثم يعود

فينبت في المكان ذاتِه. فما أشْبَهه بالنَّاس الذين يبنون منازلهم مِنَ الخشب والحجر والطِّين على ضفاف الأنهر التي تطغى أو البراكين التي تثور.

فكمْ هدمَ الماء الطَّاغي بيوتهم ودمَّرتْ البراكين منازلهم ورجعوا بعد الكارثة يشيدون مساكنهم مِنْ جديد حيث دهمهم الطُّوفان أو باغتهَم البركان.

يقولون أنَّ النبات لا يعقل ولكن ما بال النَّاس؟ أهُمْ أيضاً لا يعقِلُون؟

أم أنَّ النَّواميس تسري على العاقِلِ وغير العاقِلِ بالسَّواء؟

بَلغْتُ العاصمة الجميلة أنا والرِّفاق عند أصيلِ السَّبت. وهي المدينة التي أبدَعَ الإنسان ما أبدَع في تنسيقِها وتنظيمها وتجميلها وترتيبها وبَقِيَتْ فيها مَلاحَة القرى ورَوْعَة الحياة في القُرى بالرَّغمِ مِنَ الزِّحام. وسأوافي القرَّاء بما رأيتُ فيها وسمعت في المقَال القادم.

السَّمير: 4/ 8/ 1937

في مدينة واشنطون

يجيء المرء إلى واشنطون وهو يعتقد أنَّها عاصمة السياسة فلا يكاد يجول في شوارعها وحد ائِقها ويشاهد منازلها وحوانيتها ومسارحها ويزور الدَّوائِر الرسميَّة وما هنالك مِنْ أنصَابٍ وتماثيلٍ حتى يتَّضِح له أنَّها عاصمة الفن والجمال أيضاً.

إلى هذه المدينة تتَّجهُ قُلوب مائة وثلاثين مليوناً مِنَ النَّاس لأنَّها هي القلب الذي يوزع الدم في شرايين البلاد. فمِنْ هنا تخرج الشَّرائِع والقوانين والأنظمة التي يسنها ممثِّلو الأمَّة لتوفير السَّعادة والرَّفاه للأمَّة.

تتَّجه القُلوب والأرواح إلى هذه المدينة كأنَّما فيها قبر نبيٍّ أو مهْد مسيح. ولم يظهر في الولايات المتَّحدة نبيٌّ ولا مسيح. ولَكِنْ ظهرَ فيها رجالٌ مُصلِحُوْن وأبطال مُجاهِدُوْن ومُفكِّرون عُظَماء وَهُمُ الّذين تتعبَّد لهم الأمَّة التي تحصد اليوم ما زرعوا هُم بالأمس وتمشي مُطمئنَّة في مسالك الحياة الحرَّة بفضل اولئك الأبطال الأحرار والمُصلِحين الأبرار.

ولأَصِفُ للقرَّاء مدينة واشنطون وإنْ كانَ الوصْف لا يُغْني عن المشاهَدَة والعيان.

شوارع متَّسِعة فسيحة أنيقة نظيفة تقومُ على جانبيْها منازل جميلة البناء والهندسة والتنسيق لا يشمخ منزل على منزل ولا يزْحَمُ بناء كبير بناء صغيراً. بل تكاد تكون في أكثر النَّواحي متساويَة كأسنانِ المشْط. وكُلُّ بيت يطلُّ على الفضاء. وتطلُّ عليه الشَّمْس. وفي أيِّ شارع سِرْتَ فأنتَ تسير بين صفَّين مِنَ الأشجار الوارِفَة التي تصُد عنك أشعَّة الشَّمْس وإنْ كانت لا تحجب عنكَ الفضاء الرَّحيب.

وفي واشنطون مثل ما في كُلِّ المدُن مِنْ وسائِل السَّيْر والنَّقل كالتُّرام والتلفون والتلغراف ولكنَّك

لا تشاهد في الفضاء سلكاً ممدوداً ولا عاموداً يحمل في رأسِه الأسلاك لأنَّ هذه كُلّها مدفونة في الأرض كأنابيب الماء.

وإذا وقفْتَ في الكابتول وتأمَّلْتَ المدينة مِنْ ذلك العلاء الشَّاهِق لاحَتْ لك الشَّوارع تتفرَّع مِنَ الكابتول كما تنبثِقُ الأشِعَّة مِنَ النَّجْمة فكل الشوارع الكبرى تنتهي إلى الكابتول. كما تنتهي أضلاع الدائِرة إلى قلب الدائِرة.

يحسُنُ بكُلِّ إنسان أن يزور مدينة واشنطون ليشاهد عظمَة الديمقراطيَّة وجلالتها وسماحَتها ويطالِعُ التَّاريخ الأميركي في آثارها ورموزها. وإنَّما أحسن الأوقات لزيارتها كل وقت إلا الصَّيف لأنَّ الحرَّ يشتدُّ فيها برغمِ ما فيها مِنْ شجرٍ وارِف.

السَّمير: 6/ 8/ 1937

آخر ورقة

عِنْد السَّاعة الثانية عشرة مِنْ هذا المساء ينتَزِعُ النَّاس آخر ورقة مِنَ الروزنامة ويطرَحُونها إلى الأرض. فيَلْفظ عام 1937 آخر أنفاسه.

يَنتَزِعُ الشيخ هذه الورقة الأخيرة التي كانت تحت 365 مثلها ويداه ترتَعشَان وقَلبه تتسَارَعُ دقَّاتُه. لأنَّهُ لا يقدِر أن يستبْقِيها وهو يتمَنَّى لو أسْتطاع أنْ يُوقِفَ الزَّمان عنِ المَسيْر.

يرتعشُ لأنَّه يعلم أنَّ الزيادة في أيَّامِه نَقْصٌ في قُوَّتِهِ.

لأنَّه يتلاشى مع كُلِّ ساعةٍ تتلاشَى.

لأنَّ الشَّيْخُوخة كآبة ووحشة وعجز ...

لأنَّه وقد أنْحَطَّت قُواه وثَقُلَتْ خطاه أصبَحَ يشعُر بمرورِ الزَّمان السَّريع وركْضه.

لأنَّه وقد خَارَتْ عزيمته وذَهَبَتْ نضارتُه واشْتَعَلَ رأسه شيباً وبُلِيَتْ ديبَاجَته أصبح يشعر ببطشِ الوَقْت الجبَّار وبأسه وقساوته واستبداده.

لأنَّه يعتقد مع الشيخ ناصيف اليازجي أنَّه قد صار «كالظِلِّ تحت الشَّمْس يمشي القَهْقرى».

لأنَّه يؤمِنُ بحِكمَة المتنبِّي البلِيغة:

إنَّما المرء صِحَّةٌ وشبابٌ   فإذا وَلَّيا عن المرء وَلَّى

لأنَّه يرى وراء تلك الورقة شبح الموت المُخيف الرَّهيب ولكنَّه مع هذه كلّها لا يستطيع إلاَّ أن ينزع الورقة الأخيرة!

أمَّا الفَتى الممتلىء عافية ونضارة وأملاً فأنَّه ينزعُ تلك الورقة وهوَ مُتهلِّل طَروب ينزعها لأنَّه يشعُرُ أنَّ الوَقْت يسير بطيئاً مُتمهِّلاً.

لأنَّه يطمحُ ويشتاق إلى معرفة ما في الغد لأنَّ المرء ولا سيَّما الفَتى تَوَّاق إلى الإستطلاع والوقُوف على المجهول المحبوب..

لأنَّ الشبيبة تحب العَبَثْ حتى بطرة الزَّمان الجبَّار.

لأنَّه لا يعلم أنَّه يسير مع الزَّمان السَّائِر ولا يريدُ أنْ يعلم!

لأنَّه يعتقد أنَّ المستقبل له.

لأنَّ الأشباح التي تتراءى له وراء الأفق جميلة ساحرة.. وهوَ يحب الجمال ويشْتَهويه السِّحر.

لأنَّه يحسب السِّنين واقِفة حاجزا بينه وبين الشُّهْرة. والعَظَمَة. والثروة. والسَّعادة. والحبيب الذي يهوى. فهو يفرحُ كلَّما سقط حَجَرٌ مِنْ هذا السُّور.

لأنَّه في أوَّل الطَّريق وكُلُّ مسافرٍ يكون في أول الطَّريق سريع الخطى كبير الثقة عظيم الرَّجاء.

لأنَّه يحسب العمر كلّه شباباً. والحياة كُلّها لذاذات ولا يحسب لطارئات اللَّيالي حساباً.

ينزع آخر ورقة ويستحثُّ الزَّمان ويستَعْجِله إلى أَمانيه. والزَّمان لا يحتاج إلى سائِق ولا حاد.

ولكن الشَّباب كثير الغرور كثير الأحلام!

وبين الشيخ الذي ترتَعِش روحه ويداه والفتى الذي تبرق اسرته وعيناه. يسمع في جوف اللَّيل هاتف يقول:

أوَّاه لـو عَـلِـمَ الـشَّـبـاب	وآه لـو قَـدَرَ المَـشِـيْـب
لحرق العام في هاوية الأبدية التي	لا قـــاع لهـــا.

أتراهُ علم مصيره حين جاء؟

أتدرك الشَّمس عند طلوعها أنَّها للغروب؟

أتعلم الوردة الفيَّاحة أنَّها للذُّبول؟

أتدري الكائِنات مصيرها؟

وهل أمَّحى حقاً أم أنَّه لم ينْمَح إلاّ في الروزنامة؟

الحياة سلسلة مُتَّصِلة غير مُنفصِلَة فلا تبكِ على العام الفائِت بكاءكَ على ضائِع. فهوَ باقٍ فيك وما أفكارك سوى بناته وابنائه. والدُّنيا بعده مثل الدُّنيا قبله. شباب وآمال وشيخوخة وهُموم.

ذهب العام ولَكِنَّ الشَّمس التي كنت تستقبلها فيه عند الشُّروق وتودعها عند الغروب لا تزال فوق رأسك تغمرك بنورها..

إذا شئْت أن تبكي فليَكُنْ بكاؤك على الفُرَصِ التي ضيَّعْتها فيه أو على غلطات ارْتكبْتَها. لعلَّك تغسِل نفسك بالدُّموع مِنْ أدْرَانِها وتتجدَّد قواك فتتمكَّنَ مِنْ انْتهاز الفُرَصْ التي تعرض أمامك في العام الجديد ومِنْ إصْلاح أغلاطك الماضيَة.

العام الجديد يُحيِّيك مُبْتسماً فحيِّه مُبتسماً!

لا تنظُر إلى الأظلال السّوداء التي وراءك. بل إلى النُّور ألذي أمامك.
إنَّ قلبك سماء صغيرة جميلة فلا تحجُب نُجُومها بالغُيوم.
إنَّ قلبك مملكة فَلْيكُن فيها النظام مُسْتتباً والرَّاحة مستقرَّة.
النُّجوم تبتسم لك مِنْ علٍ والنَّسيم يعانِقك
والشَّمس تغمرك بأشعَّتها والطُّيور تغنِّي لك
والأغصان ترقص لِتستَهْويك والسَّواقي تهزج لِتُسلِّيك
فأضْحَكْ مَع النُّجُوم وترنَّح مَع الغُصْن
وافْتَحْ رُوْحك لأشِعَّة الشَّمس واهْزُجْ مَع السَّواقي
ما مضى فات والمؤمل غيبٌ
ولك السَّاعة التي أنتَ فيها
وكُلَّ عام وأنت بخير.

السَّمير: 31/ 12/ 1937

مُهِمّ أنْ تُطالِع ولكِن أهَمّ مِنْهُ كيف تُطالِع

إذا كان القول الفرنسي المأثور «مَنْ كَتَبَ فَسيكتب» صحيحاً فما أجدَرنا أن نقول «من قرأ فسوف يَقرأُ» لأنَّ اللَّذة التي يجدها المرء في المطالعَة ليست مِنَ اللَّذاذات التي تتكرَّر على وتيرة واحدة ليضْجَرَ مِنْها القلب ويزْهَد فيها العقل. فأنْتَ كُلَّما طالَعْتَ فكرةً جديدة حَصَلْتَ على لذَّة جديدة وكُلَّما قَرأْتَ كاتِباً مُفكِّراً تعرَّفْتَ إلى صديقٍ ورفيقٍ وعشيْرٍ ومُعلِّم.

قالوا: «من كتبَ فَسيكتب» ولكن القول لا يَصْدقُ إلاّ في الكُتَّاب الذين يحمِلُون في قلوبهم رسالة عُلْوِيّة [1] إلى المجتمع فهم يكتبون لكي يؤدُّوا هذه الرسالة. بل قُلْ لِكَي يريحوا أرواحهم ممَّا يتَلجْلَجُ فيها مِنَ الحَنين إلى رؤية الفِكْرة التي في رؤوسهِم صورة تطالعُها العيون وتشربُها الأفهام.

أمَّا الذين لا رسالة عندهم يؤدُّونها إلى زمانِهم وناس زمَانهم فهؤلاء لا يَحْسُنُ بهم أنْ يكتبوا. لأنَّهُم لن يفيدُوا محيطهم شيئاً ولا تكون النتيجة غير قَتْل وقتِهم وتضييع أوقات النَّاس في غَيْرِ طائِل. وإذا وجدتَ أُناساً ينصرِفُون عَن المطالَعة بعْدَ إقْبالهم عليها فاعْلَمْ أنَّهم ما قَتلَ الشَّوق فيهم إلى المطالعَة إلاّ وجود كُتَّاب بلدَاء ظهَروا في وسطٍ نامَ فيه الكُتَّاب المُفكِّرون أو تأخَّرَ ظهُورهم!

وأنَّ الكاتِب السَّمج البَليد لَيَمسَخ أذواق النَّاس إذا هم لم يتَجنَّبُوه قبل أن تتسرَّب سماجته إلى

---

1 العِلِّي: أعلى مكان وأعلى درجة ج. عِلِّيُّون.

نفوسِهم وعقولهم.

وإذا أنتَ تتبّعْتَ سيْر عالم الأدب وجَدْتَ أنَّ أذواق النَّاس في الأدب قد ارتقَتْ في الزَّمَن الأخير ارْتقاءً كبيراً. والسِّر في ذلك هو تكاثُر عدد الكُتَّاب المُفكِّرين ذوي الرِّسالات الواضِحَة في الحياة. والفِكَرْ الجليَّة السَّنيَّة التي يصبُّوْنها في قوالِب مِنَ البَيَان رائِعة وخلاَّبَة تُحبّبُ المطالعة إلى النَّاس حتى الذين بهم زُهْدٌ في المطالَعَة.

وإذا أردت أنْ تعرِفَ كيف بلغَ هؤلاء الكُتَّاب المُفكِّرين مَنزلتهم العالية في خَلْقِ الفِكْرِ وأبْتدَاع الصُّوَر. وكيف مَلَكوا ناصيَة البَيَان وروَّضوا أوابد اللُّغة وصَفَتْ أرواحهم ورَقَّتْ أساليبهم. فأعْلَمْ أنَّ لذلك سبباً واحداً هو:

المُطالعة

وليست المطالعة أنْ تقرأ كُلَّ أسود أو أبيض. فهذا النَّوع مِنَ المطالعة يضرُّ أكثر مِمَّا يفيد. فكُنْ على بيِّنة مِنَ المؤلِّف الذي تقرأ له وأحْسِنْ اختيار الجريدة التي تطالعها. وحينها تبدأ في المطالعة هَيِّء لها ذهنك فلا تقرأ وأنتَ مشغول بأمرٍ آخر ولا تَخَفْ أنْ تُجادِل الكاتب الذي تقرأ له شيئاً. وبكلمَةٍ أخرى جرِّب أن تقول في نفسك: لماذا يجب أنْ يكون الأمر كما قال هذا الكاتِب ولا يجب أن يكون على خلاف ما يقول.

ثم قابِلْ بين الوجْهَين وكُنْ عندما تَحْكُمْ للكَاتِب أو عليهِ عادلاً مُنْصِفاً في حُكمِك لأنَّك إنْ ظلمته أسأْتَ إلى نفسك ورَسخَ في ذهنِك أعْتقادٌ مغلُوط يجب أن يُصحَّح. وفكرة عوجاء يجب أن تُقَوَّمْ.

إنَّ الإنسان الذي يطالِعْ هو الذي يستفيد أكثر مِنْ سِواه. إنَّما المطالِع الذي يُمَحِّص ما يقرأ ليَسْتَفِيد ويُفِيْدُ سواه.

فكُنْ هذا المُطالِع المُمَحِّصْ أيُّها القاريء وأعْلَم أنَّه إذا كان مِنَ المُهم أنْ يُطالِع المرء فإنَّ الأهمَّ مِنْهُ أن يَعْلَم كيف يُطالِع ولماذا يُطالِع!

السَّمير: 1/ 3/ 1938

مار نقُولا وصاحِب السَّمير

في الحياة مصادفات غريبة تعود بالطَّبع إلى أسباب خفيَّة عن المدارك فيُعلِّلها الإنسان إمَّا تعليلاً جميلاً وإمَّا تعليلاً غير جميل طِبْقاً[1] لنتائجها مِنْ خيرٍ أو شر.

منذ تحرَّرت كاتدرائيَّة القدِّيس نيقولاوس مِنَ الدُّيون وقامَتْ الإصلاحات فيها وفي قاعتِها التي

1 الطِّبق المُطابِقة.

صارت مِنْ أجمل القاعات بفضْلِ الأسخياء المُحسِنين والأعيُن تنظر إلى جدران الكاتدرائيّة وتشتاق لو مرّتْ بها فرشاة الدهان ليتم جمال الكاتدرائيّة.

وظلّتْ هذه الأمنية تتلجْلَج في الصُّدور حتى هبّتْ جمعية حاملات الطيب تجمع التبرُّعات لهذا المشروع فاكبَرْنا هِمّتها ورأينا أنْ نكون مِنْ مُشجّعيها فتبرّعنا لها بخمسة دولارات.

ومرَّ بنا صديقنا الشّاعر توفيق فخر فسلّمناه حوالة بالقيمة ليضمّها إلى المال الذي يرسل إلى أمينة صندوق الجمعيّة السيدة ليديا تادروس. كما سلّمناه حوالة أخرى بدولارين لجمعية السيدات الخيريّة تبرّع بهما صديق للسّمير في ولاية لوزيانا بعدَ أنْ قرأ مقالنا «أم البائسين».

ثمَّ ذهبنا إلى مطعم الأهرام لتَناول العشاء فما كِدْنا ندخل حتى رأيت صديقاً يحيّيني مِنْ بعيد وهو السيد خليل النُّعيمي فاقترَبْتُ منْهُ مُسلّماً وإذا به يعرّفني إلى رجلِ أميركي فما كادَ الأميركي يعرِفُ أنَّ «السّمير» جريدة يوميّة حتى دفعَ إليَّ إعلاناً صغيراً وناولني عشرة دولارات، أجرة الإعلان.

وجلستُ بعد ذلك وصديقي توفيق نتحدَّث فلمّا اخبرته خبر الرجل الأميركي. قال ـ لو لمْ نأتِ في هذه السّاعة إلى المطعم لما اجتمعْتَ بالرَّجل. ولولا مار نقولا ما جئْنا في هذه الساعة إلى هنا.

قلت: إذن أنتَ تعتقد أنَّ هذه النتيجة بِنْت تلك المقدِّمة!

قال: إن لم يكُنْ هذا اعْتقادي فهو إستنتاج صادق وتعليل صحيح..

قلت: ولكني أخشى أنْ أُصدّق تعليلك لأنّه يجعلني مَدِيناً[1] لمار نقولا بهذه العشرة دولارات التي أخذتها مِنْ أميركي لا يعرف مِنْ القدّيسين غير سانتا كلوز.

قال توفيق: وهذا هو الذي نعرفه.

قلت: ولكنّي أظنُّ أنَّ لمار نقولا شريكاً في الفضل!

قال: مَنْ هو؟

قلت وأنا أبتسم: مار توفيق الذي زارني هذا المساء!..

السّمير: 9/ 3/ 1938

الشّعر والحياة

استَفْتَتْ إحدى المجلات المصريّة بعضُ أكابِرَ الكتّاب في مصيرِ الشّعر فكان أكثرُهُم مُتشائِماً يزعَمُ أنَّ الشّعر قد دخل في طور الإنهزام أمام عواملِ الحياة الجديدة.

وهذا رأيٌ سبقَ أن بَسَطَ غيْرهم مِثله مِنْ قبل فلم يكنْ بالرَّأي السّديد لأنّه رأيُ أُناسٍ هَمَدَتْ في قلوبِهِم حرَكات الهوى وغابَتْ عن عيونِهِم البَواعِث التي تخلقه فيهم.

---

1 ودان فلانٌ دَيْناً اقترضَ فهو دائن بمعنى مَدِيْن.

يدوم الشِّعر ما دام الكلام. والكلام باقٍ ما دام في قلبِ الإنسانِ رغائِبُ وأشواقٌ يشقِيْه أنْ يُعلنَها أو يصوِّرها إمَّا لشخصٍ ما أو لِذَاتِه.

وإذا كانت الحضارة الميكانيكية الحديثة قد بَدَّلَتْ الإنسان مِنْ منزله ولباسه وطعامه وشرابه. فهي لم تبدِّل اللَّيل ولم تغيِّر وجه الفَجْر. ولا سَلبَتْ الصَّيف نجومه وأزهاره وجداوله. والشِّتاء رعوده وبروقه وثلوجه وأمطاره.

إذن ما دامتْ البشريَّة ذَكَراً أو أُنْثى. وما دام للرَّجل إلى المرأة حنين. وله بجمالها وعذوبتها هيام.

وما دام اللَّيل ينسَدِل في الأرض على عاشِقَين.

وما دام القلب ينبِض ويخفق بدون محرِّك ميكانيكي.

وما دامت الطَّير تغنِّي. والجداول تترقرق والأزهار تصطبغ بألوان الشَّمْس وتنشر طيوبها مع النسمَات.

ما دامت هذه كلّها فسوف يظل في زاوية مِنَ الأرض شاعر تلمس قلبه يد الآلهة فينبع سحراً أو شعراً أو خمراً يصبها في كؤوس مِنَ الألفاظ فتدور على النَّاس فيشربونها وكُلّهم يحسَبُ أنها معصورة مِنْ روْحه.

لا. ليس الشِّعر في طور الإنهزام وإنَّما الذي يزول ويضمَحِّل هو الكلام الذي يعرض على النَّاس في زِيِّ الشِّعر دون أن يُتَرْجِم عن شيء في نفس قائِله أو في نفس أيّ لسان...

وهذا النوع مِنَ الكلام ينقرضْ ويَتَلاشَى لأنَّ الأفهام تأبَى أنْ تتغذَّى به بعدَ أن ثبتَ أنَّه لا يحَرِّك قلباً ولا شيئاً في قلب. ولا يُروِّضُ عقلاً ولا يهُزُّ روحاً.

إنَّ الحياة ذاتها شِعْر فعندَما تتعطَّل الحياة يَبْطُلُ الشِّعر.

السَّمير: 11/ 3/ 1938

إزْرعْ جميلاً ولو في غيْرِ موضِعِه

نريدُ أن نخالِفَ صاحب هذه النَّصيحة فنقول إنَّ كُلّ موضعٍ هو موضِع الجميل والمعروف حتى في المكان الذي يظنُّ الكثيرون أنّه غير مكانه.

فمَنْ يصنع الجميل ويتوقَّع أنْ يرجع إليه كُلّه أو بعضُه لا يكون إحسانه كاملاً أو بالأحرى لا يكون فهمه للجميل تاماً.

ماذا عليك إذا تصدَّقْتَ على فقيرٍ رأيْتَه في الطَّريق إنْ اشْترى بدرهمِك فنجان قهوة أو إشترى بِهِ كأس جِعَة [1].

---

1 الجِعَة نبيذ الشَّعير والقمح.

أما كَفى أنّه مَدَّ إليك يده واسْتَجْدَاك؟

أما كفى أنّه وقَفَ مِنْك موقِفَ السَّائِلِ المُستَجِيْر بك؟

قد تقول: إنَّك وهبْتَهُ درهمك لأنّه جائع أو عطشان أو مقرور أو شريد. فإذا صرفَه في غيْرِ هذه الحاجات يكون قد كذَبَ عليكَ وخدعكَ وغشَّكَ وصرفَ درهمك في غير القصْدِ الذي قصدته.

حَسَنٌ كلامك ومعقُول ولكن أنسيْتَ تلك الغبْطَة التي شَعرْتَ بها عندما مَدَدْتَ يدك إلى جيْبِك وأنتَ تقول في نفسك: إنَّه جائِعٌ وأنا في وُسْعِي أن أُطعمَهُ. وإنَّه عطشانٌ وفي قُدْرَتِي أنْ أسْقِيه. وإنّه شريد وفي إمكاني أنْ آويْه.

ألا تُساوي هذه الغِبطَة وإنْ لم تعمِّرْ طويلاً ذلك الدِّرهم الذي لو بقي معك لَمَا زاد في غبطتِك ولا في صحتِك ولا في قُوَّتك؟!

نحن في مهمَّتنا الصّحفيَّة نحاولُ أن نكونَ مُحسنين لا بالفضَّة ولا بالذَّهب. ولا بالكساء ولا الغذاء. بل بِمَا يعُود على النُّفوس بالغِبطة والمسرَّة والفوائِد الرُّوحيَّة.

ولَكِنَّ بعض الأحيان نلقى مِن بعض النَّاس ما جعلنا نشعر شعور الرَّجل الذي بذل درهمه فصرف لغَير الغاية التي وُهِبَ مِنْ أجلها. فنكاد نحزن لأنَّ ما أرسلنَاه بركة قد رجَعَ إلينَا لعنة!

غير أنَّنا لإيماننا بأنَّ العمل الطَّيِّب كالنُّور لا يفسد حتى في المكان الموبوء. لا نوبِّخ الذي يسيء فَهْمنا أو يسيء أسْتقبال عاطفَتنا بل ننقلِب إلى الإشفاق عليه لأنَّه لم يحْسن الأخذ عندمَا أحسنَ غَيْرُهُ العطاء.

وَلَكِنْ حتى هذا لا يمكِنْ أن يُقال عنه أنَّ الجميل الذي أُسْدِي إليه قد زُرِعَ في غير موضِعِه لأنَّه إذا كان هو لا يرى فغيْره يرى. وسيأتِي يوم تنفتِح فيه عَيْنَاه وتستيقِظُ روحه فيُدرِك أنّه كان مُسِيئاً والفضل في هذا الإدْراك يعود إلى هذا الجَميل الذي زُرِعَ عنده فلم يثمر إلاّ بعد زمن طويل.

إذن كُلّ مكان صالح لزرع الجَميل مِثلما كُلُّ مكانٍ صالحٍ لدُخُولِ النُّوْر النَّقِي إليْهِ وإنْ لم يكُن هناك عَيْن تلذ بالنُّور.

فلا تَـأْسَفَنَّ على جَميلٍ زرعتَهُ وخِلْتَ أنَّه ضاع. فالجَميل لن يضيع أينَما زُرِعَ. وهذا أصْدَقُ ما قالَهُ شاعر حكيم.

السَّمير: 15/ 3/ 1938

كتَـابُ الحيَاة

عمَّا قريب تنفتِحُ في كتاب الحياة صفحة غير جديدة لأنَّكَ قد رأيْتَ مثلها مِنْ قَبْلُ. ولكنَّكَ ستراها جديدة عندما تطلُّ عليها أو تطلُّ هي عليك.

نحن الآنَ في فصل الرَّبيع وقد بدأنَا ننشقُ رائِحته في الهواء ونلمِسُ روحه في كُلِّ ما حولنا مِنَ

الكائنات. فهوَ يطلُّ علينَا مِنَ الأشجار خضرة. ومِنَ السَّماء صفاء. ومِنَ النُّجوم سناء. ومِنَ الجَدَاولِ خريراً. ومِنْ أَلْسِنَة الطَّيْر أناشِيْد. ومِنْ كُلِّ شيءٍ بهجَةً وحُبُوراً.

إنَّ في الأرض يقظة لا شكَّ أنَّ في نفسِكَ مثلها لأنَّ ما يؤثِّر في الشَّجرة والزهرة والجدول يؤثِّرُ فيك وإنْ خالَفَ الشكل الشكل.

ستجِدُ نفسك عمَّا قريب مشتاقة إلى الإنفلات مِنَ المكان الذي أنتَ فيه إلى البريَّة أو الجبَل أو الشاطيء. وستَلقَى حيثما سِرْتَ آيات فاتِنَة. وصُوراً خلاَّبة. هذا إذا فتحْتَ عليها عينيْكَ ولَمْ تقفِلْ دونها باب روحك. فكثيرون يمرُّون بهذه المفاتِن في الرَّبيع والصَّيف وكأنَّهُم لم يروا شيئاً لأنَّهم لا يعرفون كيف ينفصِلُون عن عاداتِهِم وأطْوارِهِم فيعملُون وهم في حضْن الطَّبيعة كما يعمَلُون وهم في المدينَة في البيوت والملاهي والمجْتَمَعَات.

ثمَّ يرجِعُون وهمْ لم يقرأوا مِنْ كِتابِ الطَّبيعة سطْراً ولا وَعَتْ أرواحهم مِنْ مَعَانِيْه معنَى.

إنَّ لله في كُلِّ شيء آية وفي كُلِّ آية للمُتأمِّل المُتبَصِّر عِظة بالِغة.

فإذا كان قد فاتَكَ مِنْ قَبْلُ أنْ تقرأ الآيات وتفهَم العِظَات فلا تَدَع هذا الأمر يفوتك مِنْ بَعْدُ.

اقترِبْ مِنَ الطَّبيعة برُوحِكَ وعقلِكَ مثلَما تقترِب مِنْها بجسدِكَ عندما تنتقلُ مِنَ المُحيط الذي صَنَعَهُ النَّاس إلى المُحيط الذي صنعَهُ الله.

ورَوِّضْ عقلك على تفهُّم ما تَرى مثلَما تروِّضُ جِسْمَكَ فإنَّك لَتستَفيد مِنْ مُعاشَرَة الشَّجر والزَّهر والطَّير والماء أكثر ممَّا تستفيد مِنْ معاشرَة النَّاس. لأنَّ هذه لا تُخادِعُك ولا تمكرُ بك ولا تصحبُك لمأرَب تطلبه عندك أو لحاجة تريد أن تقضيها بواسطتك.

فإنَّها هناك وإن لم تكن أنتَ هناك. ولا يزيدها قربك مِنْها جمالاً كما أنَّها لا تقبح إذا بعدْتَ عنها.

ولكِنْ أنتَ الذي تستفيد جمالاً وقُوَّة وحِكْمَةً كُلَّما تعمَّقْتَ في دَرْسِها وأوغَلْتَ في صحبتها. وكُنْتَ على بصيرة مِنْ أمرك وأمرِها.

لا تقُلْ هذا كلام شاعِر بل تدبَّر الأمر بعيْن الروِيَّة ليَسْهلَ عليك عندما يحْوِيكَ اللَّيل على شاطيء أو في جبَلٍ أنْ تعرف كيف تلذّ بالصَّمت الذي يغمرُ الآفاق وتجدُ لذَّة أن تستيقظ عندما يستيقظ الفجْر فتترَنَّم مَعَ الطَّير عند طُلوعه.

فإنَّك إنْ فَقِهْتَ كيف تصحب الرَّبيع وكيف تدعوه إلى روحك حينما يدعُوك هو إلى حماه ويعرض عليك بدائعه. أدْرَكْتَ حينئِذٍ أنَّ ساعة واحدة على تلك الحالة خيرٌ مِنْ أعوام تقضي في حالةٍ سواها.

فَتزَوَّدْ سُوَيْعَات قليلةٍ جميلةٍ تعينك على الأيَّام والشُّهور التي تتضايق الرُّوح في طَيَّاتِها ومثانيها.

أقرأ كتاب الحياة المفتوح أمامك. اقرأ بِعِلمٍ واحفظ معانيه بِفَهْم.

السَّمير: 28/ 3/ 1938

كيف يُعلِنُ الكاتِب نفسَه

ما رَسَمَ فنَّان صورة. ولا أنشأَ كاتِب مقالاً. ولا رَوَى مُحدِّثُ حكاية إلاّ ورأيْتَ في ما رَسَمَ الفنَّان خيال نزعاته. وفي ما أنشأَ الكاتِب مِثالاً لتصوُّراتِه. وفي ما رَوَى المُحدِّثُ حكايةَ ذوقه أو قصة حياته.

إذن فالكاتب - والأحسن أن نقتصِرْ على الكاتِبْ - يعرِض نفسه في ما يعرِضه على النَّاس وهو يدري أو لا يدري. فإذا كان سَقيم الذَّوق ظهَرَ هذا السَّقم في ما يطرحه قلمه على القِرطَاس مِنَ الكلمات التي يصرفها إلى غيرِ معانيها. فيتَّسِع المجال عليه للنَّاقِدِين فتسمعهم يقولُون - ما كان أغْنَاه عن هذه العبارة. وما كانَ أجدَرَه أن يستعمِل هذه الكلمة بدل تلك فقد أفسَدَ المعنَى الذي أراد تأديته.

كاتِبٌ مثل هذا يُعلِن نفسه كاتباً رديئاً سقيم الذَّوق قليل الخبرة بالكلام.

وقد تنطوي أحياناً تحت كلام الكاتِب الرَّكيك فكرة جديدة جميلة فَيُعْذَر ويُشْكَر. وتمْحُو هذه الحسنة السيئة. أمَّا إذا أجْتَمَعَتْ الرَّكاكة في التعبير والعقم في التفكِير في كاتِب فصاحِبُهُا لا يُعْلِنُ نفسَه للنَّاس كاتِباً بل يدمغُ جبينه بأنَّه رجل يزجُّ نفسه بين رجال القلم على غير أهليَّة ولا اسْتحقَاق.

ويكون مثَلَهُ كمثَل الذي لم يُخْلَق ليكونَ رساماً ويحاول أنْ يكسَبَ مِنَ الدُّنيا لقب رسَّام ولو جاءه مِنْ أفواه الصبية.

والصَّحافة على ما نعرف ويعرف الكُلّ. هذه الصَّحافة التي يزاوِلها اليوم أناسٌ لم يُخلَقُوا لها. تقومُ في الدَّرجة الأولى - لا على المطبعة ولا على الحروف ولا على الآلات - بل على فَنٍّ الكتَابَة الذي يمكنُ تعريفَه بأنَّه فنُّ تأدِيَة الأخبار والأفكار إلى النَّاس في صورةٍ لا زَيْغَ فيها ولا عوَج ولا الْتباس ولا غُمُوض. لأنَّ الكاتِب إنْ لم يحسن تأدية أفكاره تصعَّب على النَّاس أن يُحْسِنوا فهمها. وإذا لم يفهموا ما يعني ضاعَتْ جهودُه كُلُّها عبثاً وكان كأنَّه لم يكتُبْ!

والكتابة كما يَعْلَم مُعالِجُوها ومُمارسُوها فنٌّ دقيق ولا سيَّما في اللُّغة العربيَّة التي يمكن أن يُقَال: إنَّها رسمٌ وموسيقى وكتابة في وقت واحد. فأشكال حروفِها نوعٌ مِنَ الرسم. وأوزانُ كلماتها نوعٌ مِنَ الموسيقى. ولعلَّ هذا هو السر في كَثْرَة الشُّعراءِ عند العرب فإنَّ نَبَرات مفرداتها وتجانُسَ الكثير مِنْ كلماتها يحرِّك النَّفس فتجيشُ فيها عوامل الطَّرب فتندفِع تشدو وتغنِّي.

فإذا رأيْتَ كاتِباً لا تُضْحِكُ كلماته. ولا تُغَنِّى عباراته. فاعْلَمْ أنَّه مكدود الذِّهن خامد القرِيْحة ذابِل الرُّوح. وكاتبٌ كهذا يجب أنْ يتحاشاهُ القارئون لأنَّه يجلِب إلى نفوسهم المَلَل والسَّأم. وربَّما أفسدَ ذوْقه السَّقيم أذواقهم الصَّحيحة.

فقُلْ لذاك الذي يبحث عن عيوب الصَّحافة ارْجَعْ إلى نفسك وفتِّش عمَّا فيك مِنْ عيُوب وجرِّب أن تحصيها إنْ كان في قدرتك أنْ تحصيها.

ولئِن تحصي عيوبك خيرٌ مِنْ أنْ يحصيها عليك سِوَاكَ.

أمَّا إذا كُنْتَ قد ساءَتْ بكَ الحالة حتى ما عدْتَ ترى هفواتك الباديَة لكُلِّ النَّاس فعظَّمَ الله أجرنا فيك.

السَّمير: 29/ 3/ 1938

أبو الثورات

لكُلِّ ثورة رجالها الذين يُعزَى إليهم الفضل في نجاحها. ويثني عليهم المؤرِّخون ناسبين إليهم صفات الأبطال حيناً وحالات الأنبياء حيناً.

غيرَ أنَّك إذا تعمَّقْتَ في درس أسباب الثورات واردْتَ أنْ تَسْتَفسِرَ على الباعث الأول على شبُوب نارِها وجدْتَ أنَّ أبا الثورات والإنقلابات هو الجُوع الذي قال العرب إنَّه «كافر» لأنَّ الكافر عندهم لا دين له يردعه عن أرْتكاب المعاصي والموبقات.

إذا جاع إنسان واحد سرق أو احتال أو زوَّر أو اخْتلَسْ أو خطف.

أمَّا إذا جاع الجمهُور فإنَّه يثور فينْهَب ويسلب ويقتل ويدمِّر. فإذا النَّاس غير النَّاس وإذا البلاد غير البلاد.

فإذا قيل لك أنَّ الأمَّة الفرنسوية ثارَتْ مِنْ أجل مباديء الحريَّة والإخاء والمُساواة فلا تنس أنْ تذكر لمُحدِّثك أنَّ هذه المباديء لم تتمَخَض بها العقول إلاَّ عندما صاحَتْ عصافير البُطُون. فإنَّ الشبْعَان المُتْخَم لا يحزن ولا يحسد ولا يتألم بل هو قليلا ما يفكِّر. أما إذا عضَّه الجوع بأنيابه تغلَّلت النقمة على الدُّنيا في شرايينه مع الدم فراحَ يتساءَل لماذا يشقى وفي الدُّنيا ناس ينعمون. ولماذا يجوع ومِنْ حولِه أناسٌ يأكلون ويشبعُون. وهم ليسوا أجمل مِنْهُ صورة ولا أذكى منْهُ عقلاً ولا أنقى منْه دماً. بل ربَّما كانوا مِنَ القَوم ذوي الصور السَّمِجَة والعقُول الخامِدَة والقُلوب الغليظة التي ران عليها الجَهْل.

وعندما يبدأ المرء يفكِّر على هذا النَّسَق ويقارن ويقابل لا يلبَث أنْ يعتقد أنَّه مغبون مظلوم. فيذهب يبحث عن مصدر هذا الظلم والحَيْف. فيرى أنَّ السَّماء لم تميِّز بينه وبين الآخرين. وأنَّ الأرض لم تنبت البقل والثمر لقوم دون قوم. ولكنَّما الإنسان هو الذي يظلمه. فيثُور عليه ويطلب حقه مِنْهُ فأمَّا أنْ يفلح وأمَّا أنْ يفشلَ فيسجَّل اسمه في صفحة الذل والعار وينتقم مِنْه كما تنتقم كل سلطة مِنَ الخوارج والثوار.

لذلك تجد المُتمرِّدين على نظام أو على حكومة أوَّل ما يتسلَّحون به في ثورتهم هو تعليل الجائع بالخبز. والمظلوم بالإنصاف. والبؤساء والتُّعساء بالخير العميم.

وهذه الطَّريقة في استهواء الجماهير يتساوى فيها أصحاب النزعات الإصلاحيَّة وأصحاب

النزعات المفسدة فكلاهما يدرك ما لهذا الكلام من المضاء في التأثير على العقول. وكلاهما يعرف أن المعدة التي هي بيت الداء عند الأطباء. هي أيضاً بيت الثورة عند الزعماء الأذكياء.

السَّمير: 1/ 4/ 1938

عن الطَّريق

نيسان الكذاب ـ انهزام الرَّبيع ـ مقابلة بين فترتين وحالتين

كانت الأيّام الأولى مِنْ شهر نيسان فترة صحو وإشراق رأى النَّاس فيها وجه الصَّيف ونشَقوا روائحه فأخذوا يفتَحُون الأبواب والنوافذ للهواء المُنعش وأشعَّة الشَّمْس الدافئة ويعدلون عن الملابس الصُّوفيَّة الثقيلة إلى الملابس التي رقَّتْ وخفَّتْ. ولكِنَّ نيسان كان يخدعهم ويكذب عليهم فما كادوا يطمئِنُّون إلى هذه الظَّاهِرَة حتى تحوَّل مِنَ اللُّطف إلى الخشونة ومِنَ اللِّين إلى الشِّدَّة. ومِنْ شهرٍ ضاحكٍ بسَّام طروب إلى شهرٍ عابسٍ ناقم غضوب. وإذا السَّماء التي كانت صافية كعَيْن الدِّيك أو كمرآة الغريبة. تلتحِفُ غيوماً دكناء سوداء. وتخلع على الأرض التي استيقظَت فيها الأحلام حُلَلاً بيضاء مِنَ الثَّلج.

وقد رأيْتُ أنا بدء ذلك يوم فارقْتُ نيولندن فذكَّرني هذا الإنقلاب في الطَّقس بعد ذلك الصَّحو الجميل ما كانَتْ عليه البِلاد في السَّنة المُنصَرِمة مِنْ نشاط في جميع نواحي الحياة التجاريَّة والصِّناعيَّة وكيف انْقضَتْ تلك الفترة سريعاً وسادَ الكسَل والجُمُود في المخَازن والمعَامِل. وكأنَّما هبَّتْ على كُلِّ شيءٍ عاصفة ثلجيَّة. فجمَدَ لها كُل عِرْقٍ نابِضٍ متحرِّك.

وكأنِّي بنيسان أرادَ أنْ ينتقِم مِنَ النَّاس ليَجزيهم عن السَّيِّئة بمثلها فكذب عليهم هذه السَّنة لعلَّهم يَعْدِلُون عن تشويه أوَّل يوم مِنْ عمره كُلّ سنة بالأكاذيب والأخاديع التي يلفقُّونها ويفرحون بإنطلائِها على أصدقائِهم ويستغرقُونَ في التحدُّث بها حتى ليَذْهَل الواحد منهُم عن أهم شيءٍ بين يدَيْه.

ولكن إذا كان نيسان قد إِنْغَلَبَ على أمرِهِ فلم يقدر أنْ يعرضَ محاسنه في أيَّامِه الأولى وظهَرَ كأنَّه قطعة مسلُوخة مِنَ الشِّتاء أو مريض ذو داء فهو اليوم ينقه[1] ويتعافَى ويعود إلى إشراقِه وتألُّقِه وقد شرَعَ ـ ولو متأخِّراً ـ يزيِّنُ الأرض بالصُّور الرائِعة.

وكما تغلَّب نيسان على الزَّمهرير وانْفَلَتَ مِنْ وثاقِه فسوف تتغلَّب أميركا الفتيَّة الغنيَّة على الشَّدائِد والأزمات التي تعانيها لأنَّ القُوَّة الكامنة فيها ليست ممَّا تلاشيه محنة أو أزمة أو نزاع بين الأحزاب. أو عِراك بين نظريَّات.

---

1 نَقِه: من مرضه نَقْها ونُقُوهاً صحَّ وفيه ضَعْف أو أفاق فهو ناقه ج كرُكَّع.

وليس هذا مِنْ باب تعليل النفُوس المُتضايقَة بالأماني الكَواذِب. بل هو الحقيقة التي تعبث بها وتشوِّهها ألسِنَة المُتشائِمين فلا بدَّ في النهاية مِنْ حالة استقرار. وليست الحالة التي نحن فيها ممّا يصلح أنْ تستقر عندها الأفكار وتسكُن العزائِم والعقول.

ما دامَ في الإنسان نزوع إلى الأحسن فسوف يبلغ إلى الأحسن. وإنْ كثُرَتْ عثراته وطال تيهه وزاغت به الطَّريق.

السَّمير: 15/ 4/ 1938

عن الطَّريق

في مدينة القباب والصُّلبان

سُمِّيَتْ مونتريَال مدينة القباب والصُّلبان لأنَّ الزائِر لا يرفع عينيه إلى مكان إلاّ ويشاهِدُ قبَّة أو صليباً. وقد تكون القبَّة على كنيسة أو على فندقٍ كما يكون الصَّليب على هضبة أو على منزلٍ. بلْ قد رأيْتُ بعضهُم يرسمُ إشارة الصَّليب على وجههِ في الفندق عندما يجلسُ إلى المائِدة ويبدأ الأكل.

وأكبر صليب موضوع على قمَّة الجبل المُلُوكي أو «مونت رويال» وهو يبدو للعُيون مِنْ مسافَات بعيدة لضخامتِه وبضاء في اللَّيل بالكهرباء.

وكنْتُ أُسَمِّيها المدينة النَّاسِكَة أو المُتعبِّدَة ولكنَّني رأيتُها مِنْ جهة أخرى لا تختلِفُ عن أيَّة مدينة أميركيَّة في حوانِيتِها وما فيها مِن المصنوعات والبضائِع. ومَا عليها مِنَ الزينة والشَّارات.

كُل ما هنا يشبِهُ ما هناك إلاّ أمر واحدٌ هو الزحام المصحُوب بالسرعة فإنَّ هذه المدينة على رغم أنَّها عاصمة تجاريَّة تمشي على مهل.

وتسمع النّاس يتحدَّثون فإذا هم مثل القوم في الولايات المتحدة تدور أحاديثهم على ما قال الرئيس روزفلت للشَّعب على الرَّاديو. وما قاله للنُّواب في الكونغرس.

وإذا سألتهم لماذا يهتمُّون بمجريَات الأمورفي الولايات المتحدة أكثر من إهتمامِهِم بالقضايا التي تحدثُ في كندا أجابُوا أنَّ رخاء كندا وعسْرها متوقِّفَان على رخاء الولايات المتحدة وعُسْرها. وأنَّ كل موجة تندفِع في الولايات المتَّحدة لا بُدَّ لها مِنْ أنْ تصل أخيرا إلى كندا.

واشتريْتُ نسخة مِنْ جريدة الغازت المونترياليَّة فلمَّا مَرَرْتُ عليها بنظَري حسبتني أقرأ جريدة تصدر في مدينة شيكاغو أو مدينة كليفلند لأنَّ صفحتها الأولى طافِحَة بمثل الأنباء التي تموجُ في الصَّفحات الأولى مِنَ الجرائِد الأميركيَّة. وبعض الرَّسائِل السِّياسيَّة عن العواصِم الأوروبيَّة مشتركة بينها وبين جريدة التَّايمس النيويوركيَّة.

وعلى ذكر التَّايمس أقول أنِّي قرأتُ خبراً صغيراً عنها وهي أنَّها رفعَتْ سعر النسخة إلى ثلاث

سنتات بدلاً مِنْ سنتَين أسوة بجرائِد المساء في نيويورك. فكأنَّها ترجع إلى خطة صاحبها المرحوم «اوكس» الذي رفَعَ سعر النسخة إلى خمسة سنوت عندما اشتراها وكانَتْ في ذلك الوَقْت لا تطبع أكثر مِنْ عشرين ألف نسخة في النَّهار فإذا استمرَّت تطبع هذا العدد الكبير بعد هذه الزِّيادة في السِّعر زادَ دخلها في النَّهار الواحد خمسة آلاف دولار. والأرْجَح أنْ يزدادَ انتشارها لأنَّها تكاد تكون الجريدة الوحيدة التي يرجع إليها في الأخبار العالمية بعد انصراف اكثر الصُّحُف إلى العناية بأخبار الطَّلاق والشَّقاوة والحوادث الغراميَّة.

أمَّا إذا كانت هذه الزيادة لسَدِّ عجز فإنَّها لنْ تسدَّ عجزاً بلْ سوف توجد عجزاً أكبر إلاّ إذا تساهلَتْ التَّايمس قليلا في حشْمَتِها ورصانتِها وسارتْ والصحف الأخرى في طريق واحد. وأعني الصحُف التي يتهافَتْ عليها الشَّباب والفتيات ويُجارِيهِم في ذلك الكبار لسهولة حملها واختصار أخبارها.

السَّمير: 2/ 5/ 1938

قبل الرحيل

أكتُبُ هذه الكلمة وأنا اتأهَّبُ لركوب القطار إلى مدينة تورنتو التي غلب عليها لقب «جنينة كندا» كما أشْتهَرَتْ مونتريال باسم «باريس العالم الجديد». وما لبسَتْ صفة شخص أو مكان إلاّ لأسبَاب معقولة.

سأخرج مِنْ مونتريال في هذا المساء ونفسي مغمُورة بغبطة متألِّقة كفجر أيَّار. وفي ذهني ذكريات جميلة، ذكريات أشخاص وأماكن كلّها ممَّا تحتفظ به الرُّوح به وتسْتَبْقِيْه لأنَّ في اسْتبقائِه لذه لها وطرباً.

عَمَّا قليل سأفارِق هذه المدينة التي يلوذ بها النَّهر وتلوذ هي بالجَبَل. وبعد قليل يغيب عنِّي هذا وذاك. النَّهر بكُلِّ جماله. والجبل بكُلِّ جلاله. كما ستغيب عن عيني القِبَاب والصُّلبان والأضواء والأبراج وتبقى صور الأصدقاء تتردّد في مخيَّلتي. وأحاديثهم العذبة كالأغاريد تتردَّد في أعماق روحي فترتعِش كالنَّهر حرَّكته النَّسمات وتسكن وتطمئِن كالجبل غمره نور القمر.

لقد حملت في حقيبتي طائِفة كبيرة مِنَ الصور التذكاريَّة لمشاهد طبيعيَّة رأيتها أومواضع تاريخيَّة مررْتُ بها أو أبنِيَة فخمة عظيمة حدَّثوني عنها. ولكن أعظم هذه الصور وأجملها وأحبُّها إلى نفسي ليست في حقيبتي بل في قلبي!

إنَّ هذه الصور التي في حقيبتي يمكن أنْ تضيع أو تسرق أو تمحى أمَّا تلك الصورة فلا تضيع. ولا تصل إليها يد السَّارق. ويستحيل أن تمحى.

ولتلك الصور في حقيبتي أمثال وأشباه. ولغيري مثلها. أمَّا الصورة التي طبعتها الجالية الكريمة في قلبي فهي لي وحدي وأنا الذي ينعمُ بها. وأنا الذي سيحرص عليها لِتظَلَّ لي. وأَظلّ أنعم بها.

يقولون مَنْ كتبَ فسوف يعود فيكتُب. وأنا أقول مَنْ زار مونتريال مرَّة فسوف يعود فيزورها. لأنَّ فيها جالية قد قطعَت على ذاتِها عهداً أنْ تتحَوَّل كلَّما نزل بها ضيف إلى أنشودةٍ عذبة شجيَّة ساحرة يصغي إليها فيسكر. ويبتعد عنها فيشتاق إليها.

ولقد سمعْتُ أنا هذه الأنشودة السَّاحرة فسكرت ورقَصَتْ رُوحي على ألحانِها. وها أنا أبتعِد عنها فأحسُّ كأنِّي أنفصِلُ عن شيءٍ لي. أو ينسَلِخُ مِنِّي بعضي.

جئتُ إلى مونتريال شيِّقاً

وأعود عنها وأنا أشوق

أتيتها وأنا أستشعر وحشة لنيويورك

وأخرج منْها وفي نفسي وحشة لها

جئتها يوم ثلاثاء وأودِّعها يوم ثلاثاء

فَشَتَّانِ ما بين اللِّقاء والوداع

كان دخولي إليها كالميلاد وخروجي مِنْها كالهجرة.

ولقد سلخت فيها أربع عشرة ليلة كانت لحلاوتها كأنَّها مواسم ومهرجانات بفضل ما أبداه الأصدقاء الأكارِم مِنْ ضُروب الحَفَاوة بي في منازِلِهِم الأنيقة ومخازنهم الجميلة وحيثما لقيتهم ولقوني.

السَّمير: 14/ 5/ 1938

لذَّة ضائِعَة ـ متى يبلغ البنيان تمامه؟

أَمسكْتُ عن الكتابةِ وليس في النَّفسِ زهدٌ ولا ملَل. وسكَتَ القلم ومجال القول متَّسع فسيح. فضلاً عن أنَّ لقرَّاء «السَّمير» حقاً علَيَّ ما نسيته ولنْ أنساه. وأنا أجد في التَّحدُّث إليهم كُلَّ يوم لذَّة لا أَجدُ مثلها في السكوت فإذا أنقطَعْتُ عن الكتابة أفلَتَتْ مِنِّي هذه اللَّذة وشعرْتُ شعُوراً عميقاً بفقدانِها.

على أنِّي إذا كنْتُ قد عاقَتْنِي عنهُم الأحوال التي تحيط بالمسافِر الجوَّاب فما شَغَلَ هذا المُسافِر الجوَّاب عنهم غيرهم. فهُمْ يريدون أنْ تكون «السَّمير» قويَّة منيعَة وهذا ما أعمل له أنا. وهم يبتهجُون أنْ يروا هذه المؤسَّسة الأدبيَّة تنمو وتزدهِر وهذا الذي أطوْفُ في الأرض مِنْ أجلِه.

فانْقطَاعِي عن الكتابة ليس عن رغبة في الإنقطاع وإنَّما هو السَّفَر الموصول بالسَّفر. واستئثار الأصدقاء بي..

فإذا كان سكُوتِي غبْن فهو علَيَّ وحدي لأنِّي حُرِمْتُ لذَّة يشُقُّ علَيَّ حرمانها. أمَّا هُمْ فقد استعاضُوا

عن قلمي في هذه الفترة بقلم كاتب بحّاثة خبير هو قلم الصّديق يوسف لفلوفة الذي يدير «السّمير» في غيابي إدارة ربّان ماهر حكيم.

غير أنّها فترة لن تطُول. سنعود فنلتقي وأسْترجع لذّتي المفقودة.

كنتُ في توليدو اوهايو عندمَا ظهرتْ في «السّمير» برقيّة الخوري جبرائيل صالحاني المُنبِئَة بأنّ عهْد الخلاف قد انْصرَم في الطائِفَة الأرثوذكسيّة. وأنّ عهد توحيد الكلمة والجهُود قد بزغ فجره. فتهلّلْتُ للخبَر كما تهَلّلَ كل محِبّ لهذه الطائِفَة حريص على كرامتِها راغب في مجدِها وسمعْتُ كثيرين يحمدون الله لنجاح المساعي التي بذلَها المخلِصُون ولا سيّما في كنَدَا.

إنّما بعضهُم اعترَضُوْا على صيغَة البرقيّة وتَمنّوْا لو جاءَتْ في صورة اخرى. ولكن لمْ يخطُر في بال أحد أنْ يلبس الإعتراض على صيغة البرقيّة شكل التّنْديْد والتّقريْع وأنْ يقف أفراد هذه المِلّة العزيزة موقِف الكَارِه للسّلام الرّاغِب في الخصام. وأنْ تمتد أيديْهِم لتمزيق الثوب الذي حاكَهُ المعلّمون الحُكَماء. وهو ثوب إذا تمزّق وسقَط لا بُدّ أنْ يشعر اولئِك السّاخطُون بالعري. ثم بِلَذْعِ البَرد مهما اشتَدّ بهِم السَخْط والغيْظ.

فإذا كان صانِعُوْ السّلام أبناء الله يُدْعَوْن فلا شكّ أنّ الذين يكرهُوْن السلام يكرهُوْن أنْ يكونُوا أبناء الله.

ومِنْ دَواعِيْ الأسَف أنْ يكون بَيْنَ كارِهِيْ السّلام والمُناهضِيْنَ للنّظام بعض لابِسي المسُوْح الذين تقضي عليهم وظيفتهم أنْ يسيْرُوا في طليعة موكِب السّلام ولو كان الطّريق شوكاً وحجراً.

نحن نعلم أنّ البناء صعب ولذلك لا نطلب مِنْ غيْرِ القَادِرِ أنْ يشيْدَ ويبْنِيْ أمّا التخريْب فسهل ولهذا نسألُ الذي لا يقدر أنْ يبني أنْ لا يهْدِم ما يبْنِيْه غيره.

إذا كُنْتَ لا تقدِر أن تأتِي عملاً مليحاً فَلْتَكنْ فضيلتك الكبْرى أنْ لا تأتِي عملاً قبيحاً.

والوقوف في طريق السّلام عملٌ قبيحٌ ومضِرٌ لا يُكسِبُ صاحبه غير الذّمّ.

السّمير: 11/ 6/ 1938

على شاطيء البحيرة

لا أدري لماذا يستهوِيْني الماء؟ فما وقفتُ مرة على شاطيء بحَيْرَة مِنَ البحيْرات التي مررْتُ بها في رحلتي إلاّ وأحسَسْتُ بأنّ نفسي ترتعش كما يرتعش الماء الذي أراه.

وقفْتُ على شاطيء بحيرة «اري» في كليفلند البحيرة التي نسِيَ النّاس أنّها بحيرة لاتّساعِها وتَرامِيْها فراحُوْا يسمُّونها «البَحْر» وكانت الشَّمْس قد تراخَتْ خيوطها وأخذت تنكمش وتتراجع عن البحيْرَة فلمْ يبق منها غيرُ شعاعٍ مستطيلٍ مُتوهِّج ممتد في البحيرة كأنّه سهمٌ مِنْ لهيبٍ أو حبلٍ مِنْ

أرجُوَان. ولم يَبْقَ في شاطيء البحيرة غير الظِّل والسُّكون. وشرذمة مِن العصافير لا تكاد تطير حتى ترجع فتستقر كأنَّها أدرَكَتْ السَّنَا الذي كان يملأ الجو وكانت تسبح فيه قد قارب الزوال ولا شيء يستبقيه. فهي تحاول أن تتزوَّد منه ما استطَاعَتْ كأنَّما هو لن يرجع. أو كأنَّما هي تشفق أن يعود إلى الشاطيء ولا تعود!

وقفْتُ هناك ساكناً كالماء الذي أراه. وروحي مثله تتماوج كأنَّها تريد أن تَثِبَ أو تندفق فلا تَثِب ولا تَنْدَفق.

ورائِي المدينة بقصورها وشوارعها المزدحمة وقطرها الصاخبة وسياراتها المتراكِضة.

وفي المدينة ناس سعداء وناس غير سعداء وشباب يحلمون بالغد. وكهُول يتطلَّعُونَ بأرواحِهِم وقلوبِهِم إلى أمس. وقلوب يعصرُها اليأس فتقطرُ علقماً وقلوب يلمسها إله الحُب فتَتَّسعُ وتنبتُ زهراً أو تفيضُ خمراً.

ورائي المدينة والنَّاس. غير أنِّي نسيْتُ وأنا واقف في الشاطيء. كل شيء ورائِي وشعَرْتُ وأنا في الشاطيء كأنِّي زورقٌ غير منظور في البحيْرَة تسير به أمواجها الساجية في كُلِّ ناحية. والأصَح أنْ أقول إنَّ البحَيْرَة هي التي كانَتْ في تلك اللحظة تمشي في روْحي.

وغابَتْ الشَّمْس كحلم جميل. وأنا هناك أرقُب البحيرة المرتعشة المتماوجَة كأنها نفس حزينة. ولقد رجعْتُ إلى المدينة الصاخبة فرأيْتُ النَّاسَ قد جنَّ جنونهم في الرَّكض وراء حاجاتهم والإندفَاع مع تيَّار أهوائِهِم حتى بِتُّ أخشى أنْ أحدِّثهم عَمَّا رأيْتُ في شاطيء البحيرة. لأنَّ الكلام لا ينقل إليهم شاطئاً ولا بحيرة ولا شمساً ولا حفيفاً ولا ارتعاشاً.

بل خِفْتُ إذا أنا تحدَّثتُ عمَّا رأيْتُ أنْ أشوِّشَ المشهَد الباقي خياله في ذهنِي. فأفقد اللَّذة التي أنعم بها.

إذا فَليَنْسَدِل الماء على البحيرة وليَنْسَدِل الصَّمت على فمي.

السَّمير: 29/ 6/ 1938

ماذا رأَيتُ في رحلتي

رأَيْتُ بعض الأولاد يخوضُون السَّواقِي يستحِمُّون فيها ويلعبُون وهي سواقٍ ليست كبيرة. فحمَلَنِي الخيال إلى لبنان وسواقِيْه إلى زمن الطُّفولة الذي كُنَّا فيه مثل هؤلاء الأولاد نخوضُ في مثل هذه السَّواقي.

قلت في نفسي: غداً تحمل رياح الحياة بعض هؤلاء الصِّغار إلى المدن الكبرى فيتَبَدَّلُون مِنْ أطوارِهِم أطواراً اخرى. ويُجَاوِرُون الأنهُر والبُحَيْرات والشَّلاَّلات فيعْجَبُون بها ولكنَّهُم يظلُّون

يذكرون هذه السَّواقي الصَّغيرة ويحِنُّون إليها. والصَّخُور التي وثبُوا فوقها والأشجار التي تعلَّقُوا بأغصانِها ويحسبُون أنَّهم كانوا في فردوس وأضاعُوْه!

ما أجملكَ ياعَهدَ الطفولة وما أعذب تذكاراتك وأحلامك.

قد لا تكون دنيَاك كبيرة ولا جميلة ولكنَّها الدُّنيا التي يحملها المرء معه أينَما ذهب. فتنقضي السُّنون وفيها المسرَّات والآلام والإنتصَارات والإندحَارات ولَكِنَّ سنوات الطفُولَة تبقَى هي البارزَة الواضِحَة في خيالِهِ مهما تلبَّد وتراكَم على خيالِهِ مِنْ الصُّور والأشباح.

وكُلَّما ازدادَ المرء بُعْداً عنْ مراتِع طفولته ومسارِحِها ازدادَتْ روعة وجمالاً وصارَ الشَّوق إليها أَشدَّ وأَعظم.

إلعَبُوْا أيَّها الأولاد وانْعَمُوا فلنْ تبقى لكُم هذه الدُّنيا الجميلة إلى الأَبَد. فَتَزوَّدُوْا منْها ما استَطَعْتُم قبل أن تزولُوْا عنْها.

وحَيَّاك الله يا سواقِيْنَا ويا هضابِنا.

السَّمير: 15/ 8/ 1938

في جبال الكاتسكل

كانت الطَّريق كأنَّها تُطْوى لنا لسرعة السيَّارة. فبينَمَا المرتفعَات أمامَنا ونحن لا ندرى متى نبلغها إذا بها قد صَارَتْ خلفنَا وتوارَتْ عنَّا في حجابٍ مِنَ المسافَة.

ونلتفِتُ إلى الجبَال التي نمرُّ بها فيُخيَّل إلينَا أنَّها ترحَلُ مِنْ مواضِعِها وتَتراكَضُ هاربَةً مِنَّا ونحاول أنْ نُثبتَ فيها أبصارنا فتنبو عنها.

وكان النَّهار قد اكتهَلْ وصارَتْ حبالُ الشَّمسِ واهيَة مشلُوْلَة فكأنَّ الشَّمْس أدركَها التَّعب واستولَى عليها الوَنَى.

ومَنْ لم ير النَّهار يكتهِل بين الهضاب الخضراء والسَّواقي الجاريَة وتحت سماء الصَّيْف الصَّافيَة لمْ يعرف أيُّ جلال في الكهولة وأيَّ فتون في أنفاسِه الأخيرة.

ومَنْ لمْ ير الجبال والأودية والأنهر وقد وشَّحتها كهولة النَّهار بالصَّمت وتَوزَّعَ فيها نور الشَّمْس فلصق بعضه في القمَّة وانحلَّ بعضه في السَّفح. وعلق رشاش منْه في رؤوس الشَّجر.. ومَنْ لم ير هذا المشهد لم يعرف أيّ رسَّام مبدِع ساحرِ هذه الدُّنيا المشتَعِلَة التي ندعوها «الشَّمْس» ولا سيَّما في آخر مرحلة مِنْ عمر النَّهار!

صورٌ خلاَّبَةٌ فاتِنَة في غير ألواح.

قصائِد رائِعة معجبة في غَيْرِ قراطيْس.

أَغانٍ شجيّة لم تدوَّنْ على وتر ولم يهتف بها صوت.

مفاتِن للنَّظر ومفاتِنْ للقَلْب ومفاتِن للرُّوح.

هذا هو الصَّيف في جبال الكاتسكل التي يقصدها المصوِّرون والشُّعراء لإقتباس الفنِّ مِنْ مدرستِها وأخذ السِّحر الحلال عنها. مثلَما يقصدها أصحاب النفوس المُتضَايقة والقُلُوب المكرُوبَة فتتساقَط عنْ عواتِقِهم همُوم المدينة وأثقَالِها حالما يبلغُوْن هضابها ويُشْرِفُون على أوديَتِها ويستحمُّون بنُوْر الشَّمس في تلك القِمَم.

فلا عَجَبَ إذا وجَدْنا في الجارتَيْن هاينز فولز. وتانرزفيل جُمهُوراً مِنَ السُّوريين يزيد عن عددِ جالية في مدينة كبيرةٍ ففيها اليَوم نحو مِنْ ثلاثمائَة عائِلة كُلّها مِنْ بروكلن إلاّ بضع عائِلات مِنْ جهاتٍ أخرى.

وتزداد الفنادِق والمنَازل إكتظاظا بالمُصطافِيْن في يوْمَي السبت والأحَد حتى ليصعُبَ تدبيْر غرفة لقادم جديد.

وهناك عائِلَة تجدها في كل فندق وربَّما في كل بيت فيه مُصطافُون. عائِلة لا تأكل ولا تشرب ولا تنام. ولكنَّها لا تفارِق الموائِد. ولا تُبالِيْ إذا كان الجالِسُون غرباء أم أصدقاء فالكُلُّ عندها سَواء.

لا يعرِف أحد منْ أيْنَ جاءَتْ مع أنَّ الكُلّ يعرفُون أفرادها معرفة جيِّدة ولبعض النَّاس بها إتصَال غير منْقَطِع ولهُ بها هَوَى وهيَام ولكن فأقرَبُ النَّاس إليها وألصقُهُم بها يجهَل أصلها ولا يعرف إلا أنَّها موجودة.

هي عائِلة يبلغ عدد أعضائِها 52 عضواً ولكنَّهم بعض الأحيان يتخلَّون عن صغارِهِم لئِلا يزعجوهُم وبعض الأحيان يحملونَهُم معهم كأنَّهُم قُوَّة لا يجب أنْ تفارقهم.

أمَّا هذه العائِلة التي لا شك في أنَّ القاريء الآن يتوقُ إلى معرفتِها فهي أص البستُوني وأتباعه الأُمَنَاء. وأص السبَاتي وأبناؤه النجباء. وأص الكبَّا وأنسباءه الأعزَّاء وأص الدِّيْنَاري وحاشيته الكريمة!!

وترى هذه العائِلة أبدا في نضال وعراك. مِنْ نصرٍ إلى إنكِسَار ومِنْ إنكسَار إلى نصْر دون أنْ يسقط رأس أو يتهشَّم عضو أو تجري نقطة دم وبعد كُلِّ معركة تتضام هذه العائِلَة كجناح الطائِر أو كخيُوط النّول فلا تعرف مَنْ منْها المكسور ومَنْ الظافِر.

وفي الواقع أنَّ الورق هو أعظم أسباب التسليَة للمُصطافِيْن ولا سيَّما عندما ينسدِلُ ستَارُ المساء أو يتعذَّر الخروج مِنْ جرَّاء البرد أو المطر. ولكنَّه كثيراً ما يصرفُ البعض عن الرياضة والتَّمتُّع بالضَّياء والهواء والمناظِر الطبيعية.

وفي تانرزفيل ثلاثة فنادق يديرها سوريُّون الأول في فندق «الينبوع البارد» أو كولد سبرنغ. والثاني هوتال بلمونت. والثالث ماجستيك وقد جرى مدير الفندق الأول السيد صابر خوري على طريقة

لطيفة وهي تقديم كُلُّ زائِر ذي حيثيَّة إلى جمهُور المُصطافِيْن في الحفلات الموسيقيَّة التي تقام مساء كل سبت.

وعلى مقربَة مِنْ هذا الفندق حلاَّق ساقَني إليه الشَّعْر المقضيِّ عليه بالإستئصَال كُلَّما نَبتَ أو هَمَّ بالظُّهور فأخبرَني أنَّ تلك النَّواحِي كان يقصدها فيما مضى ثلاثون ألف مصطاف كُلَّ سنة وأنَّ المكان الذي هوَ فيه كانَ لرجلٍ رسَّام إسمه هوسار وكَانَ له إبْنان آخران فخرَجَتْ مِنْ يدِه وهَجَرَ الجبل تاركاً وراءه آثاراً جميلة مِنْ رِيْشَتِه على الجُدران لَفَتَ الحلاَّق نظري إليها فإذا هيَ صُوَر أمَرَاء فارسيِّين وصُوَر جوَارٍ عارِيَات الأبدَان.

فأَعْجَبُ كيف ذهَبَ الرَّسَّام وحلَّ مكانه حلاَّق!

وفي اللَّيل تطلُّ مِنْ فوق الجبَل نجمَةٌ لَّماعةٌ غمَّازةٌ كأنَّها ترعَى الضُّيوف النَّازلين في الجبَل. وكأنَّها تنادي القوم قائِلَة ـ ألا تمتَّعُوا بالنظر إلَيَّ قبل أنْ يذهَب الصَّيف وتذهبُوا معه. فأنا لنْ أنصرف أمَّا أنتُم فسوف تنصرِفُون. وسترونَني هنا إذا عدتُّم في الصَّيف القادم.

وحقّاً أنَّ النُجوم هناك أسطَع وألمَعْ مِنْها في المدينة. وفيها سحرٌ قلَّما نراه فيها عندما تطلُّ علينا في نيويورك!

وليسَتْ النُّجُوم وحدها أجمل وأبهى في ذلك المصيف بل النَّاس أيضاً فالوجوه هناك مشرِقَة والنُّفُوس كلّها مودَّة. حتى لتحسَب مختلف القوم أسرة واحدة متعاونَة.

ولقد رجعْنَا ـ بعد أن نفضْنَا عنَّا كثيراً مِنْ غبار المدينة ـ لنعُوْد فنحمل كثيراً مِنْ هذا الغبَار!!

السَّمير: 2/ 9/ 1938

في مدينة الأموات

خرجْنَا أمس إلى المدينَة الصَّامتَة التي سادَ فيها الأمن والسَّلام إلى مدينة الأموات.

خرَجْنَا نُشيِّعُ صديقاً عزيزاً فارَقَنَا على كرهٍ مِنَّا ومِنْه. ولكن تَعِبَتْ عيناهُ مِنَ النَّظر إلى الشَّمس فأغمضَهُمَا لِيستَريح. ووهَنَتْ قواهُ مِنْ الجهاد في معترَكِ الحياة فطَوَى رايتَه وسَلَّم وسار في طريق الأرض كُلّها.

خَرَجنَا منْ المدينَة الصخابة التي لا ينقطِع صراخها وضجيجها لا عندَما يغمرها الصباح المُتألِّق بأَنواره. ولا عندما تكتنفها الظلماء بأمواجها السَّوداء الطامية.

وكان النَّهار مُشرقاً والجو صافياً ولكن فكرة أنَّنا سائِرُون في جنازة رجل كانَ إلى ثلاثة أيَّام خلَتْ يسيرُ بيننا ويتكلَّم ويضحك ويلعب ويأمَل ويرغبُ فصَار الان جثَّة هامدة في نعشٍ صامت، هذه الفكرة التي ملأت أذهاننا واستَولَتْ على مُخيَّلاتِنَا كانتْ ترِيْنَا المنازل التي نمرُّ بها كئِيْبَة. وتبْدِيْ لنا

الأشياء مضطربَة مُشوَّشة لا قيمة لها. وتظهر لنا كُلُّ إنسان يضحك أو يأكل أو يشتغِل أو يتأنّق في لباسِهِ وطعامه أحمق مغرورا. لأنَّه يخطر والموت في ثيابِهِ. ويمشي إلى حتفِه عندما يمشي إلى رغائبِه وأمانيه. ويجاهِدُ في معترك مضَتْ الأجيال والدُّهور يتعاقَبُ عليه النَّاس موكباً إثْرَ موكب فلم يمتلىء ولم يفرغ.

إنَّما هذه الفكرة السَّوداء القاتِمَة لحسن حظ النَّاس لا تستولي عليهم كل الوقت.فهي مثل كل حالة مصيرها إلى الزَّوال السَّريع أو البطيء. فلا تكاد تمتدُّ حتى تتقلّص ويعود الإنسان إلى ما كان فيه كأنَّما لا موت ولا زوال.

ولولا هذا الذُّهول في أبناء الموتى عن الموت لكانَ العيش قشعريرة باردة. ومرارة لا نهاية لها بل لَمَا كان للحياة منْ أثرٍ في الأرض. إذ مع هذه الفكرة لا يزرع أحد حقلاً ولا ينسج أحد ثوباً ولا يشيد أحد مسكناً.

ودخلنا المدينة الهادئَة الصامتَة. مدينة الذين انعتَقُوا مِنْ كُلِّ رقٍ في الحياة وباتوا لا يخافُون فقراً ولا مرضاً ولا يشتاقُون غنى ولا صحَّة. لأنَّهم في عالم لا جوع فيه ولا عطش ولا تعب ولا ألم.

وأَجَلْنَا النَّظر ونحن سائِرون فرأيْنَا الأنصاب تسامي الأنصاب. والقبُور تزاحم القبُور. ورأيْنَا السَّكينة ترفرف على اولئك النَّائِمين تحت التُّراب الذين عادوا بعد سفر طويل أو قصير إلى الوطن العجيب الخالد الذي يتَّجه إليه الإنسان كيفما مشى ومهما ابتعَد عنه وَطَن مَنْ له وَطَن ومَنْ ليس له وَطَن - إلى القبر.

هناك رأَيْنَا الإنسان الذي شادَ في المدينة المُتحرِّكَة الصَّاخبَة الدُّور والقصُور لِيُفاخِر بها ويعتز بقوَّته وما أبدَع. قد رفع في المدينة الصَّامتَة التي لا فخر فيها ولا مباهاة التماثيل الجميلة والأنصاب المنحُوتة ليَدُلَّ بها على أنَّه كان في الأرض وإن طَوَتْهُ الأرض. فهو أبداً يشتاق إلى إثبات وجوده. إلى البقاء والخلود. وهذا الشَّوق فيه هو الذي يملأ المدينة الصامتة بالأنصاب والتماثيل والمدافن الرخاميَّة البيضاء.

وهو شوق لا يموت. إذن فالإنسان لن يزول فكلَّما ذهب جيل جاء جيل.

السَّمير: 16/ 9/ 1938

مَنْ غربَلَ النَّاس نخلُوه
وربَّما ذروه في مهب الرياح الأربع

لا يفتأ ذلك الصَّحافي العقيْم يعرض بنا في جريدته الصَّفراء في خوف وحذر شأن كُلِّ جبان رعديد. وهو بذلك يحاول أن نلتفتَ إليه فنرفعه بعد السُّقوط ونشهره بعد الخمُول. فقد تركنَاه بعد تلكَ المُناظَرَة حول قضية الجنسية كشجرة نخرة خاويَة حطَّمتها العاصِفَة. وتَركنَا الذين وقَفَ مِنْ

خَلْفَهم يلعنُون السَّاعة التي حملتْهُم فيها الشَّفقة على أن يكونُوا له جداراً فقد لوَّثهُم بجهلِهِ ودَنَّسَهُم بلؤمِهِ وكاد يَنزِلَ بهِم عن مكانتهم إلى مستَوَاه!

لا. لن نلتفت إليه. ولكن يضحكنَا مِنْ هذا السَّخيف المغرور أنَّه يتكلَّم بأشياء ليسَتْ في منالِه ولا طاقة له بها ناسياً لحماقته أنَّ للنَّاس مدارك وأفهاماً. فتراه يقول مثلاً ـ «شغلتنا الازمة العالميَّة عن كثيرٍ مِنْ الشؤون التي نعدَّها تافهة أمام الخطر الأعظم» فكأنَّه ـ لا شفاهُ الله ممَّا به ـ كان مع تشمبرلين وموسوليني وهتلر ودالاديه في مونيخ يعالجُ قضية الحرب والسلام!! وكأنَّ الأزمة لمْ تنحلَّ عقدتها لولاه!!

وقد يكون الأمر الحاصل في تلك الفترة هو أنَّه كان مع زعنفة [1] مثله حول طاولة شراب أو طاولة أكاذيب وافتراءات.

وهو أبداً لشعوره بذل نَفْسِه وخبث طويته لا يلمح حسنة في رجلٍ إلا أنكرَها. ولا يسمعُ كلمة جميلة في ذي فَضْلٍ إلاَّ استغربَها. وكيف يشعر بالجمال مَنْ لا جمالَ في رُوْحِه؟!

وقد قلنَا مِنْ قَبْلُ لو أن هناك قضية مختلفاً عليها لما كَبُرَ علينا أن نتنازَل ونجاوبه بما يبهته ويفحمه. ولكن الأمر كلُّه هو أنَّ الرَّجل مشتاقٌ إلى التَّلاحي الذي فيه شفاء نفسه المطْويَّة على الحسَد منذُ كانَ فطيماً. وسيلزمُه إلى أنْ يصيرَ عظماً رميماً.

وأغربُ ما عمَدَ إليه أخيراً أنَّه أخذ يتوعَّد بالطَّعن على الكرامات والتَّهجُّم على السمعات بلسانٍ ما أوقحه. ووجهٍ ما أصفقَهُ [2]! ناسياً المثل المأثور ـ «مَنْ غرْبَلَ النَّاس نخلُوْه وربَّما طحَنُوْه وذرُوْه في مهب الرياح الأربع».

وإذا كان غرَّه الحلم فينا وفي سوانَا. فكثيراً ما خرج المرء مِنْ سجيَّته. وقرع للجاهِل العصا [3]. فأخلق بهِ أنْ يرتَدِع عن غيِّه إلا إذا كان لا يقدِر أنْ يجعل سمعتُه فوق النُّجُوم بحيث لا يبلغها لسان. ولا يصل إليها قلمٌ مسنون. ولْيذْكُرْ أنَّ كُلَّ سُمْعة أغلى مِنْ سمعَتِه. وكُلَّ ماضٍ أنقَى مِن ماضيْه. فإذا لم يعجبْهُ إلا أنْ يوازِنَ بين ما عندَه وعند النَّاس فعلنا!. ولكننا نؤكِّدُ له مِنَ الآن أنَّ الكِفَّة التي ستشيْل لن تكون غير كِفَّته!

أجَل إنَّنا مستعدُّون أنْ ننتقِل به إلى باريس ونقُصُّ له حكاية عجباً! بل مأساة هائِلَة!! فإذا اسْتَهْوَلَ المسافة أو سدَّ أُذُنيْهِ عن تلك الحكاية إنتقَلْنَا بهِ إلى مكان أقرب وقصصْنَا عليه قصَّة أعجب وأغرب!

السَّمير: 5/ 10/ 1938

---

1 الزِّعْنِفَة: بالكسر والفتح القصير والقصيرة وطرف الأديم كاليدين والرِّجلين والقبيلة القليلة تنضم إلى غيرها والداهية ج زعانِف.

2 صفقه: ووجه صفيق بيِّن الصَّفَاقة وَقِحٌ.

3 قَرَعَ له العَصَا: قرع رأسه بالعصا ضربه وإنَّ العصا قُرِعَتْ لذي حِلْم إذا نُبِّه انْتَبَهَ.

أَنْقِذوا أمّة تتعذَّب

أيُّها المُهاجرون الأحرار

يا أبناء الضَّاد البرَرة

يا أنصار المروءة

يا أصحاب النَّجدة والنَّخوة في الملمّات والشّدائِد

إنَّ «السَّمير» تستصرخكُم اليوم. وما تعوَّدَتْ أن تستصرخكُم إلاّ في حادث جَلَلْ. أو لأَمرٍ فيه شرَف لكم ونبل. ومجدٌ وذكرٌ مجيد. وأثر في الأرض حميد.

بالأمس القريب اسْتصرختْكُم لإنقاذ رجلٍ مِنْ أبناء امتّكم وسألتكُم أنْ تطيروا برقيات الإسترحام إلى حاكم الولاية فأسرعتُم إسراع الكريم إلى نجدَة الملهُوف.

ولم يكن بينه وبين الموت غير خطوات فحلتُم بين المشنقَة وعنقُـه. وتمَّ لكم أمرٌ فيه غِبْطة لأرواحِكُم وقلوبكم كلّما تذكرتموه.

ومنذ شهور معدودة نادَتْكُم لتغيثوا الذين دهاهم السيل. وحاق بهم الوَيْل في المنطقة التي أغرقَها الطوفان. فكنتُم أسرع مَنْ لَبّى. وأكْرَم مَنْ أغاث.

أمَّا اليوم فلا تستصرخكُم «السَّمير» لإنقاذ رجل واحد ولا إعانة جمهور مِنْ التعساء بل تستصرخكُم لإنقاذ أمَّة مهدّدة بالإنقراض والفناء. هي الشطر الذي إذا ضاع ضاع كل شطر باق.

وهي تناديكُم لصيانة بقعة مِنْ بلادكُم هي البقعة التي فيها أنبياؤكُم وعظماؤكُم ومقدَّساتكُم وكنائسكُم وجوامعكُم وأمجادكُم الرُّوحيّة الثَّمينَة التي تتيهُون بها على الدُّنيا كُلّها. وتودُّ كُلُّ أمَّة لو كانَتْ لها أو لو كانَ لها مثلها.

إنّها تستصرخكُم لفلسطين التي يحاول تنّين الصهيونيَّة ابتلاعِها وأنتُم تنظُرون.

تناديكُم «السَّمير» بل تناديكُم أرواح الشُّهداء الذين كان في وسعِهِم أن يعيشُوا لو قبلُوا أن يعيشُوا محتقَريْن أذلاّء. وكان في إمكانِهِم أن لا يموتوا شنقاً وتقتيلاً لولا النخوة الحيّة في صدورهم.

ولقد ماتُوا لكي تعيش فلسطين ولكي تأمَن الأقطار الأخرى التي وراء فلسطين غزوات اليَهود.

ولا تسألكُم «السَّمير» اليوم أنْ تتقلَّدُوا السلاح وتذهبوا إلى الحرب وتقاتِلُوا كما يقاتل المُجاهِدُون.

ولا تَطْلُبُ مِنكم الآن أنْ تتبرَّعُوا بالأموال فإنَّ الموقف الحاضر موقف بسط ظلامة [1] وبثٌ شكاية وإعلان حقائِق. والحقائِق كُلُّها في جانِبكُم مهما جعجع أنصار الصهيونية. ولكن هذه المعرفة وحدها لا تكفي.

---

1 الظُّلامة: كظامة ما تظلّمه الرجل

ولكن سكوت المرء والحق في جانبِه يشجِّع المُبطل على الصياح.

لِهذا تناديكُم «السَّمير» طالبة إليكم أن تعملُوا في إنقاذ الأمَّة المهدَّدَة بالدَّمار كما عمِلْتُمْ في إنقاذ السَّجين الذي كان مهَدَّداً بالإعدام.

طيِّروا البرقيَّات جمعيَّات وأفراداً كقوم أميركيين يؤمنُون بحقِّ كُلِّ شعبٍ في الحياة حراً في بلادِه إلى رئيس البلاد روزفِلْت وإلى ناظِر الخارجيَّة هول مُلْتمِسين مِنهما درس القضية درساً دقيقاً قبل أن تقول الولايات المتحدة كلمتها فإن الصهيونيين يحاوِلُون أن تجيء هذه الكلمة في جانبِهِم.

برهِنُوا بإلتماساتكُم التي ترفعُونها إلى المراجع الأميركيَّة العليا أنَّكُم أميركيون أحرار. واثبِتُوا للملأ[1] أنَّكم قوم إنسانيُّون تكرهون الظلم. ولا تريدون الوقيعة بأحد. وأنَّكم لا تبغضُون اليهود بل تقاتلُون الصهيونيَّة لأنَّها إستعمار وإستثمار وإعتداء فظيع لا تصبرُ عليه أمَّة في العالم ولو كانت أمَّة نعاج!

واعلمُوا أنَّ النصر مضمُون وأنَّ صوتاً واحداً يرتفعُ بالحقِ أفضل مِنْ ألف صوت يرتفع بالباطِل.

السَّمير: 15/ 10/ 1938

بعد ثلاثة أيام

بعد ثلاثة أيَّام تجتاز جريدة «السَّمير» مرحلة أخرى مِنْ مراحِل الجهاد. وتودِّع سنة لتستقبل سنة. بل قُلْ إنَّها تودِّع عصراً مِنْ الواجب لكي تستقبل عصراً فيه كل يوم واجب على المشتغِل بالأدب الذي يختلف عن كُلِّ صاحب حرفَة في النَّاس بأنَّ أعظم ما يكسبه هو ثقة الأُمَّة به. ويختلف عن ذوي المال بأنَّ أعظم ثروة في حوزتِه هي ثقتِه بالأُمَّة التي يكتب لها.

كُلُّ صاحب تجارة أو مهنة ينصرِفُ إلى بيتِه في آخر النَّهار وليس له ما يشغلُه إلى أنْ يطلعَ صباح اليوم التالي. أما الصَّحافي فتبتديء مهمَّتُه ساعة ينهضُ مِنَ الفراش إلى السَّاعة التي يلقي رأسه على الوساد. ولا سيَّما الصَّحافي العربي في المهجَر حيث لا أحزاب سياسيَّة تعضد الجريدة ولا حكومة تعولها ولا مورد لها إلاّ بدل الإشتراك الضئيل.

فالمُشترك هو الحزب. وهو الحكومة. به تقوم الجريدة وبه تعتز. أمَّا إذا لم يكُنْ مِنْ أهلِ الوفاء فهو كالحكومة الجائِرَة التي لا يزهر الأدب في ظلِّها وتخافُ أنْ يزهرَ لِئلاّ تبدو قبائِحها.

وبعكسه المشترك الغيُّور الوفيّ الذي يتذوَّق الأدب ويعرف للكاتب والشَّاعر فضلهما.

فهو الذي قامَت النهضة الأدبيَّة في المهجر على أكتافه وهو الذي توجَّهَتْ روح الأديب إليه عندما توجَّهَتْ إلى أُذنٍ تسمع. وروح تفهم. وقلب ينبض بالشُّعور.

---

1 الملأ الجماعة.

وهذا المشترك سواء كان على مسيرة خطوات مِنّا أو على مسيرة ألاف الأميال هو الذي أُنشِئَتْ «السَّمير» له فكان لها نِعْمَ الرفيق والنصير. وكانَ له أريجها الفوّاح وثمرها الشَّهي.

لْم تقع أزمة أو نكبة إلاّ وكانَتْ «السَّمير» أسرعُ وأسبَقُ إلى تفريج الكروب وتخفيف الخطوب.

ولم تلمع موهبة أو ميزَة في أمّتنا إلاّ وكانت «السَّمير» هي التي تدلُّ عليها قبل سواها.

وما طَمَسَ المُبطِلُون حقيقة إلاّ ومزَّقَتْ «السَّمير» عنها غشاوة الباطل وأبرَزَتْها نقيَّة ناصعَة للعيون.

إنَّها للتَّائِهين مِشْكَاةٍ مِنْ نُوْر

ولكنَّها للمُنافقِين سَوْط عَذَاب

هي وردة طيبة الشَّذى لمحبّي الجمال

وهي شوكةٌ داميةٌ في نحورِ أهلِ البغي والفساد.

على هذا سارَتْ. وعلى هذا ستسير. لا تبغي على ضعيف ولا تخفض الجناح لِبَاغ.

وستعمل في غدِها كما عَمِلَتْ في أَمْسِها لنُصْرَة كُلِّ فكرة جميلة ومساعِدة كُلِّ مشْروع مفيد. سواء كانت الفكرة لها أو لسواها وسواء كان المشروع لهيئة معلومة أو للأمَّة كلّها.

فالمشترِك الذي يؤيِّد هذه الجريدة يؤيِّد الفكرات الجميلة والمشاريع النَّبيلة التي تخدمها.

إنَّه يساعد المدرسة التي نساعدها.

إنَّه يُعيِّن الجمعيَّة الخيريَّة التي نعينها.

إنَّه ينصر المستشفى الذي ننصره.

إنَّه يمسح جراح الأمَّة التي نمسح نحن جِراحَها.

إنَّه يعزِّز الأدب الذي نسير في موكبه.

فهو شريكنا في هذا الجهاد. والسَّمير فخورة بكُلِّ شريك نبيل يدرك كم نتكبَّد في سبيل «السَّمير» مِنْ المشقَّات والنَّفقَات.

وما أحسن التَّعاوُن في سبيل الخَيْر.

السَّمير: 29/ 10/ 1938

السنة العاشرة لجريدة «السَّمير»

سنة أخرى انطَوَتْ في صحبَة القلم. هذا الرَّفيق الصَّامت المتكلِّم. الذي يكسو الأوراق حللاً مزخرفَةً وهوَ عارٍ وتسمنْ به وهو هزيل. وتضحك لجريهِ في صفحاتِها وهوَ باكٍ.

سنة أخرى طَوَيناها على كثير مِنْ المسرّات والآلام ولكنَّنا لنْ نتحدَّث عن مشقَّة لاقيناها أو مرارة

تجرّعْنَاها لأنَّنا نعرف أنَّ في حواشي كُلِّ ألم شيئاً كثيراً أو قليلاً مِنْ اللَّذة تشعر بهِ النَّفس وهي تتألَّمُ أو تتوقَّع الحصول عليه بعد العذاب والألم.

لا نتحدَّث عن المتاعب في هذه المهنَة لأنَّ الشَّكوى مضعفة العزائِم ولأنَّ المجد كما قال الشَّاعر لا يبلغ إلاّ على جسرٍ مِن التَّعب.

وعندنا أنَّ اللَّذة التي تجيء بلا جِهاد ولا كفاح لا طعمَ لها وليس لها في البقاء نصيب. فهي كالأثمار الإصطِناعيَّة التي ينضدها المرء في إناءٍ مِن الفضَّة. فيها مِنْ الأثمار جرمها ولونها ورونقها ولكن لا رائِحَة فيها لناشق. وإذا خدعَ الإنسان بها وظَنَّها مأكَلاً شهياً وحاولَ قضمَها وقعَتْ أسنانُه على شَمْعٍ جامِدٍ أو زجاجٍ بارد!

وفي صناعةِ القلم مِن اللَّذاذات ما يتعزَّى به الكاتِب عن آلامه وحسراتِه. وأكبر هذه اللّذاذات هي عندَما يرفع صوته فتلتقي عليه الأرواح وتتجَاوب به القلوب.

ونحن عندما نستعرض حياة «السَّمير» تتراءى أمامنا أنوار ساطِعَة مِنْ عواطف الأنصار الذين وقفوا يشدُّون أزرهذه الصحيفة منذ أنشأناها. ولا ريْبَ عندنا في أنَّهُم يشعرون بكثيرٍ مِنْ الغِبطة عندما ينظُرون إلى هذه المؤسسة التي ناصَروها فكانت اللِّسان الذي يترجِم عن أفكارِهم وأمانيهم والبَلْسَم الذي ينسكِبُ على جراحِهِم. واليَد التي تبني وتشيد في هيكل مجدهم. والصَّوت الذي يهتف لهم بالأغاني العذبة.

وهم عندما يهزُّ كُلُّ قوم لواء المفاخرة بأدب أمَّته وروحانيتها يلتفِتُون إلى «السَّمير» فيجِدُون في صفحاتِها مِنْ أدَب كُتَّابها وشعرائِها. ثروة لا شريك لهم فيها.

ونَحْمَدُ الله أنَّنا قدرنا أنْ نتألَّمَ مع البؤساء ونمزج أرواحنا بأرواحهم عندما بكوا.

كما نحمد الله أنَّنا قدرنا على أن نسوقَ إلى الأرواح المُكتَئِبَة شيئاً مِنْ الغبطة. وإلى القُلوب الخائِفَة شيئاً مِنْ الطمأنينة.

ونحن في كل حال كنا نسترشِدُ روح الإخاء العام في ما نكتب وندَوِّنُ. فلن نعبث بحرمَةِ حقيقة. ولا تراجَعْنَا أمام باطِل. ولم نزيِّف خبراً. ولم نُمَوِّه فكرة. لأنَّنا نعرف أنَّ القلم سواء كان قصباً أو حديداً أو ذهباً ليست قيمته بالمادَّة التي صنعَ منها. ولا في القرطاس أو اللَّوح الذي يجري فيه بل قيمته الكبرى في الغايَة التي ينشدها والكيفيَّة التي يسيرُ بها إليها.

والصَّحافَة لم تسمِّ «ذات الجلالة» بأخبار تلفِّقها ودعاوى باطلة تنمّقها. بل بمبدأ نبيل ناضَلَتْ من أجلِهِ وسلطة جائِرَة حارَبَتْها. وحقيقة مطمُوسَة كشفَتْ عنْها الرَّماد.

في هذا الطَّريق سارَتْ «السَّمير» وهي مِنْ أجل إيمانها بالحق وأنصار الحق في أمتَنِ درع وأقوى جيش.

فإلى أنصارِنَا في كُلِّ مكان نسوقُ الشكرَ على ما أسلَفُوا مِنْ تأييد وتعضيد ونحيِّهم في مطلع السَّنة

العاشرة لجريدتِهِم تحيَّة إخاء ووفاء على أن نمشي إلى الحقيقة ولو كانت الطَّريق إليها أشواكاً وجمراً وأنْ لا نشتهي الباطِلَ ولا نقربُه ولو كان شهيّاً كتفَّاحة الفردَوْس!

السَّمير: 2/ 11/ 1938

الحقّ على مِين؟!

لَمَّا سأَلَ الشاعِرِ الشَّعبي عمر الزعنِّي في أنشودتِهِ المشهُورة عن المسؤول عنِ الحالة التي وصَلَ إليها النَّاس في بلادِنَا بعد أنْ صارَت في عهدة الأوصياء. إنصرَف إلى وضعِ اللَّوم على الشَّعب ذاته. وعلى زعمائِهِ.

أمَّا هنا في المهجَر فليس أسهل على أيِّ إنسان عندما ينتبه إلى آفةٍ موجودة بيننا مِنْ وضع التَّبعة كُلّها على عاتِق الصَّحافة.

مثال ذلك إذا قرأَ أحدهم رسالة عن حفلة لامَ الصَّحافة على نشرِها لأنَّها رسالة لا تهمُّه. ولكن هذا اللائِم المُعَنِّف ذاته لا يلبث بعد حين أو بعد أيَّام أن يكتبَ إلى الجريدة عن حفلة له أطول مِنْ التي قرأها لغيْرِه ولاَمَ الصَّحافي مِنْ أجلِها!

وإذا تكاثَرَتْ الحفلات ومشى مُمَثِّلو الجمعيَّات إلى التجَّار وغير التجَّار يطلبُوْن إعانَة هذا المشروع ومنَاصرَة ذلك الغرض. هَبَّ النَّاس يتذَمَّرون مِنْ كثرة الجمعيَّات والحفلات.

ويبحثُون عن صخرة يقرعُونها بمعَاولِ التلويْم فلا يجدون غير الصَّحافـي!

وإذا نشَبَ خلاف في جمعيَّة مِنْ الجمعيَّات واستشْرَى أمره ذهب كُلُّ واحد مِنْ أعضاء الجمعيَّة يتنصَّلُ مِنْ تبعتِهِ. ويلوم سواه. وأخيراً يتَّفق الكُلّ على أنَّهم كُلُّهم أبرياء وأنَّ الملوم هو الصَّحافي وَحْدَه!

أجل على الصَّحافي في المهجر أن يؤسِّس الجمعيَّات. وأنْ يحلَّ الخلافات. وأنْ يمنعَ تعدُّد الحفلات. وأنْ يحيي التِّجارة. وأنْ ينعشَ الأدب. وأنْ يكشفَ المظالم. وأنْ يطارد المجرمين. وأنْ يشيد الكنائِس. ويبني المدارس وينظِّمها. وأنْ يرضي كُلَّ أحد. وأنْ لا يرضي أحدا!.

وهذه تبعَات لا يتهرَّب الصَّحافي مِنْ وضعِها على كتفيْه ولكن ليس في مصلحة الشَّعب أن لا يحمل شيئاً مِنْ هذه التبعَات فهوَ أيضاً مسؤول عن نفسِه. لأنَّه رشيد وله إرادة. وفيه حياة وله قُوَّة.

والصَّحافة أَوَّلاً وأخيراً مؤسَّسة مِنْ مؤسَّساتِه بل هي أعظم مؤسَّساته في ديارِ الهجرة ولولاها لانْعدَمَتْ الرَّوابط بين المُهاجِرين منذ عهد بعيد. فلا يصُحّ أن تكونَ هذه المؤسَّسة دائِماً هدفاً لمعَاوِلِ النَّقد. كما لا يجوز أن تحمل تبعة ذنوب لم تجترحْها وقد يكون مُجترِحيها هم هؤلاء اللائِمُوْن.

إذا رأيْتَ عيباً في قومِك فأنت مسؤول عن إصلاحِهِ مثل الصَّحافي. ومثل أيِّ رجلٍ آخر. فلومكَ

سواكَ ونسيانكَ نفسك يعني أنَّك تعترِف بواجب وتتهرَّب منه. والفرار على هذه الصورة غير مستحبٍّ فضلاً عنْ أنَّه لا يصلح ذلك العيب.

لا. ليس الحق على الصَّحافي فهو في حومتِها ليصلح. ليرشد. ليهذِّب. ليفيد. وليس أحبَّ إليه مِنْ أنْ يرى نصائحه تقع في أرضٍ جيِّدَة وجهوده المُستمرَّة تثمر ثمراً طيِّباً. وهْوَ يعرفُ أنَّه لو كانَتْ أمَّته في درجة الكمال لَمَا احتاجَتْ إلى صحافة ولا كنيسة ولا مدرسة ولا كتاب. ولَكِنَّ للكمال درجة لا وُصُول إليها ولم تلبس طليسانه أمَّة في الأرض.

فعليكَ أنْ تكون للصَّحافي معيناً في مهمَّتِه لكي تتكلَّل جهوده بالنَّجاح. وإذا رأيْتَ أمراً يحتاج إلى إصلاح فشمِّر عن ساعدِك وآمْشِ معه لإصلاحِه فهذا هو الذي يصلحه.

أنت تقدر أن ترسِلَ نقدك إلى الجريدة فتنشره للنَّاس. كما تقدر أن تتجنَّبَ الأمر الذي تستهجنُه في غيرِك فتكون قدوة حسنة ومثلاً صالحاً.

أمَّا أنْ تلومَ سواكَ وتفعل مثل ما يفعل فإنَّك لا تكون مِنْ المنصِفين. وعندئذ تتَّجه إليك الأفكار عندما يقال: الحقّ على مِيْن!

السَّمير: 12/ 11/ 1938

من هو يا تُرى فكتور؟

كان الحِوار الجميل المفيد الذي جرى على صفحات «السَّمير» بين الكاتبَة الأديبة فيكتوريا طنُّوس والأديب المُتكتِّم فكتور حديث النّاس في السَّهرات والمَجالِس.

واستيقَظَ حُبُّ الإستطلاع في نفوس كثيرين فخرجَ مِنْ بين شفاههم هذا السؤال:

من هو يا تُرى فكتور؟

وجاءَنَا مَنْ يسألنا أنْ نخبره متعهِّداً لنَا بأنَّه لا يذيع السرَّ لأحد. فابتسمْنَا وقلنا إذن أيَّة لذَّة تجدها في أنْ تدفنَ سرّاً كهذا في صدرِك والأسرار وِقْرٌ[1] ثقيلٌ على الصُّدور؟ أليس جهلك إيَّاه أروح لك وأهنأ؟ وإذا كنتَ ستكتمه ولا تبوح بهِ لأحد أفَلا تكون كأنَّكَ لم تعرفه..

وهكذا أقنَعْنَا السائِلَ بأنَّ بقاء هذا السرّ مدفُوْناً في إدارة «السَّمير» أفضل له. فاقتنَعَ وبقِيَتْ حرمَة السرِّ غير مُنْتَهَكَة!

ولما مضى، قلْنَا في أنفسِنَا لو كان النَّاس يبحثُون عن أسرار الحياة كما يبحث بعضهم عن أسرار

1 الوِقْر: بالكسر الحمل الثقيل أو أعمّ ج أَوقار.

البعض لما بقِيَ سرّ لمْ يعلَنْ ولا طَلْسَم [1] لم تنحلّ عقدته!

يشاهد أحدنا شجرة مثقلة بالثَّمر فيعجب بها ويذهب يحدِّث النَّاس بروعَة شكلها ويصف لهم ثمرها الشَّهي. وظلَّها الوارِف ولكنه لا يخطر لهُ أنْ يسألَ كيف نمَتْ هذه الشَّجرة ولا أين تمتدجذورها في الأرض مع أنهّ لو فعل لاكتسَبَ معرفة غير ضئيلَة بالأرض والشَّجر النَّابتِ فيها.

ويرى الشَّمس تصْطَبغُ بلون العقيق عند الغُروب فينظرُ إليها مشدوهاً كأنَّه مسْحُور ولا يمرّ في ذهنِهِ أنْ يسألَ عن السَّبب في اكتسابها هذا اللَّون عند الغروب وكانت قبله تتوهَّج كالماسة الصافية.

لماذا هذا هكذا؟ ولماذا ذلك كذلك؟

وما أكثر هذا وذلك تحت أبصارنا كيفما إلتفتنا وأصغَيْنَا ولَمَسْنا.

ولكنَّنا لا نسأل عن شيء مِنْ هذا إلاّ في النَّادِر.

أمَّا إذا رأيْنَا جاراً لنا في سيّارة جديدة. أو سيِّدة في معطف ثمين. أو سمعنا بإنسان أثرى. أو خطب أو تزوَّج أو ذهبَ إلى المصيف. فإن كُلَّنا يسأل كُلّنا لماذا؟ وكيف؟

ونظَلُّ نشتغل بهؤلاء حتى تسوق إلينا التقادير أو أمواج الحياة أشخاصاً آخرين غير هؤلاء فنعُود إلى مثل الذي كنّا فيه.

فمَا أعجبَنَا. بل قُلْ ما أعجَبَ الحياةَ التي أوجَدَتْ فينا هذه الرَّغبة فشغلَتْنَا بها عن التَّساؤل عن أسرارِها خَلا فئة مِنْ النَّاس هجروا النَّاس وانصرَفُوا بكلِّيَّتِهِم إلى درس أسرار الكَوْن فقصَّر منهم مَنْ قصَّر وبلَغ أمنيته مَنْ بلَغ. وكلا الفريقَيْن لم يَصِرْ حديث النّاس إلاّ بعدما انطوى في الأرض أولئك العلماء!

السَّمير: 9/ 12/ 1938

طفل المِذْوَد

كلَّما دَارَتْ الأرض دورتها وجاءَ عيد الميلاد شخصَتْ أرواح النَّاس مِنَ المدن العظمَى ذات القصُور والأبراج. والقرى الحقيرة التي ليس فيها غير الأكواخ إلى قريَة صغيرة في فلسطين. بل إلى مكان صغير حقير في تلك القرية هو المذود الذي انبَثَقَ مِنْهُ النُور فَغَمَرَ التَّاريخ عصراً فعصْراً وأضاء الدُّنيا كلَّها قُطْراً فقُطْرا. فإذا بالإنسانيَّة صورة نَيِّرَة. وإذا بالأرض تنبُتُ فيها أزهار لا عهد للنَّاس بها مِنْ قبْلُ. هي أزهار الوَدَاعَة والمحبَّة والرَّحمة والإخاء.

كانَ اليهود ينتظِرُون أنْ يولدَ لهم ملك يعصبون راسه بتاج مِنْ الذَّهب ليُنافِسُوا الأمم الأخرى أو

---

1 الطَّلْسَم: خطوط وأعدادٌ يزعم كاتبها أنّه يربط بها روحانيات الكواكب العُلْوِيَّة بالطَّبائع السُّفْليَّة لجلب محبوب أو دفع أذًى ج طلاسِم.

ليتحَرَّرُوا مِنْ نِيْرِ الإستعباد لتلك الأمَم.

ولقد جاء ذلك الملك لا لليهُود وحدهم بل لكل النَّاس. ولا ليَعْصِبَ رأسه بالذَّهب بل ليحمِلَ على رأسِهِ إكليل الشَّوك ويجْرع الخَلّ ويُطْعَنُ بالحراب ويُصْلَبُ كمُجرم. وكان اليهود هم الذين جهِلُوه فظلَمُوه وعذَّبُوه وأبُوْا أنْ يعترفوا به.

وهمْ اليوم يطالبُونَ بالإخاء الإنساني الشَّامل لعلَّهُم يأمَنُون على أموالِهِم وأرواحهِم مِنْ عَسْفِ[1] الحكَّام وصَوْلَة الجماهير النَّاقمة.

إنَّهم يطلبون شيئاً كان لهم وفي حوزَتِهِم منذ 1938 سنة فتخلَّوْا عنه ونَبَذُوه. وما زالوا يصرُّون على نبذِهِ جهلاً واستكباراً.

ولقد تمكَّنَتْ أيدي البشر مِنْ تعليق ذلك الهيْكَل التُّرابيّ على خشبة وأنْ تدقَّ في يدَيْهِ المسامير. وإستطاعَ الجاهِلُون أنْ يوصِدُوا قلوبهم دون تعاليمه التي صعب على غرائِزِهِم الحيوانيَّة قُبولها فصَلَبُوه ورجعوا إلى منازِلِهِم وهُمْ يختالُوْنَ كأنَّهم نالُوا إنتصاراً مَجِيْداً.

غيْرَ أنَّ الفكرة السَّاميَة كالكهربَاء يعطِّل المرء الآلة التي تخرج منْها أمَّا هي فَتبقَى لأنَّها ليستْ شيئاً تَطْمُسُه الأيدي. أو تأكلُه النَّار. أو يذهب بِهِ السَّيف. أو تسحقه الأثقال. إنَّها قُوَّة لا تُنْظَر ولكنَّها لا تُقْهَر.

والفكرة السَّاميَة كالكهرباء مِنْ وجوهٍ كثيرة أهمّها أنَّها تَسْطَعُ لِمَنْ يمتعضُ مِنْها ويتأذَّى كمَا تسطَع لَمَنْ يبتهِجُ ويغتبطُ بها ويستفيد منها.

إضْمَحَلَّ الهيكل التُّرابيّ ولكِنَّ تلك النَّفحةَ الإلهيَّةَ بقيَتْ سائِرَةً في الأرض تزداد نموّاً كُلَّما إمتدَّتْ حتى صارَ جبابِرَة الأرض يطأطئون إجلالاً لذكرى طفل المذْوَد.

فإنَّ السيِّد المسيح عندما جاء إلى الأرض لم يطلب لذاتِهِ مجداً. بل جاء ليجعَلَ مِنْ هذه الأرض فردوساً جميلاً ومِنْ النَّاس كُلِّهم إخوة. فإذا كانت الأرض لم تصِرْ بعد ذلك فِرِدَوْساً. وإذا كانَ النَّاس لا يزالُوْن بعضهم لبعض أضداداً فذلك لأنَّهُم لا يزالُون بعيدين عن المسيحيَّة الحقيقية.

إنَّ الطَّريق أمامهم ولكِنَّهُم لا يسيرُوْنَ عليها.

غيْر أنَّهم يقتربُون كثيراً مِنْ الطَّريق كلَّما جاءَ عيد الميلاد. فتراهُمْ أكثر سماحَة وأصفَى حُبّاً وأجمل شعوراً. وأكثر عطفا.

وترى في وجوهِهِم إشراقاً قلَّما تراه فيها كُلَّ أيَّام السَّنة.

ذلك لأنَّهم يدنون بالذكرى مِنْ طفل المذود الذي جاء لا ليُظهِرَ نُوْراً بل ليكُونَ هوَ نُوْراً.

ونحن اليوم على ضوء هذه الذكرى. نأملُ مِنْ أعماق القلب أن ينتشرَ في الأرض نُوْر المحبَّة

---

1 العَسْف الأخذ على غير الطَّريقة وبابه ضرب وكذا التَّعَسُّف.

والإخاء فلا يعود يبغي قويٌّ على ضعيف بل يَقِيلُه إذا عثرْ. وينْجِدُه إذا اْفتقرَ. ويحميْهِ إذا وقَعَ في خطر.

ونرجو لقومِنَا جميعاً ولبلادِنَا حياة حرَّة هانئة مُطمئِنَّة فيها خيْرات وبركات. وأنْ تَتخلَّصَ فلسطين مِنْ محنتِها الكبرى فقد طال شقاؤها وعذابها.

السَّمير: 23/ 12/ 1938

كل عام وأنتم سالمون

1939

أكتُبُ هذه اليوميَّة وعينَي على روزنامَةٍ صغيرة أمامي لسنة 1939 أهداها لي أحد الأصدقاء.

هي صامِتَة لا تتكلَّم. وأنا مثلها صامتٌ لا أتكلَّم إلا أنَّها لا تفكر وأنا أفكر.

على وجهِها نقَابٌ كالسَّتارَة المُسْدَلَةِ على المسرح قبلَ إبتداء الرِّواية. فما أشبهُهَا بزجاجةٍ مختُوْمَة موضوعة على مائدة يراها المرءُ فَيَشتهيْها ولكنَّه لا يعلم أفيْها خمرٌ شهيَّة للشَّاربين أمْ فيها شراب مرُّ المذَاق كالزَّقُّوم [1] والغِسْلين [2]!

هي كتابٌ صغيرٌ حوَى الأيَّام والشُّهور أسماءَ وأرقاماً. أمَّا ما في مطَاوي الشُّهور والأيَّام المُقبلَة مِنْ خيْرٍ وشر. وراحة وعذاب. وصحَّة ومرض. وفرح وكَدَر. وسلام وقتال. فذلك كُلُّه في كتابٍ مَكنوْن. لا تنفتح عليه عيْن نبي. ولا تصِلُ إليه يد صفيٍ. ولا ينفذ إليه خاطر ولوكان لهيباً.

ويا ليْتَ شِعرِي كيف يدري الإنسان سجين اللَّحم والدَّم ما خبَّأ الغد في طيَّاتِه. وهو لا يعرف ما وراء الجدار الذي يفصِلُ بينَه وبينَ جارِهِ الجَنْب [3].

تكلَّمي أيتها الروزنامَة! تكلَّمي أيتُّها الجَداول التي تبتديء السَّنة وتنتهي فيها في أوراق صغيرة معدودة!!

أكاد أتخيَّل هذه الأوراق الصَّامتَة المُتلاصِقَة كأنَّها تهمُّ أنْ تقولَ لي: إنَّ الزَّمان فيها!.

كذبَتْ فهي في حيِّز الزَّمان لا تخرج منْه أينَما كانَتْ وكيف صارت..

هذا شهر «كانون». ولكن أينَ برده وزمهريره وعواصفه وثلوجه؟

وهذا شهر «أيَّار» فأين الورود، وأين الجداول، وأين العشب الأخضر، والصَّفاء والسَّناء والغناء؟

---

1 الزقوم: طعام أَهل النَّار وشجرة بجهنَّم.

2 الغِسْلين: ما يسيل من جلود أهل النار وشجر في النار والشَّديد الحَرِّ.

3 الجار الجَنْب اللاَّزق بك إلى جنبك.

لا أَيَّـتُها الروزنامَة. إنَّك لا ترمُزينَ إلى الزّمان إلاّ كما ترمز التماثيل إلى الإنسان، وكُلٌّ سماتِهِ وتقاطيعِهِ وأعضائِه فيها. أمّا الإنسان فليس هناك!

الزّمان؟ كيف تحويه وهو يحويك؟

وكيف يبتديء وينتهي فيك وهو لا بداية له ولا نهاية؟

بلى. إنّه فيك كالبَحْر في لوحة المصَوِّر. تبدو فيه مراكب وتلوح أمواج ولَكِنَّها بلا بحر!

وحوَّلت عنها نظري وفي النَّفس غُلَّة لم تنقع فهي لا تدلّ على شيء ممّا أتوق إلى معرفتِه.

وفكَّرتُ في السَّنة التي صارَتْ على الرَّمقِ الأخير فشعَرْتُ كأنَّ عالماً كبيراً مملوءاً بالأفراح والأحزان والآمال والرَّغائِب تمرُّ عليه يد فتمحُوْهُ فيتَلاشَى كالعالَم المَنْظُوْر عند النَّائِم.

ثم فكَّرْتُ في النَّاس الذين رأيْتُهُم في الصَّباح وقابَلْتُهُم اللّيلة البارِحَة وما كانُوا عليه مِنْ حنينٍ إلى السَّنة الجديدة. فإذا هم مقيَاس لأكثر النَّاس؛ كلُّهم تتمشَّى في أرواحِهِم نشوة مِنْ الشَّوق والأمَل فيه راقصَة شاديَة لأنَّ سنة مرَّتْ فصولها وانطَوَتْ أيّامها ولياليها لتظهَر على مسرح الزَّمان سنة جديدة.

فكَّرتُ في شوقِهِم وحنينهم وغبطتهم وإبتهاجِهِم فقلتُ في نفسي: ليتَ شعرِي ماذا في السَّنة الجديدة غير الذي رأوْه في السنة التي ولَّت؟

أتُرَى ستطلع الكواكِب ولا تغيب؟

أتُرَى ستُورق الأشجار وتظلّ مورقة؟

أتُرَى ستزهِرُ الرَّياحين وتبقى نديَّة متألِّقة لا يتطرَّق إليها الذّبول؟

أم أنَّ الرَّبيع سيهبط الأرض ولا يرحل عنها؟.

أم أنَّ الأرض ستُخْرِجُ للنَّاسِ كنوزها الدَّفينَة دون أن يكِدَّ واحدٌ منهم ذهنه. أو يحرِّك يديْه أو يسعى على قدَمَيْه؟

أم أنَّ الشيخ سيعود إليه عصر الشَّباب والشاب لنْ تدرِكَهُ الشيخوخة؟

أم تراهُم فرِحين جذلين لأنَّهم صرعوا السَّنة الماضية ولم تصرعهم.

أم هم مبتهِجُون لأنَّهم راضُون بالحياة كما هي ولا يريدُون عنها انتقَالاً ولا فيها تبديلاً.

لا هذه ولا تلك ولكنَّ الإنسان توَّاقٌ ابداً إلى المجهُول. طمَّاح إلى ما ليس في حوزتِه. وأعظم ما يتوقُ إليه معرفة ما في الغد. فإذا صارَ إليه حنَّ إلى ما بعده. وهذا السِّرّ في أنَّه يتقدَّم ويزداد معرفة بالحياة التي حوله.

فنحن عندما نحتفِلُ بإنقضَاء عام وإبتداء عام إنَّما نحتفِلُ بإنتصارِنا على الأيّام.. فحبُّ البَقَاء غريزَة في كلِّ حي. وأشدُّ ما ترَى هذا الحُبَّ في صورة الله ومثاله على الأرض ـ في الإنسان.

غدا ننزع آخر ورقة من الروزنامَة القديمة. وبعدَ غد نستقبل أوَّلَ ورقة مِنْ الروزنامَة الجديدة بعد أنْ نرفَع السِّتار عن الرواية التي سوف تمثَّل على مسرح الأيّام والشُّهور. وهي رواية كُلِّ واحد

مِن النَّاس.

فقرِّر أنْ تمثِّل دورك تمثيلاً جميلاً ترضَى عن نفسِك ويرضَى عنكَ النَّاس وترضَى عنك الحياة.

واعلَمْ أنَّك ما دُمْتَ في الحياة فللحياة بك حاجة. وعليك أنْ تظَلَّ سائِراً في موكبِها وإذا تطلَّعْتَ في الروزنامَة فلا تعُدَّ الأيَّام فيها والشهور بل عُدّ الأعمال الطيِّبَة التي يمكنُك أن تصنعها. فإنَّ القيمة للصَّالحَاتِ وَحْدَها. وهي التي تزدان بها الشهور والدُّهُور.

سنةٌ مباركةٌ إنْ شاء الله عليك. والذي نتمنَّاه لك نتمنَّاه لكُلِّ النَّاس.

(كل عام وأنتم سالِمُون)

السَّمير: 31/ 12/ 1938

نهر النِّسيان

مِنْ الأساطِيْر الإغريقيَة أنَّ في جهنَّم ثلاثة أنهر. وهذا شيء غير مألُوف إلاّ في الأساطير إلاّ أنْ تكونَ الأنهر المذكورة ناراً ذائِبَة. فَيصحُ التصوُّرُ وتَتمّ المجانسَةُ في جهنَّم الأساطير.

ولكنَّها ليسَت كذلك لأنَّ جهنَّم الأساطير تختلف عن جهنَّم الكتب المُنْزلَة ولذلك فالأنهُر التي فيها كالأنهر التي في الدُّنيا ـ هي أنهر ماء. وإنَّما لها ميِّزات ليسَتْ في ماء الأنهُر التي تجري في الأرض.

مثال ذلك أنَّ واحداً مِنْ هذه الأنهُر الثلاثة في العالم السُّفْلي كان يتصوَّر وجوده الإغريقيُّون القدماء لِمَا له مِنْ فاعليَّة غريبَة وهي أنَّ الذي يشرب منْه يفقِدُ ذاكرتُه ويستولي عليه النِّسيان.

وإنَّك لتعجب كيف وضع الإغريقيون هذا النَّهر المبارَك في ذلك المكان فإنَّ إستيلاء النِّسيان على الإنسان عندما يريد ويهوى مِنْ أكبَرِ النِّعَم. والنِّعَم لا تكون عادةً في موطن العذاب والشَّقاء.

أجل. إنَّ النِّسيان في بعض الأحيان أو في كثير منْها آفة ذميمة وحالة قبيحَة. كأنْ ينسَى الإنسان صديقاً له يتوقَّع أنْ يذكره. أو كأنْ يتعهَّد بقضاء أمر ويَغْفُل عن قضائِه. أو كأنْ يكون في حالة فقر وضَنْك [1] فإذا استَغْنَى زها واسْتكبَر ومالَت بعنقِه الخُيَلاء [2] فنسِيَ في أيّام سعْده شركاءه وزملاءه في أيَّام بؤسه.

أو كان يبذل وعوداً ويقطع عهوداً لواحد أو لجماعة أنَّه سيفعَل كذا وكذا إذا هم أعانُوه على أمرٍ أو ساعدوه على النجاة مِنْ شر. فإذا قضى لبانته أو نجا ممَّا كان يحاذره لمْ يذكر شيئاً ممَّا جرى بِهِ لسانه مِنْ الوعُود ولا شيئاً ممَّا صنعه النَّاس مِنْ أجلِه حتى كأنَّما هو قد طار إلى جهنَّم وعبَّ في ذلك النَّهر ـ نهر

1 الضَّنْك الضِّيْقُ من كلّ شيء.

2 الخُيلاَء التكبّر والعُجْب.

النِّسيان والغفلة فأضَاعَ ذاكرته وكُلُّ ما فيها مِنْ صُور ومشاهِد وحكايات وخيَالات وأحوال.

نعَمْ إنَّ النِّسيان في حالات كهذه مِنَ الآفات الكُبرى التي يجب على الإنسان أنْ يتحامَى الوقوع في رقِّها واستعبَادها. وأنْ يجاهد إذا كان عبداً لها للتَّحرُّر منها.

إنَّما هذه الآفة الهائِلَة تصبح بركَة عظمى عندما يصبح الإنسان قادراً على أنْ ينسَى إساءَة الصَّديق. وأنْ لا يذكر مصائِب الجار. وأنْ يذهَل عن عثرات العشير والرَّفيق.

وتصير بَرَكَة أعظم عندما يقدر الإنسان أنْ ينسَى همُومَه وأحزانه وبلايَاه فيخرُجَ بذلك مِنْ دُنيا الألم والحسَرات والغُصَص..

ولعَلَّ هذا ما قصَدَ إليه الإغريقيُّون عندما اخترَعُوْا هذا النَّهر الرَّمزي الذي يشرب منْهُ المَرْءُ فَيَنْسى..

السَّمير: 11/ 1/ 1939

إصنع جميلاً

إذا شئْتَ أنْ تصير الحياة جميلة في عينيْك فاصنَع أنتَ جميلاً. لأنَّ الحياة أنت. وإنْ قال لكَ المُتنسِّكُون المُتقشِّفُون أنَّك لستَ شيئاً. وإنْ بدا لكَ في ساعة من ساعات الضَّجَر واليأس السَّوداء إنَّكَ أضعَف مِنْ عصافة[1] في مهَبِّ ريح هوجاء. أو أنَّك في ميزان الدَّهر والنَّملَة الحقيرة سَواء.

فلْتكُنْ كما زعمُوا وكَمَا تتراءَى لِذاتِك وأنْتَ مهمُوْم أو مغموم أو مغلُوب على أمرك. ولكنَّك مع هذا كلِّه ذلك الكائِنْ الذي زوَّدَتْهُ الحياة بكُلِّ قُوَّتِها وجَمالِها. وأنتَ الذي اختَزَنْتَ له كنُوزها. ولَمْ تُبِحْ لغيرِه الدُّخول إلى هيكل أسرارها. بلْ كأنَّما هي لَمْ تسفِرْ عن جمالها الأسنَى إلاّ لكي تتملَّى منْهُ عينَاك. أنت «الجرم الصغير» الذي قالَ فيه الشَّاعر الصوفي صِدْقا: «إنَّ العالم الأكبر» قد إنطوَى فيه.

إذن فأنْتَ شيء. وشيءٌ عظيم في الحياة.

لا نبغِي بهذا الكَلام أنْ نحملَك على الزَّهو والإغترَار والخيلاء فتذْهَبَ تتعثَّر في مشيتِك كَمَنْ رنَّحتْهُ الخمر. بل الذي نبْغِيْه هو أن تدركَ سر القُوَّة المُودَعَة فيك لتستخدِمَها إستخداماً حسناً مفيداً وتعدِل عنْ إحتقار نفسك والإستسلام لليأس عندما تعترِضُ عقبة في طريقِك أو تجري الريَاح بغيْر ما تشتهي سفينتك.

فأنْتَ مهما بلَغَ مِنْ ضعْفِكَ ومهما تنَاهَى بكَ سوء الظنّ بالحياة وتصاريفها تستطيع أنْ ترى في الحياة جمالاً وأنْ تصنع جميلاً.

فما هو الجميل الذي يخلق بك أن تصنعَه؟ أو بكلمة أصْوَب ما هو الجميل الذي تقدِرُ انْ تصنَعَه؟

---

[1] العَصَف: دُقَاق التِّبْن.

إذ ليس كلُ ما يحبُّ الإنسان أنْ يفعلَه يقدر أنْ يفعله.

إذا كنْتَ لا تقدرُ أن تنفّس كربَة أمة مظلُومة أو تسعد جماعة مِنَ النّاس شقيّة. فلا يعجزك أن تنفّس كُرْبة [1] إنسان تاعِسٌ قد يكون في دارك أو في حانوتك أو في بيت جارك أو في الحي الذي تقيم فيه أو في المدينة. أو قد يكون منكوباً في مكان بعيد بينك وبينه فراسخ وأميال.

فإذا كنتَ لا تقدر أن تغيثه دهراً فإنَّك تقدر أنْ تغيثه شهراً أو أسبوعاً أو يوماً أو ساعة. فافعلْ تصنع جميلاً.

وقد لا يكون في إمكانِكَ أنْ تبني مدرسة أو ملجأ أو معهداً لأنّك لست مِنْ ذوي الملايين ولكنّك تستطيع أن تضمَّ دولارك إلى الألف التي يتبرّع بها غيْرُك فيكون لك مثل الفضْل الذي له. وإنّ الجميل الذي صنعته مثل الجميل الذي صنع. فالشّعور واحد وإنْ اختلَفتْ المقادير. والغرض الذي سعيْتُما إليه واحد.

ولا تحسبَنَّ صُنْع الجميل منحَصِراً في إغاثة ملهوف أو إعانة مسكين أو إنقاذ مظلُوم أو تحرير مسْتَعْبَد ففي قدرتك ـ مهما يكن شأنها ـ أنْ تصنَع جميلاً في الأرض في أيّة ساعة وأيّ مكان.

يمكنك أنْ تقطع الطَّريق على وشاية أو سعاية أو خبر مُخْتلَق فتصنع جميلاً.

يمكنك أن تنشر فضيلة مطويّة أو تشجّع خائفاً. أو تنشط مُتردّداً أو تمدح على الخير أهله. فتصنع جميلاً.

يمكنُكَ أن تزرع شجرة أمام دارك أو ترصُفَ الطَّريق أمام مخزنك أو أن تحرصَ على أنْ تظلّ الشَّجرة حيّة إذا كانت مغروسَة وأن تستبقِي الطَّريق المرصُوفَة نظيفة. فتصنع جميلاً.

يمكنُكَ أن تشتري كتاباً مُفيداً وتطالعه أو تشترك في جريدة يحَرّرُها أدباء مِنْ أمّتِك فتُسْدِيْ جميلاً إلى نفسك وإلى أمّتِك ولغتك.

يمكنك أن تشتري صورة فنيّة فتساعِد الفن في قومِك أو آلة مُسْتحْدَثة فتعين صناعة بلادك.

يمكنُكَ أنْ تروي للنّاس حكاية ذات مغزى أو مثلاً حكيماً أو تحدّثُهُم بسِيْرَة رجل عِصامي [2] فيسمع الأولاد ويقْتَدُوْنَ به فتصنع بذلك حسناً.

يمكنُكَ انْ تصُوْنَ سمعُكَ عن الأقاويل الكاذبَة والنّمائِم والأراجيْف وأنْ تصُوْنَ لسانك عن نقلِها فتصنع أمراً جميلاً.

يمكنُكَ أن تفعل هذه الأمور كلُها وأموراً غيرها كثيرة. فإذا فاتَكَ واحدٌ مِنْها فلا يجب أنْ تفوتَك كلّها. إصنع جميلاً.

السّمير: 21/ 1/ 1939

---

1 الكرْبة: الحزن والغمّ.

2 العِصامِي: من سادَ بشرف نَفْسِه.

جارنا الطَّروب

لنَا جَار يمنِيٌ تَاقَتْ نفسه إلى الطَّرب في الزمَن الأخير فاشتَرى فونوغرافاً ووضَعَه في حانوتِه الذي يأوي إليه بعض اليمنيين فيشربُون القهوة ويتحدَّثُون بفضائِل الإمام يحيى وعظمَة جيشه المُتوكِّلي.

وقد ظَلَّ لغطهُم يتعَالَى كلَّما اجتَمَعُوا حتى جاءَ صاحب المقهي بالفونوغراف فبِتْنَا لا ينفذ إلى مسامِعِنا غير صراخ يتعالَى مِنْ أسطوانة يضعها صاحب المقهى في الصَّباح فينقضِي النَّهار وهي تدور وتصرخ كأنَّها عصفور عالِق على الدَّبق أو ثعلَبٌ علقَتْ رجلاه في فخ. ولكنَّ العصفور تتلاشَى قواه فَيسكُت أمَّا هذه الأسطوانَة فلا تتعَب مِنْ الدَّوران ولا مِنْ الصُّراخ.

ولا بُدَّ للثعلب الواقع في الفخ مِنْ أن يأتي صاحب الحقل على صراخه فيفتكَ به وينتهي أمره.

أمَّا صاحب المقهي اليمني فَلا يطيبُ له إلاّ الفَتْك بأرواحِنا فهْوَ كُلَّما أوشكَتْ الأغنية تنتهي أعادَها مِنْ أولِّها وهكذا دوالَيْك[1] فكأنَّه يعتقد أنَّ الأسطوانَة لا يَجِبُ أنْ ترتفع عن الفونوغراف حتى يبحَّ صوت المنشد!!

إنَّ الغناء يذهب بالسَّأم مِنْ النُّفُوس المُتعبَة.

ولكن هذا الغناء المتواصِل على وتيرة واحدة مِنْ مُغَنٍّ واحد كُلَّ النَّهار ممَّا يخلق الحنْقَ والنَّقمَة في النَّفس على الذي اختَرَعَ الفونوغراف والذي باعَهُ والذي اقْتَنَاه.

وكانَ في إدارة «السَّمير» بعض الأدباء فشكَونَا إليْهِم أمرنَا وسألنَاهُم عن علاج لهذه العِلَّة الصَّارِخَة فقال رجلٌ ظريف: أقترحُ عليكم أنْ تهْدُوْا إلى صاحِب المقهى عدداً مِنْ الأسطوانات التي تحبُّون سماعها فتزول محنتكم.

فقال آخر هذا والله رأيٌ طريف، وحصيف[2] وظريف. فإذا عملْتُمْ به كُنْتُم كهَارون الرَّشيد لَمَّا قطَعَ لسان المرأة السَّاخِطَة بالمال.

وكادَ الجميع يوافِقُون على هذا الرأي حتى صاحب «السَّمير» ولكن الأستاذ لفلوفة استَنْكَرَه استنكاراً شديداً وقال: إنَّكُم بهذا الرأي كَمَنْ يحرِّضُ الكلب على النُّبَاح والحمار على النَّهيق نحن نريدُ أنْ نخلص مِنْ أسطوانَة واحدة تقلقنا. وأنتُم تريدُون أنْ تزيدُوا أسباب إنزعاجنا.

قال الجماعة: إذن فكيف تَحلّ أنت هذه المشكلة؟

---

1 دواليك تداولٌ بعد تداوُلٍ فيقال: فعلنا ذلك دواليكَ: مرَّة بعد مرَّة.
وكذا تستعمل بمعنى مثل فيقال: علمتُكَ ناجحاً وكذا أَخاك وتدخل عليها (ها) للتنبيه وتستعمل للدلالة على القَدْر أو ما لا يراد التَّصريح به مثل: يملك كذا وكذا بيتاً.

2 حَصُفَ الشيء حصافة كان محكماً لا خلل فيه. ويقال: حَصُفَ فلان استحكم عقله وجاد رأيه فهو حصيفٌ.

قال: أحلُها بأنْ أهدِي إلى هذا اليَمَنِي مطرقَة يحطِّم بها الفونوغراف!
قالوا: وإذا لم يحطِّمه
قال: أنا أُحطِّمه!!

السّمير: 31/ 1/ 1939

تأمُّلات

لا ينفكّ الإنسان يدور على ذاتِهِ ويفكِّر في ذاتِهِ أو بالأشياء التي لها علاقة بذاتِهِ حتى يخرج مِنْ محيطِهِ الصغير بيتاً كان أم مكتباً أم حانوتاً أم قصراً أم كوخاً في ساعة هادئة مِن اللَّيل ويُسَرِّحُ نظرَهُ في الكواكبِ المُعلَّقة في الفضاء غير مشدودة إلى شيء وفيها أجْرَامٌ أكبر مِن الأرض. فيُدركُ عندئذٍ كم هو كبيرٌ بالقياسِ إلى مثلِهِ وكم هو صغيرٌ بالقيَاسِ إلى الكوْنِ الذي يعيشُ فيه. ويعرفُ كم هو ضئيل وضعيف حيالَ القِوى الجبَّارة المُحْدِقَة بهِ من كُلِّ جانب. فيرجع وقد باخَ لَون غروره واضمَحلَّتْ في نفسِهِ الكبرياء.

وكثيراً ما رأيْتُ إنساناً يعتز بثوبِ حاكَهُ. أو بيت بناه. أو حلية صاغَها. أو آنية صنعَها أو آلة اختَرَعَها. ويجدُ مِنَ النَّاس حوله مَنْ يسبِّحُ بحمْدِهِ ويُرتِّلُ له آياتَ الثَّناءِ كأنَّما هو إلهٌ تجسَّدَ أو فرْخُ إله فيزْدَاد به العتُوّ ويشتدُّ به التِّيْه حتى يُمسي يرى كُلَّ كائِن دونَه ولا يرى في الأرض مكاناً يصلح أنْ يكونَ له ممكناً.

غيْر أنَّه إذا أشرفَ على الطَّبيعة متأمِّلاً في ليل أو نهار ومرَّتْ به بعض آياتها وعجائِبها مِن أشجار أو أحجار أو أزهار أو أطيَار عَلِمَ أنَّه مِنْها كذرَّة الرَّمل مِن الشاطيء أو قطرة الماء مِنَ البَحْر!. فهْوَ يصرفُ العمر كلُّه ليبتَدِع شيئاً قد يكون له مِنْ قبْل أشباه ونظائِر. ولا يخرجه حتى يكون قد استعَان بأناسٍ في عصره أو بأُناسٍ قبل عصره. بينما الأرض تبتدع في كل لحظة أشياء ليس لها في خلقِها شريك سوى أُمّها الشَّمس. ولم تساجِلْ فيها أحداً إلاّ ذاتها. وتلبثُ مكانها لا تزهُو ولا تختال ولا تنفث الفخر على السّوى.

يظن المرء أنَّه عندما يخرج للنُّزهة لا يستفيد من خروجه إلاّ الهواء النقي والنُّور المُنعش على أنَّه في الواقِع يستفيد أكثر منهُما ولا سيَّما إذا كان مِمَّن يتفقَّهُون الأشياء التي تقع تحت أبصارهم. أمَّا إذا لم يكن مِنْ هؤلاء فحسبُه أنْ يُعْرَضَ له مشهد ساحر أو غريب فيذهل به لحظة أو لحظات عن هَمٍّ في صدره أو بِلْبال [1] في نفسه. أو ينسى في تلك اللحظات متاعبه ومشاغله. أو يتحرَّر لفترة قصيرة مِنْ قيود حبسه

1 البِلْبال: بَلْبَل القوم بَلْبلَةً وبِلْبالاً أوقعهم في افتراق الآراء واضطرابها.

وبغضه وخوفه ورجائه. ولا أعني أنْ لا حُبَّ ولا بغض ولا خوف ولا رجاء في صحبة الطَّبيعة ولكن هذه كلّها تلبس ألواناً غير ألوانها التي تكون لها والإنسان مع الإنسان.

رأيتُ في أثناء رحلتي في ولاية فلوريدا أشجاراً غريبة منها «شجرة المقانق» وهي شجرة يبلغ علوُّها عشرين قدماً تتدلَّى مِنْ أغصانها خيوط كالحِبَال تحمل في أطرافِها ثمراً مستَطيْلاً كالمقانِق الأميركيّة رماديّ اللون يابس القشرة كأنّه قُطِعَ مِنْ خشب مصبوغة. وهذا الشّجر قليل نادر لذلك ترى النّاس يقصُدون إلى شجرة منه في ميامي كما يزور السُّيّاح هيكلاً قديماً أو ضريحاً فرعونياً.

ورأيتُ أشجاراً أخرى قيْلَ لي إنّها أشجار المطّاط تتدلّى مِنْ جذوعِها عروق دقيقة لونها كلَون التّراب تبلغ الأرض وتعلق بها ثم تنمو وتقوى فيصير للشجرة أُصُولاً قويّة وتكثر هذه الأصُول حتى تحسب أنّ كُلّ واحد منها شجرة مع أنّها كُلّها شجرة واحدة. وهذا النوع مِنْ الشَّجَر موجود في أماكن كثيرة.

ورأيْتُ أشجاراً مجدولَة الأجسام كأنَّها أمراس وهي صلبَة العُوْد كأيّة شجرةٍ ولكنَّها ليس عليها لحاء فكأنَّها ركائز مِنْ خشب تورق وتزهر.

ورأيْتُ شجرة كشجر الورد كثيرة الأغصان ولكن ليس فيها غير الأغصان. ويخرج مِنْ أطراف أغصانها زهر أحمر. دون أنْ يكونَ فيها شيءٌ مِنْ الورق.

ورأيْتُ شجرة عالية كشجرة الصَّنَوبَر خارجَة مِنْ قلبِ شجرة أخرى أوراقها كالحِرَاب حجماً وشكلاً. وفي أطرافِها شوكٌ أسود كالأبَنُوس حاد كالمخَارز وصلبٌ كالحديد.

وأَغربُ ما رأيْت مِنْ أنواع النَّبات نوع مِنْ الشَّجر أوراقه كأوراق الزنبق ينبُتُ في الشَّجَر وقيلَ لي أنَّه يطير مع الهَواء فيعلق بالشَّجَر وينمُو فيها ويصيْر كأنَّه منْها مع أنّه يختلف عنها في لونِهِ وشكلِهِ ونوعه. فهُوَ كالطُّيور التي تبني أعشاشها في الأشجار.

وهناكَ شجَيْرات لا زهرَ لها ولكنَّك إذا نظَرْتَ إلى أوراقِها تتماوَجُ فيها الألوان المُختلفَة تماوجاً يفتِنُ النَّظَر حسبتُها زهراً أو توهَّمْتُ أنَّ ألوان الشَّمْس انسَكَبَتْ كُلّها فيها.

ورأيْتُ أشجاراً لها ثمرٌ كالخرُّوب ولكنّه ليس خرُّوباً ولا يمكِن حُسْبَانه في الثَّمَر.

فأشجار الفاكهة في فلوريدا كثيرة ومعظمها ممَّا لا يعيش إلاّ في الأقاليم الحارَّة ومنْها ما هو مجلوب إليها منذ عهد قريب وأحدثُه شجرة «البابايا» التي تكون في أوَّلِ أمرها نبتة صغيرة كغرسة الفليفلة فلا تنقضي سنة حتى تعلو وتستطيل وتخرج أثماراً مستطيلَة كالكوسى ولبّها مثل لبّ البطيخ الأصفر وفيه مثل طعمه.

وفيها شجر ثمرُه كالمشمش في حجمه ولكن طعمه كطعم البلَح وفيه مادَّة لزجة كالصّمغ فإذا أكلَ المرء واحدة منْه لم يستطِعْ أنْ يفتح شهيته إلاّ بجهدٍ منْ جرّاء تلك الماده الصمغيَّة..

هكذا تتَفَنَّنُ الطَّبيعة في حَوْكِ الأعاجيب وخلْق المفَاتِن فتظلّ وراء ستار حتى تقع عليها عيْن الإنسان فيقف أمامها مبهُوتاً ويرجع عنها وهْوَ أكثر إيماناً بالخالِقِ المُبْدِع.

السَّمير: 22/ 3/ 1939

البرج الشَّادي

إنَّ الذي يذهب إلى فلوريدا ولا يزور «البرج الشَّادي» كمَنْ يذهبُ إلى مصر ولا يشاهِد أبا الهَول أو الأهرام. وكَمَنْ يذهب إلى لبنان ويقعد عن زيارة الأرز.

وهذا البرج حديث البناء إلاّ أنّه له جلالة هيكل عريق في القِدَم لأنَّ الفكرَة التي أبرزَتْهُ إلى حيِّز الموجُودَات هي أقدَمْ مِنْ كُلِّ هيكل وقصر وبرج وهرم. هي فكرَة البَقَاء الجميل في الأرض. وما خطَرَتْ هذه الفكرة في قلب إلاّ وكان صاحبُه شاعراً فناناً. وإنْ لم يكنْ يقرضَ الشعر وينحَت التماثيل.

والمستر إدوارد بوك صاحب هذا البرج لم يرفعْ في جدرانهِ حجراً. ولا نَحَتَ تمثالاً. ولا علَّق ناقوساً. ولا غرسَ حوله شجرة ولا شَقَّ درْباً. ولكن رغبته الجميلة في البقاء الجميل حملَتْهُ على أنْ يستعينَ باساتذة الفن والتصْوير والأناقَة فاشتَرَى ثلاثة وخمسيْنَ فداناً مِنْ الأرض في «جبل الحديد» الذي يعلو عن سطح البَحْر 324 قدَماً وليس في فلوريدا بقعة أعلى منه. وحولها بستان أغن يحوي أنواعاً مختلفة مِنْ الأشجار والأزهار بينها ألف سنديانَة وعشرة آلاف غرسة مِنْ «الازاليا» وكثير مِنْ النخيل.

وأنشأ فيها العيون والمسَالِك وشاد ذلك البرج العالي في وسطِها.

وطَوَّق قاعدة البرج ببركة يسبحُ فيها السَّمك الأحمر.

والبرج آية في حسْنِ الصَّناعة ترى على جدرانِهِ التَّصاويْر والتَّهاويل والرُّموز المُختلِفَة وفي داخلِهِ عُلِّقَ واحد وسبعُون ناقوساً أو جرساً لكُلِّ جرس نغمة كمفاتيْح البيانُو أو الأرغُن يتولَّى العزف عليها موسيقي خاص لا يدخل أحد غيره إلى البرج فإذا قرعَتْ تلك الأجراس بالأناشيْد خلْتَ أنَّ الفضاء كلَّه في تلك المنطقة يموجُ بالسِّحر فإنَّ التَّلاحين تخرج منْهُ كأنَّه المثالث والمثاني[1] المنسُوبَة إلى الأجواق الملائكيَّة. فيطربَ لها النَّاس على بعد أميال ويستخف الطرب الطُّيُورَ التي في تلك البقعَة فتطفر مِنْ المَرَح أو تأخذ بالتَّغْريد إذا كانت مِنْ الصَّوادح.

شرعَ المستر بوك بتشييد هذا البرج سنة 1922 محمُولاً على ذلك بوصيَّة لجدِّه الذي حَوَّلَ منذ مائة سنة جزيرة قاحلَة في البَحْر الشمالِي إلى جنَّة خضراء تأوي إليها الطُّيور وتلك الوصيَّة هي:

---

1 المثالث والمثاني: المثاني آيات تُتلى وتكرَّر وثلاث ومثلث غير مصروف معدول من ثلاثة ثلاثة.

«أينَمَا سكنتُمْ فاجعَلُوا العالمَ أجمل وأفضل قليلاً لأنّكُم سكنتم فيه» .

وكان المستر بوك الذي زاولَ الصَّحافَة وأثرى مِنْ مُزاولَتِها يؤمِنُ بالتَقرُّبِ مِنْ الطَّبيعة مع الشّاعر جون بوراز الذي قال:

«جئتُ إلى البريَّة لأجد نفسي فليسَ أسهل مِنْ أنْ يضيِّعَ الإنسان ذاته في العالم» .

وكان قد قرأ عن الجبل القائِم عليه البرج اليوم أنَّ الهنود الحُمْر كانوا يعبدُون الشَّمْس فيه ولا سيَّما في أوَّل كلّ ربيع .

وقد شاءَ أن تكونَ تلك البقعَة العالية الجميلة منسكاً يلجأ إليه الإنسان المُثقَل النَّفس بالهموم فيستريح . ويجد الطائِر الشَّريد ملجأ في أشجارها الظليلة .

فالواقِف في تلك القمَّة يشرف على عدة بحيرَاتٍ حولها . ويقال إنَّ الذي يصعد إلى قمَّة البرج يطلُّ منها على أكثر مِنْ ستّين بحيرة في تلك النَّواحي عدنا إليها . ولما اقترَبْنا من «لايك دايلز» التي فيها البرج أخذْنَا نسير بين غياض البرتقال والكباد الأصفر «الكريب فروت» وكانت أثمارُه تبدُو لنَا كأنَّها أكرٌ مِنْ ذهب معلَّقة بالأغصان . أو أنَّ كُلَّ شجرة ثريَّا تضيءُ فيها الشُّموع .

ودخلنا أرض المنسَك وطفنا بالبرج الذي مَلأَتْ شهرته البلاد . وطوبنا روح بانِيْه الذي أوجَدَ للإنسان خلوة سعيدة وللطَّيْر مأوى أميناً .

ووقفنا عند عَيْن فإذا في الأرض بلاطة مِنْ رخَام .

وقد عرَجْتُ وأنا عائِد مِنْ مَيامي على مدينة جكسنفيل فأمسَكَني الصَّديق يوسف خليل داود وبعض الأصحاب وقالوا : كيف تغادر فلوريدا ولم تر البرج الشَّادي؟

وما زالوا يحدِّثونَني عنه حتى ملأوا النَّفس شوقاً إليه . وصَارَتْ المائة والستُّون ميلاً كأنَّها على مرمَى حَجَر .

وكان الصَّباح التَّالي فذهبْنَا في سيّارة شقيقه الأديب أسعد داود وكان معنا القس المحبوب ابراهيم حزوري والشَّاعر الرقيق نعمه حاج . وكنَّا في الطَّريق نتجاذبُ صنوفاً مِنْ الأحاديث فحدْنَا عن الطَّريق ونحن لا ندري ولكنَّنا لم نلبث أن كتِبَ عليها باللغة الإنكليزية هذا المقطَع مِنْ الشِّعر وهو للشَّاعرة دوروثي فرنسيس غورنسي:

The Garden

The kiss of the sun for pardon
The song of the birds for mirth
You are nearer God's heart in a garden than anywhere else on earth.

فاستهْوَانا هذا المعنى الدَّقيق كما استهْوى كثيرين مِنْ النَّاس قبلنا . وإنَّ في نقشِهِ على تلك الرَّخامَة في ذلك الموضِع برهاناً على حسن الإختيار وسلامة الذَّوق في الذي اختاره . وفيما نحنُ عائِدُون خطر

لنا أنْ ننقلَ المعنى شعراً إلى العربيّة فقال نعمه:

شعاع الشَّمْسِ يغمرني شعاعاً   وشَدْو الطَّير يُسْمعني الملاهِيْ
أنا في الرَّوضة الغَنَّاء حقّاً   لأقرب ما أكون إلى الإلهِ

وقال أيضاً:

أنت أدنى إنْ كنتَ في الرَّوض
كُلِّ مكانٍ إلى فؤادِ الإله -

وقال صاحب السَّمير:

قبلات الشَّمس في الروضة عَفْدٌ
وغناء الطَّير في روحك أفراحُ -
وسماحُ
وراحُ
قُلْ لمن يبحث عَمَّن أَمْرُهُ كافٌ ونونُ
أنْتَ في الرَّوض إلى ربّك أَدْنى ما تكون

وقال أيضاً:

قبلة الشَّمْس تعتق الروح في الرَّوْضِ   وشدو الطّيور يفرح قَلْبَكْ
أنت في الرَّوض أقرب النّاس لله   وإن كنتَ لا تشاهد ربّكْ

وقال القَسّ إبراهيم:

قبلة الشَّمْس في الحديقة للعَفْوِ   وشدوا الطّيور رمزُ الحنانْ
أنت في الرَّوض أقرب النّاس للخَالِق   من أيّ موضعٍ أو مكانْ

وقال يوسف:

في قُبلة الشَّمْس عنوانٌ لمغفرةٍ   وفي غنا الطّير رمز الزَّهْوِ والمَرَح
فأنت في الرّوضة الغَنَّاء بينها   أدنى إلى الله ذي الآلاء والمِنَحِ[1]

وعاد فقال:

قُبلَةُ الشَّمسِ رَمْزُ عَطْفٍ وعَفْوٍ   وغِنا الطَّير فيه إنْسُ الخلودْ
ليس كالرَّوْضِ في الوجود مكانٌ   فيه تدنو من قلب رَبّ الوجودْ

---

1 الآلاء: النِّعَمُ.

فتلاعب صاحب «السَّمير» بمعنى هذين البيتين فقال:

قَـبِّـلي يـا شـمـسُ روحـي تـنـعـتِـقْ بـل تـتـحَـرَّرْ
واهـتـفـي يـا طـير، الأَلْـحا نِ في سَـمْـعـيْ فـأَسْـكَـرْ
أنــا في الــروض مــع الله ولا أَطــلــبُ أكــثــر!

وقال أيضاً:

قُبْلة الشَّمس في الحديقة تحرير وإلاّ فــإنّــهــا غــفــرانُ
وأغاني الطّيور فيها حكاياتٌ وإلاَّ فــإنّــهــا ألْــحــانَ
جارك الله في الرِّياض فإن أُقْـ صِيْتَ عنها فجارك الشّيطانُ

وهكذا قطعنا الطَّريق وهذا المعنى يفعل في أرواحنا فعل النَّسيم اللَّطيف أو الضوء بالأزهار وكلّنا يشعر أنَّه إذا لم يرجع من زيارة البُرْج بغير هذا الزَّاد الرّوحيِّ لكفاه.

وانسدل اللَّيل ونحن لم نَبْلُغْ مدينة جكسنفيل وكادت تصيح عصافيرُ البطون من الجوع والبطون لا تشبعها القوافي وإن كانت تشبع العقول والقلوب، فقال صاحب «السَّمير» مداعباً:

قُلْ للمدينة ما لها لا تَقْربُ طالَ المَسيرُ وأمرنا يتصعَّبُ
والجوع يصفر في البطون كأنَّـهُ أفعى تفحُّ لحارثٍ أو عُقْربُ
تطويْ الطَّريقة بنا المطيَّة في الدُّجى وكأنّما هي في الطَّريق تُدَبْدِبُ

وأخيراً استراحت السَّيارة من الرّكض وحوتْنا المدينة التي كنّا نظُنَّ أنَّنا لن نَبْلُغَها.

السَّمير: 8/ 4/ 1939

ما رأيت وما سمعت

إذا كنْتُ أتحدَّثُ إلى القرَّاء عمَّا أراه في رحلاتي مِنْ المشاهِد والأمور وما تخلقُه هذه في نفسي مِنْ التأثير فذلك لأنّي أحبُّ أنْ يشاركني القرَّاء اللَّذة التي أشعر بها حيناً. والعظَة التي أَتمثّلها حيناً آخر. وأنْ يعرف النَّاس شيئاً عن الأماكِن التي أزورها ولا سيَّما الذين لمْ يسمح لهم الدَّهر بأنْ يزوروها. فالحديث عن الأشياء البعيدة يقرِّبُها.

وقد ينبِّههم الحديث عن بعض المحاسِنْ إلى محاسن طبيعية حولهم حيث يقيمُون فيرجِعُون إليها فتكون لهم بها عنايَة ويصيرون لها أكثر تقديراً. ويجدُون في هذا الإلتفات والعناية غِبْطة لمْ تكُنْ لهُمْ وهم عنها معرِضُون.

ومِنَ المُفيْد جداً للإنسان أنْ يرجعَ إلى صحبَة الطَّبيعة حيناً بعد آخر لئلاَّ تنقطع بينهما الصلة فيبقى

فيها جمالها وسحرها ويفقد هو لذّة الإحساس بما فيها مِنْ جمال وسحر.

وفي صحبة الطَّبيعة فوائِد جمّة يحصل عليها الإنسان مجاناً. وهي أثمَنُ مِنْ كُلِّ الفوائِد التي يتقاضى النَّاس عنها أثماناً باهظة.

فكَمْ مِنْ شجرةٍ شعرْتَ وأنتَ في ظلِّها كأنَّك في ظلِّ رُوْح نبيلة عطوفة شفيقة.

وكم مِنْ بحيْرَة سرَتْ في قلبك الطُّمأْنينَة عندما وقَفْتَ على الشط تنظُر إليها.

وكم مِنْ جبَلٍ أو وادٍ أيقظَ في رُوْحِكَ ذكريات قديمة هاجِعَة فتَنَفَضَّتْ كطيُور الفجرِ وأحسَسْتَ عند استيقاظِها كأنَّك تستردُّ ما مضى مِنَ العمر.

وكَمْ خِلْتَ أنَّ همومَك لا تنقضي فلَمَّا صرْتَ في حمَى الطَّبيعة إنطوَتْ في صدرِكَ الهموم وإذا بك مَرِحٌ طَروْب كأنَّك لم تَعْرفِ الإنقباض في حياتِك.

فاقتَرِبْ مِنْ الطَّبيعة ترجع إلى النَّاس وفي صدرِكَ ما فيه مِنْ إتِّسَاع ورَحابَة وحلم جميل...

لما خرجْتُ مِنْ فلوريدا فارقْتُها وأنا أردِّدُ في نفسي قول المتنبّي المشهور الذي قالَهُ بلسان حصانه وهو مارٌّ في وادي «بوّان» وهو:

يقول بشِعْب بَوّانٍ حِصاني أعَنْ هذا يُسار إلى الطِّعانِ؟[1]

أبوكُمْ آدمُ سَنَّ المعاصي وعلَّمكُمْ مُفارقة الجنانِ

ورحْتُ أجادِلُ ذاتي وأقُول إذا كان الحصان قد إستهْوَاه الجمال في الأرض وهْوَ حيوان فكَمْ يجبْ أنْ يستهْوِي هذا الجَمَال الإنسان العاقِلَ الراقي ولا سيَّما في أرضٍ هي أجمَلُ بكثير مِنْ أرضِ بَوّان.

وكان مِنْ حسن حظي عند مفارقتي «أرض الزهور» أن يرافقني شاعر هو زهرة فوّاحَة في بستانِ حياتنا الأدبيَّة. وهو الصَّديق نعمه حاج الذي ألحَّ عليَّ أن اعرج على سوث كارولينا الغنيَّة بالجبال والحقول ومناخها معتدل كمناخ لبنان فهي غيرحارَّة كفلوريدا ولا باردَة كنيويورك وخيْر الأمور الوسَط.

فلمّا وصلت إلى غرينفيل التي فيها بيت الشَّاعر وهناك تعرَّفْتُ إلى أفراد جاليتنا الكريمة فيها وزُرْنَا مزرعة «الحويك» التي يقوم على حراستها عبد. وفيها نبعٌ رقراق عذب الماء. وفي هذه المزرعة أشجار مختلفة وطيور داجنة.

وصعَدْنَا مرَّة في سيَّارة الأديب الياس ملحم الخوري أنا وشقيقه الصَّحافي القديم والشَّاعر اللَّبق أسعد والصَّديق نعمه إلى جبلٍ إسمه «بارس» يشرفُ على غرينفيل وتشاهَدُ مِنْهُ البواشق السَّوداء تطيرُ فوق الوادي العميق.

في هذا المكان الهاديء الصَّامت إستيقَظَتْ ذكريات قديمة في نفس أسعد فرَوى لنا شيئاً من شعرهِ

---

1 الشِّعْب: إنفراج بين الجبلين ج شِعاب.

أيَّام كان يحرِّر جريدة «المُهَاجر» فكنت أصغِي إليْهِ وأتأسَّف كيف أنَّ الدَّهر وضَعَ هذه الشعلَة الشِّعْريَّة تحت المكيَال. ولَمْ يكُنْ في الطَّاقة نقل جلالة الجبل وكبريائِه ولا شجرة مِنْ أشجاره إلى الورق ولكن تسنَّى لي وأنا فيْه أنْ أنقُلَ بعض ما سمعْتُهُ مِنْ أسعد لأَعرِضهُ على قرَّاء «السَّمير» فيعرفُوا أيَّ موهبة مخبوءَة في غرينفيل. ففي الأبيات التَّاليَة يدافعُ دفاعاً جميلاً عن حَوَّاء التي كانت سبَبَاً في خروج آدم مِنْ الفردوس وهي:

إنْ أسقَطَتْ حَّواء آدم مرَّةً	كم مرَّة نجَّتْهُ مِنْ سَقَطَاتِهِ
قالوا بغَتْ وجَنَتْ عليهِ خروجهُ	مِنْ جنَّة الفِردوس طول حياتِهِ
صَدقوا ولكن ليس يُنْكَرُ أنَّها	أغنَتْه عن فِردَوسِهِ وفُراتِهِ
لمَّا رأى ذاك الملاك رَفِيقهُ	ترك الجنان وقال: تكفي هاتِهِ!

وإليك أبياتاً لهُ في الغزل تدل على رقَّة شعور وصفاء بيان وجودة طبع قال:

لَمَّا رأيتُكِ في الجمالِ فريدةً	سَيَّرتِ في كل البلاد فَرائِدي[1]
لولاكِ ما خطَر الغرام بخاطِري	ورجعت أنشر في الأنام قصائدي
فلأَنصبَنَّ - على الطَّريق حبائِلي	وأبِيْتُ أرصد للغزال الشَّاردِ[2]
وإذا وقعتِ أكون أغنَمَ صائِد!	فإذا وقعْتُ أكون أسلم واقِعِ

ووقَف مرَّة على جسر بروكلن في ليلة مقمِرَة فقال يصفُ القمر وخياله في النَّهر:

والبدرُ قد شاهدْتُه في ليلتي	بَدريْن لا ما صَورُوهُ خيالا
قمرٌ تَهادَى في السَّماءِ ودُوْنَهُ	قمرٌ يحاكِيْهِ سناً وجَمَالا
يتسَايَران كعاشقَيْن لموعدٍ	حيث المتيَّمُ لا يرى عُذَّالا[3]
أصباهُما نظرُ الرَّقيب فَراعَهُ	فغدا يقطِّبُ وَجْهَهُ إجْفالا

وكانَتْ بينه وبين المرحوم أسعد النقيري مداعَبَات. وكان النقيري الذي عاشَ مدَّة في مصر يلحق كلمة «قوي» التي تعني عند المصريين «جداً» بكُلِّ شيء يريد أن يبالغ في وصفِه فيقول «مهم قوي» و «بليغ قوي «و» ضعيف قوي»! الخ.

وكان مصاباً بالرُّوماتيزم إلى درجة يتصعَّب معها عليه المشي إلاّ عرَجاً. وحدَث أن «أسعدنا» كان مرَّة في سفَر فكتب النقيري هذه الرسالة التي شاء أن يداعبه فيها قائلاً له:

صديقي العزيز «المهم قوي»!

---

1 الفريدة الجوهرة الثمينة ج فرائد.

2 الحِبالة: الحابل الصَّائِد بالحِبالة والأُحبول المِصْيَدَة.

3 العذل: عَذَله: لامه.

توالى ذكرك في خاطري في هذين اليومين فقلت: لعَلّ الصَّديق ذاكري ولو بملام. المحِبّ الدّاعي جيّد الصِّحَة متقلِّب الأحوال. أنت كيف أنت. عسى أنْ تكون قد أوتيت الفَرَج مِن العَرَجْ وعليك السلام:

في كلِّ عمري ما رأيتُ شوارباً	أبداً نظير شوارب الأنقيري
جرَت على الشَّفتين أذيالاً لها	ورؤوسها إرتفعَت على المنخُور
لكنَّها في وجنتيْهِ ملاحَة	أخذَتْ مِنَ التأنيث والتذكيْر
لو شفت في ضربِ المحاشي فعله	شاهدت حقاً كيف عزم الزِّيْر
يتلو القريض كأنَّه أوفى على	سِحْر الخميس وآخر المزمور

وله أشياء أخرى طريفة وجميلةٌ وَدَدْتُ لَوْ أنَّه يستخرجها مِنْ مدافِنِها ويبعثها مِنْ جديد.

السَّمير: 14/ 4/ 1939

يوم الإله الصَّغير

أمسكْنَا القلم لنكتُبَ كلمة عن عيد يوم الأمَّهات الذي شرعَ الأميركيُون يحتَفِلُون به منذُ بضع سنَوات فحضرَتْ إلى الذِّهْن صُوَر أناس نعرفهُم هاجروا إلى هذه الدِّيار وهم في مَيْعَة[1] الشَّباب الغض[2]. كانَ لهُم أتراب وأصحاب فلمَّا طال زمن البُعْد نسوْهُم.

وكان لهُم عشَراء وأصدقاء فاستحْدثُوا مِنْ بعدِهِم غيرهم في الأماكن التي نزلُوها. وكانت لهُم رغائِب وأشواق فذبلَتْ في أرض الغربَة لتنبت في قلوبِهِم أشواق ورغائِب أخرى.

وكانَ في أذهانِهِم للجمال والفضيلة صُوَر خياليَّة قريبة مِنْ الواقِع أو بعيدة. فلمَّا نزلُوا إلى معتَرَك الحياة القاسي تبدَّلَتْ هذه الصُوَر بتأثير المحيط أو الأحوال أو إنْطَمسَتْ واندَثَرتْ.

أجل. إنَّهُم تبدَّلُوا من كل شيء شيئاً أخر حتى اللُّغة واللِّباس والوطن.

إلاَّ أنَّ شيئاً واحداً فيهِمْ لم يتبدَّل وهو حُبُّ الأم في قلوبِهِم وصورة الأم في أذهانِهِم فهي الإله الصغير المنظور الذي لا ينساه المرء إلا إذا استطَاع أن ينسى الله..

فهُوَ رحمَة شاملة.

وهي رحمة لا حَدَّ لها

هو محبَّة وغفران

---

1 ومَيْعَة الشَّباب والنَّهار أوّ لهما.

2 الغَضُّ: الطَّريّ الحديث من كُلِّ شيء.

هو صاحب العيْن التي لا تَـنَام

وهي صاحبَة القلب الذي لا يتعَبْ مِنَ الخفَقَان بالحنَان والعطف والإشفاق

هو الذي تشرقُ شمسه على الأخيار والأشرار من عباده

وهي التي تغمرُ بحنُوها ومحبّتها الأخيار والأشرار مِنْ أولادها!

إستمِعْ إلى الفلاسفَة الوعَاظ ورجال اللاَّهُوت يقيمُون الدَّليل على وجُود الله فتحَار وتحَار وربَّما ضلَلْت وأنتَ تريد أن تهتدي...

ولكنَّك إذا نظَرْتَ إلى وجهِ أمّك ضاحكَة أو باكيَة شعرْتَ أنَّك تقترب مِنَ الله. بدون أن تمشي خطوة أو تجهدُ عقلك في البحث.

فإنَّها الدَّليل الذي لا يدحَضْ بحجَّة فيلَسُوف ولا بكلام سفسطائِي على أنَّ الله موجُود وعلى أنَّه رحمة ومحبَّة وسخاء عميم.

ولقد أدركَ الأميركيُّون ما للأم مِنَ الفضل على الحياة وما لها من التأثير الفعَّال في إرتقَاء الإنسان وإزدِهار الحضارة فخصصَّوا لها يوماً في السَّنة فأحسَنُوا وأجادُوا.

إلاّ أنَّ الأمر الواقِع هو أنَّ كُل يوم في الدَّهر هو يوم الأمّ.

السَّمير: 13/ 5/ 1939

بين الفصْحَى والعاميَّة

ورَدَتْ في المقال الذي نشرنَاه يوم السبت للأديب الفاضل إبراهيم قرعان ملاحظة حول لغة المسْرَح تدلُّ على أنَّه ممَّن يستحسِنُون إستعمَال اللُّغة العاميَّة في التمثيل. ونحن مِنْ هذا الرأي. إلاّ أنَّ الأمر لا يتوقَّف على اللغة العاميَّة ولا على اللغة الفصْحَى، بل على الفكْرَة التي تلبس الكلام ثوباً؛ وفي اللُّغة العاميَّة عبارات ثقيلة وعبارات جوفاء لا قيمة لها لا تؤدي شيئاً إلى ذهن القاريء. وأحياناً يتكَلَّفها المُحدِّث تكلُفاً فتجيءُ سمجة نابيَة عن الذوق كالكلام الوحشي [1] الذي يلجأ إليه المُـقَصِّر في اللغة الفُصحَى.

وأمام إستعمال اللغة العاميَّة عقبة كأداء [2] لا ندري كيف يمكن التَّغلُّب عليها وهي تعدُّد اللَّهجات العاميَّة بتعدُّد الأقطار والأمصار بل بتعدُّد المدائِن والقرى بحيث يصعب على جمع خليط أنْ يفهمَ كُلَّ ما يقوله الممثِّل الذي يلجأ إلى لهجتِهِ الخاصَّة، التي لا يفهمها سوى ابن قريته أو مدينته.

---

1 الكلام الوَحْشي: القديم الذي يصعب فهمه بسهولة.

2 عقبة كأداء: أي صَعْبَة.

ولا يجب أن ننسَى أنَّ اللُّغة العاميَّة ليسَتْ في الواقِع إلاّ اللغة الفصْحَى مشوَّهَة ممسوخة. ولمَّا كانَتْ اللغة الفصحَى اليوم قد بلَغَتْ درجة مِنْ المرُونَة والسُّهُولة يستطَاع معها التعبير عن أيّ هاجسٍ[1] في النَّفس أو ترجمة أيّ خاطِرٍ في الرأس، فالأخذ بها أليق وأنسب وأجمل وإنَّما يجمُل بالممَثّلين أنْ يسكّنوا أواخِر الكلمات فلا يشتبِه الأمر على أيِّ سامِع. وتجيء كُل كلمة مستقلَّة فلا يضيع معناها بين الرَّفع والنَّصب والجرّ والتَّنوين.

وقبل كُلِّ شيء يجب أنْ يحوي الكلام فكرَة أو معنى أو مغزى يستهْوِي السَّامع فلا يتضَجَّر. وأنْ يكونَ الكلام جليّاً لا تعقيد فيهِ ولا تلبُّك. فتنقطِع الشَّكوى ويقِلُّ التذَمُّر.

فالمسألة أولا وأخيراً حُسْن أداء أو سوء أداء، لا أكثر ولا أقل. وبعضهم يعجَزُ عن تأدِيَة ما في نفسِهِ بأيَّة لغَة وبعضهم لا يعجزُ عن إفهَام السَّامع ما يجولُ في ضميرِهِ بأيَّة لغة وإذا أعوزَه الكلام عمَد إلى الإشارة فأفصَح وأبَان.

لا، ليس العيْب في اللُّغة الفصحَى بل في الذين لا يحسنُون إستخدامها طَبَقاً[2] للمواقِف والأحوال وأهم مِنْ كل مهم أن يراعي المُتكلِّم سَواء كان خطيباً أو ممثلاً أو محدِّثاً مَدَاركَ القوم الذين يستمعُون إليه. فلا يلقي عليهم قصيدة كـ«قفا نبك» وهم يتوقَّعُون أنْ يسمعُوا مطلع معنًّى أو مَوَّال عتابا ولا يغنِّي لهم عَتَابا وهم مغرمُون بأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم أو أغاني الأوبرا الإفرنجيَّة.

ولماذا لا يمكن أن تكونَ الرِّوايات العربيَّة كالأغاني المصريَّة الحديثة مزيجاً مِنْ اللغتين الفصحى والعاميَّة يتَّفق مع أذواق السَّامعين مع تسكين أواخر الكلمات كما قدَّمنا وكما نفعل كلنا عندما نتحدَّث.

السَّمير: 15/ 5/ 1939

كلّنا مغلوبون ـ أوّلاً وأخيراً

إستوقَفَتْنا في رسالة بعث بها إلينا صديق مِنْ رجال الأدب الذين هجروا حومتَه عبارة لم نستطِع المُرور بها دون كلمة نقولها وملاحظة نبديْها. وهذه العبارة هي:

أمامي الآن رسالة كتبَها إليَّ المرحُوم جبران سنة 1922 جاءَ فيها «لئن غُلِبْتَ يوماً فَستَغْلِبُ دهراً».

وأنا اليوم مغلوبٌ على أمري ولكنني لا أعلمُ إلى متى؟ ألِشَهر أم لِعَام أمْ لِدَهْر؟

---

1 الهاجس: الهَجْس النَّبأة تسمعها ولا تفهمها وكُلُّ ما وقع في خلدك.

2 طَبَقا أي مطابقاً.

قرأنا هذه الكلمَة فرحْنَا نتساءَل قائِلين:

أفوق الأرض كائِنٌ عاقل أم تحتَ التُّرابِ ميتٌ رَميمٌ[1] لم يُغلَب يوماً في عمره؟

وهل هناك قلبٌ لم يستشعِر الحسرَة والنَّدم والغيظ والألم يوماً أو شهراً أو دهراً. إمَّا لأمرٍ طلبَهُ فلَمْ يدركْه. وإمَّا لحالة كان فيها وتمَنَّى دوامها فلمْ تدمْ. وإمَّا لخسارة في تجارة أو في غير تجارة. وإمَّا لضياع لذَّةٍ أو شبابٍ أو وطنٍ أو حبيب. أو غير ذلك مِنَ الأمور التي يقدِّرها الإنسان فيخطيءُ في التقدير؛ فإذا الذي توهَّم أنَّه واقع غير واقِع وإذا المصير غير المصير.

كلُّنا مغلوبٌ في الحياة حتى المُنتصر الظافِر مِنَّا. كُلُّنا ضعفاء أمام القِوى الخفيَّة التي تلعبُ بنا لعب العاصفة الهوجاء بالعصفور.

نحنُ ذرَّاتٌ في كفِّ الدَّهر يجمعها حيناً ويفرِّقها حيناً فإذا كان اجتماعها إنتصاراً فلسْنَا نحنُ الذين أحرزْنَاه وإذا كان افتراقها إنكساراً فمَا هذا الذي إخترنَاه وأردناه.

ولكنَّنا عندمَا نتكلَّم عن الإنتصَار والإنكسَار. أو عن الفوز والإنغِلاب لا نعني إنتصاراً على قُوَّة طبيعيَّة ولا إنكساراً أمام قُوَّة أخرى بل الذي نعنيه ماكسبْنَاه نحنُ من ناس مثلنا أو ما خسرنَاه مع ناس مثلنا. فالشَّكوى المُتصاعِدَة مِنْ فمي وفمك هي شكوى مِنْ جاري وجارك. مِنَ الإنسان الذي يحاول تكييف حياتك وأمورك إمَّا مباشرة أو بواسطة. وبعبارة أخرى أنَّنا نشكو مِنَ المجتمع العام. مِنَ التَّفاوت فيه. مِنَ الأخطاء في أنظمَتِهِ وشرائِعه وعاداته وتقاليده. وربَّما كان أوَّل شاكٍ مِنْها هو الذي كانت له اليَد الطولى في وضعِها أو الدِّفاع عنها.

فنحن مغلوبُون أبداً. مغلوبُون مع المجتمَع القاسي الذي لا يرحم. ومغلوبُون مع الحياة التي تعطف علينَا عطف الأم الرَّؤوم ثم تسحقُنا سحق العاتِي الجبَّار فنتحطَّم تحت ضرباتِها كما يتحطَّم الفخَّار.

كُلُّ إنسان مكتُوبٌ له أنْ يكونَ مغلوباً أبدا. مع أُمِّهِ وهو طفل ومع المدرسَة وهو يافِع ومع المجتمَع وهوَ رجل ومع الحياة في كلِّ أدوارِها.

فلا حاجة إذن للإفتراض بأنَّه إذا غُلِبَ يوماً فسَيُغْلب دهراً لأنَّ الأمر الكائِن الرَّاهن هو أنَّه مغلوب أبداً حتى عندما يتوهَّمُ أنَّه ظافر منتصر!.

السَّمير: 29/ 5/ 1939

---

1 الرَّميم: رمَّ العظم بَلِيَ فهو رَميم.

غلط ولكنه غير مطبعي

يغلطُ الإنسان في عمل أو قول فإذا نُبِّهَ إليه وكان حكيماً تداركَهُ بل ربَّما أسرعَ إلى إصلاح الخطأ قبل أنْ ينبِّهَهُ إليْهِ أحد.

وهكذا تفعل الجريدة عندما يقع فيها غلط ناشيء عن سَهْوِ الكاتِب أو المُنضِدّ.

ولكن هناك غلطَات لا يستطيع الإنسان إصلاحها لأنَّها فوق قُدْرَتِـهِ.

خذ مثلاً بعض النّاس الذي خلقتْهُم الطَّبيعة ولهمْ كُلُّ ما للنَّاس منْ أعضاء وجَوارح وحَواس. ولكن ليس فيهِم شيء مِنْ كياسَة الإنسان الرَّاقي ولا فهمه ولا شعُوره.

هؤلاء بين النَّاس كالأغلاط المَطْبعيَّة في الكلام الجميل.

إنَّهُم مركَّبُون مِنْ لَحْم ودَمَ ولَكِنْ قلوبُهُم مشوَّشة بالحقد وعقولهم مطْمُوسَة بالجَهل ولا قدرة لك أنْ تصلحَهُم لأنَّك لستَ رَبّاً.

هم كالكلِمَات المغلُوطَة تتألَّف مِنْ الحروف كسائِر الكلام الصَّحيح ولَكِنّ الحروف في غير مواضِعِها لا تؤلِّف كلاماً صحيحاً.

ومثلَما يستعصِي عليكَ فَهْم جملة مشوَّشة أو تستنكرُ عبَارة نافرة خارجة عن قاعدة الكلام الصَّحيح. كذلك تقف أمام هذا الصنف مِنْ البشر وأنتَ حائِر ممتَعِض لا تقدر أن تصحِّحَه لأنَّه ليس كلاماً وليس لك أن تشطبه من دفتر الحياة لأنَّ الأمر ليس لك. وأنكَى مِنْ هذا أنَّ عليك أنْ تحسَبَهُ مِن النَّاس وإنْ لم يكن منهُم إلاّ بشكلِه وهيئته...

قد تقول في نفسك: لماذا لا نمرُّ بهذا الصنف كما نمرُّ بالأصنام والتماثيل. فلا نكلِّفُ أنفسنا أنْ نَحْسَبَها مِنّا ولا نجبرُ أنفسنا على أن نأخذ معها ونعطي.

رأيٌ حسن. إلاّ أنَّ الأصنام لا تمشي إليك بمكروه إذا كانت لا تمشي إليك بجميل أمَّا هؤلاء فيمشُون ولَكِنْ بالمكْرُوه وَحْدَه!

إذن فالطَّريقة المُثلَى هي أنْ نفعل بهم ما يفعل البستَاني بالشَّوك والزَّارع بالزؤان أي أن نعزلَ الأول عن الأزهار لِئلاّ يخنقها. ونفصل الزؤان عن القمح لِئلاّ يغلب الشّرّ الذي في الشَّوك الخير الذي في القمح.

أجل إنَّ الجهلَة. والأشرار هم في عالم الإنسانيَّة الصَّحيح مرضى يجب عزلهُم إذا إستعصَى على المجتمَع أنْ يكشفَ عنهُم عمَاوَة الجهْل وأنْ يغلبَ فيه نزعَات الشر.

فإذا بليْتَ بواحدٍ مِنْ هؤلاء وأعجَزَكَ أن تصلحَه فابتعد عنْه كما تبتعد عن موبوء لئِلا تنقل عدوى التَّعصُّب والغَبَاوة منْه إليك.

خذها نصيحة مني. فهي بنت التَّجارب الكثيرة.

تجارب الحكماء والفلاسفة والأنبياء. وتجاربي أنا أيضاً.

فإذا عجزْتَ أنْ تبتعد فلتكن لك شجاعة وقوَّة على إستئصال الشَّوك لئلاَّ يدميك. وعلى سحق العقرب لئلاَّ تؤذيك.

السَّمير: 5/ 6/ 1939

ساءَ الذَّليل مقاماً أينما نزلا

لكُلِّ إنسان حقٌ على الحياة إذا تخلَّى عنْه ولم يطالِبْ به لاحَ في عيني الحياة صغيراً حقيراً وصار في نظَر النَّاس أدنى مِنْ النّاس.

حقّك في الحياة يعني أنَّ لك حصة في الماء والهواء والغذاء. فهذه لم توجد لفئة من البشر دون أخرى فإذا حال بينك وبين الماء إنسان وفيك عطش فهو جانٍ عليك. وهو معتدٍ على حق لك وإنْ أنْتَ رضيْتَ انْ تصبرَ على أذاه وتحتمل الظَّمأ والماء موجود. فأنت جانٍ أكبر ومُعتدٍ أشد إثماً.

وحقُّك في الحياة يعني أنَّ لك حصة في ما تخرج الأرض مِنْ الغذاء. فإذا أهملْتَ حقَّك متَّ جوعاً أو ضنْكاً. ولا يجوز أنْ يموتَ إنسان جوعاً لأنَّ الخير في الأرض كثير يزيد عن حاجة سكَّانها.

وحقُّك في الحياة يعني أنَّ لك أنتَ الكائِن العاقِل حقّاً في أنْ تعيشَ حرّاً آمناً فلا يتعرَّض لك في النهَّار لص ولا يدبُّ إلى بيتِك في اللَّيل سارق. ولا يبغِي عليك مُستبد فيمنعكَ أنْ يكونَ لك رأيٌ غير رأيه ونظَرات في الأمور غير نظراته.

فإذا تنازلْتَ عن هذا الحق الذي وَهَبَتْكَ إيَّاه الحياة صرتَ غير مستحقٍ لآلاء الحياة وبركاتها لأنَّك خالفتَ نواميسها وأبِقت[1] بذُلِّكَ وخنوعِك مِنْ طاعتِها ولم تعمل بوصايَاها.

فالحصول على هذه الحقوق لا يتمُّ لك بان تقعدَ في ناحية مِنْ الأرض وتشكُو عنَت النَّاس وقسوة الأيَّام واللَّيالي ومعاكسة الحظوظ والأقدار.

بل أنتَ لا تحصل على شيءٍ مِنْ هذه الحقوق إلاَّ إذا كُنْتَ مستحقاً لها ولا تصير مستحقاً لها إلا إذا طالبْتَ بها. وسعَيْتَ لإدراكها.

فإذا كنْتَ تريد أن يأتيكَ نصيبك مِنْ غلَّة الحقل فيجب أن تعاون الأرض على إخراج الغلال وذلك بأنْ تتعبَ في حراثتِها كمَا تتعب هي لتردّ الحبَّة إلى زارعِها مائة حبَّة.

والظَّفَر بالماء يوجبُ على الإنسان أن يجمعه إذا نزل مِنْ الغَمام أو أنْ يحرصَ عليه إذا كان مجتمعاً في

---

1 أبِق العبد: أي هَرَبَ.

حوض أو بئر أو مندفق من ينبوع.

إنَّ الحياة تعرض عليك هباتِها بلا ثمن وإنَّما عليكَ أنتَ أنْ تحسنَ الأخذ وأنْ تعرف لهذه الهبَات قدرها لتعرف كيف تصونها وتذودُ عنها.

وأثمن مِنْ كل هذه الحقوق حقُّك في نفسِك فإذا تهاوَنْتَ في كرامتِك صرتَ عبْداً ذليلاً لمَنْ يستزيد مِنْ الكرامة والعزَّة والصَّولة في الأرض.

وأمَّا بعض النَّاس ـ إذا جازَ أنْ نعدَّهُمْ مِنْ النَّاس ـ فلقد مات هذا العرق في أرواحِهِم فهْوَ لا يَنْبِضُ. لذلك تقعُ الكَفُّ على أقفيَتهم فلا يحسُّون ألماً ولا عاراً ويختطِفُ المُستبد اللُّقمة مِنْ أفواهِهِم وأفواه أولادِهِم ويطرحها لكلابِه وعبيده فيذهبُون يباركُون للكلاب والعبيد بما أكلُوا!

وتدور سلاسل الإستعبَاد حول رقابِهم وتشتدُّ عليها حتَّى تدميْها فلا يتألَّمُون إلاَّ كما تتألَّم الدَّابة من سرج يوضَع على ظهرِها ولجام يوضَع في شِدْقيْها وسَوْط يسقط على قفاها وحيناً على فخذيها.

السَّمير: 7/ 6/ 1939

الضِّفْدَع في الحكايات

للضِّفْدَع عند أهل الحكمَة حكايات كثيرة كمثل الحكايات عن الثَّعلب. والحيَّة. والطَّاووس والهدهد. والحِمار والذِّيب وغيرها مِنْ الحيوانات والطُّيور. فإنَّ الفلاسفة والشُّعراء رأوا أنْ يستخرجوا الحكمَة للنَّاس في أمثال يضربُونها أو حكايات يقصُّونها. فتحصل العظة منْها في نفس القاريء والسَّامع دون أنْ يُتَّهَمْ في عقلِه أو تُمَسّ كرامته. وليست الحيوانات في القصَص والأساطِيْر والحكايات إلاَّ رموزاً لأناس فيهم مثل طباعها ولهُم مثل تصرفاتها.

فمِنْ الحكايات البليغة عن الضِّفْدَع أنَّ أسداً سقط في بركة كلس حاميَة فأخذ يتخبَّط فيها لعلَّه يستطيع النَّجاة مِن الهلاك احتراقاً وبينما هو يجاهد ويزأر مِنَ الألَم تطلَّع فرأى على ضفَّة البركة ضفدعاً وسِقَّاية [1] وإذا بالضِّفدَع تملأ فَمَها ماء وتبخُّه على الأسد لعلَّها تكسر مِنْ حدَّة اللَّظَى فلا يحترق. وإذا بالسِّقاية تنفخ في الكلس بشدَّه لتزيده وهجاً وإستعارا ليسرع الموت إلى الأسد.

فلمَّا رأى ذلك منْهُمَا كاد ينسَى المحنَة التي هوَ فيها فهزَّ رأسه ساخراً وقال في نفسِهِ:

«لا الضِّفْدَع ستطفيءُ النَّار ولا السقاية ستزيد اللَّهب. ولكنْ ظهَرَتْ نيَّة كُلّ واحدة منهما».

فالضِّفْدَع في هذه الحكاية كائِن مشفق رحيم يحبُّ الخيْر ويكرهُ أنْ يرى غيرَه في محنة فيعمل جهده لإنقاذه منها.

ولاح لشاعر مرَّة أنْ يصوِّرَ حالة هو فيها فنظَم هذه الحكاية:

---

1 سِقَّاية: وسقاه بالشَّفة وأسقاه دلَّه على الماء، أوسَقَى ماشيته أو أرضه فهو سَقاء وهي سَقَّاءَة وسَقَّايَةٌ.

قالت الضِّفْدَع قولاً فسَّرته الحكماء

في فمي ماء. وهل ينطق من في فيه ماء

فوضَع في فم الضِّفْدَع كلاماً يجيش في نفسِهِ ولا يستطيع الجهْر بِهِ إمّا خوفاً من سلطة غاشمَة. أو مراعاة لجماعة جاهلَة. وهي لسببٍ ما تتمثَّل بهذا البيت السَّائِر!

ويشبِّه العرب الرَّجل الثرثار الغث الكلام بالضِّفدع لأنّها تكثر النَّقيق على وتيرة واحدة.

وللإغريق القدماء حكاية عن الضِّفْدَع يتمثَّل بها النَّاس عندما يَرَوْن رجلاً صغيرا يقلِّد رجلاً كبيراً. أو يحاول الظُّهور بمظْهَرٍ لم يخلق له فإنَّ الضِّفْدَع في هذه الحكاية أعجبَهَا مِنَ الفيل أنّه ضخمٌ كبير فأرادَتْ أن تصيرَ مثله فانتفَخَتْ ثمَّ إنتفَخَتْ لعلَّها تكبر فإذا بها تنشق وتتمزَّق!

وليس في تشقُّق الضِّفْدَع وتَمزُّقها كارثة ولا فاجعة ولكن في حكايتها هذه عظَة بالِغة لكُلِّ مغرور يلبس ثوباً ليس له. ويطلب حالة لا يستأهلها ولا تليق به. وقد قال أحد الشُّعراء:

مَن تردَّى برداءٍ ما رآه لأبيهْ

سوفَ يأتيهِ زمانٌ يتمنَّى الموتَ فِيهْ

وما دُمْنَا في الحديث عن الضِّفْدَع وأطوارها والحكايات التي وضعها النَّاس عنها فلا بأس بإيراد قصَّة نظمناها عن ضِفدع وقفَتْ مِنْ بنات جنسها موقف القائِد المُرشد والزَّعيم المُجاهِد وذلك في ليلة مِنَ اللَّيالي لاحَتْ لها خيَالات النُّجُوم قد هبطَتْ مِنْ الأعالي لتطرد الضَّفادع مِنْ الساقيَة وتقيم مكانها. فأخذَتْ تصيح في اللَّيل حتَّى اجْتمعَتْ الضَّفادع كلّها واندَفَعَتْ في الصِّياح إلى الفجر.

فلمَّا مَحَا ضوء الفجْر أشباح النُّجوم مِنَ الماء راحت تلك الضِّفدع تختال كالقائِد المُنتصر وتحدِّث رفاقها بالفَوز المُبين الذي تمَّ لها ولهم على اللَّيل وعلى النُّجوم معاً وهذه هي القصَّة:

صاحت الضِّفْدَع! لمَّا شاهدَت حولها في الماء أظلال النُّجومْ

يا رفاقي! يا جنودي احتشدوا عبرَ الأعداء في اللَّيل التُّخومْ![1]

فاطردُوهُم واطردُوا اللَّيل معاً إنَّه مثلهُمُ باغٍ أثيمْ

زعقةٌ سار صداها في الدُّجى فإذا الشطُّ شخوص وجسومْ

مزَّق الفجر جلابيب الدُّجى وامَّحَتْ من صَفْحةِ الماءِ الرُّسُومْ

فمشَتْ في سربِها مختالةً كمليك ظافرٍ بين قرومْ[2]

ثم قالت: لكم البُشْرى ولِي قد نَجونا الآن من كيدٍ عَظِيمْ

نحن لو لم نقهر الشُّهْبَ التي هاجَمتنا لأذاقتنا الحتومْ[3]

---

1 التُّخُوم: التَّخْم بالفتح منتهى كلّ قرية أو أرض ج تُخُوم.

2 القُروم: القَرْم من الرِّجال السَّيِّد المعظَّم ج قُروم.

3 الحُتُوم: حَتَم عليه الأمر أوجبه فهو حَتْمٌ ج حُتُوم.

وأقامَت بعدنا من أَرْضِنــــا   في نعيم لم تجده في الغُيــــومْ
أيُّها التّاريخُ سَجِّلْ أنَّنـــــا   أمّةٌ قد قَهَرَتْ حتى النُّجُومْ!!!

ولا نرانا بحاجة إلى زيادَة شيء على ما تقدَّم لِئِلاّ ننتقل مِنْ الكلام على الضِّفْدَع إلى الكلام على بعض النَّاس الذين فيهُم ما في تلك مِنْ أوهَام وحديثهُم نقيق وإنْ لَبِسَ صُور الكلام.

السَّمير: 12/ 6/ 1939

فلسفة العَجْز - فلسفة الحَمْقَى

للعَجْز فلسفته مثلَمَا للقُوَّة فلسفتها.

فالقويُّ القادر على بلوغ أمنية في نفسِهِ يرتكز في الوصُول إليها على فلسفة «الدنيا لمن غَلَبَ» وعلى الحكمة القائلة:

«الأرض ميراث المُجتهدين»

وهذه هي الفلسَفَة التي تتمشَّى عليها الأمَم الأوروبيَّة التي بعد أن انتهَتْ مِنْ استثمار أرضها أخذَتْ تستولي على أراضِي الأمم الأخرى وتستثمرها.

لذلك قَلَّ الزَّاهِدُون المتصوِّفُون في أوروبا وأميركا لأنَّ القوم مُدرِكُون أنَّ الزهد آفة الهِمَم. فما انْطَوى إنسان على نفسِهِ إلاّ وصارَ عالة على محيطِه وعبئاً ثقيلا على الأرض التي يعيش فوقها.

وقد أدركَتْ تركيَا ما في الزُّهد مِنْ خطَر ولا سيَّما إذا كان شعوَذة فراحَتْ تطارد الدَّراويش حتى طهَّرَت منهُم أرضها. لأنَّهم حجارة لا تصلح أنْ تكونَ في البناء الوطني الجديد.

وها هي بعدما أكملَتْ نهضتها - بالطموح والإقدام لا بالزُّهد والخمول - أخذَتْ تمدُّ يدها إلى سوريَا وتقتطِع منها الشقَّة بعد الشقَّة على حد ما تفعل الأمم الأوروبيَّة الإستعماريَّة.

ونحن لن نصيرَ أمَّة ذات شأن تقدر أن تردَّ عنها العوادي وتذود عن حوضها من الأعادي إلاّ إذا نبذْنَا فلسفة العَجْز والخُمول قصياً وخلعْنَا عنَّا ثوب الزُّهد والتَّصوُّف. وفتحْنَا عيوننا بجرأة على الحقائِق فطارَدْنَا عدوَّنا الأكبر وهو القناعَة بالحياة كما تجيء. وتركنا الفخر بالعظم الرَّميم. والتَّغنِّي بالمجد القديم. والإستسلام للأوهام والخرافَات. فالنَّاس لا يسألونك مَنْ كانَ جَدُّك ولا مِنْ أيِّ أرض جئْت بل يسألونَك مَنْ أنت وماذا عملتَ؟

فأيُّ كتاب نحمل في أيدِيْنَا عندما تتقدَّم كُلُّ أمَّة بكتابِها في يوم الفخَار؟

ليس عندنا شيء

إنَّ كتابَنا صفحات مطموسَة

وهو صفحات مطموسَة لأنَّا نمنَا عندما استيقَظَتْ الأمَم. وقعَدْنَا عندما نهضَتْ. وسكتْنَا عندما

قالَتْ. ولم نتحرَّكْ بينما هي تَجِدُّ وتدأبُ وتعمل.

ولهذا السَّبب أخذْنَا نخدِّرُ أنفسنا بالأوهام. فإذا رأيْنَا أساطيل الأمَم في البَحْر رحنَا نعزِّي أنفسنا بأنَّنا مِنْ بلادٍ كانت لها أساطِيْل منذ آلاف السِّنين!

وإذا انفتَحَت أعيننا على أمجاد الأمم التي تدهِشُ العُقول رحْنَا نعزِّي أنفسنا بأنَّ بلادنا كانَتْ فيها حضَارات ومدنيَّات واندَثَرتْ!!

هذه طرمذة[1] العَجْز وفلسفَة الضَّعف. وهي التي توحي لبعض الخياليِّين العائشيْن في دنيا الوَهْم أمثال هذه العبارة ـ «لا نقدر أن نهبَ العالم أساطِيْل ولا مخترعَات ولا ذهباً ولا فضَّة ولكنَّنا نقدر أن نهبه أدمغَة!».

أنَحْنُ الفقراء الضُّعفَاء الذين ينتزع النَّاس الثَّروة مِنْ تحت أقدامِنَا وعلى مرأى منَّا ومسمَع نقدر أنْ نعطي العالم أدمغَة؟

أنَحْنُ لنا هذه القدرة ومِنَ النَّاس نأخذ كل شيء حتى المعلومَات عن بلادِنَا عن أنفسنا؟

إلى متى نظلُّ نتخبَّط في ليل الغرور؟

إنَّنا نستجدي العالم حتى زر القميص. حتى الإبرة التي نُخَيِّط بها ثيابِنا. حتى القلم الذي ندوِّن به هذه الشعوذَة. ومع ذلك يقول قائِل منَّا وعلى مسمع النَّاس «إننا نقدر أن نهبَ العالم أدمغَة!!».

فما أعظَم جَسارتَنَا؟!

وما أنبل الأمَّة الأميركِيَّة التي تسمع مثل هذه الدَّعوى الوقِحَة في أرضِها وتترك قائِلها يمضي في الثرثرة!

إنَّ فلسفة الضَّعف والعَجْز هي فلسفة الحَمْقَى والمغفَّلين وأهل الوساوس والأحلام.

وهذه الفلسفة المضرَّة هي التي حالت مِنْ قَبْلُ وتحول اليوم دون صيرورتنا أمَّة قوية. بل هي التي تجعل منَّا فرائِس لكُلِّ أمَّة قويَّة.

فإذا كنَّا نريد أنْ يكتب لنا التَّاريخ صفحة إنتصار مجيد فأوَّل إنتصار هو يومَ نقضِي على فلسفة العَجْز هذه قضاءً مبرَماً وننبذ أصحابها ودعاتها كما نبَذَ الأتراك الدَّراويش المُمَخرقين[2]. فإن الأمجاد لا تبْنَى بالوَهم المُضلِّل ولا بالتَّصوُّر الخدَّاع.

مَنْ كان يشرب مِنْ جدَاول وهمه   قَطَعَ الحياة بِغِلَّةٍ لم تَنْقَعِ[3]

السَّمير: 20/ 7/ 1939

---

1 الطرمذة: لم أجِدها في «القاموس المحيط» ولعلها «طرثمة» والطرثمة الإطراقة من غَضَب أو تكبُّر.

2 المُمَخرق: الخَرِق الجهل الحُمْقُ.

3 الغِلَّة: الغِلّ شدَّة العطش وحرارته. تنقع: ونَقَع الماء العطش أي سكَّنه.

ليلة في الجبل

تضايقْتُ مِنَ الحرِّ المتطَاول كما يتضايق أيّ سامع من كلمة «يا ليل» يردِّدها مغنٍ قديم الطِّراز فينتهي اللَّيل قبل أن ينتهي.

فلما جاء صديقي السيد نعمه صدقه يقول: هلمَّ[1] إلى الجبل! شعرتُ كأنَّ نفسي توبِّخني لبقائِي في المدينة في حين أنَّ الأصحاب كلَّهم يحويهم الجبَل.

وكان صباح السَّبت فإذا بسيَّارة الأديب إبراهيم صدقه تنطلِقُ بنَا مِنَ المدينة كأنَّ بها حنيناً إلى القمَم العالية. إلى الجبل الذي كتبْتُ فيه «صلاتي» وانفصَلْتُ عنه وبقي في مخيَّلتي يرافقني في رحلاتي وسكنَاتــي.

وكنَّا كلَّما أرتفعَتْ السيَّارة بنا في الجبَل نشرفُ إمَّا على شلاَّل أو نهرٍ أو ساقيَة أو على غابَة من الشَّجر الأخضر المُتلاصق المُتعانِق كأنَّه يريد أن يقي وجه الأرض مِنْ سهام الشَّمس!

وكثيراً ما لاحَ لعينَيْك بين هذه الأشجار فوق واد أو على ضَفَّة بحيرة بيت منفرد معلَّق كأنَّه وَكْنَةُ[2] النَسْر الأَعْصم[3]. فتعجب كيف اختار الإنسان ذلك المكَان ثمَّ لا تلبث بعد الجمال الذي تراه حولَه أن تتعجَّبَ كيف لا يكون الإنسان في ذلك المكان..

وبلغنا تنرزفيل فبَدَتْ لنا الوجوه الشَّرقيَّة وأخذنَا نشاهد النَّاس الذين سبقونَا إلى الجبل فنجوا مِنَ الحر وإرهاقه «وعلقْنَا» نحن في إرهاقه.

قلت أنِّي هربْتُ مِنَ الحرّ ولم أعلم أنِّي فررْتُ من زوبَعة ماطِرَة شديدة إنفجرَتْ على المدينة ميازيبها فكادَتْ تغرقها ونحن في الجبَل ننعَم بالنَّسيم المُلاطِف والظِّلِّ الوارف.

والتقيْتُ رهطاً مِنْ الأصدقاء في منزل صديقي أديب زريق الذي سمَّاه الشاعِر المُتواضع بدْري فركوح - بيت كاتي - فقد أخذنِي أديب أسراً وانا في الطَّريق ونِعْمَ الآسِر الود.

ووجَدْتُ دعوة تنتظرني إلى البيت الذي تصطاف فيه السَّيِّدة النَّجيبة ماري زريق وسلْفِها[4] الأديب فؤاد وصهرها الفاضل ألفرد نحَّاس وقرينته المهذَّبة ألس.

فلمَّا كان الغُروب انتظَمَتْ في ذلك البيت حلقة جميلةٌ مِنْ الأصدقاء وأُديرَتْ أكواب الرَّاح عليهم

---

1 هَلُمَ: أي تعالَ مركَّبة من هاء التنبيه و «لُمَ» أيْ ضُمَّ نفسكَ إلينا واستعملت استعمال البسيطة يستوي فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث عند الحجازيِّين.

2 الوَكْن بالفتح عُشّ الطائر في جبَل أو جدار.

3 والأَعْصم مِنَ الظِّباء والوعول ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض وسائره أسود وأَحمر وهي عَصْماء.

4 السِّلْفُ للرجل زوج أخت امرأته ج أَسْلاف.

وكان عددهُم كبيراً فإذا بنَا في حفلة تقام لموافقَة ذلك اليوم مولد فؤاد.

وبينَما المُصطافُون في البيوت والفنادق يتسامَرُون أو يلعبون أو يتحدَّثون. كانت الأرواح تترنَّح في ذلك البيت بصوت المُنشِدَة السَّاحرة أسماء صباغ التي تزداد القُلوب ظمأً كُلَّما شربت ذلك الصوت العذب.

وتلطَّفَتْ السيدة المهذَّبَة أولغا مدام الفاضِل عبد الله ورده فأنشَدَتْ بعض الأدوار الجميلة بصوتها الشَّجي.

ومن ثمَّ إرتجَل صاحب «السَّمير» أبياتاً بقِيَ منها في الذاكِرَة ما يلي :

أيُّهـــا المنتَشي بكأس مُــدام	إنَّـني منتـشٍ بكـأس ولَـحْـنِ
رجع الحـب والصَّبا وأمانيـهُ	وكـان الشَّباب قد ضاع مِنِّي
يا سواقي أرقصي ويا شجر الغا	باتِ صفِّقْ فإن «أسما» تغنِّي

ثم ألقَى كلمة ممتعة في وصف تلك الساعات الجميلة وشكَر أصحاب البيت.

وتعاقبَ المُتكلِّمُون في التعبير عن عواطِفِهم وهم الأستاذ توفيق فخر شعرا ونثراً. والسَّادة رزق الله كيلون. والياس الطويل وجورج معقد وأمين سمارَه وعارف سمارَه. والمحامي إدِّي زريق بالإنكليزية فأثنى على الأصدقاء ثمَّ على أبناء وطنِه.

وألقَتْ الشَّاعرَة كاتي زريق أبياتاً لطيفَة تناسب المقام.

وعادَتْ أسماء تنشد والأرواح تترنَّح.

وفي آخر اللَّيل أخذَتْ السَّماء ترشّ الأرض بدموعِها ثمَّ صار الرَّذاذ مطراً واكفاً[1] في الصَّباح. فاسْتَتَرَتْ عنَّا محاسن الرُّبَى والأودِيَة وراء قناع كالضَّباب وهو السَّحَاب.

السَّمير: 22/ 8/ 1939

خِتام مرحلة

تودِّع «السَّمير» مع هذا العدد عشر سنوات من حياتها كمؤسَسة أدبيَّة في المهجَر. وثلاث سنوات مِنْ حياتِها كجريدة يوميَّة.

هي سَنوات ليسَتْ في كتاب الدَّهر شيئاً ولَكِنَّها شيءٌ كثير بالنسبة إلى حياة الفرد.

هي في الدَّهر كالسَّفينة في البَحْر سواء عليه حَمَلَتْ ناساً أو حملَتْ أغلالاً أو نقلَتْ تحفاً وجواهر. لا تزيد في مدِّه مداً ولا في جزْرِه جزْراً. بل سيَّان عنده ألف سفينة تنزل إليه وصخور نابتة فيه أو حيتَان

---

1 وكف المطر قطر قطرة قطرة.

تسبحُ في قاعِهِ.

ولكن السفينة ذات شأن كبيرٌ عند الإنسان لأنَّها تحملُه مِنْ شطٍ إلى شط. وتسيرُ به في البَحْر الذي لا يمكنه أن يمشي عليه إلاّ إذا آتاه الله قوّة كالمسيح.

وهذه السَّنَوات التي قطعنَاها في «السَّمير» بعد أن قطعْنَا مثلها في سواها هي قطعَة ثمينة مِنَ العُمر وجزء عزيز مِنَ الرُّوْح صرفنَاه في خدمة أمَّة هي أحبُّ إلينَا مِنْ كُلِّ أمَّة تحت الشَّمس.

أمَّة على فقرِها أعزُّ عندنا مِنْ أغنَى أمَّة في العالم.

أمَّة على ضعفِها أغلى علينَا مِنْ أقوى أمَّة في الأرض.

أمَّة تاعِسَة سيِّئة الحظ إلاّ أنَّها أجملُ في نظرنَا مِنْ أسعد وأهنأ أمَّة في الوجود.

أمَّة صرفْنَا الشطرَ الأكبَر مِنَ الحياة في الذَّوْدِ عن كرامتِها مِنَ المُعتَدِيْن. وفي مؤاساتِها في الأرزاء والمصائِب. وفي شدِّ أزرِها [1] كلَّما خذلَتْها اللَّيالي. وفي تسديد خطواتها وتشديد عزيمتها كلَّما ألمَّ بها اليأس أو سار بها الدَّهر في غير الطَّريق القويم.

وكما أنفقْنَا تلك السنين سوف ننفق ما بقِيَ مِنَ العُمر في السَّعي معَها إلى الهدَف الأسمى الذي تنشدُه منذ قرون وهْوَ أنْ يكونَ لها ما لغيْرِها مِنَ الحقوق وأنْ يكونَ حظُّها مِنَ الحريَّة والسَّعادة مثل حظ سواها.

سنوات تعدُّ على الأصابع ولكنَّها سنوات ثمينة فيها تذكَارات غاليَة لا تعَدُّ على الأصابِع لأنَّها كالدَّقائِق التي إنقَضَتْ لا يحصيها العدّ.

هي ذكريَات فيها المشرِق الضَّاحك كإبتسامَات الفجر في الرَّبيع. وفيها العابِس المُتجَهِّم كليالِي كانون العاصِفَة.

إلاّ أنَّ النَّفس تبتسم لخيالاتِها كُلِّها. للذكرى الضَّاحكة لأنَّها صورة شيءٌ فيه لذَّة وسرور وللذكرى العابِسَة لأنَّها ذكرى أمْرٍ كريه إنقضَى. وزوال النَّقمة مُبْهِجٌ كحلول النِّعمة.

إنَّنا نطربُ لذكرى اليوم الذي صَفَتْ سماؤه وطَابَ هواؤه لأنَّنا نعمْنَا به وطرِبْنَا ولعبْنَا وأشرفنَا منه على الجمال في الحياة!

ونطْربُ لذكرى اليوم الكئيب الذي أناخَتْ [2] علينا فيه الهموم والمَتاعب لأنَّه زال وتكشَّفَتْ عنَّا همومه.

وفي هذه السَّنوات التي مرَّتْ بسوانا كما مرَّتْ بنا أشياء حلوة وأشياء مُرَّة ولكنَّنا نودُّ أن لا نستبقِي في الذَّاكِرَة إلاّ خيَالات الأشياء الحُلوَة التي تملأُ النَّفس ثقة بالحياة وبالنَّاس.

أمَّا الأشياء المُزعِجَة المُكدِّرَة فنودُّ أنْ نتناساها وأنْ نمحُوْها مِنْ دفترنا ليبقَى في صفحاتِه مكان لما

---

1 شدَّ الأَزْر: القُوَّة ويقال شَدَّ أَزْره قَوَّاه.

2 أَناخَ: أنخت الجمل فاستناخ أي أبركته فبركَ.

هو أجمَل وأفضل وأبهج.

ونودُّ ونحن نستعرض هذه السَّنوات أن ندوِّن للأنصار الشُّكر لأنَّهم كانوا لنا نِعْمَ الرِّفاق كما نودُّ أيضاً أنْ يشتركُوا هُم معنَا في هذا الإستعراض لِيَروْا كم أدَت «السَّمير» مِنَ الخِدَم الجلّي للمُهاجرين في كُلِّ نواحي الحياة وكَمْ بذَلَتْ مِنَ الجُهود لتكسب ثقة الرأي العام. فإنَّها لم تدَّخر جهْداً ولا ضنَّت بوقتٍ ولا بمالٍ في سبيل مبدأ تؤمِنُ بصحَّتِه أو مشروع تعتقد بفائِدته ونفعه. فكانَتْ في كُلِّ مواقفِها مثال الصَّراحة ومثال الأمانَة على الحقائِق وعلى مصلحة الشَّعب المُهاجر.

وهي اليوم تلتفِتُ إلى ماضيها مطمئِنَّة كجندي قام بواجبِه وتنظُر إلى المستقبَل مُطمئِنَة أيضاً لأنَّها لا تجبُنُ عن القيام بأيِّ واجب. بل تجد في ذلك لذَّة لا تعادلها لذَّة أخرى. فرأسمَال الصَّحافي الأكبَر هو ثقة الجُمهُور به وهذه الثِّقَة لا تأتِي المرء عفواً ولا يولِيْه الشَّعب إيَّاها إلاّ بعد التجريْب.

إنَّنا نودِّع السَّنَة المنصَرِمَة شاكرين الذي بيدِه الموت والحياة الذي أعانَنَا على تذليل الصعاب وأنَار سبيلنا فسرْنَا.

كما أنَّنا نسوق الشكر إلى حمَلَة الأقلام الذين يزيِّنُون صفحات «السَّمير» بنتاج قرائِحهم وثمار تفكيرهم فإنَّهُم شركاؤنا في الخدمة.

وسلام على الأنصار الأوفياء في كُلِّ مكان نزلُوه.

سلام على القريب الذي إقترَبَ فضله. وعلى البعيد الذي لا يبعُد عنَّا إلاّ بالمسافَة أما قلبه وشعوره فمعَنَا.

هؤلاء هُم اللآلِيء التي ينتظِمُ مِنْها هذا العِقْد الجميل. وهم الريَّاحين التي يتألَّفُ منها هذا الرَّوض الفوَّاح. وهم الجيش الذي تعتزُّ به دولة الأدب.

وهم الرِّفاق الذين حوَّلُوا بحُسْنِ وفائِهم مرارة المَتاعب إلى حلاوة. وأشواك الجِهَاد إلى أزهار. فبتْنَا نترنَّم حتى ونحن في غبار المعَارك.

إنَّ «السَّمير» تحفظ عهدهم لأنَّهم حفظُوا عهدها وتَصُون ودَّهُم لأنَّهم صانُوا ودَّها. وستبقَى دائماً عند ثقتهِم بها، بإذن الله.

فرُبَّ رسالة تشجيع مِنْ صديق جاءَتْنَا والنَّفس مُتضجِّرَة. والقلب يطوفُ بِهِ الزُّهد فشحَذَتْ الهِمَّة الكَليلة وصقَلَتْ الخاطِر الصَّديء. وعدْنَا نرى وجه الحياة على أجمل وأشرق ما يكون وجَوّ العمل والسَّعي أفْسَح وأرْحَب من ذي قَبْل.

وكم مرَّة عالَجْنا أمراً ونحن لا نخشى أن يستعصي علينا فتمَّ لنا النَّصر كُلُّه بفضل الأنصار والأعوان ولولاهم ما تمَّ لنا مِنْه شيء.

السَّمير: 1/ 11/ 1939

في مِثْل هذا اليوم

في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات ودَّعنا عهداً واستقبلْنَا عهداً. ودَّعْنَا «السَّمير» مجلة تصدر مرَّتين في الشَّهر واستقبَلْنَا «السَّمير» جريدة يوميَّة تطلعُ على النَّاس كُلَّ صباح.

وبينما نحن مُنصرِفُون إلى تمكِيْن البناء الجديد كانت تتسرَّب إلينا آراء مختلفة فيما نحنُ آخذون به فمِنْ قائِل إنَّ المَجَال يضيق عن جريدة يوميَّة جديدة.

ومِنْ قائِل إنَّنا قد وضعْنَا على عاتِقِنَا عبئاً ثقيلاً سنرزَح تحته.

ومِنْ قائِل إنَّ الجريدة اليوميَّة تحتاج إلى رأسمال كبير وليس هذا الرأسمَال موجُوداً.

ومِنْ ساكِتٍ لا يقول شيئاً يتمنَّى لنا الخير أو لا يتمنَّى لنا خيراً ولا شراً.

ومِنْ متحدِّثٍ بنا في المجالِس بأشياءَ لا يحسِنُ التحدُّثَ بسواهَا وإنْ كانت ليسَتْ مما تستسيغها النُّفُوس. ولا تلذُّ بها المسَامِع.

أمَّا نحن فكنَّا مُنصرِفين بكلّيتنَا إلى تحقيق أمر واحد وهو أنْ تجيء «السَّمير» عند رضى الجُمهُور وأن يشعر أنَّه بحاجة إليها.

وهدف مثل هذا لا يصل إليهْ المرء في يوم ولا في أُسْبوع ولا في شهر. فإنَّ الشجَرة لا تعطي ثمرها يوم تُغْرَس. والحبَّة لا تصير سنبُلَة حال طمْرِها في الأرض.

لكُلِّ شيء مِيقاته.

كانت هذه الأقوال والآراء تبلُغُنا فنقُول إنْ كانَتْ صحيحة فلا يثبتُ صحَّتها إلاّ الإختبار وإنْ كانَتْ فاسِدَة فيظهَر الإختبار فسادها.

وكان يسوقُنَا إلى العمل إعتقادنَا المكِيْن أنَّ الشيء الحسَن المُفيد لا بدَّ أنْ يجدَ أعواناً وأنصاراً واجتهَدْنَا أنْ تكونَ «السَّمير» هذا الشيء الحسَن المُفيد وممَّا قوَّى فينَا هذا الإعتقاد أنَّ الحياة تسير دائماً إلى الأحسن حتى في الأوقات التي يسودُ فيها الإعتقاد أنَّ كُلَّ شيء بلغَ منتَهاه وأنَّ الحياة آخذة في التَّراجُع إلى الوراء.

ألَم تمتدُّ الشَّكوى في كُلِّ عصر مِنْ كساد الأدب؟ بلَى. ولكن الأدب لم يكسَدْ بل راج.

ألَمْ يزعَمْ كثيرون أنَّ النَّاس قد زاغُوا وفسَدوا كلُّهم؟

بلى. ولكن لا يزال في النَّاس قوم لم يزيغُوا ولم يفسدُوا بل أنَّ الصَّلاح قد ازداد فيهم.

ألم نهجر نحن بلادنَا لإعتقادِنا أنَّها ضاقَتْ بأهلِها وليس فيها مورد للإرتزاق؟

بلى. ولَكِنَّ بلادنا التي ضاقَتْ بنا قد رحَّبَتْ باللاجئيْن إليها فأقامُوا ووجَدُوا فيها الغنَى والموطن الأمين!

ألم يقلْ كثيرون أنَّ الدَّهر قد شاخ وأنَّ الدُّنيا قد صارَتْ كالكَرم الذي لم يبق فيه غير الحطَب.

بلى. ولكن الزَّمان لا يزال في شبابِه. ولم يزَلْ في الدُّنيا خيرٌ كثير ورزقٌ وفير.

فأنتَ ترى أنَّ اليأس كان في كُلِّ عصر يسطو على كثيرين مِنَ النَّاس فيسدُّ عليهم الطَّريق ويغلُّ أيديهم عن العمل وعقولهم عن التَّفْكير بينما غيرهُم يأمَل فيعمل فإذا الحياة حلوة بالأمل وإذا اللَّذَّة كلّها في العمـل.

لقد كنَّا منذ ثلاث سنوات كمثل البُسْتانيِّ غرس شجرة وأحاطَها بكُلِّ أسباب العنايَة لتنمو فلما نمَتْ صارَ يَحْرِصُ عليها أن تبقَى لتأوي الطَّير إلى أوراقِها والإنسان إلى ظلِّها في الهجير [1]، ولِتظَلُّ شهيَّةً للناظِرين وفي ثمرِها قوتٌ وغذاء للآكلين.

وهذا ما نريد نحن أن نفعله في «السَّمير».

السَّمير: 2/ 11/ 1939

عيد بأيّة حال عُدْتَ يا عِيْدُ

إذا أراد المرءُ الباحِث أنْ يعرفَ سيرَة حياة المُتنبِّي فما عليه إلاّ أنْ يرجعَ إلى قصائِدِه التي نظمَها بعد مفارقته سيف الدَّولة الحمداني. ففيها صورة جليَّة واضحَة لما مرَّ به من الحوادث وما كان لتلك الحوادث مِن التأثير على روحه وما كان في طباعِهِ مِنَ الإستعداد لمقاومتِها أو العمل بها. ولكنَّه في هذه القصائِد كانَ إلى التمرُّد والعصيَان أميَل مِنْهُ إلى الإنجراف في تيارِها.

ومِنْ أشهرِ قصائِدِه تلك التي قالها يوم جاءَ العيد عليه وهو بعيدٌ عن وطنِهِ وأحبابه مرزوء في أحلامِهِ ومطامعه التي ظلَّتْ زهراء مشرِقَة حتى أحسَّ كافور الأخشيدي أنَّ المُتنبِّي شاعر بيْنَ جنبَيْه قلب ملك وأحسَّ المُتنبِّي أنَّ كافور الأخشيدي ملك في نفسه خساسة وضِعَة. فصار كلاهُمَا مِنْ صاحبِه على حذر.

وجاء العيد والمُتنبِّي يفكر في الخروج مِنْ مصر خُلْسَةً [2] لأنَّه أحسَّ بروحِ الغدْرِ تتواثَبُ في صدرِ ذلك العبد المتسلِّط على مصر. فجاشَ صدره بالشِّعر فقال يخاطِبُ العيد:

عيدٌ بأية حال عُدْتَ يا عيـدُ ... بما مضَى أمْ بأمرٍ فيه تجديـــدُ

أمَّا الأحبَّة فالبيـداء دونَهُـمُ ... فليتَ دونَك بِيْدٌ دونها بِيْـدُ

وفيها يقول:

---

1 الهَجير: نِصف النَّهار عند اشتداد الحَرّ.

2 الخُلْسَة ما يُخْتَلَس.

لا تشترِ العبْد إلاّ والعصا معه إنَّ العبيد لأنجَاس مناكِيْدُ

العبد ليس بِحُرٍّ صالح بأخٍ لو أنّه في ثياب الحُرِّ مولودُ

إلى غير ذلك مِنَ الأبيات التي جرَت مجرى الأمثال.

ولقد مَرَّ بنا عيد كذلك العيد الذى جاءَ على المُتنبِّي في مصر وهو عيد الهُدنَة فإذا لسانُ حال النَّاس في كُلِّ مكان يهتف قائلاً:

عيد بأيَّة حال عدتَ يا عيد بما مضى؟ أم بأمر فيه تجديْدُ؟

كان في مصر رجل واحد يلتفِتُ إلى العيد فلا يرى فيه اليوم الذي يحقُّ له أن يطربَ فيه ويبتهج.

وجاء عيد الهدنَة علينا فإذا النَّاس كُلُّهُم في كُلِّ مكان يقفُون مفكِّرين قائِلين في أنفسِهِم: أيُّ معنى للإحتفَال بالهدنَة ولا هدْنَة؟

أيحتفِلُ النَّاس بالهُدْنَة وهَوْل الحرب في كُلِّ موضِع وشبحها ماثِلٌ لعيني كُلِّ أمٍ وأبٍ؟

أحقاً أنَّ كُل الدماء التي سفكَتْ في الحرب الماضيَة قد ذهبَتْ أدراج الرياح؟ وإذا كانَتْ تلك المجزَرَة لم تعظ الخلْق ولم تقتُل فيهم حبَّ الفتْك والقتل فهل تظنُّهم يرتَدِعُون إذا زُهِقَتْ ملايين الأرواح من جديد!

وإذا قيلَ لهُم أنَّ هذا العيد هو لتكريْم الجنُود الذين إستشهدُوا في تلك الحرب فأيُّ تكريم أعظمُ وأسمى مِنْ الإنقطاع عن القتل والكَفِّ عن التَّدمير؟! فهذه هي الغاية التي بذَلَ اولئكَ الشَّباب أرواحهُم في سبيل تحقيقها. ولكن لسوء حظ البشريَّة لم تتحقَّق!

ذلك هو العيد الذي مَرَّ بنَا وهو عائِدٌ كما نرى بالأمرَّين [1] - بما مضى وبأمر فيه تجديد!

السَّمير: 13/ 11/ 1939

متفجِّرات لا نار فيها

لا نحدثُكَ اليوم عن تركيبٍ كيماوي جديد فلا شيء مِنَ الكيمياء في هذه المُتفجِّرات وإنْ كانَ أصحابها مِنْ أبناء العرب دهاقِنَة الكيميـاء.

ولا نصِفُ لك سلاحاً حربيًا إستنبَطَه قوم كالألمان الذين إخترعُوا الألغام المغناطيسيَّة التي تفتك بالسُّفن فتكَ وباءٌ وبيل بالنِّعاج والبقر. فالمُتفجِّرَات التي لا نار فيها لا تدمِّرُ سفينة ولا منزلاً ولا تقتل إنساناً ولا حيواناً.

---

1 ولَقِي من الأَمَرَّين بكسر الرَّاء وفتحها والمُرَّتين بالضَّمِّ أي الشَّرِّ والأَمر العظيم.

إذن فحديثنَا معك عن هذه القصائِد التي تتطايَر في جرائِد بيروت كالشَّظايَا فتفرقِعُ وتدوّي ثم تتلاشَى كما تتلاشَى فقاقيع الصَّابون.

قصائِد لشعراء معروفِين وقصائِد لشعراء يريدُون أنْ يشتهرُوا. وقصائِد لأُناس تدعوهُم الصُّحف شعراء وما هم بشعراء. وقصائِد لصبيان أو لرجال كالصِّبيان كلَّهم يشدُّ قوسُه ويُوتِّرُ[1] سهامه لتصيبَ رجلاً واحداً هو هتلر الطَّاغيَة. المجنُون. الوحش. الخنزير. السَّفَّاح. إلى آخر ما هناك مِنَ النُّعُوت التي إتَّفَقَ عليها هؤلاء المُحاربُون بلا سيُوف وهُمُ الرَّاقصُون وغيرهم ينقرُ الدَّف.

كلُّهم يتوعَّدُ هتلر ويصرفُ باسنانِه متحرِّقاً لأنَّه لا يستطيع الوصُول إليه والوثُوب على عنقِه.

ولكن ليس بينهُم كلهُم واحد فرد له جراءة على أنْ يحملَ البندقيَّة حتى ولو صارَ هتلر قدَّامه.

وكلُّهم يسبُّ هتلر كأنَّما هتلر قد وطأ داره وسلَبَ ماله أو قتلَ له حبيباً. وليس منْ هذا شيء ولكنَّ القوم يسمعُون غيرهم يشنِّعُ على هتلر فيشنِّعُون ويسرفُون حتى يجاوزوا الحدّ وينقلبُ الأمر إلى الضّد. فإذا النَّاس يضحكُون منهم وهم في الجِدّ كُلُّ الجِدّ.

فهُمْ في هذا الموقِف مثلهم في المواقِفِ الأخرى يبكِي شاعر على ميتٍ فيبكي كُلُّ شاعر منهم. ولا بُدَّ له مِنَ البكاء وإلاّ نسِيَ أنَّه بين الشُّعراء.

ويصفُ أحدهُم القمر فيتسابَق الكل إلى وصفِه ويشكُو أحدهُم الضَّنَى[2] فتتعالَى الشكْوى مِنَ الضَّنَى من حنجرة[3] كل نظَّام.

من أمثال هذه المتفجِّرات التي لا نارَ فيها أبيات نشرَتْها «البشير» يخاطِبُ ناظمُها هتلر فيقول له:

لا شك أنَّك ظالِمٌ عَشِقَ الأذى   أو أنَّ عقلك ناقصٌ متضعْضِعُ

ولا جُنَاح[4] على أحد أن يكرهْ رجلاً ظالماً وإنْ لم يصلْ إليه ظلمَة. وأنْ ينقُمْ على البَغْي والعُدوان أينما كانَا.

ولكنَّ هؤلاء النَّاقمِيْن الضَّاجِّين إثنان: واحد لا يدري ما يقول. والآخر لا يعني ما يقول.

ولكنَّ هذا وذاك يتظاهَران بهذه البغْضَاء لكي يقول النَّاس عنهما إنَّهُما منْ أنصار الديمقراطيَّة وأعوان الحريَّة.

إنَّما الديمقراطيَّة لا تحميها هذه القوافِي السَّمِجَة المائِعَة بل الذي يحميْها ويصونُها سورٌ مِنَ القِلاعِ كَسُوْر ماجِينُو أو أسطول مِنْ الدَّوارع كالأسطول البريطاني. ولو أنَّ القوافِي تصونُ مَلِكاً. وتحمِي

1 والوتر شرعة القوس ومعلَّقها ج أَوتار وأوترها جعل لها وتراً ووتَّرها شدَّ وتَرها.

2 الضَّنَى المرض أو الهُزال الشَّديد.

3 الحُنجَرَة الحُلقوم مجرى النَّفَس في الرَّقَبَة.

4 لا جُناح: الجُناح يقال: لا جُناح عليك لا حرج ولا إثم عليك ومثلها ليس عليكم جُناح.

دولة. لما إحتاجَتْ أمّةَ في الأرض إلى بارودة ولا سيف. ولكانَتْ بريطانيا العظمَى اليوم لا تحتاج إلى إنفاق ملايين الجنيهَات كُلَّ يوم.

فكم كان جميلاً لو إنقطَع بعضهُم عن نظم قصائِد الهَجْو في هتلر وإنصرَف إلى حراثَة حقلة أو زراعة الأرض حول بيتِه لكي يَضْمَنَ لنفسِه القُوْتَ إذا طالَتْ الحرب فلا يموتُ جوعاً. فهذه أكبر خدمَة يقوم بها للديمقراطيَّة. وهذا هو السِّلاح الذي يقدرُ أنْ يقهرَ هتلر وغير هتلر.

أمّا القوافِي فلا تلتهِم الأقوات التي في المانيا. ولا تزيد في الأقوات الموجودَة في لبنان وسوريّا.

إنَّ العالم يحترق ونحن نغنّي.

والبَحْرُ يتفجّرُ بالديناميت ونحن نطلق مزاريق [1].

السَّمير: 27/ 11/ 1939

ما هي مقاصِدُكَ؟

ما هي مقاصدك في العام الجديد؟

إذا كنتَ لم تفكّر بعد في تحديدها فأَخلَقُ [2] بك أنْ تفعل. لأنَّك لن تسعى إلى غاية إلاّ إذا كانَتْ لك غاية. وأقرب ما يكون المرء إلى غايتِهِ عندما يمشي إليها في طريق واضح.

فلان يقرِّر في نفسِه أن ينقطع عن التَّدخين أو السَّهر أو الخمر. أو لعب الورق. وفلان يَعْزِمُ على أنْ يتزوَّج أو أنْ يسافر. أو أنْ يطالع في كُلِّ شهر كتاباً. أو أنْ يحضر في كُلِّ اسبوع رواية.

وفلان يقرِّر في نفسِه أنْ يعتزل العمل الذي يزاولُه أو أنْ يسيرَ بِهِ في وجهة جديدة.

أو أنْ ينامَ باكراً وينهض باكراً.

أو أنْ يتعلَّمَ لعبة الغولف أو الرَّقص أو التصوير أو فنّاً ما.

أو غير ذلك مِنَ المقاصِد الكثيرة التي يختار كُلّ إنسان منها ما يلائِمُه ويوافقه ويقدر عليه.

وكُلُّها مقاصد حسنَة ولكنَّها تصير أجمل وأحسن إذا تعدَّت صاحبها إلى الغير. فإنَّ إقتصار المرء على التَّفْكير بنفسِه نوعٌ مِنَ الأنانية.

وخيْرُ المقاصِدِ هي أنْ يحسنَ المرء عمله ليجيء متقَناً ينظر إليه فيرضَى. وينظر إليه النَّاس فيمتدِحُون مِنْه.

فاعمَل على ترقية محيطك وإسعاد الذين حولك كما تعمل على ترقيَة ذاتك وإسعادها. فإنَّ وجودك

---

1 المِزْراق رمحٌ قصير.

2 أَخلَق بك: يقال: ما أَخلقه أَن يفعل كذا: ما أَجدره وأَوْلاه.

في محيطٍ عَسِرْ مُشوَّش يؤدِّي بك إلى التَّعاسة وإلى الفوضى.

خذ من الحياة أجمل ما فيها. ولا تَنْسَ أنْ تعطيها أجمل ما فِيك. ولتكُنْ مقاصدك بعد ذلك كيفَما أردْتَ أنْ تكون!

وما أحسن القاعدَة التي جاءت في هذا القول المشهور:

إعمَلْ لدُنيَاك كأنَّك تعيشُ أبداً واعْمَلْ لآخرتك كأنَّك ستموتُ غداً.

السَّمير: 2/ 1/ 1940

كيف استقبلتَها؟

نسألكَ كيف استقبلتَها ونحن نعني السَّنة الجديدة. وقد اخترنَا أن نقول «السَّنة» لا «العام» لأنَّنا نلاحظ أنَّ القسوة والخشونَة تلازمان في الغالِب كُلُّ ما هو مذكَّر. بينما الرِّقة واللِّين والعذوبة تلازم الأنوثة حتى في ما لا يَعْقِل.

تدلُّ على ذلك اصطلاحَات الأمَم ورموزها وكناياتها [1] واستعاراتها [2] حتى في العُصُور التي كانت فيها المرأة مخلوقاً زرياً.

فقد أنَّثوا الرُّوْح وهم لا يعرفُون عنها شيئاً لِمَا أحسُّوا بهِ مِنْ أفاعيلِها وما لمحُوا فيها مِنَ الأسرار والخفايا العجيبَة.

وذكَّروا العَقْل لما فيهِ مِنْ قوَّة وإدراك.

وقسْ على ذلك.

ولسنا الآن نسنُّ قاعِدَة بل نبدي ملاحظة خطَرَتْ لنا ونحن نفكِّر بالنَّاس وكيف استقبَلُوا العهد الجديد أو الشيء الذي سمُّوه العهد الجديد. فكثيرُون سكروا حتى عربَدوا. سكروا حتى نَسَوْا السَّنة القديمة والسَّنة الجديدة معا.

وبعضهم لم يختلف عندهم شيء مِنْ وُجُوه الحياة لأنَّهم قد سبَروا غورها [3] وعرفوا أنْ ليس فيها قديم وجديد. وأنَّ الذي سيكُون مِنْ بعد مثل الذي كان مِنْ قبل. أفراح وأتراح. وأرباح وخسائِر. وصحَّة ومرض. ويقظة ونوم.

---

1 كَنَى عن هذا كِنايَةً تكلَّم بما يستدلّ به عليه ولم يصرِّحْ.

2 الإستعارة في علم البيان استعمال كلمة بدل أُخرى لعلاقة المشابهة مع القرينة الدَّالَّة على هذا الاستعمال، مثل: جاء الأسد أي الشُّجاع.

3 سبر الغور: الغَوْر كلّ مُنْخفِضٍ من الأَرض والغَوْر من كُلّ شيء قعره وعُمْقه ويقالُ سَبَرَ غورَه تبيَّن حقيقته وسرَّه. وسبَره: حَزَرَه ويقال سَبَرَ غورَه أي خَبَرَهُ.

والنَّاس في غفلاتِهِم ورَحَى المنيَّة تطحنُ

ولكن لا بُدَّ مِنَ الكلام في ما حولِنَا. وفي ما نحن فيه. فنقول أنَّ نيويورك جُنَّ جُنونها ليلة رأس السنة حتى بلغ عدد الذين احتشدُوا في المطاعِم والفنادق ومسارح التمثيل والحانَات في الحي الأعلى مِنَ المدينَة مئات الألوف فلمْ يبقَ فِي وسع إنسان مهمَا بذَلَ مِنْ المال أنْ يستأجِرَ مكاناً يجلس فيه في أيِّ ناد.

ويقدَّر ما أنفقَهُ هؤلاء النَّاس في تلك اللَّيلة بـ 50 مليون دولار.

ولكنْ أوَّل السَّنة لم يكنْ كلّه فرحاً لكلِّ النّاس فقد جاوَزَ عدد القتلَى بحوادث السيَّارات في البلاد الثلاثمائة وهو عدد لم يسقطْ مثله بعد في معركة مِنْ معاركِ الحرب النَّاشِبَة في الميدان الغربي.

فإذا كنْتَ مِمَّنْ عربَدُوا في تلك اللَّيلة أو مِنَ الذين لم يعربدُوا فاشكُرِ الله انَّك خرجْتَ مِنْ هذه المعْمَعَة[1] وأنتَ غير خاسر إلاّ بعض مالك.

ورأس مالك وهو الرُّوح إنْ بقيَتْ لا تأسَفَنَّ لشيءٍ غيرها ذَهَبا

ولا تتوقَّعَنَّ أنْ تصفو لك الحياة فلا تستشعِرِ الكَدَرَ في هذه السَّنة. فإنَّ الدُّنيا لم تصرْ بعدُ فِردَوسا.

السَّمير: 3/ 1/ 1940

شذوذ الطبيعة

هل في الطَّبيعة شذوذ؟

إنَّ الإنسان يعُدُّ كل حادث غير مالوف شذوذاً. ولا سيَّما إذا خرجَ الحادث عن المقاييس التي وضَعَها النَّاس.

ولكن ليس في الطَّبيعة شذوذ فإنَّ كُلَّ شيء يجري فيها بحكمَة خفيَّة وعلى نظام لا زيغَ فيه ولا خطأ. وتجري فيها أمور كثيرة لا يلتفتُ إليها الإنسان إلاّ عندما تلامسُه ويتأثَّر بها فيرَاها غريبَة أو يتعجَّب مِنْ حدوثها ويذهب يفترِض أنَّ في نظام الكَون خلَلاً أو أنَّ القوَّة العُليا التي تدبِّر الكون تفعل ما تفعل إنتقاماً مِنَ الإنسان ولا سيَّما إذا حدثَتْ زلزلَة أو إنقَضَّ نيزك أو ثارَ بركان.

بل هوَ يتوهَّم الزَّيغان[2] في الطَّبيعة ونواميسها[3] عندما يلذعُ البرد جلدَه في إقليم حار مثل فلوريدا مثلا. وينسَى أنَّ هذه الأرض كانَتْ كما يقول العُلَماء مغطَّاة بالجليْد كُلّها فانحسَرَ عنها شيئاً فشيئاً.

1 المَعْمَعَة: بوزن المزرعة صوت الحريق في القصب ونحوه وصوت الأبطال في الحرب.

2 زاغ عنه زَيَغَاناً مالَ، وتباعد وزاغ عن الطريق عدل وزاغ البصر مال عن مستوى النَّظر حيرة وشخوصاً.

3 النَّاموس: صاحبُ السرِّ المُطَّلع على باطن أمركَ أو صاحب سِرِّ الخير.

فدبَّتْ فيها الحياة وظهَرَتْ على أديمِها الخضرة.

إنَّ الإنسان قد ارتقَى كثيراً ولكن بالنسبة إلى الإنسان الذي معَه أو الإنسان الذي سبقَه.

أما بالنسبَة إلى الطَّبيعة وأسرارها ونواميسها فلا يزال يخمِّنُ ويظُنُّ ويفترض كما يفعل الطِّفل الصغير فهْو يحسبُ أنَّ أباه يَظْلِمُه عندما يمنعُ عنه شيئاً يطلبه ولا يدري أنَّ في الشيء الذي يطلبه خطراً أو ضرَراً.

ليس غريباً كُلُّ ما يتوهَّم الإنسان أنَّه أمرٌ غريب.

وليس شذوذاً ما يقول عنه الإنسان إنَّه شذوذ.

وليس شيءٌ في الدُّنيا لمضرَّة الإنسان وَحْدَه أو نفعَه وحدَه. فإنَّ للطَّير والحيوان والهَوام [1] والأشجار والبقُول حصَّة في الكَون كحصَّة الإنسان. فهي مثله تحتاج إلى الماء والهواء والغذاء. وهي مثله يؤذيها البَرْد في غير أوانه والحرُّ في غير وقته. ولكنَّها لا تشكُو ولا تتذمَّر لأنَّها بكماء عجماء. وقد تكون مثل الإنسان في استغرابِها وتذمُّرها ولكن على طريقتها وبلسانها..

إنَّما شكوى الإنسان هي المُتعالِيَة وهي التي تطوفُ في الأرض ثمَّ ترجع فلا تسمعها إلاّ أُذن إنسان!

السَّمير: 3/ 1/ 1940

مشهد فيه عِبْرَة

مررْتُ في أيّام الصَّيف بإحدى القرى بدار صاحب لي، هي دار نبتَتْ حولها الدَّوالي فإذا بدالية منها شاحبة المنظر مُصفرَّة الأوراق والدُّنيا لم تزلْ في بهجتِها فلاحَتْ لعيني بين الدَّوالي الخضراء النَّدِيَّة كأنَّها عجوزٌ في سِرْبٍ مِنَ الصَّبايَا. أو كأنَّها حَسْرَةٌ في موكبِ أفراح ومسرَّات.

فقلت لصاحبي: ما لهذه الدَّاليَة ليستْ كبقيَّة الدَّوالي نُضْرَةً وبشاشةً وخُضْرةً وحياة؟

فأجاب: إنَّها هكذا تلوح ولكنَّها في الواقع أطيب عروقاً وأشهَى عنباً مِنْ كُلِّ هذه الدَّوالي.

قلت: أين العنب فيها إنِّي لا أرى غير أغصان يابسة [2] وأوراق متنَاثِرَة؟

قال: إنَّ الحشرَات تفتكُ بها كُلَّما أورَقَتْ وأطَلَّتْ منْها البراعم!

قلت: لماذا لا تصونها وتقيها فتْكَ الحشرات فيزول مِنْ أمام دارك مشهد مِنْ مشاهدِ الخراب والدَّمار. ويكون لك الورق الأخضر النَّديّ والعنب النَّاضج الشَّهي؟

---

1 الهَوام: وخَشاش الأَرض تهِمّ دبَّت ومن الهامَّة للدَّابَة ج هوامٌ والخَشاش: حشرات الأرض والخَشاش الطَّير ونحوُها الواحدة خَشاشة.

2 أغصان جَريدة: وجريدة (تحريف) فالجريدة سعفة طويلة تقشَرُ من خوصها. (والصَّواب ما أثبتنا).

فاستضحَكَ وقال مستهتِراً: ومِنْ أينَ لي الوَقْت لأهتمَّ بهذه الدَّاليَة ولا سيَّما في أيّام الصَّيْف؟

فأغاظَني جوابه وشعرْتُ كأنَّ الدَّالية سوف تؤنِّبني إذا أنا لم أؤنِّبه على إهمالِه فقلت له: أليسَ مِنَ العار عليك أن تكون شريكاً للحشرات في جنايتِها؟ أترضَى أنْ تذهبَ هذه الدَّاليَة الجميلَة المفيدَة لتبقَى الحشرات والهَوام؟

ولكنَّه لم يتأثَّر بما قلت بل استرسَلَ في المُزاح [1] والتَّنكيت [2] فقال: إذا كنْتَ مفتوناً بهذه الدَّاليَة فخذها معك وقم عليها حارساً! أمَّا أنا فلا أبالي أأكلَتْهَا الحشرات أم أكلتْها الشياطين!

فرجعْتُ مِنْ عندِه وأنا أفكرُ في كثير مِنَ الأشجار الطَّيِّبَة التي يهملها أصحابها فترعاهَا الحشرات فلا تمرُّ بضعَة أعوام حتى تصير الأشجار كأنَّها أوتاد مِنْ خشب لا ورق فيها ولا لحاء [3].

ومثلَمَا تدبُّ الحشرات إلى الدَّاليَة أو الشَّجرة أو غرسة الورد. ترى الجهَلاء يدبُّون ألسنتهم وأقلامهم إلى ذوي المآثِر والمحامِد وأهل الفضل والنَّفع ويتسلَّقُون السُّمْعات [4] العَطِرة كما تتسلَّق الحشَرات جذوع الشَّجر والأغراس للفتك والتَّدمير. ولكنَّهم لا يفلحُون إلا إذا تناومَ النَّاس وتغافلُوا كما أهملَ صاحبي تلك الدَّاليَة كسلاً وإهمالاً وجهلاً بفضل الدَّالية وجمالها ونفعها.

السَّمير: 5/ 2/ 1940

العَيْرُ [5] المُتَنكِّر

كتبَ إليَّ صديقي الشَّاعر الكبير مسعود سماحَة يقول:

أخي إيليا

كنت في الأُسْبوع الماضي في مجلس فسمعْتُ قصة مِنْ رجلٍ إيطالي أعجبَتْنِي جداً فنظمْتُها في الأبيَات التالية وجعلت عنوانها:

الحمار وجلد الأسد

مرَّ الحمارُ بجلدِ لَيْثٍ مرَّةً ... فهفا إليه وخاطَ منْهُ جِلاَلا [6]

---

1 المُزَاح: المَزْح الدُّعابة وباب قطع والإسم (المُزاح) والمُزاحَة بضمِّ الميم فيهما.

2 التَّنكيت: النكّات الطَّعَّان في النَّاسِ.

3 اللِّحَاء: قِشر كُلِّ شيء. ج لُحِيٌّ

4 السُّمْعَة: الصِّيت يقال: فعل ذلك رياء وسُمْعَة ليراه النَّاس ويسمعوه.

5 العَيْر: الحمار ج أعْيار.

6 اللَّيث: الأسد. والجِلال: الجَلُّ ما تغطَّى به الدَّابَّة لتُصان ج جِلال وأَجلال.

ومشى به فاستنفرتْ قدّامه | أسدُ الشّرى وعنَتْ له إجلالا [1]
فتوهّم المغْرور أنّ نهيقَهُ | أمسى رُعوداً في الفضا وبُروقا
فاحتلَّ رابيةً وأرسلَ صوتَهُ | ليخيفَ أعْداءً فكان نهيقا [2]
وعتِ الوحوش نهيقَه فتضاحكتْ | منْهُ ومِن أمثالهِ الأغْرارِ [3]
قالت أيحسَبُ أنَّ لبدةَ ضيْغم | تُوليهِ صَوتاً غيرَ صَوتِ حمارِ؟ [4]

هذه الحكايَة كما نظمها مسعود هيَ حكاية ذات مغزًى جميل. ويحمد الرَّجل الإيطالي الذي حكَاهَا لمسعُود ولكنّها ليست إيطاليّة. ولا نعني أنَّ الشّعب الإيطالي الغني بالأدبَاء والشُّعراء ليس له مثل هذه الحكاية فلكُلٍّ شعب حكاياته الرَّمزيّة ولكن الحكاية على ما نعرف شرقيّة يتداولها العرب كأنَّها لهم وللفرس مثلها وقد تكون للهند أمُّ الحكايات عن ألسِنَة الحيوانات مصدرها وهي سواء كانت مولودة في روما عاصمة الثقافة الرومانيّة أو في الهند مهْد الفلسفَات أو في بلادنَا مهبط الوحي فهي حكاية جديرة بأن تنتشر في كُلِّ أمّة للعظَة البليغة التي تحويها. فإنَّ الحمار وهو حيوان لهُ منافعه لا يصلُح له أنْ يتشبَّهَ بالأسد أو بغيره مِنَ الضّواري [5] لأنّه وإنْ كان أضعف منْها فتكاً وأقصر بطشاً فهو أكثر منها نفعاً للإنسانيّة. غير أنَّ العبْرَة [6] في القصّة هي أنَّ كُلَّ مَنْ يلبس غير ثوبه أو يتخلّق بغير أخلاقه ينتهي بِهِ الأمر إلى الفضيحة وربّما إلى التّلَف والدّمار.

ونحن بدورنا نذكر أنَّنا نظمْنا مرة حكاية كهذه اقتضتْها واقعة حال وهي:

زعمَ المؤدِّبُ أنَّ عَيْراً ساءَهُ | أنْ لا يُسَار به إلى الميْدانِ
فمضى فقَصَّرتِ القواطعُ ذيلَهُ | وسطَتْ مواضِيها على الآذانِ [7]
حتى إذا جاء المُروِّض واعْتَلى | متنَيْه رابَ الفارسَ الكَشْحانِ [8]
لكنّه ما زال غير مُصَدِّقٍ | حتى علا صوتٌ كصوت الجانِ
فاستَلَّ صارمه وطاح برأسه | ورمى بجثّتِه إلى الغُرْبانِ [9]
ما دام يصحبُ كُلَّ حَيَّ صوتُهُ | هيهاتِ يخفي العَيْرَ جِلدُ حِصانِ!

---

1 أُسْد الشّرى: والشّرى الجبل وطريق في سَلْمى كثيرة الأُسْد.

2 في الأصل أعداه (تحريف) والنّهيقه: ونَهَقَ الحمار نهيقاً صوَّتَ.

3 الأغْرار: الغِرّ من ينخدع وهي غِرَّةٌ أيضاً ج. أغْرارٌ.

4 اللُّبدَة: كل شعَرٍ أو صوف متلبِّد؛ والشَّعر المتراكِب بين كَتِفَي الأسَد. والضَّيغَم: الأسَد الواسع الشِّدْقِ ج ضياغِم.

5 الضواري: الضّاري من السّباع المولع بأكْل اللّحم والضاري من الجوارح والكلاب المدرَّب على الصَّيْد.

6 العِبْرَةُ: الإتّعاظ والإعتبار بما مَضَى ج عِبَرٌ.

7 القواطع: يقال سيف قاطِعٌ: ماضٍ. والمواضِي: ومضى السيف مَضَاء قطع.

8 الكَشْحُ: ما بين الخاصرة والضُّلوع ج كُشُوحٌ ويقال: طوى كَشْحه على الأمر أضمره وستَرَهُ.

9 الصّارم: يقال سيف صارِمٌ قاطع وصرُمَ السَّيف صَرامَةً كان قاطِعاً.

ولعلَّ إلى هذا المعنى قصَدَ مَنْ قال فأحسن:

مَــنْ تــردَّى بــرداءٍ   مــا رأَهُ لأبِــيْــه
سـوفَ يـأْتِـيْـهِ زمـانٌ   يـتـمـنَّـى المـوتَ فِـيـهْ

ولله في خلقِه شؤون. ولكنَّنا نعرف أنَّ الله خلقَ النملَة لتكون نملة لا نسراً. فإذا حاولَتْ أنْ تقلِّدَ النسر هلَكَتْ. وليس للشَّجرة وإنْ طالَتْ أغصانها وكثُفَتْ أوراقها أنْ تصيرَ غمامَة سابحَة في الفضاء.

السَّمير: 13/ 2/ 1940

الطَّاووس وبعض النَّاس

لعلَّ الله لَمَّا خلقَ الطاووس أحسنَ إليه أكثر ممَّا أحسَنَ إلى ذي جناحَيْن مِنَ الفراشات إلى الطُّيور الدَّاجِنَة [1] إلى الطُّيور الكاسِرَة [2].

لا نقول ذلك لأنَّ الله أسبغَ عليه ذلك الرِّيش المُتلمِّع الوهَّاج الذي لم يخلع مثله على طائِرٍ آخر. ولا لأنَّه أنعَمَ عليه بالعنق الرَّشيقَة. وبالعينين الصَّافيتين كالمرآة الصَّقيلَة. بل لأنَّه وهبَه فضيلة الصَّمت. فلو تكلَّمَ لانصرَفَتْ النُّفُوس عن النَّظر إلى ريشِه إلى سماعِ صوته. وربَّما أفسدَت لغته جمال شكله. ولكنَّه يتبخْتَر وهو صامت فإذا نظَرْتَ إليه هبَطَتْ على روحِكَ خشية كالتي تهبط عليك عندما تَنْظُرُ إلى تمثال فنَّان أو دُميَة رائِعَة.

ليت الله وهَبَ هذه الفضيلَة بعض النَّاس. فإنَّهم ما أضرَّ بهم شيء مثل الكلام الذي تجري بهِ ألسنتهم.

يكون لأحدهم شهرة طائِرَة بين النَّاس بأنَّه أديب ضليع [3] أو شاعر مجيد أو منشيء بليغ أو رجل فضلٍ ومكارم وشهرة يأنَسُ بها النَّاس وإنْ لم يقرأوا لهذا الكاتِب مقالاً أو لذلك الشَّاعر قصيدَة ولَمْ يحصل لهم شرف التَّعرُّف إلى ذلك الرجل صاحب المَكَارم الذي تتحدَّث عنه الجرائد.

ولكنَّه لا يلزم الصَّمت كالطَّاووس وإنْ كان له زَهْوه وتيْهُه. فيوسوسُ له شيطان الغُرُور [4] ـ أن اكْتُبْ! فيكتب ويجدُ حوله بعض الذين لا جرأَة لَهُم على مكاشفَتِهِ بالأمر الواقع. بأنَّه يضطلِع بأمرٍ لم يخلقْ له. فيسائِلهم رأيَهُم فيقولون له: أجَدْتَ وأحسَنْت. ثمَّ يدورون بهِ إغراء وإطراء حتى يتوهَّم أنَّ

---

1 الدَّاجن: كلّ ما ألِف البيوت وأقام بها من حيوان وطير ج دواجن.

2 والكاسرة: كَسَر الشيء هشمه والكاسِر: العُقاب.

3 الضَّليع: القويّ.

4 غَرَّ فلانا غُرُوراً: خدعه.

الشُّهْرة التي خلقتها له الجرائِد هي دون حقّه عليها. وأنَّ على الشعراء والكتّاب أنْ يولُّوْه عليهِم زعيماً. ولكنَّهُم لا يفعلُون لأنَّ الحسدَ يغطّي على أبصارِهِم فلا يَرَوْن فضله.

وهكذا يظلُّ ينعم بالشُّهْرة الواسعَة الجميلة حتى يخرج مِنْ صمتِه فتتلاشَى مِنْ أذهان النَّاس صورة جميلة له كان النَّاس يعتقِدُون أنَّها صورة طبق الأصل. وكانوا أحياناً يَحْرِصُون عليها مِنْ التَّشْويه فينسجُون حولها حكايات مِنْ عندِهِم تستبقي روعتها وتحفظ جدَّتها.

وأكثر ما ترى هذا الصنف مِنَ النَّاس في بيئَة نامَتْ فيها عيون النَّاقِدِين. فإنَّ كثيرين لا تستيقظ فيهم الجُرأة على الكتابَة والنَّظم إلاّ في ذلك الوَقْت في غيبَة الشَّمْس تشتعل المصابيح وتتوهَّج. قال الشّاعِرُ:

وكم ذا ترى مِنْ صامِتٍ بكَ معجَبُ فصاحته أو عيُّه في التكلُّمِ

ولقد رأيْنَا أناساً كان لهم عندنا روعَة الطاووس حتى تكلَّموا فأدركْنَا أنَّ لله حكمَةً علياء في حرمان الطَّواويس ميزَة الكلام. فهي لا تترنَّم ولا تتكلَّم. لذلك لا تنفضح ولا تزول ملاحَتُها مِنَ العُيون.

السَّمير: 4/ 3/ 1940

الترجمة ومشاقها

يتوهَّم الكثيرون أنَّ الترجمَة أمرٌ سهل لا يستغرق وقتاً ولا يتطلَّب مشقَّة. وذلك لأنَّهُم لا يزاولونَها. ولا يعرفُ الشَّوق إلاّ مَنْ يكابِده.

لنا صديقٌ كان على هذا الإعتقاد حتى عَنَّ له في إحدى اللَّيالي أنْ يُترجِمَ قطعة انكليزيَّة طالَعَها إلى العربيَّة فكان يقرأ الفقرة الإنكليزيَّة فيدركُ معناها قبل أنْ ينتهِي مِنْ قراءتِها فإذا حاولَ نقلها إلى العربيَّة شعَرَ كأنَّه يجتازُ أرضاً كُلُّها أشواك وهو حافٍ. وأقامَ يكتب ويشطُب حتى راود النُّعاس أجفانه فأنقَذَه مِنَ الكتابَة والمحو والشَّطب.

وراح بعد ذلك كُلَّما جاء ذكر الترجمة يشرح للنَّاس ما وقَعَ له ويقول: وارحمَتَاه للمُترجِمين!

مات بالأمس الشَّاعر ادوين ماركهام فرأيْنَا مِنْ حقِّ قرَّاء العربيَّة علينا أن ننشر سيرة حياته وشيئاً من شعرِهِ ليعرِفُوا بأيِّ الحبال ارتَقَى إلى قمَّة الشُّهْرة وتبَوَّأ عرش الخلُود.

فتناولْنَا قصيدته «الرجل ذو المِسْحاة» التي لها في العالم الإنكليزي شهرة معلَّقَة امريء القيس عند العربي. فإذا الصُّعوبَة تعترضنا في عنوانها وهو بالإنكليزيَّة هكذا The Man with the Hoe.

ما هي هذه «الهو؟» إنَّ القامُوس الإنكليزي العربي يقول في ترجمتها «فأس». صاقورة. معزقة. «ولكِنَّها ليسَتْ الفأس ولا الصَّاقورة ولا المعزقة لأنَّ لهذه أسماءها في الإنكليزيَّة.

أمَّا قاموس وبستر فيقُول في تفسيرها: «أنَّها أداة زراعيَة لردِّ التُّراب على الأغراس وقطع الأعشاب يقطَع بها ويحرث لتنقية الأرض مِنَ الأعشاب.

وقد ترجَمَها بعضهم «بالرَّفش» وصاحبها «الرَّفَّاش» وهذا خطأ. فهذه الآلة ليسَتْ الرَّفش ولا المجرفَة لأنَّ الرَّفش يستعمَل لجَرف التُّراب وسواه إلى الأمام وإمَّا هذه فتستخدَم لقطْع الأعشاب وتمهيْد التُّراب حول الأزهَار والأغراس. ولها عصًا مستَطيلَة. لذلك قال الشَّاعر في مطلع قصيدته أنَّ الفلاَّح إتَّكأ عليها.

وليس بالمُستغرَب أنْ يترجمها بعضهم «بالرَّفش» وآخر «بالمجرفَة» وغيرهما بغيرها. فإنَّ هذه الأداة الزراعيَّة لم تكنْ موجودَة عندَ العرب. ولذلك يَخلقْ بنَا أن نختارَ لها الكلمَة التي يمكن أن تؤدِّي أكثر معناها إذا تعذَّر الوصُول إلى الكلمَة التي تؤدِّيه كُلَّها. لذلك وجَدْنَا نحن أن «المِسْحاة» أقرب إلى تأديَة المعنى المقصود لأنَّها أداة مِنْ حديد تقشر التُّراب وتجرفه.

ولسنا نبغي أنْ نقول أنَّها هي بعينِها ولا نقصدُ بهذه الفذلَكَة التنقُّص مِنْ قدرِ أيِّ مُترجِم ولكنَّنا نودُّ أن تشيع على الأقلام والألسُن العبَارة الأصَحّ والأكثر إنطباقاً على المعنَى الأصلي. لئِلاَّ يلتبس الأمر على القاريء ويَقَع في حِيْصَ بيْصَ ولا سيَّما إذا كان غير واقِف على الأصل المترجَم ولئِلاَّ تنقلب الآية فيُقال: وارحمتا للقارئِين بدل وارحمتا للمُترجِمين!

السَّمير: 15/ 3/ 1940

هل يعرف الفنان قيمة آياته؟

قلَّما لمحْنَا رجلاً عمومياً ذا مكانة وشهرة إلاَّ ولمحْنَا في خلال أقواله وأعماله صورة شاعر أو فنان أو مفكِّر كبير فإنَّ هؤلاء الرِّجال لا يصلُون إلى مسرح الشُّهْرة ويُطِلُّون على الجماهير إلاَّ بعد زمن يقضُونَه في المدارس في صحبَة الأجيال الماضيَة ورجالها المفكِّرين البارزة أسماؤهم في لوحَة التَّاريخ. فيأخذ كل واحد عن الأستاذ الذي يستهويْه فإذا كان الطُّموح إلى المجد مِنْ طبعِهِ إقتفَى آثار القوم العِصاميِّين [1] الذين بَنَوْا الدُّول والممالك أو هدمُوها؟ ليبنُوا على أنقاضِها دُولاً وممالك أقوم سبيلاً.

وإذا كان في طبعِهِ ميل كامنٌ إلى الفن ظهَرَ وسطَع بالإحتكاك مع رجال الفن الخالدين بآثارهم.

أمَّا إذا لم تكنْ في نفسِهِ نزعة إلى فن ولا إلى مجدٍ ولا إلى علم فإنَّه يصحب الكتب دون أنْ يستفيدَ منها أكثر ممَّا يستفيد المزكُوم مَرَّ بروضة فاحَ أريجها. فإنَّ الأزهار عند مَنْ لا ينشقُ لا رائِحة لها.

بعثَت فينا هذه الفكرة خطبة لمحافظ المدينة لاغوارديا سمعْنَاه يلقيها في حفلة لرجال الفن. فقد

1 العِصامِي: مَنْ سادَ بشرف نَفْسِهِ.

كانَتْ خطبتُه قيِّمَة تدل على أنَّ للأدب والفن حصَّة مِنْ وقتِه ولهما في قلبه مكان كبير وإنْ بدَا لأكثر النَّاس أنَّه سياسي بَحْت [1].

وممَّا أعجبَنَا في خطبتِه فكرة جاءَ بها وهي أنَّ الفنَّان الموهُوب يبتدِعُ أحياناً آيات رائِعَة خالدَة وهْوَ لا يدري. إنَّها نظريَّة غير جديدة ولكنَّها ظهَرَتْ لنا جديدة عندما سمعنَاها مِنْ شفتَيْ المحافظ الذي كنَّا نظُنُّ أنَّه لا يهتمُّ لهذه النَّاحية. غير أنَّنا لم نلبث أنْ تذكَّرنَا ما قام به مِنْ المشاريع العُمْرانيَّة الكبرى لجعل مدينة نيويورك جميلة كما هي كبيرة وضخمة وشعرنَا أنَّ الرجل رسَّام وإنْ لم يرسم بالرِّيشَة والأدهان على الألواح. ولم نستكبِر أن يكونَ للفكرة التي جاء بها عرش في مملكة تفكيره.

ونحن نرى أنَّ الفكرة ليست خالصَة مِنَ الخطأ فإنَّ الفنَّان لا يبدعُ حتى يدري ما يصنع. وكثيراً ما عانى الآلام المُوجِعَة قبل الوصُول إلى الخيَال الذي ينشِدُه.

وبعبارة أخرى ليس في الفنِّ رَمْيَة [2] مِن غير رام. وإذا كان الشاعِر أو الفنَّان لا يحدِّث النَّاس بآياتِه ومعجزاتِه فذلك لأنَّ حديثه عنها يفسدُ جمالها عندهم ويخفِّض مِنْ منزلتِه أيضاً.

ولو كانت الرَّوائِع والبدائِع تجيء عفواً لما رأيْتَ الفنَّانين مسْتحوَذاً عليهم الذُّهُول كأنَّهم في عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه النَّـــاس.

ولكم قرأنَا عن فنَّانٍ أنَّه جاعَ وعَرِيَ ومَرِض في سبيل فكرة لاحَتْ له فاستهْوَتْهُ وسحرَتْه فباتَ يستشعِر النَّعيم ما دامَتْ له وهو جائِع مقرُور عارٍ مضنوك.

لا إنَّ الفنَّانين يعرفون قيمَة ما يخرجُون للنَّاس مِنْ آيات. وإنَّما بعض النَّاس لا يعرفُون.

السَّمير: 18/ 3/ 1940

مَرْحبا بالرَّبيع

جدَّد الدَّهر للأرض صباهَا.

فانفلَتَتْ مِنْ كآبتها وجمودها.

واستيقَظَتْ أحلامها ورؤاها.

فهي كالميِّت الذي سقطَتْ عنْه الأكفان ورجعَتْ إليه الرُّوح.

بل هي قد ولدَتْ اليوم ولادَة جديدة.

لأنَّ الرَّبيع قد رَجَع.

---

1 البَحْتُ: الصِّرْف الخالص لا يخالطه غيره يقال: خبزٌ بحتٌ غير مأدوم وعَربيٌّ بَحْتٌ خالص النَّسب وعربيَّة بحتَةٌ وأعرابٌ بُحُوتٌ.

2 رَمْيَة من غير رام: المِرماة كمِسحاة سهم صغير ضعيف أو سهم يتَعلَّم به الرَّمْي.

ها هي السّماء في نقائِها كمرآة الغريبة أو كلوح الأبرار.
لا سحابَة بها ولا جهمَة في حواشيْها.
سكنَت العواصف.
نامَت البروق.
خرست الرعود.
انكمشَت الغيوث.
عندما رجَعَ الرَّبيع.

اليوم لا تتعثَّر بالثُّلوج أقدامنا.
ولا يَقْرُصُ الزَّمْهَرير جلودنا [1].
ولا تَلْفَحُ الرِّياح السُّمُوم وجوهنا [2].
ولا نلوذ بالمواقِدِ لنعانق اللَّهيب!
نحن الآن في الرَّبيع!

إلْبسِي يا أشجار سرابيلك الخضراء.
وأَطِلِّي يا نجوم مِنْ قُبَّتِك الزَّرْقاء.
وانطلِقي مِنْ مخابئِك يا طيُور.
واخرُجي مِنْ جوف الأرض يا زهور.
فإنَّ الرَّبيع قد رجَعَ إلى الدُّنيا.
أجل قد رجَعَ السَّاحر العجيب.
الذي يلْمسُ التُّراب الصَّامت البارد فتدبُّ فيه الحرارة وتخرج منْه كائِنَات حيَّة!
ويمشِي في المكان الخالي المُقفِر فتدوِّي فيْه أصوات وتنبُتُ فيْه أزهار وأشجار!
ويَرِفُّ على الأوديَة النَّائِمَة فإذا هي جداول وسواقي وغُدْران!
ويطيف بالشَّجر العاري الجريْد فإذا هو أوراق تصفَق. وثمرٌ يتدلَّى. وظِلٌّ وريف.
ويتنفَّس فوق البحيْرات المُتجمِّدَة فتذوب سلاسل الجليْد وقيوده تحت أنفاسه الحارَّة.
ويَرْمُقُ الجبال الشَّاحبَة الباهتَة المهجُورَة فيشيعُ فيها الألق [3] ويموج الجَمال.

---

1 الزَّمْهَرير شدَّة البَرْد.
2 السَّمُوْم: الرِّيح الحارَّة تهبّ غالباً بمصر في شهر مايو وأكثر ما تكون نهاراً.
3 الألَق: ألَق البرق لَمَع وأضاء.

ويتراءى للنُّجوم فتضحك حتى يترنَّح الأفق وتبدو ابتساماتها في حواشي الظلماء.
ويلوح للطيُور فتغرِّد حتى تملأ الفضاء أناشيد.
وللأزهار فتفوح حتى يَمَسَّ أريجها أذيال السُّحُب.

أهلا بالملك الطَّالع مِنْ قصر الشِّتاءْ.
اللاَّبس الزهْر والنُّجُومْ.
المتعَطِّر بالنُّور والأَنداء والأَشذاءْ.
المُتَوَّج بذهب الشَّمسْ.
المُوَشَّى طَيْلَسانَه بلُجَيْن [1] الفَجْرْ.

لقد فَرَشَتْ لكَ الأرض بساطاً مِنْ زَبَرْجَد [2].
ونصبَتْ لكَ الجبال أرائِكَ مِنْ نور.
ومَدَّتْ فوقك السَّماء قُـبَّـة مِنْ لازُورْد.
وتصَاعَدَتْ التَّهاليل في الأرض مِنَ الحقُول والسَّواقي والأودِيَة فرحاً برِجُوع الملك السَّاحر.
بل فرحاً بالشَّباب العائِد إلى الدُّنيا بعد الغياب.
فأهلاً بك يا رَبيعُ.
أهلاً بآصالِك وأسْحارِك [3].
أهلاً بسواقِيْك وأنهارك.
وأهلاً بفراشاتِك وأطيارك ورياحينك وأزهارك.
ومرحباً بليالِيْك. ليالي الهَوى والفتُون والسِّحر.
وأصباحك. إنَّها أصبَاح اليقَظَة والموسيقَى والشِّعر.
ما كان أَشدَّ شوقنَا إليك عندما غِبْتَ.
وما أعظَم ابْتهاجَنا بك عندما جِئْتَ.

إنَّنا نشكو إليك الشِّتاء.
فقد أرهقَنَا بمظالِمِه ومغارِمِه لكي ننكث عهدك وننسَى ودَّك. فصبَرْنَا على أذاه واحتَمَلْنَا جَوْرَه [4]

---

1 اللُّجَين: الفِضَّة.
2 الزَّبَرْجَد: حجر كريم يشبه الزُمُرّد وهو ذو ألوانٍ كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصيّ.
3 الأصيل: الوقت حين تصفرّ الشَّمس لمغربها ج آصال وأصائل.
4 جارَ جَوْراً مال وعَدَلَ.

وجناياته.

أبَيْنَا أنْ يموتَ الشوق في أرواحنَا إلى الجمال.

لو مات مِتْنَا.

وها أنتَ معنَا بكل جلالك وجمالك.

فما أكرمَ الحياة وما أعظمَ بركاتِها.

جئت. ففي أرواحنا نشوة الأزاهر عانقها الفَجْر. ورِعْشَةَ العصافير بلَّلَ أجنحتها القَطْر.

كُلُّ هذا لأنَّك جميل ولأنَّنا نحبُّك.

السَّمير: 21/ 3/ 1940

الولادة والألم

لا ولادة بلا ألَم.

هذه قاعدة شاملة سائِدَة في عالم الأحياء العاقلة وغير العاقلَة. كما أنَّها مشهورة وملموسَة في عالم النَّبَات.

إنَّنا مقبلُون في غدٍ على ذكرى قيامَة المسيح مِنَ القبْر التي هي في الواقِع الولادة الكُبْرى لطفْل المذْوَد وأمير السَّلام.

بل لو لَمْ يمتْ كما ماتَ ويرجع كما رجَعَ لَمَا كانت ولادتُه الأولى ذات شأن في التَّاريخ أعظَم مِنْ شأن مولود عادي آخر.

لا بُدَّ لصاحِبِ العقيدَة مِنَ التضحيَة في سبيل عقيدَتِه إذا شاءَ أنْ تحيَا وأنْ يعتنقْها النَّاس. لأنَّ إحجامَه عن التضحيَة يدُلُّ على أنَّه هو نفسه غير واثِق مِنْ صحَّة العقيدَة التي يدعُو النَّاس إليها. كما يدُلُّ على خوفِهِ مِنْ الألم. وكثيراً ما خنَقَ الخوف في الإنسان أجملَ ما فيه مِنْ المزايا.

والمسيح الذي دعا إلى حبِّ العدو ليكون للمرء فضل وللحب معنى. ظَلَّ يحسِنُ إلى أعدائِه ويباركُهُم حتى وَهُمْ يجرِّعونَه العلْقَم [1] ويطعَنُون صدره بالحِراب ويدقُّون يديْهِ بالمسامير.

فكان بهذه الفضيلة فضيلة التَّسامح والصَّفْح أقوى وهو يُهَان ويُضْرَب مِنَ الذين ضربُوه. وكان وهو ذليل أعزَّ مِنَ الذين أذَلُّوه. وكان وهو يموتُ على الصَّليب يحيَا للأجيال كُلِّها بينَمَا هم يموتُون في تلك السَّاعة موتاً رهيباً.

وإنَّك لتعجَبُ والتعاليم المسيحيَّة في الأرض منذ حوالي الفي سنَة كيف أنَّ النَّاس يَنْسَوْنَ فضلَها

1 العَلْقم: كُلّ شيء مُرّ وبنات الحنظَل واحدته علْقَمة.

عندما يتغنَّون بالمباديء الدِّيمقراطيَّة ولولا المسيحيَّة لم تكن هذه المباديء بل إنَّها لا تزال دونَها بمراحل بالرَّغم ممَّا فيها مِنْ نبْلٍ وفضلٍ وجمال.

ثمَّ تعجبُ مرَّة أخرى للنَّاس يترنَّمُون بالمسيحيَّة وتعاليمها الديمقراطيَّة وحسناتها وفي الوقْت ذاته يأتُون مِنَ الأعمال ما لا يتَّفِقُ مع هذه ولا تلك.

إنَّ الأنانيَّة لا تزالُ هي المُتسلِّطَة في الأرض. وهي السُّوسَة التي تنخرُ شجرة المسيحيَّة كما تتآكَل عروق الديمقراطيَّة. فترى الإنسان ينادي بالإخاء العام ثمَّ تراهُ مِنْ جهةٍ أخرى يفكِّرُ كيف يجعل إخوته النَّاس عبيداً له.

إنَّ الشَّرق قد سبَقَ الغربَ في الدَّعوة إلى الإخاء العام وإلى المساواة بينَ الأجنَاس ولَكِنَّ الغربيِّين لا يعترفُون بفضلٍ إلاَّ إذا كانُوا هم أصحابه.

غيْرَ أنَّهم إذا استطاعُوا أنْ ينكرُوا على الشَّرق كُلَّ فضائِله وأنْ لا يذكُروا له إلاَّ السيئات وأنْ لا يفكِّروا إلاَّ باستغلال كنوزه وناسه. فإنَّهم عندما يجيء الفصح يحنُونَ رؤوسهم حتى المتوَّجَة منها إجلالاً للإله الإنسان الذي ولِدَ في الشَّرق.

السَّمير: 23/ 3/ 1940

البُهلوان ـ والعَبْقريّ

إذا سمعَ النَّاس ببهلَوان يمشي على الحبل تهافَتُوا على رؤيتِه وأنفقُوا الوَقْت والمال في هذا السَّبيل لكي يُرْضُوا غريزة الفضُول فيهِم.

وتراهُم يرجعُونَ بعدَ ذلك لينفِقُوا الوقتَ أيضاً في الحديثِ عنْه والتَّعجُّبَ مِنْ فعلتِه. فيشتهِرُ وتتناقَلَ الألسُنَ الحكايات عنْه بين صحيحة ومفبرَكَة.

وهكذا يشتغل القوم بأمرٍ لا يقدِّم ولا يؤخِّر في حياتِهم وتخرجُ مِنْ جيوبِهم الدَّنانير لتدخُلَ إلى جيْبِ ذلك البُهْلَوان الذي سيَّانَ عند المرء رآه أو لم يره. ولا فرق إنْ مشَى على الحبْل أو مشَى على الأرض.

وكم هناك مِنْ أشياء يشتغلُ بها النَّاس دهراً طويلاً وينفِقُون عليها مالاً جزيلاً وهي في أهميَّتها كالبهلَوان الذي يمشي على الحبل.

ألا يجنّ الأميركيُّون جنونَهم لرؤيَة رجلٍ يلكَمُ رجلاً.

ألا يتألَّب الأشراف والصَّعاليك في أسبانيَا ليشاهِدُوا رجلاً يناضل ثوراً؟!

ألا يحتشدُ الألوف مِنَ الخلْقِ حول كُلِّ حومةِ سباقٍ تتراكضُ فيها الخيول؟

ألا يتسَارَع النَّاس في بلادِنَا إلى السُّوق كلَّما سمعُوا أنَّ في البلدة دبًّا يعرِّضهُ صاحبه للمغالبة

والمباطَحَة لكي يَرَوْا الرَّجلَ الذي يغلب الدُّبَّ ويصرعه إلى الأرض؟

بلى. وليس في ذلك كُلِّه ما يدعُو إلى الإستغراب فإنَّ في الإنسان نزوعاً خفياً إلى الأمور التي لا يستطيع هوَ أنْ يقومَ بها فهْوَ يُعْجَبُ بالبُهْلَوان لأنَّه لا يقدِر أنْ يمشي مثله على الحبل. ويصفِّقُ للملاكم لأنَّه لا يقدر أنْ يصرَعَ مثله رجلاً قوياً بلكمَة. ويهلِّلُ للرجُلِ الذي يصرعُ الثور لأنَّه يشعر أنَّ إنتصار ذلك الرَّجل الحاذِق الباسل إنتصارٌ له. ويهرعُ لرؤية العِراكِ بين دبٍّ وإنسان لأنَّ قهرَ الدُّبِّ فيه شهرَة للبلدَة ومجداً لأهلِها وهو واحدٌ منها.

ولكن هذه الأمور تبدو صِبْيانيَّة وغير إنسانيَّة عندما نقيسها إلى صفَات الإنسان الرَّاقي أو الإنسان الذي ينشدُ الإرتقاء..

ثمَّ تبدُو سمجَة مُستهجَنَة مُستنكَرَة عندما نتذكَّر أنَّ كثيرينَ مِنْ رجال المواهِب الذين صرفُوا أعمارهُم في التَّنقيب والبحث إمَّا عن مصْلٍ واقٍ مِنْ مرضٍ خبيث. وإمَّا لإختراع آلة تزيد الإنتاج في المصنوعَات أو تريحُ الفلاح والعامل مِنَ المتاعِب التي يُعَانِيْها أو تزيد المواصلات سرعة ودقَّة. أو تجعل المآكل والمشارب أكثر نفعاً وأقلُّ عطباً وخطراً.

ثم نتذكَّر أنَّ النَّاس لا يتهافتُون على تمجيد واحد مِنْ هؤلاء الموهوبيْن حتى ولو كان يمجِّدُ بُهْلوانًا أو ملاكماً ولا يهتِفُون له وهْوَ يصرعُ الوَقْت والمسافَة كما يهتفُون لِمَنْ يصرعُ دبَّاً أو يغلب ثوراً.

هذا كُلُّه يدلُّ على أن الطفولة لا تزال مستقِرَّة في نفُوس النَّاس فهم يحبُّون العبَثَ ويطيرُونَ على أجنحة اللَّهو في أعظم البلاد حضارة كشأنِهم في القُرَى التي لا يزال أهلها على الفِطْرَة والبَدَاوة.

السَّمير: 27/ 3/ 1940

أين تجد الرَّبيع

يا صاحب «السَّمير»:

قرأتُ قصيدتُك المنشُورة في «السَّمير» التي تحيِّي بها الرَّبيع في اليوم الأَوّل منْه فراقَتْني وأطربَتْني وتمنَّيْتُ لو أنَّك أرسلتَها قصيدَة منظومَةً لا منثورة. وبعْد أنْ سكرْتُ بها رفعْتُ عيني وتطلَّعْتُ مِنَ النافذة فرأيْتُ الثَّلج يتساقط رقعاً رقعاً لو اتَّصلَ بعضها ببعض ودام إتِّصالها لصلَحَتْ أن تكونَ ملابس للملائِكَة. فقلْتُ في نفسي يا لله مِنْ خيَال الشُّعراء العجيب كيف ينتقِلُ بنا إلى الرَّبيع ولا ربيع. ويصوِّرُ لنا الدُّنيا كلَّها أنغام مسكِرَة وليس غير الرِّياح المُعْوِلَةِ والغيوم السَّوداء المُتلبِّدَة. ولم أستطِعْ أنْ أكتمَ هذه الملاحظَة في نفسي فجلسْتُ وكتبتُ إليك هذه الكلمَة لأقول لك أيها الشَّاعر إتَّقِ الله فينا. لا تسابِق الوقت. واصبِرْ إلى أن يطلَّ الرَّبيع وصِفْهُ لنا فلا نستشعِر الخيبَة عندما نبحث عنه فلا نجده إلاَّ في الورق!

أنا أحِبُّ الخيال ولكنّي مثلك في قولك:

إنَّ شيئاً لا أحسُّ بــه   هو شيءٌ يشبه الكَذِبَ

ولا يشفَعْ في الشعراء قول القائِل:

«أعذب الشّعر أكْذَبُه»   والسَّلام عليك مِنّي حسَّان

غفَرَ الله لك يا حسَّان وإنْ لم تغفرَ لنا ما حسبتَه ذنباً مع أنَّه غير ذنب ولا شيء فيه مِنَ الخيَال الجامِح فالرَّبيع الذي «توهَّمْتَ» أنَّه غير موجود هو أكثر مِنْ موجود لو أنَّك أنعمْتَ الفِكْرَ قليلاً.

لو لم يكن الرَّبيع موجوداً لما كنَّا نتوقَّع مجيئَه. فهو كائن حتى في قلب الشِّتاء الباكي الكئيب وإنَّما لا يراه هناك إلاّ مَنْ نظَرَ إليه بعين الرُّوْح والعقل التي تخترقُ المسافَات والوَقْت لا بالعَيْن الجسديَّة التي لا تمتدُّ إلاّ إلى مسافة محدُودَة ثمَّ يخفَى عنْها ما وراء ذلك.

هذا إذا كان الرَّبيع الشَّجر المورق والسَّماء الضَّاحكَة والنُّور الدافِيء والماء المترنِّم ولكن هناك ربيع آخر غير هذا. هو الذي يجدُه الإنسان في نفسِهِ حتى في ليالي الشِّتاء المُدْلِهمَّة. وهذا هو الرَّبيع الأجمل والأبقَى. فإذا ضاعَ مِنْ نفسِ الإنسان فلا يَردُّ إليه السرور ربيع.

ليس في وسعِنا ولا في وسعك «يا حسَّان» أنْ تسيطِرَ على الطَّقس في هذه البلاد. فكم انهطَلَ المطر في الصَّيف هنا ورافَقَتْهُ البروق والرُّعود كأنَّه الشِّتاء. أفَيَعْنِي هذا أنَّ الصَّيف لم يوجَدْ.

ليس الشعراء وحدَهُم هم الذين يسعَدُونَ بالخيَال وينتقِلُون على أجنحتِه. فالسَّعادَة التي يشعرُ بها النَّاس كُلُّهم على اختلاف أنواعِها وإختلاف أحوالِهِم هي في الغالِب بنت الخيَال لا بنت الحقيقة.

وحَسْبُنا أنَّنا قد سكَبْنَاه في كأسِ روحِك قطرة مِنَ الفرح بذلك المقال. فهلَّلْتَ للرَّبيع والثَّلج ينهمِر. ودَفَّئْتَ روحك وجسمك يرتعش مِنَ البرد.

وأخيراً ابحث عن الرَّبيع بروحِكَ لا في الروزنامة ولكَ مِنَّا الشكر والتَّحيَّة.

السَّمير: 6/ 4/ 1940

ما هو الطُّوفان

ما هو الطُّوْفان؟!

هو مطر غزيرٌ أو ماء كثير يحتشِد في موضع واحد فإنْ كان نهراً طغَى وفاض وجرفَ وهدمَ وروَّع. وإنْ كان جدولاً صغيراً تضخَّم واتَّسَعَ وتعالَى واندَفَعَ بقوَّة الجبَّار.

هو في كل حالة ماء ولكنَّه ماء في غير أوانِه وفي غيْرِ موضِعِه ولولا ذلك لكانَ فيه للأرض العَطْشَى ريّ. وللنَّاس فوائد ومنافع. ولكنَّه زادَ عن الحد فصارَ آفة بعد أنْ كان برَكَة.

ومثل الماء كُلّ شيء آخر في الحياة.

إنّنا نهتدِي بالضوء ونَرى فيْهِ الأشياء والأشخاص جليّة واضِحَة ولكنّه إذا زادَ عنِ القدر الذي نحتَاجُ إليه بهرَ أبصارنا فصرْنَا لا نستطيع رؤية الأشياء وهي على مقربَة منّا.

إنّما ليس كُلّ شيء كالطُّوفان يصعبُ على الإنسان الحؤول دونَ صيرُورتِه آفة كبْرى فهناك أمور وحالات لا يعجزه أنْ يتصرّف بها تصرفاً يعود عليه بالفائِدَة. ولكنَّه لا يفعل بل يسيء استعمالها فترجع عليه بالضّرر ويرجع هو يشكُو الأيّام والنّاس مع أنّ المُسِيء هو لا سواه.

خذْ لكَ مثلاً الخمر فإنّ القليل منْها كما قيلَ يفرحُ قلبَ الإنسان وفي حالة الإصابَة بالرّشح يصفُ الأطبّاء أنفسهُم قليلاً مِنَ الويسكي للمُصَاب.

ولكن بعضهم يُسْرفُ في شربها ويدْمِنُ عليها حتى تتمكّن منْه عادة الشُّرب فيصيرُ لها عبْداً. ولا يطولُ به الدَّهر حتى يتمشّى في جسمِه الضّعف وفي جيبِه الإفلاس. فضلاً عمّا يصيبُ أخلاقَه مِنَ الهزال.

ومنَ المفيد للمرء أنْ يلهو قليلاً ولكنَّه إذا تمادَى في اللَّهو وإتخذه دَيْدَنا[1] في صباحه ومسائه. لا يلبث حتى يأتي عليه يوم يجدُ فيه نفسه لا قدرة له على اللّهو ولا سبيل إلى سواه! فيلتفِتُ فإذا موكب أهل العزائِم والمطامِع قد بَعُدَ عنْه كثيراً وصار مِنَ العَسير عليه اللّحاق بهِ ولو نبَتَ له مكان كُلّ إصبع جناح!

إنّنا نأسَفُ لحدوث الطُّوفَان ونشعرُ مع الذين نزلَتْ بهِم خسائِرَ كما نشعرُ مع كُل مظلوم ومغلُوب ومنكُوب. والطُّوفَان جائحة تنزل بالإنسان وحده. فالحقل الذي تبعثَرَتْ أشجاره وتبدّدت أحجاره لا يضيع منْه شيء وإنّما يضيع الجمال الذي أحدَثَه فيه الإنسان والنّفع الذي كان يرجُوه عندما يخرج الحبَّ مِنَ الأرض فيصير سنابِلَ أو تتفتّقُ عن البذُور فتصِيْر أزاهِر وريَاحِيْن.

السّمير: 24/ 4/ 1940

ماذا كانوا يصنعُون

خطَرَ «لباحثٍ» أن يلقِي على نفسِه وعلى النّاس هذا السؤال: ماذا كان يصنع يسوع لو جاءَ إلى العالم مرة أخرى؟!»

ولاحَتْ للسّائِلِ في الأفق غمائِم الحرب السّوداء وسمِعَ قصفَ رعودِها. وشاهَدَ السِنَة نارها مُندلِعَة في الأرض وتراءَتْ له السُّفن المُتحطِّمَة في البَحْر وجثَث الغرقَى والهلْكَى طافيَة على وجهِ الماء

---

1 الديْدَن العادة والدَّأب.

تتقاذَفُها الأمواجُ. فراحَ يقابِلُ بيْن العالم الجميل السَّعيد الذي جاءَ يسوع إلى الأرض لكي يوجِدَه فيها والعالَم الزَّاخرِ بصنُوف البؤس والتَّعاسَة وأنواع الألم والعذَاب الذي يعيش فيه البشر. فكان جوابه على سؤالِه هو الجواب الذي يتلَجْلَجُ في صدُور الذين يكرهُون الحروب والنَّافخِين في ضرامِها. ويمقتُون استبدَاد الأقوياء بالضُّعفَاء. ويحنُّون إلى صيْرُورَة البشريَّة كلّها عائِلَة واحدة. إلى غيْرِ ذلك مِنَ الأماني الجميلَة والأحلام اللَّذيذة التي تراودُ النُّفُوس الصَّافيَة الرَّاقيَة ولا سيَّما النُّفُوس التي أشربَتْ تعاليْم النَّاصِريِّ السَّامية القائِمَة على المحبَّة. وهي التعاليْم التي مسخَها النَّاس وصرفُوها إلى غير القصد الأوَّل الرئيسي منْها.

أجل إنَّ يسوع لو جاء إلى الدُّنيا ثانية لعفَا عن المسيء.. وأحَبَّ الخاطيء المُجرم. وغفَرَ للزَّانيَة وأهوى بالسَّوْط على ظهُور الصَّيارِفَة الطَّماعِيْن ووبَّخ المُرائِيْن. وجعلَ الرَّحمَة فوق العدْل. ونزَعَ مِنْ قلوب النَّاس حُبَّ الحُطام[1] وجعل النَّاس كُلَّهم إخواناً.

هذا. وأكثر مِنْ هذا كانَ يسوع يصنعه لوعاد ولكن ماذا كان النّاس يصنعُون لو رجَعَ يسوع اليوم إليهم ورأوه بينهم؟!

إذن كان قامَ في المرَّة الأولى يهوذا واحد باعَهُ مِنَ الّذين يطلبُون دمَه بثلاثين مِنَ الفضَّة فسوف يقوم ألف يهوذا في المرة الثانيَة ليبيعه بفضَّة وبغيْر فضة!

وإذا كان قد وجَدَ قاضٍ واحد إسمه بيلاطس البنطِيّ يذعَنُ للشعب الأحمق الهائِج لئلاّ يخسر منصبه فإنَّ قضاة كثيرين يطاوِعُون النَّاخبين في قضايا كثيرة ويحيدُون عن جادَة[2] العَدْلِ والصَّواب إكراماً لأولئِكَ النَّاخبِيْن ولن يكونَ هؤلاء القُضَاة أصلب عوداً مِنْ بيلاطس النَّبْطِيّ!

سيجدُ كثيرين يحملُون إليه الخَل في الإسفنج.

وسيجد أياديَ كثيرة تدقُّ المسامِيْر في يدَيْه.

إذا رجَعَ يسوع فإنَّ النَّاس سوف يصلبُونَه مرَّة أخرى!

إنَّ النَّاس ما برحُوا هُم النَّاس!

السَّمير: 24/ 4/ 1940

---

1 الحُطَام: من كُلِّ شيء ما تكسَّر منه وحُطام الدُّنيا مَتَاعها.

2 جادَّة: الجادَّة وَسَط الطريق والطَّريق الأعظم الذي يجمع الطُّرُق ج جوادّ.

يوم الأمّهات

قالوا إنَّ الأم هي الإله الصَّغير.

ولا غلُوّ في القول ولا شذوذ في التقدير.

فالله محبّة ورحمة وعفو وسخاء وكذلك الأمّ.

إنّها تحبُّ لا تطلبَ عن حبّها عوضاً ولا تبغي به ثمناً. ولا تعدِلُ عن حبّها ولو لم تجْن منه غير العلْقَم المرير.

محبّة الأمّ تملأ البيت الصغير فهي تملأ الأرض كُلّها إذ ليس في الأرض مكان ليس فِيه بيتٌ تشعُّ فيه إبتسامتها وتفيضُ جداول حنانها.

كُلُّ محبّة يعتورها الفساد ويتطرّق إليها النقصان إلاّ محبّة الأمّ فهي كالنُّور لا يفسدُ ولا يَنْتُنُ.

ليكُنْ ابنها دميم الوجه فهو عندها الأعز الأكرم.

ليكن شريراً أو مجرماً فهو ابنُها الذي يجب أنْ تحبّه بكُلِّ جوارحها وأنْ تفيضَ عليه حنانها ورأفتها.

يستطيع النَّاس أنْ يُبْغضُوه وأنْ يخافُوه وأنْ يطاردُوه بالجند والشرطة. أما هي فلا تقدر إلاّ أنْ تحبه وأنْ تكون له ملجأ ونصيراً.

وليكُنْ ابنها عالماً كبيراً أو قائداً خطيراً أو مخترعاً شهيراً أو غنياً فإنَّ سرورها به وإنْ لم تحصل لِذاتِها على شيءٍ منْ ثروتِه أو شهرته أو مجده أعظم مِنْ سروره هو بما حصَل وكسب وأدرك.

تشيب الأم وتهرَم مِن السَّهرِ على أولادِها ومِنَ المخاوف والهواجس والهُموم التي يجلبونَها لها ولكنّها تظلُّ تحبّهم حتى كأنّما هي لا يجوز لها أنْ تبقَى على قيد الحياة إلاّ إذا أحبّتهُم.

فكِّر قليلاً تجد أنَّ الجندي الذي يغامرُ بروحِه مِنْ أجل بلاده ودولته ليس بأسخَى ولا أكرم مِنَ الأم التي تجودُ بروحِها كُلَّ يوم في سبيل اولادها.

وإذا سمعْتَ برجلٍ غني يتصدَّق بالملايين فاذكُر أنّه دونَ الأم في الجُود والسَّخاء فإنَّ الإبتسامة التي تنبثقُ مِنْ شفتيْها هي أثمَنُ مِنْ أكوامِ الذّهبْ والدَّمعَة التي تنحدرُ مِنْ عينيْها هي أزكى مِنْ دمِ أيّ شهيد. لأنّها لا تبتسم ولا تبكي إلاّ صادِقَة..

إنّها تهينُ نفسها ليتمجّد ابنها وتضنِي جسدها لكي تصونَ جسده. وتفنِي حياتها لعلّها تزيد في حياتِه.

يهاجرُ الإنسان مِنْ وطنِه ويضربُ في مناكِبِ الأرض وتحول بينَه وبينها البحار والجبال. ويستغرق في المشاغِل والمطالب والمشاكل. فينسَى أترابَه وأصحابَه وتغيبُ عنه صور المنازل والمراتِع التي كان فيها ولَكِنَّ صورة واحدة لا تنمحِي مِنْ ذاكرته ولا تغيبُ عن مخيّلَتِه وهي صورة أمّه!

وإذا وقَع في محنة وخذلَه الرِّفاق والعشراء وانفضَّ عنه الأصدقاء رفع بصره إلى السَّماء يستنجدُ الله ويطلب منْه المعُونَة. وإذا مشَتْ روحه في الأرض تبحثُ عن الإله الصغير. عن أمِّه يستمدُّ مِنْ ذكراها رجاء لنفسِه اليائسَة. وقُوَّة لهمَّتِه الخائِرَة. وعزاء لقلبه الحزين. ويجدُ هذه كُلّها في ذكراها كما كان يجدُ عندها العطفَ والسَّماح والغذاء والرِّداء. وهْوَ طفلٌ بين يديْها وأمام عينيْها.

السَّمير: 11/ 5/ 1940

سَمِعْتُ

«سمعْتُ» هي الكلمَة التي يُفتتَح بها كُلُّ قول مصنوع، وخبرٌ ملفّق، وحديثُ مُفْتَرَى[1]، يمشي بها في الأرض أحد رجلين. إمّا داعيَةُ سوء تغلغلَ المَكْرُ[2] في عروقِه مع الدم، وإمَّا رجلٌ مأفُون[3] استحكَمَ الإسترخاء في عقلِه وأخلاقِه فهْوَ يتلقَّفُ كُلَّ قول يطُنُّ في أذُنَيْه، ويردِّده كما يردِّدُ الحاكي نغمَة الفرح ونغمة الأسى على حدٍّ سواء.

كم مرَّة دَخَلْتَ أيها القاريء إلى بيْتٍ فلمَّا خرجْتَ وسُئِلْتَ عمَّا رأيْتَ فيه تذكَّرْت كثيراً مِنَ الأمتعَة والصُّور والآنيَة التي رأيتَها. ولكنَّك لم يخطُر في ذهنِك أنْ تتذكَّرَ الباب الذي دخلْتَ منْه وخرجْتَ.

وكلمة «سمعْت» في كُلِّ حديث مبدوءٌ بها كالبَاب في البيت يلتهِمُها النِّسيان كأنَّما لم يجر بها لسان ولا دخلَتْ أذناً، ويبقَى بعدها الحديث المفْتَرَى كأنَّه أمرٌ واقع فعلاً!

إنَّها كعود الثِّقَاب يضرِمُ النَّار الهائِلة فتلتهِمُ المدينة الكبيرة العامرَة وهو شيء لا تكاد تراه مِنْ مسافة أمتار! وإذا أصبحَ البلد قاعاً صفصفاً[4] بحثْتَ فلمْ تجدْ لعُود الثِّقاب أثراً.

إنِّني والله لا أحذر الأسد الضَّاري[5] إنطلَقَ مِنْ عرينِه في طلبِ الفريسَة كما أحذرُ هذا الذي يأتيني متكلِّفاً الإبتسام ويقول لي: سَمعت.

ولا أتَّقِي العدوَّ يبرز لقتالي بالحديد والنَّار كما أتَّقي الرجل يعرفُ مِنِّي أنِّي لا أثِقُ به فيقول لي: سَمعت...! يتَّخذُها دريئَة لكي ينجو مِنْ التَّبِعَة ويتفلَّتُ مِنَ العُقْبَى[6]!

تقولُ له مِمَّن سمعْتَ هذا الحديث وأين سمعتَهُ؟ فيتبرَّم بسؤالِك ثم يلتبس الإباء والشَّمم ويتصنَّع المُرُوءة[7] والخلق العالي. فإذا أحرجتَه وتضايقَ قال لك: ليتني ما أخبرتك! ثمَّ يعتذِر عن التَّصريح بأنَّه

---

1 فرى كذبا خلقه وافتراه اختلقه.

2 المَكْر: الاحتيال والخديعة.

3 المأفُون: أفِنَ فلان نَقَص عقله فهو مأفون.

4 الصَّفصف: المستوي من الأرض لا نبات فيه.

5 الضَّاري: من السِّباع المولع بأكل اللَّحم ج ضَوار.

6 العُقبى: اليوم الآخِر أو المرجع إلى الله، وجزاء الأمر ويقال: لَك العُقبى في الخير.

7 المُروءَة: الإنسانيَّة.

لا يحب أنْ يُرْوى الحديث عن لسانِه. ويعلم الله وملائكته أنَّ ذلك الحديث لم يدرْ به لسان قبل لسانه ولم تتمثَّل صورته في ذهنِ قبل ذهنه، وأنَّ له مِنْ صنعه أرَباً[1]. وله مِنْ دسِّه في أذنك لُبانَة[2]. ولكنَّه لم يجدْ سبيلاً إلى قضاء وَطَرِهِ[3] إلاّ هذا السبيل..

وتُقْسم عليهِ أن يخبركَ ممَّن سمعَ الحديث وتحلف له الإيْمَان المُغَلَّظَة[4] أنَّك لن تذيعَ ممَّا يقولَ لك شيئاً فيزداد إمتناعاً ويزداد تأبياً. ويبدو الإنقباض على وجهه. بينما قلبه يرقص ونفسه تضحكُ لأنَّ سحره سَرَى في نفسِك وهَيَّجَ فيها حُبَّ الإستطلاع.

وتُلِحُّ عليه أنْ يسمِّي لك الشخص الذي فاه بما نقل إليك. فيتملَّص منك قائلاً: كنت أودُّ أنْ أسمِّيَه لتعرفَ عدوَّك مِنْ صديقِك. ولتعلَمَ ما في أخلاق النَّاس مِنْ ضَعف.. ولكنِّي أخشى إذا أنا سمَّيْتُه لك أنْ تذهبَ إليه وتعاتبَه.. أو أنْ تحقدَ عليه وتغاضبَه.

وهكذا يترك الخبيث الحديث المكذُوب في نفسِك كأنَّه لقيطٌ طرحَه شخص مجهُول في الظلام على باب مستشفى أو درج كنيسة وفرّ.

وتجلس بعد ذهابه إلى نفسِك تسائِلُها وتستحضِرُ إلى ذهنِك صُور أصحابِك وجيرانك وتسيِّرها موكباً موكباً في مضيق الظُّنون والرِّيْب لعلَّك تهتدِي إلى المفتئت عليك والمسيءُ إليك. فتظلِم كثيرين مِنْ أصدقائِك. ويُداخلُك الرِّيْب في إخلاص إخوانك. ويوغِرُ[5] الوَهْم صدرك على أكثر جيرانك. وقد يتمادَى بك الغيْظ فتنقم على النَّاس أجمع حتى تتلاشَى كُلّ صورة جميلَة في نفسِك للصَّداقَة والجوار. وحتى ينقَلِبَ النَّاس في نظرك ذئاباً لا ترعى عهداً. ولا تصون ودّاً.

وكثيراً ما همَمْتَ بانْ تستطلع الحقيقة مِنْ بعض النَّاس الذين لم تتزعزع ثقتِك بهم فيمنعكَ مِنَ التحرِّي والإستقصاء قولة النَّاقِل أنَّه يكره أن يُروى الحديث عن لسانِه. ولا يدورُ في خلدِك[6] أبداً أنَّ ذلك الخبيث لم يضعْ هذا الإستدراك إلاّ ليلجم لسانك ويكبِّل نفسك. لأنَّك إذا ذهبْتَ تستقصِي الأمر الواقع لم تجدْ أحداً عندَه خبر عن ذلك الخبر إلاّ الذي نقلَه إليك!

وكلمة السوء لا تسرعُ في الإنتشار فقط بل هي كلَّما إنتشَرتْ نَمَتْ حتى تتحَولَ في ساعة مِنْ شرارة إلى أتُّون. ومنْ حصاة إلى جبل!

السَّمير: 17/ 8/ 1940

---

1 الأرَب: الحاجة.

2 اللُّبانة: الحاجة.

3 وَطَر: الوطَر الحاجة ولا يُبْنى منه فِعْل وجمعه أوْطار.

4 المُغَلَّظَة: غَلَّظ اليمين قوّاها فهي مغَلَّظَةٌ.

5 أوغر صدره: الوَغر الحقد الضِّغْن والعداوة والتوقّد من الغيظ.

6 الخَلَد: البال والنَّفْس ومنه يقال: لم يدر في خَلَدي كذا ج أخلاد.

ما رأيت وما سمعت

مضَتْ أربعة أسابيع وأنا غائِب عن إدارة «السَّمير» بالجسم لا بالرُّوح. فهي البيت الذي بنيْت. والحديقة التي غرسْت. ولا يغيبُ عن المرء بيتٌ بنى. ولا حديقةٌ غرس.

هجرتُها وفي النَّفس ملَل مِن القلم والحبر والأوراق. كالمَلَل الذي يعتري أيَّ إنسان مِنْ أمرٍ طال اشتغاله به وإنْ كان جميلاً في عينيْه وحبيباً إلى قلبه.

ولكنّني ما كِدْتُ أسلخ بضعة أيّام حتى راجعَني الحنين إلى هذا المنزل الروحي.

إلى المكتب الذي لا يكاد يعرى مِنَ الأوراق والرسائِل والجرائِد والمجلاَّت حتى يعود فيرتدِي منْها جلباباً فوق جلباب.

إلى المطبعَة التي تلوح وهي ساكنَة كأنَّها جيش متأهِّب لخوض المعركة عند أوَّل إشارة مِنَ القائِد فإذا تحرَّكَتْ ودَارَتْ اللَّوالِب على اللَّوالب فهي كالكنار الحبيس لا يستريح حتى يفرغ مِنْ حُنْجرته كُلَّ الأشجان التي في روحِه تغاريد وأناشيد.

إلى ركْوَة القهوة النُّحاسيَّة التي لا تنفكُّ مُحتجبَة كالغَادَة الحسناء في خدرِها حتى يطرقَ الإدارة زائِرٌ أو يأتي صديقٌ فتخرج لإستقبالِه مِنْ حولها الأكواب وفي جوفِها ذلك الشراب. ما أكرمَها. لا تضحكُ جوانبُها إلاّ إذا وهَبَتْ كُلَّ ما فيها.

إلى الرفاق الأعوان الذين تُلقَى إليهم الأخبار والأفكار أوراقاً مُتناثرة فلا تنقضِي بضع ساعات حتى تنتظِم تلك الأوراق المُتناثرة فتصير حديقة سائِرَة يحملها البريد إلى كُلِّ أنحاء الأقطار الأميركيَّة وكنْتُ أقول أنحاء العالم لوْ أنَّ السفن اليوم تمخرُ البحار كما كانَتْ تجتازها قبل الحرب.

إلى الأصحاب والعشراء الذين يتردَّدُون إلى إدارة «السَّمير» أو يحملُ سلك التلفون أصواتهم إلينا.

إلى رسائِلِ الأنصار والأصدقاء التي ينقلها البريد فيفُوح مِنْ سطُورِها عبير الوفاء. ويشرقُ في حواشيْها نور الإخلاص.

أجل شعرت بوحشة عندما فارقْتُ الإدارة غير أنّي وجدْتُ في الأصدقاء الذين لقيتهُم وما غمرُوني به مِنَ الحفَاوَة أُنساً كثيراً.

ورأيْتُ الصَّيف يعرضُ محاسنَه الفتَّانَة وينشدُ قصائدَه السَّاحرة في الأوديَة والجبال وعلى شواطيء الأنهر والبحيْرات غير متصنِّع ولا مُتكلِّف. ولا شيء يجلب الغبطَة والحُبُور إلى النَّفس المضنُوكَة مثل الإستغْراق في هوى الطَّبيعة. والدُّخُول إلى هيكلِها لعبادتها. فكم غسلَ النَّظر إلى الماء المُتماوج الشَّادِي مِن هموم. وكَمْ مِنْ نظرَةٍ إلى القمر في ليلةٍ صافيَة رفعَتْ إلى العلاء روحاً كانَتْ مِنْ متاعِب الحياة كأنَّها في حبس.

إنَّ اكثر النَّاقمِيْن على الدُّنيا وعلى النَّاس هُم الذين سُدَّتْ السُّبُل دونَهُم. أو حَبسُوا هم أنفسهُم فغابَ عنهم الجمال في الحياة كما خَفِيَ عنهم الجمال في النَّاس.

وكيف يبلغُ الإنسان شيئا لم يسعَ إليه؟

ولقد كنْتُ وأنا مسافرٌ أفكرُ بـ «السَّمير» حتى وأنا مأخوذٌ بجمال الطَّبيعة. ولا تغيبُ عنّي حتى وأنا مغمُور بعواطفِ الأصدقاء. فإذا حانَ موعد صدُور «السَّمير» تساءَلْتُ هل صَدَرَتْ؟ وإذا أضنَكَني الحرُّ. وقد كان شديداً طِرْتُ بالخيال إلى الإدارة وأنا أقول في نفسي: كيف حال الرِّفاق في هذا الحرّ.

ولكنِّي لم يخامرني الشَّكّ لحظة في أن القائِمِيْن بأعباءِ «السَّمير» في غيابِي هم مِنْ خِيْرَة الرِّجال الأَكُفَّاء ذوي المقدرَة والخبْرَة. فعلى سياسة الجريدة وإدارتها شقيقي الكاتب المعرُوف مراد أبو ماضي وعلى الترجمَة الكاتب القدير الممتلِيء حميَّة ونشاطاً راجي ضاهر. فضلاً عن الكُتَّاب الذين اتَّخذُوا «السَّمير» مسرحاً لأقلامهِم. وعلى إدارة المطبعَةالأديب الخبير شكري كنعان يعاونه فتى الهمَّة والغِيرَة جان رومية.

وإنَّ جريدة تلتقي فيها هذه القلُوب المخلصَة والأيدي العاملَة والعيُون السَّاهرَة لهي في حرزٍ حريز غابَ صاحبُها أو حضَرْ. فأنا الآن مثلما أشكرُ الأنصار الذين كانُوا لي عوناً في رحلَتي أشكرُ هؤلاء الرِّفاق الذين كانُوا وما برحُوا يتعهَّدُون «السَّمير» بعنايتِهم ومحبَّتهم وإخلاصهِم.

وليسَتْ هذه الكلمَة إلاّ بمثابَة [1] تمهيد لكلمات ستجيء.

السَّمير: 19/ 8/ 1940

ما رأيْت وما سمعت

منتزه ديترويت ـ ناسك فلنت ـ ليلة في بورت هيورن مشغن

لا أدري إذا كان سكان مدينة دترويت يعرفُون قيمَة المنتَزَه البديع المعرُوف باسم «بل ايل» الذي يشعرُ الإنسان فيه كأنَّه قد انفصلَ عن دنيا الزّحام والضَّوضاء وصارَ في عالم بعيد مع أنَّ ذلك المُنتَزَه جزء مِنَ المدينَة. وكنْتُ أحسَبُ أنَّه أرضٌ أميركيَّة غير أنّي عرفْتُ أنَّه في الأصل أرضٌ كنديَّة استأجرَتْها حكومة دترويت لتسع وتسعين سنَة. لا تسأل لماذا لا تُكْتَب هذه العقود لمائة سنَة كاملة بدل التِّسع والتسعين. فهذه مسألة يعرفُها المحامُون ولا يبالِي بها الشُّعراء!

ولكن سلْنِي عَنْ تلكَ البُقعَة فأُخبِرْكَ أنَّها جنَّة نضرة فيها للصَّالحِين ولغيْر الصَّالحين مكان. هذا إذا جاؤا قبل أنْ تتهافَتَ الجماهِيْر إليها هاربَة مِنَ الحر اللاَّهب.

---

1 مثابة: المثاب والمثابة البيت الملجأ الجزاء والمثابة الموضع الذي يثاب إليه مرَّة بعد أخرى ومنه سمِّي المنزل مثابة.

فيها تتلاقَى الطَّبيعة والإنسان. فحيثُمَا تعالَتْ شجرة رأيْتَ موقِدَة ورأيْت ناساً. حتى كأنَّما القوم المُتحضِّرون يتحوَّلُون في المساء إلى جماعَات مِنَ البَدو ولكنَّهُم لا يحتاجُون إلى حجارةٍ يبنُون منْها مواقِد لأنَّ الحكومَة قد كفتْهُم هذا الأمر فنصبَتْ المواقِد الحجريَّة في كُلِّ ناحيَة. ولا يحتاجُون إلى الخيَام لأنَّ الأشجار الباسقَة تغنيهُم عنها.

لكُلِّ غني حديقة حول قصره يخرجُ إليها للَّهو أو للشَّراب ولكن «بل ايل» كلّها بأشجارِها ومروجها ومياهها لكُلِّ إنسانٍ سَواء كان غنياً أم فقيراً.

وعندي إذا كانت لحكومة دترويت حسنَات تحصيها فهذا المُنتَزَه هو أعظَم وأجمل حسناتها.

وإلى جانب هذا المُنتَزه بُحَيْرَة كبرى هي هناك الحد الفاصل بين الولايات المتَّحدة وكندا. فهي في هذا الشاطيء تلثم أرضاً يظلِلُها علم الخطوط والنُّجوم. وفي الجانب الآخر تلثم أرضاً يخفُقُ فوقها العلم البريطاني. وفي النَّهار يسيلُ فيها ذهبُ الشَّمْس التي تغمرُ الشاطئيْن وما وراءهُما على حدٍّ سواء.

هناك يحتشد النَّاس كُلَّ ليلة كأنَّهم في مهرجَان وإنَّما ليس هناك خطباء إلاَّ الشَّجر. ولا مُنشِدُون إلاَّ النَّسمَات. وأحسن مِنْ هذا كُلِّهِ أنَّ التِّجارة محظور عليها الدُّخُول إلى هذه الإجتماعَات لأنَّها تكاد تكون في جملتها عائليَّة..

هناك يلتقي الأصحاب بالأصحاب مُتفلِّتين مِنْ هُموم المدينَة ومتاعب العمل والتِّجارة. ويرجعُون أخيراً إلى منازِلِهم وقد اكتسَبَتْ أرواحهُم نشاطاً وقلوبهُم فرحاً وامتَلأتْ رئَاتهُم هواءً نَقياً.

ليتَ في كُلِّ مدينة مُنتزَه مثل «بل ايل». جميل وقريب ولا كلفَة [1] فيه ولا عناء في بلوغِه. فإنَّ النَّفس يفسدها الزِّحام.

السَّمير: 21/ 8/ 1940

يوم العمَّال

نكتب هذه الكلمة والسَّماء غائِمة تأبَى ان تنزَعَ عن وجهِها هذا البرقع الأسود. كما تأْبَى أن تنقطِع عن البكاء.

حالة شاذَّة غريبة لأنَّها في غيْرِ أوانِها فما تعوَّدَ النَّاس أنْ يلبسُوا في آب ثياب كانون ولا أنْ يفتحُوا عيونهم في مثل هذه الأيَّام إلاَّ على فضاء متألِّق وسماء سافِرَة.

وقد أصابَ النَّاس الذين ذهبُوا للإصطيَاف في الشواطيء والجبَال العاليَة هرباً مِنَ الحر. ما أصاب

---

1 والكلفة ما يتكلّفه الإنسان من نائبه أو حَقّ.

الذين ذهبُوا إلى فلوريدا في الشّتاء هرباً مِنَ البرد. فقد لقِيَ هؤلاء في فلوريدا الشيء الذي هربُوا منه أمّا الذين قصدُوا إلى الجبال ليستقبِلُوا فيها الهواء المعتَدِل والنُّور الضّاحي فقد استقبَلَتْهُم الجبال بالغيوم والأمطار والهَواء البارد.

والآن يهُمُّ السَّواد الأعظم مِنْ سكان المدينَة بالإنطلاق منْها ولكنَّهم كلَّما تطلَّعُوا إلى السَّماء ورأوا ما فيها مِنْ غيوم كالِحَة غضْبَى فترَتْ عزائِمهُم وانكمشَتْ الرَّغائِب في صدورهِم. وراحُوا يقولُون لأنفسهِم: إذا كانت هذه هي الحالة في المدينَة فكيف تكون في الجبل العالِي والشاطيء المكشُوف.

وهذا كُلّه دليل على أنَّ المرء يخطيء عندما يقيِّد نفسه بيوم معلوم في السَّنة لينقطِع عن العمل ويخرج للرَّاحة أو للنزهة. كأنَّما هو قد أخذ على الطَّقس مَوْثِقاً[1]. فإنَّ أكثر ما تجيء الخيبَة مِنْ هذا السبيل أو سبيل مثله.

كم مِنْ عمل أرجأهُ صاحبه إلى غد لاعتقادِه أنَّ المجَال سيكون أرحب. وأنَّه هو سيكُون أكثر تهيؤاً للعمل. فلمَّا جاء اليوم التالي عرضَ له أمرٌ آخر صرفَهُ عمَّا كان ينْوِيْه.

لماذا يجب علَيَّ أنْ ألبثَ مقيماً في المدينَة لأنَّ جاري لَمْ يذهب بعد إلى المَصِيف[2]؟

ليسَتْ صحَّة جاري صحَّتي. ولا جيبه جيبي. ولا ظروفه ظروفي. أمَّا إذا كنْتُ أذهب إلى المَصيف لأرى جاري هناك فأنا ذاهب لأراه لا لأستفيد راحة وأكسب عافيَة.

لماذا يجب أن اؤجِّل الذِّهاب إلى المصيف إلى «يوم العمَّال» وهو يوم تكتظُّ فيه الطرق بالسيَّارات والقُطُر بالنَّاس إلى درجة تضنك روح المسافِر. وتشوِّش عليه سكينتِه. فيُمسِي مشغولاً بالنَّاس وهُوَ إنَّما غادَرَ المدينَة لكي يهرب مِنَ النَّاس ومِنْ زحَام المدينة وضوضائِها.

ويبلغ بعد جهدٍ ومشقَّة إلى القرية التي يقصدها فإذا هي قد تحوَّلَتْ لكثرة النَّاس فيها إلى مدينَة ليس فيها وسائِل الرَّاحة التي في المدينَة. وإذا به يهرب مِنْ زحَام منظَّم إلى زِحام غير منظَّم ومِنْ جلبَة مألوفَةٍ إلى جلَبَةٍ مُزعجَة لأنَّها غير مألوفَة.

إنَّ كثيرينَ يتذمَّرون ويتأفَّفُون في هذا اليوم مِنْ رداءة الطَّقس. مِن السَّماء المُكفهرَّة. مِن الغيوم المُنذرَة بالمطَر. ولكن لعلَّ لله حكمة خفيَّة في ذلك. وربَّما كان الأفضل للمُتأفِّفين أنْ يبقُوا في المدينَة إلى يوم آخر غير يوم العمال الذي لا ندري لماذا لا يدعى «يوم النَّاس كلّهُم» لأنَّه غير مقتصر على العمَّال وحدهم بل ربَّما كان العمَّال هم الفئة الأقل في مواكب الهاربيْن مِنَ المدينَة في ذاك اليوم!

بل نحن لا ندري لأيِّ شيء يذهب النَّاس في هذا اليوم إلى الجبال أو الشواطيء ألِكَي يستقبِلُوا الصَّيْف وقد أوشكَ أن يحتضِر؟ أم لكي يودِّعُوه وهذا أمر ميسُور لهم حيث هم.

وأخيراً إنَّ الأيَّام الجميلة ليسَتْ التي تحدِّدُها الروزنامَة فكلُّ يوم له جماله وإنَّما على الإنسان أنْ يفتحَ

---

1 المَوْثِق: المِيثاق.

2 المصيف: مكان الإِقامة في الصَّيف ج مصايف.

عينيهِ على هذا الجمال. ولكنَّ أكثر النَّاس يتابعُ بعضهُم بعضاً حتى في الأمور التي لا يحسنُ فيها إلا الإستقلال.

السَّمير: 31/ 8/ 1940

نقطة الحبر

يا لها مِنْ قطرةٍ مسحُورة!

إنَّها ليستْ ماء يشربه العِطَاش ولكنها تروي أحياناً كالماء النَّمير[1]. وتروي وهي قطرة صغيرَة جماعات وجماهير.

وليستْ خمراً. ولكنَّها تسكِرُ أحياناً كالخمر.

والغريب فيها أنَّها وهي ماءٌ سائِل بارد فيها حرارة كالجمر بل أينَ منها في بعضِ الأحيانِ حرارة الجمر.

والأعجبُ الأغربُ أنَّ فيها نوراً وضَّاحاً مع أنَّها سوداء داجيَة كاللَّيل الذي توفيَتْ نجومه!

أجل إنَّها يا صاحبي نقطة الحبر!

هي جرمٌ صغير ضئيل متلاش مُضمحِل ولكنْ كم فيها مِنْ خيْرٍ كبير وكم فيها مِنْ شرٍ مستطير[2].

تتلاشى ولا يتلاشى أثرها

وتنطمسُ وما تركتْهُ في العقُولِ والقلُوبِ باقٍ

هي تلك القطرةُ المائِعَة

ولكنْ كم زلزلَتْ كياناً وزعزعَتْ بُنْياناً. وضَعضعَتْ عقيدة وأضعفَتْ إيماناً.

وأحيانا تشيدُ الكيانَ وتوطِّدُ البنيانَ وتقوِّي الإيمانَ.

هي التي يدوِّنُ بها المرء أحبَّ الأسماءِ إلى نفسِه. كما يرقِّمُ أقبحَ النعوتِ والصِّفاتِ.

بنقطةِ حبرٍ واحدة يكتبُ الذَّليلُ صكَّ عبوديَّته أو صكَّ تحريره! وبنقطةِ حبرٍ واحدة يعلنُ المرءُ إمَّا فضائله وإمَّا رذائله!

بنقطة حبر واحدة يمهرُ الحاكمُ طِرْسَ[3] العفوِ أو طرسَ الإعدام

وبنقطة حبرٍ يكتبُ التَّاجرُ حوالة فيها عدة أرقام!

---

1 الماء النَّمير: وماء نمير أي ناجع عذباً كان أم غير عذب.

2 المُسْتَطير: اسْتُطير فؤادُه أصابه ذُعْرٌ وفَزَع.

3 الطِّرس الصحيفة ج طُرُوس.

هي أحياناً سمّ قَتّال وأحياناً تِرْياق[1] شافٍ
وهي أحياناً جالبة الغنى الوفير. وأحياناً جالبة الفقر المُدْقِع[2].
وهي أحياناً لا قيمة لها ولا نفع ولا ضَرَ.
يشمُّ رائحتها بعض الأدعياء فيسكرُون ويتصوَّرُون أنَّهم صاروا مِنْ فَطاحل[3] الكتَّاب والمنشئين وأساطين[4] الشعراء. ويستفيق كُلّ شارب مخدِّر[5] وهؤلاء لا يستفيقُون!
إنَّ هذا شَرّ في الأرض مصدره نقطة الحبر!
ويجري بها قلم العَبْقَري[6] الموهُوب في القرطاس فإذا للنَّاس إمَّا صورة ساحرَة. أو قصيدة رائعَة. أو فكرَة عالية. أو لحن فاتِن.
هذا خير. مصدره نُقْطة الحِبْر!
لولا الحِبْرُ لَمْ يؤدّ القلم رسالة. ولا كان للمطابع فائدَة مِنْ وجودِها ولم يحتشد كلام في قرطاس.
فهو ذو فضل عميم على الحضارة والإنسانيّة ولكنّ النَّاس لا يذكُرون فضل الحِبْر الذي لا غِنَى لهم عنْه. ويتغزَّل شعراؤهم وكتَّابهم بالخَمْر!!
ويكتبُون قصائدهُم بالحِبْر!
وربَّما ذمَّ بعضهم الحبر وشتمَه لأنَّ نقطة منه وقعَتْ على ثوبه. أو كمّه. أو ورقة مِنْ أوراقِه.
أمَّا فضائِل الحِبْر وحسناته فنسيٌ منسيّ عند أكثر النَّاس حتى الذين يصنعونه ويربحون مِنْ صنعِه الملايين مِنَ الدولارات. وحتى الذين لا يستطيعُون مُزاولَة صناعتهم إلاّ بالحِبْر!
فيا لَلْحِبْرِ مِنْ محسنٍ مغبُون!؟

السَّمير: 7/ 9/ 1940

الغائب الحاضر

بالأَمْسِ إنشقَّت الأرض في مقبرة غرينوود في بروكلن فإذا هناك حُفْرة ضَيّقة يغيب فيها رجل كانَتْ الأرض كلّها له ميداناً. وكانَتْ هِمَّتُه تطاول النجُوم.

---

1 التِّرْياق: دواء السُّموم فارسيّ معرَّب.
2 المُدْقِع: يقال دَقِع الرَّجل بالتراب أي لَصِق بالتراب ذُلاً. وفَقْرٌ مُدْقِع أي مُلْصِقٌ بالدَّقعاء (أي التُّراب).
3 الفِطْحَلُ: الضَّخم الممتلئ الجسم، والسَّيل العظيم ج فطاحِل ويقال لِكبارِ الشّعراء والعُلَماء فطاحِل.
4 أساطين: أَساطين العلم أو الأدب والثّقات المبرّزون فيه المُفْرَد أَسْطُون.
5 المخدِّر: مادة تسبّب في الإنسان والحيوان فِقْدان الوعي بدرجاتٍ متفاوتة ج مخدِّرات.
6 العبقرِيّ: عَبْقَر موضع تزعم العرب أنّه من أرض الجنّ ثم نسبوا إليه كُلّ شيءٍ تعجَّبوا من حِذْقه أو جَوْدَة صنعته وقوَّته فقالوا (عبقري).

وبعد أيّام معدُودَة يمرُّ المرء مِنْ هناك فيرى العشب الأخضر يغطّي ذلك الضَّريح بحيث لا يبقَى فرقٌ بينه وبين أي قبر آخر حتى القبُور التي انقضَتْ عليها عشرات السنين فإن الأرض لا تميّز بين دَفين ودَفين. فالغَنِيَ والفقير. والصُّعْلُوك والأمير. والفتى والشيخ كُلُّهم هناك سَواء.

وبالأمس تألَّبَ النّاس بالمئات حول تلك الحفرة واليوم ليس هناك غير الشَّجر الصامت والفضاء الباهت وأعشاب كلّما مرَّ النسيم مال بعضُها على بَعْض كأنّها تتناجَى وتتهامس قائلة:

«أيُّ فرق بيننا وبين النّاس الذين كانُوا هنا؟ إنَّنا نحيا ونموت. وهم يَحْيَوْن ويموتُون. هم مِنَ الأرض وإليها يرجعُون. ونحن منها وإليها».

أجل. إنَّ الإنسان وإنْ عمَّر طويلاً لا بُدَّ له أخيراً مِنْ أنْ يَضْطجعَ في القبر. وأنْ يصيرَ شأنُه كالعشب وأنْ يَصيرَ في التُّراب تُراباً.

ولكنْ إذا كان القبر هو خاتمةً في حياة العُشْب [1] فهْوَ ليس كذلك في حياة الإنسان.

وإذا كان النّاس الذين احتشدُوا بالأمسِ حول ذلك الضَّريح ليسُوا الآن هناك فإنَّ ساكن الضَّريح الآن مع كُلٍّ واحد منهم.

إنَّه يعيش في قلوبِهِم وأذهانِهِم.

هو في الأرض ضمير مُستَتِر غير أنَّه صورة بارزَة في أذهان الذين كان بينهُم.

إنَّه يحيا الآن فيهم كأنَّه لم يمت. فهو بعيد ولكنَّه قريب. وهو غائب ولكنَّه في الوَقْت ذاته حاضر.

والذِّكْر للإنسان عُمْر ثاني.

ولا سيَّما الذِّكْر الجميل.

وميزة الإنسان صاحب الميْزات الكثيرة أنَّه يتذكَّر فيستحضر عصراً فات. أو صديقاً مات. أو مكاناً حالَتْ دونَه المسافَات..

لولا الذّاكِرَةُ لامَّحَتْ صورة الوطن مِنْ نفُوس المغتربِيْن وانطوَتْ صُور الأهل والعُشَراء والأحبَاب والأصدقاء.

لولا الذّاكِرَة لاضْمَحلَّتْ مِنْ ذهنِ المرء صورة المدرسة والمعلِّم والكِتاب والرِّفاق.

لولا أنَّ الإنسان يتذكَّر في يومِه كيف كان في أَمْسِهِ وأينَ كان ومَنْ كان معه. لكان عليه أنْ يبدأ في كُلِّ يوم حياة جديدة لا صلة لها بالحياة التي في اليومِ الذي سَبَق.

وفي حالة كهذه لا يَسْعَدُ في يوم مِنْ أيّام حياتِه.

لذلك نقول: إنَّ الصَّديق الذي فارقَنَا بالأمس لا يزالُ حيّاً بيننا وإنْ كان قد طواه القبر.

هو معنا لأنَّنا نقدر أنْ نتذكَّره ونحن سنتذكَّره كلَّما قيل: هذا رجل كريم.

---

1 العُشْب الكلأ الرَّطب ولا يُقال له حشيش حتى يهيجَ

وكلّما قيل: هذا رجل مُحسنٌ.

وكلَّما قيل: هذا رجلٌ صاحب معرُوف.

وكلَّما قيل: هذا عِصامِيٌ[1] سوَّدَتْـهُ نَفْسه.

فالكريم لا يموت. وإنْ مات فإنَّه يحيا في أحاديث النّاس وحكاياتِهم عنه. ثمَّ هو يحيا بما ترَكَ وراءه مِنَ الأعمال الصّالحة المُبَرَّرة في حياته.

لذلك سيحيا سليم ملوك فقيد الجالية ما دامَتْ هذه الجاليَة. وما دام النّاس يقدِّرُون الرجال العِصاميِّين.

سيذكره التجَّار ويترحَّمُون على الرفيق الذي كان في حومَة التِّجارة فاتحاً مِغواراً[2].

وسيذكره المهاجرُون قاطبَة[3] لأنَّه كان مِنْ رجالِهم العِصاميِّين الذين رفعُوا مكانتهم في المهجر وفي الوطن.

وستذكره المحافل والمجالس التي كان فيها موجة أدب وكياسة[4] وظَرف[5].

وما دام له هذا الذكر الجميل البعيد فأَحْرى[6] بنا أنْ نقولَ إنَّ القبر لم يَظْفَرْ منه إلاّ باللَّحم والدَّم أمّا تلك الشخصيَّة البارزة فلا تزال صورتُها الحسناءُ فوق التُّراب.

إنَّ الأعمال الطيِّبة لا تُلَفُّ بالأكفان ولا يطمرُها اللَّحد.

إنَّها كالنُّور والنُّور لا يبلَى.

السَّمير: 14/ 9/ 1940

إلى مونتريال

إلى البلد الأمين

إلى كرامٍ يراعُونَ المودَّة والجوار:

إلى المـُزدَادِ ودّهُـم لَـدَيـنـا   إذا زدنـا صـفـاتِـهِـمُ اخْـتِـبـارا

---

1 عِصامي: من سادَ بشرَف نَفْسِهِ.

2 المِغْوار: من الرِّجال المقاتل الشّجاع المِقدام الذي لا يخاف الموت في الحَرْب.

3 قاطِبةً: يقال جاء القوم قاطبة أي جميعاً.

4 الكياسة: الكَيْس ضِدّ الحُمْق والرَّجُل كَيِّس مُكَيَّس أي ظريف.

5 الظَّرْف: ظَرُف فلانٌ ظَرْفاً وظرافةً كان كَيِّساً حاذِقاً فهو ظريف وهي ظريفة.

6 فأَحْرى: الأَحْرى الأفضل والأَجْدَر.

بينما القرّاء يطالِعُون هذه الكلمَة في «السَّمير» يكون صاحب «السَّمير» في الطَّريق إلى مدينة مونتريال يطالع الكتاب الأكبر. كتاب الطَّبيعة المُبدِعَة التي لا تحجبُ روائِعها وآياتها عن أحد. ولا تُبدِيْها لأحد لِتَحْصُلَ منْه على كلمة استحسَان كما يفعل الإنسان.

هناك «حقول» أوسع مِنْ حقُول الجريدَة و«كلمات» مُتحرِّكَة مختلفة الأصباغ والهيئات هي الأشجار والأغراس والأعشاب.

هناك «أنهر» حافلة بالأحاديث المُدهشَة والأساطير الغريبَة والقصائد الرائعَة الخالدة التي تتجدَّد روعتها ولا تبوخ جِدَّتُها [1]. ولا يخفُّ تأثير سحرها.

سنخرج مِنْ نيويورك التي اشتهَرَتْ بضخامتِها وزحامها وثروتها إلى مونتريال التي اشتهَرَتْ بأريحيتها ومُرُوءتها.

سنفارقُ أصحاباً لِنلاقِي أصحاباً ونودِّعُ إخواناً لنستقبلَ إخواناً.

وإذا كنَّا سننعمُ بجمال الطَّبيعة في الطَّريق فإنَّنا سننعمُ بجمال النَّاس في تلك المدينَة.

سنذهبُ تلبية لدعوةِ القومسيون المِلِّي الكريم لكنيسة القديس جاورجيُوس الأرثوذكسيَّة في مدينَة الجبل الملوكي. ولكي نشارك أبناء الطائِفَة العزيزة في إحتفالِهم بتدشين الكنيسة الجديدة التي أنفقُوا عليها حوالي 75 ألف دولار.

سنكُون هناك باسم «السَّمير» وقرَّائها. ولتمثيل عمدَة الكاتدرائيَّة في بروكلن.

سنحملُ إلى مونتريال عواطِف الجاليَة هنا وإعجاب الجميع بالهِمَم البانيَة والعزائِم المُشيدَة. والقلُوب الكبيرَة.

كما إنَّنا سنحملُ إلى الأصدقاء تحايَا الأصدقاء.

وستواصلُ «السَّمير» مِنْ مونتريال بوصفِ ما نَرَى ونَسْمع في مدينَة القبَاب والصُّلبَان.

السَّمير: 26/ 9/ 1940

المرأة الثرثارة

لا أعرفُ شيئاً يَشِينُ المرأة كالثرثرَة. قد تكون حسناء الوجه رشيقة الهِنْدام [2] يقعُ النَّظر عليها محتشماً ويرتدُّ عنها متهيِّباً فإذا إندفعَتْ تتكلَّم أحسَّ السَّامع كأنَّ يداً غير منظُورة تمتدُّ إلى تلك المَلاحَة في الوجه فتعبثُ بها وتشوِّشُ نظامها. وإلى الكياسَة والرَّشاقَة في ذلك الهِنْدَام فتبعثرها في كُلِّ ناحيَة كأوراق

1 الجِدَّة جَدّ الشيء جِدَةً حدث بعد أنْ لم يكن فهو جديد.

2 الهِندام: وشيء مُهَنْدم مُصْلَح على مِقدار وله هِندامٌ معرَّب أَنْدام.

الخريف في ريحٍ صرصرٍ [1] عاتيَة.

ويكون في نفس السَّامع شيءٌ مِنْ روعَة الجمال فلا تلبث أنْ تتلاشَى وتضمحلّ وتَحُلّ مكانها وحشة كالتي يشعرُ بها المسافِر في أرض جرداء خاويَة مقفِرَة. ثمَّ تنقلِبُ هذه الوَحْشة إلى ضَجَر. والضَّجر إلى إستهجَان. والإستهجان إلى اشمئزاز. حتى يتمنَّى السَّامعُ لو لمْ تكن له أذنان لعلَّه يستريح مِنْ شقشقَة ذلك اللِّسان الذي لا يتعب مِنَ الدَّوران كأنَّه مُرَكَّبٌ فوق لوالب.

مِنْ ميزات المرأة الثرثارة أنَّها كثيرة الشَّكوى مِنَ الحاضر. كثيرة التلهُّفِ على الماضي. كثيرة الخوفِ مِنَ المستقبل. لا ترى في حاضرِها إلاّ ما يسوء. ولا في الماضي إلاّ ما يهيجُ الأسَى والشَّجَن ولا في المستقبَل إلاّ ما يدعُو إلى الحَذَر والحِسْبَان [2].

ومِنْ علاماتِها أنَّها دائمَة التَّذمُّر مِنَ الجيران والأنسباء والأصدقَاء. شديدة التَّأفُّف مِنْ شؤون المنزل وأعبَاء العائِلَة وقد لا يكون في المنزل عبءٌ سواها.

وهي كثيرة التَّرديْد لما تسمعُ مِنْ صادِق الأحاديث وكاذبها تكرِّرها على كونِها محض أحاديث. وسِيَّان [3] عندها كذبَتْ أم صدقَتْ وساءتْ السَّامع أم سرَّتْه. فهي إنَّما تتكلَّم لأنَّها لا تقدر إلاّ أنْ تتكلَّم. أمَّا هل يفيدُ كلامها معنًى أم لا يفيْد فذلك أمرٌ لا يخطر لها أن تفكِّرَ به.

حسبُكَ [4] أنْ تطارحها التحيَّة أو توجِّه إليها سؤالاً عادياً مألوفاً كأنْ تقول لها: كيف صحَّتُك؟ أو كيف زوجك وأولادك؟ فتمضِي تحدِّثك بما إتَّفق لها في يومِها وما حدث مِنَ الشؤون في أمسِها. وما كان يمكن أنْ يقعَ في اللَّيل لو لم تكنْ النوافذ مقفلَة. أو في الصباح لو لم تكن النَّوافذ مفتوحَة. أو في النَّهار لو لم تكن هي في المنزل. وتنتقلُ إلى الكلام على أولادِها وما فعلُوا مِنَ الأمور المُدهشَة التي يعجَزُ عنها الرِّجال الأساطين وإلى أولاد الجيران وكيف يجب أن يكونُوا. وكيف كان يمكن أن يكونُوا لو أحسنَ آباؤهم وأمَّهاتهم تربيتهم ولكنَّهم تاركونَ لهم الحبل على الغارب [5] فهُم يلعبُون في الشَّوارع وعلى الأرصفَة وتتعالَى أصواتهم حول البيوت. أمَّا أولادها فقد خلقهُم الله لهم أفواه تزدرد الطَّعام فقط أمَّا الكلام فلم تخلقْ أفواههم له!

وتصل الحديث عن أولاد الجيران بالحديث عن الجيران أنفسهم فتشرح لك شرحاً مسهباً [6] مفصَّلاً

1 ريحٌ صَرْصر: صَرْصَرَ صاح بصوتٍ شديدٍ متقطِّع. يقال: صرصر فلانٌ وصَرْصَرَ البازيّ.

2 الحِسْبان: حَسِبَ الشيء حِسْباناً ظنَّه.

3 سِيانِ السِّيَّانِ المِثْلان والواحد سِيٌّ.

4 حَسْبُكَ: حَسْبُ اسم بمعنى كافٍ يقال: مررت برجلٍ حَسْبُكَ من رَجُلٍ: كافيكَ.

5 الحَبْل على الغارِب: الغارِب الكاهل ويقال للإنسان: حبلكَ على غاربِكَ إذهب حيث شئت.

6 أسْهَبَ أكثر من الكلام وأطال.

ما صنعَ كُلُّ واحدٍ منهُم في كُلِّ ساعة مِنْ ساعات النَّهار وتنسى أنَّها أخبرتْكَ في أوَّل الحديث بأنَّ شؤون البيت تستغرقُ كل دقيقة مِنْ وقتِها بحيث تنسَى في بعض الأحيان أن تأكلَ في موعدِ الأكل.. إنَّها تنسَى نفسها أمَّا الجيران فلا تنساهُم.

وتظلُّ هي تتكلَّم ما دُمْتَ أنت مُصغياً. وليس في وسعِك إلاّ أنْ تصغي إذ ليس مِنْ حسنِ الأدب أنْ تَسِدَّ أذنيْك بإصبعيْك. ولا أنْ تعرضَ عنها بوجهِك. ولا أنْ تعتذرَ بأنَّك لا تبالِي بما ترويْه لك وتقصُّه عليك. وعبثاً[1] تحاول أنْ تَصْرِفَها عمَّا هي فيه إلى موضوع آخر. فكُلُ المواضيع عندها تتلاقى أخيراً في الموضُوع الذي يلذُّ لها الكلام فيـــه.

وقد يكون لك في النَّوم نجاةٌ مِنْ تلك الأحاديث التي إختلَطَ فيها الحابِلَ بالنَّابل[2] ولكن كيف ينَام المرء في العاصِفَة!

المرأة الثرثارَة آفة كُل مجلس لأنَّها تُفْسِدُ على القوم مجرى أحاديثهُم بما تحاول هي أنْ تتحدَّث به.

وهي كابُوس[3] على زوجِها لأنَّها لا تكترث لما يجولُ في نفسِه مِنَ الأفكار المُتعلِّقَة بشغلِهِ أو تجارتِه بل كل الذي يهمّها هو أنْ يسير معها في دنيا الأحاديث والنَّمائِم[4]. وأنْ يصغي إليها كما يصغي إلى نبي يتكلَّم!

وبعض النِّساء الثرثارات لا شرَّ في ثرثرتهن لأن قصدهن من وراء ثرثرتهن قَصْدٌ غير سيِّءٍ وإنَّما هي عادة تملَّكتهُن فصار مِنَ الصَّعب استئصالها. إنَّما هناك نساء ما تكلَّمنَ إلاّ خيِّلَ إليك أنَّ هناك حيَّات هائِجَة تنفث السُّم نفثاً. فهن لا يلقيْنَ حكمة إلاّ أرسلْنَ معها سهماً. ولا حَكَيْنَ عبارة إلاّ انطوَتْ على تعريض أو تنكيث أو تنديد أو شماتة نقلنَ معه بذور الفِتَن والقلاقِل والتَّشاغِب بين الصَّحب والجيران والأصدقاء.

إنَّ هذا الصنف مِنَ النِّساء كالدِّيناميت ولكنَّه ينفجرُ مِنْ تلقاء ذاتِه. وكالسُّم إلاّ أنَّه سُمٌّ يدري ما يصنع. وكالنَّار إلاّ أنَّها نارٌ تضطرم على إرادة منها ورغبَة.

هذه هي المرأة الهادِمَة التي تنبتُ الفِتَن تحت قدميْها أينَما مشَتْ. وتتطايَر مِنْ فمها النَّمائِم والسعايات تطايُر الحِمَم مِنْ فُوهة بركان ثائِر..

هذه هي المرأة التي إذا أصابَتْ آمِناً فعلَتْ به ما تفعل الأفعى.

ومِنْ حسن حظ المجتمَع الإنساني أنَّها اليوم كالأفعَى لا وجُود لها إلاّ في الأماكِن التي تشبه

---

1 العبَث العمل لا حكمة فيه ولا فائدة.

2 الحابل الصائد بالحِبالة ويقال: اختلط الحابلُ بالنَّابِلِ: اضطربت الأُمور. والنَّابل: النَّبل السِّهام العربيّة وهي مؤنَّثه ولا واحد لها من لفظها وقد جمعوها على نبال فأنبال والنَّابل الذي يعمل النَّبل.

3 الكابوس: ما يقع على الإنسان باللّيل ويقال هو مقدِّمة الصَّرْع.

4 النَّميمَة: نَمَّ الحديث أي قتَّهُ. والرَّجل نَمٌّ ونمَّام أي قتَّات. والقَتُّ نَمُّ الحديث.

الغابَات والأحراج.

قلت إن الثرثرَة عيبٌ كبير في المرأة وأزيد على ذلك أنّها في الرجل عيب أكبر.

وهي في الإثنين تنشأ في الغالِب عن جهلِ صاحبها بالشؤون التي لا مساس لها بشؤونه الخاصّة ورضاه واقتناعه بما يتردَّد حوله مِنَ الأصوات والأحاديث والشُقْشقَات فهْوَ لا يقرأ الكتب ولا يختلف إلى مسارح التمثيل. ولا يطالع ما تفيض به العقُول المفكرَة ولا يحاول أن يخرجَ مِنْ دنيَاه الصَّغيرة الضَّيِّقة أو يوسِّع تخومها ولذلك فهو يقطع الحياة وهو يفكرٌ على نسق لا يتبدَّل ويتكلَّم على وتيرَة واحدة لا تتغيَّر. حتى ليستوي والضِّفْدَع مِنْ هذه النَّاحيَة. فلا جديد عندها وليس عنده جديد!

السَّمير: 5/ 10/ 1940

الأدبَاء السَّاكتُون

بيننا عدد مِنَ الأدباء إنقطعُوا عن العالم ولم ينقطعُوا فهم معنَا وبينَنا وكأنَّهم اولئك المنفيُّون في مجاهل سيبيريا أو جزيرة الشّيطان. في حين أنَّ الحياة لا تزال كما عرفُوها لا غنَى لها عن اولئك الذين يعكفُون على تصويْر حقائقها وأوهامها وأفراحها وأتراحها وما فيها مِنْ جمال متلائم وغير متلائم. وما تزخر به من طمع وقناعة. وغواية ورُشْد. وكبرياء وتواضع. وخوف وطمأنينة. وشوق إلى ما لم يوجَد وأسف على ما ضاع.

فهؤلاء الأدبَاء آثروا الصَّمت على الكلام. فما يحرِّك أحدهم قلماً ولا لساناً إلاّ ليعتذر بأنَّه مغلُوب على أمرِه. وأنَّه في دنيَاه كالغريق يعلُو ويسفل مع الأمواج التي تعلُو حوله وتسفل. أو أنَّه لا يرى لقول فائدَة إذ ليس هناك آذان تستمع ولا قلُوب تعي أو أنَّه ساكت يتبصَّر ويعلِّل نفسه بالوصول إلى يوم أغرَ [1] مُحَجَّل [2] كيوم النَّيروز لا يتقيَّد فيه بتجارة ولا صناعة. ولا يسيطر على نفسِه أحد غير نفسه. وعندئذ يطلع مِنْ كمينه وينشط مِنْ عقالِه وينطلق يكتب ويخطب وينظم وينثر.

هكذا تمرّ الأيّام راكضَة مهرولَة في أثر الأيّام. وتتهاوى الشُّهور كأوراق الخريف صفراء ذاويه. وذلك اليوم الأغرّ المُحجَّل الذي يعلِّلُ به الأدبَاء السَّاكتُون أنفسهم لم يبرَح بعيداً قصياً كأنَّما هو وراء نهر المَجَرَّة [3]. وتلك الأماني التي تختلج في الصُّدور لم تنفك محجوبَة خفيَّة كمياه تجري في جوف الأرض

1 الأَغَرُّ: ذو الغُرَّة يقال: يوم أَغَرّ وليلة غَرَّاء ج غُرٌّ.

2 والمحجَّل: التحجيل بياض في قوائم الفرس أو بعضها بعضه لا يجاوز الركبتين والعُرْقُوبَيْن. ويقال أمْرٌ أَغَرّ محَجَّل: مشهور.

3 المجرَّة: مجموعة كبيرة من النجوم تركَّزت حتى تراءَت من الأَرض كِوشاحٍ أبيض يعترض في السماء.

لا تقع عليها عين ولا يبلغ صوتها إلى أُذُن.

يمكنُنا أن نقول أنَّ هؤلاء الأدبَاء فريقان. فريق مضى زمانه وِطابُـهُ أو أدَّى رسالته في حينها ولم يبق لديْه ما يقوله لهذا الزَّمان. وبعبارة أخرى قد أفرغ جرابه وصَفِرَ وطابه[1] فهْوَ معتصم بالسُّكُوت. والسكُوت في بعض الأحيان يكون مِنْ ذهَب وفضل مَنْ يصمت وقت الصَّمت كفضل الذي يتكلَّم وقت الكلام. وما انفضح أحد بكلمَة يضمرها وإنَّما تفضحه كلمة يظهرها.

وفريق آخر لم ينفق كل ما عنده ولا أحسنه وأجمله. ولكنَّه يعتقد خطأ أنَّ مجال القول غير ذي سَعَة[2]. فهو يدَّخر ما بقي له إلى يوم يقرأ النَّاس سطوره فيسكرهم منها العبير. ويستمعُون إلى حديثه فيطربُون لما فيْه مِنْ شدو وخرير. فليس النُّور نوراً إلاَّ عند البصير وليس الصوت صوتاً إلاَّ عند السَّميع.

وعندنا أنَّ هؤلاء الأدباء واهمُون في نظريَّتِهم وعلى خطأ في اعتقادِهم. فإنَّ الفكرة الطَّيبَة تَخْلُقُ مجالها إنْ لم يكن في المحيط الذي ظهرَت فيه ففي سواه وإنْ لم يكن اليوم فغداً. وكثيرُون مِنْ رجال الأدب كتبُوا أحسن قصائدهم وقِصَصِهم ورسائِلهم وهم إمَّا في المنافي أو السُّجُون. أو في حالات هي أشدُّ ضنكاً مِنَ المنافي والسجون. فهل انطَوَتْ آثارهم يوم انطووا. وهل توارَت مع زمانِهم الذي توارى؟ كلاَّ. لم يحدث مِنْ هذا شيء بل بقيَتْ وزادَتْ مع الأيَّام جمالا وانتشاراً ولولاها لما عرَف النَّاس في عصرنَا صورة ذلك العصر.

فأنت ترى أنَّ الفكرة الصَّحيحة إذا ظهرَتْ ظلَّتْ تعمل عملها حتى في الأيَّام المُظلمَة إلى أنْ يَكْمُلَ تكوينها وتَبْرُز إلى مسرح العِيَان[3]. فلا السجن يضنيها ولا القيد يؤذيها ولا جهل المُحيط يَطْمُسها أو يُخْفيها. ولا شيء يُفْنيها. وإنَّما يقتلها أمر واحد وهْو أن يضنَّ بها صاحبها فلا يبديها! وإنَّما يمحُوها أنْ لا تقال ولا تدوَّن...

إذن فهولاء الأدباء السَّاكتُون كأهل الكهف في حين أنَّ نار الرغبة في الأدب تعتلجُ في صدورِهم فيطْمِرونها بأيديهم خشية أنْ يراها أو لا يراها أحد. إنَّ هولاء سيصلُون إلى اليوم الذي يحلمُون به ولكنَّهم سيصلُون. وقدْ خارَتْ منهُم القِوى وضاعَ مِنْ رغائِبهم أكثرها. فإذا رجعُوا إلى تلك النَّار الكامنة في صدورهم لم يجدُوا لها آثارا فيحاولُون إضرامها منْ جديد فإذا هي رماد. كلَّما نفخُوا فيه تطاير فكان على ثيابِهم غباراً. وفي عيونِهم قذًى[4]. فيندمُون ولات حين مندم.

---

1 صَفِر وطابه: صارَ خلاءً. والوَطْب سقاء اللّبن وهو جلد الجَذَع فما فوقه ج أَوْطِبِ وَوِطاب.

2 وَسِعَه الشيء بالكسر يَسَعُه سَعَةً بالفتح.

3 العِيان: عاينه معاينة وعِيانا رآه بعينيه.

4 القَذَى: القذاة ما يقع في العين والشراب ووكالى التراب المدقّق ج أَقذاء وقُذِيٌّ.

أيُّ ماء ركد ولم يأسَن [1]؟
وأيُّ زهرة انزوَتْ عن النُّور والهواء ولم يصبح الظلام لها كفنا؟
وأيُّ سيفٍ طال عليه الثَّوَاء في القراب ولم يأكله الصَّدأ؟
وقديما قالت العرب «آفة العلم التَّرْك» كما قال أحد شعرائِها في الجاهليَّة:

ومَنْ يك ذا علم فيبخَل بعلمِهِ على قومِه يُسْتَغْنَ عنهُ ويُذْمَمِ

ولا عذر للأديب في ضنِّه وبخله فإنَّا نرى الجدول يجري مترنِّما شادياً بين الأشواك وفوق الصُّخور. ونرى الوردة تَعْبَقُ وتفوح في يدِ الملك ويد اللص على السَّواء.

أمَّا إذا قالُوا إنَّهم يمدُّون أبصارهم فلا يجدُون حولهم إلاّ أناساً منصرفِين عن كلِّ شيء إسمه أدب إلى الركض وراء الدولار العيّار. فهذا الكلام حجة عليهم لا لهم؛ لأنَّ الذي لا يراقِب النَّاس لا يراهُم مقبلِين ولا مُدبِرين.

فيا أيها الأديب الصَّامت! إذا كانت تتلجلَجُ في صدرك أنشودَة ضاحكَة كالرَّبيع أو باكيَة كالشِّتاء. فلا تحبسها. فلا تغالبها. إلاّ في وقتها. إذا ضاع ضاعَتْ. وإذا ضاعَت عزَّ ردّها. ولذّتك في إرسالِها مِنْ بين ضلوعِكَ. فليس لك أنْ تسألَ استقرارها بين ضلوعهم. ولا أن تسأل أين تقع ولا كيف تقع. وإنَّما عليك أنْ تطلقها ولو لم يكن حولك أحد. فحياتها أنْ تنتشر لا أنْ تستتر هذا إذا كانت خليقة بأنْ تحيا وتبقَى.

أمَّا إذا لم يكن لديْـك شيء. فاعْلَم أنَّ الكلام غير موجَّه إليك...

السَّمير: 15/ 10/ 1940

البحيرة والجبل

لعلَّ أبرز سِمَةٍ تمتازُ بها كندا بعد سهولها المترامية هي بحيْراتها وجبالها. فحيثما إرتفَع جبل فهناك بحيْرَة نائِمَة في سفحِه.

وما أجمل أنْ يلتقي جِرْمٌ[2] كبير مِنَ الماء يتلَوَّى ويتململ بجانب جِرْم كبير مِنَ الصَّخر ثابت لا يتحرَّك. وكلاهما مغمُور بالسَّكينة.

مررنَا في طريقنا إلى مونتريَال بالبحيْرات المشهُورة التي يرتادها طلاَّب الرَّاحَة ومنتجعو العافيَة في

---

1 والتاء في لاتَ حين مناصٍ زائدة كما في ثُمَّتَ أو شبَّهوها بليس فأضْمر فيها اسم الفاعل ولا تكون لات إلا مع حين وقد تُحذَف.

2 الجِرْم: الجِرْم الجَسَد.

أيّام الصّيف. فإذا هي ما برحَتْ توزِّعُ الجمال والسِّحر وإنْ لم يكنْ على شواطئها غير بيوت مهجُورَة. وليس حولها إلاّ الشَّجر الشَّاحب الكئيب الذي تحتضر أوراقه وتتمشَّى اليبُوسَة في أغصانِه.

دَخَلْنا مونتريَال فإذا نحن في مدينَة قائِمَة في ظلٍّ جبل والماء يحيط بها مِنْ كُلٍّ جانب. وقد أتيْنَا على وصفِها في مقال سابق ذكرنا فيه بعض المعلومات عن سكَّانِها ومعاهدها وكنائِسها وجسُورها ويحسِنُ بنَا الآن أن نتكلَّم عن الجاليَة السوريَّة اللبنانيَّة فيها فإنَّها جاليَة نشيطة عاملة بارزة لها مكانَة ما رأيْتُ مثلها في أيِّ بلد آخر لجالية في مثل عددها. ولا في اكثر منها عدداً. فمعظم أفرادها إمَّا تجار. وإمَّا أصحاب معامل وإمَّا باعَة. وهم يزاولُون جميع أنواع التِّجارة مِنْ حَلْيٍ [1] إلى الملابس إلى الأقوات وإنَّما أكثرهم يزاول بيع الأقمشَة والملابس المختلفَة.

ولا يزال شارع نوتردام الذي نشأت فيه التِّجارة السوريَّة محتفظاً بمكانتِه فهو على العكس مِنْ شارع واشنطون في نيويورك الذي إنتقلَتْ منْه التِّجارة السوريَّة إلى الأفنيو الخامس.

ومثلمَا إنتقلَ السوريُّون ببيوتهم مِنْ شارع واشنطون إلى سوث بروكلن وباي ردج إنتقل السوريون في مونتريال ببيوتهم إلى أعلى المدينَة وإلى اوترمونت وهي جميلة جداً، تبعد عن مونتريال بضعة أميال وفيها للسوريِّين منازل كالقصُور. مبنيَّة على أحدثِ طراز. ولا تزال المنازل في قلب مونتريال على حالتها الأولى ولا سيَّما في السلالم الخارجيَّة التي يتعجَّب الغريب مِنْ وجودِها في مدينة كمونتريال التي يشتدُّ فيها الصَّقيع في أيّام الشِّتاء وتكثر الثُّلوج. وتتعجَّب كثيراً عندما تعلم أنَّ المدينَة غير ضيِّقَة المساحة ليلجأ القوم بسبب ضيقها إلى الإقتصاد في الأرض على هذه الصورة. أي بناء الأدراج خارج المنزل لا في داخلِه. غير أنَّ المباني الحديثة لا سلالم فيها مِنَ الخارج بل هي على الطِّراز الأميركي ومنْها ما هو أجمل.

ولا يزال فيها للتُّرام المكان المتقدِّم في النقل. وقد تغصُّ مركباته في الصَّباح والمساء عند خروج النّاس إلى أشغالِهم وعودتهم إلى بيوتِهم كما تغصُّ مركبات الصبواي في نيويورك.

ويشتدُّ زحام المارَّة في المنطقة التي فيها المخازنِ التجارية الكبرى مثل مخزن ايتون ومخزن مورغن بحيث يصعبُ على صاحب السيّارة أنْ يجد مربضاً لسيارته إلاّ إذا إبتعد كثيراً ورجع إلى حيث يقصد مشياً.

ولا يحتاج المرء الذي يطلب النزهة إلى الإبتعاد عن مونتريال ففي ضواحيها أماكن جميلة ولا سيَّما الأماكن العاليَة التي يشرف منها المرء على المدينَة كُلّها.

وقد ذهب بنا الصَّديق جورج زغيب وقرينته السيدة المهذَّبة للي إلى معبد مار يوسف الذي تتوج قبَّته الجبل ويبدو كأنَّه حصنٌ قديم. أو قصر سلطان مِنْ سلاطين الفرس أو الهند. فرأيْنَا النّاس هناك

---

1 الحَلْي ما يتزيَّن به من مصوغ المعدنيّات أو الحجارة الكريمة ج حُليٌّ.

يصعدُون إليه زرافَات زرافَات[1] ويدخلُون إليه وهم يخشعون وبعضهم يصعدُون على الدرج وهم ركُوع إجلالاً وإكباراً.

وإنَّ الصعُود في ذلك الدرج العالي الطويل الممتد مِنْ سفح الجبل إلى أعلاه ليضنك الفتى الغَرير[2] ولَكِنَّ القوم يصعدُون فيه أَشيوخاً كانوا أم عجائز وهم يشعرون بالتعب فكأنَّ الشوق فيهم إلى رؤية الهيكل يكسبهم قُوَّة ونشاطا.

أنشأ هذا المعبد راهب اسْمه أندريا. إتخذ في أول أمره صومَعَة في الجبل ثم اشتهرَ أمره وذاع صيتُه فتهافتَ المؤمنُون على صومعتِه وكثرَتْ النُّذُور والهِبَات فأنشأ هذا المعبد الذي أصبح مزاراً يؤمُّه النَّاس مِنْ كُلِّ ناحيَة. وحيثما وقفْتَ في مونتريَال والتفتَّ إلى الجبل رأيْتَ ذلك المعبد الفخم.

السَّمير: 23/ 10/ 1940

حديث معها

أيَّتها الرفيقة العزيزة الغالية.

ها قد انقضَتْ سنة أخرى ونحن نسيرُ معاً في موكب الحياة نقتلعُ الأشواك التي أمامنَا وننشر الرَّياحين وراءنا للذين يأتونَ بعدنَا لعلَّهم يرونَ الدُّنيا جميلة. ولعلّهم يفعلُون في سبيل غيرنا كما فعلنَا نحن مِنْ أجلهِم.

عندما لقيتك وتعارفْنَا وتصاحبْنَا كانت الدُّنيا شبْه متزلزلَة ممَّا أصابَها مِنَ الأزمَات والنَّاس فوقها كالسَّكارى لما بوغِتُوا بهِ مِنَ النَّكبَات والضَّربات.

لقيتك أيَّام كانت الثروات المُدَّخرة تذوب وتتلاشَى كلمْح البصر. والأملاك العقاريَّة تسقط قيمتها وتبُور تجارتها وهي لم تتزعزَع. ولمْ تتهدَّم ولمْ يسقط مِنْ جدرانِها حجر ولا مِنْ دهانِها قشرة.

لقيتك أيَّتها الرفيقة الغالية والحقائِق الواضحَة تتحوَّل إلى أخيلِة وأشباح. والوقائِع المرئيَّة الملمُوسَة تنقلِبُ إلى حكايات وأساطيْر!

وكان بي مثلَمَا بالنَّاس مِنْ وجَل وإشفاق وشكّ في المستقبل.

فلمَّا رأيْتُك تحوَّل الخوف والإشفاق إلى شجاعة وإقدام وانقلَبَ الشك إلى إيمان ويقين.

وكان بي زهد في الحياة والنَّاس.

فلمَّا أحببتُك وجدتُ أنَّ حبِّي إيَّاك لا يكون تاماً ولا جميلاً إلاّ إذا أحببْتُ الحياة والنَّاس مِنْ أجلك.

---

1 زَرَافات زَرَافات والزَّرافة كسحابةُ وقد تشدّ فاؤها الجماعة من الناس أو العشرة منهم.

2 الغَرير: الشاب لا تجربة له ج أَغِرَّةُ وأغِرّاء.

وكانت الطَّريق طويلَة والسَّفر شاقاً عسيراً محفوفاً بالمكاره. وعلى جوانب الطَّريق أشرار يتربَّصُون بكُلِّ مسافر.

فلمَّا أحببتُكِ يا رفيقَتي صرْتُ فيلسوفاً يقول: إنَّ الطَّريق غير الطويل لا يستأهِل أنْ يجتازَه المرء وإنَّ السفر الذي لا مشقَّة فيه هو بالإقامة أشبَه. وإذا كان في جوانب الطَّريق موضع للأشرار فلا بُدَّ انْ يكونَ فيها موضِع لأهل الخير.

ومشَيْنَا معاً ولكن إلى أين؟

لم يكن لي قصرٌ أنيق يليقُ بك يا حوريَّتي. ولكنَّكِ كنت نبيلة متواضِعَة فرضيْتِ بالكوخ الصغير الذي بنيتُه لك بساعدي. فأقمْنَا فيه فترة مِنَ الدَّهر هانئين كأنَّنا طائِران في عش آمن.

وكنتِ وأنتِ حوريَّة في عش تضحكين كأنَّك في الفِرْدَوس.

وكنتُ أنا لأنَّك معي ولي أحسب أنَّني ساكن في قصرٍ مِنْ ذهب الشَّمْس فأنشد وأغنِّي.

وكان النَّاس يرونَ ابتساماتك ويسمعُون أناشيدِي فينسَوْن كآبتهم وهمومهم ويطربُون.

ونشعر نحن كلَّما طربُوا أنَّنا قد قمنا بالمهمَّة الموكولَة إلينا فنزداد مسرَّة وطرباً ونندفِع في التغريد والإنشاد.

هكذا مرَّتْ الأيَّام وأنا وأنتِ لا نفترق.

يطلع الصباح فإذا نحن معاً. وينسدل الظلام فيغمرنَا كلينا.

كم عذلَني العاذلُون لهيَامي بك ونصحُوا لي أن أهجرَك فأستريح وأسعَد. فكنتُ كلما قالوا: «ابتعد» أزداد منك اقتراباً.

ولكم حاول أهل الحسد أنْ يضعُوا العثرَات في طريقِك وطريقِي لعلَّك تعثرين أو أعثر فكنَّا نطيرُ فوق الحبائِل والأشراك وننجُو تاركِيْن أهل الشَّرّ والغدر تتقطَّع أكبادهم مِنْ شدَّة القهر كأنَّهُم وقعُوا في أشراك لا تتقطَّع.

أيَّتها الرفيقة الغاليَة.

بل أيتها المحبوبَة الجميلة.

كم مِنْ ليلة أحييتُها ساهراً وحدي لا أفكر بأحد إلاَّ أنت.

وكم منْ نهارمشرق ضاحك خرج النَّاس فيه إلى الشواطيء والجبال ينتجعُون الرَّاحة والسرور وبقيْتُ أنا في المدينة مِنْ أجلِك.

وكم ذهبْتُ في الأرض أحدِّثُ النَّاس عنك.

وكم سرْتِ أنتِ في جوانِبِ الدُّنيا تحدِّثين النَّاس عنِّي.

وكان شعارنا كليْنَا هوَ أنْ نحب النَّاس لكي يَحِقّ لنا أنْ نحصلَ على محبَّتِهِم.

وأنْ نقول الحقيقة لكي يحِقُّ لنا أنْ نطلبَ منهم أنْ يصدِّقونا.

وأنْ نحسنَ القول والعمل ما استطعْنَا إلى ذلك سبيلاً لعلَّ غيرنا يقتدي بنَا.

وأن نبثَّ روح المحبّة والإخاء بين أبناء الوطن الواحد في غربتِهم لأنَّ الدُّنيا تتّسع بالحب وتضيقُ بالبغضاء. ولأنَّ البيت الذي تتناكر[1] حجارته يتهدَّم ويتقوَّض إلى الحضيض ويصير كُومَةَ حجارة بعد أنْ كان بيتاً.

وأنْ نثابرَ على هذه الخطة المُثلى ما دمنَا في قيد الحياة كما يثابر الزَّارع على حرث أرضه وتنقيتها مِنَ الأشواك والعَوْسَج.

واتَّفقْنَا على أنْ لا نستغلَّ جهل الجاهلِين كما يفعل بعض الذين لا ضمائِر لهم. بل نحاول أنْ نبدِّلهم مِنْ جهلِهم علماً ومِنْ غباوَتهم معرفة ليصيروا أناساً مفيدين لأنفسهِم ولجيرانهم وللبلاد. فإنَّ مَنْ لا يفهم لا يقدر أنْ يكونَ مفيداً حتى لذاتِه وليس هو المسؤول عن وجودِه في تلك الحالة مِنَ الغبَاوة والجهل. بل المجتمع هو المسؤول عنه.

ولقد كنت أيَّتها الرفيقة نِعْمَ الرسول الأمين في كُلِّ ما عهدْتُ بِهِ إليك فكافأكِ النَّاس على صراحتِك وأمانتك وشجاعتك بالحُبِّ وأحلُّوك عندهم مكاناً منيعاً.

وها أنا وأنتِ بعد هذه السنوات نشعرُ لتعَلُّقِ أحدنا بالآخر كأنَّنا لمْ نتلاقَ إلاَّ أَمْسِ[2]. فما زلْتِ جميلة في عينَي. وحبيبة إلى نفسي. كما كنْتِ منذ أول يوم ترافقْنَا.

وما زلْتُ أنا ذلك المحبَّ الذي وقَفَ حياته عليك.

السَّمير: 2/ 11/ 1940

في الطَّريق إلى مونتريال

ما خرجْتُ مِنْ نيويورك مرة وأطلَلْتُ على الفضاء الرَّحب المُترامي الذي يمتدُّ كلَّما امتدَّ النَّظر إلاَّ شعرْتُ كأنَّ روحي كانتْ موثقَة وسقطَتْ عنها القيود والأغلال. أو أنَّها كانَتْ في بحرٍ زاخر متلاطِم وخرجَتْ منْهُ إلى الشط الهادىء الأمين.

وليسَتْ نيويورك خالية مِنَ المحاسنِ والمفاتنِ الطبيعيَّة ففيها مِنْ هذه أشياء ليسَتْ في أيِّ مكان آخر تحت الشَّمْس ولكنَّها لشدَّة الزِّحام فيها لا يصلُ إليها المرء حتى يكون الشوق إليها قد ماتَ في نفسِه.

فهْوَ إنْ لم يمرّ في نفَق لا مؤنس فيْهِ غير مصابيح الكهرباء التي تبدو كأنَّها شموع في ديرٍ موحِش. فإنَّه لا بُدَّ له أنْ يمرَّ في شارع يشبهُ وادياً بين جبلَيْن تركضُ فيه السيَّارات كأنَّها المعْزَى الشَّارِدَة!

---

1 وتناكر القوم تعادوا.

2 أَمْسِ مثلَّثه الآخِر مبنية اليوم الذي قبل يومك بليلة يبنى معرفة ويعرب معرفة فإذا دخلها أَل فمعرب.

خرجَتْ بنا السيّارة مِنْ بروكلن في يومٍ صافي السَّماء معتدل الهواء. وكان يقودُ السيّارة فتىً في وجهه نضرة الرَّبيع وفي ثغره ابتساماته وفي صوته تهاليله هو الشاب الأديب إميل دواليبي فعرجنَا على مدينة «تروي» حيث زرنَا جامعة رنسلير التي يتعلَّم فيها الهندسة ثلاثة مِنْ شبَّاننا هم نجلُ صاحِبِ هذه الجريدة والفتى جورج عزّه وشابٌ آخرَ مِنْ أميركا الجنوبيَّة مِنْ عائلة راباي الزحليَّة.

ومنْها ذهبْنَا إلى مدينة ألبني ومضَيْنَا فيها ليلة في منزلِ النسيبْ العزيز ملحم اسكندر بعد أنْ زُرْنَا الأصدقاء. وفي اليومِ التالي مَرَرْنَا بمدينة سكنتكدي وقُمْنَا بواجبِ الزيارة للصديقِ القديم الياس دواليبي وتعرَّفنَا إلى السيد خليل زغيب واسرته وانطلقْنَا منْها نقصدُ مونتريال.

كنْتُ أسمع النّاس يصفُون المشاهد الخلاَّبَة السَّاحرَة التي يمرُّ بها المسافرُ في هذه الطَّريق. ولكنَّني عرفْتُ أنَّ الوصف مهما تناهَى في الدِّقَّة والبلاغَة ليس كالعيَان.

ما كنَّا نخرج مِنْ روعَة إلاّ إلى روعَة. ولا نرفعُ الطَّرْفَ عن مشهدٍ فتَّان إلاّ ليقع على مشهدٍ أكثر فتوناً. فمِنْ بحَيْرات مُضَّجعَة كالحوريَّات تحرسها الجبال الخضراء. ومِنْ أشجارٍ اشتعلَتْ رؤوسها فظهرَتْ كأنَّها مخضَّبَة بالأصباغ المختلفَة وبعضها كأنَّه التقطَ دمَ الشَّفَق:

أيلول يمشي في الوهاد وفي الرُّبى	والأرض في أيلول أجمل مَنْظَرا
لمسَتْ أصابعه السَّماء فوجهها	ضاحٍ، ومرَّ على التُّراب فنَوَّرا [1]

وقبل أنْ أسترسلَ في وصف هذه المشاهد التي توقظ في نفسِ ابنِ المدينة حب الطَّبيعة وتطرد مِنْ قلبِه وعقلِه هموم المدينة وأثقال الحياة فيها. أقول إنَّنا لمَّا وصلْنَا إلى غلنز فولز نيويورك عَرَجْنَا إلى دير الأرشمندريت الكسي حنَّا فلم نجد فيه صاحبه ولكنَّنا وجدْنَا باب الدير مفتوحاً فدخلنَاه فإذا هناك مائدَة عليها أكواب مصفوفَة كأنَّها أعدَّتْ لضيوف سيأتُون. ثمَّ ما لبثْنَا أنْ دفعَنَا الفضول إلى حديقَة الدَّير فرأيْنَا أغراس البندورَة مثقلَة بالرؤوس التي تتدلَّى كأنَّها أثقال. كُل رأسٍ منها يملأ الكفَّيْن ويزيد على البونين.

وجاء صاحب الدَّير فإذا بالأكواب الفارغَة تمتلِىء بالقهوة وشربْنَا ثم ودَّعنَاه وهْوَ يزوِّدنَا بالأَدْعية والبركَات.

ومرَرْنَا بالمصايف الجميلة على البحيْرَات فإذا الفنادق مقفلَة والسَّكينَة ترفرفُ على البُحيْرَات وهي مصايف لم يبقَ فيها إلاّ سكَّانها الأصلاء الذين يتمتَّعُون في هذه الأيَّام بسحر الطبيعَة وجمالها وحدهم. ويشركُون معهم في الصَّيف الزوار الأغنياء ولكن بعدَ أنْ يشركُوا أنفسهم في جيوب هؤلاء! فكأنَّما هم الذين اخترعُوا السَّماء والجبال والبحار وخلقُوا الأشجار والأزهار وأوجدُوا الألوان والرَّوائِع واستنبطُوا النَّسمات وحفيفها والمياه وخريرها وتموُّجها.

---

1 ضاحٍ: مكان ضاحٍ أي بارز.

إنّهم يصنعون بأبناء المدن ما يصنع هؤلاء عندما يزورُون نيويورك مثلا. لا يصلُون إلى الجمال إلاّ إذا فرشُوا الطَّريق بالمال.

ولكنّنا كُنّا مسافرين لا مصطافِيْن فلمْ تحجب الطَّبيعة عنّا ذاتها ولم يحجبْها عنّا النَّاس.

هو يوم ودَدْتُ لو امتدَّ فصار شهراً وظلَّت الجبال والشواطيء تمرُّ بنا وهي في روعتِها كما وَدِدْتُ لو كان رفاقِي كُلّ الذين يحبُّون هذه المشاهِد.

فهناك تسابيْح وتهاليْل ولا معابِد ولا أديرَة.

وهناك أناشيْد وألحان ساحِرَةْ ولا مغنٍ ولا عازف.

وهناك صور ورسوم رائِعَة ولا رسَّام ولا مُصوِّر.

وهناك معجزات وعجائِب تُجْتَرَح [1] ولا نبي ولا قدِّيس.

وهناك قصائِد مرقصة ولا شاعر.

فما أصدق القول الأميركي المأثور:

«إنَّ الإنسان صنَع المدينة أمَّا البرِّيَّة فقد صنعَهَا الله»

وما يصنعه الله فوق ما يصنعه البشر فتبارَكَ الخلاَّق المُبْدِع.

السَّمير: 8/ 11/ 1940

هل لك خصوم وأعداء

لو تعمّق المرء ملياً [2] في استجلاء الأشياء وأسرارها لكانَ يشكرُ عدوُّه كما يشكرُ صديقه. فإنَّ للعدوِ حسنَاتٌ لا تَقِلّ في قيمتِها عن حسنَاتِ الصَّديق. بل كثيراً ما كان للعدوِّ فضلٌ لا يمكنُ أنْ يجيءَ مِنْ أوفَى الأصدقاء.

فلا يفُتُّ في عَضُدِكَ [3] أنَّ لك خصوماً بل اشكُر الله لأنَّكَ رجلٌ له أعداء ولأنَّ الذي لا أعداءَ له هو أحدُ اثنين: إمَّا إنسانٌ قد مات وإمَّا إنسانٌ لم يولد!

الجوعُ مِنْ ألدِّ الأعداء ولكن كم لهذا الجوع مِنْ يدٍ بيضاء على الإنسانِ وعلى العُمْران.

لو لم يشعرْ به الإنسان لما راحَ يضربُ في الأرض باحثاً عن القوتِ في الحقلِ والغابة والوادي والنهر والبَحْر.

---

1 تجترح: اجترح السيِّئة اقترفها.

2 مَلياً: المَلِيّ الساعة الطويلة من النَّهار.

3 يفت في عَضُدِكَ: العَضُد ما بين المرفِق والكتف والعَضُد: المعين ويقال فَتَّ في عَضُدِهِ أَضْعَفَ قوَّته وفرَّقه عن أعوانه. وشدَّ عَضُدَه قوَّاه.

ولولاه لما تعلَّمَ كيف يزرع الحِنْطَة[1] ويطحنها ويخبزها.

ولولاه لما تعلَّم كيف يخزِّن في الصَّيف مؤونة تكفيهِ كُلَّ أيّام الشّتاء.

إنَّنا نَذمُّ الجوع ولكنّنا نتّقيه لئلا يفترسنا. وهكذا يجب أن يكون موقفنا مِنْ كُلِّ عدو سواء كان إنساناً أو حيواناً أو حشرة أو جرثومة أو فيضاناً أو قحطاً أو مرضاً.

ولا نغالي إذا قلنا إنَّ الحروب أحياناً لا بُدَّ منْها فالأمّة التي لا تخشى عدواً ولا تتّقي خصماً تستسلِمُ إلى الملذّات وتسترسلُ مع الشَّهواتِ فيدبُّ فيها الوهْنُ[2] ويستولي عليها الجمُود وتصبح كالهيكَل الأجوف مظاهر جميلة خلاّبَة أمّا داخله فظلامٌ وعفونَة ودودٌ كدود القبُور.

إنَّ الصَّديق لا يفتّشُ عن عيُوب صديقه أمّا العدو فيفعل.

وخوفُ المرء مِنْ عدُوِّهِ هو الذي يحمله على إصلاح عيوبه وستر نقائصه. فالعدو إذن نِعْمَة مستَتِرَة في نَقِمَةٍ[3]. وخيْرٌ كامن في شرّ. وبركَة تسوقها الحياة إلى الإنسان في شكل آفة..

إنَّ الحياة مع العدو مثل التصعيد في الجبل. فيه مشقَّة. ولكن فيه للجسم ترويض.

أمّا الحياة مع الصَّديق فتشبه النُّزول في منحدر لا مشقَّة فيه ولكنه كثيراً ما رافقَه الزَّلَل وصَاحبَتْه العثَرات.

السَّمير: 10/ 12/ 1940

مَن أنـا

أنا. مَنْ أنا؟ يا تُرَى في الوجُود	وما هو شأني؟ وما مَوْضِعي؟
أنـا قـطرةٌ لمعَـتْ في الـضُّحَى	قـليلاً عـلى ضَفَّـةِ الـمَشْرَعِ[4]
سيأتي عـليهـا المساء فتغدُو	كـأنْ لم تَـرَقْـرَقْ ولم تَـلْـمـعِ[5]
أنـا نـغـمـةٌ وقَّـعتْـهـا الحـيـاةُ	لمـن قـد يـعي ولمـن لا يَـعِـي
سيمشي عليها السُّكونُ فتُمْسي	كـأن لم تـردَّد عـلى مَـسْـمَـعِ[6]
أنـا مـوجـة دفعـتـهـا الحـيـاةُ	إلى أوسَــعٍ فــإلى أوســعِ

---

1 الحِنْطَة القمح.

2 الوَهْنُ الضَّعْف.

3 وانتقم الله منه عاقبه والاسم منه النَّقِمة والجمع نَقِمات ونَقِمٌ وإن شئت قلت نِقْمَة.

4 المَشْرَع: الشَّريعة مَشْرَعة الماء وهي مورد الشَّارِبة.

5 تَرَقرق أصل الفعل ترَقرقُ والتاء في أوّله تسمى تاء المطاوعة أو الزائدة ويجوز حذفها من أوَّل الفعل المضارع.

6 تردَّد أصل الفعل تترَدَّد.

ستنحلُّ في الشطِّ عمَّا قليلٍ كـأنْ لم تـدفَّـعْ ولم تـدْفَـعِ[1]

أجل[2]. هذا هو الكائن الذي أشعر أنَّه أنا!

إنَّما الإنسان إذا أحبَّ رأى في القطرة الصَّغيرة الزَّائِلَة نهراً مِنْ كَوْثر[3] لا ينضبْ. وسجد للنَّغمَة تخرجُ مِنْ قيثارة أو مِزْمَار كأنَّها صوت وحي مِنَ السَّماء. ولاحَتْ له الموجَة كأنَّها بحر زاخرٌ العباب.

وهذا الإنسان المُحبّ هو اليوم الذي ينتزعني مِنْ صومعَتي الرُّوحيَّة الهادئَة ويسير بي في موكب شاد هازج فيه نُوْر وعبِيْر.

تلك مشيئة أصدقائِي وأبناء بلادي أنزل عليها لأنَّ في طاعتِهِم غِبْطة لي. فأنا أكتب هذه الكلمة مستسلماً لمشيئتهم شاكراً عواطفهم النبيلة التي أبدوها، فلعلَّ هذه القطرة التي هي «أنا» تصير غَيْثاً عميماً ولعلَّ الموجة تصير بَحْراً عظيماً.

السَّمير: 14/ 12/ 1940

الماسة المخبوءة لا تلمع

يعجبُنِي كاتب في جريدة الورلد تلغراف اسمه ج. أوتس سويفت وهو الذي يختلف عن سائِر الكُتَّاب فبينَما هم يطرقُون كل موضوع ويعالجُون كُل قضية تراه لا يطرق غير باب الطَّبيعة ولا يعالج شيئاً غير وصف أحوالها ومشاهدها. فهو في الصَّيف مع الجداول المُترنِّمَة والأنهُر المتهاديَة والأشجار الخضراء المترنِّحة والطُّيُور النَّشوَى والأصباح الضَّاحكَة والليالي المقمرَة. وهو في الشِّتاء مع الرياح المولْوِلَة والثُّلوج المُتساقِطَة والغابَات المُوحشَة. والأشجار المرتعشَة والحدائِق الشاحبَة والأنهُر المُتجمِّدَة الصَّامتَة صمتَ القبُور.

إنَّه لا يتعبُ مِنْ صُحْبَةِ الطَّبيعة لأنَّه كيفمَا ظهَرَتْ له رأى فيها شيئاً جديداً وطريفاً في حين أنَّ أكثر النَّاس لا يشعرُون بحُبٍّ للطبيعة إلاّ عندما تكتسِي المُرُوج عشباً والحدائِق زهراً والأشجار ورقاً وثمراً.

هو في ولَعِه بالطَّبيعة في حُزنها وسرورها. وفقرها وغناها مثل الشَّاعر أبو نوَّاس في ولعِه بالخَمر. كلاهُمَا وهَبَ نفسه التي أَحَبَّ. وكلاهُمَا استغرقَ في هوى محبوبته حتى صارَ لا يستريح ولا يطرب إلاّ إذا نبضَ كُلّ عرق في جسمِه بهواها وأنفقَ كُلَّ لحظة مِنْ عمرِه على استجلاء روائِعها ومحاسنها.

---

1 أَصل الفعل تتدافع. والتاء في أوله تسمى تاء المطاوعة أو الزائدة.

2 أجل حرف جواب. مثل نَعَمْ.

3 الكَوْثر: النَّهر أو نَهْرٌ في الجنَّة.

وإنّك لتجدُ مَنْ يمقت أبا نوّاس لتبذّله وتهتّكه في معاقرَة بنت الكَرْمْ. ولكنّك لن تجدَ أحداً يمقتُ كاتباً أو شاعراً حبَسَ نفسه على وصفِ الطَّبيعة كهذا الكاتب الذي ينقلك مِنْ دُنيا الزّحام والضّوضاء إلى دُنيا السّكينة والحرّيّة والإنطلاق. هذا إذا أنتَ رافقته ورأيتَ بعينيْهِ وأحسسْتَ بقلبِهِ أمّا إذا لم ترافقه فإنّك تظلُّ بعيداً عنه وعن الطَّبيعة ولا يضيرَه هذا ولا يضيرها. وإنّما أنت الذي تخسر لذّة معنويّة يجب أنْ تتمتّعَ بها.

نعتقد أنّ الذين يقرأون فصُول هذا الكتاب هم العدد الأقل بين الذين يطالعُون الجرائِد في الصّبّاح والمساء بل نحن نعتقدُ أنّ السيّدات يقرأنَ الإعلانات في الجرائِد عشرين مرة قراءة دقيقة قبل أنْ يطالِعْنَ مقالة واحدَة لهذا الكاتِب. وأنّ الرجال يطالعُون جداول البورصَة واخبار الحرب مئات المرّات دون أنْ يخطرَ لهم أنْ يطالِعُوا هذا الكاتِب مرّة واحدة. وإنْ كانَتْ مقالته اليوميّة لا تستغرق مِنَ الوقْت لحظات قصيرَة.

لا أَرْمِي مِنْ هذه الكلمة إلى إعلان الكاتِب المذكُور ولا الجريدَة التي تنشر فصوله بل غايَتنَا الرئيسة هي تنبيْه الأفكار وتوجيه الأنظار إلى أنّ الإنسان لا يزال في حاجة قصوى إلى مصاحبَة الطَّبيعة وإنْ كان قد بنَى القصُور الفخمَة وزيّنَها بالمصابيح المُشِعّة والصور الفتّانَة واقتنَى الراديو والتلفُون والتلفجن فهذه كلّها لا تخبر إلاّ عن الإنسان. وهو كائِن عجيب حافل بالأسرار والغرائِب والمُدهشَات ولكنّه لا يغني عن الطَّبيعة وما في مسارِحِها مِنْ صُوَر ومشاهِد وآيات بديعَة.

نظرة واحدة إلى النُّجُوم في ليلةٍ صافية الأديم أو نظرة إلى الأشجار متسربِلَة بالثَّلج أو إلى بحيْرَة جمد ماؤها مِنَ البرد فصَارَتْ كالملك المسجُون المحجُوب.

نظرة واحدَة مع قليل مِنَ التّأمُّل والتّفكير تملأ النّفس غِبْطة أو خشوعاً أكثر مِنْ وجُود المرء في مهرجَان أو في هيكل مِنْ هياكِل العبادَة.

إنّ النّفس لتصدأ مِنَ المُكْث [1] في المدينَة كما يصدأ السَّيْف. وتأسن كما يأسنُ الماء الرّاكِد.

فإذا أرَدْتَ أن تجلُو هذا السّيف وتردُّ إليه لمعانِه وأنْ يبقَى ماء الفكر فيك عذباً نميراً [2] فارجَع إلى الطَّبيعة ورافِقْها قليلاً. أو رافِق شاعراً أو كاتباً كان يعيش معها كُلّ الوقْت أو بعضه.

إنّ الماسة المحجوبَة في صندُوق لا تشعّ ولا تلمع فلا تكن هذه الماسَة!

السّمير: 19/ 12/ 1940

---

1 المُكْث: اللُّبث والانتظار

2 النّمير: الزّاكي من الماء.

المطرودَة مِنَ البيوت

رأيْتُها بالأمس مطروحَة على رصيف الشارع يمرُّ النّاس فلا يلتفتُون إليها وإذا رأوها تنكَّبُوها كأنَّها هي موبوء.. وساروا غير مكترِثِين.

فحزنْتُ لحالتها ولكنِّي ما استطعْتُ أنْ أفعل شيئاً غير الذي فعلوه فمرَرْتُ بها ولم أقف عندها ولا اكترثْت لمصيرها المحزن.

هي شجرة العيد. شجرة الميلاد الخضراء التي كانتْ منذ عشرة أيّام تُنْصَبُ لها العروش وتعلَّقُ فيها الحُلِيَ والأقراط وتضاء المصابيح ذات الألوان المختلفَة. ويطُوفُ بها النّاس كباراً وصغاراً كالحُجَّاج بالحجر الأسود.

وكانتْ وهي لا ثمر فيها أكرم مِنْ ألف شجرة فيها ثمر.

وكانتْ وهي عود أخضر تخشع لمرآها القلوب كأنَّما كُلَّ ورقة مِنْ أوراقِها تسبيحَة ملاك. وكُلُّ فرع مِنْ فروعِها يد نبيَ كريم.

أما الآن. فهي مطروحَة في الشارع مع نفايَات البيوت. وقد نُزِعَتْ عنها الحُلِيَ وجُرِّدَتْ مِنَ الأضواء. وفارقَتْها الكرامَة. فالرَّجُلُ الذي اشتراهَا يشيحُ بوجهِه عنها كأنَّها وجه الجريمَة الشَّنعَاء. والمرأة التي زيَّنَتْها بالحلى والشرائِط تأبَى أنْ تتعرَّفَ إليها كأنَّما الأذى في معرفتها. أمَّا الولد الذي سهر شوقاً إليها قبل العيد وقضَى الساعَات سعيداً في ظلِّها فإنَّه الآن يلهُو بها ويعبثُ وبعدَ أنْ يضجرَ يضرمُ فيها النَّار ويستدفِيء بحرارتِها!

إنَّ هذه المطرودَة مِنَ البيوت كالهِرَّة لم تدخل إلى البيوت دخول اللُّصُوص ولا الفضوليِّين بل جيء بها مِنْ أعالي ولاية ماين ومِنْ أقاصي كندا محمولَة على الأكتاف. فأخذَ النّاس يتهافتُون على اقتنائِها لأنَّ العيد لا يكون عيداً إلاّ بوجودِها!

ولا شكَّ أنَّ هذه الشَّجرة كانتْ تحدِّثُ نفسها وهي في الحُلِيَ والأضواء أنَّها ما وصلَتْ إلى تلك المنزلَة العليا إلاّ لأنَّها أرقى وأجمل مِنَ الأشجار كُلِّها. غير عالمَة أنَّ سعادتها الكبرى ليسَتْ في البيت الذي شادَهُ الإنسان بل في وطنِها الأوّل. في الغابَة حيث كانَتْ. وأنَّ الإنسان لم يحملْها مِنَ الغابَة ليمجِّدُها بل ليمجِّد نفسه. ولم يزيِّنُها لأنَّها أَحَقُّ بالزينَة مِنْ أيَّة شجرة بل ليرضِي شهواته في قلبِه وفكره.

كم في النَّاس مَنْ تُشبه حياتُهُ حياة شجرة العيد يعصبُ رأسه بالتَّاج ليلة ويقضي اللَّيالي بعد ذلك معصُوب الرأس بالشَّوك أو بتراب المذلَّة والنَّدامَة.

إنَّ الوطن الطبيعي للشجرة هو الغابَة أو الحقل أو الأرض العَراء. فإذا خرجَتْ منه فإنَّها تخرج

لتموت موتاً غير طبيعي أو لتعيش عيشاً غير جميل.

كانَتْ قبل العيد شجرة خضراء وصارَتْ في ساعات العيد مَلِكة زهراء.. أمّا الآن فهي حطبه يابسَة لا تَصْلُح حتى للوقُود!

ليس لدينَا إحصاء رسمي بالأشجار التي قُطِعَتْ مِنَ الغابَات لعيد الميلاد غير أنّنا نقدر أنْ نقولَ إنَّ الأموال التي أنفقها الأميركيُّون على شجرة العيد في هذه السنة تزيد عن مائة وخمسين مليون دولار على تقدير أنَّ ثلاثين مليون عائِلَة أنفقَتْ كُلّها منْها على شجرتها خمسة دولارات فقط. فتأمّل مقدار الضَّريبَة التي يفرضها «سلطان العادة» على النَّاس كلّما جاء عيد الميلاد.

ومِمَّا لا رَيْبَ فيه أنَّ منظر الشَّجرة ليلة العيد تشعُّ منْها الأنوار وتلمع فيها الحُلِيّ جميل يبعث في النَّفْس السُّرُورَ.

ولَكِنَّ منظرها بعد العيد مطروحَة في الأزقَّة وعلى أرصفَة الشوارع غير جميل.

السَّمير: 7/ 1/ 1941

عثرات الحياة

ما أعجب أطوار الحياة.

بل قل ما أعجب أطوار الإنسان فهو لا يدرك مِنْ أسرارِ الحياة شيئاً وتراهُ يتكلَّمُ عنها كأنَّه قد كشفَ كُلَّ سرٍّ فيها.

أنظر إليه يضحك ساخراً مِنْ رجلٍ عثرَ في الشارع فسقط. إنَّه يضحك منْه كأنَّما هو لا يَعْثُرُ أو أنَّ العِثَار أمرٌ غريب خارج عن النَّواميس المألوفَة.

وانظر إليه يتحدَّث عن رجل خسرَ ماله أو وقعَ في وَرْطَةٍ[1] فتراهُ يتجَنَّى عليه ويندِّدُ به ويلومُه ويفترض أنَّه كان في امكانِه أنْ لا يخسر فَلْساً[2] وأنْ لا يقع في أيِّ وَرْطة. ناسياً أنَّ الأجيال مرَّتْ تتلُو الأجيال والنَّاس منهُم الخاسر والرَّابح. والصَّاعد والنَّازل. وأنَّ الحياة ما برحَتْ بالنَّاس أدواراً. فيومٌ عليهم ويومٌ لهم ويومٌ فيه الحُزن ويومٌ فيه السرور.

إذا جاعَ إنسان فسرق رغيفاً. قال فلاسفَة اللَّوم والتنديْد يا ويْحَهُ[3] كان الأولَى به أنْ يَسْرِقَ كنزاً ما دام سيكون سارقاً!

---

1 الوَرْطَة: كُلُّ غامِض والهَلَكة وكُلُّ أمْر تعسُرُ النَّجاة منه والوَحَلُ.

2 الفَلْس: عملة يتعامل بها مضروبة من غير الذَّهَب والفِضَّة وكانت تقدَّر بسُدُس الدِّرهم.

3 وَيْحك: وَيْحٌ لزيد وَوَيْحا له كلمة رحمة ورفعه على الابتداء ونصبه بإضمار فعل وويحَ زيد وويحه نصبهما به أيضاً.

ولكنَّ حاجة الجائع ليسَتْ إلى كنز بل إلى رغيف خبز يَسِدُّ رَمَقَه[1]. فالرَّغيف عنده في تلك الساعة أعظمُ كنز في الأرض.

وإنْ اختلسَ رجل مالاً كثيراً مِنْ بنك يشتغل فيه أو بيت تجاري قالوا: تَبّاً له[2] ما أحمقه! ما حاجتُه للمال وهو مستخدَم يقبض مرتَّباً يكفيه. وقد يكون الأمر في الظَّاهر كما قالوا ولكن لماذا يعثر المرء البصير المُدرِك وهو سائر في الشارع؟

أتراهُ اختار العِثار[3]؟

مثلما يدوس المرء قشرة موز فيزلَق كذلك يتاحُ له في حياته الإجتماعيَّة صديق أو عشير أو قرين يكون له كقشرة الموز المطروحَة في الشارع يدوسها فيفقد توازنه فيسقط فيشج رأسه أو يَكْسِر ساقه أو يهَشِّم وجهه أو يموت لساعته!

ومثلما تتهيَّأ ظروفٌ لـ«زَيْدٍ» مِنَ النَّاس فيغتني أو يُفْلح أو يشتهر كذلك تتهيَّأ أحياناً ظروف وأحوال لِـ«عَمْرٍو» فيفتقِر وتوصَدُ في وجهِه سبُل النَّجاح أو يسقط ويَخْمُل ذكره بين النّاس.

ولكنَّنا نحن نأخذ بظواهر الأمور فلا نبحثُ عن الأسباب بل نسرعُ إلى النتائج الحاصلَة فَنُصْدِر أحكامنَا بموجِبها وكثيراً ما تكون جائِرة قاسيَة.

ونحن بطبيعتنا نصدُّ عن الشَّجرة السَّاقطَة المُتحطِّمَة وإنْ كُنَّا قضينَا ساعات طويلة في ظلِّها وهي واقفَة في الحقل كالجندي الأمين.

فيا أيُّها الذين يُدينُون البشر لا تَنْسَوْا أنكم بشر مثل الذين تُدينُونَهُم. وأنَّكم مثلهم تماماً معرَّضُون للسُّقُوط والعِثار.

لا تلومُوا الذي يعثر إلاّ إذا كنتُم أنتم لا تَعثُرُون.

ولا تسخروا مِنَ الذين يمشُون على أقدامِهم إلاّ إذا كنتم أنتم لكم أَجْنِحَة!!

السَّمير: 23/ 1/ 1941

المَعِدَة والجَيْب

لَمَّا قالَتْ العرب: المعدَة بيت الدَّاء، وضَعَتْ قاعدَة أوَّليَّة لطبابَة الأجسام لا محيد عنها لطبيب ولا لعليل يحتاج إلى طبيب. فكلَّما اختَلَّ النظام في هذه المملكة المحجوبَة نشبَتْ فيها ثورات هائِلَة ووقَعَتْ اضطرابَات عنيفَة حتى يجيء الطَّبيب الحاذق فيطرُد منْها السُّمُوم الفتَّاكَة كما تطارد الحكومة المجرمين

1 الرَّمَق بقيَة الحياة ج أرْماق.

2 التَّبّ والتَّبَب النَّقْص والخَسار وَتَبّاً له مبالغة.

3 العِثار الزَّلَل.

والمشاغبيْن فيرجع السَّلام والنظام إلى هذا البيت.

ما قتل الإنسان شيء مثل معدته إلاّ جيبه. فبينهُما مشابَهَة عظيمَة في حالَتَيْ الفراغ والإمتلاء.

إذا كان الإنسان شرهاً يأكلُ ما يلائِمه وما لا يلائِمه وما يفيده وما لا يفيده فإنَّه لا يلبث أنْ يمرض.

أمَّا الجيْب فإنْ امتلأ عند بعض النّاس فإنَّه يجلبُ إليهم المضرَّة إذْ يحوِّلُهم مِنْ طباعِهم المأنوسَة إلى الخشونة والفظاعَة فيصيرُون كالمُتخَمِيْن الذين تسوء طباعهم لأنَّ مَعِدَاتهم مُثْقلات!

وكذلك إذا فرَغَتْ فإنَّ كثيرينَ مِنْ أصحاب النُّفُوس الرَّضيَّة والقلُوب الطاهرَة ينقلبُ فيهم الحياء عند فراغ جيوبهم إلى وقاحَة وصفاقَة [1] وتصير ألسنتهم كالمبارد تنحتُ في أعراض النّاس وسُمُعاتهم [2].

إذا كانت الأجسام تمرضُ مِنْ قلَّة الطعام أو كثرتُه فالأرواح يعتورها المرض مِنْ فراغ الجيب أحياناً. ومِنْ إمتلائها أحياناً. ولا سيَّما إذا كانت مِنَ الأرواح الضعيفَة التي تحسَبُ السعادَة كلّها في امتلاء المَعِدَة والجَيْب.

أيّ ليس لها في الحياة مطمع في غير الطعام الذي يملأ المعدَة والدراهم التي تملأ الجيب.

أمَّا النُّفُوس الكبيرة فإنَّها لا تفقد شيئاً مِنْ قوَّتِها ولا معنويَّاتِها في أيِّ الحالات. بل هي تَلْمَع وتَسْطَع في حالة الفقْر والجوع كما يشتدُّ تالُق النجُوم كلَّما اعتكر اللَّيل واشتدَّ حُلْكَة [3] وامتدَّ سُرادُقه [4] وتطاول.

يجب انْ يكون للحياة معنًى. أكثر مِنْ ملء المَعِدَة وملء الجَيْب وأنْ يكون للإنسان غاية هي فوق سَدِّ هاتين الحاجتيْن. فإنَّ الغاية السَّاميَة هي التي تجعل الإنسان سامياً.

السَّمير: 4/ 2/ 1941

النَّاقِم على الدُّنيا

أمَرَرْتَ أيُّها القاريء أو لاقيْتَ في طريقٍ أو مجلس أو ناد أو مقهى رجلاً ناقماً على النّاس حانقاً على الحياة معترضاً على الشَّمْس والقمر والنجُوم شاكياً مِنْ كُلِّ شيء يراه وحالة يمرُّ بها؟

أرأيْتَ هذا الإنسان؟

---

1 الصَّفَاقة: صَفُقَ الوجه وَقَحَ فهو صَفِيق.

2 السُّمْعة الصِّيت.

3 الحُلكَةُ شِدّة السَّواد.

4 السُّرادِق: الفُسْطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما.

أسمعته يتكلَّم؟

إذن فاْعْلم أنَّه رجلٌ شقيّ. وأنَّ شقاءَه غير مسبَّب مِنَ النَّاس ولا مِنَ الحياة بلْ مِنْ عَجْزِه عن تكييف نفسه مَعَ المحيط الذي هُوَ فيْه. وعَنْ تعليل الأمور تعليلاً حسناً يرجع إليْه بالطُّمأْنينَة والرِّضَى.

أَجل، إنَّ اكثر النَّاس تعرُّضاً للألم والعذاب هم الذين يَذْهَلُ واحدُهم عن البُستان كُلّه عندما تَغْرِزُ في لَحْمِه شوكة. وإنْ كان دخول الشَّوكة في جسمِه يوقظ فيه الحواس والشعُور فيعرفُ في أيِّ مكان هو ويرى المشاهِدَ التي كان غافلاً عنها.

إنَّ للحياة نواميس لا تحيد عنها مهما شكا المتذمِّرُون وتفلسفَ المتشدِّقُون. وأسعد النَّاس حالاً هُمُ الذين يسيرُون مع هذه النواميس لا ضِدَّها ويعملُون معها لا عليها.

وليس في الخضُوع لهذه النَّواميس عارٌ على الإنسان كما أنَّه ليس في مطاوعتِها ضرر بل الضَّرر والخَطَر كلّه في التَمرُّد عليها والإستخفَاف بها.

هذا مع النَّواميْس الطبيعية الشاملَة أمَّا النَّاس فإنْ كُنْتَ أعلمَ وأقوى مِنَ الذين حولك فيجدر بك أنْ تقودَهُم إلى مروج المعرفَة الأمينَة إذا كانُوا قد ضلُّوا الطَّريق إليها لا أنْ تنظرَ إليهم ازْوِراراً[1] كأنَّهم مخلوقَات مشوَّهَة لا غناء بها.

كما يجدر بك أنْ تحوِّلَ ضَعْفهم إلى قوَّة مثل قوَّتك إذا كنْتَ تكرهُ أن ترى الضَّعف حولك. لا أنْ تتأبَّاهُم وتتحاشاهُم كما يتحاشَى الهنود طائِفَة الأنجاس!

أمَّا إذا كنْتَ لا تقدر أنْ تهبهَم شيئاً مِنْ معرفتِك ولا أنْ تعطيهم شيئاً مِنْ قوَّتِك فاسمَح لنا أن نخبرك بلسانٍ فصيح أنَّكَ لست عَلِيماً ولست قوياً. بل أنتَ أجهل مِنَ الذين تظنُّ أنَّهم أجهل منْك وأضْعَف مِنَ الذين تحسبهم أضْعَف منك.

وإنَّ جهلَك سيبقى أبداً جهلاً. وضُعْفَك سيستمرّ إلى النهاية ضَعْفاً لأنَّك لغرورك لا تستطيع أنْ ترى موضع الجهل والضَّعف في نفسِك. ولهذا ستقطع الحياة شاكياً ومتألِّماً.

السَّمير: 19/ 2/ 1941

نحن بنو الموتى

منذ بضعة أيَّام خاطَبَني بالتلفُون صديقي وسميّي العزيز رئيس هذا المَحْفِل الموقَّر فلمَّا سمعْتُ صوته تسارع إليَّ الظَّن ـ وبعض الظَّنِّ إثم ـ بأنَّه يخاطبني ليعاتبني على انقطاعي عن زيارة المَحْفل منذ عهد طويل.

---

1 الإزورار: الزَّوَر النَّظَر بمؤخَّر العين.

وسمعْتُ مع صوته صوتاً آخر يبكّتني ويؤنّبني هو صوت الضَّمير. فوقفْتُ أصغي إليه وأفكّرُ في تهيئَة الأعذار التي أنجو بها مِنَ الملامَة فكانَتْ حالتي في تلك اللحظة كحالة سائِق «أوتومبيل» أدركَه الشُّرطي يتخطَّى الضوء الأحمر وهو منطلِق كالطُّوربيْد مِنْ غوَّاصَة!

ولكن ارتباكِي لم يطلْ. والفضل للرئيس المحبُوب الذي أسرعَ فأخبرَني أنَّه يخاطبني بدالَّة الإسم المشترك بيننا ليسألني إلقاء كلمة عن إخوان ورفاق وأصدقاء كانوا معنا وصاروا مع الله. فقلتُ له وقد زال ارتباكِي وانقضَتْ حيرتي: حبّاً وكرامة [1].

ولكنّي بعد ما وضعت المسمعة مِنْ يدي وانقطع الصوتَان: صوت الرئيس وصوت الضَّمير. فكَّرْتُ مَليّاً [2] في المُهِمَّة [3] التي ألقيتها على عاتقِي فأدركْتُ أنّي تسرَّعْتُ وكان يجبُ علَيَّ أنْ أتروَّى وأتبصَّر. فلا مُسَوِّغ [4] أنْ أدعو النّاس إلى وليمَة وليس عندي ما يؤكل ولا ما يُشرَبْ. ولا أنْ أعدَ بأنّي سأتبرَّع بمائة دولار وليس بإمكاني أن أتبرَّعَ بواحد مِنْ المائة.

غيْر أنّي وعدْت. ووعد الحرِّ دَيْن. وصعُبَ علَيَّ أنْ يقال أنَّ إيليّا خذَلَ إيليّا.

وها أنا الآن أمامكُم أيُّها الجمع الكريم. جئتُ لأنجزَ وعدي. ولأشترك مع المحفَل [5] ومعكُم في تكريم الموتَى.

فمن هم الموتَى؟

يقول الذي لا يفكّر كثيراً. إنّهم أناسٌ كانُوا في هذه الدُّنيا وغيّبَتْهُم المقابِر فهم رِمَمٌ باليَة لا يُرجَى نفعها ولا يُخشَى أذاها.

لا، هذا غير صحيح. فالموتَى معنا وإنْ طوَتْهُم الأجداث. ولا تزالُ لهمْ عليْنَا سُلْطة ونفوذ وإنْ كانُوا أمْسَوْا رِمَماً باليَة وعظاماً نخِرَة.

إنْحلال الموجة لا يعني اضمحلالها. فهي ما زالَتْ في البَحْرِ تسكُنْ عندما يسكُنْ وتثورُ عندما يثُور.

بل إنَّ كثيراً مِنَ الموتَى وهم الرُّسُل والحُكَمَاء والعباقِرَة والمخترعُون لا يزالُون يكيّفُون أطوارنَا وأخلاقنا. ويتحكَّمُون في عقولِنَا وعواطفنا ويقضُون بيننا فنرضخُ لأحكامِهِم ونحن أحياناً ندري وفي أكثر الأحايين لا ندري.

---

1 حبّاً وكرامةً: الحُبّ الوِداد ويقال في التَّرحيب حبّاً وكرامَةً.

2 ومَلاوَة من الدَّهْر ومَلْوَةٌ مثلَّثتين. برهةٌ منه. والمَليّ الهَويُ من الدَّهْر. وهَوِيُ ويُضَمّ وتَهْواءٌ من اللَّيل ساعة.

3 المُهِمّ الأمر الشديد.

4 مسوِّغ: ساغ الشيء طاب وهَنُؤَ وساغ الشيءُ جاز وأُبيحَ.

5 المَحْفِل مكان الإجتماع.

بل يمكنني أنْ أقول أنَّنا قلَّما[1] تمرُّ بنا لحظة لا نتَّصلُ فيها بواحدٍ مِنَ الأموات. يحدِّثنَا كيف كان يقول ويفعل. وكيف كان يحبُّ ويكره. وكيف كان يأكلُ ويشرب. وكيف كانَتْ الحياة في زمانِه. وأحياناً يلقي علينا عِظَات مِنْ أبلغ العظَات في قصرٍ شادَه أو جسرٍ رفعَه. أو صفيحة نقشَها. أو بيت شِعْرٍ قالَه.

بلْ إنَّ الدُّنيا التي نحن فيها هي دنيَا الموتَى وهم الذين جعلُوها كما هي.

هم الذين بَنَوْا البيُوت التي نسكنها. وهم الذين شادُوا المعابِد التي نصلِّي فيها وهم الذين ألَّفُوا الكتب التي نطالِعها وهم الذين غرسُوا الأشجار التي نأكُلُ أثمارها ونتفيَّأُ أظلالها.

وهم الذين أعدُّوا الطرقات والمسالِك التي نسيرُ فيها.

وهم الذين سنُّوا الشَّرائِع وقَـنَّـنُوا[2] القوانين التي نتمشَّى عليها في معاملاتنا وشؤوننا.

أنظرُوا إلى القطار الذي يصل البلد بالبلد والولاية بالولايَة والقُطْر بالقُطْر. أليس هو فكرة إنسان مات؟

وهذه الطيارات التي تُزاحِم النسُور في الفضاء وتُحَلِّقُ فوق الغيُوم وتثِبُ مِنْ شاطيء قارَّة إلى شاطيء قارَّة إنَّها في الواقع أحلام أناس صاروا الآن رهنَ الحفَائِر.

فالكهرباء التي نضيء بها منازلنا ومحافِلَنا وشوارعنا ونحرِّكُ بها دواليب المعمل والقطار والآلات المختلفَة. أكانَتْ تكون لنا لولا إنسان هو الآن بين الأموات؟

والسفن التي حملتنا في البَحْر. أنحن الذين أنشأناها أمْ أنشأها الموتَـى؟

وما بالي أبعُدُ بكم في الزمَن كثيراً. فأذكر لكم السفينة والقطار والبيوت والأشجار والكهرباء والكتاب والدرب وغير ذلك مِنَ البركَات التي ننعم بها بفضل الموتى. والأهمَ مِنْ هذا كلّه علينا ـ نحن الأحياء ـ ألاَّ ننسى أنَّنا نحن أبناء الموتى؟

فنحن إذا شئنَا أن نكرِّم الذين تركُوا لنا هذه الأشياء الثَّمينَة النَّافعَة ـ ومِنَ الواجب أن نكرِّمَهم ـ فعلينَا أنْ نفعلَ كما فعلُوا والذي أعنيْه أنْ نتركَ للذين يأتُون بعدَنَا مثل الذي تركَه لنا الذين جاؤوا قَبْلَنا.

لا يكفِي أن نَحْصُدَ ما زرعُوا. بل علينا أن نزرعَ نحن ليَحْصُدَ غيرنا. ولا يكفي أنْ نلبس ما نسجُوا بل يجب أنْ ننسجَ نحنُ لعلَّ غيرنا يَلْبس. وأنَّ الأمر ميسور لنا أكثر ممَّا كان ميسوراً لهم.

لم يغادر هذا العالم إنسان إلاّ وقد ترك وراءه أثراً حسناً أو أثراً غير حسن فعلينَا كلَّما وجدْنَا حَسَنَا أنْ نستبقيْه وأنْ نزيدَ عليه. أمَّا إذا كان هناك شيء غير حَسَن فما أَحْرانا أنْ نطويه وننصرف عنه. فإنَّ

1 قَلَّما: قَلَّ فعل ماضٍ لا فاعل له وما زائدة. مثل كثر ما.

2 قَنَّنَ وضع القوانين.

تركَ الشرِّ فضيلَة كفضيلة عمل الخير.

وعندي يا سادة. إنَّ فكرة تكريم الموتَى التي دعا إليها مَحْفِل دمشق الموقَّر شيءٌ حسن يشيرُ إلى أنَّ المَحْفِل كالأم لا ينسى أبناءه. وتلبيتكم دعوته شيءٌ حسن لأنَّه دليل على أنَّكم مثل المَحْفِل تعرفُون ما للرِّفاق الذين طَوَتْهُم الأرض عنَّا مِنَ الفضل والجميل علينا. فكلّهم قد وفَّى قسطه في الحياة. وليس بينهُم مَنْ لم يترك بيننا أثراً جميلاً إمّا بما ترك مِنَ القدوَة الصَّالحَة. وإمَّا بما ترك مِنَ البنين الذين يسيرُون اليوم على آثارِه.

وإذا كان المهاجرُون مِنْ قومِنا قد ارْتَقَوْا وبلغُوا منزلَة عَلِيّةً[1] في عالم التِّجارة أو عالم الصناعَة أو عالم الأدب أو عالم الإجتماع. فمرجَع ذلك كلّه إلى الأوَّلين الذَّاهبين. فهم المتقدِّمُون والفضل للمتقدِّم.

فلنذكرهُم بإجلال. ولنكرِّم ذكراهُم. كافأهُم الله عنَّا وأبقاكُم طويلاً.

السَّمير: 12/ 3/ 1941

عندما ينام العقل

عندما ينام العقل يستيقظ الحيوان الرَّاقِد في الإنسان فيصير نزَّاعاً إلى الفتْكِ والبطْش والسيطرة. وتشتدُّ فيه روح الأنانيَّة فيقسُو ويصبح يتوهَّمُ أنَّ الدُّنيا خلقَتْ له وَحْدَه وأنَّ غيره لا حقَّ له فيها فإذا إدَّعى أنَّه ذو حَقٍّ كان معتدياً وأثيماً.

ما شبَّتْ حرب بيْنَ أمَّتَيْنِ إلاّ وكانَتْ العقُول فيها نائِمَة أو مخدَّرَة أوعليها غِشَاوَة[2] مِنْ وهمٍ أو خيَال أو ضَلالَة.

والدَّليل على ذلك أنَّ النَّاس يعودُون بعدَ كُلِّ حرب ينادُون بالإخاء البشريّ العامّ ويدعُون إلى التَّضامُن في القول والفعل.

أجل، إنَّهم يصيرُون حكمَاء وهُدَاة ومُبشِّرين بعدَ انْ تكونَ الشبيبَة قد صهرَتْها نيرانُ المدافِعِ وشوَّهَتْها القذائِف والخناجر.

ويصيرُون بشراً حكماء ولكنْ بعد انْ تكونَ المدائِنَ الجميلَة صارَتْ خرائِب. والحقول أصبحَتْ بلاقع[3]. والأوديَة امتلأتْ بالدِّمَاء والجُثَث وصارَ العويْل يتعالَى مِنْ كُلِّ قرية ودَسْكَرَة[4].

---

1 العِلِّيَ أعلى مكان وأعلى درجة ج عِلِّيّون.

2 الغَشاوة: الغِطاء.

3 البَلْقع: وبهاء الأرض القَفْر ج بلاقع.

4 الدَّسْكرةُ: القرية العظيمة ج دَساكر.

إنَّ النَّفس البشريَّة أغربُ شيء تحت الكواكِب ففيها تلتقي السَّماء وجهنَّم في وقتٍ واحد. وعنْها يَصْدُرُ الخيْر والشر معاً.

أُنْظُر إلى هذه الحضارَة الجميلة العظيمَة واسأل مَنْ هذا الذي بناهَا ـ أليس الإنسان؟!

ثم انظُر إلى الحروب وويلاتِها وقُلْ مَنْ الذي يُضْرِمُ نارها وينشرُ بلاياها في الأرض.

مَنْ هو غَيْر الإنسان ذاته!

أجل. إنَّ هذا الإنسان الذي يتحوَّل في لحظة مِنْ ملاكٍ سويّ[1] إلى شيطان رجيم[2]. قد استطَاع أنْ يصلحَ الأرض ويرقَى بالنَّبَات والشَّجَر ويروِّضُ الحيوان ويمتلك ناصيَة الأمواج والهواء والسُّحب حتى الجوهَر الفرد ولكنَّه حتى الساعة لم يستطِعْ أنْ يبدِّلَ أطواره فيصير ملاكاً بحتاً[3] أو شيطاناً صرفاً.

وما دام كذلك فسوف تظلّ البشريَّة كما كانَتْ مِنْ قَبْلُ تتآخَى عصراً وتقتتِلُ سنة فتُهَدِّم في سنةِ القتال كُلّ ما بنَتْ في عَصْرِ السِّلْم.

وستبقَى الأرض مسرحاً للآمال الضاحكَة والأماني الباسمَة فترَةَ مِنَ الوَقْت تَعْقُبها فترةٌ أخرى تنطوي فيها الآمال والأماني ويرجع الظلام والهَوْل يغطِّيان السُّهُول والقِمَم!

والإنسان في كُلِّ مكان هو الإنسان. وليس في الإمكان أحسن ممَّا كان!

فالعياذ بالله مِنْ ساعة تنام فيها العقُول وتستيقظُ شياطيْن الجَهْل والهَوَسْ والنَّزَعات الحيوانيَّة في النّاس.

السَّمير: 25/ 3/ 1941

إزرع جميلاً

يجيءُ إليك صديق فيقصّ عليك حكاية له مع أحد النّاس لينتهي بكَ إلى أنَّ المعروف الذي يزرعه المَرْء بين النَّاس لا يُثْمر في هذه الأيَّام إلاّ أشواكاً وحسَكاً؛ لأنَّه هو أعانَ إنساناً وساعدَه ومهَّدَ له السَّبيل إلى الغنَى أو الشهرَة أو أنقذه مِنْ وَرْطة أو أخرجَه مِنْ أزمَة فكافأهُ بأنْ رجع عليه بالذَّمِّ والقَدْح[4] أو إنقلَبَ يكيد له ويسوقُ إليه الأذى.

ولا يكون في الحكاية التي يقصّها عليك شيءٌ مِنْ التزويق والتَّنميْق أو المبالَغَة ولا غاية له مِنْ سردِها إلاّ بسط واقعَة جرَتْ له لتعزِّز الإعتقاد في نفسِه وتوجدُ في نفسِك مثل اعتقاده بأنَّ النَّاس قد

---

1 سويّ: وسوَّاه تسويةً جعله سَوِيّاً.

2 الرَّجيم: الرَّجم القتل والقذف واللَّعن والشَّتم ورَمْيٌ بالحجارة ج رُجُوم.

3 البَحْت: الصِّرْف الخالص لا يخالطه غيره وعربيّ بحت خالص النَّسب.

4 القَدْح: وقدح الشيء في صدره أثَّر وقَدَح في عِرْض أخيه: عابَهُ.

فَسَدُوا ولم يَبْقَ للمعروف في الدُّنيا قيمة.

إذا سمعْتَ مثل هذه القصة فحَذارِ[1] أنْ تستسلم إلى الشكِّ في أنَّ الجميل لا يثمر. وحَذارِ أنْ يمنعَك هذا الإعتقاد عنْ أنْ تزرعَ جميلاً عندما يُتاح لك أنْ تزرعَه.

إزرعْ جميلاً فإنْ ضاعَ عند النّاس فَهْوَ لا يضيع عندك. لأنَّك لا تتصدَّق على الأعمى ليعود الأعمى فيكافئك ولا تساعد الجُندي الذي سقطَ في ساحة الجهاد ليجزيَك عنْ صنيعِك. ولكنَّك تتصدَّق على الأعمى لأنَّ قلبك يستشعر لذَّة فائِقة عندما تمدُّ يدك إلى جيبك وتخرج منها درهماً يمكنك أنْ تستغني عنْه وتفيد به أنساناً لا يَقْدر أنْ يخبّيء الدرهم. وتنجد الجندي الجريح بالمال الذي يشتري به العلاج والضِّماد لأنَّ ذلك الجندي سواءً كان ابن وطنك أو ابن أيِّ وطن آخر إنسان تركَ المال والأهل والوطن ليقومَ بواجبٍ مقدَّس فهو قد بذَلَ روْحَه قبل أنْ تبذُلَ أنْتَ درهَمَك.

وإذا قلْتَ أنَّ الذي تصنع معهم جميلاً ليسُوا جُنوداً ولا عُمْياناً ولا مرضى وإنَّهم بدلاً مِنْ أنْ يعترفُوا بالجميل أنكرُوه وبدلاً مِنْ أنْ يجزُوْك بالإحسان إحساناً جَزوْك ذمّاً وعدواناً فاذكُر أنَّهم هُمُ الخاسرُون لا أنت؛ لأنَّهُم بعملِهم يوصدُون الأبواب التي كانَ الجميل يدخل منها إليهم. فإنَّ الكلب الذي تطرح اليه اللُّقمَة فيهرّ عليك أو يثبُ لتمزيق ثيابك لنْ يجد إنساناً آخر يطرح إليْهِ اللُّقمَة. والأرض التي تسقيها فلا تُنْبتُ غير الشّوك لنْ ترجعَ إلى سقيها وريِّها. ولا هي تستطيع أنْ تخرجَ عشباً ولا بقلاً ما دامَتْ رملاً!

فإذا أنْتَ خسرتَ مالاً أو وقتاً أو مَجْهُوداً في صنع جميل مع إنسان ورجعَ إليك بالإساءَة فأكبر مكافأة لك على صنيعِك أنَّك اكتسَبْتَ عِلْماً وحكمَة وصِرْتَ بعد تلك التَّجْرِبَة أكثر معرفَة كيف تصنع الجميل ومَعْ مَنْ تصنعه.

وهناك أمر آخر يحسن بك أنْ تتذكَّره دائِماً وهْوَ أنَّ المرء لا يصنع جميلاً إلاّ وهو يجدُ لذَّة في صنعِه سَواء كان مع مُستحِق أم مع غير مسْتحِق. وهذه اللَّذَّة أحسن مِنْ أحسن مكافَأة.

السَّمير: 30/ 3/ 1941

الإنسان الإله

ما برحَ الفلاسفَة والمفكرُون يتطلَّعُون إلى اليوم الذي يصيرُ فيه الإنسان أكثر مِنْ إنسان. أي فوق مستَوى الإنسان الحالي وهو ما يدعونه «سوبَرمان».

وإنَّك لتَرى هذه المساعِي مبذُولَة لتحقيق هذا الحلم الجبَّار في المدرسَة والبيت والمعسكَر. والمختبَر

[1] حذارِ اسم فعل أمر بمعنى احْذَرْ تقول حذارِك زيداً.

الكيماوي والمعهد العلمي والدائِرَة الفنيَّة أو الميكانيكيَّة ولكِنَّ هذه كُلّها لم تبدِّل أطوار الإنسان وإنْ بدَّلَتْ مظاهره. وغيَّبَتْ مظاهر الحياة حوله بل الذي تمّ هو أنَّ الإنسان العادي تحوَّل إلى وحشٍ راقٍ كما تدلُّ الحرب الحاضِرَة التي استخدَمَ فيها الإنسان المُتعلِّم الرَّاقِي كُلَّ علم حَذَقَهُ[1]. وفنَّ أتقَنَه. للبطش بأخيْهِ الإنسان. وتقويض ما بَنَتْهُ يداه.

إنَّ هذه الزَّوبَعَة الهوجاء[2] التي تقصفُ في جوانب أوروبا ويملأ زئيرها جوانب الدُّنيا لنْ تدوم بلْ سوف تسكنُ أخيراً ويرجع الإنسان إلى رُشْدِهِ فيدرك أنَّه لم يكنْ إنساناً ولم تكنْ أفعاله غير جرائِم ومآثم.

وسوف الفلاسفَة والشُّعَراء والمفكِّرُون يفكِّرُون فيدركُون أنَّ «السوبرمان» أو الإنسان الإله الذي حلمُوا به قد جاء إلى الأرض منذ 1941 سنة. وأنَّ النّاس لو إتَّبَعُوه وعملُوا بتعاليمِه في غير رِياء ولا تصنُّع لصارَ كُلّ واحد منهم سوبَّرمان

«مَنْ سخَّرَك ميلاً فامشِ معه ميلين»

لو فعل كُلّ إنسان بهذه الآيَة لَما وُجِدَ إنسان يسخِّر إنسانا

ولو عملُوا كلّهم بالآيَة «مَنْ لطَمَك على خدِّك الأيمن حوِّل له الأيسر» لما ارتفَعَتْ يد تَلْطِمُ خداً أيمن ولا خدًا أيسر.

«أحبُّوا أعداءكُم باركُوا مبغضيكُم».

إنَّ الإنسان لضَعْفِه يصعَبُ عليه أنْ يحبَّ عدواً له وأنْ يبارِكَ مبغضاً. وما دام فيْه هذا الضَّعف فلنْ يتسنَّى له أنْ يتجرَّدَ مِنَ الغرائِز الحيوانيَّة ويصير «سوبَّرمان».

ولكنَّ النّاس لبسُوا تعاليم النَّاصريّ كما يَلْبَسُون الثياب. الثُّوب الجديد النفيس يجمِّلُ مظهر الإنسان ولكنَّه لا يبدِّل أطواره ولا يخلق فيه نزعات جديدة وإلاَّ لكانَتْ الدُّمَى والأصنَام التي نخلعُ عليها أجمل الحُلَلْ وترصَّع بأثمن الحُلِيّ تصير مخلوقَات حيَّة راقيَة.

وعلى الجملة، إنَّ الإنسان الذي ابتدَعَ الآلة العجيبَة ما زالَ يتعبَّدُ لها حتى صار هو مثلها آلة صمَّاء لا حنان فيها ولا شعُور.

فيجدر بالنّاس لمناسبَة عيد قيامَة النَّاصريّ مِنَ القبر أنْ يفكِّروا مليّا ويقابلُوا بيْن حالة البشريَّة اليوم وحالتها لو تمشَّى النّاس على تعاليمِه فزهدُوا في ما عند غيرهم وأحبُّوا أعداءهم وباركُوا لاعنيهم وأحسنُوا إلى الذين يسيئُون إليهم.

إنَّ الطَّريق إلى «السوبَّرمان» هو هذا السوبَّرمان الإله.

السَّمير: 19/ 4/ 1941

---

1 الحذق: حَذَقَ فلان العمل وفيه حِذْقاً أوغل في ممارسته حتى مَهَر فيه.

2 الهَوْجاء: الرِّيح تقلع البيوت ج هُوْجٌ.

حادث غير منتظر

نريد أنْ نسوقَ إلى قرّاء «السّمير» خبراً لا نستطيع كتمانه عنهم لأنَّ في كتمانِه ضرراً. ولا ندري كيف نذيعه لهُم وفي إذاعتِه جرح لكرامة لا نودُّ أن تجرحَها يدُنا.

على أنّنا سنذيعه ونتحاشى أنْ نسيء حتى إلى الذي أساءَ إلينا وتعمّد أذانا في حين كنّا نسوق إليه الإحسان ونحاول جهدنا أنْ نجعلَ منه إنساناً مكرّما محترم المغيب والمحضر.

ولو أنَّ الإساءَة لحقَتْ بنا شخصياً دون أنْ تكون لها علاقة بهذه الجريدة التي هي مؤسَّسة عموميّة تخصُّ أنصارنا اكثر مما هي تخصُّنا لسكتنا عنها وصفحْنا عن مرتكبيْها كما فعلْنا في كثير مِنَ المواقف مع أناس طُبِعُوا على حُبِّ الأذى كالعقارِب.

ولكنَّ الأمر أعظم. والإساءَة كانَتْ موجَّهَة إلينا وإلى «السّمير» ومشتركيها في وقتٍ واحد. وكانَتْ إساءَة فيها خرق للشَّرائِع الأدبيَّة والمدنيَّة والدِّينيَة في وقت معاً.

هذا هو الحادث غير المنتظَر الذي وقع في منتصف هذا الأُسْبوع فكانَ أشبَه بفوهَة إنشقَّتْ في الأرض بغتَة تحت أقدامنَا وإذ بهذه الفوّهَة يغيبُ فيها منضِّدُ «السّمير» ويحال بينه وبيننا مِنْ جهة. وبينه وبين العمل الذي كان فيه مِنْ جهة أخرى.

أجل. وقع حادث غير منتظَر وكان حادثاً غريباً ومحزنا في وقت واحد. فاضطررنَا وقد ذهب المنضد على هذه الصورة الفجائيّة أنْ نهجر كُلَّ عمل آخر حتى الواجبات المقدَّسة وننصرف إلى تنضيد الجريدة بأنفسِنا على رغم أنَّ هذه المهنَة ليسَتْ مهنتنا ولا جلَدَ لنا عليها.

ولهذا السَّبب تأخَّر صدور الجريدة يوم الجمعَة إلى اللَّيل. وتأخَّر صدور عدد السبت إلى الأحد. لأنّنا على رغم محبّتنا لهذه المؤسَّسَة التي نذيبُ في سبيلِها دم القلب وسَواد البصَر لم نستطِع أنْ نتقاعسَ عن توديع الصَّديق الوفي الذي رحل عنَّا إلى الدَّار الباقيَة. وهو المرحُوم نعمه صدقه. وليس بكثيرٍ علينا أن نقومَ بهذا الواجِب نحو صديق لمْ يتقاعس قط عن القيام بواجب.

وكان ذلك يوم السَّبت.

ولولا أنّنا نعرفُ ما يساورُ القرّاء الأعزّاء مِنَ القلقِ كلّما تأخّر وصول «السّمير» إليهِم في مواقيتِها لَما أشرْنَا إلى هذا الحادث.

ولكنَّنا خشينَا إذا كتمنَا الأمر عنهُم أنْ يتوهَّمُوا أشياء غير موجُودَة وأنْ يرجِعُوا علينا باللَّوم. فضلاً عنْ أنَّ صدور «السّمير» في هذا الأُسْبوع سيظَلُّ مشوّشاً نوعاً ما إلى أنْ يتولّى المنضِّد الجديد العمل فترجع الجريدة إلى الصُّدور في أوقاتِها.

ولا شك أنَّ القرّاء الآن يطالبونَنا بالإفصاح ويلجُّون في معرفة حكاية الحادث وكيف جرى. وهذا

حقٌّ لهم لا نتهرَّب منه ولكنَّنا نرغب إليهم أنْ يتريَّثوا ويصطبروا فلكُلِّ شيء ميقات. وعندما يحين الوَقْت سيعرفُون كل شيء.

السَّمير: 26/ 4/ 1941

ذلك الحادث

نرانا مضطرِّين مع الأسف أنْ نخرج مِنْ التلميح إلى التصريح في سرد الحادث الذي وقع في إدارة «السَّمير» وأشرنا إليه في مقالِنا الذي كتبناه بعنوان «حادث غير منتظر» وها نحن نقصّه على القرّاء لا لغرابتّه فحسب بل لما فيه مِنْ العظَة والعِبرَة.

منذ ثلاثة أسابيع إلتقينا بالسيِّدة روز أندراوس زريق فما كدْنا ننتهي مِنَ السلام عليها حتى بادرتنا قائلة - هل وصلَتْ إليك حوالة مِنْ ابني وليَم؟

فحرنَا كيف نجيبها لأنَّنا لم نتذكَّر أنَّنا استلمنَا حوالة منه. فسألناها: متى أرسلَها؟

فشعرَتْ أنَّنا لم نستلم الحوالَة وبدَتْ في وجهها علامات التعجُّب. أمَّا نحن فغيَّرنَا مجرى الحديث.

وكان صباح اليوم التالي فإذا بها تخاطبنَا على التلفُون وتعاتبنا قائلة كيف قلت لي إنَّك لم تستلم الحوالة؟

فقلنا لها: ولماذا كُلّ هذا الإهتمام منْكِ بأمر حقير كهذا؟ وطيَّبنا خاطرها بما حضَّرنا مِنَ الكلام.

ولما انتهى حديثها معنا عدنا إلى الدفاتر نبحث عن أثر للحوالة فلم نجدها مقيَّدة في موضع. وراجعنا الذَّاكِرَة فلم نجد في زواياها خيالا لها ولا شبه خيال. فتناولنا التلفون وخاطبنا وليم وسألناه إذا كانت الحوالة المقبوضَة معه. فأجاب: إنَّها في جيبي لأنَّ أمِّي لم تصدِّق أنِّي أرسلتها حتى أريتَها إيَّاها مقبوضَة.

قلنا: هل لك أنْ تنظر التوقيع عليها في الجانب الثاني منها؟ فقال: إنَّ عليها اسمك واسماً آخر تحته.

فأدركنَا في الحال أنَّ في الأمر تلاعباً لأنَّنا لا نعطي حوالة مشترك إلى أحد إلاّ البنك. فقلنا له حسناً احتفظ بها إلى أنْ نتلاقى في المساء.

وتلاقينَا في المساء ورأينا الحوالة فإذا ما ظننَّاه هو الحقيقة فإنَّ التوقيع مزوَّر.

وفي اليوم التالي تلقَّينا رسالة مِنْ صديقنا يوسف فلفلي في لورنس ماس يعاتبنا بل يوبِّخنا لأنَّ الإدارة أرسلَتْ تطالب الآنسة لميا كواش ببدل الإشتراك مع أنَّها دفعتْه منذ حين قريب. وأرفق رسالته بالحوالة المقبوضة. فنظرنا الإسم فإذا هو مزوَّر أيضا تحته كالحوالة الأولى اسم آخر تصعب قراءته.

فحملنا الحوالتين إلى البنك الذي أودعهُما فيه صاحب الاسم الثاني. وهناك شرحنا لمدير البنك

حكاية الحوالتين. وقلنا له أنَّ التوقيع عليهما ليس توقيعنا. وسألناه كيف السبيل إلى الإهتداء إلى السَّارق المزوِّر؟ فلمَّا تحقَّق أنَّ في الأمر تزويراً قال: نحن نهتم بالأمر. وتناول التلفون وخاطب في الحال أحد رجال الخفية وأطلعه على حكاية الحوالتين.

ولما فرغ من الحديث قال: يجب أن تترك الحوالتين هنا لتصويرهما وأنا أعطيك وصلاً بهما. فتركناهما معه وأخذنا الوصل ورجعْنَا إلى مكتبنا.

وفي صباح اليوم التالي جاء إلى إدارة «السَّمير» أربعة مِنْ رجال الخفية وتقدَّم إلينا كبيرهم وسألَنَا عن عدد العمَّال في المطبعة والإدارة فأخبرنَاه. وعمَّا إذا كنَّا نرتاب في أحدٍ منهم فقلنا: كلاَّ.

فقال: إنَّنا سنرجع بعد قليل.

وذهب الأربعة وغابُوا نحواً مِن عشرين دقيقة وعادوا ومعهُم رجل يوناني يملك مطعماً في اتلنتك افنيو. وطلبُوا الدُّخُول إلى المطبعة واليوناني معهم فمشينا وإياهم ودخلنا. وهناك سأل أحدهم الرجل اليوناني ـ مَنْ هو الذي صرف منك الحوالات؟ فأشار بيده إلى المنضِّد الذي لا نسمِّيه. فسألوه: هل هذا خطك؟ أجاب: نعم.

ـ وهل أنت الذي صرفت الحوالتين مِنْ هذا الرجل؟

قال: نعم.

ـ كيف حصلْتَ عليهما؟

أجاب: واحدة أعطاني إيَّاها المستر ماضي والثانية أعطانيها أَخوه.

فالتفتَ رجل الخفية إلينا كأنَّه يسأل هل صحيح ما يقول؟

فقلنا: هذا غير صحيح.

ولا حاجة بنا إلى القول أنَّ رجال الخفيه أخذوا الرجل إلى مكتب المدَّعي العمومي واضطُرِرْنا نحن والرجل اليوناني أنْ نذهبَ معهم أيضاً حيث كتب محضر بالواقِعَة وعدْنا ونحن نتأسَّف لما جرى.

ولكنَّنا مع سوء فعلته معنا. وجنايته على ذاته، لم نستطع أنْ نهملَه وننساه. فخاطبنَا صديقنا السيد سعيد كوكباني وأطلعنَاه على حكايته وقلنا له إنَّنا لن نشدِّد في محاكمته بل سوف نسترحم له القاضي ومِنَ الضروري أنْ يخرج مِنَ السجن. فتبرَّع حضرته بالقيمة اللازمة للحصول على كفالة مِنْ إحدى الشَّركات. وموعد خروجه مِنَ السجن كما فهمنَا مِنَ المحامي هذا النَّهار ـ الأربعاء.

هذا هو السَّبب في تأخُّر «السَّمير» مدة ثلاثة أَيَّام عن مواقيتها المعتادة. أمَّا الآن فقد رجع كل شيء إلى نظامه السابق بفضل المنضِّد الجديد الذي تولَّى العمل.

والآن بعد أنْ شرحنا الحادث وبسطناه نرجو كل مشترك دَفعَ اشتراكه ولم يصل إليه منَّا وصل بالقيمة موقَّع باسم صاحب «السَّمير» أنْ يتكرَّم بإرسال الحوالة المقبوضة إلينا في الحال. لأنَّنا لا نعلم كم هو عدد الحوالات المسروقَة. فالرجل اليوناني يقول إنَّ المتَّهم صرف منه أربع أو خمس حوالات.

إنَّما الحقيقة كلُّها لا تتَّضح إلاّ إذا أجاب المشتركُون الذين أشرنَا إليهم هذا النداء وعملوا برجائِنا فنعلم إلى أيٍّ مدى وصلَت هذه الفعلَة.

وكلَّما انكشَفَتْ لنا حوالة مسروقة فسوف نقيّدها لمرسلها ونحن نتولَّى تحصيل قيمتها مِنَ البنك الذي صرفَها وهو يتولَّى تحصيلها مِنَ الشخص الذي أودَعَها فيه.

السَّمير: 1/ 5/ 1941

يـوم الأم

إلى الأمهات في الأكواخ والخيام.
والأمهات في بيوت الحَجَر وقصُور الرّخام.
والأمهات اللَّواتي نبا بِهِنَّ كُلَّ مَقام.

* * *

إلى الأمهات اللواتي رصَّعن مُتُون التَّاريخ بأسماء الأنبياء والشُّعراء والحكماء.
والأمهات اللواتي وضعْنَ في حواشيه أسماء اللُّصوص والقتلة والأشقياء.
والأمهات اللَّواتي ليس لهن في التَّاريخ شهرة ضخمة ولا شهرة ضئيلة.

* * *

إلى الأمهات السائِرات في مواكب الدُّموع والحسَرات إلى وادي الفناء.
والأمهات السَّائِرات في مواكب الإبتسامات والأغاريد إلى هيكل الخلُود.
والأمهات اللَّواتي لم يسرنَ بعد في موكب ضاحك ولا موكب بـاك.

* * *

إلى الأمهات اللَّواتي وَلدْنَ الآباء والأمهات.
والأمهات اللَّواتي لم يكتبْ لهنَّ أنْ يصرنَ أمَّهات.
والأمهات اللَّواتي سيصرْنَ أمَّهات.

* * *

إلى الأمهات اللَّواتي تملأ أجفانهن الدُّموع على ما كان.
والأمهات اللَّواتي يبكينَ إشفاقاً ممَّا سيكُون.
والأمهات اللَّواتي يتلهَّفْنَ ويتحسَّرنَ على ما يشتهينَ أنْ يكون.

* * *

إلى الأمهات اللَّواتي يَبْتَسِمْنَ للرؤى والأحلام.
والأمهات اللَّواتي يَبْتَسِمْنَ ليخلقْنَ حولَهُنَ الرؤى والأحلام.
والأمهات اللَّواتي يَبْتَسِمْنَ ولا رؤى لهُنَّ ولا أحلام.

* * *

إلى الأمهات اللَّواتي تحت أطباق التُّراب وفي ظلمات الرُّمُوس.
والأمهات اللَّواتي يسطَعْنَ في سماء الحياة كالشُّموس.
والأمهات اللَّواتي لم ينحسِرْ بعد عنهُنَّ ضباب الأبد.

* * *

إلى أمَّهات الأمس وأمَّهات اليوم وأمَّهات الغد.

إلى كُلِّ أمّ. إلى الإله الصغير في الأرض. تحية الأرواح والقلُوب في يومِها وكُلِّ يوم في الدَّهر هو يومها. وأيُّ كلمة أَعذب في الأفواه وأحبُّ إلى المسامع وأعلق بالقلوب والأرواح مِنْ هذه الكلمة المقدسيَّة ذات الشَّذى والنُّور ـ الأمّ.

السَّمير: 10/ 5/ 1941

في مدينة لورنس

تغيَّرَت الدُّنيا ومَنْ عليها في ولايات نيوانكلند.

تغيَّرَت مِنْ حسَن إلى أحسَن. فبعد أنْ كانت معامل النسيج في لورنس ماس كبيُوت مهجُورة بعد زلزلة ترفُّ عليها سكينة المقابر إذا بها في هذه الأيَّام ترجع إليها الحياة والحركة كما رجعَتْ الخضرة إلى الأشجار.

أمَّا النَّاس الذين كانت تغصّ بهم النوادي والمقاهي في النَّهار فإنَّك لا ترى منهم أحداً إلاّ الذي يشتغل في اللَّيل ويستريح في النهار. فإنَّ بعض المعامل لا تهدأ ولا تنقطع عن العمل طيلة الأربع والعشرين ساعة. وبعبارة ثانية إنَّها تشتغل ثلاثة أضعاف المعدَّل العادي. وإذا أضيف إلى ذلك الآلات الجديدة التي زادَتها على ما عندها كان معدَّل ما تنتجه اليوم أكثر مِنْ ثلاثة أضعاف ما كانت تنتجه مِنْ قَبْلُ حتى في أيَّام الرَّخاء الماضيَة التي تلاشتْ كأنَّها الأحلام.

وكنْتَ مِنْ قَبْلُ تلقى المرء سواء كان تاجراً أم عاملاً فتراه في حيرة المسافر الذي ضلَّ الطَّريق وفرغ منه الزاد وأدركَهُ اللَّيل وهو في الصحراء.

أمَّا اليوم فحيثما سرْتَ وجدْتَ بشاشة وارتياحاً وانتعاشاً. فقد رجِعَتْ الحياة تضحك وعاد النَّاس

يبتسمُون. ولا شيء يعكّر عليهم هذه الغِبْطة إلاّ فواجع الحرب التي يتمنَّى كثيرون أنْ تنتهي ولو ذهبَ معها هذا الرَّخاء. وأنْ تنتهي دون أنْ تتَّصل نيرانها بهذا الشَّطر الجميل السعيد مِنَ العالم. لكي يتسنَّى للولايات المتحدة أنْ تغيث العالم المنكُوب فتطعمَ الجياع وتعمِّرُ الديار الخربَة. وتحول دون اضمحلال الحضارة التي تذبح نفسها بسلاحها.

أنا الآن بين الأصدقاء. فأنا أكثرهم ربحاً. لأنَّهم هم كانوا يرونَني في «السَّمير» التي يطالعونها كُلَّ يوم أمَّا أنا فلم يكنْ لي مثل هذا الحظ منْهُم.

وكأنّي بهم أرادُوا أنْ يجعلُوا الأيَّام التي أقضيها بينهُم مواسم تنسيني السنوات التي مرَّتْ على آخر زيارة لي إيَّاهم في هذه المدينة. فما كدْنا نصل إلى المدينة حتى دعانا الوطني الغيُّور السيد سليم شعيب إلى منزلِه. وقضينَا سويْعَات لطيفة مغمورين بكرمِ أصحاب البيت ولطفهم.

وفي آخر السهرة جاء الرَّفيق المحبوب الأديبُ يوسف فلفلي وحمَلَني في سيارتِه إلى منزله. وما كاد الأصدقاء يتَّصل بهم خبر وجودي في المدينة حتى أخذَتْ الدَّعوات تترى علَيَّ غير أنِّي رفضْتُ أنْ أكونَ معهم داخل البيوت بل خارجها نظراً إلى الحَرّ. ولأنِّي مشتاقٌ إلى المحاسِنْ الطبيعية في هذا الشَّهر الفتي. وما أجمل أنْ يلتقي الأصدقاء في عرس الطَّبيعة.

ورأيْتُ مِنَ الواجب أنْ ازورَ رعاة الطوائِف الكريمة في المدينة. فبدأْتُ بالعالم اللَّوذعي والاكليريكي المجاهد قدس الارشمندريت بطرس ابو زيد الذي اكرم وفادتنا. وكان معي في هذه الزيارة الصَّديقان ميخائيل شعيب والمعلم قسطا أبورجيلي. فأثنَى قدسه على نزاهة «السَّمير» وحسْنِ بيانها ثناء طيباً لا يُستغربُ مِنْ رجل مثله ضليع في الأدب مالك ناصيَة البيان.

وزرْتُ في اليوم التَّالي مع صديقي الجوَّابَة المشهور السيد أسعد الحجَّار المونسنيور يوسف داود الفرخ فأخبرَني أنَّه كان يقرأ قصائِدي في جريدة البشير التي كان مِنْ عيْلَة التحرير فيها وكان يترنَّم بتلك القصائِد لجمالها.

وأردْتُ أنْ أزور كاهن الطائِفة الارثوذكسيَّة الأب جونسون الأميركي فقيل لي أنَّه مقيم خارج لورنس ولا يأتي إليها إلاّ يوم الأحد.

وأصرَّ الصَّديق أسعد الحجَّار على أنَّ راحتي لا تكمل إلاّ إذا نمتُ في بيتِه على الرَّابية العالية في ماتون ماس وهي ضاحية في لورنس تكاد تصير مدينة لكثرة تهافُت النّاس على السكن فيها.

والحقُّ يقال أنَّ موقع ذلك البيت في رأس الجبل ممَّا يباعدُ بين الإنسان وهموم المدينة ومتاعبها. ويقرِّبه مِنَ السَّماء.

ولعلَّ السرَّ في تهلُّل السيد أسعد الحجَّار الدَّائِم هو سكناه في ذلك المعتزل القريب مِنَ النجوم.

السَّمير: 21/ 6/ 1941

الإنسان والطَّبيعة

حبُّ الإنسان للطبيعة حبٌّ لا ينقضي. فهو يحبُّها ولداً ويحبّها شاباً ويحبّها كهلاً ويحبها شيخاً. وحبّه إيّاها في كُلِّ هذه الأدوار حبٌّ لا تصنُّع فيه ولا تكلُّفَ كحبُّ الابن للأم. فهو في أَيّام الصَّيف ينتقل إلى الشواطيء والجبال ليشاهدها في مطارفها الرائعة وحلاها الفتَّانَة. وفي أَيّام الشِّتاء عندما يتعذَّر عليه الخروج مِنَ البيت ينقلها إليه إمَّا صوراً شمسيَّة أو صوراً زيتية وإمَّا أزهاراً وأغراساً اصطناعيَّة. وكثيراً ما كان للرَّمز جلال الشيء الذي يرمز إليه.

وإنَّ في ولايات نيوانكلند مِنَ المحاسن الطبيعية ما تحسدها عليه ولايات كثيرة فهي في الصَّيف كنايَة عن بستان أنيق فيه الماء المصفق والزهر الفوَّاح والشَّجر الظليل.

كُلُّ غابَة فيها منتزه.

وكُلُّ شاطيء فيها مسرح.

وكُلُّ طريق فيها يؤدِّي إلى فتنة مِنْ فِتَنْ الطَّبيعة.

ولا يحتاج المقيم في مدينة صناعيَّة مثل لورنس إلاَّ أنْ يجتاز مسافة طويلة ليصل إلى منتزه أو شاطيء لذلك ترى الشواطيء الجميلة تغصُّ مساء بالنّاس الذين كانوا أثناء النَّهار في المعامل والحوانيت أو البيوت. فيصرفُون السهرة على بساط الرَّمل يصغُون إلى أناشيد الأمواج ترقبهم عيُون النُّجُوم السَّاهرَة ويرجعُون في آخر اللَّيل وقد اكتسبُوا نشاطاً وقوة وفرحاً.

ذهب بي الأصحاب إلى منتزه «مكة» في دري نيوهمشر القريب منْ لورنس لصاحبه المواطن النشيط طام معلوف. وهو عبارة عن غابَة كبيرة مِنْ أشجار الأرز نصبَتْ في جوانبِها الأرائِك وشيِّدَتْ فيها منازل للسُّيَّاح والمسافرِين وطلاَّب الرَّاحة والسَّكينَة. وهي بيوت خشبية أطلقَ عليها صاحبها اسم «uncle toms cabin» وهو اسْمٌ حبيب إلى قلوب الأميركيِّين كما أنَّ اسم «مكة» حبيب إلى قلوب العرب وإلى الذين يحبُّون العرب وهم كثر في كُلِّ ارض.

وبينما السيّارة تقترب منَّا مِنْ ذلك المنتزه روى لي واحد مِنَ الأصحاب أنَّهم اعتزمُوا زيارة «مكَّة» وكان معهم واحد يتردَّد في الذهاب معهم فحملُوه إلى السيَّارة وهم يقولُون:

خَطْرهْ ما عنها فكّه	لا تعارض ولا تَحْتَجْ
زيارة واحده لـ«مكَّة»	بترجَعْ منها بِلَقَبْ حَجْ

وعندي إذا لَمْ يرجع منها بلقب «حاج» فإنَّه يرجع وفي نفسِه طمأنينة غامرَة لا يشعر بمثلِها إلاَّ المؤمن الذي أدَّى فريضة الحج ونفض عن جوانب روحه الأدران التي علقَتْ بها.

ولمّا رجعْنَا دعانا إلى العشاء صديقنا الأديب المعروف عبد الله نجم سميا مترجم رواية «صادق» التي نشرناها في «السَّمير» ولاقَت استحساناً كبيراً مِنَ القراء. وفي امكاني أنْ أقولَ عن خبرة أنَّ معرِّب الرواية الفاضل تتجلَّى فيه صورة أخلاق بطل تلك الرواية وإنْ اختلفَتْ الحوادث في حياتِه عن حوادث بطل الرواية. فقد كان صادق يطلب المعرفَة ويحب الصَّلاح وهكذا عبد الله.

وكان «صادق» عالي الأخلاق كبير القلب عزيز النَّفس.

وكذلك معرِّب الرواية.

وهذا هو السِّرّ في اختياره هذه الرواية دون سواها. فإنَّ نزعَات الإنسان سواء كانت صالحَة أو طالحَة تظهر في الأشياء التي يختارها.

كنَّا في النَّهار ضيوفاً على الطَّبيعة الجميلة. ولكنَّنا في المساء كنَّا ضيوفاً على هذا الأديب الفاضل وزوجته المهذَّبة المضيافَة فوجدنَا هنا كما وجدنا هناك غِبْطة وسلاماً.

السَّمير: 23/ 6/ 1941

في مدينة مانشستر

في مدينة مانشستر ـ نيوهمشر نهضة اجتماعيَّة مباركَة بين قومنا لا تشوبها شائِبَة إلاّ انقسام الجاليَة إلى فرقتين مع أنَّ في الإمكان أنْ تكونَ كلّها فرقة واحدة. ولا أعني أنَّ هناك نزاعاً أو خلافاً وإنَّما هناك قوّتان تسعى كلتاهُما إلى غاية واحدة وهي رفع مكانة الجاليَة. اختلفَتْ المسالك ولكن الغرض واحد.

وهاتان الفرقتان هما الجمعيَّة السوريَّة الأميركيَّة والجمعية اللبنانية. للأولى نادٍ فسيح جميل يلتقي فيه اعضاؤها في أوقات الفراغ وهي جمعية حديثة إلاّ أنَّها نشيطة قويَّة.

وللثانية بناية فخمة كبرى مِنَ الحجر تصلحُ لأنْ تكون بيت الجالية كلّها لإتساعها وتوافر الوسائِل فيها للحفلات والإجتماعات.

بل هي بناية تمنَّيْتُ لو كان للجالية في مدينة نيويورك مثلها. وكم كانَتْ دهشتي عظيمة عندما قيل لي أنَّ الجمعية ابتاعتْها بثمن بخس لا يكادُ يوازي ثمن طبق واحد مِنْ أيٍّ منزل عادي.

وكانَتْ عندما اشترتْها مهجُوره فانصَرَف الأعضاء إلى العمل فيها بأيديهم ترميماً ودهاناً وترتيباً حتى جاءَتْ في شكلها الحاضر.

وموظَّفُو الجمعيَّة هم السَّادَة الآتية اسماؤهم. أدوِّنُها على صفحات «السَّمير» تقديراً لمساعيهم وجهودهم وهم:

رئيس ـ خليل عطا الله. نائب رئيس ـ أنيس أبو خليل. كاتم أسرار ـ اسكندر القزي. كاتب باللغة الانكليزية ـ يوسف قشوع. أمين صندوق ـ الياس قشوع. معاون أمين صندوق ـ حبيب أبو سليمان.

لجنة الوكلاء ـ يوسف عطا الله. سعيد أمين. أيوب الهادي.

قلت أنَّ في مانشستر نهضة اجتماعيَّة بين قومنا لأنِّي زرتها منذ بضع سنوات فوجدْت الجاليّة متفكّكَة العرى حائِرَة لا تدري كيف تتَّحد ولا على أيٍّ غاية تجتمع.

أمّا في هذه المرة فقد وجدْتُ فيها كتلتين ناميتين هما هاتان الجمعيتان ويبدو لي أنَّ السر في هذه النهضة هو الشَّباب المثقَّف الطامح إلى العمل ورغبة الآباء في إفساح مجال العمل أمام هذا الشَّباب.

وإذا اجتمعَتْ القوّتان ـ حكمة الشيوخ وقدرَة الشَّباب ـ وراء قصد أو مشروع فإنَّه لا يلبث أنْ يصير كبيراً وجميلاً.

ولقد زرْتُ الجمعيتين وأعجبْتُ بما رأيْتُ وسرِرْتُ بنهوض الجاليَة إلى العمل المثمر. ولعلَّ الوقْت لا يطول حتى نرى الجمعيّتين متحدثين متضافِرين في نطاق واحد للغرض الواحد الذي تسعيَان إليه الآن.

السَّمير: 27/ 6/ 1941

لماذا يسعد هذا ويشقى ذاك؟

ما هو السر في كون الرجل الفظ الخشن أقرب إلى السَّعادة في حياتِه مع المرأة مِنَ الرجل الأديب الدَّمث [1] الأخلاق؟

تناول بعض المفكّرين هذا الموضُوع بالبحث فقالوا والعُهْدَة [2] عليهم في ما قالُوا:

كلَّما سمَا خيال الرجل ـ والرِّجال أسمى خيالاً مِنَ النِّساء ـ وجد الحياة صعبة شاقَّة مع أيَّة امرأة. لأنَّ المرأة أقرب إلى الطَّبيعة مِنَ الرجل وهي كذلك لأنَّها حسَّاسَة أكثر منه. وهي لشدَّة إحساسها أكثر نزوعاً مِنَ الرجل إلى النِّضال والعراك حتى أنَّها لتجدُ في الغضب لذَّة كالتي تجدها في الرِّضَى.

وإذا تأمّلْتَ وجهها وهي تحدِّثُك لَمَحْتَ فيه الغبطة سواء كانَتْ تتحدَّث عن شيءٍ تحبُّه أمْ تتكلَّم عن شيءٍ تكرهه.

أمَّا الرجل فيتكلم إمَّا لكي يظهر ذكاءه وإمَّا ليستر ضعفَه وعجزه وإمَّا ليحفظ لنفسه خط الرَّجعة. وبعبارَة ثانية إنَّه يقيم مِنَ الحُجَج سوراً بينَه وبين حقائِق الحياة التي تواجهه.

ولكن الكلام مع المرأَةِ على خلاف ذلك فهي لا ترمي إلى التهرُّب مِنَ أمر واقع ولا إلى ستر عَجْز بل تتكلَّم لأنَّ الكلام شيء ضروري لحياتِها.

---

1 الدَّمِث: دَمُثَ دماثَةً ودُمُوثة سَهُل خُلُقه فهو دميث

2 العُهدَة: التَّبِعَة يقال على فلان في هذا عُهْدَةٌ لا خلاص منها.

إذن كيف يتسنَّى للرجل الذي يخلق الأوهام ويناضل عنها أنْ يكون سعيداً مع امرأة تشاركه المأوى والمطعم والمشرب في صباحِهِ ومسائه؟ كيف يسعد هذا المتخيِّل مع تلك التي يزعجها التَّخيُّل والتَّوهُّم؟

على الرجل أنْ يشاركها الموقف فيعيش معها كفيلسُوف لا يتوقَّع جزاء لفضيلتِهِ غير اللَّذَّة التي يستمدها مِنْ هذه الفضيلة ذاتها. ولكن عليه في الوَقْت نفسه أنْ يكون يقظاً كرقيب الطَّقس فكثيراً ما تكشَّفَتْ له وجوه الحياة الغامضة بواسطة هذه المرأة.

ولا شيء يضمن سعادة الرجل مع المرأة أكثر مِنْ إدراكِهِ الفرق بين ما يغضبه وما يغضبها. فهو يغضب عندما يشعرُ أنَّه مظلُوم أو مغبُون أو مُعتدَى على كرامتِهِ. إنَّه يغضبُ مسترشداً عقله أمَّا هي فيلُوحُ أنَّها لا تغضب لكراهَة أو بغض في نفسِها له بل تغضب لحبِّها إيَّاه. هذا غريب غير أنَّه الواقِع فالمرأة لا تسترشد عقلها بل إحساسها وما غضبها غير جزء مِنَ التعبير عن محبَّتها.

وإنَّه لرجل أحمق ذاك الذي يُعْنَى في جدٍ كثير بما يسمعه مِنْ فم المرأة وهي في حالة الإنفعال والغضب ويقيس أقوالها بمقياس العدل والحق فهي في تلك اللحظة لا تتحرَّج مِنْ أنْ تقذفَه بأيَّة عبارة جارحَة وهي تعرف جيداً أيَّ شيء يغيظه ويجرح كبرياءه. ولكنَّها بعد أنْ تهدأ وترضى تعود إليه قائلَة ـ أتصدق ما قلته؟ اتحسب أنِّي عنيته؟ وفي الحقيقة إنَّها لا تعني شيئا ممَّا قالتْه. لا تعنيه مِنْ الجهة التي يتطلَّع منها إلى الحياة. فمقياسها غير مقياسه. ونظرها في الأمور غير نظره. وعليه أنْ يدركَ هذه الحقيقة إلاَّ أنَّ الرجال الذين يدركونها قلال.

على الرجل الذي يريد أن يكون سعيداً مع المرأة أنْ يفهمَ فهماً جلياً قبل أنْ يشاركها العيش. أنَّها لا يهمّها مطلقاً مقاييسه الأدبيَّة ولا مقاييسه العقليَّة المنطقيَّة. فعندما تكون فاضلَة صالحَة فالفضل في ذلك لعواطفها ولأنَّها هي هي! وعندما تكون شرِّيرة فالتَّبعة كلّها على الرَّجل!

إنَّها عالم غريب وعلى الرجل أنْ يتابعَ الإكتشافَ في هذا العالم الغريب. ولا بُدَّ له مِنْ أحد أمرين إمَّا أنْ يلقي الخوف في قلبِها فهي تجد لذَّة في الخوف. أو عليه أنْ يثيرَ في قلبها عاطفة الحب.

أمَّا أنْ يعمدَ إلى استعطافِها وإثارة شفقتها عليه فأمرٌ وخيم العقبَى [1] إذ لا شيء يزعج أعصاب المرأة مثل أنْ تجدَ نفسها مضطرَّة إلى الإشفاق على الرجل هذا الأمر يزيد في سوء خلقها [2] بدلاً مِنْ أنْ ينقُصُه وهو ممَّا يخفض منزلة الرجل في عينيها.

السَّمير: 14/ 7/ 1941

1 وخيم العُقْبى: العُقْبى اليوم الآخِر أو المرجع إلى الله. وجزاء الأَمر ويقال: لك العُقبى في الخير.

2 الخُلُق: السَّجيَّة.

الآباء والبنون

بين الآباء والبنون مشادة قديمة في الدّهر كالشيخوخة والشَّباب. وستبقى إلى أنْ لا تبقَى شيخوخة ولا شبيبة. وليس في ذلك شيء مِنَ الغرابة إذ كيف يلتقي ناظر إلى الأمام وناظر إلى الوراء وكلاهما يرى غير الذي يرى الآخر؟:

يزعم الشيخ أو الكهل أنَّه أعرف مِنَ الفتى وأعلم. وأبصر منه وأحكم. لأنَّه أبلى ديباجة الشَّباب واستفاد مِنَ التجارب التي مرَّتْ به حكمة لم يستفدها ذلك المقبل على الكهولَة فعلى هذا أنْ يرجعَ إليه وأنْ يأخذَ بنصائِحه ويعمل بآرائِه فيأمن الخيبة والعثار.

لو خلعنَا عن هذا الزَّاعم كهولته وأعدْنَا إليه شبابه مرة لوجدناه يفعل أخيراً ما كان يفعل أوّلاً. وإنْ قال الآن أنَّه لا يفعل. وإنْ زعمَ أنَّه ينهج نهجاً أقوم وأصلح. فهو في شبيبته الأولى لم يتَّعظ بسواه ولم يستمع إلى نصائِح الكهُول والشيوخ وهو في شبيبته الثانية لن يتَّعظ بنفسِه لأنَّ للشباب ميادين لا يختار لذاتِه سواها ولا يلذ له الرَّكض إلاّ في حوماتها وإنْ كانَتْ لا تُنْبِتُ غير الأشواك ولا يجدُ فيها غير العقبات والعثرَات.

نسمع كيفما سرْنَا شكوى الآباء السوريين مِنْ كَون أولادهم لا يَحْفِلون [1] بنواهيهم ولا يَبرَّون [2] بهم وكثيراً ما وصفُوهم بالتمرُّد والعصيان وألقُوا بتبِعَةِ هذا العُقُوق [3] على المحيط الأميركي الذي لا يقيم للعاطفَة الوالديَّة وزناً. وربما زفَرَ أحدهم زفرة حرَّى مديدة وهو يقول: أولادنا في هذه البلاد ليسوا لنا!

والحقيقة التي يجب أن تُعْلَم وتُقال في وقت واحد هي أنَّ الذنب في هذه القطيعة بين الآباء والبنين منَّا مشترك بين الثلاثة: الآباء. والأولاد. والمحيط. وإنَّما الآباء ملومُون في الدَّرجة الأولى لأنَّهم يتوقَّعُون مِنْ أولادِهم أنْ يكيِّفُوا أنفسهم وأطوارهم طَبَقاً لتقاليد وعادات قد تكون جميلة. وقد تكون مفيدة. ولكنّهم لا يعرفُون عنها إلا النَّذر القليل. وليس لها في محيطهم الواسع غير أثر ضئيل. وهي تبدو سمجَة لأنَّها غريبَة. وكذلك كلّ غريب. وهم لا يستطيعُون العمل بها إلى جانب التقاليد والعادات التي يتلقُّونها في المدرسة مِنَ الكتب. ويقتبسُونها في المجتمعات مِنَ الأتراب. وفي البيوت مِنَ الجرائِد والمجلات التي يطالعُونها.

---

1 حَفَل كذا بالى به، يقال: لا تَحْفِلْ به.

2 برَّ: وفلان يَبَرُّ خالقَه ويتبرَّره أي يطيعه والبِرّ ضِدّ العُقُوقِ.

3 العُقُوق: عَقَّ أباه عَقّاً وعُقوقاً استخفَّ به وعصاه ترك الإحسان إليه فهو عاقٌّ وعَقُوق.

والآباء هم الذين يجلبُون المتاعب لأنفسهم مِنْ هذه النَّاحية في الحياة لأنَّهم يَكبُرُ[1] عليه أنْ يَنْسَوا أنَّهم أصحاب السُّلْطة العليا بعد الله على أولادهم حتى بعد أنْ يشبَّ هؤلاء عن الطَّوق ويصير لكلٍّ واحد منهم دنيا مستقلَّة مِنَ الرَّغائِب والآمال. فهم مِنْ هذا القبيل[2] كالملوك الذين يريدون أنْ تبقى لهم جلالة الملك وسلطانه وصَولته حتى بعد انتشار روح العلم الذي يدرك معه كل فرد أنَّ السُّلْطان بَشَر مثله. وأنَّ حقَّه في الحرِّية والأمن كحقِّه.

أجل. ليس أولادنا لنا. ولكن لا ينبغي لنا أنْ نتوجَّع ونتفجَّع. فكُلُّ الأولاد ليسوا لأهلِهم في كل زمَن إلاّ على قَدْر. هذه حقيقة أدركَها فيلسُوف الإسلام الإمام عَلِيّ بن أبي طالب فقال كلمته المشهُورة: «ربُّوا أولادكم على غير ما أخذتُم به فإنَّهم خُلقُوا لزمان غير زمانكم».

فإذا كانَتْ هذه القاعدَة قد صدَقَت مِنْ قبل هذه الكلمة العطرة الصَّادقة واحدة. ولغتهم واحدة فإنَّها اليوم أصدق والمهاجرُون أولَى النَّاس باتّباعها لأنهم يعلمُون أنَّهم قد نسلُوا أولادهم ليس لزمَان غير زمانهم فحَسْب بل لبلاد غير بلادهم.

السَّمير: 16/ 7/ 1941

في نوروود ـ ماس

حيثما رأيْتَ كنيسة لنا في المهجر ـ كبيرة أم صغيرة ـ فاعلم أنَّ اليد التي شادَتْ جدرانها وزيَّنَتْ حيطانها هي تلك اليد التي قيل عنها إنَّها تهز العالم كما تهز السرير.

ولا أعني أنَّ لا فضل للرجل فهو ذو فضل كبير ولكن المرأة في هذه الحومَة أكثر نشاطاً وأشدُّ اندفاعاً. حتى ليمكن القول أنَّ الفضل يرجعُ إليها حتى عندما يتبرَّع الرجل بمالِه أو وقته في هذا السبيل إذ لا بُدَّ أنْ يكون له أم أو زوجة أو شقيقة تحضُّه على البذل وتحثُّه على العمل.

أمَّا السرّ في ذلك فهو أنَّ المرأة تؤمنُ بقلبها وتجد غِبْطة كبرى في الإندفاع مع هذا الإيمان. ولذلك لم يظهر بين النِّساء اللواتي عاصرْنَ المسيح وآمَنَّ به امرأة ترتاب وتشك ولا تصدِّقُ أنَّ المسيح قام مِنْ بين الأموات إلاّ أذا جسَّتْ بإصبعها جراحه كما فعل توما.

ولقد رأيْتُ في مدينة نوروود ماس مظهراً يعزِّز هذا الإعتقاد وذلك عندما زرْتُ قاعة كنيستها فإذا هناك رهطٌ مِنْ سيِّدات الكنيسة اجتمعْنَ كما يلتقي سَرْبٌ[3] مِنَ النحل رجعَ في المساء مِنَ الحقول

---

1 كَبُرَ يكبُرُ: كَبُرَ عليه الأمر شَقَّ وثَقُلَ.

2 القَبِيل: الصِّنْف المماثل تقول: خذ هذا أو ما كان قَبِيلَهُ.

3 السَّرب الفريق من الطَّير والحيوان ج أَسْرابٌ.

بالشَّهْدِ الذي اشتاره مِنْ عيُون الأزاهر. لكي يملأ الخليَّة عسلاً.

وكان دليلي إلى هذا الحفل صديقي الكاتب المُتنسّك «سويد» صاحب الفصول الطَّيبَة التي تظهر في «السَّمير» بأسماء مستعارَة.

وقد صرفْنَا سُوَيْعَات الصَّباح في زيارة الأصدقاء في نوروود حتى إذا جاء المساء كنَّا ضيوفاً على الشَّاعر العتابي المعروف داود بدر المعلوف الذي انتظَمَتْ أمام منزله قصيدة رائِعة مِنَ البقُول والأزهار. وإلى جانب المنزل تفاحة باسقَة ملتفَّة الأغصان تظلّل الساحة ويمتد تحتها خوان[1] ما كدْنَا ندور به حتى حضر الطعام والشراب. وأخذ الشَّاعر يتلو علينا آياتِه فاستخفَّ الطرب الأديب فؤاد مفرّج فوقف وألقى كلمة أثنى فيها على صاحب البيت وأسرته الكريمة وجالية نورٍوود.

وارتجَلَ صاحب هذه الجريدة بضعة أبيات مِنَ الشعر أعقبَها بما حضَرَ مِنَ الكلام مُترجماً عمَّا شعرَ به مِنَ الأنس في ذلك المجلس.

وكان الوَقْت يسرعُ في المسير ونحن غير شاعرين بمرورِه لحلاوة تلك الهُنيهَات حتى كادَتْ تشيبُ ناصية اللَّيل. وكنَّا معتزمين العودَة إلى بوسطن فأبَى علينا القوم أنْ نسافرَ في تلك الساعة المتأخرة مِنَ اللَّيل.

وألحَّ علينا الصَّديق الياس ناصيف معلوف وقرينته الفاضِلَة السيدة عفيفة أنْ نكون ضيوف داره في تلك اللَّيلة فنزلنا على رغبتِهما. وحلَلْنَا في ذلك البيت المضياف.

وفي اليوم التالي غادرْنَا نورٍوود وعدنا إلى بوسطن ونحن نتحدَّث بما لاقيْنَا مِنْ لطف القوم وحُسْن ضيافتهم.

السَّمير: 21/ 7/ 1941

آراء وملاحظات

ما كتبَتْ «السَّمير» كلمة نقد في كتاب أو مقال إلاّ ونهض صاحب الكتاب أو المقال باسطاً أظفاره ليُنْشِبَها في شخص هو إيليَّا أبو ماضي. ممَّا يحملُنَا على الإعتقاد أنَّ أصحاب هذه الطَّريقة أناس صغار يعرفُون أنَّهم صغار فيحاولُون أنْ يرتفعُوا بالتَّسلُّق على هذه الشخصيَّة أو أن يوهمُوا أنفسهم والنَّاس الذين حولهم أنَّ إيليَّا أبو ماضي نزل إلى حومتِهِم فهو مثلهم وهم مثله. استوى الماء والخشبة!

إنَّنا نشفقُ على هذا الصنف لا مِنَ النَّاس بل منهُم ونأبَى أنْ ننصرفَ عما نحن فيه. إلى ما هم فيه. فَلِكُلٍّ وجهة هو موليِّها. ولكنَّنا مِنْ جهة أخرى نودُّ أنْ يفهمُوا أنَّنا لا نريد لهم إلاّ الخير كيفما كانُوا. ولنْ

---

1 الخُوان: ما يؤكل عليه ج أَخْونَة.

نَعْدِلَ عن طريقتنا هذه معهُم حتى عندما يصوِّر لهم الوَهْم والحسد القتَّال أنَّنا على خلاف ذلك.

وليس انصرافنا عنهم احتقاراً لهم ولكنَّنا نأبَى أنْ نقضي الوَقْت الثمين في مُماحكَات [1] لا طائِل تحتها. وإنْ كانَتْ عند البعض هي الشيء الأثمن في حياتِهِم.

ولكنَّنا إذا كنَّا لا نُعْنَى بالرَّدِّ على أهل المماحكَة والجدل العَقيم [2]. فلا يعني هذا أنَّ «السَّمير» لا تؤيد الفكرة الجميلَة حتى ولو خرَجَتْ مِنْ أفواه المُماحِكِين بل تؤيِّدُها. فـ«السَّمير» تقاتل كُلَّ فكرة شرِّيرة حتى ولو بَـرَزَتْ لابسة مسوح [3] النَّاسكِين.

وإذا التقينا وبعض النّاس حول فكرة فلا يمنع هذا أنْ نفترق عندما نرى اولئك النّاس يستخدمُون الفكرة التي نحبُّها لأغراض ذاتيَّة ولا سيَّما إذا كانَتْ فكرة وطنيَّة يجبْ أنْ تبقى نقيَّة مِنَ الشَّوائِب [4] وأنْ يظَلَّ طابعها وطنياً لا مَسْحَة [5] أجنبيَّة عليه. ولا يد أجنبيَّة مِنْ ورائِه.

السَّمير: 30/ 7/ 1941

بائعة الملكوت

دخلَتْ علينَا أمس امرأة متكسِّرة الأجفان لا مِنْ نعاس كئيبَة الملامح لا مِنْ حزن. زريَّة الثياب لا مِنْ فقر. واقتحمَتْ المكتب بلا شوْر ولا استئذان وفي يدها إضبارَة [6] مِنَ الكتب. وما كادَتْ تقفُ عند طاولَة الحاسب في الإدارة حتى انفلَتَ مِنْ بين شفتيها كلام يتردَّد في غير وعي. فاستَرعَتْ حالتها انتباهنَا فوقفْنَا ننظرُ إليها ونتأمَّل فإذا عيناها باهتتان ساكنتَان قد انطفأتْ فيها علائم اليَقَظَة [7]. وإذا كلامها يخرج مِنْ فمها وهي لا تتأثَّرُ به ضحكاً ولا غمّاً كأنَّما هي أسطوانة.

وسرعان ما عرفنَا أنَّها مِنْ اولئك الذين أطلقُوا على أنفسِهم اسم «شهود يهوه» ودعاهم أحد الكتَّاب الأميركيِّين «باعة الفردَوس».

وكان قد سبقَ لنا أنْ استقبلْنَا مثل هذه الزائرة فأشفقنَا على الكاتب وعلينا مِنْ تلك الأغنية الرُّسُليَة

---

1 تماحكا: تلاجَّا.

2 العَقيم: عَقِمت المرأة أو الرَّجل عَقَماً كان بها أو به ما يحول دون النَّسل من داءٍ أو شيخوخةٍ فهو عقيمٌ ج عُقَماء وهي عقيمٌ ج عقائم، ويقال ريح عقيمٌ لم تأتِ بمطر.

3 المِسح البِلاس بكسر الموَحَّدة وتفتح ثوب من الشعر غليظ الجمع أمساح ومُسُوحٌ.

4 الشَّائبة: الشيء الغريب يختلط بغيره ويقال: ما فيه شائبة ليس فيه شُبْهَة، والدَّنَسُ والقَذَر ونحوهما ج شوائب، ويقال هذا الشيء بريءٌ من الشَّوائب، ليس فيه ما يعيبُه.

5 المَسْحَةُ: وعليه مَسْحَةٌ من جمال أو هُزَال شيء منه.

6 إضْبارة: الإضبارة الحُزْمة من الصُّحف ضُمَّ بعضها إلى بعض ج أضابيرُ.

7 اليَقَظَة رجل يقِظ متيَقِّظ حَذِرٌ.

«الرذرذ فوردِيّة»[1] فقلنا لها: أيَّتها السيدة حسبُك[2]. لا تضيّعي وقتنا ووقتك. لك بغيرنا غِنًى.

ولكنَّنا كنَّا كأنَّنا نخاطبُ صنماً أو إنساناً لا وعي له. ولاحَ لنا مِنْ ذهولها واسترسالِها في سَرْد حديثها أنَّها لا تملك أمرها وليس في وسعِها أنْ تتوقَّف حتى يفرغ ذهنها ممَّا حفظته. فهي مِنْ هذا القَبِيل[3] كالجَرس الذي شُدَّ بالحبل فتأرجَح وطنَّ ويستمر في التَّأرجُحِ والطَّنين إلى أنْ تبلغَ الحركة الناجمَة عن شدِّ الحبل نهايتها.

وتشاغلْنَا عنها لعلَّها تدركُ أنَّها تغنِّي لغير سَمِيع. فتَنْصَرِفَ مِنْ تلقاء ذاتها. ولكنَّها لم تدرك ولم تَنْصَرِفْ وكادَتْ تَلْصِقُ بالمكان!

وخشينَا أنْ تعودَ فتبدأ حكايتها مِنْ جديد فقلنَا: بكم تبيعين هذه الكُتُب؟

قالت: إنِّي لا أبيعها ولكنّي أعطيك كتاباً أو أكثر وأنت تتبرَّع بما تريد!

وكنَّا قد فهمنَا منها أنَّها أتَتْ لتخبرنَا أنَّ مملكة المسيح ستأتي بعد أُسْبوع أو أنَّها هنا منذ أُسْبوع أو ما شاكل مِنَ الأقوال التي تدل على شيءٍ مِنَ الهَوَس[4] إنْ لم نقلْ الإختلاط العقلِي.

فلمَّا سمعناها تنذرنَا بأنَّنا سَنَهْلِكُ. ضحكنَا وقلنا إذا كانت الحياة الأبديَّة تُشْتَرى بدريْهَمَاتٍ فلن يُحرَمْ منها إنسان في الأرض.

ولكنْ يظهر أنَّ للوصُول إلى هذه الغاية العظمى شروطاً غير الدُّرَيْهَمَات وهي أنْ يتخلَّى المرء عن عقلِه ويهجر العوالِم كلّها إلاّ عالمَ الشّيخ «روذرفورد».

فأسفْنَا لحالتها. ولعلَّها هي كانت تأسفُ لأنَّنا لسنا مثلها إيماناً.

ولمَّا يئِسَتْ مِنْ هدايتِنا أو مِنْ بيع أيِّ كتاب مِنَ الكتب التي تحملها انفلَتَتْ إلى باب آخر في الإدارة لتدخل على العمَّال وتمثِّل روايتها فرددناها بلطف فلم ترتدَّ إلاّ بعد جَهْد. فخرجَتْ وهي تتمتمُ لذاتِها أشياء لم نفهم منها إلا كَلِمة «ملكوت[5]» و«شاهد».

وبقينَا نحن نتعجَّبُ كيف يفعل الوَهْم في بعض النَّاس ما لا يفعل السِّحر. فهذه المرأة كائن بشري كان كسائِر النَّاس فاستولَى عليها الوهْم فسكرتْ فخُدِّرَتْ فذَهَلتْ عن كُلِّ شيء في الدُّنيا إلاّ ما كان مصطبغاً بألوان ذلك الوَهْم. والوَهْم أشكال والوان. وقد ينفلتُ المرء مِنْ أمراس الحديد ويعجز عن الإنفلات مِنْ أمراس الوَهْم إذا استحوذ عليه.

---

1 الرذرذ فورِيّة أي شبيهة بسيارتي الرذريذ والفورد القديمتين اللتين كانتا يضرب بهما المَثَل في إيذاء الأذان بصوتها كُلَّما سارا أو تحرّكا.

2 حَسْبُكِ: كافيك.

3 القَبِيل: الصّنف المماثل، تقول: خُذْ هذا أو ما كان قبيله.

4 الهَوَس: بفتحتين طرفٌ من الجنون.

5 المَلَكُوت: من المُلك كالرَّهَبُوت من الرَّهبَة يقال له مَلَكوت العراق وهو المُلْكُ والعِزّ فهو مَلِيكٌ ومَلْكٌ ومَلِكٌ.

وشارب الوَهْم كشارب الأَفيون أو أي نوع مِنَ المخدرات يزداد به وَلعاً كلّما ازداد إدماناً عليه. حتى لتصير مفارقته أصعب عليه مِنْ مفارقةِ الحياة.

والوَهْم كالخمُور قَليلهُ ينفعُ وكَثيرهُ يضرّ. وهو مثلها منه الجيد ومنه الرَّديء. وأرداه وأخبثه هو الذي يستلِبُ المرء عقله ويجعل منه آلة يحرِّكها سِواه.

السَّمير: 28/ 8/ 1941

مِنْ إنسان إلى شيطان

ما شبَّتْ حرب في الأرض إلاّ رَجَع الإنسان إلى غرائزه الوحشيَّة التي كان قد فارقَها. فصار كالنَّمرِ لا يفتكر إلا بالإنقضاض والبَطْش والتَّنكيل. وكالحيَّة لا هَمَّ له إلاّ أنْ ينفثَ السم. وكالصَّقر يدور في الفضاء وعيناه تبحثان في الأرض عن فريسة.

والإنسان كائن عجيب غريب إذا ارتقَى وسَمَا فهو يَنْبوع رَحْمة وصلاح وإخاء أمَّا إذا سَفُلَ[1] فهو بُرْكان رزايَا ومصائِب وأَهوال.

هو عندما يتجرَّدُ مِنَ الأنانيَّة يَذْهَلُ عن نفسِه ولا يعودُ يبالي جوعاً ولا عطشاً ولا عُرْياً ولا مَشَقَّة بل يصبحُ كُلّ همّه أنْ يفعل شيئاً في سبيل أخيه الإنسان.

فكم مِنْ عالِم إنقطعَ عن الدُّنيا كالزهَّاد لعلَّه يهتدي إلى علاج لمرض مِنَ الأمراض الفتَّاكَة فكان حيناً يهتدي إلى ضالَّتِه وأحياناً يموتُ في تجاربِه وامتحاناته قبل أنْ يهتدِي إلى شيء.

وكم مِنْ رحَّالَة مغامر اقتحَمَ المجاهل معرِّضاً حياته للخطر لعلَّه يكتشف ناحية مجهولَة مِنَ الأرض فاكتشفها وصارَتْ بعد ذلك أرضاً مأهولَة بالبشر أو أنَّه ذهب طعاماً لذئبِ أو لحوتٍ أو مات ولم يعرف أحد أين قَبْره!

على أنَّ هذا الإنسان الذي تنبثقُ منه هذه الكواكب هو ذاته الذي ينقلب على نفسه فيطفيء كواكب العلم ويجفِّف ينابيع التَّهذيب وذلك عندما يستيقظ فيه الوَحْش النَّائِم أو الغريزة الحيوانيَّة العَمْياء. فينسُلُ الأولاد ليجعلهم عندما يَكبَرُون حشايا للمدافِع ويَزْعمُ أنَّه يسوقهُم إلى ساحة المجد ومَلَكُوت الخلود!

أو أنَّه يصبُّ القذائف المحرقة على مدينة عامرَة فيتركها خراباً يَباباً[2] ويَرْجع يباهي أنَّه فتَكَ ودمَّر.

أو أنَّه يسوق إلى السجُون مئات وألوفاً مِنَ الخَلْقِ الذين يخالفونَه في الرَّأي والعقيدَة والأطوار ولا يطرفُ له جفن ولا يوبِّخه ضمير كأنَّما هو جزَّار وهم أغنام!

---

1 سَفُل: سَفَالَةَ خَسَّ ونَذُلَ.

2 اليبابُ: الخراب.

إنَّ هذا النوع مِنَ الإنسان المُسترجع غرائز الوحش الضَّاري كثير في هذه الأيّام لأنَّ البشريَّة في حالة هي أشبه بالحيوان.

بل إنَّ النّاس اليوم مثل أُمّهم الطَّبيعة عندما تغضب وتثور. فكم مِنْ نهرٍ كان يسقي الحقول عن جانبيْه طغى وفاض فذهب بتلك الحقول واكتسَحَ ما فيها مِنْ أشجار وأغراس وجرفَ ما قام عليها مِنْ مباني!

لقد جمَّل الإنسان هذه الأرض منذ صار فيها بما أحدثهُ مِنْ عمران غير أنَّه اليوم يهدمُ ما بنى ويزيدُ على الهدْم القتل والتَّنْكيل. فهو اليوم شَيْطان[1] لا إنسان.

السَّمير: 9/ 9/ 1941

السَّيّارة المسروقة

كان في مؤتمر الحِلْف الشَّرقي في مدينة سكرنتون مصور شاب اسمه الأخير «نمير» حمل الآلة الفوتوغرافيَّة ودار بين القوم يصوِّرُهم جماعات وأفراداً. واقفين وقاعدين وسائرين وجالسين. ثم يعلِّقُ الصُّور بعد إخراجها في لوحة كبيرة مركوزَة في قاعة الفندق فيمرُّ القوم ويقفُون عندها يتفرَّجُون على تلك الصور.

ولَمَّا كانت المأدبة كان هو مصوّرها. فلمَّا إنتهى أخذ يطوفُ على الحضور مع بعض المساعدين ويأخذون مِنْ كُلِّ شخص يودُّ أنْ يحصل على صورة المأدبَة دولاراً ويدوِّنُون عُنوانه لديهم ويُعْطونَه وَصْلا بالدولار. وكان عدد الذين اكتَتَبُوا للحصُول على الصُّورة كبيراً. ولا شكَّ في أنَّ كُلّ واحد منهم الآن ينتظرُ أنْ تصلَ إليه الصورة التي دفع ثمنها سلفاً.

غير أنَّ الصورة لن تصل إليه!

ويجب أنْ يقطعَ الرَّجاء مِنْ وصولِها إليه!

لأنَّ الصورة باتَتْ غير موجودَة ولا سبيل إليها. فقد ذهب اللُّصوص بسيارة المصوِّر في تلك اللَّيلة وبكُلِّ ما فيها. وكان قد وضع فيها معدَّات التصوير كلّها والدَّراهم التي أخذها مِنَ النّاس فذهبَتْ كلّها ولم ترجع!

السَّمير: 20/ 9/ 1941

---

1 الشَّيطان روح شرّير مُغْوٍ وكُلّ متمرِّد مُفْسِد.

الفَقـر والنَّوابِغ

هل يقتل الفَقر المواهب أم يُحْيِيها؟

مِنَ النّاس فريق كبير يعتقدُون أنَّ العَبْقَرِيَّة لا تنمو إلاّ في ظلٍّ الحاجة والضَّنك [1] لأنَّ الحاجة أمُّ الإختراع ولا تكون إلاّ حيث يكون الفقر.

ويعزِّزُ أصحاب هذا الرأي نظريَّتَهم بأنَّ جُلَّ [2] النَّوابغ وُلدوا فقراء وعاشوا تُعساء وبعضهُم مات جوعاً. ولو أنَّهم ولدوا في القصُور وتقلَّبُوا في النَّعيم لعاشوا عيشة المُتْرَفين [3] وماتوا دون أنْ تنفتحَ مغالق الكنوز الرُّوحيَّة فيهم. لأنَّ الغنى مَفْسدَة.

ويتحمَّسُ بعض الدَّارِسين لهذه النَّظَرِيَّة فينادي على رؤوس المَلأ [4] قائلاً: أيُّها النّاس جوِّعُوا النوابغ! فكأنَّ ما يَصِحُّ في الخيُول يَصِحُّ في ذوي المواهب أيضاً [5].

وعندنا أنَّ في هذه النَّظر يَة شيئاً مِنَ الصواب. فإنَّ الإحساس لا يَرِقُّ إلاّ بالألم والعذاب. والعقل لا ينمُو إلا بالتجارِب والإمتحانات. وقلَّما [6] تجد ذا بِطْنَة [7] على كثيرٍ مِنَ الذّكاء أو غنيّاً بالوراثة يميلُ إلى أنْ يكونَ في غير صفٍّ الأغنياء والشّذوذ لا يقاس عليه. بل إنَّ مِنْ ذوي المواهب الأغنياء مَنْ لم يستعملُوا مواهبهم إلاّ بعد أنْ خسرُوا أموالهم أم حِيْلَ بينهم وبينها. أو انصرفُوا عنها زهداً.

ولَكِنَّ الفَرق كبير بين أنْ تجوِّع الأمَّة نوابغها وبين أنْ يختار النوابغ لأنفسهِم حياة الضَّنك والفاقة. فإنَّ الفَقر الذي يُعْزَى إليه تحريك الهِمَمْ السَّاكِنَة وإيقاظ المواهب النَّائِمَة كثيراً ما خنقَ العَبْقَرِيَّات وهي أجِنَّة. ونثَرَ المواهب وهي براعم. فهو إذن غير ضروري لتكوين النُّبُوغ أو لبقائِه ونموِّه.

إنَّ اللورد بيرون لم يصدَّه الغنى عنْ أنْ يكونَ شاعرا كبيراً.

وإبن المعتز لم يمنعْه جاهَه وسلطانه أنْ يبرُزَ بشاعريَّتِه إلى الوجود.

وأرسطاطاليس الحكيم الذي كان معلِّم الإسكندر ومؤَدِّبه لم يسلبْه حكمته أنَّه النَّاصح المُشير لأعظَم الفاتحين في التَّاريخ.

---

1 الضَّنْك: الضِّيق من كُلِّ شيءٍ وضَنُكَ ضاق عيشُهُ.

2 جُلُّ الشيءِ: مُعْظَمُهُ.

3 تَرِف فلانٌ تنعَّم فهو تَرِفٌ.

4 الملأ: الجماعة.

5 وآضَ كذا صار وفعل ذلك أيضاً إذا فعله معاوداً فاستعير لمعنى الصَّيرورَة.

6 قَلَّما قَلَّ فعل ماضٍ ليس له فاعل و «ما» زائدة. مثل كثُر ما.

7 البِطْنَة: الامتلاء الشَّديد من الطَّعام.

إنَّ الفَقر في ذاتِه قُبح ودمامَة بل هو جريمة يجب أنْ تعمل البشريَّة على مَحْوِها ولن تبلغ الكمال إلاّ يوم تمحُوها لأنَّها ـ أَيْ البشريَّة ـ إذا كانت قد وصَلَتْ إلى ما هي عليه الآن مِنَ الرُّقي فإنَّما ذلك بفضل ذوِي المواهب والعَبْقَريَّات وهؤلاء لم يكثر عديدُهم إلاّ بعد أنْ صارَ الفِرار مِنَ الفَقْرِ سهلاً ميسُوراً.

ماذا كان يكون أديسُون لو عمل الأميركيُّون بالنظريَّة الأولى فضوَّرُوه جوعاً ولم يتوافر لديه المال الكافي لإنشاء المَعْمَل الذي يَحْلُم به؟

ولو جوَّعَ القوم أديسُون فمضى دون أنْ يخترع ما اخترَعَ مِنَ الآيات والمُعْجزَات أَفكانَ يَكثُرُ عدد الموهُوبين في هذه الأمَّة كما هي الحالة الآن؟

إنَّ الموهُوب لا يطلب المال مِنْ أجل المال فهو لا يشعر عند حيازتِه إيَّاه باللَّذَّة التي تدخل على نفسِه مِنْ جعلِ المال ضالَّته الكبرى في هذه الحياة. فالمال عند الموهُوب وسيلَة لا غير. وهو وسيلة لا يُستغنَى عنها بغيرِها. ومهما ينسبُ النّاس إلى الفَقر مِنَ المحاسن والفضائِل فهو لا يعين الموهُوب على تحقيق الآمال التي تجولُ في صدرِه وتقصُرُ عنها يداه.

إنَّ الأمَّة العاقِلَة المُدرِكَة لا تجوِّعُ موهوباً ولا غير موهُوب أمَّا الأمَّة الغبية الحمقاء فلا تجوِّع العَبْقَريِّين فحَسْب [1] بل تعذِّبهُم وتقتلهُم كأنَّهم لصوص أَثَمة فتموت ويموتُون جوعاً وضَنْكاً... فهي إذن في غير حاجة إلى نصيحة القائلين: جوِّعُوا النَّوابغ!

السَّمير: 22/ 9/ 1941

جبال بنسلفانيا

جرى الشعراء على تشبيه الرجل الحَليم [2] الرَّصِين [3] الرَّاجح الحَصَاة [4] الذي لا تتزلزَل نفسه في الأزمَات بالجبل الرَّاسي الذي لا تقلقه العواصف.

غير أنَّ امرَأ القيس عكسَ هذا التشبيه في معلَّقتِه المشهورَة فشبَّه جبل ثبير [5] بزعيم قبيلة أو كبير قوم مُلْتَفٌ بثياب مخطَّطة.

وعندي أنَّ في طريقة امريء القَيس فناً أكثر ممَّا في طريقة الشُّعراء الذين خالفُوه أو خالفَهُم. ففي تشبيه الإنسان بالجبل تَعْظيم للجبل لا يحسُّه الجبل. أمَّا تشبيه الجبل بقائد أو زعيم أو شيخ قبيلة ففيه

1 حَسْبُ يكفي.
2 الحليم: الحِلْم الأَناة وضبط النَّفْس والعقل.
3 الرَّصين: المُحْكَم الثابت.
4 الرَّاجح الحَصَاة: الحَصَاة العقل والرَّأي.
5 ثَبير: جبل بمَكَّة.

تكريم وتكبير للإنسان في عينَي الإنسان.

وأنَّ الذي يمرُّ في جبال بنسلفانيا الرَّافلَة[1] مِنَ الشَّجر في حُلَلٍ[2] مِنْ سندس[3] أخضر. الممتدَّة مع الأفق كأنَّها غيوم يشعر كأنَّه يشاهد رهطاً[4] مِنَ الجبابرَة ربضُوا في جوانب الأرض كأنَّهم يَحرُسُونَها مِنْ طارق[5] مفاجيء.

جبال وراء جبال. كلَّما غاب منها جبل بدا جبل. وكثيراً ما ترى بين جبلين مدينة عامرَة زاهرَة تتألَّقُ فيها المصابيح كالنُّجوم كلَّما غمرتْ الظَّلْماء الهضاب والبِطاح. فتتعجَّبُ كيف نشأتْ حتى أضحى القطار يسيرُ إليها. أو تشاهد المسالك تتراكَضُ فيها السيَّارات نحوها. فإنَّ كُل مدينة وقرية في هذه البلاد متَّصلة بأسباب الحضارة على بَعْدها وانْفرادها كأقرب المدن إلى مواطن الحضارة. ففي الكوخ الصغير النَّائِي عن العُمْران الراديو والجريدة والمجلَّة. وأمام بابه الأوتوموبيل. كالقصر المَشِيد[6] في المدينة الكبرى.

ما أجملَ الجبالَ عند الغروب تتوشَّح الإصفرار فوق الإخضرار.

وما أجملَها في اللَّيل تشعُّ مِنْ جوانبِها الأضواء فتدلُّ المسافر على أنَّ الإنسان يقيم فيها. وأنَّه قد يبسط سلطته عليها.

ليسَتْ هذه أوّل مرَّة أشاهد فيها جبال بنسلفانيا فقد رأيتُها مِنْ قَبْلُ مِراراً فإذا موقعها مِنْ نفسي اليوم كموقعها مِنْ قَبْلُ. وستبقى لها جلالتها ومهابتها ما دامتْ راسيَة في الأرض. فهذه الجبال كانت في سنوات الأَزْمَة[7] تبدو كأنَّها كاسفَة مغمومَة أمَّا الآن فقد راجعتها روح البشاشَة والبهجَة فحيثما أرسلْتَ بصرك رأيْتَ الدُّخَان يتصاعد مِنْ مداخنِ المعامل ورأيْتَ الأضواء تنبعث مِنْ نوافذها في اللَّيل. وسمعت زفير البخار ودَويّ الآلات. وإذا تحدَّثْتَ إلى النَّاس أدركْتَ حقيقة خالدة وهي أنَّ الإنسان إذا حزن واكتأبَ فكل شيء يمسي حزيناً كئيباً حتى الشَّمس والقمر. أمَّا إذا فرح وابتهجَ فإنَّ الدُّنيا كلّها تتحوَّل مهرجان ويشرقُ حتى الوادي ويضحك حتى الدخان الأسود.

مررْتُ بمدينة الطونا وقضيتُ فيها ليلتين في ضيافة رفاقي وجيراني في الوطن الأول الإخوة الأكارم طانيوس ورشيد وتوفيق وجورج عفيش ووالدتهم الجليلة.

وزرتُ الأصدقاء وفي طليعتِهِم رجل النخوة والهمّة والوفاء السيد ناصيف طراد وشقيقه أسْعَد

---

1 رَفَل في ثيابه أطالها وجرَّها متبختراً.

2 الحُلَل: الحُلَّةُ الثوب الجيّد الجديد غليظاً أو رقيقاً ج حُلَل.

3 السُّنْدُس: ضرب من رقيق الدِّيْباج.

4 الرَّهْط: ما دون العشرة من الرِّجال لا يكون فيهم امرأة وليس لهم واحد من لفظهم والجمع أَرْهُط وأَرْهاط.

5 الطَّارِق: الآتي ليلاً، والحادث أو الحادث ليلاً ج طوارِق.

6 المشيَّد بالتّشديد المُطوَّل. وقال الكسائي المَشِيد للواحد والمشيَّد للجمع ومِنْهُ قوله تعالى: «في بروجٍ مشيَّدَةٍ».

7 الأَزْمَة: الضيِّق والشِّدَّة ويقال: أَزْمَة سياسيَّة وأَزْمَةٌ ماليَّة. والقحط.

والتّاجر البارز السيِّد حنَّا ناصيف وهم مِنْ ذوي الأيادي البيضاء.

وتعرَّفْتُ إلى رجل غيور هو الفاضِل السيد حنَّا إلياس موسى الذي أبدى غيرة مشكُورة على الأدب.

وقد لمسْتُ في الطونا حركة انتعاش كبرى بعد أنْ دارَتْ فيها المعامل التي تصنع القُطُر الحديدية وكانت منذ أربع سنوات جامدة هامدَة.

وتلطَّف الصَّديق ناصيف طراد فحملَني في سيارتِه إلى مدينة جونستون وكان رفيقنا إليها الصَّديق الأديب طانيوس عفيش. وفي الطَّريق مِنْ الطونا إلى جونستون مشاهد طبيعيَّة ساحرَة ولا سيَّما [1] في هذا الوَقْت إذ بدأ الشَّجر تشتعل أطرافه فتبدو كأنَّما تمشي عليها ريشة فنَّان بمختلف الألوان.

السَّمير: 27/ 9/ 1941

الأفيال المسْمُومَة

لو كانت الأفيال تصلِّي، لكانَت تتضرَّعُ إلى الله، كما يتضرَّع الإنسان، لكي ينجِّيها مِنَ الشرِّير، وكان المقصودُ عندها بـ«الشرِّير» هذا الإنسان الذي يسافر مِنْ قارَّة إلى قارَّة، لكي يدخُلَ إلى غاباتِها، ويَنْصِبُ للحيوانات فيها الأشراك، ويصطادُها، ويرجعُ بها إلى بلادِه، يطُوفُ بها على النّاس في المدن، والقرى، والدَّساكر [2]، ويغري النُّفوس، ويصطادُ الفلُوس. ولا تزال مِنْ سفرٍ شاق، إلى سفرٍ شاق، في غير الأرض التي تهواها، حتى يَدُسَّ لها إنسانٌ شرِّير السُّمَّ في ما تأكل، أو في ما تشرب، فتسقط صَرْعَى [3]؛ كما حدثَ للفِيلَة التي تَلْغَطُ [4] الجرائد الأميركيَّة في هذه الأيّام بحكاية موتها مسمومَة. ونهوض رجال الحكومة للبحث عن الجاني الأثيم الذي اقترفَ جناية لا يقترفها شيطانٌ رجيم [5] فهذه الحيوانات لم تُفْسِد له أرضاً، ولم تسدّ عليه طريقاً. ولم تؤذه في نفسه، ولا في ماله، ولا أهلِه، ولا زاحمَتْه على مكسب، ولا نافستْه في مجد، ولا منعَتْ عنه ضوء شمس ولا قمر. وليس وجودها في الحياة، يَنْقِص مِنْ ملذَّاته ومسرَّاته، ولا هو مسؤولٌ عن شيء مِنْ طعامها، وشرابها، ومبيتها، ولن ينتفع بلحمها، ولا جلدها، ولا عظمها، ولن تصير الأرض أوسع عليه بعد ذهابها، ولكنَّه مع ذلك، مشى إليها بالسُّمّ الفتَّاك متعمِّداً هلاكها، كأنَّها تمشي بقوائِمها الضَّخمة على أضلاعه، وكأنَّها تتغذَّى بدمِه؛ فكان في

---

1 ولا سيَّما كلمة يُستثنى بها وهي «سي» ضُمَّ إليه «ما» ولَك في المستثنى بها الرَّفع والجرّ.

2 الدَّسْكَرة القرية الكبيرة العَظيمة.

3 صَرْعى: الصَّرْع الطَّرح على الأرض كالمَصْرَع.

4 لَغَط القوم لَغَطاً اختلطت أصواتهم واستبهَمَتْ.

5 الرَّجيم: القَتل والقذف والغيب ورمي بالحجارة ج رُجُوم.

جنايتِه أكثر بربريّةَ مِنَ الذي يَنْبُش الجثث مِنَ القبُور ويمثّل بها، كما تفعل الضَّبُع [1].

وهذه الفعلَة الأثيمَة، تثبت أنَّ بعض النّاس مفطورُون على الأذى، كأنَّهُم ولدُوا والعقارب في وَكْرٍ [2] واحد. فهم أبداً يسعَوْنَ بالضّرر إلى السُّوى [3]، دون أنْ يكونَ لهم ممّا يعملون أيّة فائدة؛ فإذا عجزوا عن أنْ يؤذوا إنساناً آذوا حيواناً، أو هرّة، أو بناءً، أو صورة، أو تمثالاً أو أي شيء.

وإذا هُمُ أَعياهُم أَن يؤْذُوا بالأيدي، أو بالأَسْلِحَة، أو الأدوات، فلهم أَلْسنَةٌ كأنياب الأفاعي؛ أَيْنما وقعتْ، إندَفَقَ منها السَّمُّ الزُّعاف [4]. على أَنَّ الذي يُعزِّي النفوس الكريمة، ويستبقِي الإيمانَ بعدلِ الحياةِ غيرِ متزَعْزِع؛ هو أَنَّ هؤلاءِ الأشرارِ الذين يشبهون الأفاعِي، ينتهي بهم الأمر اخيراً إلى أَنْ يهْلكوا كما تَهْلِكُ العقارِب، والأَفاعي، إمَّا دَهْساً، أو رَهْساً، أو سَحْقاً. ولِكُلِّ شيءٍ مِيْقات [5]، ولِكلِّ شرّيرٍ يَومُه!

السَّمير: 21/ 11/ 1941

لا تجوّع روحك

يحتاج العقل إلى الغذاء كما يحتاج إليه الجسد. وهو يَنْحَل ويَهْزِل كالجَسد إذا لم يَحْصُل على القوت الكافي.

وقوتُ العقل هو كتابٌ قيِّم تقتنيه وجريدة مفيدة تطالعها.

نقول كتاب قيِّم لأنَّ كتباً كثيرة لا يستفيد مطالعها منها شيئاً. وجرائد كثيرة لا نفع منها أكثر ممّا في الورق العادي.

وحَسَنٌ أنْ ينتقي المَرْء الكتاب والجريدة كما ينتقي الطعام والشَّراب.

وليس مِنْ إنسان مهما بلغ به الفَقر إلاّ وهو يقدر أنْ يقتني بعض الكتب المفيدة ويشترك في جريدة تحمل إليه أبدع ما تنتجه قرائِح الكتَّاب والشّعراء.

فالذي يتصوَّر أنّه يقتصد مالاً عندما يَقْبِضُ يده على بعض دولارات لئلا يشتري بها كتاباً أو يدفع بَدَل اشتراك في جريدة يخطيء في تصوُّرِه كثيراً لأنَّ هذه الدولارات القليلة لن تزيد في ثروته إلاّ دولارات معدودة ولكنَّه مِنْ جهة أخرى يُوصِد على نفسِه باب معرفة ويَحْرِمُ عقله مِنْ غذاء هو في أشدِّ

---

1 الضَّبُع جنس من السّباع من الفصيلة الضَبعيَّة وهي كبيرة الرّأس قويّة الفكّين ج ضباعٌ وأَضْبُعٌ.

2 وَكْر الطّائر بفتح الواو عُشُّه حيث كان في جبل أو شجر وجَمْعه وُكُور.

3 السُّوى: المثل والنظير.

4 السَّمَ الزُّعاف سريع القتل.

5 المِيْقات تحديد الأوقات كالتَّوْقيتِ.

الحاجة إليه.

وليس في الإستغناء عن أيِّ شيء خسارة مثل الإستغناء عن المطالعَة. فإنَّك إذا لم تَلْبَس قميصا مِنْ حرير ففي إمكانك أن تلبس قميصاً مِنْ قطن ولا ضَيْرَ عليك [1] ولا حيْف [2] على مقامِك. أمَّا إذا كنت لا تطالعُ كتابا ولا تقرأ جريدة فإنَّ معارفك لا تتَّسع ولو لَبِسْتَ كُلَّ يومٍ ألف قميص مِنْ حرير وتقلَّدتَ خاتما كخاتم سليمان في كل إصبع مِنْ أصابعك.

إنَّ بعض النَّاس يجوِّعُون عقولهم لكي يملأوا بطونهم وجيوبهم فلا تكنْ مِنْ هؤلاء. وإيَّاك أنْ تتابعهم في طريقتهم في الحياة فإنَّها طريقة تقف بهم عن المَسِير إلى الأمام وتَرْجع بهم إلى الوراء. فهم يظنُّون أنَّ الدولار ينفق في شراء كتاب دولار ضائع. ولكنَّهم ينفقُون دولارات كثيرة على السَّفاسف التي لا تفيد قلباً ولا جسداً ولا تقوِّمُ خُلُقاً معوجّاً ولا تصلحُ شيئاً فاسداً.

إنَّنا في عصر لم يبقَ فيه أحد لا يقرأ إلاّ العجماوات أو النَّاس الذين يعيشون كالعجماوات. وحاشا لأي عاقل مدرك أنْ يرضَى بأنْ يكون مِنْ هؤلاء.

إنَّك بالكتاب تحصل على أنيس وعشير وصديق لا يتغيَّر ودَّه ولا تملُّ عشرته ويعطيك كثيراً دون أنْ يأخذ منك إلا القليل مِنَ الوقت.

وأنت بالجريدة تطلُّ على الدُّنيا فترى ما يجري فيها مِنَ الأمور والحوادث كأنَّك في كُلِّ مكان منها دون أنْ تنتقل خطوة مِنْ مكانك الذي أنت فيه.

فإذا كنت ممَّن استولى عليهم الزُّهد في المطالعة فأسرع وتفلَّت مِنْ قيود هذا الزُّهد قبل أنْ يستعبدَك فتصبحَ روحُك بمعزل عن الأرواح وعقلك في دنيا غير دنيا العقُول.

إلى المطالعة! فإنَّك بواسطتها تتعرَّفُ إلى العلماء والشعراء والمفكِّرين والعظماء في عصرك وفي العصور التي مضَتْ.

إلى المطالعة! فإنَّ المؤلِّفين والكتَّاب قطعُوا الحياة ينقِّبُون ويفكِّرون لكي يُعْطوك أحسنَ ما عندَهم وأجمل ما استطاعُوا أنْ يستخرجُوا مِنْ كتاب الحياة.

إنَّ أكثر النَّاس غمّاً ووحْشة هم الذين لا يقرأون ولا يتَّخذون مِنَ المؤلفين عُشراء وأصدقاء.

ولا يزعمَنَّ أحد أنَّه فقير فليس هناك فقير لا يقدر أنْ يقتني بِضْعَة [3] كتب أو يشترك على الأقل في جريدة تحمل إليه نفائس الأدب وروائع الفن.

---

1 الضَّير: ضارَّة ضَيْراً ضَرَّهُ.

2 الحَيْف: حاف عليه حيفاً جار وظَلَمَ.

3 البِضْع في العدد من الثلاث إلى التِّسع تقول: بضعةُ رجال وبِضْع نساءٍ ويركَّب مع العَشَرَة فتقول: بضعةَ عَشَرَ رَجُلاً وبِضْعَ عَشْرَةَ امرأة وكذلك يستعمل مع العُقُود فنقول: بضعةٌ وعشرون رَجُلاً وبِضْعٌ وعِشرون امرأَة ولا يستعمل مع المائة ولا مع الألف.

إنَّنا لا نبغي مِنْ هذه الكلمة أنْ نحملَه على الإشتراك في «السَّمير» لنستفيد نحن بل الغاية منها حَمْلك على المطالعَة لكي تستفيد أنت. لكي تغذِّي عقلك كما تغذي جَسَدك.

السَّمير: 27/ 11/ 1941

شجرة العيد

أينمَا سرْتَ في شوارع بروكلن - وكل مدينة في الولايات المتحدة في هذه الأيّام مثل بروكلن - رأيْتَ الأشجار الخضراء إمَّا أكواماً على الأرصفَة أو صفوفاً متسانِدَة على الجدران. والنّاس يقفُون عندها يقيسُون بأعينِهِم طولها وعرضها وكُبرَها وصُغْرَها. وتمرُّ أيديهم بأغصانِها وأوراقها كما تمرُّ يد الماشطَة بالغدائِر والطُّرَر [1].

لماذا جعل النَّاس الشَّجرة الدائِمَة الخضرة رمزاً للميلاد دون سواه؟

سؤال له جوابه عند المؤرِّخين ولكنه جواب لا يَجِلّ [2] على كل شيء. فإنَّ الإنسان منذ نشأ كانتْ الشَّجرة له نِعْمَ الرفيق يأنَسْ بمرآها وهي كاسيَة في الرَّبيع. وتطرب روْحَه لحفيف أوراقها. ويستريح عند اشتداد الحر في ظلِّها. أمَّا إذا جرَّدها الشِّتاء مِنْ أوراقِها وعرَّاها مِنْ خضرتِها ودبَّ فيها اليَبَس فإنَّ الإنسان يستفيد منها وهي أعواد جرداء كما كان يستفيدُ منها وهي أغصان خضراء. فيتَّخذُ منها أعمدة وسقوفاً. أو يشيدُ بها جسراً أو يصنع منها فُلْكاً. أو طاولة أو كُرسياً أو ما شاكل ذلك مِنَ الأدوات.

على أنَّ شجرة العيد تختلفُ عن سائِر الشَّجر فهي قصيدة بل صورة فتَّانَة أبدَعَتها الأرض لتتباهَى بها. ولكنَّ الإنسان الأناني لما رآها في جلالها ومَلاحتها أحبَّ هو أنْ يتباهى بها فانتزعَها مِنَ الأرض وحملَها إلى البيت. وخلع عليها حِللاً مِنَ الأنوار والألوان. إنَّما أجمل الألوان فيها هو لونها الأخضر. فهو رمز الأمل والرَّجاء وهو الرمز الذي يجب أنْ يكونَ في قلوب الأميركيِّين كلّهم في هذه الأيّام الكثيرة الأثقال والكُروب [3].

يجب أن نتذكَّر أنَّ المسيحيَّة لم تسطع أنوارها في جوانب الأرض إلاّ بعد أنْ اندفقَ الدم على الصَّليب ولاقى أتباعها المؤمنُون بالمحبَّة والسلام والإخاء البشري أنواع الإضطهادات والعذابات فرُجِمُوا وشُتِّتُوا وسُجِنُوا وقُتِّلُوا. وشربوا السُّمّ.

فلولا الأمل الذي كان متمكنًا في قلوبهم بأنَّ هذه التضحيات لن تذهب ضَياعاً لما استطاعُوا القيام بشيءٍ منها.

---

1 الطُّرَر: الطُّرَّة ما تتزيَّن به المرأَة من الشَّعر المُوْفي على جبهتها بالقصِّ والتَّصفيف وهي القصَّة ج طُرَرٌ.

2 جَلَّ عَظُمَ.

3 الكَرْب: الحُزْن والغَمّ ج كُروب.

لنؤمنْ كلُّنا. كبيرنا وصغيرنا. إيماناً غير متزعزَع بأنَّ الغلبَة أخيراً تكون للخير على الشَّرِّ. وأنَّ بعد هذه الزَّوابِـع صَحْواً[1] جميلاً وبعد هذا اللَّيل صُبْحاً أجمل.

فلنحتفظ بالثقة كما تحتفظ شجرة العيد بخضرتها حتى في الشِّتاء عندما تغمرُها الثُّلوج الباردة.

السَّمير: 23/ 12/ 1941

سنة 1942

ما اشتاق الإنسان إلى شيء شوَقَـهُ إلى معرفة الغد المجهول وما في طيَّات الغد المجهول مِنْ حوادث وأُمور.

والغد هو الطَّلسَم[2] الأكبر واللُّغزُ[3] الأعظم الذي مضَتْ العصُور تتلو العصُور والإنسان يحاول تمزيق السُّتُر[4] عنه فيرجع عنه خاسئاً خائِباً.

وسيبقى الغد سِرّاً مجهولا خفيّاً ولعلَّ مِنَ الخير كُلِّه أنْ يبقى مجهولا مَحْجوباً.

تصوَّر أنَّك عرفْتَ في هذا النَّهار أنَّ صديقاً عزيزاً على قلبك ستَصْدِمُه[5] سيّارة وهو يجتاز الشارع بعد أُسْبوع أو شهر. أَفَمَا كنت تقضي الأُسْبوع أو الشَّهر مرتاعاً مضطرباً كأنَّما قد وقع الخَطْب[6] الآن؟

وهل تظن أنَّك لو عرفْتَ بما سيحدث يتسنَّى لك أن تمنعَ حدوثه وأنتَ هذا الكائن الضعيف الذي يشرب الماء ولا يدري كيف يسري في بدنِه. ويأكل الطعام ولا يعرف كيف يتحوَّل.

وهل إذا أتيحَ لك أنْ تعرفَ أنَّك ستَحُلّ بك خسارة ماليَّة في وقت معلوم لا تغالط نفسك إذا جاءك إنسان آخر وقال لك أنَّك لن تخسرَ بل ستربح كثيراً في ذلك الوقت؟

وكيف لك أنْ لا تصدِّقه وهو قد أوتيَ معرفة المستقبل مِثْلك؟ لأنَّك عندما تتزحزح الحُجُب عن الغَدِ لن تتزحزحَ لك وَحْدَك بل لكُلِّ النّاس على السَّواء فيصير الكلُّ يعرفُون ما وراء الحِجاب مثلما يجهل الكلّ الآن ما تَخَبَّأ وراء السُّتُر!

ولكن ما هو المحجُوب الذي نتوقُ ونشتاق إلى معرفتِه؟

لقد كانت الحياة دائما دَمْعةً وابتسامة. وصِحّةً ومَرَضاً. وأملاً ويأسا. وقوَّة وضَعْفاً. وحُبّاً وبُغْضاً.

---

1 صحت السماء تكشَّفَت سُحُبُها. وصَحَا النائم صَحْواً استيقظ.

2 الطَّلْسَمُ خطوطٌ وأعدادٌ يزعم كاتبُها أنَّه يربُط بها روحانيّات الكواكب العُلْويَّة بالطَّبائع السُّفليَّة لجلب محبوبٍ أو لِدَفْع أذًى والشَّائع على الألسِنة طَلْسَمٌ كجعفر ج طلاسِمُ.

3 واللُّغزُ ما يُعمَّى به.

4 السِّتار ما يُسْتَتَرُ به ج سُتُر.

5 في الأَصل ستدهسه عاميّة (تحريف) والصَّواب ستَصْدُمُه.

6 الخَطْب: الأمر الشَّديد الكثير فيه التَّخاطب ج خُطُوبٌ.

ولقاء وفراقاً.

وهكذا هي الآن.

وهكذا ستكون في الغَد.

قد تتبدَّل مظاهر العُمران بما يبتدعه الإنسان مِنَ الوسائل وما يخترعه مِنْ الآلات. وما يستنبطه مِنَ الطرائِق الجديدة فيُمسي مثلا يطهي طعامه بلا نار. وينتقل مِنْ مكان إلى مكان كذوات الجناح ويرتدي ثياباً لا تحترق ولا تتجعَّد. أو إنهَّ يستغني عن الثياب والبيوت والمركبَات أو إنَّه يهتدي إلى استخراج الضوء مِنَ الهواء وتوليد الحيوان عن غير طريقة التناسل.

ولكنَّه مهما صنع وابتدع فسيبقى الإنسان الذي يحزن ويفرح ويجوع ويَشْبَع. ويحبّ ويَكْرَه. ويرجو ويخشى. وينام ويَصْحو. ويَحِنّ ويشتاق. حتى بعد أن يطَّلعَ على ما في كتاب الغد مِنْ أسرار فهو لن يقف مِنَ الشَّوق عند حد ولن يقنع بشيء يحصل عليه ويَصِل إليه.

لذلك نقول أنَّ هذه السَّنة الجديدة لن تختلف عن غيرها مِنَ السِّنين مِنْ هذه النَّاحية ولكنَّها ستختلف عنها بحوادثها الهائلة التي ستقرِّر مصير البشريَّة كلِّها. فنحن الآن على مَفْرِق الطُّرُق بين فكرة تحاول أنْ تُثْبِتَ وجودها بالسَّيف والنَّار. وفكرة تحاول أنْ تضعَ حدّاً لفكرة السَّيف والنَّار.

إنَّ العالم في حرب. والحرب شرٌّ. ولكِنْ يظهر أنَّها شرَ لا بدَّ منه لكي تُطَهِّرَ[1] البشريَّةَ بالدَّمِّ مِنْ آثامِها ولكي تعود فتسير إلى هدف أسمى.

وعندنا أنَّ الواجب على الإنسان الرَّاقي أنْ يوجِّهَ عنايته إلى استئصال جُرْثُومَة[2] الحرب كما وجَّه عنايته مِنْ قَبْلُ إلى استئصال جُرْثُومة الطَّاعُون والجُدَرِي[3] وغيرهما مِنَ الأوبئة الفتَّاكة.

وهذا الذي تفعله الآن أميركا حاملَة راية الحرِّيَة ورافعة مشعل الديمقراطيَّة.

وإنَّنا لنرجو أنْ يَتِمَّ لها ما تبغيه في السَّنة الجديدة. فينجلِيَ هذا اللَّيل الحالك الذي يَغْمُرُ الأرض مِنْ أقصاها إلى أقصاها.

السَّمير: 2/ 1/ 1942

ما هي مقاصدك في سنة 1942؟

ما هي مقاصدك في سنة 1942؟

قل لنا هل فكَّرتَ في أنْ تكون لك مقاصدُ جديدة؟

---

1 تَطَهَّر أَصلها تتطَهّر والتَّاء للمطاوعة ويجوز حذفها من أَوَّل المُضارع وهذه لغة سليمة بليغة.

2 الجُرْثومَة: الأَصْل.

3 الجُدَرِيّ حُمَّى مُعْدِية تتميَّز بطفَح حُلَيْمِيّ على الجلد يتقيَّح ويعقبُه قِشْرٌ.

أم أنت مِنَ النّاس الذين إذا لم تأت الحياة كما يحبُّون ويشتهُون قَنِعُوا[1] بها كما تجيء؟.
منْ الضروري أنْ يكونَ لكلِّ إنسان هَدف يسعى إليه ويحنُّ إلى بلوغه.
لأنَّ النَّفس التي ليس لها هدف مَعْلوم هي نَفْس حائرة قلقة كالفراشة التي تتقاذفها النَّسمات لا تدري أين تقع ولا تدري أين ولا كيف سيكون وقوعها وحالة كهذه ليس فيها سعادة وهناء بل فيها عذاب أليم.
قد تجد ذاتك لأول وَهْلة[2] حائراً في الجواب على هذا السؤال لأنَّك لم تفكّر مِنْ قبلُ في أنْ يكونَ لك هدف جديدٌ غير الذي سعيتَ إليه مِنْ قَبْلُ. أو أنَّك تعتقد أنَّ كُلَّ يومٍ له خيره وشرّه وما عليك أنْ تفكّرَ في الغد حتى يجيء.
مثال ذلك صاحب الحانوت الذي تبتاع منه مؤونة بيتك فهو في الظَّاهر لا هدف له إلا أنْ يبقى صاحب الحانُوت يفتح بابه في الصّباح ويُوصِده في المساء. يستقبل النّاس عندما يأتون باشّاً ويودّعهم باسماً.
قد يكون هذا الرجل الذي يلوح لك إنساناً لا أحلام له ولا أَهْداف صاحب رغائب كبيرة وأهدافاً بعيدة يريد أن يصلَ إليها عن طريق ذلك الحانُوت.
وقد يكون كما لاح لك نفس خاوية لا يطير فيها حُلُمٌ ولا يُغْني رجاء.
قد تكون أنت صاحب هذا الحانُوت. وقد تكون عاملاً في مصنع مضَتْ عليه سنوات وهو ينتظر آخر الأُسْبوع ليقبض أجرته ويستريح. فهو لأنَّه ألفَ هذا النَّوع مِنَ الحياة لا يخطر في ذهنِه أنْ يكون غير ما هو ولا يَعِنُّ له أنْ يَخْلُقَ لذاتِه هدفاً جديداً سَواءٌ[3] انطوى عامٌ أو انطوى عُمُر.
قد يكون في أعماق هذا العامل الكادح أماني هاجعَة هجوع الأزهار في الشّتاء تحت لحاف الضَّباب تَحْلُم وهي بسجنها برجوع الرَّبيع ليحرِّرها مِنْ قيودِها.
وقد تكون نَفْسه كالْمُنْخُل لا تمسك ماء وتضبط ضياء.
إنَّما وجود أرواح لا أهداف لها في الحياة لا يعني حَتْماً[4] أنْ تكونَ أنت بلا أهداف جميلة ونبيلة.
إنَّ السنة الجديدة لا تبدِّل النّاس ولا تَخْلُقُهُم خَلقاً جديداً. وليس الغرض مِنْ هذا السؤال أنْ تجعلَ مِنْ نفسك شخصاً آخَرَ أو أنْ تصيرَ لك أحلامُ فتىً وأنت الآن شيخ. ولا أنْ تصير شيخاً حكيماً وأنت الآن فتى غرير.

---

1 قِنَع قَنَعاً رضي بما أُعْطِيَ فهو قانِعٌ ج قُنَّع.
2 الوَهْلَة: لَقِيه أوَّل وَهْلَةٍ أي أوَّل شيء.
3 سَوَاء: سِوى إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل فيه ثلاث لُغات إن ضَمَمْتَ السِّين أو كسرت قصرت وإذا فتحت مَدَدْت تقول مكاناً سوى وسُوى وسَوَاء أي عدل ووسط فيما بين الفريقين.
4 الحَتْم: حتمَ بكذا حَتْماً قضى وحكم وحَتَم الأمْر أَحْكمه.

بل الذي نريد أنْ نقوله لك ونَودُّ أنْ نسمعَه منك وتعيه هو أنَّ في إمكانك مَهْما[1] تكن حرفتك أو مهنتك أو تجارتك أنْ تكون لك أهداف جديدة وآمال جميلة وأشواق نبيلة وإنْ لم تتبدَّل شعرة في رأسِك. وسَواءٌ كنت عاملاً أم تاجراً أم طبيباً أم فنَّاناً أمْ صيرفيًا أمْ مخترعاً ففي قدرتك أنْ تهجرَ قبيحاً إلى جميل وتهرب مِنْ عادة مضرَّة إلى عادةٍ مفيدة وأنْ تطرحَ بالياً وتَلْبَس قشيباً[2]. وأنْ تكثر وتزيدَ عدد حسناتِكَ وأنْ تقلِّلَ وتُنْقِصُ عدد هفواتك وسيِّئاتك.

وأنْسَب وقت للتفكير في هذا الأمر هو هذا الوَقْت لأنَّه بداية مرحلة جديدة في الدَّهر.

فَلْيَكُنْ بداية مرحلة في حياتِك. مرحلة للخير والنَّفع في سبيل نفسك وفي سبيل وطنك.

فَلْيَكُنْ بداية مرحلة في حياتك. مرحلة تكون مفيداً لغيرك كما أنت مفيد لذاتك.

السَّمير: 5/ 1/ 1942

المكتتبون

الإكتتاب هو أنْ يتبرَّع الإنسان أو يهبْ شيئاً لمساعدة مشروع أدبي أو علمي أو خيري وبعبارة أوضح وأوجز هو أنْ يشترك المرء مع جمهُور في الإحسان أو البَذْل.

والمكتتبُون عند كُلِّ النَّاس بدافع المحبَّة والإخلاص لراية الخطوط والنُّجُوم هم ثلاثة أصناف: إمَّا رجل ذو مال يشعر أنَّ للبؤساء حقاً في ماله لأنَّهم إخوان له في الإنسانية فَيَهَبُ شيئاً مِنْ مالِه لتنفيس كربة أو لتخفيف شدَّة أو لدفع مكرُوه.

وإمَّا رجل ذو علم جعل قاعدته في الحياة قول زهير:

ومَنْ يكُ ذا عِلمٍ فيبخلْ بعلمِهِ ... على قومِه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

فهو لا ينفكُّ يعمل بهذه القاعدة لكي تَتِمَّ سعادته ويكْمُل الغرض مِنْ وجوده في الدُّنيا ومِنْ وجُود العِلْم في صدرِه.

والثالث رجل ليس بالغني الكبير ولا بالفقير الصغير ولكنَّه ذو هِمَّة وسعي وشعُور فهو كالمكُّوك الذي يروح بخيط ويرجع بخيط حتى تصير الخيوط وَشِيعَة[3] تصلُح لأنْ تكونَ طيلساناً أو جُبَّة أو قَميصاً.

---

1 مَهْما: اسم شرط جازم يجزم فعلين الأوَّل يسمَّى فعل الشرط والثاني جوابه.

2 القَشِيب: الجديد.

3 الوَشيعة خَشَبه يُلَف عليها أَلوان الغَزْل والقصبة يَجْعلُ فيها النَّسَّاج لُحْمَةَ الثوب والطَّريق في البُرْد وكُلّ لفيفَةٍ وَشِيْعَة.

إنَّ رجلاً مثل هذا كثيراً ما حرَّك الغَنِيَ فبذل ووهب وحرَّض العالم فخطب وكتب. وفضله لا يقلُّ عن فضل الإثنين.

هؤلاء هم المكتتبُون عند كُل النّاس. وبهم قامت المشاريع الكبرى فبُنِيَتْ المستشفيَات والملاجيء وشُيِّدَتْ المدارس والكنائِس والمعاهد المختلفة.

أما نحن فعندنا هؤلاء كلُّهم ولكن عندنا غير هؤلاء صنف رابع ينبُتُ كالفُطْر [1] كُلَّما نزل مطر. أو يولدُ كالبعُوض كُلَّما جاء الصَّيف. وهو اولئك الذين كُلَّما نبتَتْ زهرة في بستان الخير العام حامُوا عليها بالنَّعرات السَّامَّة. وكلَّما ارتفع صوت داع إلى الخير والإحسان ورأوا النّاس يلبُّون النِّداء ويتبرَّعُون بسخاء جاؤوا هم واكتَتبُوا بالإعتراضَات السَّخيفة والمُجادلات العَقِيمة فإنْ لم يزجُّوا الطَّائفَة في موكب الإحسان جاؤوا بالنَّعرة البلديَّة مأرباً فدلَعُوا [2] ألسنتهم بالطَّعن على كرامِ النّاس لأنَّ هؤلاء تقدَّمُوا إلى التضحية والبَذْل ولم يتقدَّمُوا بغيرهما!!

إنَّ هذا الصَّنف مِنَ النّاس يكاد يكون محصوراً عندنا وهذا مِنْ سوء حظّنا بل هذا كُلُّه نتيجة ضَعْف فينا. لأنَّنا لو كنَّا أقوياء مثلما نحن أسخياء لَمَا رضينا أنْ يكون هذا الصنف باقياً عندنا بل كنَّا هذَّبنَاه ورقَّيناه ليدرك أنَّه لا يليق به أنْ يكونَ حشرة عندما يكون النّاس زهرةً. ولا يحسن به أنْ يكون جُرْثومةَ [3] شَرّ وشِقاق وفي وُسْعِهِ أنْ يكون كغيره جُرْثومة خَيْر وصلاح ووفاق.

وأقبح مِنْ هذا أنْ يستمرَّ كُل الوَقْت يفكِّر بذاتِه وبغاياتِه الصَّغيرة فكُلُّ إنسان قد أخذ على نفسِه مَوْثِقاً [4] أنْ ينسى ذاته مِنْ أجل غيره. مِنْ أجل النَّفع العام.

إنَّ هذا الصِّنف المشاكِس المُولَع بالمخالفة والمعارضَة لو انصرف إلى المعاونَة والمساعدَة لأفاد كغيره. ولكنَّه صنف مولع بالظهور وليس في وُسْعِهِ [5] أنْ يصلَ إلى ما يبغيه بالمال ولا بالعلم فهُوَ يقرقعُ ليلتفت النّاس إليه.

وإنَّهم ليلتفتُون إليه ولكن لِيصبُّوا اللَّعنات عليه!

السَّمير: 29/ 1/ 1942

---

1 الفُطْر اسم يُطْلعه على طائفة من اللازهريات منها فصائل وأَجناس وأَنواع متعدّدة وتُسمّى أَيضاً فُطْرِيَّات منها ما يؤكل ومنها ما هو سامّ وما هو طفيليّ على النَّبات واحدته فُطْرَة ج أَفطار وفُطُور.

2 أَدْلَعَ لسانَه أَخرجَهُ.

3 الجرثُومَة: الأَصْل.

4 المَوْثِقُ المِيثاق.

5 الوُسْع جعله في القاموس مثلَّث الواو والسَّعَةُ بالفتح والطَّاقَة لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَته أَي على قَدْر سَعَتِهِ.

عدوّ الصَّليب الأحمر

يَصْعُبُ على أيّ إنْسانٍ أنْ يتصوَّر أنَّ في الأرْضِ كُلّها إنساناً في جُمْجُمته دماغٌ، وبين ضلوعه قَلْبٌ يتصدَّى لمعَاكَسَةِ مشروع إنساني كمشَروع الصَّليب الأحْمَر.

ونحن نؤكّد للنَّاس أنَّ هذا الإنسانَ غير موْجودٍ في أيّ مكانٍ من الأرض. ولكِنَّ بعضَ الأنانيّينَ الّذين لا يَسْتطيعونَ أنْ يَنْسَوا غاياتِهم الشَّخْصيَّة حتى في الأوقات العَصيبة فيذهبون مع رياح الأغْراض، ويشتدُّ بهم الهَوَسُ، فيعمَدون إلى نكاية الّذين يضحُّون بالوَقْتِ والمال لخِدْمَةِ المشاريع الإنسانيَّه المفيدة. فينهضون للإعتراض على رَجُلٍ بَذَل دولاراته؛ لأنّه بَذَلها على غير الصُّورة التي يريدون، أو على جَماعَةٍ سارعوا إلى البَذْل، والسَّعْي؛ لأنَّهم لم يشاوروهم قبلَ أنْ سَعَوْا، وبذلوا.

إنَّ هؤلاءِ المُتَعَنِّتين، المغرضينَ الذين غَلبتهم أهواؤهم الذَّاتِيَّة لا يسيئون إلى الذين بذلوا أموالهم، وضحُّوا بأوقاتِهم؛ بل إلى مشروع الصَّليب الأحمر ذاتِه. وإن كانوا يقولون إنَّهم لا يقصدون الإساءَة إليه.

إن مشروع الصليب الأحمر مشروع الأُمَّة كلّها، بل هو مشروعٌ إنسانيٌّ بَحْت[1]، يتقدَّم إلى نصرته من شاءَ التقدُّم إليه، بالمساعدة المادّية، ولا تُكره جمعية الصَّليب الأحمر أحداً على التَّبرُّع، لأنها تعتقد أنَّ ما تفعله واجبٌ؛ لا إكراه فيه، ولا إلتزام.

فمن كان لا يُعْجبه أن يتبرَّع عن يَد لَجْنة تألَّفت، فَلْيَفْتحْ كِيسَهُ، ولْيَتبرَّع للصَّليب الأحمر رأساً.

أمَّا أن لا يتبرَّع، ويشاغِب على الذين يتبرَّعون، فهذه صَغَارةٌ وخَساسةٌ، ولُؤْم عتيق!

يجب أن يفهم المُشاغبون أنَّ مشروع الصَّليب الأحمر، مشروع أميركي والذين يتبرَّعون له، يتبرَّعون لكونهم أميركيين؛ فبأيّ صفة يعترض هؤلاء المعترضون! أبصفتهم اميركيين أم بصفتهم أجانب؟!

ولماذا؛ وهم يزْعمون أنَّهم يريدون خدمة الصَّليب الأحمر، لا يتبرَّعون له؟ فالطَّريق إليه غير مسدودٍ في وجه أحد. ودولار الفقير الواحد مقبولٌ كألفِ الغنيّ؛ ولكِنَّ الفقير الذي يتبرَّع بدولار لا يجوز له أن يعترض على غيره إذا تبرَّع بأكثر من دولار؛ كما لا يجوز له أنْ يطلب من أيّ متبرّع أن يشاوره قبل أن يتبرَّع! إلاَّ اذا كان له في مالِه حصَّةٌ، أو له عليه وصايه!

نحن لا نريد أنْ نتصَوَّرَ أنَّ بيننا أُناساً يطيب لهم أنْ يشاغِبوا حول مشروع الصَّليب الأحْمر؛ لأنَّ المسامعَ غير مستعِدَّةٌ لقبول هذه الاصوات المُنْكَرَه.

أمَّا إذا وُجدوا، فإنَّا سنُسلِّط الأنوار الكشَّافةَ عليهم، لكي يفتضِحوا ويبوءوا بالخِزْيِ والعار.

---

1 البحت: الصرف الخالص لا يخالطه غيره يقال خبز بحت غير مأدوم وعربيّ بحت.

لا رحمة عندنا لإنسانٍ لا يتحرَّكُ عِرْق الرَّحمَةِ في قَلبه في هذا الموقف.

ولا تساهُلَ مع أُناسٍ كلَّما خَفضْتَ لهم جُناح [1] الرِّفْقِ تمرَّدوا واسْتَأْسَدوا، أو شمَخْوا وعَرْبَدوا.

السَّمير: 4/ 2/ 1942

ما هي أسباب الثرثرة

يجدر بنا قبل أن نتكلَّم عن أسباب الثرثرة أنْ نسأل: مَنْ هو الثرثار؟

إنَّ القامُوس لا يعرِّفُ الثرثار إلاّ بأنَّه «المهذار الصيَّاح» ولكنَّه يعرِّفُ الثرثرة فيقول إنَّها الإكثار مِنَ الكلام وترديده ويعرِّف «الثرثارة» بأنَّها المرأة الكثيرة الكلام.

ولكنَّ هذا التعريف لا يصوِّرُ لنا الثرثار صورة كاملة. لأنَّ كثرة الكلام وحدها ليسَتْ عيباً إلاّ إذا كانت في غير طائِل ولا معنى للكلام المردَّد. ولو أنَّ الكلام الكثير وَحْدَه هو العيب لكانَتْ الحيوانات العجماء أميرة الفضائِل!

لا. ليس الكثير الكلام وحده هو الثرثار. بل الثرثار هو الذي يتكلَّم في أمور فوق مفهوميَّته ويتحدَّث في قضايا لا تعنيه. ويُطْلِقُ لسانه في كُلِّ ناحية لغير قصد أو لقصدٍ سخيف هو أنْ يظهر بمظهر الإنسان المُطَّلع العليم.

أما أسباب الثرثرة ـ ولكل شيء أسباب فهي ضَعْف في عقل الثرثار وهِمَّته وصِغَرٌ في نفسِه ووهْنٌ في المَنْطِق.

أمَّا الضَعف العقلي فالدَّليل عليه أنَّ الثرثار يترك الإهتمام بالشؤون التي تعنيه إلى الإهتمام بشؤون لا تعنيه وليس مِنْ حقِّه ولا في طاقتِه أنْ يعالجها.

ومَنْ تعرَّض لما لا يعنيه إدَّعى ما ليس له وما ليس فيه. وكلا الأمرين يدلُّ على سوء الأدب.

ومِنْ أسباب الثرثرة فراغ في ناحية مِنْ جُمْجُمة الثَّرثار يشعرُ هو بوجودِه ويخشى أنْ يشعرَ النّاس به فيندفع يتكلَّم لعلَّه يصرف الأفكار عنه فيفضَحَ نفسه مِنْ حيث أراد سترها!

إنَّ اكثر ما تهتزُّ السُّنْبلَة عندما تكون فارغة.

ولا تخشخش أوراق الشَّجر إلاّ عندما تيبس. أمَّا وهي خضراء نديَّة فإنَّ صوتها يكون حفيفاً لطيفاً تأنسُ به المسامع وتنبسط له النفُوس.

إنَّ النَّهر الكبير يسير هادئاً صامتاً أمَّا السَّاقيَة فإنَّها لا تنقطع عن الثَّرثرة.

ولا تنحصرُ الثرثرة في الألْسِنَة فكم هناك مِنَ الأقلام الثرثارة التي قلَّ محصولها مِنْ بضاعة الأدب فهي تتناول الشيء الجميل وتمسخه لعُقْمها [1] قبحاً وبشاعة. أو إنَّها تطنُّ كالذُّباب على وتيرة واحدة. ما

---

1 الجُناح: الحَرَج والإثم.

تقوله اليوم تقوله في كلِّ يوم. تتبدَّلُ الدُّنيا ويتبدَّلُ النّاس وهي لا تفارق نغمتها البليدة. ولا تَعْدِلُ عنها إلى نَغْمة جديدة لأنَّ قوَّة التمييز فيها معدُومَة وهي لإنعدام هذه القُوَّة فيها لا ترى عيوبها وإنْ كانَتْ عيوباً مكشوفَة لعيون النّاس كُلّهم.

ما عرفنَا كاتباً بليغاً إلاّ وعرفنا فيه قُوَّة التَّمييز بين المعنى السَّخيف والمعنى الرَّائع وبين الرأي الفائِل [2] والرأي الثَّاقِب. بين اللَّفظ الموافق واللَّفظ غير الموافق.

وما طلعَ علينا كاتب بلغة ركيكة وألفاظ هزيلة وأسلوب أعجمي إلاّ ودلَّنا بكتابتِه على أنَّه سقيم الذَّوق مظلم النَّفس بارد الذِّهن يزاول صناعة القلم وهو لم يُخْلَق لها.

وما أكثر هؤلاء الأدعياء بيننا فإنَّنا نعرف واحداً منهم لا يحسن التمييز بين كلمة «الآجُرّ [3]» وكلمة «الاآجر» فيلفظ الثَّانية كالأولى ويعدُّ نفسه مِنْ رجال الصَّحافة في المهجر.

ونعرف واحداً آخر لا يفرِّقُ بين التاء الطويلة والتاء المربوطة وهو يزاول الصَّحَافة!

ونعرف ـ لا عرف أحد مكروهاً ـ واحداً آخر قضى عمره يشمُّ رائحة الحِبْر ولا يزال يشمُّها ولكنَّه لا يزال حتى الساعة كأنَّه خارج مِنَ الكتَّاب يحتاج في كُلِّ يوم إلى مَنْ يعلِّمَه كيف يكتب. أمَّا هو فيتوهَّم أنَّه أكتب الكاتبين. لله ما يفعل الغرور.

إنَّ المصيبة في الثرثار المِهْذار المتكلِّم لا تتعدَّى سامعيه وقليلاً ما زادُوا عن خمسة أمَّا الكاتب المِهْذار الثرثار فالمصيبَة به تقع على جمهور كبير.

ومِنْ نكَد الحظ أنْ يكونَ المهاجرُون مِنْ قومِنا هم المُبتلُون أكثر مِنْ غيرِهم بأهلِ الثرثرة مِنَ الكتَّاب.

وأعظم نكَداً [4] مِنْ هذا أنَّهم يدفعُون ثمن هذه الثرثرة وقتاً ومالاً.

فهل صبرهُم على أهل الثرثرة كَرَم وسَماحة أم عَجْز؟!

السَّمير: 21/ 2/ 1942

ما هو الألَم؟

هلاَّ سألْتَ نفسك ـ والعالم المسيحي كلّه يحتفل بذكرى آلام الصليب ـ ما هو الألم؟

إنَّ مَنْ لا يسأل لا يصل إلى المعرفَة. فاسأل ذاتك واسأل غيرك. واسأل الحياة حولك. فإنَّ ألم

---

1 العُقْم: العقيم لا يولد له وريحٌ عقيم لا تُلقح سحاباً ولا شجراً ويوم القيامة يوم عقيم لأنَّه لا يوم بعدَهُ.

2 الفائِل: الفأل أَنْ يكون الرجل مريضاً فيسمع آخر يقول يا سالم أو يكون طالباً فيسمع آخر يقول يا واحد. يقال تفأَّل بكذا بالتَّشديد.

3 الآجُرُ الذي يبنى به فارِسِيّ معرَّب.

4 النَّكَد: رجل نكِدٌ أي عَسِر ونكِدَ عيشه اشْتَدَّ.

النَّفْس لا يهدأ ولا يستكِنّ ما دمْتَ تحِنُّ إلى شيء فلا تدركه.

أجل. إنَّ الألم هو نتيجة واحد مِنْ أمرين إمَّا خسارة شيء ثمين في حوزتك. وإمَّا الشوق إلى شيء لا تتِمُّ سعادتك إلاّ بالحصول عليه ولكنَّه ليس في حوزتِك.

ونحن هنا نتكلَّم عن آلام الرُّوْح لا آلام الجسد. فإنَّ جراح الجسد تلتئمُ وتندمل. وأمَّا جراح الرُّوْح فلا التئام لها ولا اندمَال إلاّ إذا أسعفَتْها الأيّام فبلَغَتْ ما تشتهي وتتمنَّى.

لو درسْتَ الحياة مِنْ جميع نواحيها لوجَدْتَ أنَّ للألم اليد الأولى والطُّولى [1] في كُلِّ ما تشاهده مِنَ المحاسن والرَّوائع والكمالات.

خذ مثلا هذه الأزاهر التي اخذَتْ تُطِلُّ علينا في هذا الشَّهر مِنَ السُّفُوح والرُّبَى. وتغازلنَا بألحاظِها مِنْ وراء نوافذ حوانيت الزَّهر في المدينة. فهذه لم تخرج إلى الدُّنيا مِنْ رَحِمِ الأرض إلاّ بعد عراك عنيف تألَّمَتْ معها ذرَّات التُّراب التي كانت تعيش بينها وتمتصُّ عروقها منها الغذاء.

وانظر إلى النُّجُوم المتألِّقَة في الفلك أتعرف حكايتها. أتدري كيف ولدَتْ؟ وكم رافق ولادتها مِنَ العذاب؟

إنَّ كُلَّ ذرَّة مِنْ ذرَّات النُّور التي تصلُ إلى الأرض. وما أسرع سيْر النُّور. لا تبلغ الأرض إلاّ بعد عراك مع الأثير.

واسمع الطُّيُور تغرِّد.. أتدري لماذا تغنِّي الطيور؟ إنَّها على الغالب لا تغنِّي إلاّ لأنَّها نجَتْ مِنْ عذاب أو لأنَّها تحاول أنْ تنطلق بالغناء مِنْ سلاسل الألم والعذاب فهي في نُوَاحِها تبكي على أليفٍ بعيد. وهي في صُداحِها تحنُّ إلى عيشٍ رغيد أو إلى مرج. أو إلى غدير. أو إلى عُشّ. أو إلى حالة تهواها.

إنَّ الألم يطهِّرُ النُّفوس مِنَ الأدران واللَّوثات فتصفُو وتلمع وتنير. ولولا هذه النُّفوس التي طهَّرها الألم لما وصلَتْ الحضارة إلى مستواها الرَّفيع. ولبقيَ الإنسان كما كان في أوَّل نشأتِه يلجأ إلى المغاور والكهُوف ويقنعُ مِنَ الدُّنيا بأنَّه يأكل ويشرب وينام.

إنَّ الألم هو ا لذي أوجد الأنبياء والشعراء والفنَّانين والفلاسفَة والمُخترعين وسائر الذين نسمِّيهم نوابغ.

والألم هو الذي أوقدَ نيران الثورات الإصلاحيَّة في العالم فخرجَتْ مِنْ تلك النيران أمَمٌ حرَّة طليقة مِنْ قيُود الماضي وأغلاله.

بالألم يولدُ الإنسان. وللألم يولد. لأنَّ الألم ابن الإحساس والإنسان أكثر المخلوقات إحساساً وكُلَّما رقَّ حسُّه وصفا كان ألَمه أعظمَ وأعمقَ وأبعد مَدًى. لأنَّ صاحب الإحساس الدقيق يتألَّم لغيره كما يتألَّم لذاتِه. أمَّا الذي قسا شعُوره وتحجَّر ضميره فهذا لا يتألَّمُ كثيراً ولا يُنتظَر منه أنْ يشعرَ مع سواه.

---

1 الطُّولى تأنيث الأَطول والجمع الطُّوَل مثل الكُبْرى والكُبَر.

فإذا مشيْتَ غداً إلى الكنيسة. أو رأيْتَ النّاس يسيرون إليها للإحتفال بذكرى المَصْلوب فاعلم أنّهم يحتفلُون باسمى وأنبل مَنْ تألّم. وهو النّاصريّ الذي احتمل الإضطهاد والعذاب ورضيَ أنْ يساقَ إلى الصّلب وأنْ تُدقّ المسامير في يديْهِ ورجليْه لكي يعلّم البشريّة معنى التّسامح والتضحية في سبيل الغير. حتى ولو اقتضى ذلك الجُود بالنّفس فهو لم يكتف بأنْ عَذّب نفسه بالصّوم أربعين نهاراً في البرّيّة. ولم يقنعَ بأنّه علّم وكرز وضرب الأمثال. بل مشى إلى الموت مِشْيَةَ مؤمن بالحياة. وقد مرّت الأجيال تتلو الأجيال وتلك الذكرى تزداد جلالاً وجمالاً كُلّما مرّتْ بالمُخيّلات وطافَتْ بالأرواح.

وبينما دول تمضي ودول تجيء. وعروش تهوي وعروش ترتفع. وأمَمٌ تندثر وأممٌ تولد. كانت المملكة الرُّوْحيَّة التي بناها الألم على الجلجلة منذ ألف وتسعمائة واثنين وأربعين سنة يغمر سلطانها الأرض مِنَ المشرق إلى المغرب وهي المملكة التي لا يقوّضُ السّيف دعائمها وإنّما يقوّضها أنْ يرجعَ الإنسان كالحيوان الأعجم لا يُحِسُّ الحزن لَمصَاب غيره ولا يحفّزه حافز إلى السّعي للإرتفاع بذاتِه إلى مرتبة أعلى.

أمّا وقد عرَفْتَ بركات الألم فما أحراك أنْ تشفقَ على الذين يتألّمُون أو الذين لا يستشعرُون الألم!!

السّمير: 3/ 4/ 1942

مات حكيمي

رَجَعْتُ منذ يومين بالذكرى إلى أيّام طفولتي فانتَصبَتْ أمامي صورتي وأنا ولد صغير ملقى على فراش المرض والحمّى تلهبُ دمي. ومِنْ وراء هذه الصورة لاحَتْ لي صورة الضّيعة الصّامتة في أيّام الشّتاء لا يسمعُ فيها غير تساقط الماء مِنَ المزاريْبِ أو ولولة الرياح وراء البيوت.

في ذلك الشّتاء كان في الضيعة أولاد كثيرون أصيبُوا بالتيفُوس وكنت أنا مِنْ هؤلاء الأولاد.

وكانَتْ وطأة هذه الحُمّى [1] الخبيثة ثقيلة بحيث لم يخل بيت مِنْ أمّ ساهرَة إلى جانب فراش طفلها تتضرّعُ إلى الله أنْ يشفيه.

وبينما النّاس ينزوون في البيوت حول المواقد خوفاً مِنَ الرياح القارصَة والثُّلوج كان هناك رجل لا ينزوي مِنْ وجهِ عاصفة ولا يقعدهُ عن المسير تراكم الثُّلوج في الطرقات. يخرج مِنْ بيتِه ليدخل إلى البيوت متفقّداً المرضى مستعيناً بعلمه وذكائِه وهِمّة الشّباب على مكافحة ذلك العدُوّ الخبيث الذي هاجم الضيعة واحتلّ أكثر بيوتها. وهو - حُمّى التيفوس!

كان هذا الرجل المفرد جيشاً في شخص. وكان الرّجاء يدخل إلى البيوت عندما يُطِلُّ عليها.

---

1 الحُمّى عِلّه يستحِرّ بها الجسدِ وهي أنواع كثيرة منها التيفود والتّيفُوس.

هو الحكيم أمين الجميّل الذي نَعَتْهُ إلينا جرائد بيروت الأخيرة!

ولطالما رأيتُه بعد إبلالي [1] مِنَ المرض يسير بقامتِه الطويلة ووجهه الهاديء الرَّصين فكان يلُوحُ لي كأنَّه بطل مِنَ أبطال الأساطير.

ولقد مرَّتْ الأعوام تتلو الأعوام وانمحَتْ بالبعد مِنْ ذهني صور كثيرة إلاّ صورة هذا الحكيم المنقذ وصُور الكروم والحقُول التي كنتُ أمرحُ فيها. وصُور الأشجار والسَّواقي التي كنتُ ألعبُ حولها وغروب الشَّمْس وطلوعها في سماء لبنان.

ومِنَ الغريب أنّي لَّما بعدْتُ عنه عرفته أكثر. لأنّي صرْتُ أفهم قيَم الأشياء أكثر. فهو لم يكن طبيب أجساد فحَسْبُ بل طبيب نفوس وأخلاق أيضاً فكم قرأتُ له مِنَ المحاضرات القيِّمَة والمقالات المفيدَة والأبحاث الجليلة.

ولكم سمعْتُ عن مساعيه الأدبية والعلمية والإجتماعيَّة لترقية الحياة في لبنان وتنقيتها مِنَ الشَّوائِب والأدران حتى كأنَّما هو مسؤول وَحْدَه عن كل هذا.

ولطالما [2] تذكَّرته فقلت في نفسي: ماذا ترى كان يكون مصير أولئك الأحداث الصغار في تلك السنة لولا وجود الحكيم أمين الجميّل؟

إنَّ كثيرين مِنَ الأطفال ماتُوا في الضِّياع والقُرى لعدم وجود حَكيم عندهم كهذا الحكيم.

ولا تزال الأمراض حتى في أيامنَا تجتاح أرواحاً كثيرة إمَّا لقلَّة الأطبَّاء وإمَّا لعَجْزِ الكثيرين المادِّي عن الإستعانَة بالأطبَّاء في الوَقْت اللازم.

ولطالما كنتُ أقلبُ الجرائد البيروتيَّة ولا قصد لي إلاّ أنْ أرى فيها شيئا لحكيمي أو شيئاً عنه. أمَّا الآن فلم يبق سبيل إلى هذا الأمر لأنَّ الحكيم الذي كان معنا أصبح اليوم في غير دنيانا.

أجل. مات أمين الجميّل الذي كان نِبْراس [3] رجاء ويَنْبُوع شِفاء..

فأنا الذي لم أستطع أنْ أفِيَهُ شيئاً مِنْ فضلِه علَيَّ في حياتي أذرفُ دمعة سَخِينة [4] على طبيبي الذي أنقذني مِنْ براثنِ الحُمَّى الفتَّاكة.

أحْسنَ الله إليك أيُّها الحكيم الأمين كما أحسنْتَ إلى محيطك وقومك.

وإلى جميع آلك. آل الجميّل الكرام في الوطن والمهجر تعازي القلب الشَّاعر بالخَسارة الفادحَة التي أصابَتْ الطِّبَ كما أصابتْهُم بفقد الأمين.

السَّمير: 14/ 4/ 1942

---

1 إبْلالي: وَبَلَّ الرَّجُلُ وأبَلَّ إذا برَأ.

2 طال فعل ماضٍ ليس له فاعل وما زائده مثل قلَّما وكثر ما وفي اللغة العربية ثلاثة أفعال فقط لا فاعل لهم.

3 النِّبْراس: بالكسر المِصْباح.

2 السَّخينة: يقال أسْخَنَ الله عينه وبعينه أنزل به ما يبكيه لأنَّ دموع الحزن تكون ساخنة وعكسه قولهم: أقَرَّ الله عَيْنَهُ.

كيف تتفلّت مِنْ همومك

ليس مِنْ معلّم للإنسان مثل الطَّبيعة ولا يستفيد أحد ممَّا تلقيه عليه مِنَ الدروس إلاّ إذا أطاعها وعمل بمشيئتِها. فإذا أحرجَك هَمّ يتواثَبُ في جوانِحِك ويضيِّقُ عليه مسالك الرجاء فاعمل كما يعمل العصفور الذي ينفض جناحيْه في النُّور فيسترجعُ نشاطه ويطير مِنْ مكانِه إلى مكانٍ أخر فيغيب عن مشاهد لا ترضيه إلى مشهد يفتنه ويستهويْه.

نحن الآن في الرَّبيع المقدمة الجميلة لكتاب الصَّيف فمَا أحراك أنْ تطالع هذه المقدِّمَة التي تثير بك الشَّوق إلى الكتاب ذاته.

أجل إنَّ الصَّيف قد جاء إليك بموكبه الفتَّان وهذه هي بشائِره وعلائمُه تتراءى حولك في الأشجار التي تَلْبَس الورق الأخضر. وفي الأزهار التي تخرج مِنَ الأرض بأصباغ وألوان مدهشَة. وفي السَّماء الصافيَة التي ترشُ عليك نجومها الفضيَّة وِشاحاً لطيفاً.

فقُمْ ورحِّب بهذا الزائر الجميل واصغ إلى ترانيمِه وأناشيده فتَنْسَى الكثير مِنْ همومِك في هذه الأيّام وتكْتَسِب قوَّة ونشاطاً في روْحك وجسمك.

لا تقُلْ أنَّ نفسك مغمومَة ولا شوق فيها إلى شيء مِنْ هذه الأمُور. فإنَّ هذا الزهد المُستحوِذ عليك هو القيد الذي يجب أنْ تحطِّمَه بكل وسيلة ولن تحطِّمه بالقعُود في البيت ولا بزيارة صديق لك لأنَّ القعُود في البيت يحملك على الإسترسال في الهَمِّ إذ لا مؤنس لك فيه. وحيث لا مؤنس فهناك الوحدة والوحشة والإكتئاب.

أمَّا الصَّديق الذي تزوره لكي تتسلَّى فإنَّه مثلك في الهَمِّ والإكتئاب. وليس في قدرة الجريح أنْ يداوي جريحاً. كلاكما بحاجة إلى علاج الطَّبيعة التي تهيء لكما ولكُلِّ النَّاس مِنْ أسباب الأُنْس والبَهْجة ما لا يقدر عليه ملك ولا سلطان ولا إمبراطُور. وهي لا تتقاضاك شيئاً إلاّ أنْ تذهبَ إليها وتفتح عينيك على محاسنِها ومفاتنِها العجيبَة.

هناك - في ساحتِها - تتلاشى همومك ويتساقط الصَّدأ عن روحك فترجع صقيلة لَمَّاعة وتحسُّ عندئذ بأنَّ هذه الحياة ما زالَتْ جميلة بالرَّغم ممَّا فيها مِنَ المتاعب والمصائِب والآفات. وتشعرُ وأنت معها أنَّها تُسْكِرُكَ بدون أنْ تسقيْك خمراً.

والطَّبيعة تلهيك وتسلِّيك وتقوِّيك في وقت واحد ولا يزول تأثيرها كالمخدِّر. فاتَّخذها صديقاً ورفيقاً ولا سيَّما [1] في هذا الوقْت وأنت الرَّابح.

السَّمير: 20/ 4/ 1942

---

1 لا سيَّما: كلمة يستثنى بها وهي سيّ ضُم إليه «ما» ولَك في المستَثْنى بها الرَّفع والجرّ.

أوراق الخريف

طلعَتْ في بستان الأدب الصافي ريحانة نديَّة عبقة. ولمعَتْ في سمائِه نجمة زهراء متألِّقة وهي ديوان «أوراق الخريف» للشاعر العذب القافيَة الرَّائق الأسلوب ندره حداد الذي لا ندري لماذا دعا ديوانه «أوراق الخريف» وكُلُّ ما فيه ورود ورياحِين تفوحُ منه روائح الشَّباب لأنَّها مِنْ حقولِه خرجَتْ وبمائه ارتوَتْ. ومِنْ ديباجتِه [1] استعارَتْ ديباجتها.

أجل، لا ندري لهذه التَّسمية سبباً إلاّ أنْ يكونَ التواضع المُتَصِف به الشَّاعر حمَلَه على أنْ يسمّي الشيء بضدِّه تاركاً لغيره أنْ يهتدي بذاتِه إلى الإسم الحقيقي!

ليس ندره حداد بالشَّاعر المجهُول مِنَ النّاس لنعرِّفه إليهم. فهو ما برحَ منذ عهد بعيد يعزفُ على قيثارتِه أعذبَ الألحان لأبناء الضاد في هذا المهجر فتجتاز أغانيه المحيط إلى بلاد الضاد.

وهو في كل قصائده ومقاطعه ذلك الشَّاعر الهاديء الأحلام الزَّاهد في الدُّنيا وما فيها مِنْ حُطام [2] لأنَّ للشاعر دنياه التي يأوي إليها كُلَّما استحوذ على نفسِه الضَّجَر مِنْ دنيا النّاس فيجد ذاته. ويسعدُ بذاتِه كأنَّه في ألف جوق [3] مِنْ أجواق الطَّرب. وكأنَّه في قصر مِنْ ذهب.

ومَنْ يعلم لعلَّ هذا الشَّاعر كان غديراً قبل أنْ صار إنساناً. أو لعلَّه كان بنفسجة. فإنَّ فيه مِنَ الغدير أناشيده الرقيقة المُسكِّنَة للهُموم وفيه مِنَ البَنَفْسجَة تواضعها.

ومَنْ لا يلذُه أنْ يصغي إلى صوت الغدير المُترقرِق ولا سيَّما عندما يأتي إليه ويلقي بذاتِه بين يديه كتابا اسمه «أوراق الخريف».

يقع الدِّيوان في أكثر مِنْ مائتي صفحة وهو مطبُوع طبعاً أنيقاً وفيه أجمل قصائد الشَّاعر ومُفتَتَح بمقدمة لطيفة بقلم الكاتب المُفكِّر وليم كاستفليس وثمن النسخة ثلاثة دولارات. ولا حاجة بنا إلى حض مُحبِّي الأدب على اقتناء هذا الدِّيوان فإنَّ أقل ما يجزى بهِ الشَّاعر أنْ يتهافتَ النّاس على مائدتِه فيشربُون ما سكبَ لهم مِنْ خُمور ويأكلون ما أعدَّ لهم مِنْ فاكهة..

السَّمير: 21/ 4/ 1942

---

1 الدِّيباجة: دِيْباجة الكتاب فاتحته ويقال لكلامه وشعره وكتابته ديباجة حسنة أسلوب حسن.

2 الحُطَام: من كُلِّ شيءٍ ما تكسَّر منه وحُطام الدُّنيا متاعها.

3 الجوق الجماعة من النَّاس ج أجواق.

يا ليتني سُكَّر

لقينا صديق يميل إلى الدعابة فكانت فاتحة الحديث بيننا بعد السلام موضوع «السُّكَّر» وتقنينه بحيث لا يحصل الإنسان الفرد رجلا كان أم امرأة وغنياً أم فقيراً، إلاّ على نصف بوند في الاسبوع فقال: ليتني كنتُ سكَّراً.

قلنا: ألِكَي يأكلك النّاس ويشربُوك؟

قال: وأيُّ إنسان لا يصير في آخر الأمر طعاماً للدُّود؟

فَعَبَسْنا لهذه الفَلْسَفة التي لا شيء فيها مِنَ الدعابَة وقلنا له: يظهر أنَّك قد صرتَ مِنْ مذهب المتشائمين القانطين الذين لا يَـرَوْنَ في الحياة شيئاً يستحقّ الإهتمام.

قال: ومَنْ أخبرك أنّي صرتُ مِنْ هذا المذهب فأنا ما زلتُ على ضِدِّه. وإذا كنْتُ اشتهيْتُ بأنّي سكَّر فلأنَّ السكَّر في هذه الأيّام أرفعُ مَقاماً وأغلى قيمة مِنَ الياقُوت والمرجَان والعقيق والألماس! ألا ترى أنَّ ربّات البيوت يحرصْنَ على ذُرَيرات السكَّر أكثر ممّا يَحْرِصْنَ على الحُلِيِ- ألا ترى الحكومة كيف تحدِّدُ للنّاس مقدار السُّكَّر في كُلِّ أُسبوع ولا تحدِّدُ لهم مقدار الألماس الذي يجب أنْ يشترُوْه!

فأنا عندما تمنَّيْتُ أنْ أصيرَ سكَّراً لم أودُّ أنْ أصير مأكُولا أو مشروبا بل أردْتُ أنْ تَرْمُقَني الحكومَة بعنايتِها وحراستها فلا يستأثر بي صاحب السُّلْطان ولا ذو مال. ولا يرتفع شأني عند السيدات فلا يسرِفْنَ بي ولا يبتذلنَني.

فضلاً عن أنَّ صيرورتي سكَّراً خيرٌ وأفضل مِنْ صيرورتي ألماساً أو ياقوتاً أو زُمُرّداً فإنَّ الألماس والياقوت والزمرُّد وغيرها مِنَ الجواهر مثل كل الحجارة لا تتحوَّل إلى شيء آخر. ولذلك لا يستفيدُ بها النّاس إلا الزِّينة. أمّا السُّكَّر فإنَّ قيمته الكبرى ليس في بياضِه ولا لمعانه ولا ثقله ولا خفَّته بل في أنَّه يُؤكَل ويُشرَب فيذوب فيتحوَّل في الجسم إلى حرارة وقوة..

أو أنَّه يُغلى ويستقطَر ويُستخرج منْه الكحول التي يُحْتاج إليها في كثير مِنَ العقاقير والأدوية والأشربَة.

إنَّ النحلة تقضي نهارها في الحقل مِنْ زهرة إلى زهرة لكي ترجعَ وفي جوفِها مِنَ الشَّهد قطرة وما الشَّهد إلا سكَّر راقٍ!

فهل رأيْتَ نحلة وقعَتْ على حَجَرٍ مِنَ الألماس اللَّمّاع ولو في إصبع ملكة؟!

فضحكنا وقلنا: وإلى أين الآن ذاهب. إلى الحقل كالنحلة لتجني الشهد؟ أم أنت ذاهب لتوزِّع فلسفتك هذه في البيوت والحوانيت؟

قال: كلا. بل أنا ذاهب عَلَّني أَحْصل على وثيقة تكفل لي نصف بوند مِنَ السكر في كل أُسْبوع.

فضحكنا وقلنا له: إذا كان شوقك إلى الحصول على نِصْف بوند مِنَ السكر قد جعل منك فيلسوفاً فكيف بِكَ إذا تمّ لك ما تتمنّى وصرتَ أنت سُكَّراً..

السَّمير: 5/ 5/ 1942

نور ونار

هذه الجريدة نور ونار!

هي نور هداية ورحمة للذين التفَّتْ بهم غيوم البؤس والنُّحوس وتطاول عليهم ليل الضِّيق والضَّنْك.

وهي نار تنقَضُّ نيازك وصواعق على رؤوس أهل النِّفاق والتَّدجيل تذيب جلودهم فتنتشر. وتَصْهَر [1] أكبادهم فتنفَطِر [2].

هي مع الحق تؤيده في كُلّ مكان وفي كُلّ وقت.

وهي على الباطِل تقاتلُه في كل مكان وفي كُلّ وقت.

لا تفتري على أحد ولكنَّها لا تسكتُ عن مُفْترٍ [3].

لا تنكرُ لإنسان فضلاً ولكنَّها لا تعترف لإنسان بفضلٍ ليس له وتكذّبه إذا ادَّعاه. لكي تعود الأشياء إلى أصحابِها. ولا يدخلُ المتطفِّلُون إلى البيوت مِنْ غيرِ أبوابِها.

يقول لنا بعض الأصدقاء: لا تنزلُوا إلى حومة يتمرَّغ فيها السُّفهاء. وهم يقصدُون أنْ لا نلتفتَ إلى الذين يتطاولُون علينا مِنْ زعانِف [4] الأدب وخنافس [5] الصَّحافة.

ونحن مع احترامنَا رأي هؤلاء الأصدقاء نرى أنَّ حياة الصَّحافي الحُرِّ لا تتِمُّ إلا إذا تمشَّى على السُّنَن الطبيعيَّة التي يتمشَّى عليها كُلّ البَشَر الرَّاقُون.

فأنت لا تديرُ ظهرك للذئب إذا سطا على غنماتِك. ولا تقف تتفرَّج على الثَّعْلب وهو يتسلَّل إلى دجاجاتِك. ولا تدع الجُرْذان [6] تَعْبَثُ [7] في بيتِك بل كلَّما شعرْتَ بالذئب قادماً ليفترس شاتَك أو عنزتك أسرعْتَ إلى البندقيَّة لتقتله. وإذا عرفْتَ أنَّ ثعلباً يتسلَّلُ إلى دجاجاتِك نصبْتَ له فخاً أو أعددْتَ له

---

1 صَهَر الشيء بالنَّار ونحوها: أذابه.

2 فَطَر: انْفَطَر الشيء انشَقّ.

3 المُفْتَرِي: افْتَرى القولَ اختلقه.

4 الزِّعْنِفَة: بالكسر والفتح القصير والقصيرة والرَّذْل والقِطعة من الثوب أو أَسْفله المتخرِّق والداهية ج زعانِف.

5 الخنافس: الخُنْفُسَة الدُّوَيبة السَّوْداء ج خنافِس.

6 الجُرَذ الكبير من الفئران ج جُرْذان.

7 عَبِثَ عَبَثا لعب وعمل ما لا فائدة فيه.

العصا. أمَّا الجُرْذان فتقاتلها بالسُّمّ!

فإذا كان هذا شأنُكَ والإعتداء واقع على شاة أو دجاجة أو بعض الطعام فما قولك إذا كان الإعتداء واقعاً على شرفك وسُمْعتك؟!

إنَّ الدسَّاس [1] المُرْجِفُ [2] ليس عدو الذي يَدُسُّ ويختلق عليه وَحْده بل هو عَدُوّ كُلّ إنسانٍ شريف بل هو عدُوّ الشّرف والمُروءة.

هو أشرُّ مِنَ اللّص الذي يتربّصُ بك في الأزقّة المُظْلمة لِيَغْدِرَ بِكَ.

وهو أضرُّ مِنَ الأفعى التي تبخُّ سمَّها في طعامِك وأنت غائب أو نائم.

هذا هو عدوُّنا وعدو كل أميركي.

هذا هو الذئب والثَّعلب والجُرْذ في شكل إنسان!

فمَنْ مِنَ النّاس يتسامح مع عَدُوٍّ مثل هذا؟!

لا يزْعُمُ أحدٌ أنَّ في السُّكوت عن أهلِ اللُّؤم والفساد خيرا. فما رأينا بَثْرَةً [3] خبيثة زالَتْ مِنْ جسم الإنسان إلاّ بالمباضِع. ولا رأيْنَا شارعاً نظيفاً لم تَكْسَحْ [4] وجهه المَكانِس [5].

إنَّ خدمة الخير والصَّلاح في الحياة تتمُّ بإحدى واسطتَين إمَّا بتعزيز الخير ذاتِه مباشرةً [6] وإمَّا بمقاتلة الشَّرّ ليتزحزح [7] عن طريق الخير.

ونحن لهذا كما نحنُ لذاك.

السَّمير: 9/ 5/ 1942

المكان والإنسان

للأماكن والبقاع شخصيات مثل النّاس. ومثلما يكون للأماكن تأثير على البَشَر الذين يولدُون ويعيشُون فيها كذلك للإنسان تأثير على المكان الذي يقيم فيه.

خذ مثلاً حديقة فيها الشَّجر الوارف والأغراس المُتناسقَة والأزاهر المختلفَة الألوان فهذه لم توجد في الأرض كما رأيتها مِنْ تلقاء ذاتِها. بل الذي جعلها كذلك هو الإنسان الذي يهوى الجمال في الطَّبيعة

---

1 الدَّسَّاس النَّمَّام.

2 المُرْجِفُ: والإرْجاف واحِدُ أَراجيف الأَخبار وقد أَرجفُوا في الشيء أَي خاضُوا فيه.

3 البَثْرَةُ: البَثْر نُفَّاخات صِغار بها صديد تظهر بالجلد واحدتها بَثْرَةٌ.

4 كَسَحَتِ الرِّيح الأرض كَسْحاً: أَزالت عنها التُّراب.

5 المِكْنَسَة أَلَة الكَنْس ج مكانِس.

6 مُباشرةً: باشر الأمر توَلاَّه بنفسه وباشر الفِعْل فعله في غير وساطة.

7 زَحْزَحه عن مكانه نحَّاه وباعدَهُ.

ويُحْسِن الجمع بين المحاسن.

وأنتَ عندما تحويك حديقة جميلة فيها مَخْتَلِفُ[1] الرَّياحين والأزاهر والمغارس غيرك عندما يحويْكَ قفرٌ موحش أو صحراء قاحلَة. ففي الحالة الأولى تتهلَّلُ روْحكَ وينشرحُ صدرك. وفي الحالة الثانية تستولِي عليك الوَحْشَة[2] والكآبة والملالَة والضَّجر.

أنتَ في الحالة الأولى أمام شخصيَّة منوَّرة عطرَة.

أمَّا في الحالة الثانية فأنتَ مع شخصيَّة سمجَة[3] كريهة.

وبعض النّاس رياض غنَّاء ذات أزهار نديَّة عطرَة.

وبعض النّاس كالصَّحارى الموحشَة.

لذلك لا تستطيع أنْ تَمقُتَ[4] الأولى ولا تَقْدِرُ أنْ تُحِبَّ الثانية.

ومِنَ النّاس مَنْ ينبتُون في رياض الحياة كما ينبُتُ الشَّوك في الحدائق. فهم منها وليسُوا منها.

ومنهم مَنْ ليس فيه رحابَة الصحراء ولا رَمْلَها الكالح ولكنَّه كسَرابِها[5] الخدَّاع تظنُّه ماء وهو غير ماء!

فإذا نحن شبَّهنا واحداً مِنَ البشر بالجُرَذ فذلك لأنَّه بأخلاقِه وأطواره كالجُرَذ لا يعيش إلاّ إذا عاث وأفسد.

وإذا قلنَا عنه أنَّه ذئب فلأنَّه كالذِّئب مِنْ طبيعتِه الغَدْر. ومَنْ كان غدَّاراً لا يؤتَمنْ.

أمَّا إذا قلنا عنه كالمُسْتَنْقَع فذلك لأنَّه لا يعمل عملا فيه رائحة طيِّبَة بل كُلّ أعماله تَدلُّ على رُوح قَذِرة وَسِخَة.

أمَّا كيف يصير الإنسان إلى مثل هذه الحالة فمرجعه إلى التَّربية ـ إلى المحيط والعُشراء ـ وبعبارة ثانية إلى المكان والإنسان. فإذا كان المكان بيئة فاسدة نشأ هو فاسد الأخلاق. وإذا كان الذين يأخذُ عنهم ويقتدي بهم أشراراً حَسُنَ الشَّرّ في عينيه ومَلُح الإثم فأصبح رجلاً شرّيراً.

لذلك كان مِنَ الواجب على المصلحين أنْ يحاربُوا كُلّ فساد واعوجاج في الأفراد لكي يصونُوا المجتمع مِنْ هذه الآفات ويَحصُرُوا وَبَاء[6] الفساد حيث ظهر لئلاّ يمتَدّ إلى بُقْعَةٍ أخرى أو إلى شخص آخر.

---

1 الخِلْف المُخْتَلِف ويقال رجلان خِلْفان وامرأتان خِلْفان.

2 الوَحْشَة الخَلْوَة والهَمّ.

3 السَّمْجة: سَمَجَ سَماجَةً وسُمُوجَةً قَبُحَ فهو سميجٌ وسَمْجٌ وسَمِجٌ.

4 مَقَتَه أبغضه.

5 السَّراب: ما يُرى في نِصف النَّهار من اشتداد الحَرّ كالماءِ في المغاوِر. يَلْصَقُ بالأَرض.

6 الوَبَاء بالقَصْر والمَدّ مرضٌ عامٌّ وجمع المقصور أَوْباء بالمَدّ وجمع الممدودِ أَوْبِئَة.

ولا يُنْتظر مِنَ الشرِّير الزَّائغ أنْ يعرفَ انَّه شرير زائغ إلاّ إذا عُوقِبَ على جناياتِه وغواياتِه. فإنَّ الجُرذ يظلُّ يتسلَّل للعَيْثِ[1] والفَساد ولو ملأْتَ وَكرَه طعاماً شهيّاً لأنَّه خُلِقَ ليَعيث ولا يَقْدِر أنْ يُبَدِّل صورته صورة أخرى فيصير مثلاً عُصْفوراً مُغَرِّداً. لا. لذلك يلزم كُلَّ مُحِبَّ للنّظافة أنْ يطارد الجُرذ.

السّمير: 14/ 5/ 1942

قف بالمقابر صامتاً متأملاً

وقفة بالمقابر.

فهي المنازل الخالية العامرة.

وهي الكتب الصّامتة النّاطقة.

قِفْ صامتاً متأمّلاً كيف تحوّلَتْ العزائم والهِمَم إلى رمَمْ. وكيف أحلام الطُّفولة أو طموح الشّباب ورزانَة الكهولة وقناعَة الشّيخوخَة اختلطَتْ كلّها وتمازجَتْ كلّها فهي الآن ليسَتْ أحلاماً ولا مطامح ولا رزانَة ولا قناعَة. بل تراب في كِساء مِنَ الأعشاب. أو تراب لا زَهْر فوقَه ولا أعْشاب.

قِفْ بالمقابر خاشعاً.

فهي هياكل الأبديَّة التي لا يرتفع فيها لغط ولا ضَوْضاء. ولا يتلجلَجُ في جوانبِها لسان محبّة. ولا لسان بَغْضاء. فقد تلاشَتْ هناك الأشواق والرَّغائِب كما اندثرَتْ الأحقاد والمَواجد.

قِفْ هناك حاسر الرأس إجلالاً للغابرين، للأجداد والآباء. للأصدقاء والعشراء الذين كانُوا معنا وانفصلُوا عنّا. والذين كانوا فوق التُّراب ضَحِكا وابتساما وشوقا وهُياما[2]. وحركة وقوّة. فصاروا الآن لا شيء كأنّهم لم يكونُوا مِنْ قَبْلُ شيئاً.

قِفْ وتذكّر أنّ البيت الّذي تأوي إليه قد شادَتْ جُدْرانَه يَدُ مَيْت. وأنّ الطّريق الذي تمشي فيه قد عبّدتْه يد مَيْت. وأنّ السيّارة التي تحملك في كل ناحية قد أنشأها لك مطيّة مِطْواعَة[3] إنسان هو الآن في الثّرى. وأنّ الدُّنيا العامرَة حولكَ لم تصرْ عامرَة إلاّ بفضل الذين كانُوا هنا ومضَوْا. إنّهم قد قامُوا بما عليهم لمن يجيء بعدهم ووفُّوا قسطهُم[4] للحياة وهم فيها. وإذا كان بينهم مَنْ ذهب قبل أنْ يقومَ بقِسْطِه ويؤدي فَرْضَه[5]. فما ذهب لأنّه كره الحياة معنَا ولا لأنّه اختار التملُّصَ مِنَ الواجب. بل مضى

---

1 عاث: عَيْثاً أفْسدَ.

2 الهُيام بالضّمّ كالجُنون من العِشْق.

3 المِطْواع من يسرع إلى الطّاعَة.

4 القِسْط: الحِصّة والنَّصيب ج أقساط.

5 الفَرْض ما يَفْرِضه الإنسان على نفسه.

كما تمضي الزهرة لفحَها الهجير [1] . أو نثرَها الزَّمْهَرير [2] . قبل أنْ تهَبَ أَريجها [3] كلّه .

فلتكن لنا بالأموات غدا عظة بالغة وهي أنَّنا سنصير إلى ما صارُوا إليه .

ولنذكر أنَّنا نحن وَحْدنا المسؤولين عن ترك الحياة نبيلة وجميلة لمن يأتي بعدنا كما تركها لنا الذين مضَوا جميلة ونبيلة .

لنذهب غدا إلى المقابر لنؤدي واجب الإحترام لأولئك الذين زرعوا لنأكل وبَنَوْا لنسكن وتعبُوا لِنَستريح .

ولنرجعْ مِنَ المقابر وكلّنا تصميمٌ على أنْ نزرع ليأكل الآتون بعدنا وأنْ نبني ليَسْكنُوا وانْ نتعب لكي يستريحُوا .

وهكذا نؤدي الغاية التي أوجدَتنَا الحياة مِنْ أجلها . فتَغْتبطُ وتهنأ أرواح الموتى في الفراديس لأنَّنا قُمْنا بها كانُوا هم يقومُون به لو كانوا أحياء .

السّمير : 29/ 5/ 1942

عِشْ في زمانك

النّاس أنواع فمنهم مَنْ يعيشُون في هذا العصر ولكنهم يفكِّرون كأنَّهم يعيشون في الجيل السابع عشرَ أو الثامن عشر . وهم الذين جمدَتْ أرواحهُم ووقفَتْ عقولهُم فاكتفُوا بما سمعُوه وقرأوه وهم أحداث فتقدَّم الزَّمان ورَجَعُوا هم القهقرَى !

ومنهم مَنْ يعيشُون في هذا العصر لهذا العصر ذاته وهم الذين يتطلَّعُون دائماً إلى الأمام ويسيرُون إلى الأمام لئلاّ يتأخَّرُوا عن موكبِ الحياة الذي هُمْ فيه .

ومنهُم مَنْ خُلِقَ عقيم [4] الرُّوح والحِسِّ فهو يعيش كما يعيش الحيوان الأعجم لا يبدِّل مِنْ أطوارِه [5] شيئاً . وعنده سَواء عاش في العصر الحجري أو في عصر الكهرباء والراديو . كُل ما يشتهيْه مِنَ الدُّنيا أنْ يملأ جوفه طعاماً ويملأ عينيه نوماً . وبعد ذلك سِيَّان [6] عنده عمرتْ الدُّنيا حوله أم صارَت طُلولاً [7]

---

1 الهَجِيْر : نصف النَّهار عند اشتداد الحَرِّ

2 الزَّمْهَرِير : شدَّة البَرْد .

3 الأريج : أَرِج الطِّيب أَرجا وأَريجا فاح .

4 العَقيم : عقِمتِ المرأة أو الرَّجل عَقَماً كَان بها أو به ما يحول دون النَّسل من داءٍ أو شيخوخة فهو عقيم ج عُقَماء وهي عقيم ج عَقَائِم .

5 الطَّوْر الحال والهيأة ج أَطْوار .

6 سِيَّان : السِّيَان المِثْلان الواحد سِيٌّ .

7 الطّلول : الطَّلَل ما بقي شاخصاً من آثار الدِّيار ونحوها ج أَطلال وطُلول .

دارسَة.

ولكن الحياة لا تساير هؤلاء الجامدين ولا تحترم مشيئتهم فتسير دائماً إلى الأمام وإلى الأحسن جارفَةً في طريقِها كُل مَنْ لا يمشي معها.

مِنَ العِبارات التي كانَتْ شائعَة على ألسُنْ أصحاب العقُول المحدُودة الذين لا خيالَ لهم قولهم: «لا أستطيع أنْ أفعلَ هذا الأمر أكثر ممَّا أقدر أنْ أطير».

وكان قائِلُوها يعتقدُون اعتقاداً جازمَاً أنَّ الإنسان لن يطير لأنَّه لا أجنحة له. وليس الفضاء مملكته. إنَّما وجود هؤلاء النَّاس. ووجود هذا الإعتقاد المَكِين[1] في أنفسهِم لم يمنع أصحاب العقول النَّيِّرة والخيال البعيد أنْ يفكرُوا في الطيران ويبتدعُوا الوسائل التي تجعل الإنسان يجتاز الفضاء بأكثر وأسرعَ ما تجتازه النّسور الجبَّارة.

وليسَتْ الطيّارة غير نموذج لكل شيء آخر فإنَّ كثيرين يمتطُون هذه السفينة الهوائيَّة في هذه الأيّام كالذين اخترعُوها وينتقلُون بها مثل الذين يفهمُون دقائِقها وخفاياها. إنَّما أرواحهم لا تزال مثقلَة بإعتقادات وتصوُّرات العصور الخالية. عصور النِّياق[2] والخيول والبغال والزوارق الخشبية..

تأمَّل إذا كنْتَ مِنَ الشيوخ أو الكهُول كيف صارَتْ الدُّنيا غير الدُّنيا في خلال نصف قرن. أنظر إلى المدينة التي أنتَ فيها واستحضِر صورتَها إلى ذِهْنِك[3] عندما كنْتَ طفلاً أو فتىً لِتعرفَ أنَّك صرْتَ في مدينة جديدة وإنْ كنْتَ لم تنتقل مِنْ مكانِك. وانظر إلى بيتِك الحديث وما فيه مِنْ آلات عجيبَة كالتليفون والراديو والمَغْسَلَة الكهربائيَّة ومَوْقد الغاز فترى كيف انطوى البيت القديم ذو الموقد الحطبي والسِّراج الزَّيتي في مَدَى[4] حياتك مع أنَّ ذلك البيت أقام في الأرض أجيالا طويلة قبل ولادة الكهرباء.

كثيرون مِنَ النَّاس يستضيئون بالكهرباء ولكنَّ أرواحهم لا تزال تعيش في عصر السِّراج!

ولو وقف بهم الأمر عند هذا الحَدّ لكان الخَطْبُ[5] هيِّناً يسيراً. ولكنَّهم كثيرا ما سمعتهم يتَمَنَّون لو رجع عهد السراج والذبالَة[6]. لأنَّهم غير سعداء وهم غير سعداء فِعْلاً[7]. لأنَّهم غرباء عن هذا العصر.

لا تكن مِنْ هؤلاء لئلاّ تشقى.

---

1 ومَكُنَ ككَرُم وتمكّن فهو مكين ج مُكَنَاء.

2 النِّياق: النَّاقة ج نُوْق وقد تجمع على نِياق.

3 الذِّهْن الفَهْم والعَقْل.

4 المَدَى: الغايَة.

5 الخَطْب: الأمر الشديد يكثر فيه التَّخاطب.

6 الذّبالة: فتيلة المصباح ج ذُبال.

7 فَعْلاً: الفِعْل بالفتح مصدر فَعَلَ.

وأنتَ لن تكونَ منهُم إلاّ إذا صرْتَ مثلهم لا تفكر في ما حَولَكَ ولا تتطلّع إلى ما أمامك. ولا تَقْدِر أنْ تنعتقَ مِنْ سَلاسل الماضي.

أنتَ في هذا العصر فعِشْ فيه لا في سواه تكنْ سعيداً ومُفيداً.

السَّمير: 15/ 6/ 1942

كُلْ واشْرب وسِرْ

أنا في هذه الفُسْحة [1] مِنَ «السَّمير» أدوِّنُ ما يجري به القلم مِنْ خاطِرٍ يَمرُّ في الرأس أو شعُور يَخْتَلِج [2] في الصدر. لعلّي أنبّهُ خاطراً نائماً في رأس. أو أحرِّكُ شعوراً جامداً متصلّباً في صدر.

أو أنّي أدلُّ على فضيلة مكتومَة.

أو أذكرُ النّاس بمأْثُرَة [3] منسيَّة.

أو أؤيد فكرة حق كثُرَ خاذِلُوها.

أو أجالدُ فكرة سخيفة تحاول أنْ تتمركزَ في الأذهان كأنّها فكرة صَحِيحة.

أو أستخرج مِنْ ليالي المحَنِ حكمة لامعَة كالنَّجم لئلاّ يستحوذ اليأسُ على النُّفُوس التي تكابد البلايَا ويتطرّقُ الوَهْن إلى العيون الساهرَة في دَيْجور [4] الرَّزايَا.

أو أسوق ابتسامة إلى ثغر عابس أو أخلق رجاء في قلب قانط.

أو أمسح دمعة في جفن باك.

وهذه كلّها مواضيع لا تَرِثُّ [5] ولا تَبْلَى. والكلام فيها ولا سيَّما [6] إذا جاء في وقتِه لا يَرِثُّ ولا يبلَى.

غير أنّي حاولت أمس [7] أنْ أُحبِّرَ موضوعاً يجري به اليرَاع كعادتِه غير متلعثم ولا متردِّد فلم يحضرنِي موضوع يلذُّ للقلم الجَرْيَ في ميدانِه. فطرحْتُ القلم مِنْ يدي وانصرفْتُ إلى تقليب جريدة كانَتْ إلى جانبي فإذا هناك موضوع!

---

1 الفُسحة: السَّعَة، والسَّعَة بين عملين للرَّاحة والتّنزّه.

2 اختلج: الشيء تحرّك واضطرب ويقال: اختلج في صدري كذا خطر مع شكٍّ.

3 المأْثُرَة: بفتح التاء وضمّها المكرُمة لأنّها تؤثَر أي يذكرها قَرن عن قرنٍ.

4 الدَّيْجور الظّلام وليلة دَيْجُور مُظْلِمة.

5 رثَّ الثَّوب بَلِي.

6 لاسيَّما كلمة يستَثْنى بها وهو سيء ضُمَّ إليه ما ولَك في المستثنى بها الرَّفع والجَرُّ.

7 أَمْسِ اليوم الذي قبل اليوم الحاضر وقد يدلُّ على الماضي مُطلقاً وهو مَبْنيَ على الكسر غير مُنَوَّن فإذا نُوِّن أو أُضيف أو دخلت عليه «أل» أُعْرِبَ تقول: كُلَ غدٍ صار أَمْساً وكان أَمْسُنا طيِّباً وكان الأَمْسُ طيِّباً.

فماذا تراني قرأت؟ أَخبَراً غريباً، أم مقالاً طريفاً لكاتب شهير، أم خطبة لزعيم سياسي كبير؟ أم قصيدة لشاعر مِنَ الطِّراز الأوَّل؟

لا، بل رأيْتُ «صورة» وقرأت تحتها «إعلاناً».

أمَّا الصورة فهي ثلاثة مدافع أحدهم تنطلق النَّار مِنْ فُوَّهَتِه [1] والآخران صامتَان ومِنْ وراء المدافِع الثلاثة جنود يراقبُون ويتطلَّعُون.

وتحت الصورة هذا الإعلان الحَماسِيُّ الذي رأيْتُ أنْ أنقلَه إلى «السَّمير» لأنَّه الموضُوع الأهم مِنْ كل موضوع في هذا الوقت. بل الموضوع الذي يجب تقديمه على كلِّ موضوع آخر:

كُلْ واشربْ وسِرْ

تنعَّم. فإنَّك لست واقفاً وراء مدفع على أرض تحت قدميك.

ولستَ في دارعَة حربيَّة يَصْفِرُ حولك الموت منقضَّاً مِنَ الجوِّ.

ولستَ في خندق غارقاً في الوحل إلى رُكْبَتيْك وألف بندقيَّة ومدفع رشَّاش تترصَّدك.

إنعَمْ وتلذَّذْ.

مُر الطاهي يطبخ لك اللَّيلة عَشاء [2] فاخراً. قليلاً مِنْ مَرقَة [3] السَّلاحف. ثم شرحَة مِنَ اللَّحم الرَّخْص [4]. ولتتبع الحلوى العشاء. ولا تنس أنْ تتناولَ شيئاً مِنَ الخمر قبل الجُلُوس إلى المائدَة.

إنعَمْ وتلذَّذْ.

أكْثِرْ مِنْ حَشْدِ الملابس - فسيحدث نقصٌ في المنسوجَات. واستعمل الحِيَلْ التي تخطر لك لتحصُلَ على أكثر مِنْ ثلاثة غالونَات غازولين في الأُسْبوع لكي يسهُل عليك أنْ تخرجَ للنزهة يوم الأحد.

إنعَمْ وتلذَّذْ.

لا تكتف بأنْ تلعب لعبة البريدج للتَّسلية بل يجب أنْ ترى الأوراق الخضراء على الطاولة لتصير اللُّعْبة ذاتَ [5] قيمة عندك!

وانفق المال بلا حِساب. إنَّ الإنتفاخ قادم في الطَّريق فعجِّل أنتَ قدومه. وماذا عليك إذا مضى العالم كلّه إلى جهنَّم!

كُلْ واشرب وسِرْ... ثم جرِّب أنْ ترى ذاتك وجهاً لوجه في المرآة.

---

1 الفُوَّهة من كُلِّ شيء فَمُه وأوَّله ج فُوهات.

2 العَشَاء طعام العشِيِّ وهو يقابل الغَدَاء.

3 المَرَقة: المَرْق إكثار مَرَقَة القِدْر.

4 الرَّخْص: رَخُص رَخاصةً نَعُمَ ولانَ فهو رَخْصٌ

5 ذو معناها صاحب كلمة صيغت ليُتَوَصَّل بها إلى الوصف بالأجناس ج ذوون وهي ذاتُ وهما ذاتان ج ذوات وذات بينكم أو حقيقة وصلكم أو ذات البين الحال التي يجتمع عليها المسلمون وجاء من ذي نفسه ومن ذاتِ نفسه.

يا خواجا. إنَّ هذه حربك كما هي حرب الجندي. فإذا كنتَ تظنّ أنَّك تفعل واجبك وأنتَ لا تزال تعيش كالعادة وتُحسّ كالعادة... وإذا كنت تتوهّم أنَّ العيش على هذه الصورة وطنية كبرى. فانفردْ بنفسِك في غرفة مظلمَة وفكِّر مَلِيّاً[1] ما أنتَ فيه وفي حالة العالم حولك.

واسأل ذاتك قبل كُل أمر إذا كنْتَ قد اشتريتَ مِنْ سندَات الحرب ما تستطيع أنْ تشتريَه حقيقةً. ثم اشترِ بعد ذلك أكثر. وعندما يطرُقُ «رجل الدقيقة» بيتك فتعهَّد بأنْ تشتري مِنْ سنَدَات الحرب ما يوازي عشرة بالمائة مِنْ مدخولِك.

أمَّا إذا كنْتَ لا تقدر أنْ تجدَ عوامل وطنيَّة كافية تحملك على استثمار 10 بالمائة مِنْ مالك في سندات الحرب فامتحِنْ الأسباب التالية:

أولاً: إنَّ سندات الحرب تعلِّمك توفير المال على طريقة منظَّمة هي الطَّريقة الوحيدة للتَّوفير.

ثانياً: إنَّ سندات الحرب تُردُّ إليك عند الإستحقاق اثنين و 9 أجزاء مِنَ المائة بالمائة. وهذا أكثر مِنْ أيَّة فائدة لأيِّ سند مِنْ سندَات الحكومة.

ثالثاً: إنَّ سندات الحرب هي السند الذي ترتكز عليه والمُعوَّل الذي ترجع إليه فتحصُل على كُلِّ الأشياء التي تحبها بعد إنتهاء الحرب.

فإذا كانت هذه الأسباب غير كافية عندك. إذن لماذا تريد البقاء في هذه البلاد؟!

السَّمير: 19/ 6/ 1942

جِدَالٌ

ضَجرَتْ نفسِي ولم تكتُمْ ضَجَرَها فسألتُها ـ ما الذي تَطْلُبين؟

فأجابت: لا تقعُ الأَشياءُ التي أطلبُها تحتَ حَصْر ولكنِّي في هذه اللحظةِ؛ ولكُلِّ لحظةٍ رغائبُها ـ أطلُبُ الإنفلاتَ من المدينة لا هَرَباً مِنَ الحرِّ المُذِيب فهو قد يكونُ في سِواها أشدّ. ولا فِراراً من الضَّوضاء فهذه لا تَدُوم. بل شَوْقاً إلى وَقْفَةٍ عِنْد جَدْولٍ مُعربِدٍ ثرثارٍ يجْري في سَيْل أَضْيَقَ مِنْ وثْبَة وهو يترنَّم كأنَّما الدُّنيا كُلُّها لهُ.. إلى ضَجْعةٍ تحت شَجرةٍ خضراءَ مُتشبِّثة بالأَرض كأنَّها تخافُ أنْ تطِيْرَ عنها كما تطِير ورقةٌ مِنها، أو إلى جَولةٍ في غابةٍ تشابكت فيها الأَغصانُ بالأَغصانِ، والتفَّتِ الأوراق بالأوراقِ؛ كأنَّها تصُدُّ الشَّمْسَ عن الدُّخولِ إلى حِماها.

أجَل إني أبغي الفِرارَ من دنيا الإنسان المُصطَنَعَةِ إلى دنيا اللهِ التي لا تصنُّعَ فيها ولا تكلُّفَ؛ فقد كدْتُ لِطُول عَهْدي بالمدينةِ الفُولاذِيَّة أنسى أنَّ في الدُّنيا هَضَبةً وسَفْحاً وجَدْولاً وشجرةً؛ وكاد يُنسِيْني الإنسان أنَّ في الدُّنيا شيئاً غَيْرَه.

---

1 ملاوةٌ من الدَّهر بُرْهةٌ منه والمليّ من الدَّهر السَّاعة الطَّويلة منه.

فقُلتُ لها: هذا رأيٌ لكِ قديم؛ ولكنَّه ليس بالرَّأي القويم. ما دُمْتِ أنتِ في هَيْكل الإنسانِ فلنْ يَطيبَ لَكِ مكان إلاَّ إذا جاوَرَكِ فيه إنسانٌ؛ وإن لم يَكُن بالجَارِ الكريم. كُلُّ كائِنٍ تائِقٌ إلى مِثْلِهِ ومجْذُوبٌ إلى شكْلِه.

أسْعَدُ ما تكونُ النَّملَةُ مع نَملةٍ والسَّمكةُ مع السَّمَكَة، وأَصْلَحُ ما تكون النَّمْلَةُ في قريَة تَبْنِيْها وتَخزُنُ مُؤْنَتَها فيها، وللسَّمكَة البِرْكَةُ وللدَّجَاجةِ الحَقْل. أمَّا الإنسانُ فالدُّنيا كُلُّها لهُ؛ ولَهُ أبْعَد مِمَّا تلْمِسُهُ يَداهُ وتشاهِدُهُ عيناهُ وتسْمَعُهُ أذُناهُ؛ فإذا هُو هَربَ مِنَ الإنسانِ ليَصْحَبَ الجَدْولَ والشَّجرةَ والهضَبَة والوادِي فإنَّه يهْرُبُ مِنْ نفسِه ومِنَ الدُّنيا التي تَراءَتْ لُمخيَّلَتِه وهو بعْدُ في الغَابَةِ فكوَّنَتْها يداه. ولا تحْسَبي انَّه خلَقَ المدينة لَهْواً وعَبَثاً. كلاَّ بل ساقَتْه إلى ايجادِها الضَّرورةُ والحاجَةُ؛ فَهْو لم يشيِّدْ البيتَ إلا عندما سَئِمَ العيْشَ في الكَهفِ الباردِ المُظْلِم ولم يَعبِّدِ الطَّريقَ إلا بعد أن آذَتْهُ العَتْمَةُ. أفيَرْجعُ إلى ما كان فيه ولم يكُنْ. عندما كان فِيه. سعيداً ولا راضياً؟

فقالَتْ نفسي وَهي تُقهقِهُ: إنّه افلَتَ مِنْ قُيودٍ إلى قُيُوْدٍ، ولكنَّه اليَوم يحِنُّ إلى الإنطلاقِ كما كان يَحِنُّ مِنْ قَبْلُ بل هو يُشْفِقُ أن يكسِرَ الأغلالَ المُوثَقَ بها لأنَّها صُنْعُ يدَيْه. لقد استراح مِنَ العَتْمةِ والطَّريقِ الوَعْرِ والعَتْمَةِ في الكَهفِ ولكنَّه اليَوم يُناضِل ما هو أمَضُّ مِنْ هذه كُلِّها. كانت حُرُوبُهُ مِنْ قَبْلُ متقطِّعةً قصيرة الأمَد أماَّ الآن فهو في حَرْبٍ مستعِرَةٍ لا ينقَطِعُ حبْلُها ولا يَخمُدُ ضِرامُها، مع أنَّ عدُوَّهُ واحدٌ، وهو الإنسانُ! فهو إن شكَا فإنَّه يشكُو مِنْ إنسان. واذا خاف فإنَّه يَخافُ مِنْ إنسان واذا التَفَّ الحَبْلُ حوْلَ عُنُقِه فإن الذي يلفُّهُ إنسانٌ، ومَع عِلْمِه أنَّه ينتَحِرْ فهْوَ لا يَمتنِعُ أن ينتَحِر.

قلتُ: ولكنَّ الطَّبيعة التي تحِنِّينَ إليها وتَشتاقِين مُجاورتَها مَجنونةٌ لا عقْلَ لها، فإنَّها تجُرُّ في لحظةٍ نكَباتٍ هائلة لا يجُرُّها الإنسانُ في أجيالٍ فهي لا تكادُ تُرْسِلِ النَّسيم اللَّطيفَ الذي يحرِّكُ الوَرقَ فيَتراقصُ. ويمرُّ بالغَدير فيَتثَنَّى. ويَلْمِسُ الوجُوه فَتنبسِطُ مُتهلِّلةً حتى تنتشِرُ في الأَرضِ زَوْبَعَةٌ تقْصِفُ الشَّجر وتُعكِّرُ الغُدرانُ وتقتلِعُ البيوت وتَملأُ الفضَاء هَوْلاً، أو أنَّها تَهُزُّ الأَرض فتَرْجَف فإذا ما فوقها يندكُّ ويتقَوَّض. ليس في الغابة رَحْمَةٌ بل كُلُّ ما فيها عُنْفٌ وشدَّةٌ وقَسْوةٌ فالشَّجرةُ الكبْرى لا تَدَعُ نَبْتَةً في ظِلِّها حتى الياسمين والأسدُ الضَّاري لا يَدَعُ حيواناً في جِوارِهِ حتى الظَّبي الجميل والنَّهْرُ يَجْرف في سَيْرِهِ كُلَّ شيءٍ حتى الزَّهرة بل حتى اللؤْلؤَةَ الثَّمينة!

قالَتْ نَفْسي وقد ازعجتها فلسفتي: على رِسْلِكَ[1] ليس الإنسان أعقَلَ من الطَّبيعة أُمِّه. بل هو أشَدُّ منها جُنُوناً. وَيْحكَ[2] ألا تَرى ما يَصْنَعُ بِنفسِهِ في هذه الأيَّام، وهل رأَيْتَ الطَّبيعة جَنَتْ عليه مَرَّةً مثلما

---

1 على رِسْلِك: بالكسر أيْ اتَّئِد فيه.

2 وَيْحَكَ: وَيْحٌ كلمة رحمة ووَيْل كلمة عذاب وقيل هما بمعنى واحد تقول: ويحٌ لزيْدٍ وويلٌ لزيد فترفعهما على الابتداء ولك أن تنصبهما بفعل مُضْمَر تقديره ألْزَمه الله تعالى ويحاً وَوَيْلاً نحو ذلك.
وَوَيْح زيدٍ ووَيْلَ زيدٍ منصوب بفعل مُضْمَر.

جَنَى هو على ذَاته؟

قلتُ: لسْتُ بمُكَذِّبٍ ما زَعَمْتِ. ولكن عليك أن تُسَلِّمِي معِي بأنَّ الإنسانَ لم يتَطَهَّرْ بَعْدُ مِنْ كُلِّ أدْرَانِهِ التي خرجَ بها مِنَ الكهْفِ..

قالتْ: لقد زال الكَهْفُ وبَقِيَتِ الأَدرانُ[1]. فتعالَ نهْرُبْ مِنها..

قُلتُ: إلى أينَ؟

قالتْ: إلى أيّ مكانٍ لا أدرانَ فيه.

قُلتُ: هَيْهاتَ[2] ذلكَ!

ولكنِّي بعد هذا الجدل أتأبَّط حقيبتي وأخرج مِنَ المدينة..

السَّمير: 1/ 8/ 1942

فن النَّقد

يكاد يكون فن النقد الأدبي لا وجود له في المهْجَر. لأنَّ الذين يحسنُون هذا الفن أندر مِنَ الشَّجر المُورق في صحراء كاليفورنيا.

لذلك تشابَهَتْ الأشياء ـ الحسن منها والقبيح. وصارَتْ للكتب الغثَّة[3] قيمة الكتب السَّمينَة. لأنَّها لها صورة الكتب. هذه حبر وورق ـ وتلك حبر وورق!

وليس غريباً أنْ يقلَّ الكُتَّاب الذين يمارسُون هذا الفن فإنَّ فيه مِنَ المشقَّة ما ليس في أيِّ فنٍّ آخر مِنْ فنُون الأدب. وهْوَ يستلزِم أنْ يكونَ صاحبه مِنْ ذوي الإطِّلاع الواسع والعلم المُستفيض والذَّوق الفنِّي العالي. وأنْ يكون بعد هذا كلّه ـ قادراً على أنْ يملكَ نفسه ويضبُط هواه فلا يتشيَّع ولا يتعسَّف في أحكامِه ولا يحصر الفن في دائِرة يرسمها. والأدب في نطاق بعينه. أو محيط يعيش فيه ويُراعِيْه. ويرجُوه ويتَّقيه. فهذه أمور وأحوال إذا لم يتفلَّتْ منها النَّاقد بقي أسير بيئته ورهين حومتِه يرِفُّ ولا يطير ويتحرَّك دون أنْ يسير. أو يدور ولا يبرح مكانه كما يدور دولاب مشدود إلى آلة.

ولكن حتى هذا الصنف مِنْ النُّقَّادَ يكاد يندثِر في المهجر كما اندثرَ تاجر الصُّلبان والسُّبَح[5] والمواسي الأول. إذ لم تبق للنَّاس رغبَة فيه وفي طرائقِه الساذجة.

وإنَّ معرفتنا هذه الحقائق جعلتْنَا عند صدور ديوان «الخمائل» أنْ لا نتوقَّعَ مِنَ الكُتَّاب أنْ يقولُوا

---

1 الأدْران: دَرَن دَرَناً وَسِخَ وتلطَّخ.

2 هيهاتِ اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ.

3 الغثَّة: الغَثُّ خلاف السَّمين يقال: هو لا يعرف الغَثَّ من السَّمين والغَثُّ الرديء الفاسد من كُلِّ شيء.

4 السُّبحة خرزات منظومة للتَّسبيح والسُّبحة الدُّعاء ج سُبَح.

فيه غير الكلمة التي يوحيها الولاء. أو العداء إذا كان أحدهم طاوياً جوانحه [1] على موجدة! أمّا الجرائد في المهجر فقد قالَتْ في الديوان كُلَّ ما وَسِعَها [2] أنْ تقول. وهو أنّه كتاب مُتقنُ الطَّبعِ جيّد الورق!!

وبعضها لم تقل حتى هذه الكلمات المعلوكَة ما كلَّف الله نفسا فوق طاقتها!

ونحن لا نرسل هذه الكلمة لِنَعْتَبَ أو نلوم أو نتشكّى فإنّنا عندما تعرض لنا فكرة فندوّنها. أو صورة فنؤدّيها. لا يكون لنا مِنْ هدف إلاّ تدوين الفكرة على الشّكل الذي تبدو لنا فيه أتمّ وأكمل وتأدية الصورة للنّاس كما عرضَتْ لنا ووجدنا فيها ما يغري النَّظر ويستهوي الرُّوح.

ولكنّا نكتب هذه الكلمة تمهيدا لسلسلة مقالات وضعها الكاتب اللّوذعي الأستاذ عبد الله بري يستعرض فيها ديوان «الخمائل» ورغبَ إلينا نشرها في «السَّمير» فنزلنَا على رغبتِه ونحن لا نعلم ما تضمّنَتْه ولا بالَيْنَا أنْ نعلمَ لأنَّ رأي الكاتب في الخمائل سَواء نُشِر أم بقي غير منشُور لن يكون غير رأيه.

وسنبدأ يوم الأربعاء القادم بنشر هذه السلسلة التي يعرف منها القاريء أنَّ فنَّ النقد في المهجر لم ينطو إلاّ ليظهر في شكل أرقى وأسْمى وأنَّ هناك مَنْ يَرَى في «الخمائل» غير الورق والحرُوف ويرى في صاحبِه غير الصَّديق وغير العدو.

السَّمير: 13/ 10/ 1942

قيمة الدّم

ليسَتْ قيمة الدم في أنّه سائل أحمر أو أزرق أو لا لون له يجري في العروق. بل قيمته في أنّه يرمز إلى الحياة بل إلى أقدس وأثمن ما في الحياة وهُوَ الشرف والكرامة الشَّخصيّة والعزّة والحريّة لذلك تقول العامّة عن الرجل لا يغضب لإهانة لحقَتْ بِهِ أو حَيْف [3] أصابَه - هذا رجل ما فيه دم!

وعندما يحاول النّاس وصْف إنسان بأنّه مِنْ ذوي الشرف العريق يقولون: إنَّ في عروقِه دما أزرق.

وعلى الحالتَين ليس الدم غير رمز إلى الشَّرف في حالة وجودِه. وإلى المهانَة في حالة فِقْدانه.

وإنَّ النّاس ليشفقُون على الرجل انقلبَتْ به اللّيالي فأضاع ثروته. أو كسدَتْ تجارته. أو غُلِبَ على أمره في نضال.

---

1 الجوانح: الجَنَاح من يطير به الطائر ونحوه، والجناح العَضُد. والجوانح الأَضلاع التي تحت التّرائب وهي مما يلي الصَّدر كالضُّلوع مِمّا يلي الظَّهر الواحدة (جانِحَة).

2 الوُسْع: وَسِعه الشيءُ بالكسر يَسَعه سَعَةً بالفتح والوُسْع والسَّعَة بالفتح الجِدَّة والطَّاقة.

3 الحيف: الظُّلْم.

ويتّسع عندهم مجال العذر لإنسان تملّكَتْ منه عادة مضرّة كالسُّكْر أو القِمَار فشردَتْ به عن الحياة الهادئة النظيفة وقذفَتْ به مِنْ قِمَّة الكرامة إلى حضيض الإبتذال.

ولكنّهم هيهات أنْ يَعذِرُوا أو يُشْفقُوا على رجل أصيب في كرامتِه فنام على الضَّيْم وصَبرَ على الهوان صَبْر العبد على القيد والثور على المِنْخَس.

وهم لا يمسكُون المعاذير فحَسْب[1] عمَّن يستحلي الذّلّ ويستطْيب القَذى[2] بل لا يجدُون في أنفسهِم له غير الإزدراء والإحتقار فكأنَّهم يشعرُون أنّه أهان النّاس كلّهم عندما شذّ عنهم ورضيَ بما لا يرضى به رَجُل حُرّ يعقِل ويحسّ..

إنَّ الصخر يتشظّى[3] إذا وقعَتْ عليه مِطْرَقَة. وما تشظّيه إلاّ ظاهرَة مِنْ ظواهر المقاومَة والممانعَة.

وإنّ الخشبة لتتطايرَ إذا أصابها القدوم فكأنَّها تحاول الفرار مِنَ الأذى.

هذا في الجماد الذي لا يُحِسّ أمَّا في الحيوانَات الأدنى مِنَ الإنسان فإنَّها تتمرَّدُ على الهوان والذُّلّ في أساليب مختلفة فترى الطائر الطَّليق إذا تسلَّلَتْ إليه حيَّة ولم يستطع الهرب نفش ريشه وبسط جناحيه وتحفَّزَ للنضال بمنقارِه وأظافره وتعالى صراخه كأنَّه يستنجدُ أو كأنَّه يحاول ترويع عدوّه الذي يقترب منه.

ومثل هذا تفعله الطيور والحيوانات كلّها.

كلّها تدافع عن حريَّتها ـ عن كرامتها ـ عن دمها...

السَّمير: 19/ 10/ 1942

مودّة الذّليل

لا بأس في وَقْفة ولو قصيرة كإلمام الطائر بالغدير مع أبي الطَّيب المتنبّي نَنْقُب ونَبْحث لعلّنا نهتدي إلى مُرادِه في قوله:

والذّل يظهر في الذّليل مودَّةً   وأودُّ منه ـ لمن يودّ ـ الأَرْقَمُ[4]

كيف خطر لهذا الشّاعر أنْ يخوضَ بحر هذا الموضُوع ويستخرج منه لؤلؤته اللاّمعة؟

إنَّ مَنْ يقرأ سيرة المُتنبّي ـ وخلاصتها موجُودَة في ديوانِه ـ يعرف أنّ هذا الشّاعر كان كثير الحسّاد والأضداد في حياتِه. وبقي كذلك حتى بعد مماته. وكان هو يدرس أَخلاق الذين يعادونه والذين

1 حَسْب كافيك، وحَسْب اسم بمعنى كافٍ

2 القَذَى: القَذَاة ما يقع في العين والشراب والماء من تراب وغير ذلك ج قَذًى.

3 تشَظّى العود تطاير قِطعاً.

4 الأَرْقم: الحيَّة التي فيها سواد وبياض.

يصاحبونه فلا يخفى عليها غث ولا يخدعه سمين. وكانت له جُرأة على المُجاهرَة بآرائِه وأفكاره في أكثر مواقفه فهْوَ عندما أرسل هذا البيت في شتْم ابن كيلغ أرسلَه إلى صدر كُلّ ذليل منافِق يمشي إلى غايتِه الخَسِيسة تحت ستار الرِّيَاء والمُصانعَة. فيتكَلّف الإبتسام وبين جوانحه تَضْرِم[1] نارُ الحقد والبَغضَاء. ويتظاهر بالإخلاص والوفاء. ولكنَّه في السر يضحكُ مُمَّن يستمع إليه ويصدِّقه..

يَنْبَسط لسانه كجناح حمامَة فإذا حانَتْ غفلة مِنْ صاحبِه إنقلبَ ذلك اللسان إلى حُمَةِ[2] عقْرب. أو نصل حادّ مسمُوم..

إنَّ صحبة الأَرقم[3] أَسْلَمُ عُقْبى[4] مِنْ صحبة الذَّليل المِرائي[5] هذا رأي أبي الطَّيِّب. ورأي أبي الطَّيِّب ليس بالرأي الذي يجوز الإرتياب فيه لأنَّه خارج مِنْ بوتَقَة التَّجربَة والإختبار.

ولذلك يحِقّ لنا أنْ نقولَ أنَّ مودَّة الذّليل لم تكن مُضرَّة في عصر المُتنبِّي وحدَهُ بل هي مُضرَّة في كُلِّ عصر.

وليس المُتنبِّي وحده هو الذي ينظر إليها هذه النَّظرة بل إنَّ رأْيَ النّاس الأحرار كلّهم مثل رأي المُتنبِّي في الذَّليل الذي يتصنَّع المودَّة ويتكلَّف الإخلاص.

ولكن رُزِقَ المُتنبِّي بياناً وفصاحة فأعلنَ رأيَهُ في الذَّليل المِرائِي في بيت عمَّر اكثر مِمَّا عمَّر نَسْر لُقْمان[6] دون أنْ تُخْلِقَ جِدّته[7] أو تشيب حواشيه[8].. وخلود هذا البيت واشتهاره دليل جلِيّ ملمُوس على أنَّ المُتنبِّي لَمَّا أعربَ عن رأيِه أعربَ عن رأي النّاس الأحرار كلّهم في كره الرِّياء والتصنُّع والمُداهنَة في المودَّة.

ولَكِنَّ المُتنبِّي كان قاسياً كثيراً فهْوَ لم يكتف بالكشف عن مضار صحبة الذليل المُصانِع بل استطرد فقال:

لا يخدعنّك مِن عدُوّ دَمْعُهُ　　　وارحم شبابكَ مِن عدُوٍّ تُرْحَمِ

فأثبتَ بقوله هذا أنَّ الذليل الذي يظهر ذُلَّه مودَّة ليس غير عدوّ مُبين[9] على المرء أنْ لا يكتفيَ بالحذر

---

1 ضرِمَت النَّارُ ضرَماً اتّقَدت واشتعلتْ.

2 حُمَةُ عقرب: الإبرة التي يضرب بها العَقْرب والزّنبور ونحو ذلك حُمَى وحُماة.

3 الأَرقم الحيَّة التي فيها سواد وبياض وهي من أخبث الحيّات.

4 عقَبَ: العُقْبى اليوم الآخِر أو المرجع إلى الله، جزاء الأَمر ويقال لَك العُقْبى في الخير.

5 مَراهُ حقه جحده، وماراه مِراءً جادله.

6 لُقْمان كعُثْمان اختُلِف في نُبُوَّته.

7 الجِدَّة: جَدَّ الشيء يجدّ جِدَّةً صار جديداً. وأخلق الثوب وغيره صار بالياً رثّاً قديماً.

8 الحواشِي: الحاشية من كُلِّ شيء طرفه وجانبه.

9 العَدُوّ المُبينُ: أي بيِّنُ العداوة.

منه والإبتعاد عنه بل عليه أنْ يقضيَ عليه قضاءً مُبْرَماً[1] قبل أنْ ينفسحَ الوَقْت لديه للغدر والفتك..

هنا يَبْطُلُ المُتنبّي أنْ يكون واعظاً حكيماً ويصير رجلاً فتّاكاً يريد استئصال الرِّياء[2] مِنَ الأرض باستئصال المِرائين كلّهم. ولا تعجبْ منْه وقد صوّر لك أنَّ المِرائي الذي يظهر الذلّ فيه مودّة هو شرٌّ مِنَ الأرقم حين يقول لك: افْتِكْ به قبل أنْ يفتكَ بك. إيّاكَ أنْ تخدعك دموعه فترُقَّ له وتَرْحمه. لأنَّه إنْ قَدَرَ[3] عليك فلن تأخذه فيك رأفة ولا رحمة.

هذا هو رأي المُتنبّي ولكن الذين يعملُون بهذا الرأي قليلُون في الدُّنيا. ولذلك سيبقى جنس المِرائين المُنافِقِين في الأرض ولو ظهر ألف مُتنبّي في كُلِّ يوم!

السَّمير: 26/ 10/ 1942

حادث لم يكن بالحسبان

أتينَا إلى الإدارة صباح الإثنين وما فتحنَا الباب حتى سمعنَا في الداخل حيث المطابع صوتاً كوقع الماء المتساقط مِنْ «مِزْراب». وقد كان هو صوت الماء فإنَّ الجيران طرحُوا يوم الأحد أوراقاً أو رِقاعاً فوق سطح المَطْبَعَة على غير قصد منهم وجاء الشِّتاء الغزير في ذلك اللَّيل واستطال واستتلَى حتى صباح الإثنين فانسَدَّتْ القناة التي يَسْرُبُ[4] إليها ماء المطر فاحتشدَ على السَّطح وتعالى حتى غمر «المَنْوَر»[5] ووجد مُسْرباً فأخذ يسقط على المَطْبَعَة الكبرى وعلى المَطْواة حتى صار نصف الماء المجتمع على السَّطح في أرض المَطْبَعَة وسرحَ منه إلى الغرفة الأخرى التي فيها رزم الورق فتعطَّل منها جانب وهو اللاَّصق بالأرض.

وخاطبْنَا بعض السمكريِّين فإذا بعضهم غائِب وإذا الحاضِرُون يعتذرُون بأنَّهم مقيَّدُون أو أنَّ عُمَّالهم في أشغال أخرى فإنَّ الأمطار التي سقطَتْ في اللَّيل أحدثَتْ أضراراً مختلفَة في البيوت وسواها.

ودبَّتْ النخوة في صدُور الأعوان فصعدُوا إلى السَّطح ومَشَوا في الماء وما زالوا يعالجُون القناة المسدُودة حتى انفتحَتْ واندفَع إليها الماء بقوَّة وما هي غير دقائِق حتى انكشفَ السَّطح وانقطَع سقُوط الماء على المَطْبَعَة. ولكن بعد أنْ صارَتْ هذه في حالة لا تصلحُ للعمل إلاَّ بعد تنظيف أجزائِها كلّها وهو

---

1 المُبْرَم: أَبْرَم الحكم في «القَضاء» أَيَّدَهُ.

2 وفلان مُراءٍ وقَوْمٌ مُراءُون والإِسم الرِّياء يقال: فعل ذلك رياءً وسُمْعةً.

3 قَدَرَ عليه قُدْرَةً تمكَّن منه.

4 سَرَب الماء سَرَباً سالَ فهو سَرِبٌ.

5 المَنْوَر كُوَّة في الحائط أو سقف البيتِ يدخل منها النُّور إليه.

عمل يستغرق وقتاً طويلاً بقطع النَّظر عن النَّفقات الماليّة.

وكان مِنْ حسنِ الحظ أنَّ الماء لم يسقط على آلات التَّنضيد وهي المسمَّاة «لينوتيب» فقد كُتبَ لها النَّجاة والسلامَة مِنَ العَطَب [1].

إنَّه حادث مكدِّر ومُخسِّر ولكن يجب أنْ لا يمرّ دون أنْ نَدُلَّ على العِظَة فيه وهو أنَّ عَدَمَ الإكتراث بالأمور الصَّغيرة يؤدِّي إلى أمورٍ كبيرة. فلو أنَّ الذي طرح تلك الأوراق كان على شيء مِنَ الإكتراث بمصلحة غيره لتنبّه إلى أنَّ السَّطح ليس سلة مهملات. أو لو كان هو صاحب السَّطح لا جاراً للسَّطح لكان فكَّر في طَرْح أوراقه في كُلِّ مكان إلاّ هذا السَّطح.

إنَّ الغابة الكبرى تحترق بعود ثِقاب [2] صغير وقطرة ماء تسقط في مَطْبَعة تعطِّلُها. وذرَّة مِنَ الغُبار تقع في العين تؤذيها.

هذا هو السَّبب في أنَّ «السَّمير» لم تصدُرْ الإثنين والثلاثاء.

السَّمير: 15/ 3/ 1944

الصَّمت والكلام

إنَّ الصَّمْت خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ الكلام. بأيَّة لغة كان. ولا سيَّما إذا كان المتكلِّم يُطْلقُ كلامه بلا رويَّة ولا تدبُّر ولا وَزْن. أو يطلقه بعد تدبُّر ورويَّة ليبلغ به أَرَباً [3] غير نبيل أو يعرقلُ سَعْياً نبيلاً يقوم بهِ سواه.

إنَّ الكلام بأيَّة لغة كان هو أداة كالسِّكين والقلم يمكن أنْ يستخدمه المرء للخير كما يمكنه أنْ يستخدمَه للشرِّ. ويستطيع أنْ يداوي به مريضاً كما يستطيع أنْ يُسْقمَ صحيحاً معافى.

وخير المتكلِّمين هم الذين يعيشُون عِيْشة الطُّيُور المغرِّدَة يملأون الفضاء أغاني وإنْ لم يكن مِنْ سَمِيع غير الفضاء. لأنَّهم يجدُون لذَّة في أنْ يَصْدَحُوا ويترنَّموا.

وشرُّ المتكلِّمين هم الذين شأنهُم في الحياة شأن الأفاعي تَنْفُث السُّم وتَنْسَلّ مسرورة بما نفثَتْ ولو وقع سَمُّها على زهرة أو طِفل رضيع.

فالمتكلِّمون أنواع. فمنهم المقلِّد الذي لو مُسِخَ طيراً لكان ببَّغاء. ومنهم المُستعير الذي يقرع أذنيْك بما قالَه غيره كأنَّه مِنْ مبتكراتِه وقد يكون الذي تسمعه منه هو لك أنت.

ومنْهُم الرَّاغب في الكلام كيفما كان فهذا لو لم يكنْ مِنَ البشَر لكان ذُبابة تَطِنُّ أو جَرساً يَرِنّ.

---

1 عَطِبَ عَطَباً هَلَك، فَسَدَ.

2 ثِقاب: ما تشتعل به النَّار من دِقاق العيدان ج ثُقُبٌ.

3 الأَرَب: البُغْيَة الأُمْنِية.

ومنهم المُتصنِّع في حديثِه يحاول أنْ يوهمَك أنَّه ذو شأن كبير في الحياة فيفضَح نفسه مِنْ حيث لا يدري ويظلُّ يتوهَّم أنَّ السامعين مخدُوعين به مع أنَّ المخدُوع هو وَحْدَه.

هذا نَعامة[1] لا ريش لها.

الكلام خير مِقياس لمعرفَة الإنسان.

إنَّ الطَّبيب لا يَقْدرُ أنْ يفحصَ الإنسان حتى يفتَح فَمَهُ وكذلك المَرْء لا يَقْدر أنْ يحكمَ على مِقْدار أخلاق المَرْء إلاَّ إذا فتح فَمَهُ وتكلَّم.

لسان الفتى نِصْفٌ ونِصْـفٌ فؤادهُ   فلم يبـقَ إلاّ صورةُ اللَّحْـمِ والـدَّمِ

فإذا حَمِدْتَ الله لأنَّ لك عيناً ترى فاَحْمَدْه لأنَّ لك أُذُناً تسمع. فبالعين تستطيع أنْ تميِّزَ بين القبيح والجميل كما تميِّز بحاسة الذوق بين الحلو والمُرِّ وبالأذن تستعين على معرفة الكلام المُبتَذَل[2] مِنَ الكلام القيِّم فإنَّ الكلام السَّقيم لا تهضمه الأذن كما لا تَهْضِمُ المَعِدَة الطعام الرديء.

إنَّ أعاظم الفلاسفَة والحكماء كانُوا لا يتكلَّمُون إلاّ قليلاً لأنَّهم كانوا يفكِّرون ويتأمَّلُون كثيراً.

أُنظُر إلى الكواكب إنَّها تَطْلُعُ وتملأ الفضاء نوراً ولا يُحِسُّ النَّاس لها هَمْساً ولا نَبْساً[3] أمَّا الضّفادع فإنَّها تملأ اللَّيل نقيقاً وهي لا تكاد ترى

قال الجامعة[4] : للكلام وقتٌ ولَكِنْ كُلُّ وقت عند الحَمْقَى[5] والثرثارين هو وَقْت كلام.

السَّمير: 4/ 5/ 1944

الصَّلاة

ما أحوجَ النُّفوس في هذه الأيّام إلى الصَّلاة التي يَحُسُّ الإنسان معها كأنَّ روْحه تتَّسع وتمتد حتى تَغْمُرُ الوجود. وكأنَّ الوجود كلَّه يغمُرُه.

إنَّ الصَّلاة الحقيقية تأمّل عميق يشترك فيه القلب والعقل حتى يصيرا كأنَّما هما قلب أو عقل.

أمَّا الصَّلاة التي تردِّدها الشِّفاه بقوَّة الإستمرار وحكم العادة ولا يرافقها التَّصوُّر العميق

1 النَّعامَة طائر ويذكَّر واسم الجِنْس نعامٌ.

2 المُبتَذل: ابتذل الشيء والثوب امتهنه، وامتهنتُ الشيء ابتذلته وامْتهنه استعمله.

3 النَّبس: نَبَس يَنبسُ تكلَّم فأَسْرع.

4 الجامعة: في الأَصل تحريف والصَّواب الجماعة والجماعة طائفة من الناس يجمعها غرضٌ واحِدٌ. وكلمة جامعة كثيرة المعاني على إيجازها.

5 الحَمْقَى: حَمِق فلان حَمَقاً قَلَّ عَقْله فهو أَحْمَق وهي حَمْقاء ج حُمْق حَمُقَ حُمْقاً فَعَلَ فِعْلَ الحَمْقَى.

والوجْدُ[1] البليغ فهي كلام يتردَّد لا صلاة وإنْ هتفَ به قائلُه في معبد.

وليس الكلام هو الصَّلاة بل في وجدان المرء مِنْ شعُور يحاول أنْ يصوِّره بالألفاظ. وفي أحيان كثيرة لا يفي الكلام باهتزازة واحدة مِنْ إهتزازات الرُّوح فترى المرءَ ساهياً يحدِّق في السَّماء أو مطرقاً إلى الأرض. أو شاخصاً إلى صورة أو خيال يتراءى له ولا يتراءى لسواه.

فهو في هذه الحالة يصلِّي أكثر مِنَ الذين يُتَمتِمُون الألفاظ ويرنِّمُون الألحان. لأنَّ الإنسان المشغُول بنَفْسِه وبما حوله لا يَقْدِرُ أنْ يتَّصلَ بأكثر مِنْ ذاتِه وبما حوله.

الصَّلاة هي يقظة الوعي الدَّاخلي. وتنبُّه المشاعر النائمة وتوجّهها إلى الملأ[2] المحجُوب عن العيون لإستمداد القوَّة في حالة الضَّعْف. والرَّجاء في حالة اليأس. والسَّلامة في ساعة الخطر.

الصَّلاة هي إقرار المخلُوق بضَعْفِه وأنَّه لا يملك مِنْ أمرِه ضَرَّاً ولا نفعَاً. فهو يستعين بالخالِق ليُسَدِّدَ خُطاه في الطَّريق القويم وينقِذَهُ مِنَ الآفات والمهالك.

وبكلمة مختصَرَه أعمَّ. إنَّ الصَّلاة هي رجُوع الإنسان إلى الله.

فأنت وأنا وهو عندما نصلي نطرح عن كواهلِنا الأعباء التي تُوْقِرها[3] حتى عندما نصلِّي مِنْ أجلِ غيرنا.

ولم يمرّ بنا عهد كنَّا بحاجة إلى الصَّلاة مثل هذه الفترة مِنَ الدَّهر التي يقتحمُ فيها شبابنا المهالك ويقذفُون بأنفسِهِم في أشداق المنايا لكي يبرهِنُوا للأجيال المقبلَة أنَّ الحقَّ والعدل والحرِّيّة كان لها في هذا الجيل أنصار لا يتردَّدون عن الإستشهاد في سبيلها.

ولنصلِّ مِنْ أجل أنفسنا فنحن مِثْلُهُم في هذه المِحن الرَّهيبة محتاجُون إلى الصَّلاة ليظلَّ الرجاء فينا. وتبقى صِلَتنا بربِّ الحياة والموت مَتِينة.

ثمَّ فلنُصَلِّ حتى مِنْ أجل الذين لا يعرفُون كيف يصلُّون.

لِنُصلِّ بقلوبنا وأرواحنا فإنَّ صلاة القلُوب والأرواح لا يصدّها شيء عن الوصُول إلى السَّماء.

إنَّ الصَّلاة تطهِّرُ النفوس وتَصْقُلُ[4] الأذهان والعقُول وتخلُقُ في القلوب الخائفَة المضطربَة سكينَة وطُمأْنينَة.

السَّمير: 8/ 6/ 1944

---

1 الوَجْد شدَّة الشَّوْق.

2 الملأ الجماعة وهو الخُلُقُ أيضاً وج أمْلاء.

3 وقِر: أوْقَر بعيرَهُ، والوِقْر بالكسر الحِمْلُ.

4 صقَل: صقله جلاّه.

صوت مِنَ العراق

كان الأديب العراقي عباس عمارة أثناء وجوده في نيويورك يتردَّد إلى مكتب «السَّمير» في أوقات الفراغ ويحدِّثنَا عن الحركة الأدبية في مدينة الرَّافدين. ولا سيَّما [1] تهافُتْ النَّاشئَة على تِلاوَة قصائِد صاحب هذه الجريدَة وحفظها. وينتهي كُلَّ مرَّة إلى هذا السؤال ـ ألا تنوي أنْ تزورَ العراق؟ فأقول له ـ كيف تطلب منِّي هذا الأمر وأنتَ قلت الآن لي أنِّي هناك.

وذكر لنا أنَّ له بنتاً في الرابعةَ عَشْرَةَ مِنْ عمرِها إسمها «لميعة» لا تزال في المدرسة وقد كتبَتْ إليه مرَّة ترغب إليه أنْ يصفَ لها الشَّاعر إيليَّا أبو ماضي وسألنَا رأيَنا في ذلك فقلنا له ـ قل لها إنَّه إنسانٌ كأيِّ إنسان تَرَين.

ولا ندري ماذا قال لها. فقد فارقَنَا إلى ديترويت منذ حوالي سنتين وبتنَا لا نسمع منْهُ إلاَّ قليلاً.

ومنذ ما يقارب الشَّهر بعثَ إلينا بشطرٍ مِنْ رسالة كتبتها إليه إبنته «لميعة» الشَّاعرَة الصَّغيرة تتراكضُ وتتزاحمُ فيها الأسئلَة الأولى ويتبع التَّساؤل شكوى عنيفَة مِنْ محيطِها أو النَّاس في محيطها ولَمَّا كنَّا نضنُّ بروح هذه الفتاة أنْ تستقبلَ الحياة بالشكوى المرِّيرة فإنَّنا ناشرون رسالتها ومعقِّبُون عليها بما يَحْضُرنا قالت:

«سرَّني وملأ جوانحي [2] طرباً وفخراً ذلك الإهتمام الذي أبداه الأديب إيليا أبو ماضي نحوي. أرجو مِنْ والدي أنْ يبلِّغَه شكري على هديَّتِه الرَّائعَة الثَّمينَة ويخبره أنِّي جدُّ فرحَة بها لأنِّي قد قرأتُ «الجداول» حتى حَفِظْتُ أكثرها فوجدتُها كنزاً مِنَ الأدب وثروة مِنَ الحكمة. أمَّا «الخمائل» فلا أعرف عنها شيئاً. ولكنِّي واثقَة مِنْ كونِها كأختها مِنْ حيث الرَّوعَة والسِّحر.

فإلى صاحب «الجداول» و «الخمائل». إلى الخيال الذي لمسْتُ فيه خيالي أرسلُ هذه النفثَة مِنْ روحي وليعلَم أنَّها مِنْ وحي وحيه. وصوت ضرباته على القيثارة وإذا رأى أستاذي خطأ أو نقصاً فليعذرني أولاً وليُرْشِدْني أخيراً:

من أنت. أنت ملاك جسمه بشرُ	أم أنت روح إله ساقها القدر
أمِنْ سَنَا الحُبِّ هذا الوَحْي منشأَهُ	ومِنْ لهيب الهوى قد جاء يَسْتَعِرُ
أم مِنْ صفاء حياة قد نعمتُ بها	أم مِنْ تعاستها إذ شابها الكَدَرُ؟
وهل مِنَ الحزن والآلام فُزْتَ بهِ	ومِنْ دموع الأسى تَهْمِي وتَنْهَمِرُ [3]

1 لا سيَّما: يستثنى بها وهي مكوَّنة من سيَّ وما ولك في المستثنى الجرّ والرَّفع.

2 الجوانح: الأَضلاع أضلاع الإنسان.

3 هَمَت العينُ صبَّت دَمْعها.

لا تحسبنَّ الذي قدَّمتُ أسئلةً ... بها تطفَّلْتُ عمَّا خبَّأ السُّتُرُ[1]
فلستُ ممّن يمدُّون الرِّقاب إلى ... ما لا يهمُّهمُ إنْ قصَّرَ النَّظَرُ
قد عشتُ بين أناس سادَ بينهم ... حُبُّ الحُطام فما تغنيهمُ الفِكَرُ[2]
ما أعجبَ النّاسَ يبقى الخير مُختبساً ... ما بينهمْ مُهْمَلاً والشَّرُّ يَنْتَشرُ
هم يملكُون أنوفاً لا تَشَمُّ سوى ... نَتْنِ الرِّياح ولا يحلو لها العَطِرُ[3]
إذا رأوا درهماً مِنْ أجلِه اقتتلُوا ... وإنْ هُمْ سمعُوا شعراً به سَخِرُوا

* * *

كأنَّهم والجُّ روضاً تُزيِّنهُ ... أبهى الورود وفيه الماء والشَّجرُ
فلم يُسَرُّ به بل زاده ألماً ... لأنَّ ذا الرَّوض لم ينضُج به ثَمَرُ
وليتهم عند هذا الحدِّ قد وقفُوا ... معي لمَا كان لي مِنْ أمرِهِم ضَرَرُ
لكنَّهُم قد تمادَوا في تعسُّفِهِمْ ... وأضمَروا قَتْلَ مَنْ بالقَلْبِ يفتخِرُ[4]
أنا الغريبَة في أهلي وفي وطني ... وأنتَ يجهلُ معنى رُوحك البَشرُ
وأنت تعرف روحي حيث تُشْبِهها ... وليس يخفى على أمثالنا الخبرُ[5]
عدِّد مساوئها واشرَح محاسنها ... قد ضقْتُ ذَرْعاً بها وانتابني الضجرُ[6]

أيَّتها الشَّاعِرَة:

لم أستغرب شكواك فإنَّ الشَّباب الطَّاهر العواطف والبريء النَّزعَات يؤلمه ويُشْجيْه أنْ يتطلَّعَ إلى العالم حوله فلا يراه طاهراً ولا بريئاً بل يراه قاسياً خشناً وظالماً عاتياً. ولا سيَّما عندما ينظر إليه مِنْ ناحيته.

ولكنْ مَنْ هُمُ النّاس الذين تشكين منهم؟ إنَّهم يا لميعة، قومك وعشيرتك الذين يجب أن تحبِّيهم

---

1 السّتر السِّتار ج أستار وسُتُور.

2 الحُطَام: وحُطام الدُّنيا متاعُها.

3 النَّتْن الرائحة الكريهة.

4 قالت شاعرتنا التي نفتخر بها ونجلّ:

«وأضمروا قتل قلبٍ فيه افتخر»

فقولها فيه افتخر (تحريف) والصَّواب به افتخر ومنعاً لإغضاب سيبويه عليها كان الأجدر بها أن تقول:

«وأضمروا قتل من بالقلب يفتخر».

5 في الأصل: «وليس يَخفى على مَنْ مثلِك الخَبَرُ»

والصَّواب أن تقول وذلك حسب رأينا وحدنا: «وليس يخفى على أمثالنا الخَبَرُ».

6 الذَّرْع: المِقدار والطَّاقة والوُسع ويقال: ضاق بالأمر ذَرْعاً لم يُطِقه.

وإنْ أبغضوك. وأنْ تُحْسِنِي إليهم وإنْ آذوك. وأنْ تفتحي الدُّروب أمامهُم كُلّما سدُّوا الدُّرُوب أمامك لأنَّك إنْ فعلْتِ كما يفعلُون وكنْتِ مسيئة كما هم مسيئون خسرتهم وخسرُوك. فكوني أنت نوراً إذا كانُوا هم ظلاماً. وصيفاً ضاحكاً إذا كانوا هم شتاءً عابساً قَمْطَريراً[1]. ولا تقولي إنَّك غريبة فليس غريباً مَنْ يعرفُ نفسه ويعرفُ محيطة وإنْ كان في غير وطنه. وأذكُري أنَّ في كلِّ إنسان نفحة مِنَ الألوهيّة حتى اللِّص والقاتل. وإنّما علينا نحن أنْ نكشفَ عنها الغُبار الذي تكدَّسَ فوقها فطمَسَها حتى صار صاحبها كأنَّه حيوان ضارٍ[2] لا إنسان راق.

وإذا كان حولك أناسٌ مات فيهم الحِسُّ وتحجَّر الخيال فهذا لا يوجبُ عليك أنْ تقنطي مِنْ وجود أناس أهل حِسٍّ وأصحاب خيال. فإنَّ وجُود فتاة في مثل عمرك لها هذه النَّزعات الجميلة في الحياة دليل لا يُدْحض على أنَّ العراق يمشي بفتياتِه وفتيانه إلى عصر جديد سعيد.

لا تدَعي القنُوط يستحوذ على قلبِك فليس مع القنُوط حياة ولا هناء وإذا حزنْتِ فلتكُن نفسك كالذَّهب الذي تطهِّره النَّار مِنَ الشَّوائِب والأكدار لا كالهَشيم والحَطَب الذي تلتهبه النَّار فلا يبقى منْه غير الرَّماد.

وأخيراً أسوق إليك هذه الأبيات:

إبْسِمِيْ كالورد في فَجْرِ الصِّبا	وابْسِمِي كالنَّجم إنْ جَنَّ المساءْ[3]
وإذا مـا كـفَّـن الـثَّـلْـجُ الـثَّرى	وإذا مـا ستر الـغـيـم السَّـماءْ
وتـعَـرَّى الـرَّوض مِـنْ أزهـاره	وتوارى النُّور في كَهْفِ الشِّتاءْ
فاحْلُمِيْ بالصَّيف ثمَّ ابْتَسِمِيْ	تخلُقِي حولكِ زَهراً وشَذاءْ[4]
وإذا سَـرَّ نـفُـوسٌ أنَّـهـا	تحْسِنُ الأخذَ فسُرِّي بالعطاءْ
وإذا أعـيَـاك أنْ تُـعْـطَـيْ غِـنـىً	فافرحي أنَّكِ تُعْطَيْنَ الرَّجاءْ

السَّمير: 14/ 6/ 1944

كيف يموت الإنسان وهو حيّ

ليس مَنْ مات ودُفِنَ في التُّراب هو وحدَه الميِّت فالتُّراب لا يغيب تحته إلاَّ الهياكل. ولا يبدِّل إلاَّ الصُّور. أمَّا الشخصيَّات الجديرَة بالبقاء والتي فيها أشياء أسمى مِنَ التُّراب فإنَّها لا تغيب. بل تبقى

---

1 قَمْطَرير: القِمَطْر الجبل القويّ الضَّخم ويوم قُماطِرٌ كعُلابِطٍ وقَمْطَرير شديد.

2 الحيوان الضَّاري: الضَّاري من السِّباع المولع بأكْل اللَّحم ج ضَوارٍ.

3 جَنَّ المساء: جَنَ الليل جَنّاً أَظْلَمَ.

4 الشَّذاء: الشَّذا قوّة الرَّائحة.

وتنمو وتنتشر وتزداد مع الأيّام لمعاناً وإشراقاً.
الأنبياء لم يموتُوا.
الشعراء لم يبيدُوا.
الأبطال لم يندثِرُوا.
الفلاسفَة ما برحُوا خالدِين.
الفنانُون لهم في كُلّ عصر ولادة جديدة.
رجال العلم أحياء بها تركُوا مِنْ آثار مفيدَة وأعمال مَجيدَة.
«ذكْرُ الفتى عمرُه الثاني» كما قال أبو الطَّيِّب ولكن بعض النّاس يَخملُ ذكرهم وينطَوي أمرهُم وهم في عُمُرهِم الأول. وهم أحياء يُرْزَقُون. وشرٌّ أنواع الموت أنْ ينطوي ذكرُ الإنسان وعيناه مفتوحتَان وأذنَاه تسمعَان ورجلاه تطاءان التُّراب.
عرفْتَ أيها القاريء كيف يحيَا الإنسان بعد موته بالأثر الطَّيب. بالفكرة الخالدَة. بالقُدوَة الصَّالحَة أمَّا كيف يموت وَهْوَ حيٌّ يرزق ويأكُل ويشرب فهْوَ أنَّه يرضى مِنْ دُنياه كُلّها بأنْ يأكل ويشربْ.
إذا كان الإنسان يجاهد في سبيل مبدأ سام ثمَّ انقلَبَ على نفسه وتخلَّى عن مبدأه مِنْ أجل مال أو وظيفَة أو لقب أو لذَّة زائِلَة فذلك رجل قد ألقَى بنفسِه في وادي الموت قبل أنْ يغمُرَه ظلام الموت.
وإذا إشتُهِرَ الإنسان بالإستقامَة فوثِقَ به النّاس وائتمنُوه على أموالِهم ثمَّ وسوسَ له شيطان الطَّمع أنْ يحتالَ على هضمها واهتَضمَها فذلك رجل قد مات قبل أنْ يستوفيَ عُمُرَه.
ورُبَّ رجل كان في جيش لَجَب [1] مِنَ الأصدقاء زيَّنَتْ له نفسُهُ الأمَّارة بالسُّوء أنْ يتوهَّمَ أنَّه كذلك لأنَّه أسمى منهم مَقاماً وأرفع قَدْراً أو أنَّهم خُلِقُوا ليعيشُوا مِنْ أجلِه فيذهب لغرُوره يتكبَّر على هذا ويتنقَّصُ مِنْ قَدْرِ ذاك ويشمَخ عليهم بأنف وارم خُيَلاء [2] ويظلُّ سائراً في غوايتِه حتى ينفضُّوا مِنْ حولِه فيُمسِي لعُزْلته وانفراده: «كالسَّيف عري مُتْناه مِنَ الحِلَل» [3].
قد يعمِّر هذا الرجل طويلاً ولكن كما تُعَمِّر عَوْسَجَة في قَفْر. هو حي عند نفسِه ولكن لا حياة للكفّ بلا بَنان.
ورُبَّ إنسان كان يحيا في قومِه وأهله حياة شريفَة نقيَّة استولَى عليه ضَعف عقلي في ثانية بل لحظة فأقدَمَ على خيانة شوهاء. أو معصيَة شنعاء. أو جريمة نكراء فَسِيْقَ إلى السجن أو عاش بعدها محتقراً منبوذاً كأنَّه مِنَ الدُّنيا في سجن بل في قبر.
فيا أيُّها القاريء لا تغتمَّ أنَّك فقير ولا تحزن لأنَّك بلا عمل ولا تأسَفْ إذا خسرتَ مالك أو

---

1 اللّجَب: الجلبة والصّياح.
2 الخُيَلاء: الكِبْر.
3 الحُلّة: الثّوب الجيّد غليظاً أو رقيقاً ج حُلَلٌ.

عقارك [1] فهذه كلّها عوارٍ [2] تُستردُّ وعليك أنْ تشكر الله أنَّك لم تخسر كرامتك عند نَفْسَكَ وأنَّك كنْتَ مسلوباً لا سالبًا ومظلُوماً لا ظالماً.

فكثيرُون ممَّن سَلَبُوا النّاس أموالهم بالخديعة والنِّفاق قد أضاعُوا كُلَّ ما كَسَبُوا ولم يبق عليهم غير مِيْسَم [3] الخديعَة والنِّفاق.

والمظلوم أبداً يعلِّلُ نفسه بانكشاف ليل الظُّلْم عنه أمَّا الظالم فيقضي ليله ونهاره في حَذَرٍ وقَلَقٍ كأنَّه مضطجعٌ على فُوَّهَة بُرْكان. والتَّاعسُون كثيرون إلاَّ أنَّ رجلاً هذه حياته أتعسهُم وأشقاهُم.

السَّمير: 23/ 6/ 1944

التَّصلُّب في الرَّأي

لكُلِّ مسألة وجهان: ولكنْ هذا لا يعني أنَّ المسائل كبعض النّاس تتقلَّب وتلبس اليوم وجهاً وغداً وجهاً آخر. بل تعني أنَّ ما تجهله أنْتَ قد يعرفه غيرك. وأنَّ ما لا تراه أنتَ قد يراه سِواك. وأنَّ المسائل مِنْ كُلِّ نوع تتسهَّل وتتصعَّب على مِقْدار ما نعلم ونجهل. فإذا علمنا كثيراً هانَتْ كثيراً. وإذا لم نعلم فكل شيء صَعْب وكل شيء مُخيف.

ونحن نحمَدُ الأشياء والأشخاص على نِسْبة ما ينالنا مِنَ النَّفع والضَّرر إنَّما النَّفع الذي ينالك وفيه ضَرَر لغيرك هو نفع مذمُوم بعكس الضَّرر الذي يصيبك في سبيل الغير وفي وُسْعِك أنْ تتوقَّاه فإنَّه التَّضحيَة التي يحمَدها كُل النّاس.

غير أنَّ بعض الأنانيِّين يحسَبُون التضحيَة في سبيل السُّوَى [4] نوعاً مِنَ الحماقة ولعلَّهُم يعتقدُون أنْ ليس في النّاس مَنْ يستأهِل أنْ يُضَحَّى مِنْ أجلِه بشيء وهم الذين ينظرُون إلى الدُّنيا مِنْ كُوَّة [5] ضيِّقة هي الكُوَّة التي يطلُّون منها على مصالحِهِم الشخصية فقط.

ما رأيتُ رجلاً حرداً [6] ناقماً على الزَّمان والنّاس إلاَّ وكان ممَّن ضيَّقُوا الدُّنيا على أنفسِهِم بالجهل فأصبحَ الواحد منهُم لقصر نظرِه في الأمور وضِيْق صدره لا يرضَى عمَّا هو كائِن ويُغِيظَه أنَّه عاجز عن خلق الشيء الذي يرضيه.

---

1 العَقَار: كُلّ مِلْكٍ ثابتٍ له أَصْل كالأرض والدَّار.

2 العاريَة: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك يقال كُلّ عارية مستردَّة ج عَوارٍ.

3 المِيْسَم: المِكْواة، والجَمال.

4 السُّوى العدل الوَسَط ج أَسْواء.

5 الكوَّه والكُوَّة ثَقْب البيت والجمع كِواء بالكسر ممدود ومقصور.

6 حَرِدَ عليه حَرَداً غَضِبَ.

فهوَ لشدَّة دورانِه على نفسه ينسى أنَّ في الدُّنيا أحداً سواه وأنَّ لذاك الغير حقاً في الحياة مثل حقّه على الأقل.

أمَّا الرجل العاقل الذي قرأ وفكَّر وامتحنَ وجرَّبَ فإنَّه لا ينظر إلى أيَّة مسألة مِنَ الوجه الذي يعنيْه وَحْدَه منها بل يحاول أنْ يتفهَّمَ موقف الآخرين حيالها وإنْ اختلفُوا معه في تقديرها وتصويرها. فربَّما كان الصواب في ما ارتأوا والخطأ في ما ارتأى. بل أنَّ العاقلَ لا يستكبرُ أنْ يأخذَ الفلسفة مِنْ أفواه الأطفال وأنْ يقتبسَ الحكمة مِنْ كلام المجانين.

أمَّا الجاهل فيستكبر أنْ يقبلَ فكرة أو رأياً لسِواه ولو جاءه مِنْ فمِ نبي لأنَّه لغباوته يتوهَّمُ أنَّ في رجُوعِه عن رأي له ولو كان خطأً عيباً كبيراً وسبَّة [1] شنعاء. حتى لتسمع بعض الجهلَة يفاخِرُون بالعِناد كأنَّه ملك الفضائِل فيقُول واحدهم مثلاً: «إنِّي سأضرب الحيط برأسي فإمَّا أنْ أهدَّه وإمَّا أنْ أكسرَ رأسي» ومعنى كلامه أنَّه لا يوجد حل للمشكل الذي يعالجه غير أحد أمرين. إمَّا هدُّ الحيط وإمَّا كسر رأسه. مع أنَّ هناك طريقة سهلة جداً وبسيطة جداً يسلمُ معها الحيط مِنَ الهدِّ ويسلم رأس ذلك النَّطَّاح مِنَ الدَّقِّ والكسر. وهي أنْ لا يَنْطَحَ الحيطَ.

أمَّا إذا كان لا بُدَّ مِنْ هدمِ الحيط فذلك أمرٌ ميسُور بغير الرؤوس النَّطَّاحة فهذه لا تَهُدُّ الحيطان بل لها المعَاول والأمخال التي لم يخترعها هذا الصنّف من النّاس بل القوم الذين استعملُوا ما في رؤوسهم مِنْ عقُول لا رؤوسهِم.

ومِنْ علامات الجاهل أنَّه رجل تقوم قيامتُه لأيِّ أمر حقير تافه فتراه يعالجُه في حماسة متناهيَة ونشاط بالغ كأنَّما سعادة العالم كلّها متوقِّفَة على تحقيق ذلك الأمر وقد يكون في الواقع لا يَهُمُّ أحداً غيره ولكن النَّملة تَغْرَق في شِبر ماء.

وإذا لم تغرق توهَّمَتْ أنَّها عبَرت بحراً كبيراً.

أمَّا إذا اجتاز أحد البَحْر الكبير فذلك أمرٌ لا يدخل في عقليَّة النملَة لأنَّها لا ترى البَحْر. وليس مِنْ بحر عندها إلاّ شبر الماء.

إنَّ هذا النوع مِنَ الجهل هو السَّبب في ما نراه مِنَ التَّفكُّك في صفُوف أمَّتنا وعلى خطبائِنا وشعرائنا ووعَّاظنا أنْ يحاربُوه. أو بالأحرى يجب أنْ يحاربَه كُلُّ واحد منَّا في نفسِه وفي غيره. فكُلُّنا على شيء مِنْ هذا الجهل إمَّا بالنسبة إلى غيرنا مِنَ النَّاس وإمَّا بالنسبة إلى ما في الكون مِنْ أسرار مدفونَة.

ومِنْ فضائِل العاقل أنَّه يعترف بعَجْزه عند شعُوره بالعَجْز. ولكن أحسن مِنْ هذا أنْ لا يقنعَ بالإعتراف وَحْدَه بل يسعَى إلى إزالَة ما به مِنْ عجز وقصُور بالدَّرس والبحث والإستقراء والإستقصَاء. فالحياة هي المدرسَة الوحيدة التي لا تُوصِدُ أبوابَها ولا تردُّ طلاَّبَها.

---

1 السُّبَّة: العار.

إنَّ المجد اليوم ـ كما كان مِنْ قَبْلُ ـ للأقوياء. الأقوياء بالعلم لا بكثرة الأجساد فالعراك اليوم عراك أدمغَة مولدة وعقُول مستنبطَة. لا عراكُ سواعد ولا مخالب وإلاّ كانَتْ الغلبَة والسِّيادة للسِّبَاع.

السَّمير: 26/ 6/ 1944

المطيَّـةُ العجيبَـة

هي مَطِيَّة لا تُدار بالبخَار ولا الكهرباء ولا الغازولين ولكنَّها أعجبُ مِنْ كُلِّ مركبَة تَدِبُّ على الأرض أو تسبحُ في الماء أو تطير في الفضاء.

هي أسرعُ مِنَ القطار والسيّارة والطيارة حتى التي تقطع في الساعة ستمِاية ميل.

إنَّها الخيال الذي ينقلك إلى أقاصي الأرض ويحملك إلى الآفاق المُترامية ويصعدُ بك فوق الغُيوم ويهبطُ بك إلى أعمقِ الأعماق ويدورُ بك في أنحاء العالم وأنتَ قاعدٌ في غرفتك أو مكتبك أو حانوتك أو مُستلْقٍ على فراشك أو مُتَّكيءٌ على وسادتِك.

كنْتُ أتطلَّع مِنْ نافذة القطار إلى النَّهر الذي يجري بين شاطئَيْه هادئاً صامتاً لا يثرثرُ وفيه الماء كثير ـ فقلت ـ ليت السَّواقي وهي بَعْضٌ منْه تتعلَّمُ الرَّزانَة والرَّصانَة وحُسْن السكوت.

وكنْتُ أتطلَّعُ إلى الجبال ذات الأوسمَة السُّندسيَّة فأراها لا تترنَّح تيْهاً[1] ولا كِبْراً[2] وفيها علُوٌ وسمو. ولا تبدي امتعاضاً وإنزعاجاً. والثَّعالب تستترُ فيها وتَعْوي. والحشرات تَدْرُج في جوانبِها وتزحف.

فذكَّرتْني بالنُّفُوس الكبيرة التي تتعالَى على الصَّغائِر وتغضِي عن العُيوب والنَّقائِص. وتُحْسِنُ حتى إلى الذين يسيئون إليها.

وصعد إلى القطار رهطٌ مِنَ الجنود فذَهِلْتُ[3] عن الجبل والنهر. والشَّجر والزهر. وتذكَّرْتُ إخوانهم الذين في ساحات الوغَى[4] فإذا بالخيال ينقلني في لحظة إلى شواطيء فرنسا وجبال إيطاليا وجزائر الباسفيك. وإلى كُلِّ مكان تُلَعلعُ فيه المدافع وتقتتل الجيوش. فإذا أنا في كُلِّ مكان مع أنّي لم أنتقلُ إلى مكان. فما زلْتُ في مقعدي ولم أبرح المركبَة. ولكنّي ولا بارود يحترق حولي أكاد أشمُّ رائحة البارود. ولا يَطِنُّ في مِسْمَعي[5] غير صوت الدَّواليب الرَّاكضة بي وأكاد أسمعُ دويَّ القنابل التي تَنْفجرُ

---

1 تاه تِيْهاً تكبَّرَ.

2 الكِبرْ بالكسر العظمة وكذا الكِبرياء مكسوراً ممدوداً.

3 ذَهِل عن الشيْءِ نسيه.

4 الوَغَى: الجَلَبة والأَصوات ومنه قيل للحرب وَغًى لما فيها من الصَّوْت والجَلَبَة.

5 السَّامعة الأُذُن وكَذَا المِسْمَع بالكسر.

في ميادين الهيجاء.

وأعجب مِنْ هذا التَّصوُّر لا يطوي المسافَة وحدها بل الوقْت أيضاً فيعود بك إلى العصور السّالفة ويُريك كيف كان النَّاس يعيشُون ويفكرُون ويتصوَّرُون.

أو يَقْفِزُ بك فوق حدود الحاضر إلى عالم المستقبل فيُريك البيوت غير البيوت والأزياء غير الأزياء وطرائِق النّاس في المعيشة غير طرائِقهم الحاضرة فإنَّ الإنسان يَنْزع دائماً إلى الأحسن ولا يرضيه أنْ يتصوَّرَ إلاّ الأحسن. فالخيال جَناح وعَيْن؛ وجَناحٌ ينبسطُ فتنطوي له الأبعاد والمسافات وعينٌ تتفتح فتشاهد ما غَبَر واندَثَر. ويبدو لها ما في ضمير الغد.

لولا الخيال في الإنسان لكان بهيمةً[1]. ولهذا ترى أحياناً بهائم تمشي على اثنين هم النَّاس الذين لا خيال لهم.

السّمير: 27/ 6/ 1944

مَعَ النَّهر

حياة النَّهر كحياة الإنسان تقوم بإتحاد الرُّوح والجسم. فالماءُ والشُّطوط لا غِنَى لأحدهما عن الآخر فالماء الجاري هو الذي يكوِّن الضِّفاف على جانبَيْه ويُوجِدُ هنا فرضة ويبني هنا سَدّاً ويجذب إليه الشُّجيرات.

أمَّا الشاطيء فيقود النَّهر في سيرِه ويهديه ويصونَه فيلويه هنا ويقوِّمه هناك. ويدفعه حيناً فيجري مُتمهِّلاً كأنَّه فيلسوف مُفكِّر. ويبسطه أحياناً فيبدو كالمرآة تنعكسُ فيها أشباح الشَّجَر والغيُوم.

في كُلِّ نهر جارٍ شيء يُحَبُّ لأجلِه إلاّ أنَّ أحبَّ الأنهر إلينا هي تلك التي نعرفها أكثر مِنْ سواها هي التي رأيناها في طفولتِنا تجري أمام بيوتنا وعَوَّمْنَا فيها زوارقنا الأولى. وقطفنَا مِنْ ضفافها الأزهار.

والأنهر كالنّاس. ليس أعظم النّاس دائماً أقربهم إلى قلبك بل كثيراً ما وجدْتَ مِنَ الأُنْس في اصطحاب رجل عادي ما لا تجده مع رجل عظيم كنابوليون.

وفي الأنهر الصَّغيرة مِيْزَة لا يمكنُ تحديدها تستهوي طبقة معلُومة مِنَ البشر وتكْشِف عن أَطوارِهِم[2] ورغائبهم وطرائقهم في الحياة فحيث يكون النَّهر في بلد تجد البطَّالين والكسالى يختارُون الوقُوف على الجسر للتَّأمُّل. فإنْ لم يكن جسر جلسُوا على حافة النَّهر وأرخُوا أرجلهم في الماء.

ولكن إذا شئتَ أنْ تتعرَّفَ إلى النَّهر فلا تقنع بالنَّظر إليه لمحة هنا وهناك ولا سيَّما إذا كان البشر قد

1 البهيمة كلّ ذات أربع قوائم من دواب البَرّ والبحر ما عدا السّباع ج بهائم.

2 الطَّور: القَدْرُ.

اتَّصلُوا به وغيَّرتْ أيديهم مِنْ هيأتِه وبدَّلَتْ. بل يجب عليك أنْ تتبعَه إلى حيث يقودك.

ويجب أنْ تفرحَ لأنَّه يقودك فهو دليل وفيلسُوف وصديق هو فوق ذلك أقدر مِنْ أيِّ معلِّم على أنْ يريَك كيف تنشيء الطَّبيعة أناشيدها وتَصبُغها بالألوان والألحان والأحلام ولا سيَّما عندما تلملِم الشَّمْس أشعَّتها عند الغُروب فكلَّما سادَتْ السَّكينَة تعالى صوت النَّهر وازداد وضُوحاً وجلاء. وفي تلك الساعة السحريَّة تتسارع إلى مِسْمَعيْك[1] أغاني الطُّيور بل قل صلواتها العذبَة الشَّجيَّة وتحملُ النسمَات إلى أنفِك روائح الأزهار فترى سِحْراً وتَسْمَع وتَنْشَق سِحْراً. والأنهر لا تعرِّفك إلى الأطيار والأزهار فحَسْبُ بل تكشِفُ لك جمال نَفْسِكَ الخفي وتعرِّفك إلى ذاتِك المحجُوبَة فتَشْهَدها وتَلْمُسها عاريَة.

إنَّ نِصف التَّعاسة في الدُّنيا كما قال أحد كبار العلمَاء مسبَّب عن الإعتقاد بأنَّ كل إنسان يجب أنْ يقيمَ مِنْ نفسِه على الحياة رقيباً وحسيباً. وأنْ لا يمرَّ يوم دون أنْ يجدَ عيباً في نظام الكائِنَات. أو يوجد طريقة لإصلاحه.

أمَّا نِصْف التَّعاسَة الثاني فمُسَبَّبٌ عن ذلك الشُّعُور الأشعبي[2] بأنَّ حياة الإنسان تتقدم بالأشياء التي يملكها. وأنَّ عليه أنْ يكدَّ ويكدح فذلك خير مِنْ أنْ ينطرحَ على ظهرِه إلى جانب نهر أو جدول ويشكر الله لأنَّه حَيّ.

فاهْرعْ إلى النَّهر فإنَّ الشَّمْس أجمل ما تكون في نظر السَّماء. عندما يكون الإنسان مع ذلك الصَّاحب الذي لا يَمْزُق[3] ولا يراوغ ولا يتصنَّع ولا يتضَجَّر مع النَّهر.

قال صاحب ديوان «الجداول» مرَّة في قصيدة «مِلفرد أم القرى» مشيراً إلى نهر الدّلوار:

ولقد وقفتُ حيال نهرك بكرةً	والطَّيرُ في الوَكَنات والأوكارِ[4]
متهيِّباً فكأنَّني في هيكلٍ	وكأنَّهُ سِفْرٌ مِنَ الأسفارِ[5]
مَرَّ النسيمُ به فمرَّت مُقلتي	منْه بأسطارٍ على أسطارِ[6]
فالقلبُ مشتغلٌ بتَذْكاراتهِ	والطَّرْفُ مندفِعٌ مع التَّيَّارِ[7]
حتى تجلَّت فوق هاتِيك الرُّبى	شمسُ الصَّباحِ تلوحُ كالدِّينارِ

1 السَّامِعة الأُذُن وكذا المِسْمَع.

2 الأَشْعبي: وأَشْعَب مات كانشعبَ وفارقه فراقاً لا يرجع وأشعب اسم رجل كان مشتهرا بالطَّمع المُفرِط. ولقد توفيّ في عصر صدر الإسلام.

3 المَذْق: مَذَق الوُدَّ أي لم يخلصهُ من باب نَصرَ فهو مَذَّاق ومماذِق أي غير مُخلِص.

4 الحِيال قُبالة الشيء ويقال قعدتُ حيالَه وبحيالِه: بإزائه. والوَكْن عُشّ الطَّائر في جبل أو جدار.

5 السِّفر بالكسر الكتاب والجمع أسفار.

6 المُقْلة العين وما حولها.

7 التَّيَّار المَوْج.

فعلى جوانبهِ وشاحُ زَبَرْجَدٍ   وعلى قواربهِ وِشاح بهارِ[1]
لو أبصَرَتْ عيناكَ فيه خيالَها   لرأيْتَ مرآة بغير إطارِ
يمَّمْتُه سَحَراً وأسراري مَعِي   ورَجَعت في أعْماقه أسْراري

السَّمير: 13/ 7/ 1944

الابتسام

لا يتمُّ جمال الفتاة إلاّ بالإبتسام. إنَّ المرأة الجميلة التي لا تَبْتَسم تَغْلِبُها في ساحة الحب والحياة إمرأة غيرُ جميلة ولكنَّها تَبْتسم.

إذا وقفْتِ أمام المصوِّر كان أول أمر ينبِّهُكِ إليه هو أنْ تبتسِمي أو أنْ تنفرجَ شفتاك قليلاً عن أسنانك إذا لم يكن في وُسْعِكِ الإبتسام.

وكُلّ أبناء الفنون الجميلة يعتبرُون الإبتسامة في المرأة نصف المَلاحَة فيها. والجواز الذي تستطيع الدُّخُول به إلى القلُوب والأرواح.

سُئِلَ مرة شاب عزْب لماذا لا يتزوَّج فتاة جميلة مستخدمَة عنده فأجاب: إنَّها مِنْ أصلح الفتيات لأن تكون زوجة ولكنّي لا أجدُ فيها المرأة التي أَحْلُمُ بها.

فقال السائل لماذا:

فأجابه الشاب: لأنَّها دائماً عابسة متجهِّمَة كأنَّها تتحفَّز للخصام والقتال.

ولم تكن تلك الفتاة شَرسة الأخلاق كما تصوَّرها وإنَّما إنهماكِها في الشُّغل نزع مِنْ وجهِها البِشْرِ مؤقَّتاً. أو هي لم تعوِّد نفسها الإبتسام فأضاعَتْ بالعبُوسَة فرصة ثمينَة.

مثال الفتاة التي لا تحسِنُ الإبتسام كمثال المرج الجميل تدلَّى فوقه الضَّباب فحجبَ ما فيه مِنْ روعَة ونَضَارة عن العيُون ولكن لو سطعَتْ الشَّمْس على مرج آخر دونَه حسناً ظهر جميلاً بهيجاً يَسُرُّ النَّاظرين.

نظرَ أحد كبار المُتموِّلين العصاميِّين إلى فتى عنده فقال «إنَّه سيفوز لأنَّه يبتسمُ» فالإبتسامة إذن رأس مال كبير للرَّجل. مثلما هي شهادة طَبِّيَة للفتاة تحملها في ثَغْرها.

وهي في كليهما عنوان الصحة والنشاط والمضاء والجذل والطُّمَأْنينَة الرُّوحيَّة.

---

1 الوِشاح بالكسر شيء يُنْسَج من أَديم عريضاً ويُرَصَّع بالجواهر وتشدّه المِرأَة بين عاتِقها وكَشْحِها. والزَّبَرْجَدُ: حَجَرٌ كريم يَشبه الزُّمُرُّد وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأَصفر القبرصِيّ. والبَهار: بالفتح العَرار الذي يقال له عينُ البَقَر وهو بَهَار البَرّ وهو نبتٌ جَعْدٌ له فُقَّاحةٌ صفراء تنبُت أَيَّام الرَّبيع يقال لها العَرارَةُ.

وهي رمز اللُّطف والخُلُق الكريم

إنَّ الإنسان بلا إبتسام كالسَّماء بلا شمس

ولكنَّ الإبتسامات أنواع وأشكال

هناك الإبتسامات الباردَة كالثَّلج

والإبتسامات الجارحَة كالمُدَى

والإبتسامات الواخزَة كالشَّوك

والإبتسامات الخادعَة كالسَّراب

والإبتسامات الفارغة الخالية كفقاقيع الماء

والإبتسامات التي يجري فيها ماء الخُيَلاء والغُرور

والإبتسامات التي يتوارى وراءها الخبث ويكمن فيها الغَدْر.

وليسَتْ الإبتسامة أنْ تنفرجَ الشَّفتان وتبدو الأسنان فحَسْبُ. فمنَ الإبتسام ما يكون في الوجه طلاقَة وفي العينين بريقاً. وقد يكون الإبتسام في الفم والعينين والملامح كُلِّها في وقت واحد وهذا أفضل أنواع الإبتسام.

ولكي يستطيع المرء أنْ يبتسمَ الإبتسامة التي تَدْخُل النُّفُوس بلا مشُورَة ولا استئذان يجب أنْ يأخذَ قِسْطه [1] الكافي مِنَ الراحة والنَّوم والهواء النَّقي وعليه أنْ يَخْلُقَ في نفسه المَيْل إلى الإبتسام لأنَّ مَنْ يميلُ إلى أمرٍ يفعله ويُتْقنه فلا يبقَى فيه أثر للتَّصنُّع والتَّكلُّف.

فتعلَّم كيف تبتسم. وتعلَّمي كيف تبتسمين.

السَّمير: 24/ 7/ 1944

الحَـرُّ في نيويورك والحَرُّ في فلوريدا

اشتدَّ الحرُّ في مدينَة نيويورك لدرجة لم يُعْهَدْ لها مثيل كما يقول ساكِنِي نيويورك والعُهْدة [2] عليهم فيما يقولُون إنَّهم لم يشعرُوا بمثله في السِّنين الماضية ولم يكن الحَرُّ مذيباً في شهر تموز من كُلِّ سنة مثله في عامنا هذا.

لا أتَّهمهُم وأقول غير صادِقِين فيما قالوا فالإنسان طُبِـعَ على النِّسيان والنّاس هُمْ، هُمْ، في البلدان

1 القِسْط: النَّصيب والحِصَّة.

2 العُهْدَة: كتاب الشِّراء وهي أَيضاً الدَّرَك. والدَّرَك التَبعَةُ.

الحارَّة والباردَة على حدٍّ سَواء. يَنْسَوْن الحرَّ المذيب كما يَنْسَوْن البرد القارس[1]. ويتذمَّرُون مِنَ اليوم الذي هم فيه. وما لنا ولهذا فالأمر الواقع هنا أنَّنا الآن تصطلي أجسامنا بحرِّ تموز وهجيره[2] وتكاد أنْ تذوب مِنْ شدَّة الحرارة كما يذوب الشَّمع أمام النَّار وتكاد الأرواح تَزْهَقُ[3] مِنْ ضغط الحرارة.

قالت أحدى الصُّحُف أنَّ جماهير النّاس الذين هربوا ملتجئين إلى شواطيء كوني أيلند بلغ عددهم مليُون وربع المليون ومثل هذا العدد مِنَ الخلْق إلتجأ إلى شاطيء راكاواي ما عدا مئات الألوف الذين فرُّوا إلى الجبال والمصايف القريبة مِنَ المدينَة. فقد هجر في يوم واحد نحوُ نصف سكَّان نيويورك. أجلاهُم الحرُّ عن منازلِهِم كما أجلى «الروبوط» مئات الألوف مِنْ سكان لندن نازحين عنها في طلب السَّلامة والنجاة.

ودخل علَيَّ صديقٌ خفيف الرُّوْح وهوَ يلهثُ مِنْ شدَّة الحرّ يحمل على ساعدِهِ معطفه وسترته وياقته وطوقه والعرق يتصبَّبُ مِنْ رأسِهِ الأملس ولا أقول جبهته إذ لا فارق بين جبهته ورأسه. فلمَّا رأيتُه حاملا «كلاكيشه» لم أتمالك مِنَ الإبتسام بالرَّغم عنّي وقلت له متى صرْتَ بائِع ثياب. فغاظتْه ابتسامتِي ولم يَغِظْه سؤالي وقال وما عليك مِنَ الحرّ هنا فقد تعوَّدْتَ على أشدَّ مِنْ هذا في فلوريدا.

قلت: وكيف هذا فأنا مثلك مِنْ لحم ودم.

قال: نَعَم ولَكِنْ الفرق بين حَرِّ نيويورك وحَرِّ فلوريدا «هذه الهيومدتي»...

قلت: ما هي هذه الهيومدتي؟ أجاب: ما بعرف. واستطرد «هالعبقه»...

قلت: مَهْلاً[4] وتناولت القاموس العصري لأسأل الياس أنطون الياس. عن «الهيومدتي» فإذا به يقول: «البلل. الرطوبة. الندى» فلم أقتنع بقولِه فسألْت الرفيق فؤاد الخوري العليم باللغة الإنكليزية فأجاب: «كثافة الرطوبة». والكثافة تعني «التلبُّد» فإذن هي «الرطوبة المتلبّدة» على أنّي استحسنْتُ تعريب «الهيومدتي» التي جاءت عَفْواً[5] وعن شعور باللُّغة الدَّارجَة «العَبْقَة»، لأنَّها أقرب إلى أفهام الجميع ويفهمها الخاص والعام.

ولأعود إلى حرِّ فلوريدا فإنَّه حَرٌّ دائم على طول في شهُور الصَّيف وهو الهجير بذاتِه. ولكنَّه يظلُّ خارج المنازل والدُّور والمكاتب فلا ينفذ إليها.

وفي فلوريدا يعيش سواد النّاس أحراراً مِنْ قيود الملابس فلا يطوِّقُون أعناقهم بأطواق تشدّها الرَّبطات وتراهم جميعاً نساءً ورجالاً وكباراً وصغاراً يرتدُون مِنَ الملابس ما خَفَّ ورَقَّ وهم

---

1 القارس يقال بردٌ قارسٌ: شديد

2 الهَجير نصف النَّهار عند اشتداد الحَرّ.

3 زهَقَتْ نفسه خرجت.

4 مَهْلاً: وقولهم «مَهْلاً» يا رجل وكذا للاثنين والجمع والمؤنَّث بمعنى أَمْهِل.

5 وأَعْفى أَنْفق العَفْوَ من ماله وأَعطيته عَفْواً بغير مسئَلة.

ديمقراطيون في السياسة وفي حياتهم وتصرّفاتهم الشخصيَّة وهم مِنْ أقرب النّاس إلى النّاس يتّصفون بسذاجة [1] أهل القرى ومعروفُون ببطء الحركة وهذه بركَة مِنْ بركَات السَّماء اختصَّهم بها الإقليم الحار وقد يبلغ البطء بهم درجة التّواني والكَسَل المُتناهِي...

السَّمير: 31/ 7/ 1944

عِيد الطفل

لم يشعر الكبار في هذه السنة بالمَسَرَّة التي كانوا يشعرُون بها في عيد الميلاد. ولكنَّهم مع ذلك صَعُبَ عليهم أنْ لا يفرح الأولاد في العيد فكظمُوا [2] ما في نفوسِهِم مِنْ همٍّ وكدر وكتمُوا ما يخامرهم مِنْ وساوس [3] ومضَتْ الأم إلى السُّوق كعادتِها تدورُ في الحوانيت باحثة مفتِّشة عن اللُّعْبة التي عرفَتْ أنَّ ابنَها يحِبّها. وعن الفسطان الذي اشتهَتْ طفلتها أنْ يكونَ لها.

ومضى الأَبّ مثلها يفكرُ في جلبِ الأشياء التي تعوَّدَ جلبها في العيد لصغارِه.

وهكذا سطعَتْ أنوار الكهرباء في الأشجار الخضراء في البيوت وابْتسم الصغار فَرِحين بالعيد فنسِي الكبار همومَهم وهواجِسَهُم [4] عندما رأوهم يبتسمُون ويطربُون.

فأنتَ ترى أنَّ الإنسان عندما يسعَى لإدخال الفَرَح إلى قَلْب سِواه يحصُدُ هو فَرَحاً لذاتِه في النهاية.

كذلك يتَّضحُ لنا ممَّا تقدَّم أنَّ المرء لا يسترجع نفسه وهي جديدة صقيلَة إلاّ إذا نسيها قليلاً ليتسنَّى له الإتصال بالنُّفُوس.

ولنضربْ لذلك مثلا الماء الجاري فهو إذا ظلَّ واقفاً راكداً تطرَّقَ إليه الفساد فتبدَّلَ لونُه وتغيَّر طَعْمُه ولكنَّه إذا جرى في الأرض فروى الأعشاب والمغارس تحوَّل إلى خُضْرة ونُضْرة وأريج فنُعِشَ وازداد هو بالبَذْل صفاءً وعذوبة.

إنَّ الذين ينكمشُون على أنفسِهِم وينطوون ويعتزلُون عن اكتفاء أو عن استغناء توهُّماً منهم أنَّهم يصونُون قوَّتهم فإنَّهُم لا يصونُون شيئاً بل يفقدُون أجمل وأثمن شيء في الحياة وهو حُبُّ الغير.

إنَّ هذا الصِّنف مِنَ البَشَر هم والموميات سَواء. بل رُبَّ مُوْمِياء خير منهم في نظر كثيرين مِنَ النّاس.

---

1 السَّذاجة: السَّاذج معرَّب ساده.

2 كَظَمَ الرَّجُل غيظَه وعلى غَيْظِهِ أَمسك على ما في نفسه صافحاً أَو مغيظاً فهو كاظم فأَنا كَظيم ومَكْظوم.

3 الوسواس: الوَسْوسة حديث النَّفس والوسواس أَيضاً اسم الشَّيطان.

4 الهواجس: الهاجِس الخاطر يقال: هَجَسَ في صدري شيء أي حَدَس وبابه ضَرَب.

أمَّا السَّبب في تفضيل المُومِياء التي لا شعُور لها ولا عقل على اولئك الأحياء ذوي العقُول والشعُور فهُوَ أنَّ المُومِياء لا تبخل عن علمٍ وقصد. ولا تنكمش على ذاتِها عن طَواعيَة وعَمْد. بينما هم يَبْخَلُون وينكمشُون لأنَّهم يجهلُون قيمةَ الأشياء الرُّوحيَّة العاطفيَّة حتى ليتساوى عندهم فقاقيع الصَّابُون وابْتسامات الأَطفال في العيد.

إنَّ هؤلاء النّاس لا عِيْد لهم يفرحُون به ولذلك يفرحُ النَّاس بهم في عيدٍ ولا موسم!

السَّمير: 26/ 11/ 1944

الغضب والطَّرب

إذا تكلَّمْتَ عن إنسان بالحُسْنى فعزَوْتَ إليه بالأخلاق الكريمة وكنتَ لم تره غضبانَ أو سكرانَ فاعلم أنَّك تتحدَّث في غير يقين كما تتحدَّث عن قَصْرٍ لم تدخله وعن ماء لم تشربْه لأنَّك لم تشهد مِنْ أخلاقِه وطباعِه غير ظاهرٍ ميكانيكيَّة متشابهَة في جميع النّاس لأنَّ الإصْطلاحات والتقاليد الإجتماعيّة في أيِّ وسط تجعل النّاس متشابهين في كثير مِنَ العادات والأَطْوار [1] كما تجعلهم متشابِهين في مساكنهم وملابسهم ومآكلهم حتى ليستوِي في هذه النَّاحية أحكمُ إنسان وأحمقُ إنسان لأنَّ الإثنين يَلْبسان لباساً واحداً. ومسكن الأوّل كمَسْكن الثاني وطعام هذا كطعام ذلك. فلم يبق ما يميِّز بينهما إلاّ تبايُن الصُّور في النَّظر وهذه لا يَصِحّ الحُكْمُ عليها لأنَّها كثيراً ما تخدع الرّائي.

وإنَّما تظهر أخلاق المرء كلّها قبيحَة أو جميلة إذا رنَّحتْه موجَة مِنْ طربٍ أو هزَّتْه عاصفة مِنْ غضب. فإذا كان سافلاً تقيَّأ كُلَّ أخلاقه. وإذا كان كريماً سطعَتْ أخلاقه العاليَة وتألَّقَتْ كالنُّجُوم في سماء انكشفَتْ عنها الغيوم.

الغضب كالسُّكْر يطلقُ المَرْء مِنْ قيود الحِشمَة ويُرْسله على سجيَّتِه، ولذلك أطلقُوا على الحالة الأولى اسم «ثورة» وعلى الثانية اسم «سَوْرة» [2] وبين ثورة الغضب وسَوْرة الخمر صِلة ونَسَب.

أي شيء يميِّز الحيَّة عن السَّوط غير هياجها وما في هياجها مِنْ خطر؟

وكثيرون كالحيَّات في ليْن المَلْمَس ونعومَة الجِلد إلاّ أنّهم ليسُوا كذلك عندما يغضبُون أو تغلبهم الخَمْر على نفوسِهِم.

وهذا البَحْر ـ أيقذف بحصاه ولآلئه إلاّ عندما يثور؟ وكم مِنَ النّاس لا تظهر أسرار نفوسهم إلاّ

---

1 الأَطوار: عدا طوره أَي جاوز حدَّه والنَّاس أَطوار أَي أَخياف على حالاتٍ شتَّى. والأَخياف: أَخيف بيِّن الخَيَف إذا كانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى سوداء وكذلك هو من كُلِّ شيء ومنه قِيل: النَّاس أَخياف أَي مختلفون وإخوةٌ أَخيافٌ إذا كانت أُمُّهم واحدةً والآباءُ شتَّى.

2 السَّوْرَة: سَوْرَة الخمر وغيرها حِدَّتها كسُوارها بالضَّمّ.

إذا هاجُوا كالبحار!

ليس الغضب محموداً غير أنّنا يجب أنْ نعترفَ بأنّه ذو فضل كبير في تمزيق براقع التّمويه والخداع والكَشْف عمَّا في السَّرائر [1]. فإذا كنْتَ في رَيْبٍ مِنْ إخلاص رجل يتقرَّب إليك فاغضبْهُ غير متهيّب لأنّه إذا كان حقيقةً مخلصاً فلن يَنْقُصَ إغضابك إيّاه مِنْ إخلاصِه أمَّا إذا لم يكن مُخْلصاً فكلّما أسرعْتَ في قطيعتِه كان ذلك أدفعُ للأذى عنك.

السّمير: 19/ 12/ 1944

الإخاء البشري

يحاول الإنسان منذ وجدَ على هذه الأرض أنْ يجعلَ منها نعيماً لا حزن فيه ولا كَدر ولا خصَام ولا نزاع ولكنّه لم يَفْلَحْ ولا نظنُّه يَفْلَح بالرَّغم مِنْ إدراكِه أنَّ في الأرض متّسعاً للكُل وخيراً كثيراً يكفي الكُلّ.

حَلِمَ أفلاطون بالجمهوريّة السّعيدة ولكن حلمه الجميل لم يزل حلماً.

وحَلِمَ الفارابي بالمدينَة الفاضلَة ولكنَّها مدينة خيال ووهْم فإنَّ مجرَّد التَّصوُّر لا يبدِّل أطوار البشر ولا يغيِّر سنن الحياة.

ولو أنَّ مُعْجزة حدثَتْ وتبدَّل النّاس فلم يبْق فيهم شعُور بالحب ولا البُغض ولا الغَيْرَة [2] ولا الحَسَد ولا القناعَة والطَّمع. وبَطُلَ أنْ يجوع الإنسان ويَشْبعَ ويشتهي ويرغب. فإنَّهم لا يكونُون عندئذ ناساً بل شبه آلهة. لكن الآلهة لا تَسْكُن الطِّين ولا تعيش في اللَّحم والدَّم. فإذا صاروا إلى هذه الحالة لم تَعُدْ الأرضُ صالحةً لِسُكْناهُم. بل لم تَعُدْ تصلُح أنْ تكونَ مَدْفِناً [3] لموتاهُم.

كيف يُمْكن أنْ يَتِمَّ الإخاء بين البَشر. والبَشَر حتى الرَّاقُون منهم لا يخرجُون مِنْ هَبْوة [4] حرب إلاّ ليتأهَّبُوا لخوض غِمار [5] حرب جديدة. إمَّا لإستضعاف أو لإستقواء. وإمَّا للحصُول على مقتنيات الغَيْر وإمَّا للحؤول دون اشتراك الغَيْر في خيرات الأرض.

كيف يُمْكن أنْ يتمَّ السلام البشري ويسود السلام في الأرض وتنقطع الحروب. وهذا يقول ـ إنَّ ما أسعى إليه خيرٌ ممَّا يسعى إليه سواي. وإنَّ ما أعمله أنا يجب أنْ يعملَه غيري.

---

1 السَّريرة: السِّرّ الذي يكْتَم وجمعه أَسرار والسَّريرَة مثله وجمعها سرائر.

2 الغَيْرة: غار الرَّجل على امرأته غَيْرةً ثارت نفسه لإبدائها زينتَها ومحاسنها لغيرِه. ج غُيُرٌ.

3 المَدْفِن: موضع الدَّفْن.

4 الهَبْوة: الغَبَرة.

5 غِمار: الغَمْرَة الشِّدَّة ج غِمار وغَمَرات يقال: غَمَراتُ المَوْتِ.

كيف يمكن أنْ يسودَ الإخاء بين البشر وكُلّ أمّة تدّعي أنّها مَغبونَة [1] مِنَ الأمم الأخرى أو أنّها مهضومَة [2] الحقُوق حتى الأمم الكبرى التي بيدِها مفاتيح الرزق. وبيدها القوّة على أنْ تَخْفِضَ وتَرتَفع وأنْ تَغتَني وتَفْتَقِر.

لا شكّ في أنّ النّاس قد ارتقوا كثيراً عمّا كانُوا عليه منذ قرُون وأجيال. ولكنّهم ما برحُوا في أوّل الطَّريق إلى الهدف الذي ينشده الفلاسفة والمفكرُون وما زالُوا مِنْ هذه النَّاحية أطفالا. يلعبون معاً الآن وبعد قليل يختصمُون ويقتتلُون. ثم يندمُون فيتَصاحبُون. ثم يختلفُون فيتنازعُون ويَتَشاجرُون [3].

إنّما عجز الإنسان حتى الساعة عن الوصُول إلى الإخاء العام وصَيْرُورَة الأرض فردوساً سعيداً لا يدعو إلى القنُوط ولا يحمل على الإنقطاع عن السعي في هذا السَّبيل. لأنّنا إذا زهدْنَا وقفنَا ولم نصل إلى شيء. أمّا إذا استبقينَا هذا الرَّجاء في أنفسِنا فإنَّنا إنْ لم نصل إلى فردوس فلا شكّ في أنّنا نصل إلى شِبه فِردَوس.

إنّ الحياة بلا أمل شقاء وبؤس ولكنّها مع الأمل والرَّجاء تصير لامعَة ويصير فيها نُور وهناء. فَلْنأمَلْ ولْنَعْمَلْ.

السّمير: 7/ 1/ 1945

تُجَّار الأَقاوِيل

مِنْ بيت إلى بيت

ومِنْ مجلس إلى مجلس

يدور تجّار أو تاجرات الأقاويل لإلتقاط حكاية. أو خبَر أو كلمة يبنُون عليها بيوتاً عالية مِنَ الشَّوائع [4]. ويتوهَّمُون أنّها ستبقَى فتَعْصِف [5] بها رياح الحقيقة فإذا هي أطلال دارسَة [6] وآثار طامِسَة [7].

وإذا لم تَجِد تاجرة الأقاويل شيئاً تحمله في جرابِها وتدور به تنشرهُ هنا وهناك فإنّها تَعْمِدُ إلى الإختلاق والتَّزْوير فتقول ـ «سمعت كذا كذا [8]» دون أنْ تُخْبِرَ أين سمعَتْ ولا ممَّنْ سمعَتْ.

---

1 غبَنَ: غبَنَه في البيع غَبْناً غلبه ونَقَصَهُ.

2 هضمه حقَّه: أي ظَلَمه فهو هضِيمٌ ومُهْتَضم أي مَظلوم.

3 اشتجر القوم وتشاجروا تنازعوا والمشَاجَرَة المنازَعة.

4 الشائعة الخبر ينتشر ولا تثبّت فيه ج شوائع.

5 عَصَفَت الرّيح اشتدّ هبُوبُها ويقال عَصَفَتْ بهم الحرب أَهْلكتهم.

6 أطلال دارسة: والطَّلَل ما شَخَص من آثار الدَّار والجمع أطلال دَرَسَ الرسْم عفَا.

7 آثار طامسة: والأَثَرُ بفتحتين ما بقي من رَسْم الشيء. والطُّمُوس الدُّرُوس والإمّحاء.

8 كذا وكذا: كَذا كناية عن الشيء تقول فعل كذا وكذا ويكون كناية عن العَدَد فيُنْصب ما بعده على التّمييز تقول: لَـهُ عندي كذا درهما كما تقول عِشرون دِرْهماً.

وإذا سُئلَتْ أين ومتى. تكلَّفَتْ الحشمَة وزعمَتْ أنَّها تأبَى أنْ تسمِّي أحداً أو مكاناً لئلاّ يَنْتَصب ميزان العِتاب بين النّاس.

وهي في زَعمِها كاذبَةٌ مثلها في الخَبَر الذي تَنْشُره. وليس الذي تخشاه وتتوقَّاه غير أَمْرٍ واحدٍ هو أنْ ينكشف السِّرّ ويعرف النَّاس الكاذب المُخْتَلق [1].

نتكلَّم بصيغة المؤنَّث لأنَّ النَّميمَة [2] مؤنَّثة والسّعاية [3] مؤنَّثة والجريمة مؤنَّثة والبعوضَة التي تنقل الجراثيم مؤنَّثة.

وعندما يصير أيُّ رجل إلى هذه الحالة. وتصير هذه العادة الذميمة عادتَه فقل إنَّه قد أضاع شِيْمة [4] الرجل وشَمَمَه [5] وصار لا رجل.

لا تكثر النَّمائم إلاّ بين الطَّبقَات الجاهلَة المنحطَّة التي تحِنُّ لضَعف مِداركها إلى إستطلاع الأمور فتشرئِبّ [6] ثم تشرئبّ وتتطاول ثمَّ تتطاول ولكنَّها لا تبلغ إلاّ الأعراض والقشُور فتعلُكها وتلُوكُها وتحسَبُ أنَّها ظَفِرت بالجوهر واللّباب [7].

للنَّمائِم أجنحة ولكنَّها أجنحة بَعُوض.

ولها طنين ولكنَّه طَنين الذُّباب.

لذلك يكره النّاس رؤية البعُوض لأنَّه لا يحمل في أجنحتِه غير الجراثيم.

وهم يمقتُون الذُّباب لأنَّ أغانيه وأهازيجه ليسَتْ ممَّا تَطْرَبُ لها الأرواح أو تهتزّ لها المشاعر.

ولكنَّهم مع معرفتهم أنَّ ضرر الشَّوائِع الكاذبَة والأراجيف المختلقَة مثل ضرر البعُوض. والذُّباب بل أشدّ لا يعملُون على إبادتِها كما يعملُون على إبادة البعُوض والذُّباب.

ولو كان في البلاد شريعة تعاقبُ المخْتَلِق [8] المُرْجِف [9] لرأيْنَا كثيرين ممَّن يَغْشَوْن البيوت والمجالس في غِيابات [10] السُّجُون.

السّمير: 15/ 3/ 1945

---

1 اختلق القول افتراه.

2 النَّميمه: نَمَّ الحديث أي قتّه والإسم النميمة. والقَتُّ نَمُّ الحديث.

3 السّعاية: وسَعَى به إلى الوالي سِعايَةً وَشَى به.

4 الشِّيمة: الخُلُق.

5 الشَّمَم: ارتفاعٌ في قَصبَةِ الأنْف مع استواء أعلاه ورجل أَشَمَ أي طويل الرَّأس بيِّن الشَّمَم.

6 اشرأَبّ إليه وله اشرِئباباً مدّ عُنُقَه أو ارتفع لينظُرَ.

7 واللُّبّ من كُل شيء خالصه وخِياره.

8 المُخْتَلِق: اختلق القول افتراه.

9 المُرْجِف: الإرْجاف واحد أَراجيف الأَخبار وقد أَرجَفوا في الشيء أَي خاضُوا فيه.

10 غيابات: وغاب غيْباً وغَيْبَةً وغِياباً خلاف شَهِد وحَضَرَ.

الأجداد ـ والعنزة

الكُلّ يعلمُون أنَّ الحياة في أيامنَا تطيرُ طيراناً. وأنَّ النّاس كلهم في كُلِّ مكان يحلُمُون بالمستقبل وبدنيا المستقبل. ويبنُون ويعملون لتلك الدُّنيا التي يتصوَّرونَها ويستعجلُون خَلْقَها.

أمَّا نحن فعندنا فريق كبير مِنْ هذا الطِّراز. مِنَ النّاس الذين يتطلَّعُون إلى الغد ويعملون للغد. وهم يملكُون قوَّة الإبداع ويحاولُون أنْ يخلقُوا ويبتدعُوا على غِرار [1] الأمم الرَّاقيَة.

ولكن عندنا أيضاً فريق كبير لا يزال حاصراً تطلُّعه وتفكيره في الماضي السَّحيق [2] كأولئك الذين كُلَّما كتبُوا مقالاً أو نظمُوا قصيدة رَجَعوا إلى قبورِ الأسلاف الصَّالِحين فاستخرجُوا منْها الرِّمَم [3] وسيَّروها أمام النّاس صفوفاً ومواكب وراحُوا يهتفُون لها ويَفرِضُونَ [4] على غيرهِم الهُتَاف لتلك الرِّمَم الباليَة التي لو رجعَتْ إليها الحياة واستطاعَتْ أنْ تتكلَّم لانهالَتْ باللَّعنَات على هؤلاء الأحفاد الذين لم يفعلُوا شيئاً مذكُورا يستطيع أنْ يتباهَى به اولئك الأسلاف [5] كما يتباهَى به الأحفاد.

ومِنَ الغريب أنَّ أصحاب هذه النَّغمة المُضجِرَة المُمِلَّة يسمعُون ويشاهدُون كُلَّ أمَّة في هذا العصر تصبُو إلى حالة أحسن وأرقَى مِنْ حالة أسلافِها وأجدادها لأنَّها لو رضِيَتْ بأنْ تكون كما كان اولئك الأسلاف لما خطَتْ خطوة إلى الأمام ولا تبدَّل شيءٌ مِنْ زراعتها وصناعاتها وكُل نواحي حياتها.

ونحن أيضاً نتبدَّل مع النّاس ونسير في موكب الحياة لأنَّنا لا نَقْدر أنْ نقفَ في التَّيَّار [6] ولكنَّنا مع ذلك لا نفتأُ نفاخرُ بأجداد طَوتْهُم الأرض منذ دهُور. نفاخر بهم لأنَّنا لم نَجْترِح [7] بعد آية نقدر أنْ نتباهَى بها بل كُل ما عندنا هو مِنْ فضل الغير ومُستعَار مِنْ أبناء الأمَم الأخرى لا مِنْ أجدادنا في الأجداث.

وألْقِ نَظْرَة على ما تركَه الأجداد الأقدمين مِنَ الآثار فتجدِ الأحْفاد قد أهملُوها ولم يجدِّدوا شيئاً منها. ولم يحاولُوا حتى أنْ يَسْتَبْقُوها في بلادهِم فذهب منها كثيرٌ إلى بلاد الغَير ومتاحف الغير.

ومِنْ هذا النوع قالة الشعر العامي الذين يعيشُون في البيوت التي تُنار بالكهرباء. ويجري فيها الماء بارداً وساخناً. ويتحدَّثُون منها بالتليفون إلى أماكن قصيَّة [8] فإنَّهم مع كل هذه الوسائِل التي توفرها

---

1 غِرار: الغِرار القالَب يضرب عليه النِّصال يقال: ضرب نِصاله على غِرار واحد ويقال سار على غِراره: نَهج نَهْجَهُ.

2 السَّحيق: وسَحِقَ سُحقاً بعُدَ أشدَّ البُعد فهو سَحيق وهي سَحيقَة.

3 الرِّمَم: والرِّمَّة بالكسر العظام البالية والجمع رِمَم وقد رَمَّ العَظم يرِمّ رِمَة بكسر الرَّاء فيهما أي بَلِي فهو رميم.

4 فرض الله علينا كذا وافترض أي أوجب والإسم الفَريضة.

5 والأسلاف: الأباء المتقدِّمون.

6 التَّيَّار الموج.

7 اجترح: اجترح السَّيِّئة اقترفها.

8 القصيَّة: البعيدة.

لهم الحضارة الحديثة ترى واحدهم كلَّما نظمَ مقطوعةَ ملأها لهفَة على الحياة إلى صوت الماعز أو إلى ظِلٍّ خيمَة أو إلى التُّوتَة التي كان «يتعمشق بها» أو العنزة التي كان يرعاها ولو نقلته إلى المحيط الذي يحِنُّ إليه ويبكي عليه لبكَى مِنْ وجُوده فيه وحَنَّ إلى فِراقِه والدَّليل أنَّه فارقَه مِنْ قَبْلُ غير آسِف.

عجباً. إنَّ عيونَنا في مقدِّمة [1] رؤوسنا. فلماذا لا نتطلَّع إلى الأمام كسائر النّاس. وإلى متى نُضْرِمُ [2] نار الحنين في قلوبِنَا إلى الماضي الذي لم نَعِشْ فيه ولن يَرْجِعَ. ولن يُسْعدنَا الرُّجُوع إليه.

أم إنَّنا لا نعني ما نقُول!

السَّمير: 21/ 3/ 1945

ما هي السَّعادة

نكتب هذه الكلمة رداً على سؤال وجَّهَه إلينا أحدهم وهو - ما هي السَّعادة؟

يقول الجندي في نفسه - إنَّها النصر

ويقول التَّاجر في سرِّه أو جهره - إنَّها الثروة

ويقول العاشق: إنَّها الحُبُّ

ويقول المنكُوب: إنَّها النَّجاة مِنَ التَّعاسة

ويقول المريض: إنَّها الصِّحَّة

ويقول الغريب: إنَّها الإجتماع بالأهل والأحْباب

ويقول الفيلسُوف: إنَّها الوصُول إلى الحقيقة

ويقول كثيرُون: إنَّها كالعَنقَاء [3] إسم لا مسمًّى له.

وهكذا يختلف النّاس في تحديد السَّعادة لأنَّها كالجمال لا تتقيَّدُ بمقياس. فهي ليسَتْ في الإنتصار إلاّ إلى حسن. ولا في الثَّرْوة إلاّ على قَدْرٍ معلُوم. ولا في الحُبِّ إلاّ إذا جاز أنْ تكونَ الوسيلَة إلى الشيء هي الشيء ذاته.

وقسْ على ذلك سائر الأحوال. فقد ينتصرُ الجندي ولا يكون سعيداً. وقد يُثْري التَّاجر وتظلُّ

---

1 المقدَّمَة: المقدِّمة بالفتح والكسر من كُلّ شيء أوَّله، والمقدَّمَة من الجيش طائفة منه تسير أمامه ومنه يقال مقدِّمة الكتاب ومقدِّمة الكلام.

2 أضرم النار أشعلها.

3 العَنْقاء: الدَّاهية وطائر معروف الإسم مجهول الجسم والعَنْقاءُ المُغرب بالضَّمِّ وعنقاء مُغْرِبٌ ومُغْرِبة ومُغرب مضافة طائر عظيم يُبْعد في طيرانه أو مِنَ الألفاظ الدَّالَّة على غير معنًى والدَّاهية.

نفسه ظمأى إلى السَّعادة. وقد يحب المرء فيشقى ويتَعَس. وقد ينجُو المكرُوب مِنْ كُرْبَتِهِ[1] وليس في نفسِهِ غير الأسى والألم. وقد يعود الغريب إلى وطنِه ليَدْفِنَ أحلامه الجميلَةَ بدلاً مِنْ أنْ يحييها.

ولكن السَّعادة مع ذلك ليسَتْ وَهْماً ولا إسماً لغير مُسَمًّى كما يزعم البعض. لأنَّها إذا لم تكن موجودَة فلأيِّ شيء يعيش الإنسان وأيُّ مَعْنًى لأحلامه ورغائبه وآماله.

بالطَّبع ليس لأحد أنْ يقولَ إنِّي وجدتها. ولكن ليس لأحد أنْ يقول إنَّها لا وجود لها.

إنَّها معك عندما تَحُسُّ أنَّها معك. وهي ليسَتْ معك عندما تَشْعُرُ أنَّها ليسَتْ معك.

إنَّها شعور يخلقُه المرء في نفسِهِ أو تخلقُه فيه حالة مِنْ أحوال الحياة عندما تهبّ رياح الحياة ملائمَة موافقَة.

هي لمحَات قصيرَة ولكنَّها أحسن ما في العُمُر. فرؤيتك الصَّديق بعد فِراق طويل هي نوع مِنَ السَّعادة. وانتصارك في معركة فيه شيء مِنَ السَّعادة.

وأحياناً تشعُرُ بها عندما تسمَعُ طائراً يَصْدَح أو ترى مشهداً جميلاً. أو تقع عيناك على طِفل يَبْتسم أو تقرأ حكاية مُرْقِصة. أو تَبْتكر شيئاً لم يَسْبِقك إليه أحد مِنْ قَبْلُ.

السَّمير: 2/ 5/ 1945

النَّفْع العَامّ

نودُّ أنْ نَخْلُقَ في نفوس الذين نتصل بهم بواسطة القلم أو اللِّسان حُبَّ النَّفع العام.

لأنَّنا نعتقدُ أنَّ أسعد النَّاس وأهنأهم هم الذين يعيشُون في بيئة راقيةٍ ومحيط جميل المَظْهر والمَخْبَر[2].

إذن فالمَرْءُ يعمل على تَرْقية محيطه ونَفْع النَّاس حوله لينفع نفسه ويمهِّد لها السبيل إلى الهنَاء والطُّمأْنينة.

ونؤكِّد أنَّ إنساناً ممتازا لا يَلْمَع في أيِّ مكان كما يلمع في محيط راقٍ مُنوَّر.

خذ مثلا عباقرَة العقُول والأرواح الذين ظهرُوا في الأجيال الدَّاجِيَة[3] المُعْتكرة[4]. فهم في تلك العصور كانوا قوماً مكرُوهِين لأنَّ المحيط الذي عاشُوا فيه كان محيطاً متأخِّراً متقهقِراً مُنحطّاً لا يستطيع أنْ يُطلَّ على الدُّنيا التي أطلَّ عليها هؤلاء العباقرَة.

فلمَّا تقدَّم النَّاس وارتقَوْا وتاقَتْ أرواحهم إلى المعرفَة وحنَّتْ إلى درس الأجيال الماضية ورجالها كان للعباقرَة النَّصيب الأوفر والمَقام الأَسْمى في نفُوس هؤلاء لأنَّ لهؤلاء محيط صاف راقٍ تنعكسُ

---

1 الكَرْب الحزن الهَمّ ج كُروب.

2 المَخْبَر: بوزن المصدر ضِدّ المَنْظر. يقال طابق مَخْبَره منظرَهُ.

3 الدَّاجية: دياجي اللَّيل حنادسُه. والحِنْدِس بكسر الحاء والدَّال اللَّيل الشديد الظُّلْمَة.

4 المُعْتَكِرَة: إعْتكر الظَّلام اختلط.

عليه الأشياء فتبدُو في أرْوَع حُسْنها وأمجدِ جلالها.

ولم تحسَن بيئة ولا محيط إلاّ بالقوم الذين يجدُون لذّة في تضحية الوَقْت والمال والإنفاق مِنْ أرواحِهِم مثلما يُنْفقُون مِنْ أموالِهِم.

فيا أيُّها الإنسان الذي يرى ما نعمل ويسمعُ ما نقول. إذا أعيَاك أنْ تكونَ صورة جميلة تقع على لوح بَلُّور [1]. أو نغمَة طروبَة تهْبط على أذنٍ سَمِيعَة فكن إذن لوحاً صافياً لَمَّاعاً تنعكس عليه الصورة الجميلة.

وكن إذن سَمْعاً حسَّاساً يتلقَّفُ النَّغمَات الشجيَّة ويهتزُّ لها.

وبعبارة أوجز وأقرب إلى الفهم. كُن جميلاً في أقوالِك. وجميلاً في أعمالِك. وجميلاً في أفكارِك وجميلاً في صُحْبتك وعَداوتك وقربك وبعادك وحُبّك وبُغْضك. وغنائك وبكائك. فتصير ترى كُلّ شيء حولك جميلاً بل يَصِيرْ كُل ما حولك جميلا.

ولا تدع الكآبة تتسرَّبُ إلى نفسِك عندما ترى الكثيرين لا يقيمُون وزناً لتضحياتِك في سبيل محيطك أو عشيرتك ولا يفهمُون معنى لجهودِك بل تذكَّر أنَّهم لو كانوا أكثر إدراكاً وفهماً للأمور لما احتاجُوا إليك ولا لغيرك. ولما كان لمساعيْك أيُّ معنى في نظر العارِفين.

حَسْبُك وأنتَ تسعى إلى هدفٍ نبيل الشُّعور الذي يخامر نفسك والإعتقاد المُنتشر في قلبك بأنَّك تعمل خيراً وتُنْشد جمالاً وكمالاً.

ليجرحْ غيرك أمَّا أنتَ فعليك أنْ تأسُوا [2] الجُرْح

وليهدم غيرك أمَّا أنت فانصرف إلى البناء

وليضع غيرك العثَرَات والعراقِيل في طريق المُصلِحين أمَّا أنت فاجعل هَمَّكَ أنْ تزيلَ العراقِيل وتذلِّل العقبَات.

السَّمير: 20/ 7/ 1945

النَّاس والكتب

ليس الحديث اليوم عن رغبة النَّاس في المطالعَة أو زُهْدِهم فيها بل الذي حملَنَا على وضع هذا التّنويج هو سؤال وجَّهَه إلينا أحدهم قائلاً: بماذا تشبّهُون النّاس. فقلنا: إنَّهم كالكتب.

قال: كيف.

قلنا: إنَّ الكتب أنواع وكذلك النّاس.

---

1 بَلّور: البلُّور حجر أبيض شفَّاف ونوع من الزُّجاج.

2 آسَى: أَسَّاه تأْسِيَةً عَزَّاه وآساه بماله مؤاساة جعله أُسْوته فيه.

رُبَّ كتاب لا تقرأ منه غير عُنْوانه ثمَّ تنصرف عنه ولا تتذكَّر منه شيئاً حتى عُنْوانه. ولا يذكِّرك به شيء حتى اللون المصنُوع منه غلافه.

إنَّ هذا الكتاب مثل الإنسان الذي يُطِلُّ عليك مرَّة ثم يُطِلُّ عليك ألف مرَّة فلا يحرِّك في نفسِك طَرَباً ولا شعُوراً.

ورُبَّ كتاب تطالعه في ليلة أو نهار فتُسرُّ به وتُعْجب بما حَوَاه ولكنَّك لا تنتهي منه حتى تتوق نفسُك إلى مطالعة كتاب آخر.

هذا الكتاب مثل الذي تلتقي به في سفَر أو في حديقة أو في مجلس فتقضي ليلتك أو نهارك أو ساعتك في الإستماع إليه والحديث معه لأنَّك لا تجدُ سواه فإذا افترقتُما لم تشعر بأسفٍ كبير ويمرُّ الوَقْت بك فلا تُحِسُّ في نفسِك حنيناً إليه. ولكنَّك مع ذلك تذكره بالحُسْنَى كلَّما مرَّ اسمُه في مِسْمعِك.

ورُبَّ كتاب تقرأه اليوم ثمَّ تعود إليه بعد شهر وبعد سنة لتقرأه بلهفَة ورغبَة واستغراق فتنسَى بِهِ كل كتاب وتكاد تَذْهَلُ عن زمنك وتطير على جناح الخيال إلى عَصْرِ مؤلِّفه فتصير كأنَّك كنتَ معه. أو تشتهي على الأقل أن تكون معه في عصره.

هذا الكتاب مثل الإنسان المُتجدِّد الأفكار الذي تلقاه اليوم فتراه جديداً ثمَّ تلقاه بعد حينٍ فإذا هو كأنَّه شخص جديد. وسرُّ ذلك أنَّه غير جامد الرُّوح والفكر ولا رَجْعي الآراء والنَّظَرات وهو فوق ذلك حُلْو الشَّمائِل [1] ترى فيه صورة متجسِّدَة للرجل الكامل الذي قرأت وصفه في قصائد الشعراء وأحاديث الفلاسفَة.

أجل يا صاحب. إنَّ النَّاس كالكتب. بعضها ينفض الغبار عن روحِك وبعضها لا يصلح لشيء غير الغبار.

فاخترْ صحابك وانظر في اختيارِهمُ	إلى الخلائِق قبل اللَّون والدِّينِ
مَنْ يَقْتَنِ صاحباً تبقى مودَّته	فهْوَ الغني به لا ذُو الملايِينِ

السَّمير: 25/ 7/ 1945

بعد الزَّوبعَة

لا تَخَلْنا نسيء التعبير إذا نحن شبَّهنَا البشريَّة بروضَة انتشرَ فوقها الضَّباب الكثيف وتوالَتْ عليها السُّيُول والعواصف حتى خُيِّلَ للرَّائي أنَّها ستتحوَّل في آخر الأمر إلى فدفد [2] قاحل لا تنبتُ فيه شجرة ولا يعيشُ فيه طائر ولا يصَفِّقُ فيه جدول.

---

1 الشَّمائل: والشِّمال أيضاً الخُلُق والجمع شمائِل.

2 الفدْفَد الأرض الواسعة المستوية التي لا شيء فيها ج فَدافِد.

ولكنَّها ما لبثَتْ بعد انكشاف الضَّباب وانقطَاع السُّيُول وسكون العواصِف أنْ رجعَتْ إليها الحياة ترأبُ[1] ما انصدَعَ[2]. وتَلُمُّ ما تشتَّتْ وتنشيء النَّبت والعشب والشَّجر والزَّهر وتغذِّي الأرض بالماء والهواء والضياء لتعود أجمل ديباجَة[3] وأحسن رَونقاً[4]. وأقدر مِنْ قَبْلُ على العطاء الجميل.

ولقد مرَّتْ بالبشريَّة مِنْ قبل بعواصف كثيرة كادَتْ تخلخلُ جدرانها وتزلزلُ بُنْيانها ولكنَّها لم تنهدم. بل رجعَتْ تبني أحسن ممَّا كانَتْ تبني. وتسرعُ في السَّير إلى الأمام بعد النكبَات أكثر ممَّا كانت تُسْرع قَبْلَها.

ولقد خُيِّلَ للنَّاس في هذه الحرب كما خُيِّلَ لهم في كُلِّ حرب أنَّ البشريَّة سائرَة إلى الإنقراض والإنمحاق إذ لم يبق مكان في الدُّنيا لم يتحوَّل إلى مَيْدان عراك ولم يبق إنسان في الأرض لم تَمَسته الحرب في جسدِه أو نَفْسه أو ماله أو عقَاره.

ولكنْ إذا كانت الجمادَات والنباتَات لم تنقرِض وهي أشياء لا تعقل أفينقرضُ الإنسان العاقلُ المُدرك الذي استطَاع أنْ يسخِّرَ لخدمتِه البَحْر والفضاء وكُلَّ ما في اليابسَة مِنْ حيوان وجماد.

لا، إنَّه سيبقى. وسيرقى. وسيجعلُ مِنْ هذه الأرض فردَوساً لا خصام فيه ولا انتقام فهو الكائن الوحيد في الأرض الذي يعرف كيف يستفيد مِنْ هفواتِه وعثَراته وغَلطاتِه. وقد تعلَّم في الحروب الماضية كثيراً وسوف يتعلَّم مِنْ هذه الحرب أكثر. ولا سيَّما بعد أنْ صارَتْ أقصى زاوية في الدُّنيا كأقرب زاوية بفضلِ السُّفُنِ الجوِّيَّة والراديو العَجيب و «التلفجن» الأعجب الذي سيكُون العصر المقبل عصره.

أمَّا القذيفَة «الأتوميَّة» التي توصَّل العلمَاء في هذه الحرب إلى صنعِها فإنَّها أعجبُ ما اهتدَى إليه العقل البشري. وإذا كانت قد استُخْدَمت في الحرب للتَّدمير والفتك فسوفَ تُستخدم بعدها لرفع البشريَّة إلى أعلى مستوى مِنَ الهناء والسَّعادة. فهي ليسَتْ شرّاً بل هي الخير كُلّه فإنَّ ظهورها قصَّر أجلَ الحرب وسوف يطيلُ عمر السَّلام في الأرض.

ومِنْ حسنِ حظ البشريَّة أنَّ اليَدَ التي اكتشفتْها هي يدُ أميركا التي تدعو إلى الإخاء البشري العام وتنشدُ السلام لذاتِها ولكلِّ أمَّة في الأرض.

لقد انكشفَ الضَّباب المُترامي وانقطعَتْ السُّيُول الجارفَة وركدَتْ العواصف الثائرَة وصحا الجوّ. وعاد السلام إلى الأرض. وغمرتْ المسرَّة كُل الأمم إلاَّ الأشرار الذين أضرمُوا نارها. فكانُوا

---

1 رأَب: بين القوم أصلح بينهم.

2 الصَّدْع: الشَّقُّ.

3 الدِّيباجة: ديباجة الكتاب فاتحته. ويقال لكلامه وكتابته وشعره ديباجة حسنة أُسلوب حسن. والدِّيباج ضرب من الثِّياب سَداه ولُحمته حرير.

4 والرَّونق: ورَوْنق السَّيف ماؤه وحُسْنه ومنه رَوْنَق الضُّحى وغيره.

لها وقوداً.

ولكن حتى هؤلاء لن يكونُوا أقل هناء مِنْ سواهِم إذا هم أحسنُوا التَّوبَة وساروا سيرة صالحَة وسلكُوا طريق العدل والحقّ وأماتُوا في نفوسِهِم النَّزعَات [1] الذِّئْبيَّة والبدَوات [2] الأفعوانيَّة.

أجل، إنَّ البشريَّة تدخل منذ الساعة في عصر جديد بل يمكنُ القول إنَّها قد وُلِدَتْ ولادةً جديدة. وستظلُّ تحتفل بيوم الرابعَ عَشرَ من آب كأنَّه يوم مولدها. فهْوَ اليوم الأعظم في التَّاريخ.

السَّمير: 17/ 8/ 1945

أشـرٌّ أم خير

ما هو الشَّرُّ؟

وما هو الخَير؟

هذا بَحث لا نهاية له عند جماعَة العلمَاء غير أنَّ السؤال اليوم لا يخصُّ هؤلاء. لأنَّ هؤلاء كلَّما تناولُوا مسألة بسيطَة جعلُوها مركَّبَة معقَّدَة وخلقُوا منها مسائل لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. ووسَّعُوا دائرتها بحيث تتجاوز الأرض إلى الآفاق البعيدة وتقفز مِنْ نطاق هذا الزَّمان إلى كُلِّ زمن.

إذن فلندَع ساحة هؤلاء ولنرجع إلى الخير المحدُود الذي لا يَحار فيه العقل المحدود وتقنع به نفُوس الجماهير فنقول أنَّ الشرَّ في مذهب كُل فرد هو ما أصابَه منْه ضرر. والبِرُّ [3] هو ما نالَه منه نفع.

ولذلك ترى ساكن المدينَة يتأفَّف مِنَ المطر لأنَّه يبلِّلُ ثيابه وهو سائر في الشارع وينسى حِيال [4] هذا التلف الذي يصيب ثوبه ما في المطرِ مِنْ خير للحقل الذي يَنْبتُ فيه الحَبُّ والبقل والفاكهَة.

ويفرح بالرِّبح الوفير في هذه الأيَّام وينسى أنَّ هذا الربح الوفير ناشيء عن قلَّة السِّلَع [5]. وإنَّ قلَّة السِّلَع ناشئة عن قلَّة الإنتاج وإنَّ قلَّة الإنتاج ناشئَة عن وجود البلاد في حرب وأنَّ الحرب سوف تَرْخُصُ فيها الأرواح. والحرب شرٌّ عظيم وطامَة كبرى [6].

لم ينلْنَا بعد مِنَ القنبلة الأتوميَّة ضرر بل جاءَنا منها نفعٌ كبير إذ صانَتْ أرواحاً كثيرة مِنَ الهلاك وقصَّرتْ أجلُ الحرب وأرغمَتْ عدوَّة أميركا الكبرى على طرح سلاحها والإستسلام.

---

1 النَّزْعة: ونازعتْ النَّفْس إلى كذا نِزاعا اشتاقت.

2 البَدوات: وبدا له في هذا الأمر بَدَاءٌ بالمَدِّ أي نشأ له فيه رأيٌ وهو ذو بَدَوات.

3 البِرُّ: الخَير.

4 حِيال: الحِيال قُبالَة الشيء يقال قعدت حياله وبحياله بإزائه.

5 السِّلَع: كُلّ ما يُتجَر به من البضاعة ج سِلَع.

6 الطَّامَة الكُبْرى: الدَّاهية تفوقُ ما سِواها.

مع ذلك قامَتْ قيامَة البعض على العلمَاء الذين توصَّلُوا إلى تسخير قوى الجوهر الفرد وحَصْرها في قُنْبلَة تقع على مدينَة فتدمرُها وتتركها أثراً بعد عين [1] .

إنَّهم لم يعترضُوا إشفاقاً على اليابانيِّين بل خوفاً على أنفسِهِم في مستقبل الأيّام ولكن مَنْ ذا الذي يستطيع أنْ يعرفَ ما هو مخبوء ومَكْنُون في ضمير المستقبل.

لماذا نخشى الأذى والضَّرر مِنْ هذا الإختراع الهائل المُدهش الذي لم يحلُم أحد بتحقيقه ولا يتوقَّع منه النَّفْع والفائدَة. فليس مِنْ شر إلاّ وفيه خير. بل يمكن القول أنْ ليس مِنْ شَرّ في الحياة وإنّما الإنسان هو الذي يَمْلِك هذه الآلات والأدوات وعليه يتوقَّف توجيهها إمَّا إلى الخير وإمَّا إلى الشر.

إذن فليس الخطر على الإنسان مِنْ هذه القُنْبلَة ولا مِنْ أيّ أداة أو آلة أو مادَّة أو جوهر بل الخطر عليه مِنَ الإنسان ذاته.

وعندنا أنَّ ظهُور هذه القُنْبلَة في هذا العصر ليس بأعجب ولا أشد هولاً مِنْ ظهُور السكِّين في عَصْر الهِراوة [2] والمِقْلاع [3] . وظهُور البارُود في عصر الخِنْجَر [4] والسَّيف.

ولن يكون خطرها أعظم مِنْ خطر أيّ سلاح إلاّ على نِسْبة الإستعمال والزَّمان والمكان.

فلتسكُنْ فرائِصُ [5] المرتعدِين فإنَّ الإنسانيَّة لن تنقرض والأرض لن تَنْمَحِق.

السَّمير: 21/ 8/ 1945

حديث معك

نودُّ أنْ نتحدَّث اليوم إلى قرّاء «السَّمير» عن «السَّمير» ذاتها فهم شركاؤنا في المُهِمَّة [6] الأدبيَّة التي نقوم بها. والحديث عن السَّنة التي انقضَتْ أو كادَتْ تنقضي وهي التي وثبَتْ فيها «السَّمير» وثبتها الكبرى المُثلَّثة فصدرَتْ بثماني صفحات وأنشأتْ القسم الإنكليزي وأضافَتْ إلى ما فيها مِنَ الأبواب والفصُول تلك الصُّور الرمزيَّة وغير الرمزيَّة التي لا وجُود لها في جريدة عربيَّة أخرى. فقد كانت هذه المرحلة التي تجتازها «السَّمير» بعد أُسْبوعَين مِنْ أشقّ المراحل في حياتِها وذلك باستثناء دور التأسيس. ولكنَّها كانَتْ مِنْ أمجدِ المراحل لأنَّها استطاعَتْ أنْ تتغلَّبَ على الصِّعاب التي اعترضتْها وأنْ تطيرَ فوق

---

1 أثَرَ بعد عَيْن: الأثَر بفتحتين ما بقي من رَسْم الشيء.

2 الهِراوَة بالكسر العَصا الضَّخْمة والجمع الهرَاوى بفتح الهاء والواو.

3 المِقْلاع الذي يُرْمَى به الحَجَر.

4 الخِنجَر سكِّين ذو حدَّين.

5 فرائص: الفَريصة العَضَلة الصَّدْرِيَّة.

6 المُهِمّ الأمر الشَّديد.

العقبَات والعراقيل.

وأحسنُ مِنْ هذا كُلِّه أنَّها كانَت وهي تغالبُ هذه الصِّعاب واثقَة مِنْ ذاتِها ومِنْ أنصارِها غير مكترثَة لطنين الحُسَّاد وفحيح الكاشحِين الذين نبَّهتْهُمْ وثْبتُها الدَّاويَة مِنْ غفلتِهِم فراحُوا يحاولُون الوثُوب مثلها وأنْ لم تكن لهم أجنحة. ويَلِجُونَ[1] في منافستِها وليس لهم شيءٌ مِنْ أهدافِها ولا يجولُ في نفوسِهِم الشَّوق الذي يتواثبُ في نفسِها إلى الأجمل والأكمل.

بلى كانَتْ تختلجُ في أكبادِهِم نارٌ شديدة التلظِّي وهي نار الغَيْرَة[2] والحسد التي تلتهم حاملها وتظلَّ مستَعِرَة الأوار.

إنَّ كثيرين ممَّن لم يكابِدُوا حرفَة الصَّحافة العربيَّة ويقيسون جرائدنا إلى الجرائد الأميركية الكبرى يحسَبُون إصدار جريدة كالسَّمير شيئاً هيِّناً يسيراً. ولكنَّ الذين عالجُوا الصَّحافَة وكابَدُوا متاعبها العمليَّة والذِّهنيَّة وحملُوا مسؤولياتها الماليَّة والأدبيَّة يدركُون أنَّ جريدة كالسَّمير تصدر بهذه الحُلَّة[3] مِنَ المشاريع التي تتقطَّع دونَها الأعناق وينوء بها الرِّجال أُولُو العُصْبَةِ[4]. ولكن لو كان الأمر سهلاً لما كان في إدراكِه شيءٌ مِنَ اللَّذَّة لمعالِجِهِ ولا شيء مِنَ الفخر لمدركه.

على أنَّ حديثنا مع القرَّاء اليوم ليس للفخر ولا الإعتزاز إلاّ بما وجدنَاه عندهُم مِنْ حسن المؤازرَة في جهادِنا وجميل التقدير للجهُود التي نبذلها. فقد ضاعفُوا فينا الثقة بأنَّ العمل الجميل لا يَعْدَمُ[5] أنصاراً وبرهنُوا لنا وللنَّاس أنَّهم يحسنُون تقدير الأشياء والتمييز بين غَثِّ[6] الأمور وسمينها فلم يختلط عليهم صوت يدعو إلى الحق وصوت يدعو إلى الباطل. ولم يلتبس عليهم كاتب حُرّ يعيش ليكتب. وآخر يكتب ليعيش. وقد برزَتْ في القرَّاء هذه القدرَة على التمييز عندما احتدمَتْ القضيَّة الوطنيَّة في لبنان وسوريا. فقد تساقطَتْ البَراقِع[7] عن الوجُوه وانقضى عهد الخَتْل[8] والرَّوْغ[9] فإذا لكُلِّ امريء لونُه الحقيقي.

لم ننشيء «السَّمير» لتكون لنا جريدَة فحسب بل أنشأناها لتكون وسيلَة للمطالبَة بحق مهضُوم[10]

---

1 لَجَّ في الأمر تمادَى.

2 الغَيْرَة: غار الرَجل على امرأته غَيْرةً ثارت نفسه لإبدائها زينتها ومحاسنها لغيره فهو غَيُور وهي غيورَة ج غُيُرٌ.

3 الحُلَّة: الثَّوْب الجيِّد غليظاً أو رقيقاً ج حُلَلٌ.

4 أُولُو العُصْبَة: العُصبَة الجماعة من النَّاس أَو الخيل أَو الطَّير ج عُصَبٌ.

5 عَدِمَ المالَ عَدَماً فقده فهو عادِمٌ والشيء معدُوم وعَديم.

6 الغَثّ خلاف السَّمِين والرَّديء الفاسد من كُلِّ شيء.

7 البراقِع: البُرْقُع يكون للنِّساء والدَّواب وبَرْقَعَهُ أَلْبَسهُ إيَّاه فَتبَرقَع ج بَراقِع. (والتَّعبير مجازي).

8 الخَتْل: ختَله خدعه. والخَتْل الخِداع.

9 الرَّوْغ: راغَ الرَّجل والثعلب رَوْغاً وروَغاناً مال وحاد عن الشيء والإِسْم رَواغٌ ورَوَّاغ.

10 الحَقّ المَهْضوم: هَضَمَ فلاناً ظلمه وغَصَبَهُ.

وأداة لنصرَة شعبٍ مظلُوم. ومنبراً تتعالى منه أصوات الدّاعين إلى الحريَّة والإستقلال.

وميداناً تتنافس فيه الأقلام في تشييد هيكل الإخاء بين أبناء الوطن.

وهذه المُهِمَّة ليسَتْ مما ينقضي بيوم ولا هي ممَّا يقوم به فرد. بل هي مهمَّة الكُل كُل الوقت. إذ ما دام في الأرض نفُوس شرِّيرة فسيظلُّ العالم بحاجة إلى مَنْ يكافحُون الشَّرّ ويحولُون دون الأذى. فإذا جَبَنُوا[1] ولم يفعلُوا كانُوا كأنَّهُم يعاونُون الأشرار.

نريد أنْ نقولَ للقرَّاء أنَّ «السَّمير» لا تقف عند حدٍ مِنَ التحسين ما دامَتْ لها قدرَة على التحسين. ولكنَّنا نودُّ أنْ نلفتَ نظر الآباء والأمهات إلى القسم الإنكليزي في «السَّمير» فمن الضَّرورة أنْ تشترِكَ النَّاشئَة في مؤازرتِه لكي يتسنَّى لنا أنْ نجعلَ الصَّفحة صَفْحتين أو أنْ نُصْدِرَ القسم الإنكليزي عدداً مستقلاً في كُلِّ أُسْبوع. فإنَّ الغرض مِنْ هذا القسم أنْ يكونَ مَسْرحاً لأقلام النَّاشئين وصلة بين الجيلَيْن: جيْل الآباء وجيل الأبناء.

وسنعود إلى هذا الموضوع.

السَّمير: 19/ 10/ 1945

المجد والمسرَّة والسَّلام

ليس عيد الميلاد غير يوم ولكنَّه في هذه السنة يوم أعظم مِنْ كُلِّ الأيّام لأنَّه عيد كامل بكُلِّ ما فيه مِنْ المعاني بحيث يشعر المرء عندما يردِّد هذه العبارة «المجد لله في العلاء وعلى الأرض السَّلام وفي النّاس المَسَرَّة» إنَّ كُلُّ شيء كما يقول. فإنَّ الإنسان لا يقدر أنْ يمجِّدَ الله وهو طاوي الجوانح[2] على الحقد والغِلِّ[3] كما كان الحال وهو في ضباب والقُنْبُلَة والحرب رازحاً تحت أثقالها. أمَّا الآن وقد عاد السلام إلى الأرض فإنَّ الإنسان يَحُقُّ له أنْ يفرحَ ويبتهج وأنْ يهتفَ بالتَّسابيح[4] في هذا اليوم كلَّما رَجَع إلى الدُّنيا رجع بكل جلاله وروعته لأنَّه يذكِّر النّاس بأنَّهم يستطيعُون أنْ يكونُوا أرقَى ممَّا هم وأجمل ممَّا هم وأسعد ممَّا هُم عليه وذلك باتِّباعهِم المباديء التي جاء بها وليد المِذود السيِّد المسيح عليه السلام وذلك منذ ما يقارب ألفي سنة. فهي المباديء التي تشقى البشريَّة كلَّما انصرَفَتْ عنها وتَسْعَد كلَّما أخذَت بها

---

1 جَبَنَ: تهيَّب الإقْدام على ما لا ينبغي أنْ يُخافَ.

2 الجوانح الأضلاع التي تحت التّرائب وهي مِمَّا يلي الصَّدْر كالضُّلوع مِمَّا يلي الظَّهْر الواحدة جانحة.

3 الغِلّ: بالكسر الغِشّ والحِقْد.

4 التَّسْبيحَة: التَّسبيح التَّنزيه (وسُبْحان) الله معناه التَّنزيه لله وهو نَصْبٌ على المَصْدر كأنَّه قال: أُبَرِّيَ اللهَ من السُّوءِ براءَةً.

وسارَتْ بموجبِها [1].

لأنَّ الأخذ بها يعني أنَّ النَّاس صارُوا يحبُّون بعضهم بعضاً ويضحِّي بعضهم في سبيل بعض وليس مع الحُبِّ خِصام ولا نِزاع.

والإنصراف عن هذه المباديء يعني أنَّ الحيوانيَّة لا تزال مُسْتَحْكِمَة في الإنسان فهْوَ يقاتلُ قريبه ويعتدي على جارِه. ويطمع بما ليس له. ولا يبالِي إلاّ أنْ يتمتَّع بأطايب الحياةِ ولو هَلَكَ كُلُّ الذين حوله وأكَلَ البَشَرُ كُلُّهُم الحصى والتُّراب.

قد يصير هذا الإنسان قويّاً وغنيّاً وسَرِيّاً [2] ولكنْ هيهات أنْ تذوقَ روحه الطمأنينة التي يشعر بها المَرْء المُحِبُّ أو أنْ يستشعر قلبه الغبطَة التي يشعر بها المَرْء المُضحِّي.

إنَّ لعيد الميلاد في هذه السَّنة روعَة ممتازَة لأنَّ العالَم خرج مِنْ جوِّ الحرب ورجع السَّلام إلى البيوت وإلى القلُوب.

وهو بنوعٍ خاص أروع مِنْ كُلِّ عيد سبَق لأنَّ أكثر الشَّباب الذين كانُوا في ساحات الوغى [3] قد رَجَعُوا إلى بيوتِهِم وصارُوا بين أهلِهِم وذويهم ورفاقهم.

وكُلُّ واحد منهم عاد إلى وطنه وأهله وكأنَّه قد وُلِدَ وِلادة جديدة.

فـ«السَّمير» ومحرِّرها وعمَّالها يتقدَّمُون بالتهاني القلبيَّة إلى جميع قرَّائها وأنصارها ومحبِّيها. ويرجُون أنْ يستمرَّ الحُبُّ في القلُوب لكي يستمِرَّ السَّلامُ وَطيداً [4] في الأرض وتتمنَّى للكُلِّ عيداً سعيداً وعُمراً مديداً.

السَّمير: 21/ 12/ 1945

هدية صديقين

الهدايا كُلُّها جميلة على اختلاف أنواعها لأنَّها تُتَرْجم عن شعُور المُهْدِي وحبِّهِ للمُهدَى إليه بأفْصَحِ مِنْ أَفْصَح لِسان وأجلى مِنْ أجلى بيان. ولكن أجمل الهدايا هي الأكثرُ نفعاً.

إعتزمنَا في مطلع السنة الجديدة أنْ نجعل مكتب «السَّمير» في بنايتها الخاصة أتمّ وأجمل مكتب لجريدة عربيَّة في المهجر فأفرغنَا الطَّابق [5] الثاني مِنَ البناية وبينما نحن نباشر إعداده وتهيئته زارنَا

---

1 المُوْجِب: وَجَبَ الشيء يَجِبُ وُجُوباً: لَزِمَ.

2 السَّرِيّ: السَّرْو سخاءٌ في مُرُوءَة وقد سَرَا يَسْرُو وسَرِي بالكَسْرِ سَرْوا فيهما وسَرُوَ من باب ظَرُف أي صار سَرِيّاً وجمع السَّرِيّ سَرَاة وهو جَمْعٌ عزيزٌ أنْ يجمَع فعيل على فَعَلَة ولا يُعرَف غيره.

3 الوَغَى: الجلبة والأصوات ومنه قيل للحرب وَغَى لما فيها من الصَّوت الجَـلَبَة.

4 الوَطِيد: وطَدَا الشيء اثبته وثقّله ووطّده أيضاً توطيداً.

5 الطَّابَق الدَّوْر في البيت أو العماره ج طوابق.

الصَّديقان الكريمَان سليم أيوب المشهور بحبِّه للأدب والأدباء ورزق الله كيلون الذي لو لم يكن تاجراً لكان شاعراً لَمَا يضطرم في صدرِه مِنْ حُبٍّ الفنون.

فقال **الأول**: ما أجدر أنْ تكون دار «السَّمير» بيت الأمَّة فإنَّها مؤسَّسة أدبيَّة نفتخر بها كلُّنا.

وقال **الثاني**: إنَّ هذا المكتب لن يكون لك وحْدَك يا إيليَّا بل لكلٍّ أديب ومحِبٍّ للأدب.

ونحن الذين رافقنَا «السَّمير» منذ نشأتها وعرفنَاك منذ جئت إلى نيويورك وأحببنَاك نشعرُ أنَّ علينا واجباً نحو السَّمير.

فلمَّا سمعنَا عبارته أشفقنَا ممَّا وراءَها. فقلنا: إنَّ واجب الأديب نحو أمَّته لا ينتهي وليس مِنْ عمل نَعْمله إلاَّ بوحي الأمَّة التي نحن منها. فإنْ جاء جميلاً فجماله منها. ولولاها لما تمَّ لنا تحقيق أيَّة فكرة في النَّفس.

وكنَّا مُزمعِين أنْ ننقلَ المكاتب التي في الطَّابق الأول فقال سَلِيم: لا تَنْقُلِ الآن شيئاً إلى أنْ تسمعَ منِّي وكذلك قال رزق الله.

فلمَّا أطلَّت علينا وعلى الدُّنيا بأسرها تلك السنة الجديدة وجدنا مركبة كبرى تتوقَّف أمام دار «السَّمير» ثم جاء سائقها إلينا وبيده قسيمة طالباً منَّا أن نوقّعها له فلمَّا قرأناها عرفنَا ما وراء وعد الصَّديقين. فقد كانت في المركبة هديَّتيهما إلينا وهما عبارة عن مكتب مِنَ الخشب الجميل أهداه إلَيَّ الصَّديق سليم أيُّوب وكان مع المكتب مِصباح كهربائي ثمين ودواة مِنْ رخَام وقلمَان مدادان نفيسان. وغطاء مِنَ الجلد للمكتب مِنْ أحدث طراز؛ وهذه كلُّها أهداها الصَّديق رزق الله.

وبعد أنْ استوى ذلك المكتب وسط تلك القاعة وارتدى حلَّته خاطبناهما بالتلفُون لنشكرهُمَا على هداياهما الجميلة. ودعوناهُما إلى المكتب وهناك شربْنَا سر صداقتهما وحبّهما. ولم يتَّسع الوَقْت لأكثر مِنْ ذلك لأنَّهما كانا يتأهَّبَان للسفر إلى ميامي ترويحا عن النَّفس مِنْ عناءِ العمل.

ولكنَّنا ننوي بعد عودتهما أنْ نقيم تدشين لإدارة «السَّمير» الجديدة نجمعُ فيها شمل الأصدقاء على أنْ تتكرَّر كلَّما سنحَتْ لنا فرصة سعيدة مجدِيَة كهذه الفرصة الثَّمينَة.

ويحق لنا أنْ نعيدَ في هذه المناسبة ما قلنَاه مرة في فضل الأصدقاء وهو:

«إنِّي امرؤٌ بصحابي فوق قارون»[1] وأنا القائل أيضاً في احدى قصائدي:

مَنْ يَقْتَنِ صاحباً تبقى مودَّتهُ   فهو الغَنِيّ به لا ذُو المَلايينَ

السَّمير: 16/ 1/ 1946

1 قارُون: اسم رجل كان ملِكاً يضرب به المثل في الغِنى لا ينصرف للعُجْمة والتَّعْريف.

لا فُضَّ فُوك

لا فُضَّ فوك ـ أي لا سقطَت أسنانك ـ هي الوِسام الذي لا يكلِّف صاحبه شيئاً غير فتح شفتيه وتحريكهما لحظةً ويخلَعَه على هذا الشّاعر وذلك الخطيب وذيّالك الواعظ. فيذهب هؤلاء وقد شربُوا قَطْرةً يختالُون كأنَّهم كَرَعوا نهراً. ويشعرُون وهم لم يَلْتَفَّ بأجسامهم خيط واحد كأنَّهم ارتدوا سرابيل وأطالس!

بهذه العبارة كان الشَّرقيُّون وما زالوا يكافئون أصحاب المواهب مِنْ فنَّانين وشعراء ومُنشدِين وعلماء لذلك كان الكَمد[1] دائماً لِباس الشِّعر والفنّ والعلم في الشَّرْق..

لا فُضَّ فوك. دعاء جميل ولكنَّها لا تمنع سقُوط الأسنان إذا تطرَّق إليها الفَساد. فإنَّ زمن العُوذَةِ[2] قد انقضى. ولا ينبغي له أنْ يعود.

وهي بالرَّغم مِنْ أنَّها كلمة تشجيع وتنشيط لا تأتي بالغاية المنشُودَة بل تأتي بعكسها. فإنَّها كحُقْنَةِ[3] المُورفِين تسكِّن الوجع إلى حين فإذا زال تأثيرها رجع الألم رجعة أشد وأنكى.

لم تكن ولن تكون هذه العبارة وأمثالها مِنَ الوسائل التي تزيد الموهُوب اندفاعاً في استغلال موهبتِه استغلالاً يرفع الفن ويرفع شأن التي ينتسب إليها ويحيا لها.

وأبغض ما تكون هذه العبارة عندما تخرج مِنْ فَم إنسان يقولها مطاوعَة لسواه دون أنْ يكونَ قد وقع في نفسِه شيءٌ مِنْ الإستحسان أو شيءٌ مِنَ الفَهم الذي يَنْبَع منه الإستحسان أو الإستهجَان. فتجيء في هذه الحالة كمن كان يدعو للسلطان بالنصر بلسانِه وهو يتمنَّى في قلبِه أنْ يزولَ مُلْكُه وتَنْصَرِمَ[4] حياته؛ لأنَّه سلطان ظالم مستبد لم يزهر في عهدِه حقل إلاّ ليكون جناه. ولم تنشقّ الأرض عن كنز إلاّ ليكُون ما فيه لذلك الحاكم الظالم.

وكثيرون يقولُون: لا فُضَّ فُوك. وهم لا يَعْنُون[5] شيئاً. بل ربَّما كانُوا في قلوبهم يتعجَّبُون كيف استطاع هذا الرجل الموهُوب أنْ يكونَ له هذا المكان العالي بين النّاس وهو ليس بصاحبِ ثروة ولا بوليد زعامَة. ولا هو مِنْ أصحاب الشَّرف الموروث.

---

1 الكَمَد: كَمِد الرَّجل كَتَمَ حُزْنه أو حَزِن حُزْناً شديداً فهو كامِد.

2 العُوْذَة ما يعلّق لرفع الحسد والرُّقْية يُرْقى بها الإنسان من نزعٍ أو جُنون. ج عُوَذٌ.

3 الحُقْنَة دواءٌ يحقَنُ به المريض ج حُقَنٌ.

4 انْصرم اللّيل ذهب، وانْصرم الشتاء انقضى.

5 عَنَى بالقول كذا أراده وقصده.

وأكثر هؤلاء مِنَ الجهلَة الحَمْقَى [1]. ولكنَّهم يلتقُون وسواهم في حومة واحدةٍ: فهُم يقولُون ولا يفعلُون.

وأشدُّ ما يَحُزُّ [2] في النَّفس أنَّ هؤلاء الذين لا ينصرُون موهوباً أو أديباً وهو حيٌّ تتحوَّل عيونهم إلى ميازيب تتدفَّق منها الدموع عندما يرحل عنهم.

ولكنَّهم مثلما كانُوا في حياتِه يقتصرُون على الكلام الذي لا يُغني عن فقْرٍ ولا ينقذُ مِنْ شرّ. كذلك يصيرُون في مماتِه يبكُون ثم بعد لحظة يَنْسَوْن أنَّهم بَكَوا وأنَّه ليس معهم.

وهذه لَعَمْري [3] ظاهرة مسيئة تدلُّ دلالة واضحَة على أنَّ بين النَّابه وقومه هُوَّة [4] وسيعةٌ وعميقةٌ وليس فوقها جسر يَعْبُرُ عليه إليهم ويعبُرون هم إليه.

فمتى. متى يمتدّ هذا الجِسْر؟!.

السَّمير: 19/ 4/ 1946

هل تهلك الإنسان معرفته

يقول الحكماء - وما أصدق القول - إنَّ المعرفَة قوَّة. فما وقع نظر المرء على حقل زاهر أو بلد عامر إلاّ وأدرك أنَّ المعرفة هي سِرّ الازدهار في الحقل. وسِرّ العُمْران في البلد. لأنَّ حقل الجاهل يباب [5]. وبلد الجاهل خراب.

المعرفة.. هي التي حفرَتْ الأنفاق تحت الأرض ومِنْ فوقِها الأنهر... وهي التي مدَّت الجسُور العاليَة المعلَّقة فوق الأنهر الكبرى فوصلَت بين بلد وبلد وبين ولاية وولايَة.

والمعرفَة.. هي التي حوَّلَت البخار إلى قُوَّة تجرّ القُطُرَ في البَرّ. والسفن في البَحْر.

والمعرفة هي التي رفعَت الإنسان في الفضاء فحلَّق فيه يزاحم النُّسور في دُنياها. ويجتاز في ساعة ما كان يعسر عليه اجتيازه ماشياً في أسابيع.

والمعرفة هي التي جعلَت كل شيء للإنسان أفضل ممَّا كان. بل جعلَت الإنسان نفسه أرقى ممَّا كان!

إنَّها السِّحر بل هي أعظم مِنَ السِّحر.

---

1 الحمقى: حَمِق فلان حَمَقاً قلَّ عقله فهو أحمق وحَمَّقَ فعل فِعْلَ الحَمْقَى.

2 ويقال حَزَّ الشيءُ في صَدرِهِ أو قلبِهِ: أثّر فيه.

3 لعمري: لعَمْرُ الله فاللاّم لتوكيد الابتداء والخبر محذوف تقديره لعَمْرُ الله قسمي أو لَعَمْرُ الله ما أُقْسِم به فإن لم تُدْخل عليه اللاّم نصبته نَصْبَ المصادر فقلتَ عَمْرَ الله ما فعلت كذا.

4 الهُوَّة: الهَواء الجوُّ كالمَهْواةِ والهُوَّة.

5 اليَباب: أرض يبابٌ أي خرابٌ.

إنّها هذه القوّة قد تدمِّرُ كما تعمِّر. وقد تفسدُ كما تصلح. فإنَّ البشريَّة كلّها ترتعد فرائصُها[1] في هذه الأيَّام كلَّما لاح لها شبح القذائف الأتوميَّة تتساقط على الدُّنيا لتهدم ما فيها مِنْ عمران وتستأصِلُ ما عليها مِنْ حيوان.

ويزداد الخوف مِنْ هذا الغول كلَّما ازداد عدد الذين يعرفُون سِرَّ تكوين هذه القذائف الجهنَّميَّة.

وليس هذا السِّرُّ المحجُوب بلا مفتاح. وليس الوَقْت الذي يهتدي فيه الكلّ إلى هذا المِفتاح ببعيد. فقد صرَّح هارولد ستاسن معاون الرئيس ايزانهور الخاص في مسألة تحديد السلاح. بأنَّ الغِطاء سوف يسقُط عن هذا السِّرّ في غضون سنة ويصبح معروفاً في العالم كلّه. فإذا حصلَتْ عليه الأمم الأخرى قبل الإتفاق على تحديد السلاح فإنَّ الخطر يشتدُّ على العالم كلَّما انتشرت معرفته.

فأنت ترى أنَّ المعرفة قوَّة. ولكنَّها أحيانا تصير قوَّة لا تنتج إلا الشَّرّ. وليس ذلك لأنَّها هي شَرّ في ذاتِها. ولكنَّها مثل كُلِّ أداة وكلّ شيء يحوزه الإنسان يصير شرّاً إذا صرفها هو إلى الشَّرّ، وخيراً إذا أرادها ووجَّهها إلى الخير.

نرجو أنْ لا يبلغ الإنسان إلى يوم يقول فيه مع الشَّاعر العربي:

آفتــي مَعْرفتــي ليتني لــم أعْــرفِ

السَّمير: 7/ 5/ 1946

المنزل الأوّل

لله ما أشد سلطان المنزل الأول على الإنسان. قد يكون المنزل الأوَّل قريةٌ صغيرة لا شأنَ لها في التَّاريخ ولا إسم لها في خريطة وقد يكون الإنسان المُغْترب عن المنزل الأوّل ممَّن يمرحُون في غربتِهم في فِردَوس مِنَ السَّعادة والهناء والرَّخاء ولكنَّه مع ذلك يظلُّ يحِنُّ إلى مسقط رأسِه. وإلى المنزل الأوَّل.

وقد يسيح الإنسان في الدُّنيا فيرود مجاهلها ويهبط أهلها ويشاهد عجائب العُمْران وغرائِب البُنْيان وسحر المدنيَّة الحديثة فيَسْكَر حتى يكاد ينسَى. ولكنَّه ينسى كُلَّ شيء إلاّ البُقْعَة التي انفتحَتْ فيها عيناه للنُّور. وتسلَّق أشجارها وركض في دروبِها.

وقد يكون مِنَ المؤمنين العاملين بقول المُتنبِّي:

ومــا بلد الإنسان غَيْــر الموافِقِ وما أهلُـهُ الأدْنَوْن غَيْر الأَصادقِ[2]

أو ربَّما فَلْسفته إذ يقول:

---

1 الفريصة: لحمة بين الجَنْب والكَتِف لا تزال تُرْعد من الإنسان والدَّابّة وجمعها فريصٌ وفرائِص.

2 الأَدْنى: الأقْرب.

إذا كان أصلي مِنْ ترابٍ فكلّها بـلادي وكـلُّ الـعـالمَين أقـاربي

ولكنَّه مع إتِّساع دائرة فلسفته في الوطن ورحابَة صدره في مسألة السَّكَن لا يَقْدِر أنْ يمنعَ قلبه في الخلَوات الهادئة مِنَ الحنين إلى المنزل الأوّل حنيناً ناشئاً عن حبّ لا يبلَى ولا يبوخ لونه كالذهب الدَّفين.

وربّما كان الإنسان المُغترب قد هَجَر وطنه ناقماً على الحكّام لأنّهم ظلموه وتحيَّفوه [1]. أو غاضباً على الوطن ذاته لأنّه وجد فيه مجال الرِّزق ضيِّقاً ومجال الحريّة أضيق.

ولكنَّه مع نقمتِه واستيائِه وكراهته يظلُّ يشعرُ في أعماقِ نَفْسه بدافع لا رادعَ له يدفعه إلى الحنين إلى المنزل الذي هجره. والرغبة في الرُّجُوع إليه وإنْ لم يكن فيه غير الأشواكِ التي تُدْمي وتؤلم.

ثمَّ هو يحُسُّ أنَّه يستطيع أنْ يَنْسَلخ عن الأصحاب والعشراء. وعن كل شيء له ولكنَّه لا يستطيع أنْ ينسلخَ عن المنزل الأوّل إلاّ إلى حِيْن. فهو يحمله في روحِه وقلبه وعقله وفي كُرَيَّات [2] دمه أينَما ذهب وكيفما صار.

ولكنَّه في الحالتين لا يرى منزلاً أبقى في نفسِه مِنَ المنزل الأوّل.

السَّمير: 14/ 5/ 1946

هَـزْل في جـدّ

التقى في إحدى حومَات السباق صديقان أحدهما مِنَ المولَعِين بالمُراهنَة على خيل السِّباق. والآخر مِنْ رأي القائلين العز في سروج الخيل ولكنَّه يمقتُ المراهنَة عليها وعلى سواها.

وكانت الحومَة على إتِّساعِها مُكتظَّة [3] بالخَلْق بحيث يَصْعَبُ على المرء المسير ثم يكاد يَصْعَبُ عليه الوقُوف عندما يتحرَّك القوم نحو الحومَة وعندما يرجعُون عنها.

وكان الزَّاهد في المراهنَة يتأمَّل اولئك النّاس فلا يرى مُبْتَسِماً واحداً حتى يرى ألف عابس. ولاحظ أنَّ كثيرين تبدُو على وجوهِهِم علامات الذُّهُول وفي ملابسِهِم آثار الإهمال والخمُول. وكثير منهم تخبر هيئاتِهِم أنَّهم بلا عقُول..

ومرَّتْ سُوَيْعَات وكُل واحد مشغُول بنفسِه لا يعي شيئاً ممَّا يجري حوله. ولا يستعيد وعيه إلاَّ بعدما يغادر حلبة السِّباق وهو يشعر بخيبة أمل شديدة وحتى لو كان رابحاً فربحه قد كان ربحاً زهيداً جداً.

---

1 الحيف الظُّلم.

2 الكُرَيَّات الحُمْر كُرَيَّات الدّمّ الحُمْر والكُرَيَّات البيض كُرَيَّات الدَّمّ عديمة اللَّوْنِ.

3 مكتَظَّة: اكتظَّ امتلأً واشتدَّ امتلاؤه. يقال اكتظَّ المكان بالنَّاس.

وكلَّما خرجَتْ الجيَاد إلى السِّباق تكأكأ [1] النّاس على جانبي الممَرّ كأنَّما سيشاهدُون موكب ملك أو سلطان أو سِرْباً [2] مِنَ الحُور [3] الهاربَات مِنَ الفِردَوس.

هذا يحدِّج هذا الجواد بعينين كأنَّهما تتضرَّعان وذاك يرمُق [4] ذاك الجواد كما يرمُقُ العاشق صورة حبيبته.

وكلُّهم مثل هذا وذاك في فتونِه وجنونه ورجائِه المُلْتهِب المعلَّق على ذوات الأذناب والحوافر.

وقديماً عبد المصريُّون العجل أبيس

وقبلهم عبد الأشوريُّون الثور والأسد

وفي الهند للبقرة عُبّاد ومُصَلُّون

ولكُلٍّ قوم فِتْنتهم

فإذا جرتْ الجياد في الحَلْبَة وقف ذلك الحشد الكبير المُتراص كالبُنيان صامتاً باهتاً حابسَ الأنفاس فلا تسمع نامَّة ولا هَمْسَة حتى يزاحم جواد جواداً فيعلُو الهتاف ويكثر الصُّراخ ويصير المُراهن على الجواد المتأخِّر يثبُ في مكانه كأنَّما هو يستحثُّ ذلك الجواد ليطير.

ويصير المراهنُ على الجواد المُتقدِّم يقفزُ ويُلَوِّح بيدَيْه كأنَّه يخشى عليه أنْ يُقَصِّر أو يتأَخَّر.

وتدوم هذه الضَّوضاء حتى ينتهي الشَّوط ويعيَّن رقم الجواد الفائز فيسكتُ الرّابحون والخاسرون من بين هؤلاء القوم سكوت الأصنام. ثمّ يعودُون إلى ما كانُوا عليه فيراهنون مِنْ جديد على جياد الشوط الثاني.

ولَمَّا وجد الصَّديقان الفرصة السانحة للكلام قال أحدهم لزميله الذي كَرِه الرِّهان:

ـ كيف رأيْتَ السِّباق؟

فقال وهو يبتسم: إنَّ الذي رأيْتُه هو أنَّ الخيُول أعقلُ وأَحْكَم مِنَ البَشَر.

قال: كيف ذلك؟

فأجابه: لأنَّ الخيُول لا تراهن على النَّاس ولو كانُوا مِنْ سُلالة الأكاسرَة والفراعنَة والقياصرَة. أمَّا النّاس فيراهنُون على الخيُول.

وإنَّك لتعجب كيف أنَّ الحكومَة تَحْظُرُ [5] على النّاس الرِّهان على الخيُول خارج حَلْقة السِّباق

---

1 تكأكأ: تجمَّعَ. وهذه اللفظة لفظة يسميها ويسمى علماء والبلاغة امثالها بـ«الحُوشية» والحوشي من الكلام هو الغريب القديم الذي يحتاج إلى القاموس ليفهم معناه.

2 السِّرْب الفريق من الطَّيرُ والحيوان ج أسْرابٌ.

3 الحُوْرُ: حَوِرت العين حَوَراً اشتدّ بياضها وسوادُها واستدارت حدقتها ويقال: حَوِرَت الظَّبيَة وحَوِر الظَّبي فهو أَحور وهي حوراء ج حُوْرٌ.

4 رَمَقَه نظر إليه.

5 الحَظْر الحَجْر وهو ضِدّ الإباحة وحَظَرَه فهو محظور أيْ محرَّم.

وتطارد الذين يبيعُون أوراق المراهنَات وفي الوَقْت ذاته تُبيح للخيُول أنْ تجري في حَلْبات السّباق.

وأعجب مِنْ هذا أنْ ترى رجلاً عاملاً أو بائعاً يركض ساعات النَّهار كلَّها ليربح بضعة دولارات ثمَّ يجيء في المساء فإذا تلك الدولارات قد طارَتْ مِنْ يدِه لأنَّ جواداً ركض بضع دقائِق.

ومع ركضة كل جواد تطير أموال العِبَاد.

السَّمير: 5/ 6/ 1946

طلاّب الشُّهرة الجوْفَاء

يكاد يكون أمراً مقرَّراً عندنا أنَّ أكثر النّاس ولعاً بالظهُور هم أقلُّ النّاس أهليَّة للظهُور. فإنَّ الشُّهرة لا تجيء لمجرد الولُوع بها والرَّغبة فيها. بل لها شروطها وهي أنْ يكونَ المرء على شيء مِنَ الأهليَّة وعلى كثير مِنَ الجدِّ والإجتهاد في مِهنتِه وعلى شيء أكثر مِنَ التَّجافي عن طلب الشُّهرة. لأنَّ الإنسان إذا انصرف إلى الإستعانَة بالوسائل المزيَّفَة للحصُول على الشُّهْرة أضاع الوَقْت الثمين في ما لا طائل تحته. وإذا حصل على شيء مِنَ الظهُور فإنَّه لا يحصُل عليه ليُمْدَح بل ليُذَم.

إنَّ الوسائل التي تؤدِّي إلى الشُّهرة كثيرة لا تُعدّ ولَكِنَّ أفضلها تلك التي تؤدِّي إلى شهرة حقيقية لا يبوخُ لونها عندما تُسلَّطَ عليها نار النقد أو تغلي بماء الإمتحان والتجربَة.

ما أشبه طالبَ الشُّهرة على غير أهليَّة بالضِفْدَع يتعالَى نقيقها في الماء فيحسَب السامع أنَّ صاحب ذاك الصَّوت كائنٌ ذو قوَّة واقتدار فإذا وصل إلى مَصْدره عَجِب لذاتِه كيف انخدَع وكيف غلط في التقدير.

على أنَّه إذا كان عاقلاً حكيماً لا يَنْقِمُ على الضِفْدَع لنقيقها فهي ليس لها مِنْ وسيلَة تدلُّ بها على وجودِها إلاّ هذا النَّقيق.

كل امرؤ يُنفِقُ مِمَّا عنده. وليس للضِفْدَع أنْ تغرِّدَ كالكنَار.

لا ينبغي للرجل الحكيم أنْ يغضبَ على الضِفْدَع تنقُّ في اللَّيل وإنْ أزعجته وأطارَتْ الكَرى مِنْ جفنيْه بل عليه أنْ يتمثَّلَ بالنجُوم السابحَة في الفضاء وينصرف إلى التَّفْكير بما ينسيه الضِفْدَع ونقيقها.

لكلِّ بيت بابه الذي يدخل إليه منه وللشهرة أبوابها. فلا يدخلَنَّ في وَهْم إنسان أنَّه يستطيع الوصُول إلى شهرة ثابتة وجميلَة إلاّ بالأعمال الصامدَة الجميلة التي تستحق أنْ تشيعَ وتشيع معها شهرةُ صاحبها.

لا تتَّسع تجارة تاجر لمجرَّد أنَّه تمنَّى ورغب واشتهى أنْ يصيرَ صاحب تجارة واسعة بل لأنَّه سعى وسَهِر وتَعِب «وبِقَدْر الكد تُكتسَبُ المعالي».

ولا يصل كاتب إلى شهرة في عالم الأدب لمجرّد أنَّ جريدة أو مجلّة نعتته بالكاتب النِّحرير[1] بل لأنَّه خُلِقَ وفيه كُلّ عناصر الكاتب النّحرير مِنْ ذوق كتابي ومعرفة بأساليب الكلام ومناحِيْه وصبره على الدَّرس والتَّنقيب وإخلاص في العقيدَة وشعُور بما يكتب ويدوِّن وغير ذلك مِنَ المَيْزات والصِّفات.

إنَّ بعض طلاب الشُّهْرة أو عشَّاق الظهُور يلجأون أحياناً إلى أمورٍ مضحكَة ويستعينُون بأشياء لسواهم لكي يحُقّ لهم أنْ يتباهَوا بانَّهم كانت لهم حِصَّة في الدِّيك لأنَّهم شربُوا مرقته.

فلهؤلاء نقول أطلبُوا الشُّهْرة مِنْ أبوابِها فتأتيَكُم منقادَة تجرُّ أذيالها وتبقى تيجانها على رؤوسكم.

السّمير: 24/ 6/ 1946

كيف تتّسع الدُّنيا وتَضِيق

كم هي مساحة دُنْياك؟

كانت دنيا الإنسان في أول أمرِهِ مغارة أو كهفاً ثمَّ صارَتْ خيمَة فكوخاً فبيتاً فإقليماً فبلاداً. أمَّا اليوم فلا يقنع إلاّ أنْ تكون له الأرض كُلّها وطناً.

أنتَ جزء مِنْ هذا العالم إذا اتَّحَدْتَ به صار كلُّه لك أمَّا إذا انفصلْتَ عنه وحصرْتَ نفسك في دائرة ضيّقة كالمذهب مثلاً والجنس واللون والإقليم فإنَّك تصبح كالمسجُون في نفَق أو سرداب لا يرى مِنَ الدُّنيا غير الجدران التي حوله. وصار كل شيء غيره مجهُولاً منك كلَّما تصورتَه دبَّ إلى نفسِك الخوف واستحوذَ عليك الحذر لأنَّ الإنسان عدوُّ ما جهل وصديق ما فَهِمْ.

فما هي دنياك؟ وكم مساحتها؟ لا نقول لك: ثِبْ فوق البَحْر ولكنَّنا نقول لك: ثِبْ فوق الحواجز المذهبيَّة والجنسيَّة والإقليميَّة تصبحْ الدُّنيا كلَّها وطنك والنّاس كلهم أهلك وإخوانك. فالعالَم ينكمش ويتقلَّص إذا انبسطَتْ العقُول وتمدَّدت الأرواح أمَّا إذا كانَتْ العقُول في انكمَاش والأرواح في انقباض فالدُّنيا تتَّسع وتَنْبسط وتَكبُر وتكْثُر فيه المجاهل حتى ليصير الإنسان فيها كالحشرة القابعَة في ظل صَخْر في سهل مترامي الأطراف.

قبيح أنْ يكونَ الإنسان كالحشرة. عليه أنْ يعرفَ دنياه ما دام فيها ولن يعرفها ما دام عقلُه في سجن الجهل والغبَاوة.

لا يصير العالم لك إلاّ إذا صرْتَ أنتَ العالم فإذا عَجَزْتَ عن السياحَة بنفسِك في الأرض فلا يُعْجِزْ عقلَك أنْ يَسُوحَ في الكُتُب.

وسِّع دائرة نفسك تَصْغُرْ الدُّنيا لديك.

السّمير: 22/ 7/ 1946

---

1 النِّحْرير: بوزن المِسْكين العالِم المُتْقِن.

ويلٌ لهؤلاء

ويلٌ[1] للكاتب الذي يستحوذُ عليه الغُرُور[2] لأنَّ جريدة أو مجلَّة نشرَتْ له مقالاً فتوهَّم أنَّه صار نابغةَ عَصْرِهِ وأنَّ الزَّمان لن يأتي له بمثيل.

وويلٌ للتلميذ الذي ينال شهادة المدرسة العاليَة أو الكُلِّيَّة ويكتفي بأنَّهُ نالها ويذهب يمُنُّ على الدُّنيا بأنَّه يحمل شهادة.

وويلٌ للطبيب الذي يقنع بأنَّه صار طبيباً ويتوقَّعُ مِنَ النّاس أنْ تنصبَ له تمثالاً وتشيدُ له عرشاً لمجرَّد أنَّه طبيب ولو كان لم يشف مريضاً إلاّ وأودى بعشرات المرضى لجهلِه وغروره واعتزازه بنفسِه.

وويلٌ للعامل الذي حذقَ صنعة وراح يدلُّ على الجيران والأقرباء والغرباء بأنَّه بارع في تلك الصنعَة كأنَّما هو موجدها أو مخترعها وويلٌ للشاعر الذي يتوهَّمُ أنَّه بلغ مرتبة الخلُود لأنَّه استطاع أنْ يأتي بشيءٍ مِنَ الكَلِم الموزُون المقفَّى.

وويلٌ للرجل الذي أدرك ثروةً فراح يستعلِي على النّاس ويستكبر وينسُبُ إلى ذاتِه الذّكاء[3] الخارق وإلى غيره الجهل المطبق.

ويلٌ لهؤلاء وويلٌ للنّاس مِنْ هؤلاء وأمثالهم ممَّن استحوذَ عليهم الغُرُور فتوهَّمُوا أنَّهم طبقة أرقى مِنَ النّاس أو أنَّهم صارُوا في غنى عن النّاس.

ويلٌ لهم لأنَّهم باستسلامِهِم إلى الغرُور قطعُوا الطَّريق على أنفسِهِم فصار مِنَ العسير عليهم أنْ ينفعُوا أنفسهم أو ينفعُوا سواهم. وصارُوا لوقوفهم عند هذا الحدِّ واكتفائِهِم بما نالُوه أشبه بالماء الجاري الذي وقف عن الجري فصار آسناً بعد أنْ كان عَذْباً. وعَكِراً بعد أنْ كان صافياً. ولا يشربُ الماء الآسن[4] أحد مهما بَرَّح[5] به العطش ولا يبتهج بمرأى الماء العكر أحد إلاّ إذا كان لم يَرَ الماء الصافي في حياته!

وويلُ النّاس مِنْ هؤلاء لأنَّ الذين يتوهَّمُون أنفسهم فوق النّاس أو أرقى مِنَ النّاس هم خطرٌ على

---

1 وَيْلٌ: كلمة مثل وَيْحٌ إلاَّ أنَّها كلمة عذاب يقال وَيْلَه ووَيْلَكَ وَوَيْلي وفي النُّدْبَة ويلاه وتقول وَيْلٌ لزيدٍ وويلاً لِزيدٍ فالرَّفع على الإبتداء والنَّصب على إضمار فِعْل.

2 الغُرور ما اغتُرَّ به من مَتاع الدُّنيا.

3 الذَّكاء ممدودٌ حِدَّة القَلْب.

4 أَسِنَ: الآسِن من الماء مثل الآجِن وقد أَسَنَ من باب ضرب والآجِنِ الماء المتغيِّر الطَّعْم واللَّوْن.

5 بَرَّح به الأمر تَبريحاً أي جَهَدَهُ.

النّاسِ. وقِدْوَة[1] سيئة لغيرِهِم. ولا سيَّما[2] إذا تساهل النّاس معهم ووافقوهُم في غرورهِم ولو مصانعَة ومسايرَة.

يجب لفائدَة هؤلاء المغرُورين أنْ يجابهَهُم النّاس بالحقائق فيفهمونهم أنَّهم عالة على النّاس وأنَّهم طبُول جوفَاء لو وخزتها إبرة لطار منها الهواء وانقطع دَويُّها.

إننا نَعْذِر مَنْ يَكْرَع خابيةً فيسْكَر ويُعَرْبِد ولكنَّنا لا نقدر أن نَعْذِر رجلاً يعربدُ على النّاس لأنَّه شرب عصير زَبيبَة[3]!!

ولا يمكننا إلاّ أنْ نعترفَ للنَّسر بقوَّة جناحيْه ولكنْ مِنَ الحماقَةِ والغَفْلة أنْ تَطِنَّ حولنا بَعُوضة فنعترفَ لها بأنَّها نَسْرٌ جبَّار أو أنَّها بُلْبُلٌ صدَّاح.

السَّمير: 6/ 11/ 1946

لِمَاذا!

جرى الحديث في مجلس عمَّا في الشَّرق العربي مِنَ الإمكانيات العظمَى وما في تلك البقاع مِنَ الكنوز الطَّبيعيَّة الدَّفينة تحت الثرى فقال أحدهم:

«لماذا والشرق على هذا الغنى الطبيعي وأهله موصُوفُون بالذَّكاء لا يزال متأخِّراً في كُلِّ مضمار ولا تزال كنوزه وخَيراتُهُ لغير سُكانه»؟

فحرَّكَ هذا السؤال أفكار الحاضرين فأجاب كُلُّ واحد عليه بما حضرَه وهذه خلاصتها:

قال **الأوّل**: «إنَّ السرَّ في ذلك هو أنَّ النّاس في ذلك الشَّطر مِنَ العالم يحرِّكُون ألسنتهِم كثيراً ولا يحرِّكُون عقولهم وأيديهم إلاّ قليلاً. ويعيشُون في الماضي السَّحيق[4] على رغبَة وهُيام ولا يعيشُون في الحاضر إلاّ على كَرْه[5] وإرغام».

وقال **الثاني**: «إنَّ السَّبب في بقاء الشَّرق العربي في حالة عَجْز واسْتسلام هو تعبُّد العامَّة للحكَّام والزُّعمَاء الإقطاعيين الذين يعيشُون في بُلَهْنِيَّة[6] خَرْقاء[7] وفخفخة جوفاء.

---

1 القِدْوَة الأُسْوَةُ يقال فلان قِدْوَةٌ يُقتدى به وقد يُضَمّ فيقال لي بك قُدْوَةٌ وقِدْوَةٌ وقِدَةٌ.

2 لا سيّما كلمة يستثنى بها وهي مكوَّنة من سيّ وما ولك فيها النَّصب والجرّ.

3 زبَّب عِنبه تَزْبيباً جعله زَبيباً.

4 السَّحيق البعيد.

5 وأَقامه فلانٌ على كَرْهٍ أي أكرهه على القيام.

6 بلهنيّة خرقاء: البَلَهْنِيَّة الرَّخاء وسَعَة العيش، والخَرْقاء: المرأَةُ غيرُ الحاذِقة.

7 الدُّهماء: عامَّة النَّاس وسوادُهم ج دُهْم. والسَّواد من النَّاسِ معظمهم.

وقال **الثالث**: «إنَّ السَّبب الأكبر هو الجهل في الزُّعماء والغبَاوة في الدَّهْماء[1]. فإنْ لم ينتشر العلم في سائر طبقَات الشَّعب فلا سبيل إلى التقدُّم والرُّقي. ولا دوام لنعمَة. ولا وصُول إلى غايَة. لأنَّ الجاهل كُتْلَة مِنْ لحم وعَظْم بل هو صنَم متحرِّك وحَسْبُ وما أشقَى الأمَّة التي يكثُر فيها هؤلاء الأَصْنام.

وقال **الرابع**: «إنَّ السَّبب الأكبر هو استرسال الشَّرقيِّين مع الخيَال الذي يطير بهم إمَّا إلى وراء الحياة وإمَّا إلى ما فوق الكائنَات فتراهُم يشاهدُون الأرض تبُور وهم يغنُّون ويهزجُون كأنَّ بَوار[2] الأرض شيء حسن ومشهد جميل أو كأنَّ الأرض التي تبُور وتعْقُم[3] ليسَتْ لهم!

وقال **الخامس**: «بل العصبيَّة[4] هي روح القبليَّة المتملِّكَة في النفُوس فإنَّ على كُلِّ قرية تحسَب ذاتها وطناً مستقلاً ذاتَ سيادة! وكل عائلة تتوهَّم أنَّها الشَّعب كلُّه! وكلَّ طائفَة منكمشة ذاتها انكماش السُّلْحفاة في صدَفتِها.

إنَّ هذه الحَلَقات المفكَّكَة المُبعثرة لا يمكن أنْ تنتظم عِقْداً وإنْ كانَتْ كلّها مِنْ ذهب حيثما تفشَّى هذه الرُّوح تتخلخل مفاصِل الأمَّة. وتَنْطَمِس الأهليَّة والكفاءَة وتروجُ المحسوبيَّة. وتنتشر الزُّلفَى[5]».

السَّمير: 9/ 12/ 1946

مَنْ يرثُ الأرض

الوُدعاء أم الجُرذان أو الصَّراصير؟

مَنْ يرثُ الأرض؟

أنت أيها القارِيء مِثلي تؤمنُ بأنَّ الوُدَعَاء هم الذين سيرثُون الأرض كما قال النَّاصريّ.

وأنت مثلي متشبِّث بهذا الإيمان لأنَّه يخلُق في نفسِك غِبْطة ولا سيَّما إذا لم تكنْ مِنْ أولئك الذين يزعمُون أنَّ الأرض للأقوياء وأنَّ الدُّنيا لا يرثُها غير الجبابرة الطُّغاة.

ولا شكَّ في أنَّ رياح الفلسفة «النيتشيَّة» لم تزعزع إيمانك هذا. وكيف تزعزعه وقد رأيْتَ ما فعلَتْ

---

1 الكُتْلَة: القطعة من الصمغ وغيره.

2 بارَتِ الأَرض تُركَتْ مدَّة دون أن تُحْرَث لتُزْرَع.

3 عقِمت المرأة أو الرَّجل عقماً كان بها أو به ما يحول دون النَّسْلِ من داءٍ أو شيخوخة فهو عقيم ج عُقَماء ويقال ريحٌ عقيم لم تأْتِ بمطر.

4 العَصَبيَّة: التَّحمُّس للرَّأي والمدافعة عنه.

5 الزُّلْفى: القُرْبَة والمنزلة.

هذه الفلسفة الهوجَاء أَضَرَّت بالشَّعب الألماني وذلك عندما اعتنقَها وحاول أنْ يجعلها دُستوراً لحياتِه فكانَتْ السُّمَّ الذي أودى بحياتِه.

ولكن اليوم تهبُّ عاصفة جديدة على هذا الإيمان في نفسِك وفي نفسي. تهبُّ لا مِنْ كتاب الفيلسُوف الألماني المجنون ولا مِنْ حانة هتلر في مونيخ بل مِنْ محاضرة لعالِم أميركي في جامعة هارفرد اسمه الفرد سومر ألقاها بمناسبَة الإحتفال بمرور نصف قرن على جامعة برنستون. فقد زعم هذا العالِم أنَّ الإنسان لن يرثَ الأرض. بل سيرثها الفئران والجُرْذان وغيرها مِنَ الحيوانَات الحقيرة التي يقول هذا العالِم أنَّها سترقَى وتعظم وتسيطر على الأرض.

أمَّا الإنسان فيقول هذا العالم أنَّه قد استوفَى نصيبَه مِنَ النُّشوء والإرتقاء والتَّطوُّر وهو الآن سائِر إلى الإنقراض كما يدلُّنا التَّاريخ. فإنَّ الأحياء التي ارتقَتْ قبل سواها إنقرضَتْ قبل سواها!

وضرَب مثلاً على صحَّة نظريَّته فقال «لو كنَّا دينوسورات أيَّام كانت الدِّينوسورات في إبَّان عظمتها لكنَّا نفكِّر مثلها لو كانت لنا أدمغَة تفكِّر. على أنَّ الدينوسور قد إندثَرَ أمَّا سنة النشوء والإرتقاء فَبَاقيَة.

بالطَّبع إنَّ الإنسان إذا صدقَتْ نظريَّة هذا العالِم لنْ ينقرضَ في شهر ولا في سنَة ولا في جيل ولا في عصُور. وربَّما كانت نظريَّته خطأ في خطأ ولكنَّها مع ذلك نظريَّة مزعجَة تشوِّشُ إيمانك وإيماني بأنَّ الإنسان سيرثُ الأرض ولا سيَّما إذا كان مِنَ الوُدَعَاء.

وهي نظريَّة بشعة لا شيء مِنَ التَّعزيَة فيها. فأيّ جمال في الأرض يبقى إذا انقرضَ البشر وانتشرَتْ فيها الجُرْذان والفئران والصَّراصير والخنافس!

لو أنَّ هذا العالِم اكتفَى بالقول إنَّ الإنسان سينقرض كما انقرضَ الدينوسور لكان الخَطْب محمولاً على النَّاس لأنَّهم يعلمُون أنَّ كل ما عليها فانٍ ولا يبقَى غير وجه ربّك ذي الجلال ولكنَّه عزَّ عليه أنْ تبقَى الأرض غير مأهولَة فلم يجد غير الجُرْذان يورِّثها الأرض.

لو كانَتْ الجُرْذان والصَّراصيْر والجِعْلان[1] تقرأ لصفَّقَتْ طرباً ولكانَتْ طفرتْ إلى الإرتقاء واختصرَتْ الزَّمن كثيراً.

ولكن محاضرة هذا الإنسان لم يسمعها ولم يفهمها غير الإنسان فلم تطربْ الجُرْذان والجِعْلان أمَّا الإنسان فقد شعر بالحزن وذلك قبل الأوان!! ولم يبقَ له ما يعزِّيه غير الرُّجُوع إلى الآية القائلة: طوبى للوُدَعَاء فإنَّهُم يرثون الأرض!

فالمقصُود بالوُدَعَاء في نظرنا البَشَر لا الخنافِس.

السَّمير: 7/ 1/ 1947

---

1 الجُعَل حيوان كالخُنفَساء يكثر في المواضع النديَّة ج جِعْلان.

حكاية ملفقة

اكثر ما تؤكِّد الحكايات الملفَّقَة وتجري على الألسُن كأنَّها أمُور واقعة في القُرى البعيدَة عن العُمْران التي لا يَشْغَلُ أهلها شاغل مِنْ صناعَة رائجَة أو زراعَة ناميَة. وليس لهُم بالعالم الخارج غير إتِّصَال ضئيل متقطِّع كلمع البرُوق. فالنَّاس في وسط مثل هذا يُمسُون وشأنهُم في الحوادث البعيدَة والأشخاص الغائبِين كجماعة العُمْيان والفيل. يخبطُون في تصوُّر الأشياء خبْطَ عشواء[1].

ومِنْ هذا النَّوع الحكاية الطريفَة الي سمعَها «البدوي الملثَّم» عن صاحبِ «السَّمير» في قرية مِنْ قرى شرق الأُرْدُنّ[2].

ومثل هذه حكاية طابَ للأستاذ حنَّا خباز أنْ يلفِّقَها عن صاحبِ «السَّمير» أيضاً. وهي مثل حكاية البدوي الملثَّم في بُعدِها عن الواقِع.

وإذا نحن عذرْنَا قروياً مُنكمشاً في قرية مُنزويَة عن التَّورُّط في هذا النوع مِنَ التَّصوُّر الخاطيء فلا نَقْدِر أنْ نعذرَ رجلاً مِنْ رجال القلم مثل الأستاذ حنَّا خبَّاز لا سيَّما وهو قد زار الولايات المتَّحدَة وكان له بصاحب «السَّمير» معرفَة وله بغيْرِه مِنَ النَّاس هنا اتِّصَال.

إنَّ الحكاية الأولى قد ظهرَتْ وصارَ علينَا أنْ نَنْفيَها ونَرُدَّ راويها إلى الصَّواب أمَّا حكاية الخبَّاز فلا تزال في عالم المَخاض[3] ولم يعلم بها إلاّ قليلُون ممَّن لذَّ للخبَّاز أنْ يقصَّها على مسامعهِم.

وقد إتَّصَل بنا خبرها مِنْ صديقٍ لنا في مصر فضحكنْا وقلنا إذا كانَتْ روايات الخبَّاز كُلّها في رحلتِه حول الأرض مِنْ نوع الحكاية التي لَفَّقَها عن صاحبِ «السَّمير» فكلُّ ما رواه لا قيمة له ولا يمتُّ إلى الحقيقة بصلَة.

أمَّا حكاية «البدوي الملثَّم» فما كنَّا لنعيرها أقلَّ اهتمام لو لم تكن قد ظهرَتْ مطبوعَة في مجلة «الضَّاد» الحلبيَّة. ولو لم يكن ناقلها قد دخل عليه الوَهْم إنَّ فيها شيئاً مِنَ الصِّحَّة...

وما ننشرها نحن إلاّ لإطِّلاع النّاس هنا على ما في خيال النّاس هناك مِنْ جُمُوح واعوجَاج حتى في حكاياتِهم عن الأحياء. فإنْ لم يكن في معرفة هذا الأمر فائدَة فلا شكَّ أنَّ فيه تفكهَة. وما أحوج النَّاس في هذه الأيَّام التي يرتعش فيها العالم ارتعاش المحمُوم إلى شيءٍ مِنَ التفكهة!

وهذه هي الحكاية وهي مكتوبة بقلم الأديب الأردني الكبير البدويّ المُلَثَّم وقد نشرت في مجلة «الضاد» الحلبيَّة وذلك تحت عنوان: **«تاريخ ما أهمله التَّاريخ»**.

---

1 خبط عَشْواء: العَشْواء الظُّلْمة ويقال هو يَخبط خَبْط عَشْواء يعمل على غير هُدًى فيخطِئ ويصيب.

2 الأرْدَنّ بشدِّ النون كورة بالشَّام وأصبحت فما بعد مملكة مستَقِلّة ألا وهي المملكة الهاشمية.

3 المَخاض بالفتح وجع الوِلادَة. ومَخضَ الدَّهْر بالفتنة أتى بها.

قال الكاتب: يخيّل إلى الكثيرين مِنْ حملَة الأقلام أنَّ الشّاعر السّاحر الأستاذ إيليّا أبو ماضي كان في طليعَة مِنْ أمَّ المهجر مِنْ أدبائِنا الأحرار الذين ركبُوا البَحْر صوناً للكرامَات. وإبقاء على الحُرُمَات [1].
وقد عبَّر نابغة الشعر العربي الحديث المرحُوم فوزي المعلُوف عمَّا يعتلجُ في صدر هذا الرَّعيل الحُرّ بقولِه:

مهما يَجُرْ وطني عليَّ وأهلُهُ ... فالأهل أهلي والبلادُ بلادي
أرثي لبؤسهمُ فأندب حالهمْ ... بفمي وأرثي حظهم بمِدادي
لكن أنفت بأنْ أعيش بموطني ... عبداً وكنت به مِنَ الأسياد

أقول: يخيَّل إلى كثيرين مِنَ المتأدِّبين وحمَلَة الأقلام أنَّ صاحب «الجداول» و«الخمائل» و«السَّمير» عندما ودَّع لبنان وركبَ غارب [2] الموج إلى الأندلس الجديدة كان يقصد من وراء ذلك استرواح شذا بلد تسوده الحريَّة ولا يعرف بنُوه للطُّغيان لوناً أو للظلم مَذاقاً...!
غير أنَّ الدَّهشة تتولَّى القاريء الكريم عندما يقرأ في عجالتي هذه أنَّ «أبا ماضي» كان في طليعة الأحرار الذين ضربُوا في معسفَات [3] القفَار والصحارى طلباً للحرية.. وسعياً وراء تحرير بلاد العرب من الجَوْر فالتحقُوا بجيش التحرير العربي الذي كان يقودَه الثائر المتوثِّب الأمير فيصل بن الحسن» الملك فيصل فيما بعد.
قبل عامين على وجه التقريب التقيْتُ في قرية الزرقاء «مِنْ أعمال شرقي الأردن» بالسيد يوسف سماره الرِّيحاني وهو أحد عيُون بلدة «جرش» مِنْ أعمال لواء عجلُون ولمناسبة مؤاتيَة أنشدْتُ الجمع مِنْ شعر أبي ماضي قوله في قصيدته «ابتسم»:

قال: السَّماء كئيبة! وتجهَّما ... قلت: ابتسم يكفي التَّجهُّم في السَّما
قال: الصِّبا ولَّى! فقلت له: ابتسم ... لن يرجع الأسف الصِّبا المتصرِّما
قال: العدى حولي علَتْ صيحاتهم ... أأُسَرُّ والأعداء حولي في الحِمَى؟
قلت: ابتسم. لم يطلبُوكَ بذمِّهِم ... لو لم تكن منهُم أجَلَّ وأعظَما

* * *

قال: الليالي جرَّعتني عَلْقماً! ... قلت: ابتسم ولئن جرعْتَ العَلْقما
فلعلَّ غيرك إنْ رآك مرنِّما ... طَرح الكآبة جانباً وترنَّما

فاستوى الريحاني في 1جلسته وطفقَ يسردُ لنا قصَّة إنضمام صاحب «السَّمير» إلى صفُوف

---

1 الحُرْمة ما لا يحلّ انتهاكه ج حُرُمات.
2 الغارب: أَعْلى كُلِّ شيءٍ ج غوارِب وغواربُ الماءِ أَعْلى مَوْجِهِ.
3 عَسَفَ عن الطريق مال وعَدَلَ.

المتطوّعين في الثورة العربيّة وانضوائِه تحت لواء الأمير فيصل بن الحسين. وهنا استوَيْتُ في جلستي وأخذت كآلة اللاسلكي اللاّقطة أسجّلُ ما رواه القاص عن (أبو ماضي).

وحرصاً مِنّي على التّاريخ وأخباره أجْمل ذلك الحديث برسم (الضّاد) العزيزة وأتمَنّى أنْ يكتب لهذا العدد (السلامة والإستقرار) في يد (إيليّا أبو ماضي) ليطالع هذه الرواية ويبادِرُ إلى تصويبِها وتقويم ما اعوَجّ منها إذ أنّ ما يضاعف شكوكي وظنُوني أن (إيليّا أبو ماضي) غادر مصر إلى المهجر عائدا 1911 والفارق بين هذا العام والعام الذي أعلن فيه العرب الثورة على الأتراك خمس سنوات فتأمَّل يا عزيزي القاريء الكريم هذا التّبايُن... واحكُم!

غير أنّني رغم هذه (البلبَلَة) أسجّلُ على صفحات (الضّاد) ما رواه السيد يوسف سمارَه الريحاني في الزرقاء قبل عامين متأسياً بالآية الذهبيّة «ناقل الكفر ليس بكافر» وإليكم ما روى موجزاً:

«... كنتُ عام 1917 ضابط إرتباط في جبل الدُّروز وقد نزلْتُ يوماً إلى قرية (ملح) وهي في القرن الجنوبي وتحت زعامَة الأطارشَة (فرقة نجم) وحلَلْتُ ضيفاً على أسرة (أبو صعب) وزعيمها عهد ذاك يوسف أبو جمرة. وبعد أن استقرّ بي المقام أخذ الحاضرون يشيدُون بوطنيّة «أبي ماضي». ويشهدون بسمُوّ خلاله ونوازعه القوميّة... (وللكلام بقيّة[1]).

ليس للفِكْرة مذهَب

عندما يأتيك رجل بتحفَة صناعيّة جميلَة أو بحجرٍ كريم مِنَ الجَواهر الثّمينَة. أو بصورةٍ رائعَة أفتقُول له: ما مذهب هذه التحفَة؟ أم إلى أيِّ طائفَة ينتمي هذا الحجر الكريم؟ أم في مَهْد أيّ طائفَة

---

1 لقد كان أبو ماضي يشعر بالأسى والحزن من جرّاء سماعه في أكثر من مرّة لحكايات ملفّقة رويت عنه ومنها ما طال سَمْعَتَه الشعريّة وما أكثرها ولكِنّه كان يواجه هؤلاء المفترين على سمعته وأدَبه بابتسامة عريضة ولسان ساخرٍ لاذعٍ لا يهادِن ولا يرحم.

فأبو ماضي بعدما نظم قصيدته الشهيرة «الطلاسم» وجد الأديب الأردني روكز بن زائد العزيزي يتّهمه بسرقة أكثر معاني قصيدته الخالدة تلك عن شاعر عاش في الصحراء الأردنية حسب ما زعم روكز بن زائد العزيزي كما سمّاه أبو ماضي قد التقى بذلك الشّاعر البدويّ فلمّا أسمعه بعض أشعاره اقتبسها أبو ماضي وأدْخَل بعض معانيها في بعض معاني قصيدته «الطلاسم». وهذا الزعم في نظرنا زعم مرفوض جملة وتفضيلاً وتفصيلاً.

وقد تحدّثنا في كتابنا الذي اصدرناه تحت عنوان إيليا أبو ماضي ـ حياته ـ شعره ـ نثره ـ في فصل مستقل عن هذه الاتهامات الباطلة وهي اتهامات كان لها أثر عميق في نفسية أبي ماضي وهو أثر جعله يشعر بكثير من الحزن والأسى والعَتَب الذي نلمح بوادره جليّة واضحة في أكثر قصائده وخاصة قصيدته الشهيرة «ابتسم» وهو القائل فيها:

قال السمـــاء كئيبــةً وتجهّمَـــا   قلتُ ابتسم يكفي التجهّم في السّما

ولدَتْ هذه الصورة النفيسَة البديعَة؟

أم أَراكَ تنكر قيمَة التحفَة وتميل بوجهِك عن الجوهرَة والصورة لأنَّها لا سِمَة لمذهب عليها.

أم أَراكَ تستهجنها وتستقبحُها لأنَّ الذي صنعَها أو الذي جاء بها إليك لم يولد في المذهب الذي ولدْتَ أنت فيه؟!

إنَّك لا تفعل شيئاً مِنْ هذا لأنَّك إنسان عاقل مدرك تفهم أنَّ الفن كالعلم لا دينَ له. وهو لا دين له لأنَّه صُور الحياة. فكيف يكون لصورة القمر في اللَّيل مذهب وليس للقمر نفسه مذهب؟ ومثل صورة القمر صورة أيِّ شيء آخر.

ولا شكَّ في أنَّك تستنكر أنْ يفعل إنسان ما لا تفعلَه أنت في هذا المَقام. وتعدَّه بين الحَمْقَى والمغفَّلين الذين طمسَ الجهل على قلوبِهِم وأبصارهم فصارُوا في مرتبَة لا هي إنسانيَّة راقيَة ولا حيوانيَّة سافلَة.

إنَّك لا تقدِّرَ قدر الجَواهر والمعادن الكريمَة مثل الألماس والذهب والفضة وغيرها ولا يغضُّ مِنْ منزلتها عندك أنَّها ولِدَتْ في باطِنِ الأرض بين الأوحال والدِّيدان.

لذلك لا يجدرُ بك ولا نحسبكَ تسوِّغ لنفسِك احتقار الفكرة الجميلَة لمجرَّد أنَّها ولدَتْ في كوخ حقير أو جاءَتْ مِنْ إنسان غير غني ولا جميل ولا قوي.

وأقبح مِنْ هذا أنْ تحتقرَها لأنَّ الذي يؤدِّيها إليك ليس مِنْ مذهبِك أو طائفتك فإنَّك بذلك تسدُّ على ذاتِك الطَّريق إلى المعرفَة وتضربَ حول عقلك وروحك نطاقاً دونَه الفولاذ في صلابتِه وسمكه. وتكون أشبه بدودة القز التي تحوك أكفانها بذاتِها...

فأذكر هذا الأمر. وأذكر معه أنَّك أنت قد يكون لديك فكرة جميلة تريد أنْ تؤدِّيها فإذا نظر النّاس إليك وإليها على طريقتِك فكيف تنتشر فكرتك وكيف يتاح لك أن تؤدِّيها؟!

أَحْبب الفكرة الجميلة كما تحب الزهرة الفوَّاحَة المتألِّقَة. وكما تحبّ الشَّجرة في أوراقها الخضراء وأثمارها الشَّهيَّة. وكما تحب النُّجُوم التي تسطع وتلمَع في الأفق.

خذوا الحكمة مِنْ أيِّ المصادر جاءت. واطلبُوها في أيِّ مكان وجدَتْ وسيرُوا إليها في كُلِّ سبيل تنفتحُ عليه عيونكم.

وليذكرْ كُلُّ إنسان هذه الحقيقة وهي أنَّه لم يختر مكان ولادته ولا مذهبه ففي هذه الذِّكْرى فوائد جَمَّة [1] للبشريَّة لأنَّها تقرّب الإنسان مِنْ أخيْه الإنسان. ولا تتِمّ فائدة الإنسان في الدُّنيا إلاّ بإنسان.

السّمير: 24/ 3/ 1947

1 الجَمُّ الكثير.

أشواك وأزهار

النَّاس كالنَّبت فيه الشَّوك والزَّهر.

أي إنَّ فيهم الخيِّر وغير الخيِّر. والجيِّد والرديء.

ومِنْ علامة الخيِّر أنَّه ينظرَ في عيوبِهِ قبل عيوب النّاس وإذا لاحَتْ له عيوبُ النّاس كفَّ عنها بصره وأمسك لسانه.

ومِنْ علامة الرديء أنَّه ينسَى ما فيه مِنْ عيوب ويمضي يتطلَّع هنا وهناك. في الظَّاهر والخفاء لعلَّه يجد عيباً يعلنه أو قبيحاً يتحدَّث به قاعداً وقائماً. ويَلْغَطُ به مع أصحابه ومع غير أصحابه.

ولكن حتى هذا الإنسان ليس شرّاً كلَّه وليس عمله ضرراً كلّه. بل هو ينفعُ مِنْ حيث يقصد الضَّرر ويحسنُ مِنْ حيث يسعَى للإساءَة.

إنَّ النَّار تحرق عود النَّدّ[1] ولكنَّها في الوَقْت ذاته تنشر أريجه[2] الذَّكي الطيِّب.

تتصاعد الرَّوائح الكريهة المؤذيَة مِنْ مستنقع أو بؤرة يحمل النَّاس على اتّقائِها فيهربُون مِنْ ذلك المكان إلى سواه أو أنَّهم يتعاونُون على طمر المستنقَع وتحويله إلى حديقة غنَّاء أو إلى سهل لا روائح كريهة فيه.

لكل شيء نفعه. جَلّ[3] أم قَلْ.

ولكن هذا لا يعني أنْ يستمرَّ القبيح قبيحاً وفي وسعِهِ أنْ يكونَ جميلاً.

كما أنَّه لا يعني أنَّه يجب أنْ تكونَ في الأرض مستنقعات لكي ينشيء النَّاس الجنائن والحدائق.

وإنَّما ضربنَا هذه الأمثال لكي نَرُدّ الإيمان إلى بعض النفوس التي يستولي عليها اليأس مِنْ صلاح البشريَّة كلَّما رأتْ شرّاً في الأرض.

وإنَّما نحن نضرب هذه الأمثال لكي يَسْهُلَ على النّاس أنْ يروا البطانة[4] الفضيَّة[5] وراء كل غَمَامة سوداء. وأنْ يتوقَّعُوا المطر الذي يحيي السهول كلَّما تلبَّد الفضاء بالغيوم الدَّكناء.

فنَحْن نضربُ هذه الأمثال لكي نخلق الرَّحمة في قلوب الأخيار على الأشرار لأنَّ هؤلاء ما صارُوا أشراراً لأنَّهم أرادُوا أنْ يصيرُوا كما أنَّ الشَّوك لم يَصِرْ شوكاً لأنَّه أراد وإنَّما هناك أسباب وعوامل منها

---

1 عُوْد النَّدّ: والنَّد الطِّيب غير عربيّ.

2 الأريج توهج ريح الطِّيب.

3 جَلّ فلانٌ يَجِلّ جلالة أي عَظُمَ قدره فهو جليل.

4 البِطانة: ما يبطَّن به الثَّوب.

5 الفِضَّة من أكثر المواد توصيلاً للحرارة والكهرباء وهو من الجواهر النَّفيسة التي تستخدم في سَكّ النُّقود.

الخفيَ ومنها الظَّاهر تجمَّعَتْ كلَّها فنشأ عنها ما نراه ونحسبه قبحاً ودمامَة أو شراً وخَساسَة [1].

إنَّ كُلَّ إنسان مسؤول عن أعمالِه وأقواله على أنَّ المجتمع مسؤول عن كلِّ فرد مِنْ أفرادِه. وعليه أنْ يكافِيء الفضيلَة مثلما يعاقب الرَّذيلَة. وبذلك تصلُح البشريَّة وينتشر الجمال في نواحي الحياة.

السَّمير: 8/ 4/ 1947

ناسِكُ الشَّخْرُوب

كان صديقنا مخائيل نعيمَة ناسكاً قبل أنْ آوى إلى الجبل. ولَكِنَّ صوت النَّاسك في المدينَة لا يَصِل إلى المسامع لشدَّة ما فيها مِنْ ضوضاء وصَخَب ولأنَّ أرواح النَّاس فيها كأوراق طائرَةٍ مع الرِّيح ليس في طاقتِها الوقُوف لاستماع أحاديث النُسَّاك. وكأنَّنا بالنُّعيمَه خشي على نفسِه أنْ تصدأ في المدينة ويصير الغُبار والدُّخان لها لباساً فلا تعود صَقِيلَة لامعَة ولا يعود هو يراها. فصَفَّقَ بجناحَيْه وطار واستقرَّ في بسكنتَا الجاثمَة على صدر صنِّين حيث لا غبار ولا دُخان ولا ضوضاء. فكان موفَّقاً في ما اختار لنفسِه. فَلِكُلٍّ صورة أفقها الذي لا تَتِمّ روعتِها إلاّ به. وليس للنَّاسك أفق مثل الجبل فَعَن الجبل تحدَّرَتْ الوصايا. وفي الجبل غلبَ يسوع الشّيطان. وإلى الجبل يلجأ الخائفُون ولا يلجأ الجبل إلى غيرِ ذاتِه.

وبينما النَّاس في المدينة يدورُون كدواليب النَّاعورَة واحداً إثر واحد يحملُون الماء قليلاً ثم يفرغونه ليعودُوا إلى إفراغه وهم في عطَشٍ مضنك مذيب كان مخائيل نُعَيمَة يعمل في كوخِه الهاديء بلا انقطاع والنَّاس يظنُّون أنَّه بطَّال لا يحسن العمل ولا يحبُّه وكذلك تبدو الأرض الجرداء للعيُون في أيَّام الشِّتاء غير أنَّها وهي في حالة الهمود والجمُود تهيء للناس الزَّهر والبقل والعشب وهم عنها غافِلُون.

أجل إنَّ النُّعيمَة كان في عزلتِه في دأب كما كان وهو في المدينة الصخَّابَة يتلمَّس المعرفَة في الأشياء والنَّاس والزَّمان ويكاد لشدَّة ما بِهِ مِنْ شوق يغرق في كل شيء لعلَّه يهتدي إلى نفسِه. أو لعلَّ الغير يهتدُون إليه فهو ذو نزعة نسكيَّة تَرْمِي إلى محو الفوارق والحدُود التي تواضعَ النَّاس عليها منذ كانُوا. وقد بثَّ هذه الفكرة في أكثر الكتب التي أخرجَها وهي «البيادر» «وكرم على درب» و«لقاء» و«الأوثان» ومجموعة قصائد له دعاها «هَمْس الجفُون» وهذه أحدث مؤلَّفاته بعد «المراحل» وكتابه عن جبران وقد صدر في السَّنوات الأولى بعد استقراره في بسكنتا.

وقد تلطَّف فأهدى إلينا مؤلَّفاته الأخيرة التي أحسنَ فيها التأليف بين خيال الشَّاعر وحكمة المفكِّر. وسَنُتْحف القرَّاء بشيء مِنْ محتوياتِها ليعلموا أنَّ هذا النَّاسك الذي هجر النَّاس ما اختار العزلَة إلاّ لكي يعمل لخير النّاس.

السَّمير: 25/ 4/ 1947

---

1 الخِسيسُ الدَّنيء.

الآلات والنّاس

للآلات كالنّاس آجال.

وتعتري الآلات العلَل كما تعتري الأحياء.

ولكن بعض المرضَى تساعفُهُم الظرُوف وتتوافر لهم الوسائِل الملائِمَة فيُشْفَوْن.

وبعضهُم يقتلهم جهل الطَّبيب قبل الأوان وقد ظنَّ علَّتهم مِنَ العِلَلْ العاديَّة.

لَمَّا بُلِيَتْ مطبعة «السَّمير» بعد الإنحطام الأول الملبّك لها «بأطبّاء» إنتهازيّين يستغلُّون مصائب الغير فكان رأيهم غير موفَّق. وكان علاجهُم غير مصحُوب بطهارة الذمَّة فبقيَتْ العلَّة بل استفحَلَتْ وذهبَتْ النَّفقَات الباهظَة التي تكبَّدنَاها ضياعاً. ورجعنا إلى التَّلبُّك الذي كنَّا فيه منذ انحطمَتْ المطبعَة لأوَّل مرَّة.

وكان الأُسْبوع الماضي فلم نتمكَّن مِنْ إصدار «السَّمير» إلاّ في اليومين الأوَّلَيْن - الإثنين والثلاثاء ثم رزَحَتْ المطبعَة كما يرزح البعير خارَتْ قواه.

ولَمَّا كُنَّا نخشى أنْ يتكرَّرَ هذا الحادث ولا وجُود لمطبعَة قريبة في بروكلِن تستطيع إصدار «السَّمير» بصورة منتظَمَة فقد إتَّفقنَا مع مطبعَة أميركيَّة في نيويورك إلى أنْ نتمكَّن مِنْ شراء مطبعة جديدة أو مِنْ إصلاح مطبعتنا إصلاحاً مضموناً. والأمر الثاني أقربُ منالاً لأنَّ شراء مطبعَة جديدة غير ميسُور في الوَقْت الحاضِر لأنَّ فبَارك المطابع لا تضمن تسليم أيَّة مطبعَة جديدة إلاّ في خلال سنتين.

والسَّبب في ندورة المطابع هو نفس السَّبب في ندُورة الآلات الأخرى بل أنَّ المطابع أعزُّ منالاً مِنْ سواها لأنَّ جيراننا في الجمهوريَّات اللاَّتينيَّة وسواهُم كنسُوا المطابع كنساً مِنْ أسواق الولايات المتحدَة الجديد منها والقديم.

هذا هو الأمر الواقع بسطنَاه لأنَصار «السَّمير» ومحِبِّيْها لكي يكونُوا على ثقة مِنْ أنَّنا لا ندَّخِر وُسْعاً في سبيل استبقاء هذه الغَرْسة الأدبيَّة في المهجر ناميَة لا سيَّما وأنَّ لهم الفضل في نموِّها وازدهارها والواجب يقضي علينا نحن القائمين على العناية بها أنْ لا نفرِّطَ في عهد موضُوع في عنقِنا.

وبالطَّبع إنَّ رسائل كثيرة سيتأخَّر دَرْجُها [1] مِنْ وراء هذا التلبُّك. فنرجو المعذرة مِنْ أصحابِها كما نتوقَّع مِنْ نصرائِنا أنْ يكونُوا لنا في هذه الظُروف نِعْمَ الأعوان على الزَّمان ففي الشَّدائد يُعْرَفُ الصَّديق الصَّادق مِنَ الصَّديق المَاذق [2].

---

1 دَرَج الشيءَ في الشيء أدخله في اثنائِه ويقال نحن درج يديك طوع يديك وانفذته في دَرْج كتابي: في طَيّهِ.

2 مَذَق الوُدَّ أي لم يُخلِصه من باب نَصَر فهو مذّاق ومُماذِق أيّ غير مُخلِص.

ستظهر «السَّمير» بستِ صفحات كبيرة تتَّسع لكلٍّ ما كانت تحمله وهي ثماني صفحات وأكثر وتستمر على هذه الحالة إلى أنْ تنفرجَ الأَزْمة التي نحن فيها. وقد اضطرَّتنَا هذه الحالة إلى استخدَام عامل جديد لنقل الأطوَاق إلى نيويورك ونقل الجريدة مِنْ نيويورك إلى بروكلن. فضلاً عن المشاق التي تصاحب هذه الحالة الشاذَّة. وكلُّ هذا هيِّن عندنا ما دامَتْ «السَّمير» حاصلَة على رضَى الأنصار وثقتهم ومحبَّتهم.

السَّمير: 20/ 5/ 1947

الضَّيف

ما مِنْ لغة في الأرض إلاّ وفيها كلمَة تُطلَقُ على الشخص الذي ينزل في دار غيرِه.إلاّ أنَّ لكلمة «ضيف» في اللغة العربيَّة معنى كبير لا يعثُر ذِهْنك [1] بمثلِه في مثلها عند الأمم الأخرى. لأنَّ للضَّيف عند العربي مقاماً فوق كُلِّ مقام وحرمَة يضحِّي في سبيل صيانتها بكلِّ مرتخص وغال.

ليس الضَّيف عند العرب زائراً يجب أنْ يُطعمَ ويسقَى وتُوفَّرُ له أسباب الرَّاحة فحَسْبُ بل يجب أنْ يُذَادَ عنه بالأرواح ويُصان بالمُهَج الغوالي.

للضيف ذمَّة ليست للجار وله حُرْمَةٌ ليسَتْ للإبن أو للأخ بل ربَّما ضُحِّيَ بالأخ في سبيل الضَّيف ولا يُضَحَّى بالضَّيف مِنْ أجل الأخ والإبن.

لمَّا وقعَ المُهلهَل في أسر الحارث بن عبَّاد وكان قد قتل ابنه قال له الحارث: دُلَّني على المُهلهَل!

قال المُهلهَل: ولي دمي.

قال الحارث: ولك دمك.

فأجابَه المُهلهَل: أنا هو طلبتك.

فأطلقَ سراحه وهو قاتل ابنه لأنَّه لم يبق بعد ذلك أسيراً بل ضيفاً.

وكلُّنا نذكر أنَّ الثورة في جبل الدروز طارَتْ شرارتها الأولى مِنْ أجل ضيف لجأ إلى الزَّعيم سلطان الأطرش وكانَتْ السُّلْطة تجدُّ في طلبِه فلم تراع حُرمَة المُضِيف بل كَبسَتْ منزل سلطان الأطرش للقبض على ذلك الضَّيف. وكان هذا الإعتداء على أقدس تقليد عند العرب مِنْ أكبر أسباب الثورة الهائِلَة. فكأنَّ سلطان الأطرش وأعوانه وسكَّان الجبل على بَكْرَةِ [2] أبيهم أدركُوا أنَّه إذا امْتُهِنَتْ كرامة الضَّيف عندهم ذهبَتْ كُلُّ كرامة لهم فثارُوا.

---

1 الذِّهن الفطنة الحفظ.

2 بَكْرَة: يقال جاءُوا على بَكْرَةِ أَبيهم أي جاءُوا كُلُّهم.

ومِنَ الأمثال التي تدلّ على أنّ حماية الضَّيف وإكرامه أمر مقدَّم على سواه عند العرب قولهُم في الرجل الذي لا يُرجَى لِمَكْرُمَةٍ ولا لدَفع أذى «لا للضيف ولا للسيف ولا لِغدَرَات الزَّمان».

فقدَّمُوا الضَّيف على حمل السَّيف للدِّفاع عن الشرف المصان. وقدَّمُوه على نُصْرَة البائسِين والمنكُوبين عند حلُول الكوارث.

السَّمير: 7/ 8/ 1947

ماذا رأيت وسمعت

الرجل البسَّام.

ليس في النّاس مَنْ لا يَبْتَسم في نهارِه أو ليله أو في وقتٍ ما. وليس في النّاس مَنْ لا يأنَس بالوجه البشُوش والثَّغر المبتسِم.

فإذا دعَوْتُ صديقي نقولا حداد شاهين الرجل البسَّام فلأنِّي ما نظرْتُ إليه مرة إلاّ ورأيْتُ وجهَه متهلِّلاً كريحَانَة الرَّبيع هكذا عرفتُه أنا منذ سنين وهكذا عرفَه جميع الذين إتَّصلُوا به فهْوَ فجر يمشي على قدمَين. ووترٌ في صداح مستمر.

جاء إلى أكرون في سيارتِه يريد مِنّي أنْ أرجعَ معه إلى كانتون فقلْتُ: بل نذهب إلى يونغستُون فنحن الآن على مقربَة مِنْ بُلبلٍ لزم الصَّمت حتى كاد ينسَى الشَّدْوَ والتَّرنُّم.

قال: من؟

قلت: الشَّاعر نبيه أبي سعد.

حاول نقولا أنْ يثنِيني عن عزمي لكي يستأثِرَ بي ولكن أنانيَّتي غلبَتْ أنانيته وما هي غير ساعة حتى كنَّا في ضواحي يونغستُون نبحثُ عن الشَّاعر المحجُوب لأنَّ اسْمِه التجاري غطَّى على اسمه. وأخيراً اهتدَيْنَا. وإذا بالشَّاعر يستقبلنا وهو حائِر يكاد يتَلَجلَجَ كأنَّه غير مصدِّق أنَّنا معه. حارَ كيف يرحِّبُ بنا! وحارَ ماذا يقدِّم لنا. أثماراً أم شراباً أم حلوى أمَّا نحن وبالأخص أنا فقد لمسْتُ وراء كُلِّ ذلك روْح الشَّاعر الكريم الذي يلذُّ له أنْ يهَبَ كُلَّ ما في نفسِه فلا يجدُ إلى ذلك سبيلاً فيستعيض عن غير المنظُور بالأشياء المنظُورة.

وجاء والد الشَّاعر وهو شيخٌ جليل له هِمَّة الشَّباب فكان شأنه معنا شأن فتاه. ثمَّ جاءَتْ قرينَة الشَّاعر فإذا نحن في مثلَّث مِنَ البشاشَة والولاء والشُّعُور الصافي.

وكانت زيارتنَا كزيارة أيِّ إنسان لرَوضٍ أغن أو نهر مترنِّم يقنع بأنْ يراه ويعود ليتحدَّث بأنَّه رآه.

وقد زرنَا بعض الأصدقاء في المدينة في ذهابنَا وإيابنَا ولم نمكث في يونغستُون غير ساعَات قليلة ثمَّ رجعنَا إلى أكرون وهناك افترقْنَا.

في الطَّريق إلى غراندرابيدس

وفي اليوم التالي ذهبْتُ إلى مدينة توليدو ومنها إلى غراندرابيدس مشغن في سيّارة الصَّديق مايك هاني وكان رفيقنَا بلبل الكنيسة الصدَّاح الأكسرخُوس غفرئيل برو وقبل أنْ ندخلَ إلى غراندرابيدس وقفْنَا عند نُهَيْرٍ مترقرِق تظلّلُه الأشجار الوارفَة فاستهوانِي خرير الماء كما استهوتْني السَّكينَة الغامرَة في ذلك المكان فقلت للأكسرخوس: هذا معبد لم يشيّدَه الإنسان. وأنت الآن كاهن هذا المعبد!

فاستضحَكَ وقال: وأين الرَّعيَّة؟

أجبته: أنا ومايك وأبناء السبيل!

وأطلْنَا الجلُوس على ضِفَّة الماء الجاري وإذا بـ«مايك» يصعد إلى السيّارة ويَهْتِف بنا: إنّي ذاهب إلى غراندرابيدس وسأعود عندما تنتهيَان مِنَ الثناء على الكنيسة في هذا المكان!

قلت: بل سترجع ويرجع معك جمع غفير إذا قرَّرنَا الإقامَة هنا. وارتفعَ صوت الأكسرخُوس في هذه البُقْعَة.

قال: إنَّ المساء سيدركنَا هنا.

قلنا: بل لن يدركنَا هنا.

وهكذا استأنفْنَا المسير إلى غراندرابيدس حيث جرَتْ سيامَة الأب الياس الخوري ارشمندريتيا في قدَّاس حبري حافل. وأُقيمَتْ بعد ذلك مأدبَة رائعَة في الفندق سيظهر وصفها في «السَّمير» بقلم مراسل أديب.

وتلتْها مأدبَة جميلَة في منزل فتى الجرأة والإقدام السيد اسكندر مالك وقرينته الفاضلة. حضرها رَهْطٌ كبيرٌ مِنْ أصدقاء الإسكندر في المدينة وخارجها.

وقضَيْتُ في غراندرابيس ثلاثة أيّام زرْتُ في خلالها صديقي الوفي التَّاجر البارز السيد عبد الله القسيس فأكرمَ وفادَتِي ومنْها ذهبْتُ في سيارتِه إلى غراندهافن مشغن لأزور الأديب العربي الذي يرقُب سَيْرَ الحوادث والشؤون في العالم العربي مِنْ تلك البلدة النائيَة الهادئة كما يرقُبُ الفلَكيَّ النجُوم مِنْ قِمَّة جبل. عَنيْتُ الكاتب النَّاضج يوسف أحمد نجم الذي يعيش لغيرِه ـ ويظنَّه مَنْ ليس يعرفَه يعيش لذاتِه.

وصرَفْتُ في غراندهافن ليلة جاراً لإثنَيْن أحبُّهما وأعجب بهما هما: صديقي يوسف والبحيْرَة!

السَّمير: 14/ 8/ 1947

الغضب الجميل

كانَتْ الدُنيا منذ كانَتْ عراكاً وكفاحاً حيناً بين الإنسان وآفات الطَّبيعة مِنْ زلازل وأوبئة وطوفانَات وحرائق وزوابع. وحيناً بينَ الإنسان والحيوانات الضَّاريَة الفتَّاكَة ثمَّ بين الإنسان والإنسان.

وكان مِنْ نتائج هذا العِراك العنيف الذي لم ينقطع أنَّ البشريَّة ضَمِنَتْ لذاتِها البقاء على الأرض. ولكنَّها ضَمِنَتْ مع بقائِها بقاء أشياء كثيرة هي مِنْ عيوبِها ومساوئها.

فالغضبُ هو في الإنسان نوعٌ مِنَ الجنُون ولكن أيُّ رجل عاقل لا يرى الفَضيلَة كُلَّ الفَضيلة في غَضَب الإنسان لحريَّتِه وكرامته. وفي غَضَب الأمَّة لحقوقِها ونَقْمتِها [1] على مضطهديها وسالبِيها.

إنَّ رجلاً لا يغضب للحقِ وهو حقَّه يُذبَح أمام عينيه وبين يديْه هو تمثال مِنْ خَشَب أو حَجَر لا رجل!

وإنَّ أمَّة تُظلَمُ وتُضطهد وتُهان وتُضربُ بالسِّياط وتَصبِر على هذا الذُّل ولا تغضب ولا تثور خيرٌ منها قطيع مِنَ الماشيَة.

والغَضَب فضيلة بل شيمَة نبيلة في مواقف كثيرة مثل غَضَب الرَّجل الكريم مِنْ تحرُّش وغد [2] زنيم [3] به وافتئاته عليه. ومثل غضب إنسان صادق مِنْ سماعِهِ الأكاذيب والتخرُّصَات [4] مِنْ عجوز ثرثارة أو منافق مأفُون [5] في حَقِّ هذا وذاك مِنَ النَّاس المشهُود لهم بالفضل وحُسن السيرة والتَّعالِي عن السَّفاسِف [6] والترَّهات [7].

يجب أنْ تغضبَ عندما يكون الغضبُ فيك على اعْوجَاج أو فَسَاد فهْوَ ثورة الحق فيك على الباطل في سواك. واحتجاجُ الفضيلَة عندك على الرَّذيلَة عند غيرك.

أنظر إلى الشَّجرة كيف تضطرب جذوعها عندما يتعلَّق بها ولد ليتأرجح أو لِيَكْسِرَ منها غُصْناً إنَّ اضطرابها هذا غَضَبٌ على ذلك العابث المُتهجِّم على سلامتِها وكرامتها!!

وانظر إلى ماء النَّهر كيف يتجعَّد ويتلوَّى إذا طرحْتَ فيه حجراً أو ألقيْتَ فيه خشبَة أنَّه قد تبدَّل في تلك اللحظة مِنْ سكينتِه هياجاً ومِنْ طلاقتِه تهجُّماً غضباً منك ونقمة عليك لأنَّك اعتديْتَ عليه

---

1 النِّقْمة بالكسر وبالفتح المكافأة بالعُقوبة ج نِقَمٌ.

2 الوَغْد: الرَّجل الدَّنيء الذي يخدم بطعام بطنِهِ.

3 الزَّنيم: المُسْتَلْحق في قوم ليس منهم لا يحتاج إليه فكأنَّه فيهم زَنَمَة وهو شيء يكون للمَعْز في أُذُنِها كالقُرْط.

4 التَّخرُّصات: تَخرَّص كَذَبَ.

5 مأفون: المأفون وهوا لضَّعيف العقل والرَّأي.

6 السَّفاسِف: السَّفْساف الرديء الحقير من كُلِّ شيء وعَمَلٌ ج سفَاسِف.

7 التُّرَّهات: التُّرَّهة الباطل والقول الخالي من نَفْع ج تُرَّهات.

وعبثَ به.

لو لم يغضب الإنسان مِنْ إيذاء الحيَّة إيَّاه لما فتَكَ بالحيَّات.

ولو لم يغضب مِنْ إعتداء الثَّعالب على كَرْمِه ودجاجه لما طاردَها ولعاشَ بلا عنب ولا دجاج وربَّما كان ذهب فريسة الثَّعالب!!

إذن فاغضب لحقِّك ولكرامتك ثمَّ اغضب لكلِّ حقٍّ وكرامة. تُثْبتُ أنَّك إنسان عيوف نبيل وتَصلُحُ الدُّنيا بأَمْثالِك!

السَّمير: 9/ 4/ 1948

العالم محتاج إلى الضَّحِك

لن يسعدَ العالم حتى يرجع إلى الضَّحِك. ولا يظنُّ القاريء أنَّ الحصُول على هذا الدَّواء أمرٌ سَهْل. فهْوَ في هذه الأيَّام أندر مِنْ أسنان الدَّجاج كما يقول الأميركيُّون وأعزُّ مِنْ بيض الأَنوق كما يقول العرب.

ولا نعني بالضَّحك أنْ يبتسمَ المرء ابتسامة باهتَة كُلّها تكلُّف وتصنُّع ولا أنْ يكشِّرَ عن أسنانِه ثمَّ يُطْبِقُ شفتيْه كالمحارَة[1] احتفاظاً بحشمتِه!...

لا. بل نَعني بالضَّحك أنْ يقهقهَ المرء حتى تسيل الدُّموع مِنْ عينيْه ويحُسُّ بالألم في خاصرتَيْه. وينسى في تلك اللَّحْظة كل شيء في الدُّنيا.

وأنَّ النَّاس كلهم محتاجُون إلى هذا النوع مِنَ الضَّحك لعلَّهم يَنْسَوْن المكُوس والضرائب ويَذْهَلُون عن الغلاء الكَاوي وأحاديث الحرب المقلقَة وينفصلُون ولو قليلاً عن همومِهم الشَّخصيَّة التي لا شيء يكشِفُ غيومها السَّوداء مثل الضَّحك...

والضَّحك مثل كل شيء آخر ينتقلُ بالعدْوى أو بالمحاكَاة فلا يستطيع فرد أنْ يَعْبِسَ في مجلس طرُوب ضاحِك إلاّ إذا كان قلبه مِنْ حَجَر. بل لا بُدَّ له أنْ يجاري الضَّاحكِين كثيراً أو قليلاً.

ومِنَ الخير له أنْ يجاريَهُم وإلاّ كان أسمج[2] مِنْ ذُبابَة في صحن عسل.

إنَّ الضَّحِك دليل على صحَّة الجسد وسلامَة النَّفس. وطهارَة القلب كما هو مُشاهَد في الأولاد...

وهو في الكبار دليل على إتِّساع مداركهم ورُجْحان عقولهم.

وهو في كُلِّ وقت مفيد إلاّ إذا كان ضحك حماقَة وبلاهَة.

---

1 المَحَارُة: الصَّدَفة ونحوها.

2 أَسْمَج: أَقْبح.

وأنَّ الذي يسرّحُ النَّظر اليوم في الأوديَة والجبال والسُّهُول يرى الطَّرب شائعاً في الأشجار والأغراس والأنهر والسَّواقي. والإبتسام يتدفَّقُ مِنَ الورق خُضْرَةً. ومِنَ الأزهار عِطْراً. ومِنَ الشَّمْس نوراً.

أجل. إنَّ الحياة تضحك في الصَّيْفِ ضحكاً لا تكلُّفَ فيه ولا تَصنُّع. فما أجدر النّاس أنْ يتعلَّمُوا منها وأنْ يقتدُوا بها. فإنَّ الهمَّ كالقطن كلَّما شدَدْتَ عليه تلبَّد. وكلَّما عالجْتَه انتشر وكثُر.

ولا نَعْني أنْ تكونَ الحياة كلُّها عبثاً ولهواً وضِحْكاً ودُعابَة [1]. فإنَّ كلَّ شيء إذا زاد عن الحَدّ إنقلبَ إلى الضِّدّ...

السَّمير: 8/ 6/ 1948

السَّنة العِشْرُون

تبدأ «السَّمير» في هذا النَّهار صفحة جديدة مِنْ كتاب حياتها. ومعنى هذا أنَّها انتهَتْ مِنْ مَرْحلة لتستأنف السَّير وتقطع مرحلة أخرى.

نحن لا نودُّ أنْ نَعُدَّ السنين التي صرفنَاها في صحبَة اليَرَاع والدَّواة. فليسَتْ السِّنُون شيئاً جليلاً إلاَّ إذا كان فيها عمل جليل. أو أثر نبيل.

إنَّ الأشجار في الأرض كثيرة ولكنْ أفضلها ما كان له ثمر فيه شبع أو زهر فيه بهجة للنَّاظرِيْن.

فإذا خلَتْ السِّنُون مِنْ عمل طيب أو فكرة مفيدة. أو سعي حمِيد. كانت كالفَدافِد [2] التي لا ظلَّ فيها ولا ماء ولا شجر.

كانت «السَّمير» وما برحَتْ تنشد الإخاء العام كما تنشد السلام في الأرض. وفي سبيل هذه الغاية كانَتْ تجهَرُ بالحقائق حتى عندما تتوارى وراء ألف حجاب. كما كانَتْ تتحاشى الإشتغال بالسَّفاسِف [3] والتَّوافه مِنَ الشؤون لما في ذلك مِنْ تضييع الجهُود والأَوقات. وكُلُّها ثمين.

وقد استطاعَتْ أنْ تكونَ حرَّة في تفكيرها صامدَة في عقيدتِها بفضل المبادىء الديمقراطيَّة التي ترتكز عليها الحياة في الولايات المتَّحدة فلا رقابَة تخشاها ولا سلطة غاشمَة تتوقَّاها ولا رأي عام جاهل تلتبس عليه وُجُوه الأمور فلا يعود يميِّز بين حق وباطل وبين صدق وزُور.

وأعانَها مِنْ جهة أخرى أنَّها لم تُخْلَق لكي تتزلَّف [4] لأحدٍ مِنَ النّاس كبيراً أم صغيراً فلم تعفِّر

1 الدُّعابة: المازَحة.
2 الفَدْفَد: الأرض الواسعة المستوية لا شيء فيها.
3 السَّفاسِف: الرَّديء الحقير من كُلّ شيء وعمل ج سفاسِف.
4 تتزلَّف: تتقرَّبُ.

الجبين عند باب ولا في محراب. صوناً لكرامة القلم وحُرْمَة الصَّحافَة.

ولكنَّها مِنْ ناحيَة أخرى لم تستر فضلاً بادياً ولا تعامَتْ عن جمال ظاهر. بل كثيراً ما أغضَتْ عن المساويء لتذيع الحسَنات اعتقاداً منها أنَّ نشر الحسنَة هو بمثابَة طَي للسَّيئة بل بمثابَة قتل لها.

أجل. إنَّنا وضعْنَا نَصبَ[1] أعيُننا أنْ نكونَ مفيدِين لقومِنَا في كُلِّ حالة مِنْ حالاتِهم وحادث مِنْ حوادثهم. وأنْ نترفَّع عن العَنْعنات[2] المَذهَبِيَّة وما شاكَلَها لأنَّنا نعرف أنَّ هذه العنعنَات هي الي جلبَتْ على الشَّرق العربي ما هو فيه اليوم مِنْ بلاء عظيم وهي التي كانَتْ سبباً في استذلال الأجانب إيَّاه مِنْ قبل.

نفتتح المرحلة الجديدة ونحن بالرَّغم مِنَ النَّكبَة الهائلَة التي نزلَت بفلسطين غير قانِطِين مِنْ رُجُوع الحقِّ إلى نصابِه ولو بعد حين فلا بُدَّ للعرب أنْ يستفِيقُوا ويفتحُوا أعينهُم على الخطر الهائل الذي يهدِّد كيانهم كلّه.

وأنّنا لنستطيع أنْ نقولَ إنَّ «السَّمير» أدَّتْ لقومِنَا هنا وهناك خدمَات جليلَة فما ولدَ مشروع عُمومي مفيد إلاَّ وعَضَدَتْه[3] وأيَّدَتْه غير متوقِّعَة ثواباً ولا جزاء غير أنْ تراه مُكلَّلاً بالنَّجاح.

وما نزلَتْ بالوطن الأول نكبة إلاّ وكانَتْ «السَّمير» البوق الصَّارخ في استحثاث النفُوس الحسَّاسة على الإسراع في الغَوث والمعُونَة.

أمَّا اللمَّامُون المُتاجرُون بعواطف قومنا فموقف «السَّمير» منهم واضح جلي.

ويعلم الجميع أنَّ صليب فلسطين لم يحمله أحد كما حملَتْه جريدة «السَّمير» وصاحبها منذ صارَتْ الصهيونيَّة خطراً على البلاد المقدَّسة وعلى الشَّرق العربي كُلّه. وإذا كانَتْ صرخاتنَا لم تأت بالغاية المنشودَة فنحن قد قمنا بما يفرضه علينا الوِجْدان والضَّمير وهو نصرة الحقّ ولو أحاطَتْ بنا السيوف. وأحاط به الضَّباب الكثيف...

وكما كنَّا قَبْلُ سنكُون مِنْ بَعْدُ. للفكرة النبيلة والمبدأ الصَّحيح. والخير العام.

وبهذه الروح وهذه العقيدَة نحيي أنصَار «السَّمير» في كُلِّ مدينة ودسكَرة قريبهم وبعيدهم ونرجُو أنْ تساعدَنَا الحياة ويعيننا الله لنظلّ أهلاً لثقتِهم ومحبَّتهم.

السَّمير: 3/ 11/ 1948

---

1 النَّصْب: الغاية.

2 عَنَّ له كذا: عَرَض.

3 عَضَدَه: من باب نَصرَ أعانَهُ.

أوّل الغيث قطر

هذه أولى رسائل صاحب «السَّمير» مِنْ لبنان وردَتْ علينا في البريد الجوي

صاحب «السَّمير» في لبنان

«أحقيقة أنَّنا نشاهد إيليًا أبو ماضي يمشي في أسواق بيروت؟

«أصحيح أنَّنا نراك في اليَقْظة معنا؟»

«دعني أفرك عينيَّ لأتحقَّق أنّي لست في منام»

«ألف شكر للأونيسكو الذي أرانا شاعرنا الحبيب».

هذه العبارات وما شاكَلَها مِنْ كلام التَّعجُّب المقرُون بالفرح كانت تنسكِبُ في مِسْمعي كلَّما التقيْتُ أديباً أو شاعراً أو صِحافيّاً أو شاباً أو فتاة.

ومثل هذه العِبارات كانت تتصاعد مِنْ قلبي إلى فمي وإنْ لم أَجْهَرْ[1] بها فأقول في سرِّي: أصحيح أنّي أرى الأرض التي انفتحَتْ أجفاني للنُّور فيها؟ وأنّي في الوطن الذي غبْتُ عنه خمساً وثلاثين سنة؟ وأنّي حقّاً أمشي في شوارع بيروت. وأطأ في أرض المحيدثة التي يرقد فيها أجدادي؟

وإذا كانت الدَّهشة استحوَذَت عليَّ كما استحوَذَتْ على النّاس هنا فذلك لأنّي ما كنْتُ أحلُمُ أنّي سأزورُ لبنان الجميل الرّائع في هذا الخريف. وإنْ قد زرتُه بالرُّوح في كُلِّ خريف وربيع وصيف وشتاء. فما رأيْتُ في غربتي جمالاً في مكان إلاّ وتذكَّرتُ لبنان. وما حَنَّ مغترب إليه إلاّ وحنَنْتُ معه. ولا زاره أحد مِنَ النّازحين إلاّ رافقتُه بالروح. وكثيراً ما كانَتْ لذَّة التَّوهُّم كلذَّة الواقع. للخيال خمرته المُسْكِرة!

أما الآن قد صار الحُلُم حقيقة. والفضل في هذه المفاجأة السعيدة يرجع إلى حكومة لبنان الوطنيَّة التي تجلَّى تقديرها وحبُّها للمُغْتَربين في دعوتِها عدداً مِنَ الأدباء وحملَة الأقلام في الولايات المتَّحدة والبرازيل والمكسيك. وهذه الإلتفاتَة الجميلة إلى الأدباء في المهجر لا يمكنْ أنْ تُستَغرَبَ مِنْ حكومةٍ على رأسِها رجل هو مِنْ أعلام الأدب الرَّفيع في هذا العصر. عَنَيْتُ اللبناني الأوَّل الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهوريّة اللبنانية الذي تتعطَّر بذكره الأفواه. حتى أفواه المعارضِين. فهو عند الكُلِّ فوق العَنْعَنات الحزبيّة وقد كنت أطالِعُ خطبه التي ألقاها في مواقف مختلفَة فكنت ألمسُ في عبارتِها البليغَة المسبوكَة روح الأديب العالي الثقافة النبيل الأهداف. كما ألمس في نبراتها قُوَّة التعبير وصفاءه وجلاءه.

كان وصولنا إلى مطار دمشق عند الساعة الثامنَة مِنْ صباح السبت ـ ميقات سوريا ـ فاستقبلَنا هناك وفد مِنْ نظارة الخارجيّة اللبنانية ومندُوب نقابة الصّحافة في لبنان ووفد مِنْ زحله ووفد مِنَ المحيْدثة ـ

[1] جَهَر بالقول رفع به صوتَهُ وبابه قطَعَ.

بكفيًا. وجمهرة مِنَ الأصدقاء بينهم صديقي الكاتب المعرُوف الأستاذ يوسف أحمد نجم.

ودخلنَا إلى مكتب مدير المطار الأستاذ زهير العطيَّة فاستقبلَنَا مرحِّباً مُهلِّلا وأدار علينا أكواب القهوة العربيَّة واهتم بأمرِنا اهتماماً كبيراً. وتعرَّفنَا في مكتبِه إلى رهط مِنَ الأدباء الذين غمرُونا بلطفِهِم وجميل عنايتهم. وقال لنا إنَّ الكثيرين كانُوا يأتون إلى المطار ينتظرُون وصولنَا وأنَّ جرائد دمشق مضَى عليها يومان وهي تُرَحِّبُ بالشَّاعر أبو ماضي لإعتقادِها أنَّه وصل. ولكن الطائرة تأخَّرتْ عن الموعد المعيَّن يومين لتكاثُف الضَّباب. واضطرارنا إلى المبيت ليلتين في الطَّريق ـ ليلة في سدني نوفوسكوشيا وليلة في شانون ـ أرلندا.

ومِنْ دمشق صعدَتْ بنا السيَّارات إلى عرُوس الوادي ـ زَحْله ـ بعد أن طافَتْ بنا في شوارع دمشق الجديدة والقديمة فرأينَا في الأولى الأناقة والتَّنسيق كما شاهدْنَا في الثانية صورة الحياة التي سبقَتْ العهد الجديد.

وارتفعَتْ بنا السيّارة ـ وكان يرافقني فيها الأستاذان شمس الدين نجم وحسن عسيران مِنْ قِبَل نظارة الخارجية اللبنانية وممثِّل الصَّحافة الأستاذ توفيق وهبه صاحب جريدة الدُّنيا ـ فلمَّا صرْنَا في مرتفع عال ظهرَتْ لنا منائر المساجد تتعالى بين المباني كأنَّها أشجار النخل الباسقَة.

وفي زَحْلة اجتمعْنَا في بيت الزعيم الزحلي يوسف بك البريدي بأفراد أسرته الكريمة وبرهط مِنْ كرام الزَّحليِّين وبالرَّفيق القديم في نيويورك الأستاذ شكري البخاش الذي أصرَّ عليَّ أن أزورَ الوادي. فمشيْنَا إليه فإذا هو المتنزه الخلاَّب الذي تغنَّى به الشعراء فاكتسبَتْ قوافيهم كثيراً مِنْ عذوبَة مائه وصفاء هوائه. وألَق [1] الفجر فيه وجلال المساء.

وبعد أنْ شربْنَا عند «الكوخ الأخضر» كوخ رياض المعلوف الشَّاعر كأساً مِنْ العرَق الزَّحلي في سِرِّ ذلك الوادي وعروسته. عدنا إلى البيت البريدي حيث تناولْنَا طعام الغداء. واستأنفْنَا المسير إلى فندق بيت مري الكبير الذي أَعدَّتْ فيه الحكومة غرفاً لنزول ضيوفها. كما أعدَّتْ سيارات تنقلهم مِنْه إلى بيروت ومِنْ بيروت إليه وهو فندق يطلُّ الجالس في شرفتِه في المساء على مدينة بيروت فيراها تتوهَّجُ كأنَّها كُوْمَة مِنْ لآلِيء متألِّقَة أو رُجْمَة [2] مِنْ حجارة ماسيَّة!

وأمامها البَحْر الأزرق مُنبسِطٌ كصدر الكريم أو كمرآة الحسناء تقنعُ أمواجه الهادئَة بلثم شواطئها ثمَّ تعود وهي تضحك ضحك المُغتبط بأمرِ ظَفِرَ به.

وتقابل زرقة البَحْر التي تقع عليها النواظر مطمئنَّة كاسيَة خضرة لا تبوخ. هي خضرة أشجار الصنوبر الفتيَّة التي ترتفع كلّها في نَسَقٍ واحد لتصير رؤوسها كالمظلاَّت.

السَّمير: 26/ 11/ 1948

---

1 تألَّقَ البرق لَمَعَ.

2 الرُّجْمة: حجارة تنصب على القَبْر.

أنا في لبنان

قالُوا: إنّي ضيف في لبنان.

وحاولتُ أنا أنْ أُسايرَهُم وأقول كما قالُوا. فأدركَني الخجل مِنْ نفسي. صعبَ علَيَّ أنْ أُقنعَ ذاتي بأنّي ضيف في الأرض التي منْها النُّور الذي في عيني وعينَاي، والدم الذي في عروقي - وعروقي. والأحلام التي في مُخيَلتي - ومُخيَّلتي. والرَّغائب التي في قلبي - وقلبي. والكَلِم الذي يجري به لساني - ولساني.

ليت شعرِي كيف أكُون ضيفاً في لبنان. وهذه الإبتسامَة التي ترقصُ على فمي في غَمْرة[1] الفرح ليسَتْ غير إشعاعَة ضئيلَة مِنْ فجرِه الضَّحُوك. وهذا الرِّضى الذي في نفسي عن الحياة مستمدٌّ مِنَ الأقحوانَة التي كنتُ لها جاراً ورفيقاً وأنا طفل يلعبُ في الحقل. وهذه الكآبَة التي تَطْغى على وجهي في ساعة الضَّنْك والشدَّة ليسَتْ غير بقايَا اللَّيل المتجهِّم في شتاء لبنان. وما ثورتي على الضَّلالات والسَّخافَات غير صورَة مُستعارَة مِنْ ثورة الزَّوابع في غاباتِه على الأشجار اليابسَة النَّخِرة التي تملأ في الأرض حيِّزاً دون أنْ تُعْطِي زهراً ولا ثمراً.

لا. أنا لست ضيفاً في لبنان.

أيكون لبنان فيَّ وأكون ضيفاً فيه؟

أنا في أرض آبائي وأجدادي. ولا يكون المرء ضيفاً في وطنِه وبين أهله وذويه...

وحقِّي في لبنان مثل حقِّه فيَّ. وإذا كنْتُ لا أجيز لذاتي أنْ أكونَ أنانياً فأقول: «إنَّ لبنان لي» ففي وُسْعي أنْ أجهرَ بملء فمي قائلاً: «أنا للبنان».

غَنيْتُ به مقيماً ومسافراً، كمَا غنَّتْ لي أنسامه وأنا في المهد.

وحملته معي إلى كُلِّ أرض كما حملتني أرضه.

وفتحت عيون بَنِيْه وغير بَنِيْه على الجمال الذي فيه كما فتح عينيَّ على الجمال في الحياة وفي النَّاس.

مِنْ أجل النجُوم في سمائِه أحببتُ النجُوم في كُلِّ سماء.

ومِنْ أجل أزهاره أحببْتُ الأزهار في كُلِّ أرض.

ومِنْ أجل سواقِيْه أحبَبْتُ كل ساقية شاديَة.

ومِنْ أجل النَّاس فيه أحبَبْتُ النَّاس في كُلِّ مكان.

وسرْتُ في الدُّنيا لا أشعر أنِّي غريب في أيَّة بُقْعَة فيها شيء ولو يسير مِنْ روعَة لبنان وجلاله فكيف بي وأنا الآن في لبنان ذاته؟

---

1 الغَمْرَة: الغَمْرَة الشِّدَّة.

أيكون لي. وأكون له ثمَّ يقال عنّي إنّي ضيف فيه؟

لا، أنا لست ضيفاً في لبنان والآن يسألني قومي هنا، وسيسألني قومي وراء البَحْر. كيف وجدْتَ لبنان بعد ذلك الفِراق المديد المُتطاول. فأنتهِزُ هذه الدقائِق التي تمرُّ بي في لبنان مسرعَة لأخبرَ الذين فارقُوا لبنان منذ عهد بعيد فأقول لهم:

إنَّ لبنان السِّراج والشمعة هو اليوم لبنان المصباح الكهربائِي الذي يتألَّقُ في البيت والمكتب والحانُوت والطَّريق.

ولبنان الجرَّة. قد انطوى وصار الماء يأتي إلى البيُوت في أكثر القرى حتى النَّائِية منها، يجيء ليملأ الجرَّة والإبريق. بعد أنْ كانَتْ الجرَّة تذهب إليه في الصباح والمساء على أكتاف الصَّبايَا..

ولبنان الطَّربُوش والعمامَة هو اليوم الجزء الأصغر مِنْ لبنان.

واللّبناني الذي كان مِنْ قَبْلُ يمتطي الحيوان في السَّفر أو يضرب في الأرض على قدَميْه هو اليوم لبنان السيّارة الحديثَة التي تركض في السَّفح والقِمّة وتتهادى في المدينَة والقرية بحيث لم يبق في لبنان مكان بعيدٌ عن مكان.

ولبنان الذي كانَتْ كل قرية فيه وطناً، وكل جمهرة مِنَ النّاس في قرية أو بلدة أو منطقة شعباً، قد أخذ بفضل الروح القومي السَّاري في الأرواح يهدم هذه الحُدُود الوهميَّة ويؤلِّف مِنَ القُرَى والبلدان كلّها وطناً واحداً. ويحتشدُ مِنْ سكانه كلّهم شَعْباً واحداً، له علَمٌ واحد. وهدف واحد. هو أنْ يبقَى لبنان حراً مستقلاً.

أجل، إنَّ لبنان في عهدِه الجديد عهد الحريَّة والكرامَة الوطنيَّة يحُسُّ بإتصال وثيق بين أجزائِه وأشطاره. كما يحسُّ إنَّ لبنان بمثل هذا الإتصال بينه وبين كُل شطٍ وجبلٍ وسهلٍ نزل فيه واحد مِنْ بَنِيْه.

وليسَتْ صلته هذه ببَنِيْه مقيمين ومغتربِيْن قاصرة عليهم ومحصُورة فيهم. كلاّ فهْوَ يتطلَّع إلى العالم كلّه ليتَّصل به فكراً وروحاً. إنّه يستجلبُ مِنَ الخارج، الفِكْر والنَّظريَّات والفلسفات والأنظمَة مع السيّارة والراديو والمثلجة والقلم المِداد والمطبعة الحديثة مثلما يصَدِّر العزائم والمواهب إلى بلاد النّاس...

ليته لا يصدِّر غير نتاج الأرض... إنَّ نتاج الأرحام ليس بضاعة للتصدير..

أريد أنْ أقولَ للقاريء شيئاً آخر وهْوَ أنَّ التقدُّمَ في لبنان لم يقتصر على الماء والضَّوء واللِّباس بل شملَ البيت والفندق والحانُوت والطَّريق. ففي هذه القِمَم والمشارف فنادق تضاهي أجمل الفنادق في أميركا تنظيماً وترتيباً ورياشاً. وفي القُرَى الوادِعَة بيوت حديثة البناء. لها ميزَة على البيوت في أميركا وهي أنَّ أرض هذه البيُوت كجدرانها مِنَ الحجر المنحُوت الأملس. ولا غرْوَ[1] أنْ تكونَ كذلك

---

1 الغرْو العجب.

فالصخُور في لبنان في كُلٍّ مكان... أمّا الشّجر فقليل. وأقلُّ منه الصّالح للبناء.

أمّا النّاس في لبنان فإنّهم يتظاهرُون بالرِّضَى عن أنفسِهِم وعن الحياة التي هم فيها وهي حياة لها قيمتها وروعتها ولكنّهم لا تَقْرَعُ آذانهم أخبار الثروات الطائِلَة في أميركا حتى يتبدَّل الرِّضَى فيهم إلى قلق. ويصير الواحد منهم كالشَّجرة في الزوبعَة تتلوَّى وتضطرب أغصانها كأنَّها كرهتْ البقاء في الأرض!

وإذا كانت النُّفُوس كباراً تعبَتْ في مَرادِها الأجسامُ[1]

تتدفّق على لبنان الآن كما مِنْ قبل أمواج مختلفة بين ثقافة وسياسة وحضارة. منها الموجة العنيفة الطاغيَة. ومنها الموجَة الضاحكَة الشاديَة. وكلُّها تحاول أنْ تبدِّلَه مِنْ ذاتيّتِه ذاتيَة جديدة. أمّا هو فيتلقَّفُ الموجة تِلْوُ[2] الأخرى ويذيبها في كيانِه. كما تتلقَّفُ الرَّيحانَة ندى الفجر فتزداد طَراوة ونضارَة دون أنْ تَفْقِدَ شيئاً مِنْ ماهيّتِها أو ألوانها.

مهما تعالَى الموج يظلّ الجبل أعلى منه!

أمّا نظام الحكم في لبنان فهُوَ النظام الديمقراطي الشَّعبي. وهو نظام تزداد محاسنه وفوائده كلّما ازداد فهم النّاس إيّاه. كما تكثر مساوئه ومخازيه كُلَّما انعدَمَ فيهم الفهْمَ له.

سأفصحُ أكثر في غير هذا المجال ولأحدِّثَ قرّاء «السّمير» الآن عن الجمال الرائع الذي خصَّتْ به الطَّبيعة لبنان السَّاحر.

زارني أحدهم فقال: إلا تتعجَّبَ مِنْ كَثْرة الشُّعراء في لبنان؟ فقلت له: كلا. بل أنا أعجبُ كيف لا يكون كل النّاس في لبنان شعراء.. فهنا للجمال في كُلِّ قمّة هيكل. وفي كلِّ سفح محراب. وفي كُلِّ حقل مسرح. وهنا للوحي والإلهام وتحريك المشاعر موارد لا تَنْضَبُ ولا تَجِفُّ حتى تصير السَّماء لوحة سوداء ويتحوَّل البَحْر إلى صحراء جرداء!

هنا الطَّبيعة على أجمل وأتمّ وأروع ما تكون الطَّبيعة في نظر الإنسان. فالبَحْر أغان والنُّور أناشيد. والجبال صور خلاَّبَة. والأنسام عطُور والسَّماء سحر محدُود. بل يكاد المرء في هذا الجوّ السَّمح الغني الفيَّاض، يخيّلُ إليه كأنَّ للصخُور العَجْماء أرواحاً. وكأنَّ هذه الجمادَات أحياء لها في الحياة رغائب. وفي الخلُود مطامع.

رُبَّ صخرة جاثمَة في رأسِ مُطِلّ. تتطلَّعُ وليس لها عينَان. وتتحدَّثُ وليس لها لسان. كأنَّما هي روح انطلَقَتْ مِنَ الجبل فلمّا بلغَتْ ذلك المُطِلّ وقفَتْ ذاهلَة مسحُورَة بما في الوادي مِنْ عُمْقٍ. وبما في السَّماء مِنْ علُو. فهي لا تريد إلى الوادي نزولاً ولا تستطيع إلى السَّماء صعوداً.

1 المَراد المكان يذهب فيه ويُجاء. والمِرْيد بوزن السُّكِّين الشّديد المَرادَة.

2 تَلْوُ الشيء الذي يَتلوه.

وربَّ شجرة واقفَة في الحقل عند المساء كحسناء على موعد. وأغصانها مُنبسطَة انبساط الأيدي المُتضرِّعَة وأوراقها مرتعشة كألسِنَة ارتَجَّ عليها الكلام. فهي تترنَّح مِنْ ساقِها إلى أوراقِها لعلَّ الحركة فيها تنُوب عن «الكلمة»...

وكم في لبنان مِنْ مشاهد خلاَّبَة مدهشة كهذا أو ذاك المشهد يغمُرُ سحرها الإنسان الواعي فيقفُ باهتاً صامتاً إلى جانب الصخرة كأنَّه صخرة. وأمام الشَّجرة كأنَّه شجرة!

بينما خياله منطلق يلُفُّ الأبد بالأبد.

ويصعدُ في الفضاء ليلمُسَ النجُوم ويقترب مِنْ خالق النُّجُوم.

إنَّ لبنان آية الزمن. وفتنة الفتَن.

هذا هو الفِردَوس الذي تحِنُّ إليه روح الشَّاعر.

إنَّه الجنَّة التي خلقها الله لي وأنا الآن فيها. فأنا لست ضيفاً في لبنان.

السَّمير: 15/ 1/ 1949

ما رأيتُ وسمعتُ

ها أنا في مكتبي أستعرضُ موكب الأيَّام والليالي المشرقَة الضاحكَة في العاصمتين بيروت ودمشق فأشعر للسرعَة التي مرَّ بها هذا الموكب الجميل كأنِّي كنتُ في حُلم وصحَوْتْ.

أليس شيئاً كالحُلُم أنْ أكونَ صبيحة الأحد الماضي في متحفِ دمشق يدورُ بي القيِّم عليه مِنْ قاعة إلى قاعة فأشهد في كُلِّ قاعة عصراً مِنَ العصُور التي سلفَتْ بها هناك مِنَ الآثار التي ذهب أهلها وبقيَتْ بعدهُم تخبر كيف كانُوا يمشُون وكيف كانُوا يبنُون ويَلْبسون ويأكلُون ويشربون.

أم يراني بعد ساعتين في مطار استامبُول وبعد عشر ساعات في مدينة بروسل وبعد سُوَيعَات في شانون الأرلندية ثمَّ منها إلى جزيرة سانتا ماريا في الأزور وعند الساعة التاسعة من مساء الإثنين في مدينة بوسطن وحوالي الساعة الحادية عشرة في مطار لاغوارديا.

أليس هذا شيئاً كالحلُم؟

بلى، وأنَّه شيء أغرب مِنَ الأحلام التي تتراءى للمَرْء في سِنَة الكَرى[1]. والفضل فيها للإنسان الذي أراد أنْ يطيرَ وقَرنَ الإرادة بالعمل فطار. وأصبح اليوم يطوي الفضاء كما يطوي باليد الرِّداء. لا يعوقه غمَام ولا يعرقله ظلام. ويكاد المرء يتصوَّر والطائرة منطلقَة فوق الغيُوم البيضاء والسوداء هازجَة مُجلجِلَة كأنَّها سائرة بمن فيها إلى نجم في السَّماء أو إلى أبعد مِنَ النجُوم!

---

1 الوَسَن والسِّنَة النُّعاس. والكرى: النُّعاس أيْضاً.

كنْتُ مِنْ قبل أتهيَّبُ ركوب الطائرة ولا أجد ضرورة للإلتجاء إليها في سفر أو رِحْلة. ولكنّي بعد أنْ عبرَتْ بي المحيط الإتلانتيكي مِنْ سدني كندا إلى شانون في ارلندا في أقل مِنْ تسع ساعات صرْتُ لا أرى مطيَّة خيراً منها لمن يُهِمُّه [1] اختصار المسافة وتوفير الوَقْت ورؤية المشاهد السَّاحرَة الخلاَّبَة عند شروق الشَّمْس وغروبها وانسيَال اشعَّتها على الغيوم واكتساب الغيوم مختلف الألوان والصور ممَّا لا يحيط الوصف به مهما أبدعَ القلمُ في الوَصْف.

سأترك هذا إلى وقت آخر لأحيِّي الآن مِنْ مكتب «السَّمير» في بروكلن أنصار «السَّمير» الأوفياء في كُلِّ مدينة وقرية مِنَ الولايات المتَّحدة وكندا والأقطار الأخرى الذين تعهَّدُوها بالحب والوفاء وأنا بعيد عنهم وعنها كما كانُوا يتعهدُونَها بعواطفِهِم وأنا قريب منهم ومنها.

وإنَّ شكري لهم لجزيل مثل شكري للرِّفاق الذين تولُّوا في غيابي القيام على تسيير دَفَّة [2] هذه السفينة الأدبيَّة فحافظُوا على مكانتِها. ومَشَوْا بها في الطَّريق القويم لا يلويهم عن خطتها النَّزيهَة شغب [3] مشاغِب ولا تَطاوُل حاسد كائد [4]. بل كانُوا يرتفعُون بها فوق التَّخَرُّصات [5] كما كانَتْ الطائرة ترتفع فوق الضَّباب المُتكتِّل فيزدادُون وقاراً [6] كلَّما ازداد المُرجِفُون [7] عاراً.

فأنا وقد عدْتُ إلى مكتبي أحمَدُ الله الذي ردَّني إلى أسرتي وأصدقائي وإلى هذه الأرض السعيدة أرض الحريَّة السمحَاء والأيدي البانيَة والعقُول المُبدِعَة والعَبْقَريَّات الخلاَّقة. إلى أميركا.

ولأبدأ الحديث الآن بالتحدُّث إلى قرَّاء «السَّمير» عمَّا رأيت وسمعت واختبرْتُ أثناء وجُودي في لبنان ودمشق وإنْ كانَتْ المُدَّة التي قضيتُها في لبنان قصيرة وفي دمشق أقصر.

أرادَتْ الحكومة اللبنانية أنْ تكرِّمَ المهاجرين اللبنانيين فوجَّهَتْ دعوة إلى صاحب «السَّمير» وخمسة آخرين مِنَ المُشتغلين بالصَّحافة في المَهْجَر لحضور مؤتمر الأونيسكُو في بيروت وهم فوزي البريدي «نيويورك» ونجيب عواد وناصيف الفضل «المكسيك» وحبيب مسعُود «البرازيل» ورشيد رستم «الأرجنتين». وكان وصُول الوفد النيويوركي قبل سواه فوجَّهنا تحيَّة إلى لبنان حكومة وشعباً هي تحيتنا وتحية قومنَا المهاجرين إلى الوطن وأهله.

ثمَّ هبطنا مدينة الأونيسكُو فإذا نحن في عمائر أنيقة شبيهَة بما كان في مَعْرض نيويورك العالمي. وأخذنا ننتقل في تلك المباني مِنْ معارض كتب إلى معارض رسوم وألواح منها ما هو للبنان ومنها ما هو

---

1 أَهَمَّه الأَمر أَقلقه وحزَنَهُ.

2 الدَّفَّة: والدَّفَّة من السَّفينة السُّكَّان وهو آلة في مؤخّرها تحرّكها يميناً أو يساراً.

3 الشَّغْب بالتَّسكين تهييج الشَّرِّ ولا يقال شَغَبٌ بالتَّحْريك.

4 كاد: الكيد المَكْر ومَكِيدَة أيضاً بكسر الكاف.

5 خرَص: الخَرْص الكَذِب وتخَرَّص كَذَبَ.

6 الوقار الحِلْم والرَّزانة.

7 الإرجاف واحد أَراجيف الأَخبار وقد أَرْجفوا في الشيء أَي خاضُوا فيه.

لسوريا. ومنها ما هو للعراق وآخر لمصر. وكلُّها تَدُلّ على ما بلغَتْ إليه هذه الأقطار مِنَ التقدُّم الثقافي. وكان رئيس المؤتمر الدَّائم رجل الثقافة العاليَة والأخلاق السمحَاء والهِمَّة [1] الشمَّاء حميد بك فرنجيَّة وزير الخارجية والتربية والمغتربين الذي أجمَعَتْ القلُوب على محبَّتِه وإجلاله لما امتاز به مِنْ إخلاص مُنَاهٍ في خدمة لبنان كما أجمَعَت الألسُن على مَدْح مِنَ الأستاذ فؤاد بك عمون المدير العام لوزارة الخارجيَّة الذي كان متغيِّباً في باريس لخدمة لبنان وجيرانه فهْوَ رجل له مِنَ الحنكَة [2] السِّياسية ما يرفعه إلى مصاف كبار السَّاسة ولا غرابَة فهْوَ سليل أسرة لها في تاريخ لبنان صفحات مجيدَة. وفي لبنان عدد كبير مِنَ المفكِّرين ورجال الثقافَة والأدب بين كُتَّاب وشعراء وأساتذَة لم توجَّه الحكومَة إليهم دعوة إلى المؤتمر فعَتَبُوا على الحكومَة ولكنَّهم لم يسبُّوها ولا شتموها.

وأنِّي لأجد مِنَ الخير أنْ أتجاوزَ عن هؤلاء الحاسدين الذين انشقَّت مرائِرُهم [3] غيظاً عندما وضَعْتُ الأشياء موضعها. وأنْ أعمل بقولي:

لا تطلبَنَّ محبَّة مِنْ جاهل	المرءُ ليس يُحِبُّ حتى يَفْهَمَ
وارفق بأبناء الغباء كأنَّهمْ	مرضى فإنَّ الجهل شيء كالعَمَى

فلأَنْتَقِل الآن إلى وصف النَّاس والأحوال في لبنان كما رأيْتُ النَّاس ولمست الأمورَ فأقول:

إنَّ البَحْبُوحَة التي غمرَت لبنان أثناء الحرب زالَت مع الحرب ولكنَّ آثارها باقيَة في القصُور الأنيقة التي شادها أهل الثراء. وفي الشوارع والطرقات التي أنشأتها الحكومَة في خلال وقت قصير. ولا يزال الهَدْم والبناء قائمَين في مدينة بيروت. هدم الأَحياء القديمة وتشييد أَحياء جديدة وتوسيع الشوارع. فإنَّ مشكلة السَّيْر في بيروت مِنْ أعقد المشاكل لشدَّة الزِّحام وتكاثر السيَّارات فهذه المدينة أشبه بالوادي الَّذي ينصَبُّ السَّيل إليه مِنْ كُلِّ مكان.

وقفت مرَّة أمام الفندق أتأمَّل المارَّة فإذا هم مِنْ كل طِراز [4]. فمِنْ لابِسْ عِقَال إلى لابس عِمامَة إلى لابِسْ طربُوش إلى لابِسْ بُرنيطَة. إلى حاسر عن رأسِه. ومِنْ راكبْ سيَارة إلى راكبْ حافلَة. إلى راكبْ حمار إلى راكبْ نعلَيْه إلى حافٍ عاري القدميْن.

فأنتَ لا ترى شَعْباً واحداً بل شُعُوباً لا يجمع بينها غير شيئين هما: اللُّغة والمَصْلحَة. يضاف إلى هذين المكان.

وقلَّما مررْتُ بشارع وسيع أو ضيِّق إلاّ رأيتُه مزدحماً بالسيَّارات فليس في بيروت مرابِض عموميَّة كما هو الحال في المدن الأميركيَّة ويزيد مشكلة السير تعقيداً أنَّ تخطيط مدينة بيروت القديم لم يكن

---

1 الهِمَّة يقال فلان بعيد الهمَّة وهَمّ بالشيء أرادَهُ.

2 الحِنْكة: التَّجربة والبَصرُ بالأُمور.

3 المَرائِر: المَريرَة الحَبْل الشَّديد الفَتْل عِزَّة النَّفْس والعزيمة.

4 الطِّراز النَّمَط والشَّكل الجيِّد من كلّ شيء ج أَطْرِزَة.

بتقدير ولا حُسْبَان[1] ولم يراع فيه إلا إنشاء مسالك للإنسان وَحْدَه أو حِصانه وحِماره. فلمّا جاءت السيّارة ضاقَتْ بها المسالك. على أنّك لا تستطيع إلاّ أنْ تعجبَ ببراعة السوّاقين في بيروت فإنّ الواحد منهم ينطلق بسيّارتِه في أضيق زُقاق[2] كأنّه يقود سيّارته في أرْحب طريق. ويذهب بها في المنعرجَات[3] والمُنْعَطَفَات كأنّه في طريق قويم. وهو إلى ذلك كلّه لطيف المَعْشر حسن الأدب يجاملك كأنّك ضيف في بيتِه.

وعند القوم عادة عجبْتُ لها وهي طريقة الجلوس في السيارة. فمن الإكرام عندهم للضّيف أو لذي الحيثيّة أنْ يجلسَ إلى اليمين في السيارة وعبثاً حاولْتُ إقناع الذين رافقُوني بالتخلّي عن هذه العادة معي. فليس في اليمين غير ما في الشمال. وليسَت السيّارة مجلساً ولا ديواناً رسمياً لتجري فيها مثل هذه المُجَاملات...

وفي بيروت فنادق مِنَ الطِّراز الأول في أناقتِها ونظافتها وحُسن هندستها وجمال غرفها وطرائق الخدمَة فيها ولكنَّ المصاعد الكهربائيّة فيها عُرْضَة للتوَقُّف مِنْ جرّاء ضَعف التيّار الكهربائي في المدينة التي أتّسعَتْ كثيراً وبقِيَتْ الشَّرِكَة صاحبَة الإمتياز كما هي لم تستبدل الآلات التي لديْها ولا زادَتْ قُوَّة التيّار وهذا الأمر حدا بأصحاب الفنادق إلى استخدام المصاعِد في حالة الصُّعود فقط. وهُم لا يسمحُون للخدم باستخدام المصاعد لا في الصُّعود ولا في النُّزول وفي ذلك ما فيه مِنَ المشَقَّة على الخدم. وكنْتُ أحياناً أطلب طعام الفُطُور إلى غرفتي فلمّا تبيَّن لي أنَّ الخادم يصعدُ ماشياً عدَلْتُ عن تكليفِه هذه المَشَقَّة.

وتضيف الفنادق إلى حساب النَّزيل فيها عشرة بالمائة بإسم الخدم غير أنّي أشكُّ في حصولِهم على العشرة كاملَة. فقد سمعْتُ بعضهُم يتذمَّر ويشكُو مِنْ هزال دخله. والذي حملَني على الشكّ أنّي دفعْتُ إلى صاحب فندق ليرتَيْن ليعطيها إلى الخادمة التي تهتم بغرفتي. واتّفق أنّي رأيْتُ الخادمَة فسألْتُها عمّا إذا كانَتْ تناولَت شيئاً مِنْ صاحب الفندق فأجابت: كلاّ، فعرانِي أسفٌ شديدٌ لطمع إنسان بقيمة زهيدَة كهذه.

وممّا عجبْتُ له أنّي رأيْتُ فتياناً دون الرَّابعَة عشرة يتولَّون إدارة المصاعد الكهربائيّة «الأليفاتر» في الفنادق. وليس ثمّة ضمان فيما يحصل مِنْ ضرر للفتيان أو مكرُوه أثناء عملهم.

كذلك علمْتُ بعد الإستفسار أنْ لا ضمَان للسيارات مِنَ الحوادث الطارئة. وليس هناك قانون يوجِب على صاحب السيّارة ضمانها.

«وللحديث صلة».

السّمير: 20/ 1/ 1949

---

1 حَسَبَ المال ونحوه حِساباً وحُسْباناً عدَّه وأحْصاه وقدَّرَه.

2 الزُّقاق الطَّريق الضيِّق نافذاً أو غير نافِذ ج أزِقَّة.

3 مَنْعَرَج الطَّرِيق والوادي والنَّهر وغيرها: مُنْعَطَفُهُ.

ما رأيت وسمعت

ممَّا أعجبَني في مدينة بيروت حوانيتها المتقنَة فمهما يكن الحانُوت صغيراً وضيِّقاً تجده غاية في الترتيب والنَّظافَة إلاّ في الأسواق النائيَة في الضواحي على أنّي لاحظْتُ أنَّ اكثر البضائع المعروضَة للبيع في هذه الحوانيت مجلُوب مِنَ الخارج ومعظمها آتٍ مِنَ الولايات المتَّحدة بواسطة الفُلْك[1]. وأسعار الأشياء هناك تضاهي أسعارها في نيويورك وربَّما زادَتْ عنها. وأكثر الأجواخ إنكليزية أو أنَّها تدعى إنكليزية وإنْ لم تكن. لأنَّ النّاس يعتقدُون أنَّها أجود مِنْ سواها.

ويندر جداً أنْ تحصلَ على بذلة جاهزة فهذا أمرٌ غير مرغُوب فيه وغير مألُوف. وربَّما كان القوم على حق. فقلَّما وافَقَتْ بذله جاهزة جسماً موافقة تامَّة ولذلك كان شراء الجوخ وتفصيله وصنعه عند الخيَّاط أفضل وأصلح.

وعلى الرَّغم مِنْ اشتهار بيروت بصناعَة الحلَويَّات تجد أنَّ الصنف الذي برع به أصحاب هذه الصناعة هو البقلاوَة وأخواتها. أمَّا القند أو الكاندي فإنَّه يُستجلَب مِنْ الخارج بعضه مِنْ هولندا والبعض الآخر مِنَ الولايات المتَّحدة وتحاول بعض معامل الحلوى منافسَة هذا الصّنف فيدركها العَجْز عن مضارعتِها.

وتسأل عن أسباب الغلاء فيقول لك الأكثرُون إنَّ مِنْ أكبر أسبابه ارتفاع أجور العمال. وتسأل العمَّال فيقولُون لك أنَّ الأجُور التي يتناولونها زهيدَة لا تقوم بأودِ عيالهم. ولكنِّي لمسْتُ حالة عقليَّة عند التجَّار لعلَّها مِنْ باعث الغلاء وَهْيَ أنَّ أكثرهم يتمشَّى على قاعدة «بع قليلاً واربح كثيراً» وهذه القاعدَة عكس القاعدَة التي يتمشَّى عليها الأمركيُّون وهي بِـعْ كثيراً واربح قليلاً...

ويظهر أنَّ الرغبَة في الرَّاحة هي التي تجعل اولئك التجَّار يتمسَّكُون بالقاعدة الأولى. فإنَّ البيع كثيراً يتطلَّب جَهْداً[2] ووقتاً...

وليس للسِّلَع أسعار موحَّدَة معلومَة إلاّ في المخازن الكبرى. ولهذا تكثر المساومَة بين الزبُون والتَّاجر. وتتخلَّلها المُجاملات والحَلِفُ[3] بحُرمَة الصداقَة والذمَّة والضَّمير ويتعدَّاها أحياناً إلى القبُور - قبور الأولياء والقدِّيسين!

هبطْتُ مرة مع صديقي السيد ميلاد المعلُوف إلى مستودَعات السجَّاد خارج جمرك بيروت هو لشراء السجَّاد وأنا للإستطلاع والفضُول والرَّغبَة في صُحْبتِه والتعرُّف إلى تلك الناحيَة مِنَ المدينَة.

---

1 الفُلْك: السُّفُن.

2 الجَهْد المَشقَّة.

3 حَلِف حَلِفاً وحَلْفاً أقسم فهو حالِفٌ وحلاَّف.

فأخذ يستعرِض السجّاد ويقيس أسعاره بالدولار والقِدَمْ فإذا السَّجّاد في تلك المستودعَات أغلى منْه في أسواق نيويورك التي يتحمَّل تجّاره مِنَ النَّفقَات الشيء الكثير فكان ذلك موضع استغرابه واستغرابي.

وذهبْتُ مرّة إلى بلدة «الذوق» هكذا يكتبونها. لشراء بعض المحوكَات والمطرّزات التي اشتهرَتْ بها تلك البلدة. وما شدَّ ما أسفْتُ عندما رأيْتُ الحوانيت التي تباع بها في حالة زريّة لا تتفِقُ أبداً مع تلك المنسوجَات الأنيقَة. فهي موضوعَة في خزائن عتيقَة باليَة وفي غير ترتيب. وكان الوقْت مساء فإذا بالكهربَاء مقطوعَة وإذا بالقوم يستعينُون بالشَّمُوع وقناديل الكاز للإضاءة. فما استطعْنَا تمييز السلع إلاّ بجَهْد ومَشَقَّة. وطريقتهم في البيع هي طريقة المساومَة الشَّرقيَّة التي لا يمكن أنْ يخرجَ منها الشاري الغريب إلاّ مغلوباً. وهي طريقة يجدُون فيها لذَّة واعتزازاً أمَّا الشاري فلا يجدُ فيها إلاّ الرَّيبَة والخوف.

وهذه الصناعة على طَرافتِها مكتُوب عليها الإضمحلال لأنَّها في حالة انعزال وانكماش يأبى أصحابها تعميمها مع أنَّهم لو فعلُوا لَكَسبُوا أكثر ولأعانُوا في مكافحَة البَطالَة. فإنَّ مَنْ لا يتقدَّم يتأخَّر...

وقد يتوهَّم المُهاجر أنَّ المآكل في الفنادق عربيَّة. أمَّا التوقُّع فهو عكس ما يتوهَّم. فالمآكل كلّها على الطِّراز الأوروبي حتى أسماؤها. وأسماء الفنادق أكثرها أوروبي فهذا «فندق نورمندي» وهذا «سانت جورج» وهذا «ريجنت» وبعضهم يسمِّي النزل «بانسيون» أو «فيلا» ويبالغ بعضهم فيسمي فندقه «سمر بالاس» أي قصر الصَّيف أو نيو رويال.الخ...

كم كنْتُ أتمنّى لو كانت رحلتي إلى لبنان وسوريا في الصَّيف لا في الشِّتاء. إذن لتمكَّنْتُ مِنَ التنقُّل والإطِّلاع أكثر على شكل الحياة في القرى والدَّساكر [1] البعيدة.

ولكن لبنان الجميل في الصَّيف يلبس في الشِّتاء سربال مهابَة وجلال. صعدْتُ مرة إلى ضهور الشوير فإذا الفنادق الجميلَة كلّها مُقفلَة وليس هناك إلاّ الحرَّاس والخفراء وقد رآني أحدهم ألتقط عن الأرض رأس صنوبَر فمضى وتناول مِنَ الأرض حجراً وقذف به شجرة فسقط رأساً منها ودفعَه إليَّ لأنَّه لم يعجبه ما التقَطْت!

ومَدَدْتُ ببصري في ذلك الجبل فلاحَتْ لي بسكنتَا مغمُورَة بالثَّلج ورأيْت السَّكينَة ترفُّ على الأوديَة والجبال النائمَة تحت لحاف سميك مِنَ الثلج المُتلبِّد. إلاّ أشجار الصنوبَر فإنَّها لكبريائها ترفضُ أنْ يَطْمُرَها الثَّلج! فهي هناك للنَّواطير في النَّهار رفاق وسمَّار. وفي اللَّيل تهاويل تترنَّح في ضوء القَمَر.

وأحسَسْنَا بالجوع يدركُنا في ذلك الفضاء الطلق. وكنَّا ثلاثة ميلاد معلُوف وجوزف معلُوف. وأنا. فعُدْنَا أدراجنا [2] نبحث عن مطعم فلم نجد. ثمَّ لاح لنا حانُوت فملنا إليه لنشتري شيئاً مِنَ الجُبْن الطريء فحذَّرني ميلاد مِنْ أكلِه. وكان صاحب الحانُوت واقفاً في الجهة المقابلة للحانوت مع

---

1 الدَّسْكرة القرية العظيمة ج دَساكر.

2 الدَّرَج الطَّريق ويقال رجع فلان دَرَجه وأَدْراجه رَجَع من حيث جاءَ.

أشخاص آخرين يقلّبُون سياسة الدُّنيا بطناً لظهر . بينما الصداء يتلبّد في كِفّتي الميزان القديم الطّراز في الحانوت.

وكان هذا الميزان أول شيء رأيْناه عندما دخلنا إلى الحانُوت فنسيْنَا عند رؤيته أنّنا جائعُون وعدْنا أدراجنا دون أنْ نشتري شيئاً. وتابعْنَا السَّيْر إلى بكفيَّا. ووقفْنَا عند مطعم متواضع. وسألْنَا عن صاحبِهِ الغائب فقيل لنا أنّه منهمك في لعبة بوكر ولا وقت لديه لخدمة النّاس!!

فأخذَتنَا نوبة ضَحك لهذا الجواب... على أنّنا وجدنا إلى جانبِه حانوتاً غير مشغول صاحبه بالبوكر. وحصلنا على ما سدَّ الرَّمق...

«وللحديث صلة».

السَّمير: 25/ 1/ 1949

ما رأيْتُ وسمعتُ

القهوة.

أنا مِنَ المُولَعين بشرب القهوة. ولا أستحي أنْ أقولَ إنَّها آفتي الصغرى أمَّا آفتي الكبرى فهي السيكارة. فإذا وَجَدْتَ إنساناً تحتكمُ فيه هاتان الآفتَان احتكامهما فِيَّ. عطفْتُ عليه عطف الجريح على الجريح...

على أنّي وجدْتُ القهوة في بيروت لا تَتَحكَّم في طبقة واحدة مِنَ النّاس ولا تنشر رايتها السَّوداء في مكان واحد مِنَ الأرض. بل هي دولة لها علَمٌ خفَّاق في كُلِّ حانُوت وبيت ودائرة ومكتب. حتى في قصر رئاسة الجمهُوريَّة.

تدخل إلى مكتب المدير أو ديوان الوزير فلا تكاد تأخذ مكانك حتى ينفتح الباب ويدخُلُ الخادم يَحْمِلُ إليك القهوة.

وتزورُ حانُوت التَّاجر فلا يكاد ينتهي مِنَ التَّرْحيب بك حتى تطلَّ القهوة عليك وهي تَزْفرُ[1] شوقاً إليك وإنْ لم يكنُ في نفسِك شوقٌ إليها.

ولا يكمل أنس الصَّحافي وسروره وأنت في مكتبه إلاّ إذا شربْتَ معه هذا السائل الأسود وأنت تتنشَّق عنده رائحة الحبر.

وهي ليسَتْ شراباً فحَسْبُ. بل رمز للضيافَة والتكريم والتَّرْحيب ولكن إذا كان هذا الرَّمْزُ لطيفاً مستحبّاً في البيت والحانُوت فهْوَ ليس كذلك في الدائرَة الرسميَّة إلاّ إذا كانَتْ الزيارة لغير مَهَمَّة[2] وكان

---

1 زَفَرَ أخرج نَفَسه بعد مدِّه إيَّاه.

2 الهَمُّ الحزن وما هَمَّ به في نَفْسِهِ.

المزور لا شيء يَشْغَلُه. فليسَتْ الدائرة الرسميَّة ملزمَة بالواجبات التي لا بُدَّ منها في البيت والحانُوت ومكتب الصَّحافي ولكنَّها عادة قديمَة راسخَة. وإذا طال الزَّمان على عادة صارَتْ شيئاً مألوفاً. وصار الكُلّ يمارسونَها بدون تفكير حتى يَنْجُم [1] عنها ضررٌ كبير. وليس في عادة تقديم القهوة غير إضاعَة شيء مِنَ الوقت. وليس للوقت قِيمَةٌ كبيرةٌ هناك إلاّ عند صاحب الحاجة الملحَّة. فما سمعْتُ أحداً يشكو مِنْ ضيق الوَقْت أو قِصَره أو يسير مُسْرعاً إلى حاجة ما. بل تجد كثيراً مِنَ التجار يقفلُون أبواب حوانيتهم في النَّهار لكي يذهبُوا إلى القيلُولَة [2]. أو تناول الغذاء في المطعم. ولا سيَّما اولئك الذين يعلمُون أنَّهم لا مُزاحِمَ لهم ولا مُنافِسَ في تجارتِهم.

وأمرٌ آخر أنكرتُه واسْتَسْمَجْتُه [3] في الدوائر الرسميَّة. وهو أنَّك تذهب إلى دائرة وأنت على موعد مَعْلُوم مع مديرها أو رئيسها. وفي نيَّتك أو عزمك أنْ تقضيَ معه بضع دقائق لأمرٍ مِنَ الأمور. ويكون هو في انتظارك. ولكنَّك لا تكاد تستقر في مكتبِه حتى ينفتح الباب ويدخل عليه موظَّف أو غير موظف فيَشْغَله عنك ويقطع حديثه معك. ويَهْمِس في أذنه أو يقول له جهراً أنَّ فلاناً يريد الدخُول عليك فلا يقول له: لينتظر قليلا بل يقول له: لِيَدْخُلْ...

وهكذا تختلط المواعيد ويَزْحَمُ الزَّائرُ الزَّائرَ.

قلت لأحدهم إنَّ هذه الطَّريقة تؤدي إلى التشويش وضيَاع الوَقْت فتنهَّد وقال: إنِّي أعرف هذا الأمر. ولكن لكلٍّ واحد مِنْ قومِنَا دالَّة يدُلُّ علينا بها فإذا قيل له: انتظر إلى أنْ يأتيَ دورك أو إلى أنْ ينصرف الزائر الموجُود كَبُرَ [4] عليه الأمر واستاء وربَّما مضى يشنِّعُ علينا فهنا كُلّ أحد يعرف كل أحد. ويتوقَّع مِنْ كُلِّ أحد أنْ يَحْرِصُ على إحساسه الرَّقيق.

وأنْ أنسى فلا أنسى مرة دخلْتُ فيها إلى مكتب مِنْ مكاتب الأونيسكُو فرأيْتُ هناك حَشْداً مِنْ أَصْحاب الحاجَات فحاولْتُ الرُّجُوع فأبَى مدير المكتب وألزمَني بالقُعُود. وهناك سمعْتُ الحِجَاج [5] بينه وبين البعض حيناً بالعربيَّة وحيناً بالفرنسويَّة. ورأيتُه في جهاد مُرْهِق [6]. وتعب روحي مُضْنِك مِنْ جرَّاء محاولته التَّوْفيق بين الواجبَات التي تَفْرِضَ عليه وظيفته. وبين رغائِب النَّاس بصورة لا تذهب معها هيبَة الواجب ولا يصيب شواعر القوم شيء مِنَ التوتُّر.

فأدركْتُ مِنْ هذا المشهد أنَّ حياة الموظف ليسَت بالحياة الهانئة وأنَّ عليه أنْ يكونَ صبُوراً إلى درجة

---

1 ونَجمَ الشيء ظهر وطَلَعَ.

2 القيلولَة: القائلة الظهيرة والقَيْلولَه النَّوم في الظَّهيرة.

3 سَمُج قَبُحَ.

4 كَبُرَ عَظُمَ.

5 الحِجَاج: حاجَّه مُحاجَةً وحِجاجاً جادَلَهُ.

6 مُرْهِق: أرهَقَه رَهِقه كفرح غشيه ولَحِقَه أو دَنَا منه واسْمٌ من الإرهاق وهو أن تَحْمِل الإنسان على ما لا يُطِيقه.

البَلادة[1] وذكياً إلى درجة النُّبوغ. ولبقاً إلى درجة الدبلوماسيَّة. وإلاّ فإنَّه لا يستطيع أنْ يُرْضِيَ أحداً.

وإنِّي أعرفُ موظفاً لبنانياً قديراً جاء إلى الولايات المتَّحدة لِدَرْس الطّرائق التي يتمشَّى عليها الأمن العام ولمَّا عاد إلى لبنان أراد أنْ يُدْخِلَ هذه الطرائق الحديثة على الأمن العام هناك فما لبث أنْ أُقِيلَ مِنَ الخدمَة. أمَّا السَّبب فهْوَ أنَّ النَّفوس التي تعوَّدَتْ الإستمرار في الفوضى لم تستطع أنْ تَهْضِمَ[2] النِّظام.

فقل للذين يدعُونَ إلى إنشاء المدارس لتعليم الأولاد حبَّذا[3] لو دعوتموهُم إلى إنشاء مدارس لتعليم الكبَار والتَّقَيُّد بالنِّظام.

ومِنْ دلائل الإستهتار بالنِّظام أنَّك كثيراً ما ترى اثنين واقفَين على رصيف الشارع كالجملة المعترضَة يتطارحَان الأحاديث ويتباحثَان في شؤون العالَم أو شؤونهما الخُصوصيَّة كأنَّ الرصيف ملك لهما ورثَاه عن أجدادِهِما. فإذا بلغ إليهما المارّ إضطرَّ أنْ يحيد عنهما وينزل إلى الشارع. ويَريانه يفعل هذا الأمر ولا يحيدَان مِنْ طريقِه!!

هكذا يتشَوَّش النِّظام وما مِنْ زِحام!

«للكلام صلة».

السَّمير: 27/ 1/ 1949

ما رأيت وسمعت

الشِّراع والحرف.

حرَّكَ إنعقاد مؤتمر الثقافية والتربية الأُمَمِي في مدينة بيروت كِبْرياء[4] الشَّعب اللبناني واعتزازه بنفسِه وماضيه فانطلَقَتْ أقلام الكتَّاب والشعراء تترنَّم بالمجد القديم وتشيدُ بفضل الشواطيء التي ولدَ فيها «الحرف» فتَسَنَّى للفكر أنْ يخرجَ مِنْ سجُون الإيماء والصوت والحركة ويُلْبِسَ الكلام صوراً ورموزاً تَنْقُش في اللَّوح وتَرْقُمُ[5] في الرَّقّ[6]. وتدوِّن في القِرطَاس[7] فكان لتلك الشواطيء فضلٌ على كُلِّ

---

1 البَلادَة: بَلِدَ بَلادَة ضَعُفَ ذكاؤه قَلَّ نشاطُه.

2 هَضَم: هَضَمَه حَقَّه ظَلَمه. والنِّظام مِلاك الأمر ج أَنْظِمة. ومِلاك الأَمر قِوامُه الذي يملك به. والقِوام: بالكسر نظام الأَمر وعِمادُه ومِلاكه كقيامِه.

3 وحبَّذا الأَمْر أي هو حبيب جُعِل حَبَّ وذا كشيء واحد وهو اسم وما بعده مرفوع به ولزم ذا حَبَّ وجرى كالمَثَل بدليل قولهم في المؤنَّث حبَّذا لا حَبَّذِه.

4 الكِبرياء العظمة والتَّجبُّر والتَّرفُّع عنِ الإنقياد.

5 الرَّقْم الكتابة وقولهم: هو يَرْقُمُ الماء أي بلغ من حِذْقِهِ بالأمُور أنْ يرقُمَ حيث لا يثبّت الرَّقم.

6 الرقّ: بالفتح ما يكتَب فيه وهو جِلْد رقيق.

7 القِرْطاس الصَّحيفة يُكْتَبُ فيها.

الشواطيء في الدُّنيا كما كان للفينيقيّين فضلٌ على كُلِّ الأمم...

ومضتْ الأقلام تتغنَّى بالشِّراع تغنيها بالحرف وتفيضُ في سرد تلك الصفحة المجيدة اللامعة مِنْ تاريخ الإنسان. وفي صفحة ليس للفينيقي الذي سيَّر أوَّل شراع في البَحْر مَنْ ينازعه فيها.

وإنَّه لشيء جميل ومفيد أنْ يكونَ في تاريخ الأمَّة أحداث عظمى تحملها على الفخر والإعتزاز ومباهَاة العالم بها.

غير أنِّي أطلَلْتُ مراراً على الشواطيء في بيروت وصيدا وطرابلس. تلك الشواطيء التي انطلق منها أوَّل شراع فما رأيتُ فيها غير زوارق قديمة الطِّراز وأحياناً كنتُ لا أرى شراعاً.

بلى[1]. رأيتُ في مرفأ بيروت يخت هتلر الذي شلَّتْ فيه الحركة فوقفَ وجمَدَ وصار لجمُوده كأنَّه قطعة مِنَ الشاطيء. وأصبح لا يصلحُ لشيء ولا يرجُو منه أحد خيراً حتى صاحبه وصار النّاس يزورُونَه كما يزورُون أثراً مِنَ الآثار القديمَة.

وهو يكلِّفُ صاحبه نفقات باهظة كان الأولَى والأجدَى أنْ تذهبَ لمعهد علمي أو خيري أو لمشرُوع عُمْراني[2] مفيد.

أعتقد أنَّ صاحب هذا اليخت قد ظلمَ نفسه باقتنائِه إيّاه. وربَّما جاز القول أنَّه ظلم الشاطيء الذي اتَّخذَه مرسًى ومأوى لليخت المعطَّل المشلُول. فهْوَ ليس سفينة لأنَّه لا يتحرَّك ولا يسير. وهْوَ ليس بيتاً إذ ليس فيه ساكن. وهْوَ ليس مَزاراً[3] للتَّبرُّك إذا لم يكن صاحبه الأول قدِّيساً!

إذن فهو هناك رمز لروح الكِبْرياء والأنانيّة في الأغنياء الذين يطغَى عليهم حبُّ الظهُور والفَخْفَخَة فيعملُون على لفت الأنظار إلى غِناهم[4] بهذه المظاهر الصخابَة التي كثيراً ما جلبَتْ عليهم نقد الجمهُور ونقمته. ولا سيَّما في ظروف كالظروف المُحْرِجَة التي يمرُّ بها لبنان وجيرانه في هذه الفترة مِنَ الدَّهر.

في الأمثال الدَّارجَة على الألسُن هناك: أنَّ المركب الذي ليس فيه شيء لله يغْرَق!

ويخت هتلر لم يكن فيه شيء لله ولا للإنسان فتعطَّل. والتعطيل مثل الغرَق!!

أمَّا «الحرف» أو الألف باء الفينيقيَّة فقد اندثَرَتْ مع الفينيقيّين وصار النّاس في تلك الشواطيء التي ولدَ فيها «الحرف» يلتمسُون كنوز المعرفَة في لغات النّاس. ويتكلَّمُون في مجالسِهم وبيوتهم بلغة مجلوبَة مِنْ وراء البَحْر. ويحسنُونها كأهلها الأصلاء[5].

سُئلْتُ مرَّة عمَّا إذا كان المهاجرُون لا يزالُون يتكلَّمُون اللغة العربيَّة فقلت لسائِلي: وهل يتكلَّم

---

1 بَلَى: جواب استفهام مَعْقود بالجَحْد تُوجِبُ ما يقال لَك.

2 العُمْران البُنْيان.

3 المَزار ما يُزارُ من مقابر الأَولياء.

4 غَنِي فلانٌ غِنًى وغناءً كثر مالهُ فهو غَنِيّ.

5 أَصُلَ النَّسَب شرُفَ فهو أَصِيل.

النّاس هنا اللغة العربيّة؟

أجل. إنَّ اللغة العربيّة قد أصابَها في عهد الإنتداب ما أصابَها في ديار الهِجْرَة فصار الحديث بها مزيجاً منها ومن الكلمات الأعجميّة وإنْ كانَتْ لغة الجرائد قد رقَتْ وسَهُلَت وتلألأت بالتّعابير الجديدة. وقد أخذ القوم بعد الإستقلال يندفعُون مع الوعي القومي فينصرفُون إلى تَنْقِية أحاديثهم مِنَ العِبارات [1] الإفرنجيّة. وكثُرَ المُنَدِّدُون بها في السر والجَهْر.

غير أنَّ لبنان الوثيق الإتصالات بالخارج لا يستطيع الإنطواء على نفسه. ولا يمكنه الإستغناء عن اللُّغات الأجنبيّة فالتّاجر يحتاج إليها. والسِّياسيّ لا بُدَّ له منها. والصّحافي لا تكمُلُ مَهَمّته إلاّ بها. حتى رجل الشارع يجِبَ أنْ يكونَ له بها إلمام.

وقد جرى نِقاش في مؤتمر الأونيسكو لجعل اللغة العربيّة مِنْ لغاتِه الرسميّة فما أسفر النقاش عن شيء. وكان ممثّلُو الدول العربيّة يتوقَّعُون أنْ ينصرُهم كثير مِنَ المندوبين فما تحقّقَ ظنّهُم مع أنَّ الفضل يعود إليهم - أي إلى المندُوبين العرب في صَيرُورة اللغة الأسبانيّة لغة رسميّة في المؤتمر كالإنكليزيّة والفرنسية.

ومِنَ المؤسف أنَّ حَظَّ العرب في المؤتمرات مِنَ الذين يستعينُون بأصواتِهِم في مواقف كثيرة ليس بالحظ السعيد لأنّهم لا ينالُون مثل التأييد الذي يبذلُونَه بل ربّما جُوزوا [2] على معروفِهم جزاء ليس فيه شيء مِنَ المعروف.

فهل مِنَ المُمْكِن أنْ يكونَ السَّبَبُ في ذلك هو أنَّ العرب يكتبُون مِنَ اليَمين إلى الشّمال والأمم الأُخْرى تُكْتَب مِنَ اليسار إلى اليَمين؟

وبعِبارة أجلى وأوضح أنَّ رابطة اللغة بين الأمم الأوروبية والأميركيّة تُخْضِع لسُلْطانِها كُلَّ حقّ وباطل فتراها متضامنَة في هذا وذاك تضامناً يشبه العصبيّة [3] الجنسيّة لا تنصر العرب في مسألة إلاّ إذا كانَتْ تلك المسألة لها أكثر ممّا هي للعَرَب.

هذا في المؤتمرات الدوليّة السّياسيّة أمّا في مؤتمر الأونيسكو فلم تَقَعْ مُشادَة [4] تذكر على أنَّ هذا المؤتمر يجب أنْ يكونَ أقوى ممَّا هو لكي يبلغ الغاية التي يُنْشدها. ولا يَعْثُر في سيره إليها. أمّا الآن فإنّه يتلَمَّس طريقه في خوف وحذر لأنَّ غولَ [5] السياسة لا يزال واقفاً يترصَّدَه وله أظفار لم تُقَلّم [6]. وشهوَة

---

1 العِبارَة الكلام الذي يبيّن ما في النَّفْس من معانٍ يقال: هذا الكلام عبارَةٌ عن كذا.

2 جازاه: عاقبه وكافأه ضدّ.

3 العَصبيّة التّحمّس للرّأي والمُدافعَة عنه.

4 المشادَة: شادَّ، مشادَّةً وشداداً غالبه وشادَّه في الأَمْر بالغ فيه ولم يُخفّف.

5 الغُول: واحد الغِيْلان وفي زعم العَرَب أنَّ الغِيلان هي الشّياطين التي تظهر للنّاس في الفَلاة فتتلوَّن لهم في صُوَرٍ شتّى وتَغُولهم أي تضلّلهم وتُهلِكهم.

6 قَلَّم: الشَّجرة أزال عنها الأَغصان اليابسة لِتَقْوى.

لم تُكبَح [1]. وكثيراً ما لذَّ لهذا الغول أنْ يجعلَ الثقافة مطيَّة له. أو إذا استعصى عليه ركوبها وضعها على ظهره وطار بها إلى حيث يريد.

يجب أنْ يُحبسَ هذا المارد في قُمْقُم زمناً طويلاً لكي يتسنَّى للأدب أنْ يَغْمُرَ [2] الدُّنيا بنورِه فيسودُ الإخاء بين البشر وتصير الأرض كلّها كالبيت الواحد والنّاس كلهم كالعائلة الواحدة.

وقد كانت خُطْبَة الرئيس بشاره الخوري الإفتتاحيَّة أروع الخُطَب التي أُلقِيَتْ في المؤتمر في مبناها ومعناها. كما كانَتْ برهاناً على طول باعِه وسَعَة إطِّلاعه في شؤون الحياة وغاية المؤتمر. وهي نشر التفاهُم بين أجناس البشر توصُّلاً إلى منع الحروب.

وعندي أنَّ فكرة تخرج مِنْ بلدٍ كلُبْنان ليس له جيش ولا أسطُول هي الفكرة التي يجدرُ بالدول ذات الجيوش والأساطيل أنْ تعتنقَها إذا كانَتْ تستهدفُ حقّاً السلام العام في الأرض.

السَّمير: 28/ 1/ 1949

ما رأيت وسمعت

الحيوان الآدمي:

الحيوان الآدمي هو ذلك العتَّال المِسْكين [3] الذي رأيتُه يمشي في بعض الأسواق حافي القدَمَيْن يَحْمِل على ظَهْرِه عِبئاً ثقيلاً. ويضطرُّ ـ وهذا العبء الثقيل على ظهرِه ـ إلى الوقُوف طويلاً على جانب الطَّريق منتظراً إنقطاع سيل السيَّارات المُتدفِّق لكي يعبُرَ الشَّارع.

إنَّه مَشْهد يُؤْلِم النَّفْس. بل هو منظر فيه لطمَة [4] قاسيَة للإنسان الرَّاقي الذي يرى أخاً له في الإنسانيَّة قد نزلَت به الضَّرورة إلى مرتبة الحيوان الأعجم. ومات فيه الحس فهو راضٍ بما قُسِمَ له. وشُلَّ منه العقل فهْوَ لا يفكِّرُ في التَّحرُّر مِنْ هذه العبوديَّة السوداء. مع أنَّه في وسعِه أنْ يريحَ ظهره ويخرج مِنْ مملكة الحيوان إلى مملكة البشر بدولارين وبضعَة [5] ألواح مِنَ الخشب ـ بعَجَلة صغيرة!

سألْتُ بعضهم لماذا يكلِّف العتَّال جسمه هذه المَشقَّة ولا يستعين بالدُّولاب؟ فقال لي أحدهم: ليس في العتَّالين مَنْ يملك ثَمَنَ عَجَلَة! وقال لي آخرُ: إنَّ هذه العجلات محظُور استعمالها في الشوارع

1 كَبَح فلاناً عن حاجته رَدَّهُ عنها.

2 غَمَرَ الشيءَ غَمْراً علاه وسَتَرَهُ.

3 المِسْكين من ليس عنده ما يكفي عيالَهُ والمِسْكين الخاضع الذَّليل.

4 لَطَمهُ لَطْماً ضرب خدَّه أو صفحة جَسَدِهِ بالكَفِّ مبسوطَةً أو بباطِنِ كَفِّهِ.

5 بِضْعَة: البِضْع في العَدد من الثلاث إلى التِّسْع تقول بضعةُ رجالٍ وبِضْع نساءٍ ويركَّب مع العشرة فتقول بضعة عَشَرَ رجُلاً وبِضْعَ عَشْرة امرأة. كذلك يستعمل مع العُقود فتقول بضعةٌ وعِشرون رجلاً وبِضْع وعِشرون امرأة ولا يستعمل مع المائة ولا مع الألْف.

المُزدَحِمَة.

ولماذا ـ قال لي آخر: تهتمُّ كثيراً بهؤلاء فإنّهم ربّما كانوا أروحَ بالاً منّي ومِنْكَ!!

أمّا أنا فلم أجد في هذه الأجوبَة ما يمحُو الإعتقاد الذي تولَّد في نَفْسي. وهو أنَّ هذا العتّال غير مستيقظ العقل والرُّوح. فقد خدَّر الجهل إحساسَه وطَمَسَ النُّور في روْحِه فبات لا يألم لحالتِه الزّريَة ولا يشعرُ أنّه ذو حقٍّ في الحياة كغيرِه مِنَ النّاس. ولولا ذلك لفكَّر وقاده التَّفكير إلى استنبَاط العَجَلَة أو اقتنائِها فأراح ظهره المُتعب مِنْ ذلك الوِقْر [1] الثّقيل. وأراح العيون مِنْ هذا المشهد الذي يستحضرُ إلى الأذهان عصُورَ الكهُوف والغابَات. ويبدو في مدينة بيروت المتحضِّرة الرّاقية كالعاهَة في وجه الحَسْناء.

أَجَل، إنَّ مَرْأى هذا العتّال الحافي المَضْنُوك لا يتناسبُ مع حَشْدِ السيّارات الجديدة الأنيقَة التي تكتظُّ بها أسواق بيروت. فضلاً عن أنَّ الفائدة التي تجنيها البلاد مِنْ هذا العتّال في حالتِه الحاضرَة المزريَة هي أقلُّ مِنَ الفائدة التي يَجْنيها هو مِنْ حياتِه على هذه الوتيرَة [2]. فلو استعَان بالعَجَلَة أو أُعِيْنَ بها فإنّه يستطيع عندئذ أنْ يختصرَ المسافة والوَقْت وأنْ يقومَ بأكثر ممّا يقوم به الآن مِنَ الخَدَمات. ويبقى لديه شيء مِنَ الوَقْت للتفكير في رفع مستواه.

يجب التَّرفِيْه عن هؤلاء العتّالين وتحسين مظاهرهم لصيانَة سمعَة البلد وأهله فإنَّ السائح الأوروبي أو الأميركي أو أيّ سائح آخر أوّل ما يرى مِنَ البلد شوارعها وما في شوارعها وأوّل ما تلتقطه عدسة آلة التصوير التي معه هو هذا العتّال وما شاكَلَ مِنَ المرئيّات المُستهجنَة فيعود إلى بلادِه وينشر تلك الصور كأنّما ليس في لبنان غيرها...

قِيْلَ لي أنَّ بيروت لم تكن قبل مؤتمر الأونيسكو على النظافة التي رأيتُها. وإنَّ الحكومَة بذلَتْ جهُوداً جبّارة حتى صارَت المدينة كما رأيْت.

قلت: إذن في إمكان الحكومة أنْ تستبقيَ بيروت على هذه الأناقة والنظافة كل الوَقْت وعلى الشَّعب أنْ يعاونَها في هذه المهمَّة تعزيزاً لمكانتِه وحرصاً على سمعتِه. فإنَّ التَّنديد بالحكومَة لأنَّ رجلاً طرح أقذاراً أو نفايَات أمام داره هو بمثابة تبرير لذلك الرجل وتشجيع له على الإستمرار في عادتِه وإعفاء له مِنْ المسؤولية ونقلها مِنْ كاهلِه إلى كاهلِها. فيكثر الإستخفَاف بالحكومة والقوانين التي تسنُّها. وهذا ليس بالأمر الذي تحمَدُ عواقبه.

النّقابات...

لأصحاب الفنادق في لبنان نقابة تسعى سعياً حثيثاً لحمل الحكومَة على إعفاء الأثاث والأدوات التي يستجلبُونَها مِنَ الخارج مِنَ الضريبَة الجمركيَّة. وحجَّتُهم في ذلك أنَّ تكثير فنادق الإصطيَاف في لبنان يؤدِّي إلى حركة تجاريَّة يستفيدُ منها الجزّار والبدّال والسَّمكريّ والبنّاء وغيرهُم مِنَ النّاس فبقاء

---

1 الوِقْر: بالكسر الحِمْل.

2 الوتيرَة: الطَّريقة يقال ما زال على وتيرَةٍ واحدةٍ.

الرسوم الجمركيّة على الأدوات والأشياء المستجلبة مِنَ الخارج يُقْعِدُ بالرّاغب في بناء فندق عن بنائِه.

وللخدَم في الفنادق نقابَة غير أنّها ليستْ ذات فاعليّة كبيرة كنقابات العمال في أوروبا وأميركا.

ولأصحاب الجرائد نقابة رئيسها الأستاذ اسكندر الرياشي المشهُور باستهتَارِه واستخفافه وشهرته متجسّدة بذكائِه واتّصافه بالدعابة وميله إلى المغامرة. وكيفَما كان الحال فلأصحَاب الجرائد في بيروت نقابَة وللمُحرّرين في الجرائد نقابة.

ولكن وقعَ في بيروت حادثة ظنَنْتُ أنّه سيقيم هاتين النقابتَين ويقعدهُما وهو أنَّ السُّلْطة ساقَتْ إلى السجن مخبراً نشر في إحدى الجرائد حادثة مكذوبَة لها مسَاس بالقضاء وَزُجَّ في الحبس في اللّيلة التي سبقَتْ ليلة رأس السنة.

ولم تكن النقابتَان مسافرتَيْن ولا محبُوستَيْن ولكنّهما كانتَا حيال هذا الحادث كأنّهُما انتقلَتَا إلى عالم غير هذا العالم المنظُور! إذ لم تحرّكْ إحداهُما ساكناً ولا قلماً ولا لساناً. ولم تقدّم هذه ولا تلك للسّجين ضماناً! ليخرج مِنَ السجن ويقضي العيد مع أهله وصحابه. كما قضى زعماء النقابتَيْن وأعضاؤهما العيد مع أهلِهم وأصحابهم...

«وللكلام صلة».

السّمير: 31/ 1/ 1949

ما رأيت وسمعت

مرض النوم.

يقولون أنَّ القهوة تجلب الأرق والقلق وتطرد الكرَى مِنْ حمى العيُون وكنْتُ أنا مِنَ الذين يؤمنُون بهذا القول حتى لقِيتُ بعض الأدباء في لبنان ومنهُم رفيقي القديم شكري بخَّاش صاحب «زحله الفتاة» فهُوَ لا بُدَّ له مِنْ أنْ يعانقَ الوسادَة بعد الظهر ولو شرب خابيَة مِنَ القهوة. وإذا لم ينم ذبلَتْ عيناه واحمرّتْ أجفانه وظهرَتْ عليه أمائر الإعياء.

عند وصولنا إلى مطار المزّة استقبلَنَا وفد الحكومة اللبنانية ولقينا من مدير المطار السيد زهير العطيّة ترحاباً كثيراً وعناية فائقَة. وفي مكتبِه بدأتْ تطلُّ علينا القهوة. التي صرْتُ بعدئذ أتوقَّعُ طلوعها عليَّ في كُلِّ مكتب وحانُوت ودائرة.

ثمّ حملتْنَا السيّارات إلى زَحْلة [1] حيث تناولنا طعام الغذاء في منزل يوسف بك البريدي مع جمهور

---

1 زَحَل عن مكانِه زَحْلاً وزُحُولاً زَلَّ وتنحّى وتباعد. وزحلة مدينة لبنانية يقصدها المصطافون لجمال مناظرها وأريحيّة سكّانها. وفيها ينبع نهر «بَرَدى» الذي أوحى لأمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدته الكافية المشهورة التي نظمها وهو جالس على ضفة ذلك الوادي وادي نهر بردى جاعلاً عنوانها: «**يا جارة الوادي**».

كبير مِنْ أنسباء ذلك البيت وأصدقائه.

وجاء شكري يهلِّلُ ويرحِّبُ وسار بي إلى الوادي - وادي العرائش - الذي جرَّده الخريف مِنْ حُلِيِّه[1] ونزع بيدِه القاسيَة سربال البشاشَة وألقى عليه كآبة مهيبَة. فمررْنَا بعين البخاش التي كلَّما مرَّ بها شكري طرح عليها نظرة أسَف وتحسُّر. فقد كانَتْ هذه العَيْن مُلْكاً لأسرة البخَّاش فاستولَى عليها الرُّهبان أو قُلْ ذهب بها الإيمان ولكنَّه أبقَى عليها اسمها فكان في هذا بعض العزاء لصاحب جريدة «الفتاة».

وأبَى شكري أنْ نغادرَ الوادي إلاّ إذا ذقنا فيه العَرَق الزَّحلِيَ أو «حليب السِّباع» كما يسمِّيه ابن الوادي نجيب ليان. فشربْنَا نَغبة منه في منطقة «الكوخ الأخضر» التي يحتلها في الصَّيف الشَّاعر رياض المعلوف.

ورَجَعْنَا فإذا شكري يقول لنا بلَهجة المُستنجد المُستغيث: لا أستطيع البقاء معكم فقد داهمَني النُّعاس!!».

ومثل هذا الإستسلام للنُّعاس رأيْتُه في الكاتب البحَّاثَة يوسف ابراهيم يزبك الذي رافقَني إلى دمشق فما كانَتْ تجيء الساعة الثانيَة بعد الظهر حتى رأيت البشاشة تنطوي في وجهِه ودبَّ التعب إلى أجفانِه. فأسرع إلى غرفتِه لينام ولو رُبْع ساعة.

قد تقول ربَّما كان القوم يطيلُون السَّهر في اللَّيل. لا. فسهرات القوم هناك لا تطولُ إلى أبعد مِنَ الساعة الحاديةَ عَشْرَةَ. وأحياناً تنتهي قبْلَها.

نَعَمْ. ليس السَّهر السبب. بل يَلُوحُ أنَّ في هواء لبنان شيئاً كالمخدِّر أو المسكر يَجرَعُه الإنسان وهو لا يدري فيجرّه إلى الفراش مُرْغَماً.

ولذا حاولْتُ أنا مرَّة أنْ أنامَ كما ينامُون فأعيانِي الأمر. ولم أستطع القيام بهذه المحاولَة مرة ثانية لكَثْرةِ الزائرين وتوالي الوفُود مِنْ مختلف البُلْدان وكُلٌّ وفد يسألني أنْ أزورَ بلده ناهيكَ[2] بالدَّعوات البرقيَّة والبريديَّة الكثيرة التي تلقَّيتُها مِنَ الكليَّات والمدارس والجمعيَّات والأفراد مِنْ أماكن بعيدة وقريبَة كحلَب وعمَّان وبَغْداد واللاذقيَة وصيدا. ولكنْ هيهَاتِ[3] أنَّ الوقْت كان يَسْربُ كما يسرب الماء مِنْ فُرُوج[4] الأصابع. فما أمكنَني أنْ ألَبِّي غيرَ قليل منها ولا أنْ أزورَ إلاّ معاهد قريبة كالجامعَة الأميركيَّة وكلِّيَة البنات الثانويَّة في بيروت الأولى وذلك بإلحاح الأستاذ وديع ديب والثانية بإلحاح الآنسة سلوى نصَّار التي سبَقَ لها أنْ زارت الولايات المتَّحدة.

---

1 الحَلْي بالفتح ما يزيَّن به من مَصُوغِ المعدَنيَّات أو الحجارة ج حُلِيٌّ كدُلِيٍّ أو هو جمع والواحد حَلْيَةٌ الحِلْيَة بالكسر الحَلْي ج حِلًى وحُلًى.

2 ناهِيكَ من رَجُلٍ معناه أنَّه بجدِّه وغنائه ينهاك عن تَطَلُّبِ غيرِهِ.

3 هَيْهاتِ اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ.

4 الفُرْجة بالضمِّ فُرْجَة الحائط وما أشبهه يقال: بينهما فُرْجَةٌ أي انفراج.

وقد أدهشني ما رأيْت في طالبَات كلِّيَة البنات مِنْ يقظة فكريَّة وذكاء وفَهم فما كِدْتُ آخذ مكاني حتى انهالَتْ عليَّ الأسئلَة منهُنَّ في كُلِّ ناحية مِنْ نواحي الأدب والحياة والموت والخلُود.

وأخيراً عمدنَ إلى استطلاعي عن نفسي فهذه تسأل - كيف نظمتَ أوَّلَ قصيدةٍ؟ وتلك تريد أنْ تعرفَ اسْمَ الفتاة التي نظمْتُ فيها القصيدَةَ الفُلانيَّة؟

وتلك تسأل - أهي شقراء أم سمراء؟

وبعد ذلك أقبلْنَ سِرْباً[1] بعد سِرْب وكُلُّ واحدة تحملُ دفتراً في يدها تريدُ منِّي أنْ أكتبَ لها فيها كلمة تذكاريَّة فانقضَى أكثر مِنْ نِصْف ساعة قبل أنْ أنتهي.

ثم دعتنا رئيسة الكليَّة ومديرتها إلى مائدة شاي. ولم أكتم تعجُّبي كيف رضِيَتْ الآنسة سلوى نصَّار وهي التي رافقَتْ البروفسور لورنس في معالجة القوَّة الذرِّيَّة وكشف سرِّها أنْ تحصرَ ذاتها ومعارفها العلميَّة في مدرسة. وقد سألتُها في ذلك فقالَتْ لي: إنَّها حاولَتْ إنشاء مختبر في بيروت فلم تنصُرْها الجامعَة الأميركيَّة ولا الحكومة.

وليسَتْ سلوى نصَّار أوَّل إختصاصيَّة في فنّ أو علم رَجَعَتْ إلى الشَّرق العربيِّ فلم تستطع مزاولَة اختصاصها أو عملها. فكثيرٌ مِنَ الشَّباب الذين تلقَّوا العلُوم في كليَّات أميركا وجامعاتها ورجعُوا إلى بلادِهِم فلم يظهر لعلمهم أثرٌ؛ لأنَّهم لم يجدُوا المجال فسيحاً ولا التُّربَة صالحةً فانصرفُوا إلى مزاولَة الوَظيفة إمَّا في السِّلْكِ الحكوميّ وإمَّا في المعاهد العِلْمِيَّة.

وبالرَّغْم من كُلِّ ذلك فإنَّك تسمع الصياح يتعالى من المراجع العاليَة - نحن بحاجة إلى خبراء اختصاصيِّين مِنْ قومنَا!!

وقد زرْتُ مدينة صيدا كما يزور الطائر الغدير. لَمْحةً[2] ثُمَّ يطير عنه. وكانَتْ هذه الزيارة حافلة بأسباب السُّرور وكان معي في هذه الزيارة الصَّديقان ميلاد المعلوف وابن عمّه جوزيف اللَّذان سبقاني إلى نيويورك وكنَّا كلنا في ضيافة الأديب المحمود المَشْهَد[3] والمغيب السَّيِّد شاهين القزي وقرينته الفاضلَة وما كِدْنا نستقر في منزلهما القائم على مَقْرُبَة مِنَ الشاطيء حتى سرى الخبر أنِّي هناك فأقبل عدد كبير مِنْ سكَّان تلك النَّاحية للسَّلام علينا وكلّهم يستفسر عن أحوال المهاجرين.

وكان الغَرضُ مِنَ الذَّهاب إلى صيدا زيارة رجل الله المجاهد في سبيل اللاجئين وهو قدس الارشمندريت باسيليوس القسيس الذي تلطَّف فزارني مرَّتين في بيروت وهو شقيق السَّيِّد بطرس القِسِّيس في نورولك كنكتكت.

والشواطيء في ذلك الشطر مِنْ لبنان تشبه شواطي كاليفورنيا غير أنَّها ليسَتْ عامرَة مثلها فقليلاً

---

1 السِّرْب الفريق من الطَّير والحيوان ج أَسْراب.

2 لَمْحةَ: لَمَحَهُ أبصره بنَظَرٍ خفيف وبابه قَطَع وأَلْمحه أيضاً والإِسْم اللَّمْحَة بالفتح.

3 المَحْمُود المَشْهَد: ما يُشاهَدُ.

ما تقع العين في هذه الشواطيء على شيء مِنَ العُمْران الذي يراه الإنسان في شطوط كاليفورنيا.

أمَّا البَحْر في تلك البُقْعة مِنَ الدُّنيا ففيه رَوعةٌ ما رأيتُها في بَحْرٍ آخَرَ سِواه!

«وللكلام صلة».

السَّمير: 2/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

قلعة بَعْلَبَكّ - مستشفى تلّ شيْحا - مصحّ ضهر الباشق.

كانت السَّماء راضية. لا جَهْمَة [1] فيها ولا كدر يوم انطلقَتْ السيَّارات مِنْ بيروت تُقِلُّ [2] وفود الأونيسكو إلى مدينة الشَّمْس... إلى بَعْلَبَكّ [3] التَّاريخيَّة التي كان هيكلها أو قلعتها مِنْ عجائب الدُّنيا السَّبع ولا تزال مِنْ أعجب آثار العصُور الخوالي التي تخبر أعمدتها الشاهقَة وجُدْرانها الضَّخْمة عمَّا كان بين الإنسان والصُّخور مِنْ صِراع. وكيف كان أصحاب السُّلْطان والجاه يعيشُون بِمَعْزِلٍ [4] عن الجماهير لتظلَّ هيبتهُم مالئةً قلوبَ الجماهير المُستضعَفة. وإنَّك لا تَقْدِرُ إلاَّ أنْ تَعْجَبَ أمام تلك الآثار الباقيَة ممَّا كان عليه فنّ النَّقش والنَّحت والتَّصْوير مِنْ رُقيّ وسمُو. حتى في أيَّام الفينيقيِّين...

كان رفيقي في هذه الزيارة مندُوب معهد ركفلر في نيويورك واسمه المستر مارشل وهو رجل لطيف المَعْشَر دقيق الملاحظة شديد الرَّغبة في الإستطلاع فكان ونحن منطلقُون في الطَّريق كلَّما مررنا بموضع أو بلدة أو جبل يميلُ عليَّ ويَسْتَفْسرُني عنه فأجيبُه بما أعلم. وما كان أشدَّ إعجابَهُ بمناظر لُبْنان ولا سيَّما التي كانَتْ تلوحُ لنا ونحن نصعد في الهضاب والقِمَم.

وقد رأت الحكومة اللبنانية مبالغَة في السَّهر على سلامة الوفُود وتكريمهم أنْ تبثَّ الجنود في الطَّريق فكنَّا كلَّما قطعنا ميلاً أو بعض ميل نرى جنديَّين واقفين إلى جانب الطَّريق.

ولما بلغنا بَعْلَبَكّ رأيْنَا أهاليها قد خرجوا مِنَ البيوت وتألَّبُوا [5] على جوانب الطَّريق المؤدي إلى القلعَة. ذهبنَا نحن لنتفرَّج على القلعة وخرجُوا هم ليتفرَّجوا على وفود الأونيسكو.

---

1 الجَهْمَة: جَهَمه جَهْماً استقبله بوجهٍ كريه وأَجْهمتِ السَّماء صارت ذات جَهام والجَهام السَّحَاب لا ماءَ فيه.

2 قَلّ: القليل ضِدّ الكثير والنَّادِرة ج أَقِلاَّء.

3 بَعْلبَكُّ اسم مدينة بالشَّام، والبَعْل اسْم صنَم كان لقوم إلياس عليه السَّلام وبَعْل اسم معبود لدى الكنعانين وبعض الشُّعوب الساميّة الأُخرى وبه سُمّي بعض أصنام العرب في الجاهلية.
وبَكَّ الشيء بكّاً هشمه ومزَّقه والباكّ الأحمق الثَّرثار.

4 وَعَزَله أَفْرَزَه يقال: أنا عن هذا الأَمْر بِمَعْزِلٍ.

5 تألَّبُوا: تألَّبَ النَّاسُ تجمَّعُوا.

واستقبل مدير الآثار ومعاونُه جموع الزَّائرين عند مدخل القلعة ومَشَيا أمامهم وأخذَ كلّ واحدٍ منهم يشرحُ بدوره تاريخ القلعة ويَسْرُدُ[1] حكاية ما فيها مِنَ المعابد وكان كلاهما يقصُّ سيرة القلعة باللغة الإنكليزية.

وكان هناك عددٌ مِنَ المصوِّرين يدورون كالصَّيَّادين مِنْ مكان إلى مكانٍ ويلتقطُون مشاهد المُتفرِّجين. ولا سيَّما إذا لمحُوا بينهم شخصيَّة بارزة يعرفونَها.

وبعد الطَّواف في القلعة انكفأ القوم راجعين مِنْ مدينَة الشَّمْس بسياراتِهم إلى زَحْلة والْتَقوْا كلهم في نزل قادري حيث كانت في انتظارِهم مأدبَة مِنْ افخر المآدب تفنَّنَ الطُّهاة في إعدادها تفنُّناً رائعاً مُدْهِشاً. فكانَتْ ملامح السّرور والإعجاب باديَة على وجوه الجميع.

واختَلَسْتُ أنا قليلاً مِنَ الوَقْت وذهَبْتُ مع الصّديق فوزي البريدي والدكتور فَرَح إلى مستشفى تلّ شِيْحا[2] الذي طالما سعَتْ «السّمير» في سبيلِه وحثَّتْ الناس على البَذْل له فإذا بنا في بناية أنيقَة جميلة التَّرْتيب غير أنَّ غرفاً كثيرة فيها بحاجة إلى التَّرميم ولا سيَّما السَّطح أمَّا الأسرَّة والأدوات التي أرسلَها المهاجرُون فلا تزال محفوظَة في الغرف السُّفْليَّة.

وقد علمْتُ وأنا في بيروت أنَّ لجنة المستشفى في نيويورك أرسَلَتْ إلى اللجنة في زَحْلة عشرة آلاف دولار للقيام بالإصلاحات اللازمَة وفتح المستشفى في الصَّيْف القادم. كما علمْتُ مِنْ فوزي أنَّ الحكومَة اللبنانية وعدَتْ بمنح هذا المستشفى خمسين ألف ليرة لبنانية. وهكذا تتحقَّق الفكرة التي ولدَتْ مراراً ونامَتْ مراراً. وكاد اليأس يستولي على النفُوس مِنْ إمكان تحقيقها لكثرة ما اعترضَها مِنْ مصاعب وقام في طريقِها مِنْ عثَرات وأُنفِقَ في سبيلِها مالٌ كثير وبُذِلَتْ جهُودٌ أكثر.

وأُتيحَ لي أنْ أزورَ مَصَحَّ ضهر الباشق في بيت مري. وهذه مؤسَّسة أخرى جاهَدَتْ «السَّمير» في سبيلِها جهاداً كبيراً. وحملَتْ غيرها مِنَ الصُّحُف على الجهاد. ذهبْتُ إليها يرافقني الكاتب المشهُور جورج باز الذي يتولَّى الآن إدارة المَصَحّ. فإذا هناك حوالي ثلاثة عشر بناية. مستقلٌ بعضها عن بعض. وكلُّها قائمة في مرتفع مِنَ الأرض يُطِلّ على البَحْر.

يمكنني أنْ أقولَ أنَّ هذا المَصَحّ قلعة مِنْ قلاع الرَّحْمة والحنان. وكذلك كلُّ مَعْبد الغاية منه تخفيف الآلام عن الإنسان.

وقد سمعْتُ الألسُن تَلْهَجُ[3] بالثناء على هذا المَصَحّ. وألسُنْ الخلق أقلام الحَقّ.

أمَّا حَرْش[4] الشفقة فهو حديقة يستريحُ فيها المَرْضى ويقضُون أوقات التسلية في أيَّام الصَّيْف غير

---

1 سَرَدَ: وسَرَدَ الحديث والخبَرَ ونَحْوَهما جاء به مُتَتابِعاً.

2 الشّيح نَبتٌ.

3 لَهَجَ: اللَّهج بالشيء الولوع به وقد لَهِجَ به من باب طرب إذا أُغْرِيَ به فثابر عليه.

4 الحَرْش: الأثر والجماعة.

أنَّ الحاجة الآن بعد أنْ تمَّتْ الغاية مِنْ مشروع الحرش إلى بناء خاصّ بالفحص الطِّبِّي توافرُ فيه أدوات الجراحة والطِّبابَة الحديثة هكذا قال لي الأستاذ باز.

وهناك مَصَحٌّ آخرُ مثل هذا في بحنّس. غير أنَّ سكان بحنّس لَّما اشتهرَ اسم ذلك المَصَحّ وصار ملازماً لإسم البلدة أشفقُوا أنْ يتنكَّبَ السيَّاح والمصطافُون عن زيارتِها فأطلقُوا على بلدتِهِم اسْماً جديداً وهو «ضهر الصَّوَّان [1]» لكي يتخلَّصُوا مِنْ إسم مَصَحّ المسلولِين في بحنّس.

وإنشاء المستشفيات شيء ضروري في كُلّ بلاد وإنَّما يجب مع وجُود المستشفيات أنْ يُعْنَى بالحؤول دون تلوُّث المياه. وأنْ تُصَانَ الخضراوات والبقُول مِنَ الجراثيم. وبذلك يُحَال دون إنتشار الأمراض كالتِّيفُوس التي لا يمرُّ شتاء إلاّ وقد سقط الكثيرون ضحايا لها!

درهم وقايَة خيرٌ مِنْ قنطار علاج.

السَّمير: 7/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

مع الدكتور طه حسين.

إلتقيْتُ بمَعَرِّي العصر [2] في دار الإذاعة اللبنانية التي حَرِصَتْ على أنْ تسجلَ لكلّ كاتب أو شاعِر حديثاً أو قصيدة تذاع على مسامع الشَّعب اللبناني. وفي الواقع كانَتْ هذه الإذاعة بمثابة سوق عُكاظ [3]. ولا سيَّما عندما التف عدد مِنْ الشعراء والأدباء والأساتذة بالدكتور طه حسين الذي وجَّهَتْ إليه الحكومَة اللبنانية دعوة خاصة.

وألقى عليه بعضهم أَسْئلة فكانَتْ أجوبته عليها أشبه بمحاضرَة وكان الكلُّ ينظرون إليه فيُخيَّلُ إليهِم وهو مندفعٌ في الحديث كأنَّه يقرأ في كتاب.

هناك تعرَّفْتُ إليه. فألحَّ عليَّ أنْ أزورَ مِصْر وكذلك فعل الدكتور بِشْر فارس الذي عرفْتُ منه أنَّه مِنْ أسرة «بِكْفاوية». ولكن زيارة مصر لم تكن في بروغرامي. ولا كان الوَقْت متَّسعاً لهذه الزيارة.

واجتمعْتُ مرة ثانية بالدكتور طه حسين في فندق سان جورج فطلبَ منِّي أنْ أذكر له تاريخ مغادرتي لوادي النِّيل وعن سبب نزوحي عنه. فحكيْتُ له كيف كانت الرقابَة شديدة على الأقلام.

---

1 الصَّوَّان: بفتح الصَّاد مشدّداً ضرب من الحِجارَة الواحدة صَوَّانَة.

2 المقصود بـ مَعَرِّي العصر أبو العلاء المعرِّي الشاعر الفيلسوف الكبير. ومَعَرَّة د بين حماة وحلب وتضاف إلى النُّعمان والعُرَّة المَعيبة من النِّساء.

3 عُكَاظ: كغُراب سوقَ بصحراءِ بين نَخْلة والطَّائف كانت تقوم هلالَ ذي القَعْدَةِ وتستمر عشرين يوماً تجتمع قبائل العرب فيها فيتَعاكَظون أي يتفاخرون ويتناشدون.

والجاسوسيَّة منتشرة في كُلِّ مكان بحيث يتحفَّظ المرء في حديثِه مع أعزِّ أصدقائه فذكرت له بعض الوقائع التي آلمتني وضايقتني، فأجابني قائلاً: إنَّ الحالة في مصر الآن أسوأ ممّا كانت عليه في أيّامِك.

ثمَّ أردف قائلاً: هذا هو سبب نِقْمَتي على مصر. وهذا هو السَّبب في إنطلاق لساني بالعتَب عليها. فإنّي كلَّما قرعْتُ باباً للإصلاح سُدَّ في وجهي.

وممَّا قاله لي في سيَاق حديثه عن الأدب: إنَّ الشعر في مصر في وقتنا الحاضر ضَئيل هَزيل!

ولم يطلْ المكُوث في بيروت ثمَّ عاد إلى مصر ولسانه يلهجُ بالثَّناء على لبنان لَما لاقَاه فيه مِنْ حفَاوَة الحكومة والأدبَاء.

وقد ألقى قبل سفره محاضرَة ممتعَة في نادي الجامعة الأميركيَّة عن فَنّ الغِناء في الحجاز وكيف انتقلَ إلى العراق ثمَّ إلى الشام.

ولو سُئلْتُ رأيي فيه لقلْتُ أنَّ هذا الرجل جامعة معارف تمشي على قدمين. وأنَّ مصر تعرف قَدْرَ هذا النّابغة ولكنْ يظهر أنَّ السياسة الحزبيَّة هي التي تُغْمِضُ العيونَ عن رؤية المواهب وهي التي تحدِّد الأظفار لتخديشها. غير أنَّ الخَسارة في النهاية لا تقع على أصحاب المواهب بل على الذين لم يحسنوا الإنتفَاع بها.

وهذه علَّة قديمة في تلك الأقطار.

السَّمير: 9/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

إنَّ المهاجر الرَّاغب في رؤية بلاده الأولى رفيعَة المستوى عزيزة الجانب موفُورة الكرامة يدرك بقليل مِنَ التَّأمُّل والدَّرْس أنَّ الضَّجيج المُتعالي في بعض الجرائد هناك هو أشبه بجَعْجَعَة [1] الطَّاحُونَة [2] الفارغة. إنَّ الجَعْجَعَة وَحْدَها لا تملأ الأكياس طَحِيناً [3]. ومِثْلُ ضجيج الصُّحُف شكوى هذا وتذمُّر ذاك مِنَ النّاس. لا يزيد في نِتَاج [4] الحقل ولا يعبِّدُ طريقاً. ولا يبني مستشفى. ولا ينسجُ ثوباً لعُريان. ولا يروِّجُ متجراً كاسداً.

الذي يُسْعِد الأمَّة هو العمل المقرُون بالتَّصميم على بلوغ غاية معينّة. وأنْ يَشْمَلَ العملُ على هذه

---

1 جَعْجَعَ الجمل اشتَدَّ هديرُه وجَعْجَعَتِ الرَّحَى صوَّتَتْ.
وفي المثل: «أسمع جَعْجَعةً ولا أرَى طِحناً يُضرب للرَّجل يكثر الكلام ولا يعمل».

2 الطَّاحون والطَّاحونة آلة الطَّحْنِ ج طواحين.

3 الطَّحِين المَطْحُون.

4 نُتِجَت النَّاقة على ما لم يسمَّ فاعله تُنْتَج نَتَاجاً ونتَجَها أهلها من باب ضَرَب.

الصورة جميع طَبقات الشَّعب فلا يَقْعُدُ في المقاهي جمهُور كبير يعُدُّ خرَزات المسابح ويجرَعُ القهوة ويدخِّنُ النارجيلة ويلعب بالنَّرْد[1]. بينما الطَّريق التي يسير فيها إلى القهوة كالثوب الخَلَق[2] المُمَزَّق. وعلى هذه الطَّريق تمرُّ صفُوف مِنَ البؤس والضَّنْك بين عتَّال حافي القدمَيْن أو ولدٌ ممزَّق الثياب أو امرأة على وجهِها هيئة الذّلِّ والإنكسار.

إنَّ الحياة في تلك الأرض غير منسجمَة وليس بين طبقات الشَّعب توافُقُ في الشعُور ولا في المَصْلحَة. فالطبقَة المُترَفَة[3] السَّعيدَة منها لا يَخطرُ لها أنْ تفكِّرَ في التَّرْفيه عن غير السُّعداء بل هي تستحسنُ أنْ يظلَّ في البلاد فقراء لتظلَّ بهم حاجة إلى خدمتِها بأتفهِ الأجُور. وكثيراً ما سمعتُ رجلاً في مطعم أو فُنْدق يستدعي الخادم بنبرة الآمر ذي السُّلْطان كأنَّما هو مِنْ طِيْنَةِ[4] الأشراف وذلك الخادم مِنْ طِيْنَة مَهينَة!

وتسمع البعض يتكلَّمُون عن أميركا فيزعمُون أنَّها بلاد المادَّة. وما كنْتُ أفهم ماذا يعنُون بالمادَّة وهم يتهافتُون على اقتناء ما تنتجُه المعامل الأميركيَّة تهافُت الجيَاع على القِصَاع[5] ولا تتوقُ أرواحهم إلى شيء مثل تَوْقِها إلى الحصُول على المادَّة.

ولقد أوضحْتُ لبعضهم مرَّة أنَّ في أميركا روحانيَّة نيِّرَة عمليَّة هي أحسن نتائج مِنْ روحانيَّة الشَّرْق الحاضرَة التي تخدِّرُ العقُول والعزائم فينام أصحابها على الحَضيض[6] ويتوهَّمُون أنَّ النجُوم لهم وسائد.

لا، إنَّ الروحانيَّة الأميركيَّة ترمي إلى إصلاح المجتمع وسعادته بتوفير أسباب الرَّاحة والصِّحَّة في الكوخ والبيت والقصر والشوارع وتكثير الإنتاج في الحقل والمَعْمل واستثمار العقُول والمواهب استِثْماراً تَرْبَح مَعَهُ الأمَّة قوَّة ومجداً.

ومهما[7] يجمَحُ أصحاب تلك العقيدَة المغلوطَة في ميادين التصوُّر والتخيُّل فلا يستطيعُون أنْ يقولُوا

---

1 النَّرْدُ: م معرَّب وضعه أَزْدشير بن بابك ولهذا يقال النَّرْدَ شيْرِ وهو لعبة الطاولة في عصرنا الحاضِر.

2 خلِق الثَّوْب والجِلْد خَلَقاً بَلِيَ.

3 تَرِف فلانٌ تنعَّمَ فهو تَرِفٌ.

4 الطِّينة المهينة: الطِّينة الخِلْقَة والجِبِلَّة. والمَهين: ورجل مَهِيْنٌ أي حقير.

5 القِصاع: القَصْعَة وِعاء يؤْكَل فيه ويُثْرَد وكان يتَّخذ من الخَشَب غالباً ج قِصاع.

6 الحَضيض: القرار من الأرض عند منقَطَع الجبل. والقَرار في المكان الاستقرار.

7 مَهْما: بسيطة لا مُرَكَّبَة من مه وما ولا من ما ما خلافاً لزَاعميها ولها ثلاثة معانٍ الأَوَّل ما لا يعقِلُ غير الزَّمان مع تضمّنِ معنى الشَّرْط مهما تأْتِنا به من آية الثاني الزَّمان والشَّرط فتكون ظَرْفاً لفعل الشَّرْط كقوله:

وإنَّـك مَهْما تؤْتِ بطنَكَ سُؤْلَـهُ　　　وفَرْجَك نالا منتهى الذَّمِّ أجمعا

الثالث الاستفهام:

مهما لِـيَ الليلـةَ مَهما لِيَـهْ　　　أَوْدى بِنَعْلِـي وسِرْ بالِيَـهْ

لنا: أنَّ الأميركي الذي يتأثّرُ لكلِّ نكبَة مِنْ زلزال أو طوفَان في أيِّ بلاد قاصيَة فينهضُ لإغاثة المنكوبين بالمآكل والملابس والأدويَة والأموال هو أقل روحانيَّة وأضعف إحساساً مِنْ أغنياء في لُبْنان أو غيره مِنَ البلدَان العربيَّة يبصرُون بأعينهم مشاهد البُؤس حولهُم فلا يَنْبِضُ في أجسامِهِم عرقُ حنان ولا تنسكبُ مِنْ أجفانِهِم دمعة إشفاق. ولا يخرجُ مِنْ صناديقِهِم فَلس [1] لإغاثة بائس.

بل شعار الأكثرين منهم: أنا وبعدي الطّوفان [2]...

ولكنَّ العمل بهذه القاعدة كثيراً ما جلبَ الطّوفان فأغرق في أوَّلِ ما أغرق أصحاب هذا الشِّعار...

وإذا تعمَّق الدَّارس في البَحْث عن أَسباب النَّكبَات التي أصابَتْ بلادنَا الأولى مِنْ قَبْلُ وجد أنَّ مِنْ أكبر الأسباب وأدلَّها تفاقُم روح الأنانيَّة الفرديَّة. فهي الداء الدَّوي [3] الذي لا نجاة للشرق مِنْ علَلِه إلاّ بالقضاء عليه. ولا يَقْضي عليه غيرُ نشر التعليم الوطني الصَّحيح في كُلِّ الطبقات بحيث يصير الغنيّ يُدْرك أنَّ الفقير أيضاً له حَقٌّ في الحياة مثل حَقّه وإنَّ سعادته تتوقَّفُ على سعادتِه. أمَّا إذا استعبَدَه واستذَلَّه فسيأتي يوم يجيء الأَجْنبيّ فيَسْتَعْبد الجميع ويسخِّرهُم لخدمتِه كما كان الحال في أيّام الإحتلال. وكما جرى في فلسطين ويا لَهَوْل [4] ما جرى فيها. فإنَّ التَّاريخ لم يذكر مثلَ نكْبتها. وستكرُّ أجيالٌ قبل أنْ يزولَ هولُها مِنَ الأرواح.

السَّمير: 11/ 2/ 1949

ما رأيْت وسمعت
مأتم كالعرس

سَمِعْتُ عويلَ النَّائحَاتِ عشيَّة	في الحيِّ يبتعثُ الأسى ويثيرُ
يبكين في جُنْح الظَّلام صبيَّة	إنَّ البكاء على الشَّباب مَرير [5]
فَتَجَهَّمْتُ وتلَفَّتْتُ مُرتاعة	كالظَّبي أيقنَ أنَّه مأسُورُ

فهذه الأبيات من قصيدتي «الدمعة الخرساء».

1 الفَلْس: عُمْلة يُتَعامَلُ بها مضروبة من غير الذَّهب والفِضَّة وكانت تقدَّر بسُدُس الدِّرْهم ج فُلُوس.

2 الطُّوفان: الفَيَضان العظيم.

3 الدَّاء الدَّوِيّ: الدَّوي صوت الرَّعْد ودوِيّ الرِّيح حفيفها ودَويّ الأُذُن طَنينُها.

4 الهَوْل: وهالَه الشيء أفْزَعَهُ.

5 جُنْح الظَّلام: الجُنْح من اللَّيل قَدْرٌ منه.

وهكذا تلفتُ أنا عندما كُنَّا عائدين مِنْ جولة في ضهور الشوير وبكفيَّا ورأيْتُ الطَّريق عند أنطلياس مكتظَّة بالخلْقِ وسمعْتُ ولوَلَة ونُواحاً فاستوقَفْتُ السيّارة ونزلْتُ منها ونزل معي رفاقي ومشيْنَا إلى ناحيَة النُّواح. فرأيْنَا مشهداً يروِّعُ النَّفس ويملأُ القلب حُزْناً فقد اجتمع النّاس في تلك الناحيَة لتوديع صبيَّة ماتَتْ في ريعَان[1] الصبَّا وكلُّهم باهت كَظيم[2].

وظهر مِنْ تألُّب النّاس أنَّ الفقيدَة ابنة وجيه مشهُور في تلك المنْطقة.

وكان في الساحة أمام البيت عددٌ مِنَ الشَّباب رفعُوا على أكفِّهِم نَعْش تلك الصَّبيّة المتوفّاة وكانوا كلَّما أدرك سواعدهم التّعب تقدَّم آخرُون وحملُوا النَّعش عنهم.

وإلى جانبِهِم وقف أربعة أو خمسة مِنَ الندَّابِين يرثُون الصبيَّة زَجَلاً[3] ويتفجَّعُون عليها بأقوال تدلُّ على حُرْقة[4] كاوية.

وبين فَتْرة وأخرى كان حمَلَة النَّعش يميلُون به على سواعدِهِم ذات اليمين وذات اليسار كأنَّهُم يقصدُون بعملِهِم هذا أنْ يقولُوا أنَّنا في عَرْسِ[5] الصبيَّة لا في مأتمها.

إنَّ للحزن نشوة كنشوة الفَرَح. وربَّما اشتدَّ الحزن بالإنسان فضحك وامتدَّ به الفَرَح فبكى كالزورق في بَحْرٍ هائج. أو نَوْءٍ[6] عاصف.

وكنْتُ والذين معي واقفِين على مسافة قريبَة مِنْ ذلك المشهد نستمعُ إلى الندَّابِين ونحن واجمُون. فجاء ثلاثة شُبَّان ودعونَا إلى داخل المنزل فدخلْنَا وعزَّيْنَا الذين كانُوا هناك وبينهم شاب أذبل الحزن أجفانه ونشر في وجهِه كآبة عميقَة. وحيرة قاتلَة. وكأنَّه استأنسَ بي فاندفع يخاطبني ويقول: إنَّ أحسن الأيّام وأسعدها أَمْسِ الذي انقضى. لأنَّ الإنسان عرَف ما فيه. أمَّا الغَد فلا يعرف أحد ما في مطاويْه.

فقلت له: ولكن الأَمْسُ الذي انقضى كان قبل مجيئه غداً ثم صار يوماً ثم انطوى فصار أمساً. ولكُلِّ يوم في الدَّهر خيره وشره وحلوه ومرّه. وخلّه وخَمْره. وقد يكون في ما تحسَبه خيراً شرٌّ كبير. أو خطر مستطير[7] وقد يكون كما نحسب هو الخير العَميم.

وإنّي لأراك في حالة هياج عاطفي كحالة الزورق في بحر هائج. أو نَوْءٌ عاصف. فاعتصم بالصَّبْر

---

1 رَيْعان: وريْعان كُلِّ شيءٍ أوَّله ومنه رَيْعانُ الشَّباب.

2 كَظيم: وكَظَم غيظَه اجترعه وبابه ضرب فهو رجُلٌ كظيم والغيظ مَكْظوم.

3 الزَّجَل نوع من أنواع الشِّعر تغلب عليه العاميَّة ج أزجال.

4 الحُرْقة الحرارة ما يجده الإنسان من لَذْعَةِ الطَّعْم أو الحُبِّ أو الحُزْن.

5 العَرْس: الزَّفاف والتَّزْويج ج أعْراس.

6 النَّوْءُ: سقوط نَجْم من المنازِل في المَغْرِب مع الفَجْر وطلوعه رَقيبِهِ من المشرق يقابله من ساعتهِ في كلِّ ثلاثةَ عَشَرَ يوماً ما خلا الجَبْهةَ فإن لها أربعةَ عَشَرَ يوماً وكانت العرب تضيف الأمطار والرِّياح والحَرّ والبرد إلى الساقط مِنْها.

7 المُستَطير: استُطِير فؤادَه أصابه ذُعْرٌ وفزَعٌ.

وسلّم أمرك إلى ربّ الحياة والموت.

وكان هذا الشاب كما قيل لي يحاول أنْ ينظمَ قصيدة في وداع الصبيّة الراحلَة ولَكِنَّ حزنه عليها ضعضَعَ منه الفكر. فما استطاع غير التنهُّد والبكاء. وكم في سكب الدُّموع مِنْ شفاء.

وأزفَ الرحيل. فتألَّبَ النّاس حول النَّعش ووراءه وأمامه. فخرجْنَا مِنَ البيت وإذا بنا نسمع خطيباً واقفاً على سلم الدار يرثي الرَّاحلَة ويودّعها. ثمَّ رأيْنَا الأيدي ترتفعُ في الهواء وتنثر أوراق الورد على النَّعش.

ثمَّ ساد سكونٌ عميق ومشى الموكب في صَمْت ووقار فسرنَا فيه حتى بلغنَا سيارتنَا وهناك مرَّ بنا الشّاعر الحسّاس قبلان مكرزل فانضمَّ إلينا وجلس معنا قليلاً ثمَّ فارقَنَا وتابعْنَا نحن المسير إلى بيروت. وكلُّنا يقول:

أكذا نموت وتنقضي أحلامنا فـي لحظة وإلى التُّرابِ نَصير
خيرٌ إذن منَّا الألى لم يُولَدوا ومِـنَ الأنام جلامدٌ وصخور [1]

السَّمير: 14/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

شجرة الميلاد في بيروت

اقترب عيد الميلاد فأطلَّتْ الأعياد والدُّمى وبطاقَات العيد مِنْ واجهَات الحوانيت في بيروت على حدٍّ ما يرى المرء في أيّة مدينَة أميركية صغيرة. ولا سيَّما في الأسواق التجاريّة حيث تتهافَتُ النِّساء على شراء الهدايا ولوازم الإحتفال بالعيد.

ومشَتْ الدُّيُوك الهنديّة ذات الأعراف الحمراء في موكب سانتا كلوز الذي يغلب على الألسِنَة هناك اسمه الفرنسوي وهو بابا نويل. فقد رأيْتُ سرباً كبيراً مِنْ هذه الديوك يسوقه رجل في الشارع ويهشُّ عليها بعصا في يدِهِ لِتَحيد مِنْ طريق السيَّارات لئلاّ تدهسها فينقلب العيد عنده إلى مأتم... وإنْ كان لا فرق عند الديُوك أدَهَسَتْها الدَّواليب أم ذَبحَتْها السكاكين...

وليس منظر هذه الديُوك السائِرَة في الشارع بغريب فقد رأيْتُ قطيعاً كبيراً مِنَ الغنَم يسوقه صاحبه كما يسوق ذاك ديوكَه. إلى أين.. إلى الذبح!...

وتتفنَّنُ العائلات في تزيين شجرة الميلاد مثلما يتفنَّن الأميركيُون بل أكثر. وهم يستخدمُون القناديل

---

1 الجَلْمد: الصُّلْب أو الصَّخر الصُّلْب.

الكهربائيّة الحديثة الطّراز لإضائتها في اللّيل. ولَكِنَّ البعض لا يزالُون يستعينُون بالشُّمُوع ولكنَّهم لا يشعلونَها غير لحظات لما فيها مِنَ الخطر.

ويؤتى للأولاد بالهدايا وأكثرها ألاعيب مثل بنادق وقُطُر وعجلات تُدار بالمفاتيح. وكلها مجلُوبَة مِنَ الخارج.

وتتهافتُ الجرائد في بيروت على أنْ تصدرَ كُل واحدة عدداً خاصاً بالميلاد تنشرُ فيه المقالات الرائعَة والقصائد الجميلَة والرُّسوم الرمزيَّة عن صاحب العِيد.

ولكن شيئاً واحداً لا يرافق عيد الميلاد في بيروت هو الثَّلج. فهي مِنْ هذا القَبيل [1] مثل فلوريدَا. وكنْتُ أقول مثل كاليفورنيَا لو لم تهبّ عليها في الآونَة الأخيرة العاصفَة الثَّلجيَّة.

وكأنّي بأصحاب الحوانِيت تنبَّهُوا إلى هذه النَّاحية عندما راحُوا يُلْصِقُون على زجاج النوافذ جُذَاذات [2] القطن البيضاء التي تذكِّرُ الناظرين بالثَّلج. مع أنَّ السائرَ في بيروت يكفيه أنْ يمدَّ بصره إلى قمَم صنِّين ليرى الثَّلج جبالاً فوق تلك الجبال.

وجاء اليوم الذي يَسْبِق العيد فشعَرَتْ نفسي بإنقباض. فأنا في وطني ولكنّي بعيد عن عائلتي وجيراني وأصدقائي الذين تعوَّدْتُ أنْ أستقبلَ العيد معهم. وكنت قد تلقَّيْتُ دعوات عديدة فامتنعْتُ عن قبولِها إلاّ واحدة جاءتْني مِنْ صديق حميم في برمَّانا وهو اسبريدون رزق الذي مضى عليه مع عائلتِه أكثر مِنْ سنة في ربُوع لبنان ولم تزل بهم رغبَة في البقاء إلى الصَّيْف القادم.

كل غريب للغريب نسيب.

وفي ذلك الفندق البيتي رأيْتُ جمهرَة مِنَ اللاجئين الذين تركُوا بيوتهُم في فلسطين ونجُوا بأنفسهِم. وأقامُوا في برمَّانَا ينتظرُون الفَرَج وهم لا يعلمُون ما تخبيء لهم الأيام. ويبدُو عليهم أنَّهم كانُوا مِنْ أهل اليَسار أو الأقل كانُوا في بُحْبُوحَة [3] مِنَ العيش.

كنْتُ أنظر إلى هؤلاء الهاربِين مِنْ وجه الطُّغْيان والفتك والإنتقام وأتعجَّبُ مِنْ قَسْوَة العالم الرَّاقي المتمدِّن الذي ينادي بحقوق الإنسان في كل مكان فإذا ذكَرْتَ له فلسطين وأهلها صمَّ أذنيْه وأطبق عينيه وزمَّ شفَتَيْه وصار كأنَّه عالَم سحريٌّ بعيد عن هذه الدُّنيا.

وعلى ذكر اللاجئين التُّعسَاء أقول إنّي التقيْتُ في دمشق بالرجل الإنساني بيارد ضودج في مأدبَة أقامَها رئيس الوزارة السوريَّة السابق جميل مردم في قصره للوفد الأميركي المؤلَّف مِنَ المستر غريفث سفير الولايات المتَّحدة في مصر وثلاثة معه واتُّفِقَ أنَّ مكاني كان بجانب الدكتور ضودج فقلت له: ظننتُ أنَّك تقاعدتَ عن العمل. فأجابَني: إنّي أسعى للحصُول على أقوات وأكسيَة لمشرَّدي فلسطين

---

1 القَبيل: الصِّنفُ المماثل تقول: خُذْ هذا أَو ما كان قبيلهُ.

2 الجُذاذَه: الجُذاذات القُراضَات والقراضات بالضَّمِّ ما سَقَط بالقَرْض ومنه قُراضة الذَّهَب.

3 وبُحْبُوحَة الدّار وسطها بضمِّ الباءين.

البؤساء فقلت له: ليتك تسعَى لتحصُل لهم على قليل مِنَ الإنصاف!...

فارتبك قليلاً وما لبث أنْ قال لي: هذه المَهمّة مَهمَّتكم أيُّها الصّحافيُّون!

ثمَّ أخذ يتذمَّر مِنْ كَون الجرائد الأميركيّة لا تفتح صدورها لما يودُّ أنْ يقولَه الرّاغبُون في بسط القضيّة الفلسطينيّة.

وسمعتُ موظفاً أميركيًا آخر ينقرُ أمامي على هذا الوتَر. ويلقي اللَّوم على الجرائد الأميركيّة.

وفي الواقع لو أنَّ الظلم الذي أصاب سبعمِاية ألف عربي في فلسطين أصاب سبعة يهود في أيّة بُقعة مِنَ الأرض لما بقي قلم ولا لسان إلاّ تحرَّكَ في إثارة غضب الرّأي العامّ ونِقْمته على الذين اضطهدُوا اولئك السبعة.

أمّا السبعمائة ألف عربي فلم ينالُوا مِنْ عطف العالم المتمدِّن أكثرَ ممّا تناله منهُم غابة شجر اجتاحَتْها زوبعَة أو التهمتها النّار!!

ما أظلم الإنسانَ للإنسان!

وما أقرب الظُّلْمَ مِنَ الضُّعفاء!

السّمير: 15/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

ما كان أجمل جلستنَا في ذلك المُتنزّه المَرح على الشاطيء عند صخرة الرّوشة في ضاحية بيروت.

كان البَحْر المُتهلّل كأنَّه يَبْتسم لنا أو يَضْحك معنا. وإلاّ فما هذه التموُّجات البيضاء التي يَتْلو بعضها بعضاً راقصة شاديَة؟

وكانَتْ السَّماء قد تعرَّتْ مِنْ جِلْبَاب [1] الغيُوم وشاعَ الصَّفاء في الآفاق وأرسلَتْ الشَّمْس أشعَّتَها ألوانيّة لعلّها تخفّفُ مِنْ وطأة البرد.

ولَكِنْ لا المنتزّه الأنيق ولا موقعه السَّاحر ولا ابتسامَات البَحْر ولا تألُّق السَّماء. كان يكون لها هذا الجلال والروعَة في نفسي لو لم يكن معي الرفيق القديم في نيويورك ناسك الشخرُوب الذي طلَّق دنيا النّاس وما في دُنيا النّاس مِنْ أزَمَات وكرُوب وحرُوب وغير حروب. وشاد لذاتِهِ في تلك القِمّة الضيّقة المعتزلَة مِنْ صنِّين الجبار دنيا تنطوي فيها كل دنيا!

لا ريْبَ في أنَّ القاريء أدرك أنّي أعني الكاتب المشهُور مخائيل نعيمَة الذي عاش في نيويورك زمناً فكان كلَّما طرق أذنيْه ضجيجا استيقظ فيه الشَّوق إلى الهدوء والسَّكينَة وكلّما آذى عينَيْه الإزدحام في

---

1 الجِلْباب: المِلْحَفَة.

شوارعِها حنَّ إلى الفضاء الرَّحب الفسيح. وكلَّما شاهد تكالُب النّاس فيها على الحُطَام[1] اشتدَّتْ في نفسِه الرَّغبَة إلى الزُّهد.

والنَّفس راغبَة إذا رغبتها فإذا تُردُّ إلى قليل تَقنعُ

وفي يوم مِنْ أيَّام الصَّحو والإشْراق تطلَّعَ النسر مِنْ نافذة بناية شاهقَة في نيويورك فرأى الفضاء حُرّاً ورأى في الفضاء سحراً. فصفقَ بجناحَيْهِ حتى وثقَ مِنْ أنَّهما لا يزالان قويَّين قادرَيْن على حملِه فاستجمعَ نفسه وطار... واختار الشخروب له الوَكْنَة[2]. وهناك طاب له المُقَام...

مِنْ تلك القِمَّة الشَّاهقَة في صنِّين ينظرُ مخائيل نعيْمه إلى أقوال النّاس وأعمال النّاس فيهتفُ مع الجامعة - باطل الأباطيل وكل شيء باطل.

وهذه الغمرَة مِنَ الزُّهد الذي يصاحبه الإستخفاف بمقاييس البَشَر جعلَتْ النُّعَيْمه أقرب إلى الغيُوم التي تَمرّ فوق صنّين. والثُّلوج التي تكسو صنِّين. والأشجار التي تُعْرى وتُكْسَى في ذلك الجبل. والصُّخُور الصامتَة الباهتَة هناك منه إلى البشر.

ولا أعني أنَّه يحب تلك أكثر مِنْ هؤلاء. بل الذي أعنيه أنَّه صار أكثر اهتماماً بما في الطبيعَة مِنْ ألغاز وأسرار ورموز ومشاهد منه عندما كان في نيويورك حاملا بيديْه «الغربال» متهيئاً لتحطيم أصنام الأدب البهلواني. فقد استهْوَاه التصوُّف فأصبحَ مِنْ أكبر دُعاته في تلك الأرض التي لم تزل بها حاجة ماسّة إلى قلم صاحب «الغربال» كحاجتها إلى المعوَل الذي يَبْقرُ بطن الأرض فيُصْلحها ويستخرجُ منها الحبّ والبَقْل. أو إلى المعْوَل الذي يهدم كُلّ بِناء مُتضَعضِع مُتداعٍ ليقُوم مكانه بناء جديد.

لا أقول أنْ تلك الزوبعَة قد همدَتْ واضمحلّتْ عندما بلغَتُ الشخرُوب ولكنِّي أقول أنَّها تحوَّلَتْ مِنَ الأرض إلى الفضاء لعلَّها تبلغ الكواكب.

وقد أعانَتْ العزلة النّعَيْمي على استثمار موهبته فهو يؤلِّفُ في كُلّ سنة كتاباً. ويلقي عدة محاضرات قيِّمة. وآخر مؤلَّفاته كتابٌ باللغة الإنكليزيَّة طُبعَ في بيروت باسم «مرداد» ولعلَّه الكتاب الذي كان ينوي طبعه في نيويورك.

كنَّا - مخائيل وأنا - نلتقي مِنْ قَبْلُ ولا نلتقِي. نلتقي في ما أقرأه له ويقرأه لي. ولا نلتقي للمسافَات الشاسعَة التي تفصلُ بين نيويورك وبسكنتَا.

«وهَوَّن الله وعدَنَا فالتقَيْنَا» في لبنان كما قال الدَّرويش. فانتفَضَتْ الذّكْريات النائمَة في نَفْسه ونَفْسي. وكان في ذلك غِبْطته وغِبْطتي. كما كان في بعضها ألمٌ لروحي وروحه. ولكن حتى الذكريات التي تؤلمُ فيها للمسرَّة طُيوف وأشباح. فإنَّك عندما تبكي على إناء انكسر تتذكر أنَّه كان إناء صَحِيحاً

---

1 الحُطام مَتاع الدُّنيا، والحُطام من كُلّ شيء ما تكسَّر منه.

2 الوَكْنَة: الوَكْن عُشّ الطَّائر في جبلٍ أو جِدار.

وكان لك فيه شرابٌ سائغٌ لذيذ.

إنَّ النَعَيمي ناسك ولا كالنُّسَّاك اعتزل عن النّاس في رأس جبل لكي يخدم النّاس وانقطعَ عن العالَم لكي يعانق الله في تلك الصَّوْمعَة [1].

ولا يزال مخائيل محتفظاً بنشاطه الروحي ولكنَّه مع عُزْلتِه وتمرُّده انجرفَ في تيَّار العادَة الدَّارجَة هناك فصار يمشي وفي يدِه عصاً ويجلس وفي يدِه مِسْبحَة [2]!!

السَّمير: 16/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

المَجْمَع العلمي - حلقة الزهراء - دوحة الأدب

يرى الزائر في دمشق الوجه العُمْراني منها عندما يشاهد الأبنيَة الحجريَّة البيضاء الحديثة الطِّراز والشوارع الجديدة كما يرى في جوامعِها ومتاحفها وشوارعها القديمَة وجهها التَّاريخي.

إنَّما لمدينَة دمشق وجه آخر لا يراه المرء في الشوارع ولا في الأبنيَة هو وجهها العلمي الذي يأبَى أنْ يلوحَ إلاّ لِمَنْ يحنُّ إليه ويسعى نحوه.

رأيتُ هذا الوجه عندما زرْتُ المجْمَعَ [3] العلمي وتعرَّفْتُ إلى الأديب الكبير الشَّاعر المُتواضع خليل بك مردم نائب رئيس المَجْمَع وإطَّلَعْتُ على الكتب القيِّمَة التي أخرجَها المَجْمَع مِنْ عالم الخفاء وعلى مجلَّتِه الحافلَة بالفصُول العلميَّة والتَّاريخيَّة والأدبيَّة. فأُعجِبْتُ بما يبذله رجال المَجْمَع مِنْ جُهُود في خدمةِ العلم والأدب.

وسرَّني أنْ التقيْتُ هناك بالعالِمْ المتوقِّد الذِّهْن الواسع الإطِّلاع الأمير مصطفى الشهابي الذي استقال مِنْ محافظة اللاّذقيَّة لينصرف إلى التأليف كما أخبرني. غير أنّي ما لبثْتُ أنْ قرأتُ في الجرائد أنَّ الحكومَة تنوي أنْ تعيِّنَه وزيراً مفوَّضاً في الأرجنتين. ولا أدري إذا كانَتْ نفَّذتْ نيَّتها. غير أنّي أعتقد أنَّ عالماً مثله تستفيد الأمَّة مِنْ مواهبِه وهْوَ منصرف إلى التأليف أكثر ممَّا تستفيد منه وهو مُنصرف عنه.

ولا يُذْكَر المَجْمَع العلمي حتى يحضر إلى الخاطر إسم رئيسه الأستاذ محمد كرد عليّ الذي جاوزَ الثمانين وشهد الأحوال والإنقلابَات التي مَرَّتْ بالشّرق في مدى تلك السنين ولا يزال على رغم الشيخوخَة حاضر النكتَة صافي الذِّهْن. وقد أكْبَرْتُ صنيعه عندما جاء بنفسِه إلى الحفلة وألقى خطابه

---

1 الصَّوْمَعة: بيت العِبادَة عند النَّصارى.

2 المِسبَحة: السُّبْحة خرزات منظومة للتَّسبيح والدُّعاء ج سُبَحٌ.

3 المَجْمَع: مؤسَّسة للنُّهوض باللُّغة أو العلوم أو الفنون وغيرها ج مَجامِع.

فقمْتُ بزيارته في داره تقديراً لصنيعِه واعترافاً بفضلِه.

وجاءني مَنْ يدعوني إلى «حَلْقة الزهراء» فقلت: وما هي «حَلْقة الزهراء»؟

فقيل لي: إنَّها جمعيَّة أدبيَّة أنشأتْها السيِّدة زهراء العابِد يلتقي فيها الأدبَاء والأديبَات فيتذاكَرُون العلم ويتناشدُون الشعر بل أكثر المُنضوِين إليها مِنَ الجنس اللَّطيف. وهم يعقدُون جلساتهم في منزل الزَّهراء. فذهَبْتُ يرافقني الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك فإذا الدَّار مُكتظَّة بالنّاس وكانَتْ هناك الزَّعيمَة الهنديَّة كمالا ممثِّلة الهند في مؤتمر الأونيسكو.

وبعدما تمَّ التعارف نهضَتْ رئيسَة الجمعيَّة فألقَتْ كلمة ترحيب وتَلَتْها الكاتبَة المفكِّرَة الجريئة وداد سكاكيني فألْقَتْ كلمة دلَّتْ على عاطفة نبيلَة وبيان عربي جميل.

وأخيراً تكلَّمَتْ بالإنكليزيَّة الزائرَة الهنديَّة.

وكانَتْ لي كلمة في شكر الحلقَة والخطيبَات أتْبعتُها بوصف ما عليه المرأة الأميركيَّة مِنْ حريَّة وانطلاق وشعُور بالواجب نحو مملكتها الصَّغيرة وهو البَيْت ونحو مملكتها الكبرى أي الوطن. وكيف أنَّها تسير والرجل جنباً إلى جنب في كُلِّ الميادين فهْيَ معه في المَعْمل وهي رفيقته في المكتب. وهي إلى جانبِه في كرسي التعليم وديوان الحُكْم. إلى غير ذلك مِنَ الأمور الواقعَة التي يصلح سردها ووصفها حفزاً لروح المرأة العربيَّة التي لم تَزَلْ تعيش على هامشِ الحياة مع أنَّها هي لبُّ الحياة ولو أنَّ الرجل عرفَ قيمتها وأشركَها في المسؤوليَّة لاستطاعَتْ الأمَّة العربيَّة أنْ تبلغَ أمانيها في زمن غير متطاول المَدَى. ولِمَا أصابَها ما أصابَها مِنَ الرَزايا في الفترة الأخيرة.

وبعد ذلك دُعينَا إلى مَقْصِفٍ[1] أنيق وأُدِيرَتْ علينا أكواب الشاي والقهوة وأنواع الحَلْوى والمُعجَّنَات...

ودنَا موعد السَّفر. ولم يبق غير ليلة. فنهَضْتُ في الصباح وأخذْتُ ألُمُّ ثيابي وأوراقي وأحزم حقائبي وأكتبُ بعض الرسائل. وإذا بالخادم يدخل إلى الغرفة ببطاقة مِنْ سيِّدَة ويسلِّمها إلى رفيقي يزبك. فنزلَ إلى قاعة الإستقبال ثمَّ عاد بعد قليل مسرعاً وهو يقول: إنَّ في القاعة سيدة جليلة ترجو منك أنْ تزورَ مدرسة دوحة الأدب للبنات وقد أخبرتُها أنَّك مشغُول وأنَّ الوَقْت غير متَّسع لديك ثمَّ خَشيْتُ أنْ تظنَّ أنِّي لا أودُّ أنْ تقومَ بهذه الزيارة فأسرَعْتُ للوقُوف على رأيك.

قلت: بل ننزل على رغبَة السيِّدَة فهيَّا بنا.

وخرجنا فإذا سيَّارة في انتظارِنَا مضَتْ بنا إلى تلك المدرسة التي تَحْوي أكثر مِنْ أربعمائة طالبَة تقوم على إدارتِها جمعيَّة دَوْحَة[2] الأدب النسائيَّة وهي جمعيَّة تألَّفَتْ في دمشق في سنة 1928 مِنْ خيْرَة سيِّدات دمشق.

---

1 المَقْصِف مكانٌ للتَّرفيه وتناول الطَّعام والشَّراب.

2 الدَّوْحة: الشجرة العظيمة المتشعِبَة ذات الفروع الممتدَّة من شجر ج دَوْحٌ.

وهي مدرسة يدلُّ نباتها على حسن الإدارة مِنْ جهة وعلى حاجة البلد إليها. وهي تتألّفُ مِنْ روضة الأطفال، التي يُقبَلُ فيها صغار البنين والبنات بين الثالثة والسادسة. والقسم الإبتدائي ويُقبَلُ فيه البنات والبنون الذين أتمّوا السنة السادسة مِنَ العُمْر.

ثمّ القسم الثانوي وتُقبلُ فيه كُلُّ فتاة نالَتْ الشهادة الإبتدائيّة الرسميّة.

ولا تقتصر مَهمّة هذه المدرسة على التعليم بل تتعدّاه إلى تدريب الفتاة على الحياة المنزليّة والعنايّة الصّحيّة وتربية الأطفال وفنّ الطّبخ والتّغذية والخياطة والتّفصيل وسائر العلُوم التي تهيء الفتاة لحياة عائليّة راقية.

والذي استنتَجْتُه مِنْ كلامِها وكلام بعض الفتيات والسّيّدات أنّ المرأة المُتعلّمة تعتقد أنّ الرجل مسؤول عن تأخُّر المرأة حتى الذي لا يعاكس نهضتها ولا يعرقلُ سيرها. فإنّ مجرد وقوفه وِقْفة[1] المُتفرّج فيه تثبيط لهمّتِها وعرقلة لمساعيها.

وكيفما كان الأمر فإنّ هذا الشعُور الذي يختلج في نفسِها سيدفعُ بها إلى الأمام ويبلغها الغاية التي تنشدها أحبّ الرجل أم كره. فإنّ الفكرة الصّحيحة كنُور الصباح تستطيعُ أنْ تحتجبَ عنه ولكنّها لا تستطيع أنْ تطمسَه.

وما دُمتُ في الحديث عن المدارس يحسُنُ بي أنْ أخبر القرّاء أنّ الحكومَة السوريّة مهتمّة أشدّ الإهتمام في تعميم العلم وهي تنشيء المدارس في القرى والدّساكر توصُّلاً إلى هذه الغاية. ولا بِدْعَ[2] أنْ تبدو منها هذه الهِمّة وعلى رأس وزارة المعارف رجلٌ مِنْ أكبر أدباء الشّرق وهو محسن بك البرازي الذي يزداد تواضعاً كلّما ازدادَتْ مكانتَه ارتفاعاً.

السّمير: 25/ 2/ 1949

ما رأيت وسمعت

قبر صلاح الدين الأيُّوبيّ

تعوّدَ النّاس في الشّرق ومثلها النّاس في الغرب أنْ يزورُوا قبور الأنبياء والأوليَاء في مواسم أعياد معيّنَة أمّا قبر صلاح الدين الأيُّوبي البطل الخالد. والمحرّر الكبير الذي كتبَ ببطولتِه أنصع صفحة في تاريخ الأمّة العربيّة كما كتبَ في سجلِّ الأخلاق العاليّة والمكارم السّمحَاء أروع الآيات. فإنّه يُزار كما

1 وِقْفَة: اسم نَوْع أو هيئة: فإذا كان الفِعل ثلاثياً كانت المرّة منه على وزن فَعْلَة كضَرْبَة والهيئة أو النّوع على وَزْنِ فِعْلَة كمِشْيَة.

2 ولا بِدْع: البِدْع الأمْر الذي يفعل أوّلاً يقال: ما كان فلانٌ في ذلك بِدْعاً. والغاية في كُلِّ شيء وذلك إذا كان عالماً أو شجاعاً أو شريفاً ج أبْداع.

تُزار الآثار. وهذا لا يتناسبُ مع كرامة هذا البطل. إذ لا يكفي أنْ يُرفعَ لمثلِه ضريح في قبّة. فإنَّ شيئاً مثل هذا لسلاطِين لم يكونُوا أبطالاً. والمُلُوك لم يشهدُوا قتالاً ولم يفعلُوا شيئاً يستحقُّ التَّدوين في التَّاريخ.

فمِنَ الغَبْنِ [1] أنْ يكونَ صلاح الدين الأيُّوبي وهؤلاء سواء [2]...

ذهبْتُ لزيارة ضريح هذا العظيم يرافقني الأديبان سليم الزركَلي ويوسف يزبك. فإذا نحن أمام بوّابَة مِنْ خشب ذات مِزْلاج [3] وكانَتْ موصدَة فجاءتْ امرأة كهلَة ورفعَتْ المِزْلاج، فانفتَحَتْ البوّابَة ودخلْنَا ومشينَا في أرضٍ حديقة ذات شجر فيها بركة ماء. وما هي غير خطوات حتى صرْنَا أمام الحجرَة فدخلنَاها وإذا هناك قبران لا قبر واحد أمَّا القبر الثاني فهُوَ قبر وزير صلاح الدِّين.

وليس على القبرَيْن أسماء وإنَّما على أحدهِما كتابة عربيَّة تدورُ به. ورأيْتُ على أحد جدران الحجرة آثار خطوط حاول الزوَّار كتابتها ليثبتُوا أسماءهم هناك ويطالعُها الذين يأتُون بعدهُم. وكم شوَّهَتْ هذه الرَّغبَة الصُبيانيَّة مِنْ جدران وموائد وأشجار.

ويظهر بل مِنَ المؤكَّد أنَّ تلك المرأة تقوم هي وزوجها على حراسة الضَّريح. والعناية بالزائرين غير أنَّها لا تعرف إلاّ القليل النَّذر مِنْ تاريخ النائم فيه. وليس ثمَّة [4] بطاقة ولا كرَّاس ولا رسم مطبوع يستطيع الزَّائر أنْ يشتريَه ويحمله معه تذكاراً.

وهذا الإهمال مشهُود أيضاً في قلعة بعلبك فلا سبيل هناك إلى الحصُول إلاّ على بطاقَات لا تروي غُلَّة [5] ظمآن إلى معرفة تاريخ القلعَة ولا سيَّما جماعة السُّيَّاح. وقد رأيْتُ عدداً مِنَ الأميركيِّين يتساءلُون عمَّا إذا كان في الوُسْع الحصُول على كرَّاس يحوي تاريخ القلعَة وما فيها مِنْ آثار.

وقد أحببْتُ الفكرة ولعلَّ الحكومتيْن اللبنانيَّة والسوريَّة أو إحداهما أو أيَّة هيئة أخرى تقوم بسدِّ هذا الفراغ فتُفيد وتَسْتفيد.

أمَّا المظهر الذي ترك في نفسي أثراً طيِّباً في دمشق فهو رؤية الدُّخان يتصاعدُ مِنْ معمل في ناحية منها فقد دلَّني هذا اللُّهاث الأسود على ولادَة طيِّبَة للصناعَة. وزاد في طربِي الإتقان الرَّائع والتنظيم الجميل في معمل الغَزْل والنَّسيج للشركة الخُماسيَّة وهو معمل كبير يمكن تشغيل 1200 عامل فيه وكُلُّ أنواله وآلاته حديثة الطِّراز [6] مجلوبَة مِنَ الولايات المتَّحدة وأحد أعضاء هذه الشركة صديقي أنور قطب الذي قضى رَدَحاً [7] مِنَ الوَقْت في نيويورك.

---

1 الغبن: غَبَنه في البيْع غَبْناً غلبه ونَقَصهُ.

2 سواء: السَّواء المثل والنَّظير.

3 المِزلاج ما يُغْلق به ويُفتح باليَدِ ج مَزَاليج.

4 ثمّة: اسم يشار به إلى المكان البعيد بمعنى هناك وقد تلحقه التَّاء فيقال: ثمَّةَ.

5 الغُلَّة: شِدَّة العَطش وحرارته وما يواري الإنسان ج غُلَل.

6 الطِّراز: النَّمَط والشَّكْل والجيد من كل شيء ج أطْرِزَة.

7 الرَّدح: المُدَّة الطَّويلة.

وهذا المعمل قائم في مَساحة[1] واسعة مِنَ الأرض على طريقة هندسيّة مُعْجية. وفيه كل الوسائل الحديثة مِنْ أضواء كهربائية ومغاسل للعمّال وأماكن للرّاحة والقَيْلُولَة[2]. وإلى جانبه معمل كبير لتوليد الكهرباء تستعيرُ منْه القوّة أحيانا شركة تنوير المدينَة.

والقائمُون بهذه الشراكَة رَهْطٌ[3] مِنَ الشبّان ذوي العزائِم الماضيَة والنَّظر الثاقِب[4] والنُّفُوس الطَّموحَة. وقد وضعَتْ خريطتُه في الولايات المتَّحدَة وبناه مهندِسُون سوريُّون وقام بتركيب الأنوال والآلات مهندس أميركي. وهو يتألَّف مِنْ ثلاثة أقسام. الأوّل لغزل القطن وصُنْعِه خيوطاً دقيقة أو غليظة والثاني للصبّاغ والثالث للحياكَة.

ولا يزال البناء والترتيب جارياً في بعض نواحيْه.

ولم تقتصر هِمَم رجال هذه الشركة على بناء هذا المعمل بل تبرّع أصحابها بكثيرٍ مِنَ المال وشادُوا مستشفى على مرتفع يشرف على الغُوطَة يتَّسع لثلاثمائة وخمسين سريراً. وقد كاد أنْ يتِمّ بناؤه وعمّا قريب يجري تأثيثه بأحدث الأسرَّة والوسائل والآلات الطِّبيَّة والجراحيَّة.

وهكذا ترى النَّهضَة الجديدة في دمشق تَشْمَل جميع شؤون الحياة ولولا نكبَة فلسطين لكان سَيْرُ هذه النَّهضَة طيراناً لا مشياً.

أجل. إنَّ نكبَة فلسطين أرهقَتْ الأرواح والعزائم كما أثقَلَتْ كاهل الحكومتَيْن السوريَّة واللُّبنانيَّة واستنفَدَتْ كثيراً مِنَ الأموال التي كان في الإمكان تعزيز المشاريع العُمْرانيَّة بها.

وسيبقَى قيام دولة إسرائيليَّة في فلسطين همّاً يَقضُّ[5] على مضاجع العرب.

السَّمير: 28/ 2/ 1949

ما رأيْتُ وسمِعتُ

بين دمشق وشتُورة

عندما زار الأستاذ فؤاد صرُّوف هذه البلاد للمرة الأولى كنْتُ أنا ساكناً في نورولك كنكتكت فدعوتُه إلى منزلي وكان الوقْت صيفاً وأردْتُ أنْ يزورَ حديقة كبرى مشهورَة بأعنابِها وأغراسها

1 ومَسَح الأرض يمسحُ بالفتح فيهما مِساحةً بالكسر ذَرَعها. وذَرَع فلان الثوب وغيره ذرْعا قاسه بالذِّراع وذَرَع الطَّريق قطعه بسرعة كأنَّه يقيسُهُ.

2 القَيلُولة نومة نِصف النَّهار أو الإستراحة فيه وإنْ لم يكن نوماً.

3 الرَّهْط: ما دون العَشَرَة من الرِّجال لا يكون فيهم امرأة. والجمع أَرْهُط وأَرْهاط.

4 النَّظَر الثَّاقب: وشِهاب ثاقِب أي مُضيءٌ.

5 قَضَّ مضجعهم: قَضَّ المضجع قضَضاً لم يهنأ فيه النَّوْم. وقَضَّ الجدار هَدَمَه.

وورودها يقصدها النّاس في أيّام الآحاد والأعياد ويطوفُون في أرجائِها مُستمتِعِين بما فيها مِنْ غرائب الزّهر والشّجر فاستدعَيْتُ سيّارة تاكسي لتنقلنَا وشدُّ ما كانَتْ دهشة فؤاد عندما رأى السيّارة تسوقها امرأة هي زوجة صاحب التاكسي وقد أشار في كتابِهِ «مشاهد العالَم الجديد» إلى ذلك كأنّه مِنْ غرائب الأشياء وطرائفها.

ومثل عجب الأستاذ صرُوف كان عجب الواقفِين أمام هوتال ريجنت في بيرُوت عندما رأوني أصعد إلى سيّارة خصوصيّة تسوقها فتاة.

ولا أدري ما جالَ في خواطرِهِم في تلك اللّحْظة غير أنّي أؤكّدُ أنّهم علمُوا أنَّ تلك الفتاة إمّا إنّها أميركيّة. وإمّا إنّها لبنانيّة مولودَة في أميركا.

وكانت تلك السائقة الفتاة اسمها فكتوريا وهي كريمة صديقي السيد منصُور الصبّاغ نزيل نيولندن وابنة شقيقة الوجيه شبل العقل. جاءت لتذهب بي إلى منزل خالها في شتُورَة فقد كنت وعدتُه أنْ أقومَ بزيارتِه في ذلك النّهار.

ووصلْتُ إلى المنزل وأنا أحسبُ أنّي وحدي المدعو. وإذا هناك جمهُور كبيرٌ مِنَ النّاس بينهم محافظ المنطقَة. وعددٌ مِنَ الأدبَاء. ثمَّ اقبل علينا أمير الارثوذكسيّة الأكبر وقائدها الأشهر غِبْطة البطريرك الكسندورس طحّان يرافقه مطرانان واثنان مِنَ الكَهنَة. وبعد السّلام دُعِيَ الجميع إلى مائدَة سخيّة وكان الأدبَاء الحاضِرُون ولا سيّما الشّاعر سليمان سلامه أسخياء في الإعراب عن ابتهاجِهِم بذلك اللقاء في ذلك المنزل المِضيَاف.

أتَيْتُ على ذكر هذه الزيارة لأتطرّقُ منها إلى الكلام على ما شهدتُه في دمشق مِنْ آثار جهاد البَطْريرك [1] الجليل الذي يزخرُ صدره بالعلُوم كما تزخر نفسه بالرّغبَة الحارّة في إصلاح شؤون الرّعيّة ورفع مكانة الارثوذكسيّة وضمان مستقبلها بما يقوم به مِنْ المشاريع العُمْرانيّة ليؤمِّنَ للطائفَة ريعاً كافياً تستعين به في تدبير منشآتها ومدارسها. فهْوَ رجل عمل بعيد النَّظر في الأمور وقد سمعتُه يتمنّى أنْ يمدَّ الله في حياتِه لكي يتمّ ما بدأ به. أمّا الضجّة التي تقوم بها جريدة النّهار في بيروت حول بيعه بعض أراضي الوقف فهي لا يُقْصَدُ بها من وراء ذلك خدمة ولا المطالبَة بحقّ مَهْضُوم بل مجرَّد التشويش والنّكايَة فإنَّ الأراضي التي بِيْعَتْ لم تكن تدرُّ على البطريركيّة شيئاً بل كانَتْ الفائدَة منها للوكلاء عليها. بينما المباني التي يشيدُها غِبْطتُه [2] بالمال الذي حصلَ عليه مِنْ بيعِ تلك الأراضي تعودُ على الطائفَة بدخلٍ صامد معلُوم.

وليس في استبدال وقف في حالة كساد أو بوار بوقف آخرَ ذي دخل فيه شيءٌ مِنَ الخطأ أو سوء إدارة بل هو دليلٌ على حِكمة وفَهم وحسن سياسة وتدبير.

---

1 البَطْرك مُقدَّم النّصارى رئيس رؤساء الأَساقفة ج بَطارِك وبَطارِكة.

2 الغِبطة أن يتمنّى المرءُ مثل ما للمَغْبوط من النّعمة من غير أن يتمنّى زوالها عنه، وحسن الحال والمَسَرَّة.

وقد سمِعْتُ في دمشق ثناءً مستفيضاً على غِبْطتِه ورأيْتُ في بيروت اشمئزازاً مِنَ الخطَّة التي تتمشّى عليها جريدة النَّهار في هذه القضيَّة.

ولمَّا جاء ذكر المدارس في دمشق أثنى الكثيرون أمامي على مدرسة التجهيز الارثوذكسيَّة وقالُوا: إنَّها في طليعة المدارس الرَّاقِيَة. وقد زرتُها وجُلْتُ في أقسامِها ورأيْتُ مِنْ إجتهاد المُعلِّمين ونباهَة الطلبَة ما هزَّني إعجاباً.

وكم كان إكبَاري وإجلالي لغِبْطتِه عندما حضر إلى الجامعة السوريَّة ومكث يستمعُ إلى أقوال الخطبَاء في الحفلة حتى النهايَة بالرَّغم مِنْ تقدُّمِه في العمر.

وبالَغَ في التفضُّل عَلَيَّ فجاء إلى المطار بنفسه لوداعي مع أنِّي رجوتُه في اليوم السابق أنْ لا يفعل حِرصاً على صحَّتِه. ولمَّا رآه المُودِّعُون في المطار أكبَرُوا منه هذه العاطفَة وأعانُوني في الإلحاح على غِبْطتِه أنْ يعودَ إلى مقرِّه لأنَّه كان قبل ذلك اليوم في الفراش لتوعُّك صِحَّته. وبعد لأْيٍ نزل على رغبتِهِم وكان ببين الحاضرين المودِّعين وزير المعارف محسن بك البرازي ورئيس الحزب الوطنِّي نبيه العظمَة والأستاذ الكبير جميل صليبَا وغيرهما من كبار النَّاس والمجتمع.

وممَّا يجدر بي ذكره بهذه المناسبَة أنَّ الحفريات التي جرَتْ في الشارع الممتد أمام دار البطريركيَّة الأرثوذكسيَّة في دمشق أسفرَتْ عن ظهُور قنطرة قديمَة يقال إنَّها كانَتْ في سالف الدَّهر باباً للمدينَة ولا يزال في بعض أحياء في دمشق مثل هذا الباب ذي القنطرَة. ولكنَّه باب فوق الأرض لا في جوفها..

السَّمير: 1/ 3/ 1949

ما رأيْت وسمعت

رائحة الحبر - توَقد الفحم - ليالي اللَّهو

إنَّ في الحبر سحراً أيُّ سحر. هو سائلٌ أسود ينبعثُ منه النُّور وينطلقُ منه السَّعير. وهو شيء له سلطان الأفيون وإنْ لم تكن له رائحته.

ظننتُ عندما فارقْتُ «السَّمير» أنِّي بَعُدْتُ عن رائحة الحبر فلمَّا حَوَتْني بيروت وجدْتُ هذه الرائحَة تنبعثُ مِنْ مطابعِها فتهدِيني إليها كما هدَتْ نار الطائي الضيوف المُدلَجين [1] في اللَّيل.

وعرفْتُ أنَّ آلة التَّنضيد «اللينوتيب» التي كان الصَّحافيُّون مِنْ قبل يتمنَّعُون عن اقتنائِها قد صارَتْ الآن حبيبة إلى قلوبِهِم فكلُّهُم يشتهي أو يَسْعى لتصيرَ هذه الآلة الميكانيكيَّة في حَوْزتِه.

1 دَلَج: أَدلج القوم سارُوا في آخرِ اللَّيل أو ساروا اللَّيل كُلَّه.

ورأيْتُ واحدة منها حديثة الطِّراز في مطبعَة ألبرت الريحاني شقيق فيلسوف الفريكة الطَّيِّب الذِّكر أمين الرِّيحانِي. وإذا هناكَ عامل يشتغل عليها ويجيدُ استعمالها وفوق ذلك يحاول أنْ يبتدعَ بذكائِه أشياء مِنْ لوازِمِها لعلَّه يستغني عن طلبِها مِنْ فبركتِها في نيويورك وليس له مِنَ العُدَّة[1] غير المبرد ودقَّة الملاحظة وقوة الإرادَة. وقد أراني أداة دقيقَة صنعَها فإذا بها وكأنَّها مجلوبَة مِنَ المعمل فوقفْتُ مُتعجِّباً مِنْ حِذْقِه[2] ومهارته وصبره العجيب.

وقلْتُ في نفسي كم كان يستفيدُ لبنان مِنْ أمثالِه لو أُنشِئتْ فيه مصانع ومعامل...

وقد تردَّدْتُ على تلك المطبعَة غير مرَّة لإخراج عدد «السَّمير» التَّذكاري. وكثيراً ما مكان ذهابِي في يوم ماطر. وهكذا عادَتْ رائحة الحبر فعلِقَتْ بأنفي وجرَّتني إلى مطبعَة حتى تحت المطر.

وفي أيَّام الشِّتاء تكثر الرّطوبَة في البيوت والحوانيت ولا سيَّما ذات الأرض الحجريَّة.

إنَّما في البيوت يأتونَك بموقدٍ صغير دوَّار مُتنقِّل يشتعلُ فيه فَحْم الحَطَب. ويضعونَه أمامك. وعليك أنْ تنظرَ إليه وتدفأ عن طريق عينيك.

ويظهر أنَّ القومَ تعوَّدُوا هذه الحالة فهم أقلُّ تأثراً بالرّطوبَة مِنْ إنسان عاش في أميركا التي تشيع الحرارة في بيوتِها وحوانيتها. ويلوحُ لي أنَّ التعرُّضَ للبَرْد أكثر فائدة للأجسام مِنَ التعرُّضِ للحرِّ فقد لاحظْتُ في القروِّيين الذين يأتُونَ إلى بيروت نشاطاً وانطلاقاً ورأيْتُ وجوهَهُم تفيض عافية...

ولا بدَّ لي مِنْ كلمَة حول مقاصف[3] بيروت وأنديَة اللَّهو فيها. فإنَّ بعضها من نوع «الفوديفيل» يقوم بالرَّقص الإفرنجي فيها سربٌ مِنَ الفتيَات الأوروبيَّات أكثرهُنَّ مِنْ بلاد النَّمسا. جئنَ إلى بيروت في طلب الرِّزق مِنْ هذا الباب. وهنَّ المَدعُوَّات بالأرتيستَات.

والتَّهافُت على هذه الأنديَة شديد وإنَّك لترى هناك عِلْيَةُ[4] القوم وجماعة الكُتَّاب والصَّحافيِّين...

أمَّا الغناء العربي فإنَّه لم يتقدَّم كثيراً بل لا يزال على وتيرَة واحدَة وأكثره أصداء لما يتغنَّى به المصريُّون. وعينك تنظر إلى الشَّباب عندما تمتلىء رؤوسهم مِنْ بنت العنب كيف يترنَّحُون كلَّما خرجَت «آه» أو «يا ليل» مِنْ حنجرة شادية!!

ولَكِنْ حتى في زحمة هذه العواطف والأهواء تتسلَّل وتدور مع الكؤوس. فتجري مباحثات وتَحدُثُ مساومَات. وتُعْقد صَفَقات وتَنْجَح أو تَفْشَل شَفاعَات...

ويطلع الصَّباح فإذا الذين كانُوا في تلك الملاهي يُطلقُون ألسِنتهم أو أقلامهُم إذا كانَتْ لهم أقلام في الشَّكوى مِنَ الغلاء وفي لوم الحكومَة عن مكافحَة الغلاء...

---

1 العُدَّةُ الاستعداد والعُدَّة ما أُعِدَّ لأمْرٍ يحدُثُ ج عُدَدٌ.

2 الحِذق: حَذَق فلانٌ العمل وفيه حِذْقاً أوغَالَى في ممارسته حتى مَهَر فيه فهو حاذِق ج حُذَّاقٌ.

3 مقاصِف: المَقْصِف مكانٌ للتَّرفيه وتناول الطَّعام والشَّراب ج مَقَاصِف.

4 العَلِيِّ المرتفع والرَّفيع القَدْر ج عِلْيَةٌ.

إنَّ حياة اللَّيل في هذه الملاهي لا تَذْهَب بالمال وَحْدَه بل كثيراً ما ذهبَتْ بالصِّيت والصِّحَّة. وليس في الدُّنيا شيئان أغلى مِنْ هذين ولله في خلقه شؤون!

السَّمير: 2/ 3/ 1949

ما رأيْت وسمعت
لبنان وسويسرا

لم أتعرَّض مِنْ قبل للكلام عن موقف لبنان السِّياسي في المعتركِ العالمي لأنِّي أعلمُ أنَّه مثل كُلِّ أمَّة صغيرة في الدُّنيا لا بدَّ له أنْ ينحازَ أخيراً طائعاً أو مُكْرَهاً إلى هذا المعسكر أو ذاك المعسكر. بل يمكن القول إنَّه الآن في معسكر الأمم الديمقراطيَّة. ولا عِبْرَة[1] بما يهتف به البعض مِنْ أنَّ لبنان يستطيع أنْ يكونَ في الشَّرق بلداً محايداً مثل سويسرا في أوروبا. فهذا القول مِنْ نسج المخيَّلات التي لا يقيم أصحابها للأمر الواقع وَزْناً ويرفضُون أنْ يتَّخذُوا ممَّا حدثَ في الماضي قياساً لما ينتظر حدوثه في المستقبل. ويتجاهلُون وهم يقيسُون لبنان إلى سويسرا أموراً كثيرة أخرى بارزَة ملموسَة. أهمُّها: إنَّ سويسرا بلاد لا شواطيء لها والسَّماح لها بالبقاء على الحياد مِنْ مصلحة كُلِّ الدول المجاورَة لها. فلو جُرَّتْ إلى حَمْأَة[2] الحرب لم يبق في أوروبا ملجأ لأيِّ طريد. ولم يعد هناك بلد يصحُّ أنْ يكونَ همزة وصل بين الدول المتحاربَة.

أمَّا لبنان فهو بلد كائن في الشَّرق الذي تحومُ فوقَه نُسور المطامع في هذه الأيَّام. وهيهَات له أنْ يَنْجُوَ مِنْ أظفارِها إلاَّ إذا نجا الشَّرق كُلُّه.

إنَّ في شواطيء لُبْنان غير السِّحر الذين جُنَّ[3] به الشعراء والرَّسامُون... إنَّ تلك الشواطيء قطعة استراتيجيَّة ثمينَة في البَحْر المتوسِّط تَجْتَذِبُ إليها الأساطيل كما يجتذب الماءُ النَّمير[4] القوافل في الصَّحراء!

وليس لسويسرا شاطيء بحر ولا ضَفَّة نَهْر.

فضلاً[5] عن أنَّ لبنان لا يستطيعُ أنْ ينطويَ على نفسِه ويتنسَّك فهو محتاج إلى الخارج أكثر جِداً مِنْ حاجة الخارج إليه. لضَعفٍ في إقتصاديَّاته وضيق في مساحتِه وقِلَّة الأراضي الزراعيَّة فيه. فهذه

---

1 العِبْرَة الاتِّعاظ والاعتبار بما مضى ج عِبَرٌ.

2 حَمْأة: الحَمأ والحَمَأ الطين الأَسود المُنْتِن والقطعة منه حمأَةٌ.

3 جُنَّ جُنوناً زال عَقلُه وجُنَّ به ومنه أُعجب به حتى يصير كالمَجْنون.

4 النَّمِير: وماءٌ نَمِيرٌ بوزن سمير أي ناجعٌ عَذْبا كان أو غير عَذْب.

5 فَضْلاً: وفَضَلَ الشيء فَضْلاً زاد عنِ الحاجَة.

الأسباب الثلاثة وَحْدَها هي التي تدفع بشبابِه إلى الهِجْرة. حتى في عهد الإستقلال. والهِجْرة تَوَسُّعٌ لا انكماش.

وليسَتْ الهجرة مِنْ سويسرا مثلها مِنْ لبنان بل يصحُّ القول أنْ لا هِجْرة مِنْ سويسرا.

في سويسرا صناعَات ليس في لبنان مثلها. فهي تصدِّر الأجبان إلى مختلف أنحاء العالم كما تصدِّرُ الساعات حتى إلى الولايات المتَّحدة إذ ليس في وُسْع العامل الأميركي ذي المُسْتوى الرَّفيع أنْ ينافسَ العامل السويسري في هذه الصِّناعَة.

وأخيراً ليس مِنْ صَواب الرأي أنْ يُقَاس بلد إلى بلد لمجرَّد وجُود تشابه بينهما مِنْ ناحيَة أو أكثر مِنْ ناحيَة. فإنَّ لكُلِّ بَلَدٍ ماضياً غير ماضي الآخر. وفي كُلِّ بلد مِنَ الشؤون والأمور ما ليس في ذاك.

وعلى الجُمْلة إنَّ فكرة صيرُورَة لبنان في الشَّرق كسويسرا في الغرب غير قائمَة على أساس مَكِين مِنَ التَّفْكير. وإنَّما هي نَفْحَة مِنْ نَفَحَات الخيال وأنشودة مِنْ أناشيد الوَهْم. ومِنْ غير المُمْكن أنْ تصيرَ حقيقة إلاّ إذا ماتَتْ المطامع في صدور الدول الكبرى. وزالَتْ المشادَّة[1] القائمَة الآن بين الشَّرق والغرب. وهذا افتراض بعيد الإحتمال.

إذن، فعلى ربابنَة السفينة اللبنانيَّة أنْ يكونُوا أودعَ مِنَ الحمام وأحكم مِنَ الحيَّات. لكي يتمكَّنُوا مِنْ دَرْءِ الخطر عن ذلك الوطن الجميل وتأمين سلامته وسعادته. ولا سيَّما بعدما صار الذِّئب الصهيوني على باب الحظيرَة!

السَّمير: 3/ 3/ 1949

لا موت!

عندما تقولُ الكنائس المسيحيَّة إنَّ المؤمنَ لا يموت بل ينتقلُ مِنْ حياة إلى حياة. فإنَّها تؤيِّدُ بقولها حقيقة كائنَة في الوجُود. تهتفُ بها الأقحوانَة الخارجَة مِنْ جَوف الأرض. ويترنَّمُ بها العصفُور الذي عاد إلى الحقل مع الرَّبيع بعد أنْ طواه الشِّتاء. وتخبر عنها الرَّوابي التي اكتسَتْ بعد العراء وتتحدَّثُ بها الأشجار التي اخضرَّتْ بعد اليَبَسْ.

ليس مع الحياة موت. والحياة في الأرض أزليَّة سَرْمديَّة وما دامَتْ كذلك وما دُمْنَا نؤمِنُ بوجودِها فعلَينَا إذن أنْ نؤمِنَ بأنَّ إنطواء إنسان لا يعني إنطواء كُلِّ إنسان. وذبُول شجرة لا يفيد إندثار الشَّجر مِنَ الأرض واختفاء أزهار الحقل في غياهِب الشِّتاء لا يعني حتماً أنَّ الحقل سيبقَى بلقعاً خالياً كالصَّحراء.

---

1 المُشادَّة: شادَّه مَشادَّة وشِداداً غالَبَهُ وشادَّه في الأَمْر بالغ فيه ولم يُخفِّف.

وإذا غاص ينبوع أو جفَّ فليس معنى ذلك أنَّ الماء قد تلاشى بل قد سربَ إلى موضع آخر. تهرم الشَّجرة وتشيخ ولكنَّها قبل أنْ تيبسَ وتسقط فتكون حوبتها [1] قد انتقلَتْ منها إلى ما تفرَّعَ وتولَّدَ منها مِنْ شُجَيرات. إنَّها تذهب صورة وشكلاً وتبقى معنًى وفعلاً.

وهكذا البشر. جيل يعقبُ جيلاً. وسَلَفٌ يغيبُ في خلف. فللحياة أدوار وأشكال تلوحُ وتختفي. أمَّا الحياة ذاتها فلا إنقضاء لها ولا نهاية.

وليس ما ندعُوه موتاً سوى خاتمَة لدور مِنْ أدوار الحياة ولكنَّه ليس خاتمَة كُلِّ أدوارها لأنَّه لو كان كذلك لاندَثرَتْ البشريَّة مع أوَّل شجرة مشى فيها الفناء. ولم يبق في الكون غير وجه ربِّك ذي الإجلال والإكرام.

السَّمير: 20/ 4/ 1949

عدو البشريَّة الأكبر

أتعرفُ مَنْ هو عدو البشريَّة الأكبر؟

ستقول إنَّه السَّرطان الذي لم يهتدِ علماء الطب بعد إلى علاج له.

إنَّ هذا العدو ليس السَّرطان.

وستقول: إنَّه مرض السُّلّ.

إنَّ السلَّ مِنْ أعداء البشريَّة الألدَّاء ولكنَّه ليس العدو الأكبر.

وستقُول: إنَّه الحرب.

إنَّ الحرب ويلٌ عظيم وعدوٌ هائل. ولكنَّها ليست العَدُو الأكبر ولا الويل العظيم

وربَّما تقول أخيراً: إنَّه الموت.

هذا أقرب إلى الواقع غير أنَّ الموت نتيجة محتومَة للحياة فلو لم تكن حياة لم يكن مَوْت فإذا قلت: إنَّ الموت هو العدو الأكبر للبشريَّة كنت كأنَّك تقول: إنَّ الحياة هي العدوُّ الأكبر.

لا. ليس السَّرطان. ولا السُّلّ. ولا الحرب ولا الموت هم فقط أعداء الإنسان بل العدُوّ الأكبر للإنسان هو الخوف لا سواه.

إنَّ الخوف هو السَّبب في جرائم ونكبَات وعِلَل وأمراض وحرُوب كثيرة.

فخوف الإنسان مِنْ جارِه يخلقُ في نفسِه البغض لجارِه فيختصمَان لأقلِّ سبب ويقتَتِلان لأهوَنِ بادرَة. ومنهما ينتقلُ العدَاء إلى أسرتَيْهما وإلى أصحابهما فيصير خوف هؤلاء مِنْ هؤلاء سبباً في تعاسة

---

[1] والحَوْب النَّوع.

الكُلّ.

وخوف الغني مِنْ ضَياع ثروتِه يجعله حريصاً كَزّاً[1] قاسي القلب حتى على أقرب النّاس إليه وهكذا يُفسِد ما فيه مِنْ أخلاقٍ طيبَة وسجايَا حسنة...

وخوف الحاكم مِنَ الشَّعب يحملُه على اللُّجوء إلى القَسوَة والشِّدَّة والإرهَاب فيعيشُ في حَذَر كما يعيشُ الشَّعب في قَلَق.

وخوف الشَّعب مِنَ السُّلْطة الغاشمَة يدفعُ به إلى الكذب والرِّيَاء والمُداهنَة والزُّلْفَى فتفسدُ الأخلاق.

وخوف الدولة مِنْ دولة تجاورها يدفعُها إلى بناء القِلاع وحشد الجنُود على الحدُود وعلى التَّأهُّب العسكري الذي يستنفد المال الكثير. وتصير كُلُّ دولة تؤول حركات الأخرى وأقوالها تأويلاً سيئاً.

وخوف الولد مِنْ ظلم أبَوَيْه يجعله يخالفَ إرادتهما في الخفَاء فيجمحُ فيعثُر ويجني على نَفْسِه.

وخوف الفقير مِنَ الموت جوعاً يسوقَه إلى ارتكاب الجرائم.

وعلى الجملَة إذا دقَّقْتَ في درس الحوادث وردَّها إلى أسبابها وجَدْتَ الخوف مِنْ أكبر الأسباب في أكثرِها. الخوف مِنْ أمْرٍ. أو الخوف مِنْ إنسان. أو الخوف مِنْ ضَرَر أو بلاء.

ولكنَّ أعجبَ الخوف ما يحملُ صاحبَه على الإنزواء في بيت أو كوخ أو قصر ليمُوت في آخر الأمر جوعاً وفي وُسْعِه أنْ يحصلَ على الطعام بدلاً من أنْ يموتَ جزعاً وليس مِنْ خطرٍ عليه ولا مِنْ عدوٍ يسوقُ الأذى إليه.

السَّمير: 12/ 5/ 1949

الجمَل المخَشُوش[2]

إذا كنتَ لم ترَ جملاً يقودهُ ولدٌ رأْيَ العَين فإنَّك بلا شكٍّ رأَيتَ صورةَ جَمَل يقوده ولدٌ إمَّا على لوحة السِّينمَا وإمَّا في كِتَاب وإمَّا في بطاقة وإمَّا في جريدة أو مجلَّة.

إذن فهل خطرَ لك أنْ تتساءَلْ كيف يستطيع ولدٌ صغيرٌ أنْ يقودَ جملاً ضَخْم الجِسم يزنُ مئاتَ الأَرْطالِ وبِرَفُسَةٍ[3] منْهُ يستطيع أنْ يَهْرِسَ[4] ذلك الولدُ هَرْساً. أو أنْ يقذفَ بهِ إلى بُعْدٍ بعيد؟

1 الكزّ: وكَزَّ فلان كَزَزاً وكَزَازَةً قَلَّ خيره ومساعدته فهو كَزّ ج كُزٌّ ورَجُلٌ كَزُّ اليدين بخيل.

2 الخِشاس بالكسر ما يدخل في عَظم أنف البَعيد.

3 الرَّفْسَة الصَّدْمَة بالرِّجْل في الصَّدْرِ.

4 الهَرْس الدَّقّ العنيف.

إن السِّرَّ في ذلك هو أنَّ الذين دجَّنُوا[1] الجملَ تعوَّدُوا أنَّ يجعلوا في عظم أنْفه خشبَةَ أو حَلْقةَ يصلون بها الحبل أو الزِّمام الذي يمسك به قائده سواءٌ كان رجلاً أم ولداً. فيمشي طائعاً صاغراً. وبعض النَّاس كالجمال تراهُمْ كباراً وضخاماً ولكنهم ينقادُونَ بشيءٍ كهذه الخَشَبة الصَّغيرة مثلما ينقادُ الجَمَلُ.

أمَّا هذا الذي ينقادُ بِهِ بعض الرِّجال كما تنقادُ الجمالُ فقد يكون مصلحة يخشَونَ ضَياعها فيتصاغَرونَ لئِلاَّ تضيعَ وقد يكون غايةً يريدون بلوغها فيَتَمَسْكَنُونَ[2] ويستخْذونَ[3] لكي يسهُلَ الوصُول إلى تلك الغاية.

وربَّما كان هذا التَّصاغُرَ والتَّذَلُّلَ في بعض الرِّجال كما هو في الجمال حالة موروثة مضى على رُسُوخها في نفُوسِهِمْ وقتٌ طويلٌ فصار مِنَ العسيْرِ على أَصحابِها أنْ يتحرَّروا مِنْها مثلَما هو عسيْرٌ على الجَمَل أنْ يتحرَّر مِنْ تلكَ الخشبةِ في أنْفِهِ!

فإنَّ إبن اللَّيث لا يكون إلاَّ مِقْحاماً وثَّاباً أَمَّا إبْن الثَّعلب فلا يكون إلا محتالاً خبيثاً مَكَّاراً... ولذلك كان مِنَ العَيْب على الإنسانِ الذي خُلِقَ لِيكُوْنَ سيِّداً أنْ يتذلَّلَ ويتصَاغَرَ لهذا أو لذلك من أجْلِ مغْنَمٍ ضئِيْلٍ أو مصلحة أو غاية غير نبيلة.

فالجملُ الذي لم يمنحْهُ الله عقلاً إلاَّ بمقدار هو أَضْعَف مِنَ الولد وإن كان أضخمَ مِنْهُ جسداً وأعظمَ مِنْهُ قوَّة. أمَّا الإنسان ولا سيَّما صاحب العقل السَّليم فلا يليقُ بِهِ في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ أنْ يرضى لنفسِهِ بأنْ يُقَادَ كالجَمَلِ المَخْشوش. وأنْ يُلْقَىْ زمامهُ إلى مَنْ دونَهُ معرفةً وعلماً وذكاءً لمجرَّدِ أنَّ الذي يقودُهُ على شيءٍ مِنَ الثرْوَةِ وعلى شيءٍ كثيرٍ مِنَ الحماقةِ والرُّعُوْنَةِ والطَّيْش...

لا تستطيع أنْ تقولَ للجمل كُنْ رجلاً لأنَّه لا يقدِر أنْ يكونَ في وُسْعِكَ أنْ تنصحَ لأيِّ إنسان أنْ يكون رجلاً. لأنَّه خُلِقَ ليمثِّلَ أدْواره في البيت وفي المجتمع وفي الوطن كرجُل. فإذا نصحتَهُ فذهَبَ نُصْحُكَ إيَّاه أدراج الرِّياح. فاْعلَمْ أنَّ في ذلكَ الرَّجُلَ نفْسُ جَمَلٌ وإنْ كان يمشي على اثنَتَيْن كما يمشي النَّاس. ويتكلَّم كما يتكلَّم الإنسان العاقِلُ.

فإذا سمعْتَ أحداً يقول: إنَّ فلاناً يُقَادُ كالجَمَلِ المَخْشوشِ فاْعلَمْ أنَّ الجَمَل هو الذي توضَعُ في أنفِهِ تلكَ الخشَبَة!

السَّمير: 19/ 5/ 1949

---

1 التَّدْجين: دَجَن بالمَكانِ دَجْناً ودُجُونا أَقام به وأَلِفَه ولَزِمه.

2 تَمَسْكَن: المَسْكَنة الفقْر والضَّعف.

3 استَخْذَى: خَضَعَ وذَلَّ.

كيف تعرف الإنسان

شَهد رجل عند عُمَر بن الخَطَّاب في قضية فقال له عُمَر: إيتني بمَنْ يعرفك. فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً. فقال له عُمَر: أأنتَ جاره الأدنى الذي يعرف مَدْخلَه ومَخْرجه؟

قال: لا.

قال عُمَر: أكُنْتَ رفيقه في السَّفر الذي يُسْتَدَلُّ به على مكارمِ الأخلاق؟

قال: لا.

قال عُمَر: أعاملْتَه بالدِّينار والدِّرْهم الذي يستَبِيْنُ به وَرَعَ الرَّجل؟

قال: لا.

قال عُمَر: أظنُّكَ رأيته قائماً في المَسْجد يهمْهِم بالقرآن. يخفضُ رأسَه طوراً ويرفعه طوراً.

قال: نعم.

فقال عُمَر: إذهب فلسْتَ تعرفه!

مِنْ هذه الحكايَة يدرك الإنسان أنَّ المرء لا يُعْرَفُ معرفة حقيقيَّة إلاّ إذا كان جاراً دانياً أو رفيق سفر. أو متعاملاً بالمال.

هكذا كان الإنسان في زمن عُمَر بن الخطَّاب وهو في هذا الزَّمان كما كان في ذلك الزَّمان فكُلُّ شهادة تؤدَّى مِنْ إنسان في إنسان لم يجاوِرْه. ولم يرافقه في سَفَر. ولم يأخذ معه ويُعْطي في معاملَة. فهي شهادة لا قيمةَ لها لأنَّها غير مَبنيَّة على الدَّرْس والإختبار.

ولذلك لا يمكنك إلاّ أنْ تستغربَ عندما تسمع أحدهم يفيض في الثَّناء على إنسان لم يجاوِرْه ولم يرافِقْهُ ولم يعامله. فإذا سألتَه على أيِّ مُسْتَنَد تبني شهادتك في الرَّجل؟ قال لك: إنَّه سمع البعض يُثْنُون عليه.

ولو سألْتَ اولئك الذين سمعَهُم يثنُون عليه لما أجابُوك بأكثر ممَّا أجابَكَ هذا الشَّاهد السَّامع.

وليس مِنَ النَّادر أنْ تسمع أحدهم يقول لك مثلا: إنَّ فلاناً يسوي مليون دولار؟ وهو لا يعرف عن فلان شيئاً. لم يجاوره. ولم يرافقه في سفر. ولم يعامله بدرهم ولا دينار.

ولو طلبْتَ إليه البَيِّنَة على صحَّة ما يقول تحيَّر وارتبَك وقال لك: إن فلاناً يملك بناية كبرى وله في المَصيف بيت وعنده سيَّارة فخمة.

وينسى أنَّ البنايَة قد تكون مرهونَة وكذلك البيت.

أو ربَّما لم يكن عنده شيءٌ مرهون.

غير أنَّ المحدِّث عن فلان على كُلِّ حال لم يكن كاتم سِرِّهِ ليعلم إذا كان يساوي مليوناً أو أكثر أو

أقل مِنْ مليُون.

ولكنَّه مِنَ النّاس الذين يحبُّون أنْ يتحدَّثُوا عن النّاس صدقاً أم كذباً.

ومثل أحاديث المدح أحاديث الذَّم. فكثيراً ما نجد أناساً يقولون عن إنسان ما إنَّه غبيّ. أو إنَّه خبيث أو غير ذلك مِنَ الصِّفات المستكرهَة. وتظلُّ أنتَ مؤمناً بما قالُوا حتى تعرضَ لك فُرْصة فتلتقي بالرَّجل أو تجاورَه أو ترافقَه في سفر أو تعاملَه فيتَّضحُ لك أنَّ النّاس قد ظلمُوه لأنَّهُم حكمُوا عليه دون أنْ يجاوروه أو يرافقُوه أو يعاملُوه!

ضربْنَا لك مثلاً على ذلك الحديث عن المليون لتجعله مقياساً لغيره مِنَ الأحاديث التي مِنْ هذا الطِّراز فإنَّ الكلمة تتضخَّم وتتجسَّم كلَّما انطلَقَ بها لسان. فتدور مِنْ بيت إلى بيت ومِنْ مكان إلى مكان حتى يقيِّضَ[1] الله لها رجلاً مثل عمر فيَكْشِط بحكمتِه عنها الورم ويردُّها إلى جوهرِها الأوَّل إذا كان لها جوهر. أو أنَّه ينفُخُ فيها فتطير كما يطير الهبَاء.

فإذا سُئِلْتَ رأيك أو شهادتك في رجل فلا تُسْرِعْ إلى تأديتِها وذلك قبل أنْ تجاوره وتعاشره وترافقه وتتعامل معه.

وإيّاك أنْ تخدعك الظَّواهر.

السَّمير: 26/ 5/ 1949

المُفارقَات الغَريبَة في حياتنا

ما أكثر المفارقَات في حياتِنَا وما أغربَها وما أشد تَغَافُلْنَا عن النَّظر إليها.

وليسَتْ المفارقَات محصُورَة فينا وَحْدَنا بل هي موجودَة عند كُلِّ أمَّة ولكنَّها عندنا أظهر لأنَّها أكثر. ولا شيء يغطِّيها في حين إنَّ عند الأمَم الأخرى حسنَات تتضاءل حِيالَها[2] المُفارقَات.

مِنَ المفارقَات الغريبَة عندنا أنَّنا ننفق ألوف الدولارات لكي نستمعَ إلى مُنشد يغني قصيدة أو طَقْطُوقَة[3] حَفِظها لا عن مُنشدٍ آخر بل عن أسطوانَة تدور في كُلِّ بيت فيه فونغراف. أي أنَّنا ننفقُ تلك الألوف مِنَ الدولارات لنمسع مغنياً يقلدُ أسطوانَة سمعناها مِراراً كثيرة في بيوتِنَا وعند جيرانِنا وأصدقائنا ولم يكلِّفنَا سماعها إلاّ قبولنا بأنْ نصغي ونَسْمع.

أليس هذا أمراً عجيباً!

أليس هذا الأمر العجيب دليلاً على أنَّنا لا نتعمَّق في التَّفكير. فننسى ونحن نسمع ذلك المُغنِّي المقلِّد

---

1 وقَيَّض الله تعالى فلاناً لفلان أي جاءَهُ به وأتاحه له ومنه قوله تعالى «وقَيَّضْنا لهم قُرَناءَ».

2 الحِيال قُبالة الشيء ويقال قعدتُ حِيالَه وبحياله بإزائِه.

3 طَقْطَق صَوَّت أو كثُر صوته وهو تكرير طَقْ.

الفَنّان الذي أخذ عنه وننسى معه الشَّاعر الذي نظمَ القصيدَة وحبَك [1] الطَّقْطوقَة.

نحبّ الأدب والأدباء ونُكْثر الحديث عنهم كما نكثر نسج برود الثَّناء عليهم. ولكنَّنا لا نقرأ مؤلَّفاتهم بل نكتفي بأنْ نسمعَ الغير يتحدَّث عنهم فنتحدَّث نحن عنهم... ولهذا السَّبب يختلط علينا الأمر فنضع الكُوَيْتِبْ مع الكاتب وأدعياء الأدب مع زعمائه وأساطينه [2] وهذا لا يحدث إلاّ عندنا. وهو أمرٌ ليس غريباً فقط بل مُضِرٌّ جِدّاً [3] لأنَّه يُجَرِّيء الأدعياء [4] على الظهُور ويحمل الأدباء الحقيقيِّين على الإنكماش والإنزواء ضنًّا بمكانتِهم أنْ تُبْتَذلْ.

سيغضبُ كثيرُون ممَّا نقول ولكنَّه الواقع وسيَغْتاظ كثيرُون مِنْ معالجتنا هذه النَّاحية الإجتماعيَّة في حياتِنَا ولَكِنَّ غَيْظَهُم لا يَنْفي وجودَ هذه الحالة وهو وجود لا يدعو للفخر بها.

سيقول معترِض أنَّ الذنب في ذلك ذنب الجرائد ذاتها والخطيئة خطيئة أصحاب الأقلام ولكنَّنا إذا تعمَّقْنَا في الدَّرْس وجدنا أنَّ الذنب في وجود هذه الجرائد المذنبة والأقلام العَيّابَة المفسدَة ذنب الرأي العام.

وليس الرأي العام غير أنت وأنا ممَّن يقرأون هذه الصُّحُف التي تتعالى جعجعَتُها [5] في الأسماع على غير طِحْن [6].

عندنا أمور جَوْهريَّة [7] كثيرة لا نعيرُها التفاتاً ولا اكتراثاً كأنَّها لا تَخُصُّنَا.

عندنا أمور غير جوهريَّة نَبْذُلُ في سبيلِها الوَقْت والمال كأنَّها أمور جوهريَّة لا تتِمُّ حياتُنا إلاّ بها.

وعندما نصير أمَّة مِنَ الأمَم تشتغل بالتَّوافِه كُلَّ الوَقْت لا يبقى لديها متَّسع ولا تبقى فيها قوَّة على معالجة الأمور النافعَة المفيدَة فتنحطَ وتتدهور لِتصبحَ مستهدفةً لمطامع الغير.

فيا ليت شِعري متى نصير أمَّة كباقي الأمم نضعُ الأمور مواضعها ونُعْطي كُلَّ ذي حَقّ حَقَّه ولا نَخْلِطُ الأشياء بعضها ببعضٍ بل نُعَمِّيها على أنفسنا وعلى النّاس.

إنَّنا محتاجُون إلى قليل مِنَ الجرأة الرصينَة الرزينَة فهذا هو الإكْسِير الذي يشفي مِنْ هذه الآفَة.

---

1 حبَك الشيء أَحْكمه وحَبَك الأَمْر أَحسن تدبيرَهُ.

2 الأَساطين: أَساطين العِلم أو الأَدب الثِّقات المُبرِّزون فيه المُفْرد أُسْطُون.

3 جَدَّ يجِدُّ وأَجَدَّ في الأَمْر أَيضاً يقال إنَّ فلانا لجادّ مُجِدٌّ باللغتين وفلانٌ مُحسِنٌ جداً بالكسر لا غير.

4 الأَدعياء: إدَّعى مِلْكِيَّة الشيء زَعَمها لِنَفْسهِ.

5 الجَعْجعة: جعجع الجَمَلُ اشتدّ هديره جعجعتِ الرَّحَى صوَّتَتْ وفي المَثَل «أَسمع جَعْجَعةً ولا أَرَى طِحناً». يُضرَب الرَّجُل يكثر الكلام ولا يعمل.

6 جَوْهَر الشيء حقيقته وذاته.

7 الإكْسِير: مادَّة مُركَّبة كان الأَقْدمون يزعمون أَنَّها تحوِّل المعدَنَ الرَّخيص إلى ذهب أو هو شراب في زعمهم يطيل العُمْر.

وقد حان أنْ نكتشفَ هذا الإكسير فنُوفِّرَ كثيراً مِنَ الجهُود والأوقات والأموال التي ننفقها ضياعاً ولا نستفيدُ منها شيئاً إلاّ بقاءنا حيث نحن لا نتأخَّر ولا نتقدَّم.

إنَّ في وُسْع كُلِّ إنسان أنْ يفكرَ لذاتِه في هذا الموضُوع ويجب عليه أَنْ يفكر جيِّداً لكي يتسنَّى له أنْ يشعر في قرارة نفسِه بأنَّه مسؤول عن هذه الحالة الشاذَّة مثل كُلِّ شخص آخر. وفي وُسْعِه أنْ يعملَ على معالجتِها في دائرتِه بدون أنْ يُلْقيَ التَّبِعَة على سواه لكي يتملَّص هو منها ويقفَ موقفَ اللاَّئم متناسياً أنَّه مَلُومٌ[1] كغيرِه.

السَّمير: 10/ 7/ 1949

الإنسان والطَّيران

بين آونة وأخرى تسقط طائرة سفر فتتحطَّم وتحترق ويَهْلكُ ما فيها مِنْ ركَّاب ونوتيَّة[2]. فترتاع النفُوس وتضطرب الأفكار فيمسي النَّاس خائفين مِنَ السَّفر في الجوّ؟ ومِنْ ثَمَّ لا يمرُّ شهر أو شهران حتى ينسى النّاس تلك الفواجع ويعودُون إلى السفر بالطائرات.

ليستْ هذه ظاهرَة غريبَة في البشر. ولا هي غير مألوفَة. فهذا شأن الإنسان منذ زَمَن. فقد كان يَنْذعر ويرتاع كلَّما غَرِقَ شخص في البَحْر. ولكن، هذا لم يَحُلْ بينَه وبين ركوب المراكب حتى عندما كانت غير شراعيَّة.

وعندما كان يعيش على صيد الطيُور والغزلان والأرانب وأمثالها مِنَ الحيوانَات بالنُّبال والأشراك نزلَتْ به نكبَات كثيرة في الغابات وصارَتْ بطُون الضَّواري[3] مدافن كثيرين مِنَ الصَّيَّادين.

غير أنَّ الإنسان لم يعدل عن الصَّيْد ولم ينقطع عن غزو الغابَات بل حملَتْه تلك المصائب على أنْ يخترعَ أسلحة أمضى وأفتك وأنْ يضمَنَ لنفسه الظَّفَر حتى في الأَدغال[4] الموحشَة.

قد يسمع إنسان بغرق إنسانٍ وهو يَسْتحِمّ على شاطيء البحر ولَكِنَّه لا يبالي بل نراه يذهب إلى غشيان[5] الشواطيء للإستحمام والتسلّي بمعاركة الأمواج.

1 لامه على كذا لَوْما عَذَله فهو لائِم ولَوَّام. أَلام فلان أَتى ما يُلام عليه فهو مَليم. ومُليم اسم فاعل ومَلُوم اسم مفعول.

2 النُّوتِي: النَّواتِيّ الملاَّحون في البحر وغيره الواحِدُ نُوتِيٌّ.

3 الضَّواري: الضَّاري من السِّباع المولع بأَكْل اللَّحْم ج ضَوارٍ.

4 الأَدْغال: الدَّغَلُ الشجر الكثير الملتفّ ج أَدغال ودِغال.

5 غَشِيَ المكانَ غِشْياناً أَتاهُ.

ولمّا اخترِعَتْ القاطرة البخاريّة كان كثيرون يَخْشَوْن السفر في القطار. ويحسبونَ ركوبَه مُغامرة.

ولمّا وُجدَت الكهرباء لإنارة المنازل امتنعَ كثيرُون عن استعمالِها لإعتقادِهم أنّها مُجْلِبَةٌ للأخطار!

غير أنّ الكهرباء بقيَتْ وزال خوف النّاس منها.

وجرى القطار يخترقُ السهُول والجبال مِنَ السَّاحل للسَّاحل ولم يعد أحد يخشى ركوبه.

واستمرار النّاس على ركوب الطائرات برهان[1] على ثِقَةِ الإنسان مِنْ قُدْرَتِه على جعل الطَّائرة مأمونَة كالقطار. وإذا لم يكن الأمر كذلك فهْوَ إذن مُسيَّر بقوَّة غير منظورَة. هي التي تلقي الرُّعب في نفسِه وهي التي تعيد الرجاء إليه.

هل وقفْتَ مرة أمام قرية للنَّمل[2] ورأيْتَ كيف يذهب ويجيء مِنَ القرية وإليها. وكيف يستمرّ في مجيئه وذَهابه بالرَّغم مِنْ أنَّ ولداً لذَّ له أنْ يَدْهَسَهُ بقدمَيْهِ ليلهُو به ويتسلّى أو متعمّداً قطع الطَّريق على النَّمْل.

ثمّ هل فكَّرْتَ بكيفيّة بقاء النَّمل في الأرض بالرَّغم مِنْ إقدام الإنسان تارة على سحقه وذلك أثناء ذهابِه وإيابه. وطوراً على هدم قراه أو حَرْقه بالنَّار؟

إذا ذكرْتَ ذلك فلا تنسى أنّ الإنسان لن يكونَ أقلَّ قدرة على البقاء مِنَ النَّمل وهو مثلما أخضع البَحْر سيخضع الجو ولن تقف به هذه النكبَات عن الإستمرار في التقدُّم حتى تصيرَ له السِّيادَة على العناصِر[3] كُلِّها أو أكثرها.

السَّمير: 1/ 12/ 1949

اكرم النّاس وأسمى العطايا

ما برحَ النّاس منذ عَمَرَتْ بهم الأرض متشابهين في مطالبِهم وحاجاتهم الجسديَّة والرُّوحيَّة وإنْ اختلفَتْ ألوانهم وتباينَتْ أديانهم وتباعَدَتْ أوطانهم. فالأبيض يجوعُ كما يجوع الأسود. والغني يعطَشُ كما يَعْطَشُ الفقير. وساكن القصر الفخم يحتاجُ إلى النوم كما يحتاجُ إليه المقيم في خيمَة مَضْروبَة في صحراء أو كوخ في سَفْح جبَل.

---

1 البُرْهان الحُجَّة وقد بَرْهَنَ عليه أي أقام الحُجَّة.

2 النَّمْل م واحدته نَمْلةٌ وقد تُضمّ الميم ج نِمالٌ.

3 العُنْصُر في الكيمياء مادَّة أوَّليَّة لا يمكن تحليلُها كيماوِيّاً إلى ما هو أبسطُ منها والعُنْصر أيَضاً المادّة التي تدخل في تكوُّن جسم ما كالهدروجين والأُكسجين في تكوُّن الماء ج عناصِر.
والعَناصِرُ عند القُدَماء أربعة وهي النَّار والهواء والماءُ والتُّراب.

فالغِذاء والماء والنَّوم هم قِوَام[1] الجسم وصلاحه. وفي هذه الحومَة يتساوى البشر علماء وجهّالا. ملوكاً وصعاليك. ومتمدِّنين ومتوحِّشين. وعقلاء ومجانين.

ولكن الإنسان لا يحيا بالخبز وَحْده. ولذلك كانَتْ له مطالب أسمى وأشواق أنْبل. هي مطالب الرُّوح التي تحتاج إلى الغِذاء كما يحتاج الجسد. إنَّما طعامها ليس مَنّاً[2] يهبط مِنَ السَّماء. ولا ثمراً وبَقلاً يخرج مِنَ الأرض. ولا هو لحُوم وفاكهَة توضَعُ على خُوان[3] وتَدور بها صِحَاف. بل هو إمَّا ابتسامَة في ثغر حبيب تردُّ إليك أملاً هارباً وتحيي فيك رجاء رثَّ واندثر. وإمَّا نور عَطْفٍ في عينَي صديق أو أخ يبدِّدُ ما في نَفْسِك مِنْ غيُوم الوَحْشَة[4]. وإمَّا صوت عَذْبٌ رقيقٌ ينطلق مِنَ القَلْب قبل الشَّفَتَيْن فيقعُ في الأذن كتغريد الكنار الطَّرِب.

إنَّه البشاشة في وجه إنسان.

لذلك جاء في أمثالِنا الفصحى «البشاشَة خير مِنَ القِرَى[5]». وجاء في أمثالِنَا العاميَّة «لاقيني ولا تغدِّيني».

وصاحب الثغر المُبتسِم والمُحيَّا المُتهلِّل والعينين الضَّاحكتين المرحتين هو وإنْ كان فقيراً أحبُّ النَّاس إلى النَّاس. وربَّما جاز القول إنَّه أكرم النَّاس. لأنَّه يعطي مِنْ روحِه لا مِنْ فضول مالِه. وهِبَات الروح أسمى الهِبَات.

وأكرم مِنْ هذا الإنسان الكريم أديب يَعْصِرُ روْحَه ليقدِّمها إلى النَّاس. إلى أرواح النَّاس. شراباً طيِّباً. وغذاء شهياً. ويقنعُ أنْ يكونَ حَظُّه حَظَّ الدَّاليَة التي ينساها النَّاس وهم يرتشفُون عَصيرها. ولا يجدُون بأساً[6] في أنْ يعربدُوا عليها ويعبثُوا بأوراقِها وأغصانها!

هو طائرٌ يلذُّ له التغريد وإنْ جَرَحَ حَنْجرَتَه[7]. وإنْ لم يكن حوله مِنْ سميع غير الأرض الجرداء والصخُور الصمَّاء[8].

وهو قلب يتألَّمُ كلَّما تالَّم في الدُّنيا قلب. كأنَّما البشر كُلُّهُم أَهل له وأَنسباء.

وهو الفقير الذي يعطي الأغنياء وبلا سؤال. ويفرح ويتهلَّل كلَّما أخذوا.

---

1 والقِوام ما يُقيم أَوَدِ الإنسان م القُوْت.

2 المَنُّ كُلّ طَلٌ ينزل من السَّماء على شَجَرٍ أو حَجَرٍ ويحلو وينعقد عَسَلاً ويجفُّ جَفاف الصَّمْغ.

3 الخِوان ما يؤكل عليه ج أَخْونة.

4 الوَحْشَة الخَلْوَة والهَمّ.

5 القِرى: وقَرِي الضَّيف قِرىً أضافه وأكرمه.

6 بأساً: بَئِس بأساً وبُؤْساً شَقِيَ.

7 الحَنْجَرَةُ الحُلْقوم مجرى النَّفَسِ في الترقوة.

8 الصَّمَّاء: صَمَّ الحِسْم كان صُلْباً مُصْمَتاً فهو أَصَمُّ وهي صَمَّاء.

وهو الذي يسوق الإبتسامة إلى الثغر الكئيب ويمسَحُ الدَّمعة في الجفن الحزين، وينيرُ الطَّريق في اللَّيل المُكفهرِّ [1] أمام المُدْلِج [2] السَّاري. وإذا أعوزَ النّاس البخُور [3] حرق روحَه بَخُوراً.

وأخيراً هو ذلك الذي يُؤثر الغيرَ على نفسِهِ ويجدُ في ذلك لذَّة عُظْمى.

وللأديب في كُلِّ بيئة فضلٌ كبير. غير أنَّ الأديب العربي في المهجرِ أعظمُ فضلاً مِنْ سواه. لأنَّه يحيَا في محيطٍ ليس له ويحاول أنْ يفعلَ لأمَّتِه ما عَجزَتْ هي عَنْهُ. فهو دولة في ذاتِها. ودولة لم تخلُقْها السِّياسة.

السَّمير: 6/ 3/ 1950

البَحْر

أهدَتْ إلينا مكتبة صادر في بيروت التي اشتدَّتْ عنايتها في الآونَة الأخيرة بنشر المؤلَّفات الأدبيَّة عدداً مِنَ الكتب التي طبعَتْها بينها كتاب «مذكرات الأرقش» [4] للكاتب الكبير مخائيل نعيمة. فاخترنَا منها هذه القطعة الأدبيَّة عن «البَحْر» لنضمَّ إليها مقطوعة من مقطوعات قصيدتنا المشهورة «الطلاسم» وهو مقطع جعلناه تحت عنوان «البَحْر».

«البَحْر»

لمخائيل نعيمه

يا بحرُ. يا مهدي ومَهْدَ الحَياة

يا بحرُ. يا صَوتي وصوت الدّهُور

يا بحرُ. يا فوَّارة لا تغُور

يا بحرُ. يا قلبي وقلبَ الإله

يا جامِعٌ ما انتشَر. وناثر ما اجْتمعْ

يا معلِّم السمُو والوداعَة والطُّموح والقناعَة

يا حاملٌ أوزارنَا وغاسلٌ أقذارنَا

يا نقطة في ألف رَبْوة نقطة. وألف رَبْوة نقطة في نقطة

---

1 المكفَهِرّ: السَّحاب الغليظ الأَسْوَد.

2 دَلَجَ: أَدْلَج القوم ساروا مِنْ أَوَّل اللَّيل.

3 البَخُور ما يتبخَّر به.

4 مُذَكِّرة الأَرقش المُذَكِّرة دفتر صغير يدوَّن فيه ما يُراد تذكّره ج مُذَكِّرات.
والأَرْقَش: وأَرْقَش ورقَّشَ كلامه ترقيشاً زوَّره وزَخْرفه.

يا حالماً ما نحلُم وما لا نَحْلُمُ
يا مالك الأرض ومملوكها
أبَديَتُكَ لمحةٌ وَلَمْحتُكَ أبديّة
والزَّمان على صدرك في غَفْوة الأبرار

أحبُك أيّها البَحْر. أحبُّ سكونَكَ الثائر وثورتك السَّاكنَة. فثورتك ثورتي. وسكونك سُكوني؟
أحبَّ زَبَدَكَ وأمواجك فِيَّ زبدٌ كزبَدُك وأمواج كأمواجك. أحبُّ انكماشك وانبِساطَكَ فِيَّ مثل انبساطك وانكماشك. وأحبَّ حنينك الأبدي فما أشْبَهَه بحَنيني.

نحن بحران أيُّها البَحْر. ولكن الأرقش هو البَحْر الأوْسع والأعمق والأبقى. فأنتَ يأتيك يومٌ تتقلّص فيه وتنضب. أمّا الأرقش فلا يتقلَّصَ إلاّ لينْتَشِرَ. ولا ينضب إلا ليمتليءَ بما لا ينضب.
أجل. نحن بحران أيها البَحْر. الأرقشُ هو الأبْقَى.

مِنْ مذكَّرات الأرْقَش

«البَحْر»

لإيليا أبو ماضي

قد سألْتُ البَحْر يوماً هل أنا يا بحرُ مِنكا
أصحيحٌ ما رواه بعضُهم عنّي وعنكا
أم تُرَى ما زعموا زُوراً وبُهتاناً وإفكا
ضحكتْ أمواجه مِنّي وقالت:
لَستُ أدْري!

أيها البَحْر أتَدْري كم مضَتْ أَلْفٌ عليكا
وهل الشاطيء يدري أنَّه جاثٍ لديكا
وهل الأنهارُ تدري أنَّها مِنْكَ إليكا
ما الذي الأمواجُ قالَتْ حين ثارَتْ؟
لَسْتُ أَدْري!

أنت يا بحر أسيرٌ آه ما أعْظَمَ أَسْرَكْ
أنت مِثلي أيُّها الجَبَّار لا تملِك أمْرَكْ
اشبهْت حالُك حالي وحكَى عِذْرِيَ عُذْرَكْ
فمتى أنجو مِنَ الأَسْرِ وتَنْجو؟
لَسْتُ أدْري!

تُرْسِلُ السُّحْبَ فتسقي أرضنا والشجرا
قد أكلنَاكَ وقلنا قد أكلنا الثَمَرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المَطَرا
أَصوابٌ ما زعمنا أم ضلال؟

لَسْتُ أَدْري!
قد سألت السُّحْب في الآفاق هل تذكر رَمْلَكْ
وسألتُ الشَّجر المُورَقَ هل يعرف فَضْلَكْ؟
وسألتُ الدُّرَّ في الأعناقِ هل يذكر أصْلَكْ
وكأني خِلتها قالت جميعا:

لَسْتُ أَدْري!
يرقصُ الموج وفي قاعِك حربٌ لن تَزُولا
تخلق الأسماك لكِنْ تخلُق الحوتَ الأكولا
قد جمعتَ الموتَ في صَدْرِك والعيشَ الجميلا
ليتَ شِعريْ أنتَ مَهْدٌ أم ضريح؟

لَسْتُ أَدْري!
كم فتاةٍ مثلُ ليلى وفتًى كابن المُلَوَّحْ
أَنفقا الساعاتِ في الشاطئ وهي تشكو وهو يشرحْ
كُلَّما حدَّث أصْغَتْ وإذا قالت: ترنَّحْ
أحفيف الموج سِرٌّ ضيَّعاهُ:

لَسْتُ أَدْري!
كم ملوكٍ ضربوا حولك في اللّيل القبابا
طلع الصبح ولكن لم نَجِدْ إلاّ ضبابا
ألَهُمْ يا بحر يوماً رجعةٌ أم لا مآبا
أهمُ في الرَّمْل؟ قال الرَمل إنّي:

لَسْتُ أَدْري!
فيكَ مثلي أَيُّها الجبَّار أصدافٌ ورملُ
إنَّما أنت بلا ظِلٍّ ولي في الأرض ظِلٌّ
إنَّما أنت بلا عقلٍ ولي يا بحرُ عَقْلُ
فلماذا يا تُرَى أمضي وتبقى؟

لَسْتُ أَدْري!

يا كتاب الدَّهر قُلْ لي هل له قَبْلٌ وبَعْدُ
أنا كالزَّورق فيه وهو بحرٌ لا يُحَدُّ
ليس لي قَصْدٌ فهل للدَّهر في سَيرِيَ قَصْدُ
حبَّذا العلم ولكن كيف أدري[1]؟

لَسْتُ أدْري!

إنَّ في صدريَ يا بحرُ لأسْراراً عجابا
نزل السِّتْرُ عليها وأنا كنْتُ الحِجابا
ولذا آزداد بُعْداً كلَّما ازددْت آقْترابا
وأراني كلَّما أوشكْتُ أدري:

لَسْتُ أدْري!

السَّمير: 15/ 3/ 1950

قَتَلَةُ الوَقْت

ليس قتلَة الوَقْت هم وحدَهُم الذين يلهُون أكثر ممَّا يَجدُّون وسبقَ الحديث عنهم. فهناك أنواع كثيرة مِنْ قتلَة الوَقْت يجيءُ في الطليعة منهم رجلٌ لا شُغْل له يدخلُ عليك وأنتَ مُنهمك في عَملِك فيَطرح عليكَ سؤالاً تافهاً بعد سؤالٍ تافِه! فتحَار كيف تجاوبَه وكيف تصرفَه عنك.

أو أنَّه يأتِيك بخبرٍ لا علاقة لك به. ولكنَّه يحملَه إليك ويدُسَّه في أذنَيك لكي يمدَّ حبل الحديث مَعَكَ.

وربَّما كان خبراً مزوَّراً أو حكاية ليس فيها مِنَ الصِّحَّة أكثر ممَّا في القصبة مِنَ اللُّب.

أو يلقاك في الطَّريق وأنت ذاهب في مَهَمَّة ضروريَّة فيستوقفُك ليسألكَ رأيكَ في مستقبل العالم بعد مائة سَنَة.

أو ليبثَّكَ شكواه مِنْ ضريبَة الدَّخل.

أو ليسألُك عمَّا إذا كانَتْ الحرب ستقع في هذه السَّنَة.

أو ليشرح لك خلافاً بينَه وبين صديق أو شريك أو جار أو نسيب.

أو ليسألُكَ رأيكَ في هذا الكاتب وذاك الشَّاعر وتلك الجريدة.

---

1 حبَّذا الأمْر أسلوب للمَدْح ويقال حبَّذا الرَّجُل والرَّجُلان والرِّجال والمرأة والمرأتان والنِّساء.

أو ليُسدِيَكَ النصائح ويَبْذُلَ لك الإرشادات.

تكون على موعد مع إنسان فيضيع. وفي طريقِك إلى القِطار فتتأخَّر عنه. أو عائداً إلى مكتبِك فلا تصل في الوَقْت المعيَّن.

أرأيْتَ لوالِب الورق التي يتسلَّى الأولاد برؤيتِها تدورُ في الهواء.

إنَّها أشبه بهذا النوع مِنَ النّاس الذين يقتلُون الوَقْت ـ وقتهم ووقت سواهُم ـ بلا طائل. فهْيَ تدورُ وتدورُ ولكنَّها لا تجلبُ حرارة ولا برودَة. وكذلك جماعَة الفُضُوليّين الواغلِينَ الذين يسألُونَك فلا تستفيد وتُجاوبُهُم فلا يستفيدُون. ويَفْرِضُون أنفسَهُم عليك شئتَ أم أبيْتَ. فتُحِسُّ بِقُشَعْرِيرَة[1] ولا زَمْهَرِيْر[2] وبمثل الحُمَّى ولا حُمَّى.

لو كانَتْ هناك شريعَة تُعاقِبُ مَنْ يقتلُ الوَقْتَ بالسِّجن لَما بقيَ سِجن فارغ. أو بالنفي لامتلأَتْ الصَّحارِي والبَراري والجُزُر السَّحيقَة[3] بهؤلاء.

السَّمير: 8/ 5/ 1950

لتجريد القِوَى والهِمَم

لا نظنُّ أنَّ في أيِّ عمل مَشَقَّة كالتي يعانِيْها محرِّرُو الجرائد العربيّة وعمّالها ولا سيَّما الجرائد اليوميّة.

قلنا محرِّرُو الجرائد ولم نقل أصحابها لأنَّ بين أصحابها مَنْ لا يمارسُون الكتابَة والتحرير فهم في نجوة مِنْ إجهاد أعصابهم وأرواحهم.

والسبب في ذلك أنَّ محرِّر الجريدة العربيّة اليوميّة في المَهْجر تختلف وضعيّته عن وضعيّة كُلُّ صُحُفي في العالم حتى في البلدان العربيّة حيث لا يهتمُّ المحرِّر بغير كتابة مقاله اليومي. أمّا محرِّر الجريدة العربيّة في المهجر فيكاد يكون الألف والياء في جريدتِه فهو المسؤول عن كُلِّ شيء حتى عناوين المشترِكِين. إنَّه لا يفارق مكتبَه طيلة النَّهار وربَّما قَضَتْ الظروف عليه أنْ يشتغلَ ليلاً أي بعد إنصراف الأعوان والمساعدِين. وإذا فارق مكتبه في مَهَمَّة إلى مكان قريب أو بعيد فعلَيْه أنْ يستمرَّ يكتب للجريدَة ويهتمُّ بالكثير مِنْ شؤونِها. وهو بعيد عنها. فكأنَّه النَّهر لا تظلُّ له صفة النَّهر إلاّ إذا استمرَّ يجري بلا انقطَاع!

في أيَّام الحرِّ المُحْرِق يفرُّ النّاس إلى الشواطيء والجبَال. أمّا الصُّحُفي العربيّ في المهجر ففي أيِّ وقت

---

1 القُشَعْريرة: الرِّعْدَة

2 الزَّمْهَرِير: شِدَّة البَرْد.

3 السَّحيقة البعيدة.

زرتَه تجدَه جالساً وراء مكتبه. عيناه على الطُّروس ويده على اليَراع.

وفي أيّام الزَّمْهَرير والثُّلوج يجرِّد الشِّتاء الأشجار مِنَ الوَرَق أمَّا هو فيظلُّ يكسو الأوراق العاريَة الصَّامتَة ويخلعُ عليها حياة ونضارَة.

ليسَتْ هذه شكوى. فليس للجُنديِ المُوَكَّل بحراسة مَعْقل أو حُصن أو شاطيء أو باخرَة أنْ يتذمَّرَ ويتضجَّر مِنَ السَّهَر ولو نام النّاس كُلُّهُم.

وحامل القلم كحاملِ البندقيَّة جندي يَفْرِض عليه الواجِب أنْ يكونَ أميناً مخلصاً ومجاهداً مضحّياً في سبيلِ المصلحة العامة.

ونحن ما تعوَّدنَا التَّذمُّر ولا الشَّكوى لأنَّنا نحن اخترنَا لأنفسِنَا ما نحن فيه. وإنَّما نريد أنْ نقولَ: إنَّ رجال الصحافَة العربيَّة لا يرفقُون بأنفسِهِم أو أنَّ هذه المِهنَة مِنْ خصائِصِها أنْ تتهضَّم أهلها.

ولكن أليسَ مِنَ الغَبْنِ الفاحش أنْ ينالَ تلميذ المدرسة في الصَّيف على عطلة شهُور ويحصل العامل في المكتب والطَّاهي في المطبخ والضَّاربَة على الآلَة الكاتبَة والكنَّاس والخبَّاز وغيرهُم مِنْ أصحاب الحِرَف على عطلة أُسْبوعَيْن في السَّنة. ولا يكون للمُحرِّر العربيّ مثل هذه الفرصَة لتجديد قُواه واستعادَة نشاطه!

بلى. ولكن هذا الغَبْن اللاّحق بمُحَرِّري الصُّحُف لم يلزمهم إياه فردٌ ولا جمهُور بل هم الذين جلبُوا على أنفسِهِم هذا الغَبْنِ! إمَّا حياء مِنَ الجمهُور. وإمَّا لخشيَة بعضِهِم مِنْ بعض وكِلا الأمرين مِنْ صنيعِ الوَهْم!

يدلُّكَ على ذلك أنَّ أنصار «السَّمير» ومُحبِّيها كانُوا أكثر مِنْ مُبتهجِين عندما جعلنَا أيّام صدُورها في الأُسْبوع خمسة بدلاً مِنْ ستَّة وذلك عندما زدْنَا صفحاتها إلى ثماني صَفَحات.

وما لبثَتْ أنْ تابعَتنَا الجرائد اليوميَّة الأخرى ولم يحدث لها انتكَاس ولا وقعَتْ في هاويَة الإفلاس.

ولهذا رأيْنَا أنْ نفتَحَ أمامَها باباً جديداً للإستجمام والرَّاحة وهو أنَّنا سنتوقَّف بـ«السَّمير» عن الصُّدُور مُدَّة أُسْبوعَيْن إذ لا سبيل إلى الإستعاضَة عن مُنضِّد بمنضِّد ولا عن طبَّاع بطبَّاع. ولا عن شاحن بشاحن. ولا عن كاتب بكاتب. فالأيدي العربيَّة التي تحسنُ مِهنَة الصَّحافَة قليلة نادرَة. وهؤلاء العمَّال يستحقُّون كغيرهُم مِنَ النَّاس أنْ يستريحُوا أُسْبوعَيْن في السَّنة.

ونحن لا نخرُج عن كونِنَا مِنَ العمَّال.

لذلك إنسياقاً مع الظرُوف وإتّكالاً على محبَّة الأنصار وغيرتهم ووفائِهم وشعورهم ستحتجب «السَّمير» ابتداءً من الواحد والعشرين من شهر آب الجاري إلى يوم العمَّال الموافق الرابع من أيلول.

جالَتْ هذه الفكرة في النَّفس منذ أُسْبوعَيْن عندما اشتدَّ الحَرّ وكادَتْ تذوب محادل الحِبر ويذوب معها الصَّبر. فأخذْنَا نزيد المواد الكتابيَّة في «السَّمير» منذ ذلك الحين وسوف تستمر هذه الزيادة بعد العُطْلة. وإنْ كانَتْ العِبرَة ليسَتْ بالكَميَّة بل بالماهيَّة ولا سيَّما في الإنتاج الفكري.

وممَّا حبَّب إلينا هذه الفِكْرة اعتقادنا الذي يوافقنَا فيه الكُلّ وهو خيرٌ للإنسان أنْ يختارَ الرّاحة وهو صحيح مِنْ أنْ يختارَها مُضْطرّاً وهو مريض.

نعلنُ عزمنَا اليوم ونحن واثقُون مِنْ أنَّ أنصار «السّمير» ورفاقها الأوفياء سوف يَسْتقبلُون هذه الفِكْرة بالتَّحْبيذ والإرتياح.

السّمير: 10/ 8/ 1950

كُنْ مستقيماً صادقاً - حكاية ذات مَغزى

زعمُوا أنَّ الفاقة عضَّت بنابها رجلاً معروفاً بين النّاس بصدقِه واستقامته وتقواه تديّنه فقصد إلى رجلٍ مُوسر مشهُور في البلدة وسأله أنْ يَقْرضَهُ مبلغاً مِنَ المال يفرجُ به كربته فقال له المُوْسِر: أنت رجلٌ فقير لا تملكُ حقلاً ولا داراً وليس عندك شَجَرة ولا مَدَرَة [1]، وأيُّ رهن يمكنك أنْ تدعَ عندي لقاء المبلغ الذي ستستدينَه منّي؟

وكان الرجل الفقير لتقوَاه قد أطلق لحيتَه وكانَتْ اللحيَة في ذلك العهد لها كرامتها وجلالها يحلفُ بها صاحبها كأنَّها أثرٌ مقدَّسٌ أو حَرَمٌ شريف ويرى مِنَ الجنايَة أنْ يرعَى فيها المقص أو تطالها الموسى. فمدَّ يدَه إلى لحيتِه وانتزعَ منها شعرة ودفعَها إلى المُوْسِر قائلاً: إنّي أترك هذه لديْكَ رهناً...

ولم يكنْ المُوْسِر المرابي ممَّن يجازفُون في إدانَة أموالهم فالموسرُون المرابُون في كُلِّ زمان نَمَط واحد. لا يترك أحدهم السَّاق إلاّ ممسكاً ساقاً بل عنقاً غير أنَّه في هذه المرة جازف إذ أدانَ الرجل ألفَ درهم. ولم يأخذْ ضماناً لمالِه غير تلك الشعرَة التي لا تساوي غير شعرة!

وذهب الرجل فأنشأ حانوتاً وملأ بيته قوتاً وكان له جار ذو لحيَة مثله ولكنَّه غير متديِّن مثله ولا معرُوف بين النّاس بالصِّدق والأستقامَة بل المعرُوف عنه أنَّه مقامر فسألَه مِنْ أينَ حصلْتَ على المال الذي تَتْجرُ به فأخبرَه أنَّه استدَان ألف درهم مِنْ المُوْسِر المعرُوف في البلد.

قال: وكيف أدانَك ذلك المبلغ وأنت لا تَمْلِك عقَاراً وليس لك مَتْجر. وهو مشهُور أنَّه لا يعطي درهماً إلاّ إذا ارتهَن ديناراً؟

فأخبرَه أنَّه رهنَ عنده شَعْرةً مِنْ لحيتِه!

فتعجَّبَ مِنْ حديثِه وجعل يروز لحيته الطويلة الكثيفَة بيده ويقول في نفسه: إذا كان جاري قد حصل على مبلغ كبير لقاء شعرة واحدة مِنْ لحيتِه المُتقاصرَة المُشوشَّة الباهتَة فلا ريْبَ أنّي ببضع شعراتٍ مِنْ لحيَتي أحصل على مال ذلك المُوْسِر كلّه! إنَّه لا محالَة قد أصابَه خبال... ومجنُون كهذا لا يجب أنْ

1 المَدَر محرَّكة قِطع الطِّين اليابس أو العِلْك الذي لا رَمْل فيه.

يبقَى في حوزتِه شيءٌ مِنَ المال... وما عتمَ أنْ قَصَدَ إلى ذلك المُوْسِر مسرعاً وأخبره أنّه بحاجة إلى ألف درهم وأنَّه مستعدٌ للوفاء بعد شهر أو أَقَلُّ مِنْ شهر فهْوَ يملكُ داراً وله حقُول ومزارع وعمّا قريب يرثُ ثروة كبيرة فأصغى إليه المُوْسِر ملياً ثم قال له: إنّي لا أدينُ إلاّ برهن فما الذي يمكنُكَ أنْ ترهنه عندي لقاء الألف دِرْهم؟

فأسرع المقامر وقبض على لحيتِه بملء أصابعه وانتزع منها خُصْلَة وقدَّمها إليها قائلاً: هذه رهينتي!...

فضحك المُوْسِر وقال: لا يا صاحبي لايمكنني أنْ أقرضَك فَلْساً واحداً.

قال المقامر: لماذا؟ وأنت قد أقرضْتَ جاري مبلغاً كبيراً ولم يرهن عندك غير شعرة واحدة!...

قال المُوْسِر وهو يقهقه: أجل إنِّي أدنتُه ألف درهم لقاء شعرة واحدة أما أنت فلا أُدينُك درهماً واحداً لقاء ألف شعرة... لأنَّ هذا «الحَشَّ» ليس «حَشَّ» مَنْ ينوي الدَّفع!

هذه حكاية شرقيَة لها مغزاها البديع وفيها فلسفة عظمى تصدقُ على النّاس في كُلِّ عصر ومكان فالمعاملات لا تقوم بمجرَّد وجُود المال وحده والعقَار والملك بل يجب أنْ تكون هناك عِملَة غير مطبوعَة ولا مسكُوكَة. عِملة تستند إليها العِملَة المطبوعَة المسكُوكَة. ألا وهي الثقة. وهذه لا يحصُل عليها المرء بذكائِه ومضائه ودهائه وإنَّما ينالُها بتلك الشِّيمة الجميلَة السَّاميَة التي لا يسمُو عليها شيءٌ إلاّ الحبّ... وهي الإستقامَة. فإنَّك إذا قلت رجل مستقيم فكأنَّك قلتَ: رجل صادق مخلص وفيٌ نزيه مُنصف. وإذا اجتمعَتْ هذه الصفات في رجل فهو الذي يأتمنَه النّاس على أموالِهم وأسرارهم ومحارمهم ورجل مثل هذا هيهَات أنْ يكونَ غير ناجح في أعمالِه وإذا لم يكن ناجحاً على القَدْرِ الذي يجب أنْ يكونَ له فهيهَاتِ أنْ يكونَ غير سعيدٍ في حياتِه.

ليس كل مَنْ روَّجَ تجارة أو رَبحَ ثروة بسعيد وكثيرُون ممَّن لا مَتاجرَ لهم ولا ثراء مِنَ السُّعداء ولا نعني أنَّ السَّعادة لا تصاحب الثَّرْوَة بل الذي نريدُ أنْ نقولَه أنَّ الثَّرْوة المكسوبَة بالخدَاع لا يمكن أنْ يكونَ للسعادَة فيها أَثَر.

كم عرفتَ أيها القاريء أناساً مِنْ أهل المجازفَة والمضاربة ظهرُوا على مسرح الحياة كواكب تتألَّق فخلتهم دهاقنَة نوابغ ولكنَّهم لم يلبثُوا إلاّ قليلاً ثم اختفَوْا كلمح البصر حتى كأنَّما كنْتَ تراهُم في الحُلُم لا اليَقَظة.

إنَّ شجرة التَّمويه والخداع كشجر الزيزفُون يزهر ولا يُثْمر...

وكُلُّ مَنْ يخالِفُ نواميس الحياة لا مَناصَ له مِنَ السقُوط عاجلاً أو آجلاً.

السَّمير: 8/ 11 / 1950

لا تتسرّع بأحكامك

يكون لك صديق ـ ولكلٍّ منّا أصدقاء ـ تأنسُ به ويأنسُ بك وفجأة ينقطع عن زيارتِك إذ كنْتَ وإياه تسكنان بلداً واحداً وتتوقّف رسائله إليك إذا كان في بلد بعيد عنك فتعتب أوّلاً ثم تتمادى في لومه وتظنّ فيه الظنُون أقلّها عدم المبالاة والحِنْث بعهُود الصداقَة.

ولكنّك أنت لا تكلّف نفسك مخاطبتَه أو الكتابَة إليه مستفسراً عن أسباب سكوته عنك أو انحجاب رسائله...

هذا مِنْ غير العدل والإنصاف فقد يكون لصديقك عُذْرٌ وأنت تلومه بدافع ما تسرَّب إلى قلبك مِنَ الشَكِّ في صداقتِه ويكون الواقع بخلاف ما خَمَّنْتَ وتوهَّمْت. ولم يَدُر بخَلَدِكَ أنْ تلتمسَ له عذراً.

قد يكون صديقك في محنة. أو زار المرض أحد أفراد عائلته فشُغِلَ به عن كُلِّ شيء آخر أو لديْه مِنْ مشاكل الحياة اليوميّة ما أسكتَتْه عنك ـ ولكُلٍّ منّا نصيبٌ منها فلا يحسنُ والحالة هذه التَّسرُّع بالحكم على الأصدقاء إذا قصَّرُوا قليلاً بواجب الصَّداقة.

ومثل التَّسرُّع في الحكم على الأصدقاء الذين عرفناهم واختبرنَاهُم مثل التسرُّع في الحكم على غير الأصدقاء الذين لم نعرفهم ولم نختبرهُم.

قد تَلْقَى لأوّل مرّة رجلاً مُتصدِّراً المجلس ومِنْ حوله المعجبُون يَثْنون على كُلِّ كلمة ينطقُ بها خطأً أكانَتْ أم صواباً؟ عادة التقرُّب مِنَ الأغنياء، فتقُول: إنَّ هذا الرجل مِنَ السُعَداء يتمتَّع بالغنَى الطائل وبالمَقام المُعتبر والتكريم هكذا يتراءَى لك. ولكن إذا أُتيحَ لك سؤاله هل هو سعيد حقيقة لكان الجواب أنَّه يشقَى في غناه ويتعسُ في جاهِه وإنْ بدا للنّاس في الظَّاهر سعيداً هانئاً فإنَّه يتألَّم في داخله كلَّما جلس إلى مائدة في حفلة ولا يستطيع تناول ما يشتهِيْه مِنْ بعض أصناف الطعام فيرفَعَ يده عنه ونفسه تشتهِيْه. وإنْ لم يكن هذا فإنَّه يكونُ أسير المجاملات الإجتماعيّة والواجبات التي لا مَهْرَب لمنْ كان مِثْله مِنَ القيام بها رَضِيَ أم لم يرض.

ويقعُ نظرك على رجل عامل عائداً مِنْ مكان عمله إلى بيتِه فتحكمُ عليه بالتَّعاسة والشَّقاء وتقولُ مشفقاً: ما أتعسَ هذا الإنسان المحرُوم مِنْ ملاذ الحياة الذي تمتَّع به سواه مِنَ القادرِيْن ولكنَّك إذا رافقتَه إلى دارِه تبيَّن لك أنَّ هذا الرجل الذي حكمْتَ عليه بالتَّعاسة والحرمان يعيش هانئاً وادعاً قرير النَّفس[1] لا يهتم بما سيجيء به الغد. ويتمنَّى الذين تحسَبُهم مِنَ الأغنياء السُعداء، أنْ يكونَ لهم ما لهذا العامل مِنْ راحة الفكر والضَّمير التي يتمتَّع بها.

وهناك مِنَ النّاس مَنْ تراه مواظباً على الصَّلاة والتظاهر بالتقوى وحبِّ الخير للجميع ودائماً يتغنَّى

---

1 قرير النَّفس: وقَرَّت عينُه سُرَّ ورَضِيَ فهو قَرير العَيْن.

بالإستقامَة وطهارة الذمّة لابِساً ثوب الحَمَل الوديع فتقول إنَّه رجلٌ مستقيم يؤتَمَنْ إلى أقصى حدٌّ.

ولكن بعد الإختبار نرى أنْ تظاهرَه بالشرف والإستقامة ستار شفّاف يخفي وراءه خُبْثَه ومكره واحتياله وله ذِمة تتَّسع لإبتلاع تمثال الحرِّيَة. أو بناية الأمبير.

وبعكس هذا الذي وصفنا تلقى الرجل الذي لا يُعْنَى بالصّلاة ولا يتعرَّف المعبد عليه لا يدَّعي الإستقامة والصِّدق فتقول عنه هذا شخص لا يؤتَمَن على شيء يجب الإبتعاد عنه. ولَكِنَّنا عند اختبارنا إيَّاه نجده صادقاً شريفاً في معاملتِه للنَّاس - والدِّين هو المعاملَة.

فيحسُنُ بالمرء أنْ لا يتسرَّع في أحكامِه على الأشخاص ويتجاوز عن إذاعة ما يَحْكُمُ به لأوَّل وَهْلة. فيتجنَّب الإساءة إلى سُمْعَة الآخرين وهو لا يكون يقصد الإساءة إلى أحد.

السَّمير: 22/ 12/ 1950

مَنْ أضاع صحته أضاع حرِّيَّته

إنَّ الوعكَة العنيفَة التي هاجمَتْني على غِرَّة[1] كلِصّ وقع في كَمِين[2] فألقَتني في الفراش لم تكن شراً كلّها. فقد فتحَتْ عيني على حقيقة غالية لم أكن أجهل وجودها مِنْ قَبْلُ ولكنّي كنْتُ غافلاً عنها لا أوليها حقَّها مِنَ العِنايَة والتَّقدير. وهي أنَّ الإنسان تظلُّ له حريته ما دامَتْ له صحَّته. فإذا أضاعها أضاع حُرِّيَّته واستقلاله. وصارَتْ حاله كحال النّاس المُقيمين خلف «الستار الحديدي» لا يملك مِنْ أمرِه ضَرّاً ولا نَفْعاً. ويملك الحاكم المُسيطِر المستبدّ كُلَّ أموره حتى طعامه وشرابه. وصحوه ورقاده وصمته ونطقه. ومجيئه وذهابه. وكُلَّ شيء له.

ومثل الإنسان المُقيم في ظلِّ الدكتاتوريَّة المُتسلِّطة كُلُّ إنسان فارقَتْه العافيَة وركبَتْه العِلّة. فإنَّ تكييف شؤونه يصبح مرهوناً بمشيئة الطَّبيب. فإذا منَعَ عنه الطعام وجَبَ عليه أنْ يصومَ غير متأفِّف ولا مُتضجِّر. وإذا وصف له دواء علقميّ[3] المذاق فعلَيْه أنْ يتجرَّعَه وهو مُتهلِّل باسم كأنَّه يذوق الشَّهد. وإذا نهَاه عن الحراك فعلَيْه أنْ يتحوَّلَ إلى خشبة وأنْ لا يشكُو وإنْ خَدِرَتْ أعصابه. وتصلَّبَتْ أعضاؤه وتقصَّفَتْ عظامه مِنَ الجمُود والسُّكون...

وإذا سُمِحَ له أنْ لا يتكلَّم إلاّ بمقدار فعَلَيْه أنْ يعدَّ الكلمات التي تخرج مِنْ بين شفَتَيْه حتى إذا بلغ الحدَّ المُعَيَّن أطبقَ شفتَيْه لكي تلتصقا كشقَّي المَحارَة[4]!!

---

1 غِرَّة: الغِرَّة الغفلة أثناء اليَقَظَة ج غِرَر ويقال أُخِذَ على غِرَّة.

2 الكَمين القوم يَكْمُنُون في الحرب ونحوها لمفاجئَة العَدُوّ.

3 العَلْقَم: كُلّ شيء مُرّ ونبات الحَنْظَل واحدته علقَمة.

4 كشِقَّي المَحارَة: الشِّقّ شِقُّ الشيء نِصْفه وجانِبَهُ. والمحارة بينَ الأُذُن جوفها. والصَّدَفَة.

وإذا لاح للطَّبيب أنْ يحولَ بين المريض ومطالعَة الجرائد والإصغاء إلى الراديو. وأنْ يحظرَ عليه قبُول الزوَّار. فالأمر كلُّه له. ولا يجوز للمريض أنْ يعصاه. بل هو لا يجسُر[1] أنْ يفكرَ في العِصْيان لاعتقادِه أنَّ في الطاعةَ شفاءه ثمَّ نجاتَه واستردادَ حرِّيته...

إنَّ مَنْ يمرض يفقد سلطانه على نَفْسِه ويصبح في عِداد القَّاصرين. ويصير غيره ربَّان سَفينته. ويغدُو الطَّبيب المُوكَّل به هو الوَصيُّ الأوَّلُ والوليّ الأعلى.

قلت: الوصيّ الأوَّل والوَلي الأعلى لأنَّ الأوصيَاء والأولياء الذين يتطوَّعُون للمشارفة والمراقبَة في هذا الظَّرْف كثيرُون. وإنَّما الوصيّ الثاني بعد الطَّبيب هو الممرِّضة التي تحرِصُ على سلطتِها أكثر مِنْ حِرصِ الطَّبيب على سُلْطتِه. إنَّها تنفِّذ أوامره تنفيذاً دقيقاً كالجندي الأمين وفي الوَقْت ذاته تنفِّذ أوامرها... فإذا كان المريض مستغرقاً في نوم هانيء لذيذ وخطر للممرِّضة أنْ توقظَه فعليه أنْ يستيقظَ وينسى أحلامه ورُؤاه لكي يستقبل يد الممرِّضة وهي ترشّ بالماء الفاتِر على وجهِه. أو تدنو إلى فمِه بالدواء أو بميزان الحرارة!

وإذا كان مُستيقظاً يستمعُ إلى الراديُو أو يطالعُ مجلة أو كتاباً وشاءت الممرِّضة أنْ يهجَعَ فما أسهَلَ أنْ تناولَه حَبَّةً مِنْ حبُوب النَّوم فلا تنقضي دقائق حتى تثقُل أجفانه وتَتَخدَّر أعصابه شيئاً فشيئاً حتى يغيب ويغرَقَ في بحر عميق مِنَ الكرَى. فيَذْهل حتى عن الممرِّضة وإلاَّ إذا كانَتْ مِنْ ذوات الجمال فيحْلُمُ عندئذ بها في نومِه...

ليس لك وأنت مريض أنْ تختارَ طعامَكَ ولا شرابَكَ. ولا أنْ تقرِّرَ مواعيد صَحْوك ورُقادِك فإذا شئتَ أنْ يبقَى أمرُك في يدِك وأنْ تظلَّ ربَّان سفينتك... فلا تَمْرَض!!

أمَّا إذا مرِضْتَ فعليك أنْ تشكرَ الله لأنَّك تجد طبيباً يُعنَى بك. وممرِّضة تَحْرِص على راحتِكَ وسلامَتِكَ. وقلوباً محبَّة تَخْفِقُ حول سريرك عَطفاً وإشفاقاً وحناناً.

ويَحْسُنُ بك أنْ تذكرَ في هذا الموقف ما قاله الفيلسُوف الألماني فردريك نيتشي: «كُلُّ مصيبَة تُصيبني ولا تقتلني فهْيَ قوّة جديدة لي» ولا تكترث بقول القائلين: إنَّ نيتشي مات مجنوناً بل اذكر المثل العربي القائل: خذوا الحِكمَة مِنْ أفواهِ المجانين!!!

السَّمير: 18/ 1/ 1951

حديث أدبي

مِنَ المحَن الأخيرة التي ابتلي بها الله القاريء العربي ظهُور عدد مِنَ الكتَّاب المُقتدِرِيْن جعلُوا همَّهُم الأكبر تفضيل النَّثر على الشعر أو الشعر على النَّثر. ليُبرهِنُوا عن أنَّهُم أهل قدرة في الحجاج واللِّجاج

---

1 جسَرَ شَجُعَ.

كما يفعل الذين يختلفون في أيُّهُمْ[1] أجمل وأحبّ المرأة الشقراء أم المرأة السمراء.

إنَّ هذا الصِّنف مِنْ الكتَّاب ليس أرْفَعَ منزلَة مِنْ كُتَّاب السجع أو شعراء البديع. وهم لا يقصدون نفع عصرهُم وأبناء عصرهم وإنَّما يقصدُون اللّهو والعبث. ويفرحُون أنَّهم يجولُون في هذا الميدان مُوفَّقِين!!

وهناك صِنفٌ آخر مِنْ الكُتَّاب الذين ولَعَتْ نفوسهم بالنَّقد والتمحيص. تراهُم يصنِّفُون الأدب أصنافاً. فعندهم منه القديم والجديد. والمطرُوق والمبتكر. وهم لا يكتفُون بنسبة الأساليب إلى الجِدَّة[2] والقوميَّة بل يلحقُون بها الفكر. وينسَوْن أنَّ الفكرة الصَّحيحَة كالشَّمس جديدة وإنْ مرَّتْ عليها دهُور. ولذلك كثيراً ما نستخرجُ مِنْ عصر انحطَّ فيه الأدب إلى الدَّرْك[3] الأسفل فِكَراً عالية سامية صالحة للبقاء كالفِكَر[4] التي نجدَها في عصُور الأدب الزاهرَة.

بالأمس كُنَّا نُطالعُ كتاباً اسمه «يتيمة الدَّهر» للثَّعالبي. فإذا هو لا يشتمل إلاَّ على أشياء هي مِنَ السَّخافَة في أصولِها. ومِنَ الحماقة في صميمها. فكنَّا كُلَّما قلبنَا صفحة لذع الأسف مِنَّا الروح على ما كان عليه مُحترِفُو صناعَة القلم مِنَ الجفاف الرُّوْحي وما في وجوهِهِم مِنْ صَفاقَة[5] وسماجَة[6] يظنُّونَها ظَرْفاً[7] وملاحَة.

ولكنَّنا لم نضجر. بل تابعْنَا القراءة كما يتابع السائر في صحراء جرداء المشي فيصل أخيراً إلى عين ماء أو واحة ذات ظل. ووصلْنَا نحن إلى مثل ذلك إذ عثرْنَا على أبيات نفيسة لشاعر اسمه عبد الله الضرير الأنبوردي هي مِنْ خير ما تلده القرائح في أيِّ زمان. فكانَتْ على قلَّتِها خير شفيع في الكثرة السمجَة المُستقبَحَة في الكتاب. وقد رأيْنَا أنْ نشركَ قرَّاء «السَّمير» في هذه التُّحْفَة[8] فنقلناها وهي كما يلي:

صِيامي إذا أفطرت بالسُّحت ضَلَّةٌ ... وعلمِي إذا لم يُجْدِ ضَربٌ مِنَ الجَهْلِ[9]

---

1 أيُّهُمْ: أي للعاقل وغيره وتنفرد عن بقيَّة الموصولات بأنَّها تُعرب دائماً نحو: يسرّني أيُّهم هو قادِمٌ، إلاَّ إذا أضيفت وحذف الضمير الواقع صدر صلتها فتبنى على الضَّمّ نحو يسرُّني أيُّهم قادِمٌ ورأيت أيَّهم متضلعٌ من العلوم. (راجع الشرتوني الجزء الرابع ص 138).

2 الجِدَّة: وجَدَّ الشيء يجدّ جدَّه بكسر الجيم فيهما صار جديداً.

3 الدَّرْك: أسفل كُلِّ شيءٍ ذي عُمْقٍ كالبئر ونحوها. يقال: بَلَغ الغَوَّاص دَرْكَ البَحْرِ.

4 الفِكَر: الصُّورة الذِّهنيَّة لأمْرٍ ما ج فِكَرٌ.

5 الصَّفاقة: ووَجه صفيق بيّن الصَّفاقة وَقِحٌ.

6 السَّماجة: استسمَجه استقْبحه. وسَمُجَ قَبُحَ.

7 الظَّرْف: ظَرُف فلانٌ ظَرْفاً وظرافَةً كان كَيِّساً حاذِقاً فهو ظَرِيف وهي ظَرِيفة.

8 التُّحفَة الطُّرْفَة ويقال لما له قيمة فنِّيَّة أو أثريَّة تُحْفَةٌ ج تُحَفٌ.

9 أَفْطَر الصَّائِم تناول الطَّعامَ بعد صيامِهِ. والسُّحتُ: ما خَبُثَ وقَبُحَ من المكاسب فلزم عنه العَار كالرَّشْوَة ونَحْوها. والضَّلَّة: الحَيْرَة. وفلانَ يلومُني ضَلَّة إذا لم يُوفَّق للرَّشاد في عَذْلِهِ. والضَّلال ضِدّ الرَّشاد وأَضَلَّه أَضاعه وأَهلكه.

وتزكيتي مالاً جمعتُ منَ الربا ... رياءٌ وبعض الجُود أَخزى مِنَ البُخْلِ[1]
كسارقة الرُّمَّان مِنْ كرم جارها ... تعودُ به المرضَى وتَطْمَعُ في الفَضْلِ[2]
ألا رُبَّ ذئبٍ مَرَّ بالقَوم خاوياً ... فقالُوا علاه البَهْرُ مِنْ كَثْرة الأَكْلِ[3]

ومنها:

يواسي الغُراب الذِّئبَ في كُلِّ صَيْدِهِ ... وما صادَه الغربان مِنْ سَعَفِ النَّخْلِ[4]

ولتقريب معاني هذه الأبيات مِنْ الأفهام فلنتبعها ببعض التفسير. فهذا الشَّاعر يقول: إذا أنا صمْتُ ثمَّ افطَرْتُ بالشُّحْتِ. أي إذا كان ما آكله مِنْ مالِ اليتيم أو أرملَة أو مسكين أو عاجز فإنَّ أكلِي هذا الشُّحْت الحرام إثمٌ وصيامي لا خير فيه.

وإذا لم يكن علمي مُجدِياً أي مفيداً لهذا العلم فهو نوعٌ مِنَ الجهل.

ثمَّ يقول إذا قدَّمْتُ زكاة مالِي وكان هذا المال قد حصَّلتُه بالرِّباء المحرَّم في دِيني فإنَّ عملِي أو زكاتِي خبث[5] ورياء. وجُودِي بالمال المكسُوب بالرِّبا هو أجلبُ للخزي مِنَ البُخْل لأنَّ حالي عندئذ كحال امرأة سرقَتْ الرُّمَّان مِنْ كَرْم جارها لتحمله هديَّة إلى مريضٍ كي تكسبَ الشكر والحمد بالرُّمَّان المَسْرُوق... أي ترتكبُ إثماً وتطلب الشكرَ عليه.

ومِنَ المعاني اللطيفَة في هذه الأبيات قوله إنَّ الذئب إذا مرَّ بالنَّاس وهو خَاوِي البطن خائر القوى مِنَ الجُوع. قالُوا إنَّما هذا الضَّعف فيه هو مِنْ كثرَة الأكل!! ذلك لأنَّه ذئب! والنَّاس لا يصدِّقُون أنَّ الذئب يجوع!

وهذا رمز لأيِّ إنسان اشتهِرَ إمَّا بالكذب فلا يعود أحد يُصَدِّقه حتى عندما يصدق في حكاية أو خبَرٍ أو رواية أو عُرِفَ بالبخل والكزازة[6] فإذا تبرَّع لمشرُوع بمبلغ مِنَ المال كَبُرَ[7] على النَّاس أنْ يصدِّقُوا أنَّ رجلاً قضى حياته يبخلُ بمالِه حتى على نفسِه قد سخَا على غيره!.

السَّمير: 14/ 5/ 1951

1 التزَّكية: الزَّكَاة البَرَكة والنَّماء والطَّهارة والصَّلاح (وفي الشَّرْع) حِصَّةٌ من المال ونحوه يُوْجِب الشَّرْعُ بَذْلها للفُقراء ونحوهم بشروطٍ خاصَّة. والرِّبا: الفَضْل والزِّيادة (وفي علم الإقتصاد) المبلغ يؤَدِّيه المُقتَرض تبعاً لشروطٍ خاصَّة. والرِّبا في الشَّرْع حرامٌ أيّ حرام. والرِّياء: المماراة الكذب وأَخْزاه أَخجله وأَهانه.

2 عاده: عادَ العليلَ عيادَةً زارَه.

3 البَهْر: بَهَره بَهْراً أجهده حتى تتابع نَفَسُهُ.

4 الغُراب جنس طير من الجواثم يُطْلَق على أنواع كثيرة منها: الأسود والأَبْقَع والزَّاغ والغُداف. ج غِرْبان، والسَّعَف: جريدِ النَّخْل وورَقُهُ.

5 الخُبْث: خَبُثَ الشيء صار رديئاً مكروهاً.

6 الكَزازَة: ورجُلٌ كَزّ اليدين بخيل.

7 كَبُرَ: عليه الأَمْر شَقَّ وثَقُلَ.

الأموات الأحياء

مضى النّاس إلى المدينة الصامتة التي لا ضوضاء فيها ولا اقتتال ولا زِحَام على المعاش ولا تنافس في سبيل المجد... إلى مدينة الأموات. وراحُوا يطوفُون بين القبُور وتطوف معهُم الذكريَات المُشرقَة والقاتمَة وتستيقظ في أذهانِهم حكايات وحوادث كانَتْ مُلْتَحِفَة بالصَّمت والسكون كالموميات المصريَّة.

هناك يرجعُ الإنسان إلى نفسِه فيصير له في الحياة رأيٌ غير رأيه.

فإذا كان مِنَ الراكضين في ميادين اللّهو المُتهالكِين على اللّذَّة المُتعبّدين للحُطام[1] أخذتْهُ الخشيَة وهو واقفٌ بين القبُور فرأى كُلَّ شيء ـ خلا الله ـ باطلاً. وقبضَ الرِّيح[2] كما قال الجامعَة.

مضى أمْسِ بنو الموتَى يكرِّمُون الآباء والأمهات والأجداد والإخوان والأنسبَاء الذين كانُوا هنا ومضوا.

وانقضى النَّهار وانصرف الزُّوَّار وجاء المساء فإذا الأزهار تزيِّنُ كُلَّ قبر. والماء يرطِّبُ كُلَّ نابتَة عند قبر.

وهكذا ولدَتْ في ذلك اليوم دمُوع كانَتْ مكنونَة وتجدَّدَت أحزان وحسَرَات كادَتْ تُمْحَى.

ولاحَتْ للعيُون والأرواح عِظَات ثمينَة لا يجدها الإنسان في كتابٍ ولا في أيِّ مكان إلاّ في دار الأموات.

وعندنَا أنَّ أهم هذه العِظات هي أنَّ قيمة الإنسان في حياتِه وبعد مماتِه هي في العمل المفيد الذي أتاه وهو حَيّ. فإنْ أفاد ذاته وَحْدَها فما يذكره بالحُسنَى أحدٌ. أمَّا إذا أفاد جماعة. فإنَّه يَخْلد في الأرض ما بقِيَتْ تلك الجماعة. وإذا أفاد قبيلَة فمجدٌ يدوم ما دامَتْ تلك القبيلَة.

أمَّا إذا خدم أمَّة فإنَّ أُمَّة بأسرِها تستبقِي ذِكراه حيَّة فيخلدُ بخلودِها. ويندثرُ باندثارِها.

وأطول النّاس ذِكراً وأكثرهُم خلوداً في الدُّنيا هم الذين خدمُوا الإنسانيَّة كلَّها بما بثُّوه مِنَ التَّعاليم الرَّفيعَة. وما اكتشفُوا مِنْ أسرار الطَّبيعة. وما وضعُوا مِنْ نُظُمٍ وشرائعَ راقية لتَسُودَ العدالَة في الأرض بين النّاس.

فهؤلاء هم الأموات الأحياء الذين لا يكرِّمُ ذكراهُم الأهل وحدهُم ولا القبيلَة وَحْدَها ولا أمَّة واحدة بعينِها بل الإنسانيَّة كلُّها. فطوبَى[3] لهم. وطوبَى لكُلِّ إنسان أفاد إنساناً أو أفاد جمهُوراً.

السَّمير: 1/ 6/ 1951

---

1 الحُطَام: ما تكَسَّر من اليبيس.

2 قبض الرِّيح: قَبَضَ الشيءَ أخذه.

3 طُوبَى: وطُوبَى فُعْلَى من الطِّيب قلبوا الياء واواً لضَمَّة ما قبلها ويقال طُوبَى لَك وطُوبَاك أيْضاً.

كم يدوم جمالُ المرأة

إذا بلغَتْ المرأة الخامسة والثلاثِين مِنَ العُمُرِ استولَى عليها الوَهْم بأنَّها قد فارقَتْ عَصْرَ الصِّبا. وأنَّ ديباجَةَ [1] حُسْنها سَتبوخُ سريعاً.

ولعلَّ الأمر كما تتوهَّمَ إلاَّ أنَّه لا يدعُو إلى القُنُوط. فالمرأة عندما تطأ عتبَة الخامسة والثلاثين تغادرُ وراءها عالم السحر والفتُون ولكنْ لا شيء يمنعها مِنْ أنْ تظلَّ تَسبي [2] وتُصبَّى [3] وتستهوي الأبصار والألباب [4]. وفي وسعِها إذا هي قامَتْ على العنايَة بنفسِها أنْ تستبقي خِلابتها [5] ومِلاحتها [6] عَقْداً [7] آخر مِنَ السنين. وليسَتْ العنايَة أنْ تحاولَ كتمان عمرها ولا أنْ تستعينَ بالوسائل التي تجعل فيها الحُسْنَ مُصْطنعاً والشَّبابَ عارية [8] فإنَّ الأَدْهان [9] والأصباغ لا توقف الزَّمن عن المسير.

يقال: إنَّ عُمُرَ المرأة في وجهها فإذا ظهرَتْ صبيَّة فهْيَ صبيَّة وإذا بدَتْ كَهْلَة فهْيَ كَهْلَة. فالمرأة اللَّبيبَة هي التي تبدُو صبيَّة وتشعرُ أنَّها صَبيَّة.

وهذا الأمر ميسُور لها إذا هي استبقَتْ ذِهْنَها [10] صافياً لا كدورَة فيه. ولم تعتزل النّاس لَمَا في العُزْلَة مِنَ الكآبَة والوحشَة. وثابرَتْ على تتبُّع الحوادث والشؤون العامَّة ولا سيَّما ما يجري في عالم الأدب فإنَّها إذا اشتغلَتْ بهذه الشؤون شعرَتْ أنَّها صبيَّة وظهرَتْ للعيُون كذلك. حَسْبُها [11] أنْ تَلْبَسَ ثوباً جميل

---

1 الدِّيباجة: الدِّيباج بالكسر فارسيّ مُعَرَّب وجمعه دبابيج والدّيباجتان الخدَّان. والناقة الفتيَّة الشَّابَّة ويقال لكلامه وشعره وكتابته ديباجة حَسَنَة.

2 سبَى عَدُوَّة أسرَهُ.

3 وتَصَبَّتْه شاقته ودعته إلى الصِّبا فحَنَّ إليها وتصبَّاها وتصاباها خدعها وفتنها. والصَّبْوَة جَهلَةُ الفُتُوَّة وَصبا صَبْوا وصِباً. وتصبَّى أصل الفعل تتصبَّى والتاء في أوَّله تسمى تاء المطاوعة أو الزائده ويجوز حذفها من أوَّل المضارع وهي لغة سليمة بليغة.

4 الألباب: اللُّبُّ العَقْلُ وجمعه أَلْباب.

5 الخِلابَة: وخلَب فلاناً خَلْباً وخِلابَةً خدعه وفتَن قلبَهُ فهو خالِبٌ.

6 مَلُحَ الشيء أي حَسُنَ فهو مَليح.

7 العَقْد: من الأعداد العَشَرَة والعِشرون إلى التِّسعِين.

8 العارِيَة: ما تعطيه غيرك على أنْ يعيدَه إليك. يقال كُلّ عاريةٍ مستردَّة ج عَوار.

9 دَهَن نافَق ورأسه وغيره دَهْنا ودَهْنَة بلَّه والاسم الدُّهن بالضَّمّ ج أَدْهان ودِهان.

10 الذِّهْن: الفَهْم والعَقْل.

11 حَسْبُها كافيها.

الهِنْدام[1] فتغيب في طيَّاتِه بضعة[2] أعوام. فللثيَّاب الجميلة روعتها.

ومَنْ أجالَ النَّظر في العصُور السالفَة عثرَ على حقيقة غريبَة مُدهشَة وهي أنْ معظم النِّساء الفاتنَات اللَّواتي امتلَكْنَ قلوبَ المشاهير مِنْ كليوبترا إلى هيلانَة كُنَّ عند تَحكّمُهنَّ بتلك الأرواح أقرب إلى الأربعِين منهُنَّ إلى العِشْرين.

وكذلك كان الأمر في العصُور الحديثَة.

حدثَ مرَّة في مجلس مِنْ مجالس الأدب في فرنسا أنَّ فتاة جميلة دون العِشْرين مِنَ العُمُرِ سألَتْ بلزاك مُستغربَة لماذا يحبُ النِّساء اللَّواتي جَاوزْنَ زمن الصبَّا ويجدُ لذَّة في عشرَة اللَّواتي بلغن الأربعِين.

فعبسَ بلزاك ثمَّ ابتسم وقال: «لَعلَّ السِّرَ في ذلك هو أنَّ ابنة العِشْرين يجب أنْ يترضَّاها الرجل أمَّا إبنة الأربعِين فهْيَ التي تترضَّاه. فليسَتْ قوَّة المرأة كما يقولُون في معرفتِها كيف تستعمل ما لها مِنْ جمال بل في قدرتِها على استرضاء الرجل الذي تميلُ إليه».

وممَّا لا ريْبَ فيه أنَّ الرجل يُعْجَبُ بالمرأة الفَطنَة الذَّكيَّة. ولكن المرأة التي يحبُها هي التي تستطيع أنْ تحملَه على الإعتقاد أنَّه فَطِن لبيب. فالغُرور في طبيعتِه. والفتُونُ مِنْ شيمِه. وهْوَ يَطْرَبُ إذا أقبلَتْ المرأة عليه ولكنَّه يَطْرَبُ أكثر إذا أقبلَ عليها يحدِّثُها فوجدَها مستأنسَة بأحاديثِه.

السَّمير: 11/ 7/ 1951

أَضغاثُ[3] أحلام

حلِمْتُ ليلة أَمْسِ كأنِّي أسيرُ في غابَة. ومع أنَّ مسيري كان نهاراً فلم أكن واثقاً مِنْ أنِّي أسيرُ إلى غاية واضحَة أو في طريق أمين. بل كنت أشعرُ بكثير مِنَ الحَيْرَة والقلق إذ لا عهد لي بهذه الغابة ومسالكها. ولم أعرف كيف اشتملَتْ عليَّ ولماذا أنا فيها.

وحانَتْ مِنِّي التفاتَة فرأيْتُ عيناً جاريَة قد جلس على حافَّتِها شيخ بلغ مِنَ العمر عِتيّاً[4]. ونفضَ الدَّهرُ غبارَه في لحيتِه بياضاً وألقَى كلاكِلَه[5] على جبينِه فتجعَّد. وعلى ظهرِه فتقوَّس.

---

1 وشيءٌ مُهَنْدم أيْ مُصلَحٌ على مِقْدار وهو مَعَرَّب.

2 بِضْع: وبِضْع في العدد بكسر الباء وبعض العرب يفتحها وهو ما بين الثلاث إلى التِّسْع تقول بِضْع سنينَ وبضعة عَشَر رَجُلاً وبِضْعَ عَشْرَة امرأة فإذا جاوزت لفظ العَشْر ذهب البِضْع لا تقول بِضْعٌ وعِشْرون.

3 الأضْغاث: وأَضْغَاث أحلام الرُّؤْية التي لا يصح تأويلها لاختلاطها.

4 العتيّ: وعَتَا الشَّيخ اشتدَّ كِبَرُهُ.

5 الكَلْكَلُ: الصَّدْر أَوْ هو ما بين التَّرْقُوتين.

دنَوْتُ منْه وتفرَّسْتُ في وجهِه فإذا هو أعمى فطارحتُه التحيَّة فردَّ بأحْسَنَ منها ولم يتعجَّب مِنْ وجُودي كأنَّما هو كان على موعد معي.

قلت: كم مضى عليك في هذه الغابَة أيها الشيخ الجليل؟

قال: منذ كانَتْ هذه الغابَة.

قلت: وكيف تعيشُ فيها. ولا أنيسٌ ولا رفيق.

قال: كما تعيشُ الشَّجرة وكما يعيش الطائر وكما تعيش النَّمْلَة. لقد وجدْتُ السَّلامَة في الوحدَة.

قلت: وهل لك بالمدينَة إتصال وعندك عنها أنباء.

قال: إنَّ الهواء ينقلُ إليَّ كُلَّ شيء عنها حتى هَمْس الأرواح ونَجْوى الخواطِر.

قلت: وما تعلَم مِنْ أحوالِها؟ وأحوال النّاس.

قال: أعلمُ أنَّ النّاس في قلق ممَّا يُسمُّونَه «المُسْتَقْبَل» وهو شيء لا وُجُود له إلاّ في أذهانِهِم ولن يكون إلاّ كما يريدُون هم أنْ يكون. فإذا شاؤوا عَمَرَ[1] بالأغاني والألحان والابتسامات وإنْ شاؤوا كان غُصَصاً[2] وحسَرَاتٍ وأهوالاً وآفات.

قلت: ولَكِنَّ النّاس فئتنان أقوياء وضعفَاء وما يستطيعه الأقوياء يَعْجزُ عنه الضُّعفاء. وليس في طاقَة ضَعيفٍ أنْ يكيِّفَ مَصِيره...

قال: غَلِطْتَ بل كُلُّهم ضعفاء أمام القوَّة العُلْيا التي تثبّتُهُم كما يُثبِّت الكاتِب كلاماً في قرطاس[3] ثمَّ يمحُو ما كَتب!

قلت: إذن كيف يقدرُون أنْ يكيِّفُوا مصيرهُم وهذه حالهم كُلُّهم مِنَ الضَّعْف؟

قال: يجب عليهم أنْ يتعاونُوا كما يتعَاون النَّمل وأنْ يَكدُّوا ويَكْدحُوا كما يَكْدَحَ[4] النَّحل. وأنْ يَرْفُقَ[5] غنيُّهُم بفقيرِهِم ويُحْسِنَ عالِمَهُم إلى جاهلِهِم. ويُسْنِدَ قَويُّهُم ضَعيفَهُم. ولا يَسْخَرْ ذو جمال مِنْ ذي قُبْح. ولا يطمعُ واحدٌ بما عند غيرِه وعنده ما يكفِيْه. ولا يستلذُّ الشَّبَعَ وحولَه جيَاع. ولا يَهْتِفُ بالأغاني وغيره حزينٌ باكٍ. ولا يقول كُلَّما سُئِلَ عن جارِه وعشيره كما قال قايين: هل كنْتُ حارساً لأخي؟

إنَّ كُلَّ إنسان حارس لكُلِّ إنسان. فإذا جحَدَ هذه الحقيقَة وتنصَّل مِنْ هذه التَّبِعَة[6] واستهزأَ بهذا

---

1 عَمَرَ: عَمَرَ القومُ المكانَ سكنوه.

2 الغُصَّة: ما اعترض في الحَلْقِ من طعامٍ أو شراب ج غُصَصٌ.

3 القِرْطاس الصَّحيفة ج قراطِيس.

4 كَدَحَ في العمل ولِنَفْسه ولِعياله كَدْحاً سعى وكَدَّ وكَسَبَ.

5 رَفَقَ به نفعَهُ.

6 التَّبِعَة ما اتّبعَ به.

الواجب فإنَّه يرجع حيواناً ضارياً [1] !! وفي هذا الرُّجُوع هلاكه ودَماره...

وحدَّقْتُ في وجه الشيخ الأعمى وهو يتكلَّم فرأيْتُ الألَقَ يفيضُ مِنْ قسَماتِه [2] ثمَّ غاب وجهُه في غَمْرةٍ [3] مِنْ نورٍ فيّاض وانقطَعَ عنِ الحديث وبعد هُنيْهَةَ [4] لم أَرَه ولكنَّني رأيتُ نفسي واقفاً وَحْدِي عند تلك العين الجاريَة!

السَّمير: 10/ 8/ 1951

أَشكالٌ مِن الخَلْق

يقول جمهورٌ مِنَ العُلماءِ المفكِّرينَ: إنَّ الذَّنبَ يلحقُ الهيئة الإجتماعية ويَلْزمها في صَيْرُورَةِ أيِّ إنسان لِصّاً سرّاقاً، أو نصّاباً محتالاً، أو كذّاباً منافقاً أو سفيهاً شتّاماً. وَهُوَ قولٌ إنْ لم يكنْ كُلُّه صواباً فلا يخْلُو مِنَ الصَّواب فإنَّ المُجتمَعَ الذي يختلُّ فيه التَّوازُنُ فَيكثرُ فيه الفُقراءُ والمُضْنكُونَ يَكْثُر فيه المُجرمُونَ وتَنحطُّ فيه النُّفوسُ وتَفسُدُ الأَخلاق ويَرجعُ الإنسانُ إلى الحيوانِيَّة فإذا لم يَفترسْ جارَه كما يَفْتَرِسُ الذِّئبُ النَّعجةَ فإنَّه يسطُو على بيتِه لِيَسْرِقَهُ أو يَحْرِقَه أو على أشجارِه لِيَقْطِف ثمرها أو يقطَعها أو يَنْقَضُّ على دَواجِنِه وماشيتِه ليذْهَبَ بها كُلِّها أو ببعضِها.

وإذا استشعَرَ في نفسه العَجْزَ عنِ البطْشِ والفَتك كالذِّئب فإنَّه يحْتالُ كما يحتالُ الثَّعلبُ أو يَذِلُّ أو يَسْتخْذِي كما يَذِلُّ الحِمار ويسْتَخْذِي ويَطولُ به عَهْدَ الإستِخذاءِ حتى يأْلَفَهُ كما يألَف الزِّنجيُّ الحَلْقَةَ المُعلَّقة في أنفِه ويَصيرُ يَخشَى فِراقَها كما يخشَى أنْ يُفارقَ ساقَه أو ذراعَه أو عينَه. إنَّه ينحطُّ إلى دَرْكٍ [5] أسفلَ فلا يعُود يُبَالي مِنَ الدُّنيا إلاّ أنْ يتوافرَ له المأكَلُ والمَشربُ والمأْوَى كمَا هو الحالُ معَ الهِرَّةِ والكلْب.

إنَّ هذه الحالات كُلَّها تَهبطُ بالإنسان المصنُوع على صورَةِ اللهِ إلى منزلَة الحَيوانِ الأَعجم بدَلاً مِن أنْ تصعدَ به إلى أعلى فأعْلى وتسيرَ به إلى أرقى فأرقى، هي نتائجُ حتميَّةٌ لكُلِّ مجتمع مشوَّشٍ سادَ فيه الجَهْل وقلَّ الإنصافُ وانْعَدمَ الشُّعُور بأنَّ الإنسانَ أخُو الإنسانِ وأنَّ استِعباد الإنسان لأَخيهِ عَيبٌ وعارٌ ومَضَرَّةٌ كبْرى لِذلك المُجتمعِ ذاتِه.

---

1 الضَّاري: الضَّاري من السِّباع المُولَع بأكْلِ اللَّحْم.

2 قَسُمَ الوجه قسامَةً وقَساماً حَسُنَ فهو قَسيمٌ ج قُسُمٌ.

3 الغَمْرَةُ: الماء الكثير والشِّدَّة ج غِمارٌ وغَمَرات يقال: غَمَراتُ المَوْتِ.

4 الهُنَيْهَة: الهِنوُ بالكسر الوقت وفي الحديث هُنَيَّةٌ مُصَغَّرَةُ هَنَةٍ أصلها هَنْوَةٌ أي شيء يسير ويُرْوَى هنيهَة بإبدال الياء هاءً.

5 الدَّرْك: أسفل كُلِّ شيءٍ ذي عُمْقٍ كالبِئْر ونحوها يقال بلغ الغَوّاص دَرْكَ البَحْرِ.

غيرَ أنَّ الهيئَةَ الإجتماعيَّةَ التي نرجعُ إليها بالملامِ وننهالُ عليها بالتَّعنيفِ لوجُودِ هذه النَّقائض فيها تتنصَّلُ وتتبرَّأُ مِن تَبِعَةِ هذه المفاسِدِ والمساويءِ وتزيدُ على تنصُّلها أنَّها هي ذاتها تستنكرُ كُلَّ محرَّم وتستقبحُ كُلَّ خُلُقٍ ذميم وعادةٍ سيِّئة ومُضرَّة. وتستشهد على استنكارها واستهجانها لهذه المفاسدَ كونَها سَنَّتْ الشَّرائعَ وكَتَبَتْ القَوانينَ لِكبحِ النَّزعاتِ الشَّيطانيَّة [1] والنَّزعات الحيَوانيَّة في الإنسان بالإقْتِصاص ممَّن يقتلُ ويَسرقُ أو يختلسُ أو يعتَدي على النَّاس بيَدِهِ أو بلسانِهِ أو بقلَمِه أو يكْذِبُ أو يختلِق أو يغْتابُ أو يحتالُ على غيرِه أو يشهدُ بالزُّورِ أو يَسْفهُ على النَّاس. أجَل إنَّ هناكَ شرائعَ تُعاقِبُ المرْءَ على ارتكابِ هذه القبائحِ والجرائمِ سواءٌ أقدَمَ على ارتكابها صاحياً أم أقْدَمَ عليها سكراناً.

ومِنْ هذه النَّاحية تظهرُ الهيئَةُ الإجتماعيَّة بَريئةً مِنْ كُلِّ إثم، وطاهرةً مِنْ كُلِّ دَنَس. ويَظْهرُ الجاني المُسيءِ عدُوّاً للمُجْتمع ولِنفسه لأنَّه يعْصِي المجتمعَ ولم يتقيَّدْ بأنظمتِهِ وشرائعِه.

إنَّما هناكَ مُجرمونَ مِن غَيرِ هذا الطِّرازِ... مُجرمُون لا تصلُ إليهم يَدُ الشَّريعة ولا يُصلحُهُم نُصحٌ ولا يهذِّبهم وَعْظ ولا إرشاد، نَعُدُّ مِنهم. ولا نُعدِّدُهُمْ. وإليكَ نماذج قليلة:

1 ـ الرَّجُل المائعُ الأخلاقِ الرَّخْوُ العَصَب الذي يكون في الصُّبح نَصيرَكَ وفي المَساءِ نَصيرَ غَيرِكَ. وفي ما بينَهما نَصيرَ شخصٍ ثالثٍ وهو إذا كان مَعَكَ فَلغايةٍ وإذا صار عليكَ فلمأرَبٍ عِندَ غَيرِكَ. وهو في كل حالٍ كالذبابة ليس في خرطُومِها غيرُ الجراثيم المُضرَّةِ سَواءٌ وقعتْ على وَجهِكَ أو سقطَتْ على وجْهِ سِواكَ أو وقَعَتْ على الحائطِ أو على المقعَد أو على الصَّحْنِ.

وتودُّدُ هذا الإنسان المَريضِ النَّفسِ إليكَ ليس عن شُعورٍ مِنْهُ بأنَّ صداقتَكَ ذات قيمَةٍ أو أنَّ الصَّداقةَ في ذاتها شيءٌ مرغوبٌ ومَطلوب. كلاَّ وإنَّما العجزُ فيه عَن أن يلْتَقى وإيَّاكَ في صَعيدٍ واحدٍ كما يَلتَقِي النِّدُّ والنِّدُّ [2]. يَدْفعُهُ إلى التَّزلُّفِ [3] إليك فيظهَرُ بمظهرِ المُتودِّد. ولله ما كان أحكَمَ المُتنبِّي عندما قال:

والذُّلُّ يُظهِرُ في الذَليل مَوَدَّةً وأَوَدُّ مِنه لِمَن يَودُّ الأَرْقَمُ [4]

2 ـ رَجَلٌ مُقصِّرٌ يتطَاولُ إلى أبْعد مِمَّا تصل يدُه. وإلى أبْعَد ما يصل بَصَرُه. فتراه كُلَّما عثَر أو هَوى لا يَشْكُو العِثارَ بِقَدْرِ ما يَسُبُّ الَّذين أراد أنْ يَلحقَ بِهِم فقصَّرَ عنهم وأقام يتعثَّرُ خلفهُم في الغُبار.

هذا الإنسانُ يصعُبُ عليه أن يعترفَ بفضِيلةٍ ما لأيِّ إنسَان. فتراه كلَّما ذكرَ النَّاس رجُلاً بالحُسْنَى يُطلقُ لِسانَهُ في نَقْدِهِ وذَمِّهِ وتَصوير فضَائِلهِ ذُنُوباً ومحاسِنه عيُوباً.

---

1 ونازعت النَّفس إلى كذا نزاعاً اشتاقت.

2 النِّد: بالكسر المِثْلُ والنَّظير.

3 التزلُّف: التَّقرُّب.

4 الأرْقَم: الحيَّة التي فيها سَواد وبياض.

لو خُلِقَ هذا الإنسانُ في شكلٍ غَيْر شكْلِهِ البشريّ لكَانَ ضِفْدَعاً تَنِقُ وتحسَبُ نَقِيقَها صُدَاحاً أو حَشَرةً سامَّةً تلسعُ وتتوهَّمُ أنَّها تسكُبُ التِّرياق [1].

يمكنك أنْ تلوم الهيئة الإجتماعيَّة لوُجودِ مثل هذا الإنسان فيها غَيْر أنَّكَ إذا تعمَّقتَ في درس الأُمور اتَّضحَ لكَ أنَّ المرضَ والصِّحَّة توأمان. كالجَمال والقبح. وكالنُّور والظلام. فلولا المرض ما اهْتَدَى الإنسانُ إلى الدَّواء. ولولا الظلام ما أَسْتطَاعَ اكتشَافَ الضَّياء ولولا القُبْح لما عرفَ قيمة الجمَال.

فعلينا أن نُشْفِقَ على المقصِّرينَ الفاشلِينَ وعلى اللُّصوصِ السرَّاقِين وعلى السُّفهَاءِ الشَّتَّامين وعلى الحسَّادِ المُغتابين مثلما نُشفِقُ على المرْضَى. وعلينا أن نُحِبَّهم بدلاً من أنْ نبغَضَهُم. لأنَّا إذا أبغضنَاهُم هبطْنَا إلى مُستَواهُم لأنَّهم هُم لا يعرفُونَ إلاَّ الكَرَاهةِ والبَغْضَاء والكَيْد.

وإذا كنَّا لا نقدِرُ أنْ نحبَّهُمْ ولا أنْ نَهدِيَهُم إلى السِّراط [2] المُستقيم ولا أنْ نقَوِّمَ إعْوِجاجهُم ونهذِّبَ نفوسهُم ونطهِّرها مِنَ الأَدْران والأَوساخ ففي وُسْعنا أن نتجاهلهم وأن نبتعد عنهم لِئلاَّ يؤْذِينا قُربُهُم.

فإنَّ الشرُّ كالنَّار يلتهِمُ ذاته إذا لَمْ يجدْ ما يلتهمه!

حاشية: كتب صاحب «السَّمير» هذا المقال جواباً على رسالَة جاءته مِنْ صديقٍ يشكُو إليه تجَنِّي بعض الأشرار عليه.

السَّمير: 18/ 9/ 1951

الإنسانُ المُتضجِّر

اسْتحْوذَ الضَّجرُ على صَديقٍ لِيْ مِنَ المُحيطِ الذي يعيش فيه. وفي هذا المحيطِ أنسباؤهُ واقرباؤهُ وأَصدِقاؤُهُ وفيه بيته وأسْرتُه ومتجرُه. والكنيسة التي يُصلِّي فيها والنَّادي الذي يلتقي فيه بعُشَرائِهِ وخُلاَّنِه، ولمَّا استحوذَ عليه الضَّجَرُ تمنَّى لو أنَّه خُلقَ في غَيرِ هذا المُحيطِ أو أنَّه هاجر إلى أرضٍ غير الأرضِ التي تحْويه..

إنَّ هذه الرَّغبة المُتولِّدة مِنَ الضَّجر والكَدَرِ هي شُعورٌ يُخامرُ كُلَّ إنسانٍ يعتقدُ أنَّه مغبُونٌ في كرامتِه

---

1 التِّرْياق: بالكسر دواء مُركَّب اخترعه ماغنِيس وتمَّمه اندارو ماخِس القديم بزيادة لحوم الأَفاعي فيه وبهاكَمَل الغَرَض وهو مسمَّيه بهذا الأنَّه نافِعٌ من لدغ الهوام السَّبُعِيَّة وهي باليونانية تِرياءٌ من الأَدوية المشروبة السُّمِّيَّة وهي باليونانيَّة قاآ ممدودَة ثمَّ خُفِّف وعُرِّب.

2 السِّراط المُستَقيم: سَرَطه ابتلعه وانسرط في حَلْقه سار سيراً سهلاً والسِّراط بالكسر السَّبيل الواضح لأنَّ الذَّاهب فيه يغيب غيبة الطَّعام المُنسَرِط والصَّاد أعلى للمُضارعة والسِّين الأَصْل.

مغْمُوطُ الفَضْلِ مِنْ ذويْه وعُشَرائِه. وقد يكون على بعض الصَّواب في اعتقادِه فَيزدادُ به تشبُّثاً، وكُلَّما تشبَّثَ به إزداد نُفوراً وابتعاداً عن مُحيطِه حتى لَيَبْدُو أحيانا كأنَّه يعيشُ في غيْرِ مُحيطِه.

ولكنَّه لو أنعَمَ الفِكْرَ في أحوالِ النَّاس وانكَشَفَ له ما في المحيط الآخَر الذي يتوهَّم أنَّه لو عاش فيه لكان أسعدَ حالاً وأنعمَ بالاً لأَدْرَكَ أنَّ في كُلِّ محيطٍ معَائِبَه ومَساوِءَهُ. وأتعابَه وأتراحَه، ونِعَمَهُ ونِقَمَهُ. وأنَّ النَّاس حيثما كانوا هم النَّاس، فيهم المُحسِنُ والمُسيءُ. والوَديعُ والمتكبِّرُ، والوفيُّ والغَادِرُ، والبارُّ بأهلِه وأصحابه والعاقّ[1] أهْلَهُ وأصحابَهُ وقومه ووطَنه. وفيهم طالبُ الشُّهرة في كُلِّ سبيْل والمُتَهرِّبُ منها في كُلِّ سَبِيل. وفيهم الأَبِـيُّ المُترفِّعُ عن الدَّنايا والمَفاسِدِ كأنَّما نفسُه مِنْ جَوهَرِ النُّجوم وكأنَّها تتهادى في السَّحاب. وفيهم الدنيُّ الذَّليل المتَمَرِّغ في حَمْأَةِ الرَّذائِل والشَّهوات الحَيَوانِيَّةِ لا يرتَفع عن التُّرابِ إلاَّ ليَعَضَّ التُّراب.

لا، إنَّ المَرءَ لَيَسْتطيعُ أنْ يكونَ سعيداً في أيِّ محيط وأيِّ بلادٍ إذا هو عَرفَ كيف يُكيِّفُ نفسَهُ على أحواله وأنظمَة مُحيطِه. ونظر إلى النَّاس نَظْرة فَيلسوفٍ حكيم فأشفقَ على الجَاهلِ والمَغرور بمَاله أو جَمالِه إشْفاقَهُ على أَكْتَعَ[2] أو أقْطَعَ[3] أو أعمى. والتَمَسَ العُذرَ لِمَنْ هَفَا[4] أو أساء. وأصمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمَاعِ الأَراجِيفِ والأَقاويل. وعاش كما يعيش الرَّجُلُ المُصْلِحُ الشُّجاعُ لا يُوْهِنُ هِمَّتَهُ ولا يأْخُذُهُ الغُرور بكلماتِ الإطْراءِ أو التَّنشِيْط بل يستمِرُّ في حَياته على النَّهْج القَويم لكي يصبح قُدْوةً لِمَنْ حَوله ومَضْرِبَ المثَلِ في مُحيطِه بالوَدَاعة والصَّبْرِ والتَّسامُح والغُفران. فليس كلَّ مُحيط مثلُ المُحيطِ الذي أنت فيه. وإذا لم تكن سعيداً في مُحيطِكَ فلن تقدِرَ أن تجدَ السَّعادة في مُحيطٍ آخرَ؛ لأَنَّ السَّعادةَ لا تَجِيءُ مِنَ الخارج بل مِنَ الدَّاخل. فلا تدَعْ ضباب الضَّجَرِ يغْمُرُ روحَكَ ولا تسْمَحْ لليأْس أنْ يطْرُقَ بابَكَ.

السَّمير: 4/ 12/ 1951

شجرة العيد

ما أظن أنَّ في الأرض شيئاً يرمزُ إلى الأمل مثل الإخضرار. ولا شيء يتجلَّى فيه الإخضرار الذي تستريح العين والنَّفس لمرآه مثل هذه الشَّجرة الزُّمرُّديَّة[5] اللون التي اصطلح المسيحيُّون في أوروبا

---

1 وعَقَّ أَباه استخفَّ به وعصاه وترك الإحسان إليه فهو عاقٌّ وعَقُوق.

2 أَكتع: الأَكْتَع من تثبَّت مفاصله إلى كَفِّهِ وظهرت مفاصِل أُصول أَصابعه وهي كَتْعاء.

3 أَقطع: الأَقْطَع المقطوع اليد والجَمْع قُطعان مثل أَسود وسُودان.

4 هَفَا: الهَفْوَة النَّزلَة وقد هَفَا يَهْفُو هَفْوَةً.

5 الزُّمُرُّد: حَجَرٌ كريم أَخضَرُ اللَّون شديد الخُضْرَة شفَّاف وأَشدّه خضرةً أجوده وأَصفاه جوهراً واحدته زُمُرُّدَة.

وأميركا على اتِّخاذِها شعاراً للعيد عيد الطفل الذي ولدَ في مِذوَد[1] حقير فكانَتْ ولادته بَدْء فجر جديد للإنسانيَّة. وكان هو رسول رحمة وحنان وتسامح وغفران. وكانَتْ نفس الإنسان قَبْلَه شجرة عارية كئيبَة لِتَغَلُّبِ الشهوات الحيوانيَّة عليها فإذا بها بعد أنْ مشى فيها ماء الإيمان بالله وبالإنسان تورقُ وتخضرَ وتصير شجرة تُسِرُّ النَّظر وتُفْرح القلب.

ها هي شجرة تنتقلُ مِنَ الأحراج القَصيَّة في أميركا وكندا لتحتل القصُور كما تحتل الأكواخ. إنَّها كالضَّيف لن تمكثَ غير بضعة أيَّام ثمَّ ترحل. ولكنَّها ضيف يعطي ولا يأخذ. ولا غَرْوَ[2] أنْ تسخو على الكُلِّ حتى الذين يعبثُون بأغصانِها ويقتطعُون أطرافها ويدقُّون المسامير في جذعها. فقد رضيَتْ أنْ تُذِلَّ ذاتَها. وعَرَف النَّاس فيها هذه السماحَة فانطلقُوا ينشدونَها في كُلِّ ناحية ولا سيَّما في هذه الفَتْرة مِنَ السَّنة.

ربَّما توهَّم الأكثرون مِنَ النَّاس أنَّهم هم المالكوها وهذا خطأ. فإنَّ هذه الشَّجرة هي التي تملكهُم وتقودهُم فتراهُم يندفعُون زرافات ووحداناً[3] إلى الأحراج لجَلْبها. ويندفعُون إلى الأسواق لشرائِها. ثمَّ يَنْصِبونَها[4] في البُيُوت ويخلعُون عليها أنواع الزِّينات والحُليِّ[5] والزَّخارف كأنَّها عروس تُزَفّ.

وهكذا ترى هذه الشَّجرة الصامتَة تُنْقَلُ وتُحمَلُ وتُزَخرَف وتُدَلَّل كأنَّها كائنٌ حيٌّ عاقِل. فما هو السِّرّ في هيَام النَّاس بها هذا الهُيَام[6]؟

إنَّهم لا يهيمُون بشجرة. وإنَّما هُمْ يَرَوْن فيها خيالَ رغبَة كامنَة في أَرْواحِهِم. ولولا هذه الرَّغبَة لَمَا كان للشَّجرة ولا لأيَّة شجرة قِيمةٌ عِندهُم.

في كُلِّ قلب أَمَلٌ

وهذه الشَّجرة رَمْزُ الأَمَل

في كُلِّ نفس حنِّين إلى البقاء وهذه الشَّجرة بخُضرتِها الدَّائمَة رَمْزُ البقاء.

وكُلُّ إنسان يتوقُ إلى الطُّمَأْنينَة[7] والرَّغَد[8] والرَّخاء. ولا شيء مثل الخُضرَة يَدلُّ على الطُّمَأْنِينَة والرَّغَد والرَّخاء.

---

1 المِذْوَد اللِّسان ويقال رجل مِذْوَد دفَّاع عن الذِّمار والمِذْوَد مِعْلَفُ الدَّابَّة ج مَذاوِد ومَذاويد.

2 ولا غَرْو: الغَزْو العَجَبُ يقال لا غَرْو: لا عَجَبَ.

3 زَرَافات وَوُحْداناً: الزَّرافَةُ كسَحابة وقد تُشَدّ فاؤها الجماعة من النَّاس أو العَشَرَة منهم. الواحد أَوَّل العَدَد والجَمْع وُحْدان.

4 نَصَبَ الشيء أَقامه وبابه ضَرَبَ.

5 والحَلْيُ: ما يتزيَّن بِهِ مِن مصوغ المعدَنيَّات أو الحِجارة. ج حُليّ.

6 الهُيام بالضَّمّ كالجُنون من العِشْقِ وغيره.

7 الطُّمأْنينة الإطْمِئْنان والثِّقة وعدم القَلَق.

8 عِيْشَةٌ رَغْدٌ بوزن فَلْس ورَغَدٌ بوزن فَرَس أي واسعة طيِّبة وبابه طَرِب وظَرُف.

فليبارك اللهُ الأشجارَ كلَّها مِنْ أجل هذه الشَّجَرة.

ولتملأ المَسَرَّة والغِبْطة قلوب النّاس أجمع في هذه الأعياد وليُنْزِلْ رحمته على الأرض فيقِيْها أهوالَ الحرُوب وشرُورِها.

السَّمير: 21/ 12/ 1951

بين أمْسِ وغَدٍ

بعد أيّام تطوي يد الحياة صفحة في كتاب الدَّهر لتنشر صفحة جديدة.

الصفحة الأولى هي ما نسمّيه «أمْسِ[1]» والصفحة الثانية هي ما ندعوه بـ«الغَدِ[2]».

هذا ما اصطلَح عليه النّاس.

ولكِن هل في الدَّهرِ «أمْسِ وغَدٌ» و«قَبْلُ وبَعْدُ»؟

أيّة قطرة في ماء النَّهر هي الأُولى. وأيّة قَطرة هي الأَخيرة؟

أيّة ذرَّة مِنْ ذرَّات النُّور جاءت قَبْلَ أو بَعْدَ الأخرى؟

أيّة موجة في البَحْر أقدمُ فيه مِنَ الأمواج الباقيَة؟!

ولماذا يَقيس الإنسان الفَرْدُ ذاتَه بمقياس خاص. وهو في نظر الدَّهر الذي لا حُدُودَ له ولا أوّل ولا آخِر مثل الذرَّة[3] والموجة والقطرة. بل مثل كُلِّ شيء آخَرَ في الدُّنيا؟

إذن ليسَتْ قيمة الإنسان ولا قيمة أيُّ شيء بأنَّه جاء مِنْ قَبْلُ أو جاء مِنْ بَعْدُ[4] وإنَّما قيمته في أنَّه كائن لوجودِهِ نَفْع وخَيْر.

والمفرُوض في الإنسان أنْ يكونَ أكثر نَفْعاً لأنَّه أَعْقل مِنَ القَطْرة والذَّرَّة والمَوْجة وله سُلطان على الماء والهواء والضّياء وعلى النَّبات والحيوان. فإذا هو زَلَّ وهوى. أو زاغَ وفَسَد إنقلبَ كُلُّ شيء يسيطرُ عليه مِنْ حَسَنٍ إلى قَبيح. ومِنْ خَيرٍ إلى شرّ. ومِنْ نَفْع إلى ضَرَر.

إذن، فالخير في أنْ يستقبلَ الإنسان العام الجديد وهو عازمٌ في قرارة نفسه على أنْ يكونَ أكثرَ نَفْعاً فيه ممّا كان في العام الذي انصرم وأنْ يعلمَ علم اليقين أنَّه لا يَسْعَدُ إلاّ إذا فكر في أنْ ينشرَ السَّعادة حوله.

---

1 أَمْسِ مُثَلَّثة الآخِرِ مبنيَّةً ا اليومُ الذي قبلَ يومِكَ بليلَة يُبْنى معرفةً ويُعرب مَعْرِفَةً فإذا دَخَلها أَلْ فمُعْرَبٌ وسُمِعَ رأيتُهُ أَمْسِ منّوناً وهي شاذَّةٌ ج آمُسٌ. وأُمُوسٌ وآماسٌ.

2 الغَدُ: اليومُ الذي بعد يومِكَ واليومُ المترَقّب البعيد وفي المَثَلِ «إنَّ غداً لناظِرِه قريب».

3 الذَّرَّةُ: الذَّرُّ النَّسْل وصِغار النَّمْل وما يُرى في شُعاع الشَّمْسِ الدَّاخل من النافِذة والذَّرَّة أصغر جسمٍ في عُنصر ما يصحّ أَنْ يدخل في التفاعلات الكيميائيَّة.

4 قَبْلُ نقيض بَعْدُ وآتيك من قَبْلُ وقَبْلُ مبنيَّين على الضَّمِّ

وأنّه إذا سلك سبيل الفضيلَة والحُبّ صار أَمْسُهُ بهجا وصار غدُه أبهج.

أمَّا السَّالك طريق الشَّرّ النَّازعُ إلى الأذى المُتوغِّل في دروب الإثْم فهذا لا يَسْعَدُ ولا يَسْتريحُ في أَمْسِهِ ولا في يومِهِ ولا في غَدِه.

ولا يَغِرَّنَّك أو يُوهي إيمانُك بعدالة الحياة أنّ بعض الأشرار المجبُولِين بالآثام والخطايا يعيشُون في يُسْرٍ وأنّهم لهم القصُور والسيَّارات والليالي المُترنِّحَة... إنّ الزَّيْزَفُون يُزْهر... ولكنّه لا يُثْمر. وكلَّما طال عُمُرُ الأثيم كان شقاؤه أعظمَ وأمرّ.

فاستقبل العام الجديد بإيمانٍ وَطِيد [1] فالحياة عادلَة. قال تعالى: وإنّ مَنْ يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره وإنّ مَنْ يعمل مثقال ذرَّة شرّاً لا بُدّ أنْ يراه.

فإذا كان لك هذا الإيمان فكُلُّ يوم يُطِلُّ عليك تكون له روعَة وبهجَة رأس السَّنة.

السَّمير: 24/ 12/ 1951

السَّنة الجديدة

كيف استقبَلْتَ السَّنة الجديدة؟

نطرح عليك هذا السؤال لأنّنا نعرف أنّ لكُلّ إنسان ظروفاً وأحوالاً تختلف عن أحوال وظروف الآخرين.

على أنّ الجميع مهما اختلفَتْ أحوالهُم يلتقُون عند نقطة واحدة هي الأمل. ذلك الشعُور الذي يريكَ المكان الضَّيّق رَحْباً. ويصوِّر لك الغدَ ضَحِكاً وغناء أو سعداً ورخاء. ويقرِّبُ البعيد النَّائي الذي تحِنُّ إليه. ويبعدُ عنك القريب الدَّاني الذي تَوَدُّ التخلُّصَ مِنْه.

أجل. إنّ أَمَل المريض بأنّه سيشفَى هو الذي يحرِّك شفتيه بالإبتسام. وأَمَلَ الغريب بأنّه سيعُود إلى وطنِه وأهله هو الذي يُهَوِّنُ عليه مَشاق الغُرْبَة.

وأملُ الأمّ بأنّ إبنها الذي فارقَها إلى ساحة الوغَى [2] سيعُودُ إليها ظافراً هو الذي يُخفِّفُ مِنْ لوعتِها على فراقِه.

هذه هي النُّقطة التي التقَتْ عندها أَرْواح البَشَر في كُلِّ مكانٍ ليلةَ رأسِ السَّنة. فغنُّوا ورقصُوا وهتفُوا وشربُوا. وهنَّأ بعضهم بعضاً.

قد لا يكون في السنة الجديدة شيء ممَّا توقَّعُوه. وقد يكون فيها كُلُّ شيء توقَّعُوه. وربَّما جاءتهم بأمُور لم تخطر في ذِهْن إنسان. فالغيب لا يَعْلَمه إلاّ الله.

---

1 الوَطيد: وَطَدَ الشَّيء أثبته وثقَّله وبابه وعَدَ، ووطَّده أيضاً توطيداً.

2 الوَغَى: الجَلَبَة والأصوات ومنه قيل للحرب وَغَى لما فيها من الصَّوت والجَلَبَة.

وإنَّها لَحِكْمة بالغَة أنْ يظلَّ الغيب وما فيه محجُوباً عن مدارك الغير. إذ ماذا تكون حالة الإنسان إذا عَرَف أنَّه سيُلاقي حَتْفَه بعد يوم أو أُسْبوع أو شهر. أو أنَّه سيفقد حَتماً حبيبه أو ثروتَه أو صِحَّته أو صِيتَه. أو ما شاكلَ مِنَ الأمور التي تحدث لكُلِّ إنسان دون أنْ يسبقَ إلى عِلمِه أنَّها ستحدث.

لو انفتَحَ للإنسان كتاب الغَيْب لما كان له أمل على الإطلاق لأنَّ الأَمَل شوق وتطلُّع وحنين إلى المُستَقْبَل الذي لا عِلم للمرء به. ولكنَّه يتصوَّره جميلاً وسعيداً فيغْتَبِط ويفرح بهذا التَّصَوُّر. ولو كان غير صحيح. ولو كان كاذباً.

سألنَاك كيف استقبَلْتَ السنة الجديدة. ورجاؤنا أنْ تكون استقبَلْتَها ضاحكاً مسروراً كبير الأَمَل بالمُسْتقْبَل. كبير الإيمان بالله وعدله. وكبير الإيمان بأخيْك الإنسان. فإنَّك إنْ فقدْتَ ثِقتك بالنّاس جلبْتَ لنفسِك التَّعاسة والغَمَّ المُقيم. وربَّما أضَعْتَ ثِقة النّاس بك. وهي أعظم كَنز يَظْفَرُ به إنسان. فحَذَار ثمَّ حذارِ [1] مِنْ أنْ تطيرَ مِنْ قِبَلِك [2] وتفلت مِنْ يدِك. إعْمَل دائماً في حياتك لإستبقَاء هذه الثقة. فتصير مِنْ أكبر المُصلِحين وأفضل المُحسِنين. إذ لا يمكنك أنْ تكسبَ ثقة النّاس إلاّ إذا أحبَبْتَ النّاس وخدَمْتَ النّاس وضحَّيْتَ في سبيل النّاس.

السَّمير: 2/ 1/ 1952

حديث مع صديق

مِنْ أمثالِنا. وما أكثر أمثالَنا وما أصدَقَها قولنا «كسر إيدُو وشَحَذْ عليها» فهذا المَثَل ينطبق على كثيرين مِنْ الرجال والنِّساء يتصنَّعُون الفَقر ويتظاهرُون بالخصاصَة [3] ليكْسِبُوا عطف النّاس وإشفاق الجيرَان ويحصُلُوا على الصدقَات والهِبَات والمساعدَات الماليَّة مِنَ الأفراد والجمعيَّات الخيريَّة ومِنَ الحكومَة ذاتها...

هذا المَثَل المشهُور يصدُق في كثيرين وكثيرات ممَّن جعلُوا دَيدَنَهُم [4] وهمَّهُم في الحياة تزوير الشَّكاوى وتلفيق الدعاوى للحصُول على تعويض مالي كبير أو صغير عن خَسارة وهميَّة أو ضَررٍ لم يحدثْ. فضحيَّة هؤلاء النّاس شركة ضمان أو رَجُل مُوْسر أو أيّ كان.. إذ لا فرق عندهم بين صديق أو عدوّ. وقريبٍ أو جار. فالكُلُّ في نظرِهِم سَواء والكُلُّ عندهم فرائس. لأنَّ الغاية التي ينشدُونَها أوَّلاً وأخيراً هي الحصول على المال وأحبُّه إلى أنفسهِم مال السُّحْت [5].

---

1 حَذارِ: اسم فعل أَمْر بمعنى احذَرْ تقول حذارِك زيداً وتقول حذارَيْكَ ليكن منك حَذَرٌ بعد حَذَر.

2 القِبَلُ الطَّاقة يقال ما لي به قِبَلٌ والجهة أو النّاحية يقال: لي قِبَلَ فلانٌ دَيْنٌ عنده.

3 الخَصاصَة: الفقْر والحاجَة وسوء الحال.

4 الدَّيْدَنُ: العادَة والدَّأب يقال فلانٌ ديدنه أَنْ يفعل كذا.

5 السُّحْت: ما خَبُثَ وقَبُحَ من المكاسِب فلزم عنه العارُ كالرَّشْوَة ونَحْوِها ج أَسحاتٌ.

حدَّثني أمسِ صديق قال: قطعتُ أمس عهداً على ذاتي أنْ لا أحمل في سيّارتي صديقاً ولا غريباً.

وكنْتُ أنا أعرف في هذا الصَّديق نخوةً فائقة وغيْرَة عظيمة واستعداداً مُتناهياً لخدمة أصحابه وجيرانه فما رأى أحدهم في السّوقِ إلاّ دعاه إلى الرُكُوب في سيّارتِه ليذهبَ به إلى بيتِه أو إلى أيٍّ مكان يقصده مهما يكن بعيداً ومهما يكن الطَّقْس سيِّئاً ورديئاً..

فقلْت له: وما السَّبب في عُدُولِك عن خطتك وما الدَّاعي إلى نقمتِك على نَخْوتِك وغِيرتِكَ.

فأجاب وهو عابس: أتعرف صديقنا «فلانا»؟

قلت: أجل أعرفه كما أعرفك!

قال: وتعرف أنَّه كان يشكو مِنَ ألم مُزمن في ذراعيْه؟

قلت: وماذا عليك مِنْ باعهِ وذراعه.

قال: منذ مدة أركبتُه سيّارتي لأحمله إلى بيته وكان معي رفيق آخر. واتُّفِقَ أنْ مرَّت سيّارة أخرى فلطَمَتْ مقدَّمة سيّارتي دون أنْ يحدث أيُّ خدش فيها أو ضَرر لها أو للذين فيها وإنَّما حدث بعض الإضطراب والرَّجرجَة إنَّما بعد بضعة أيّام حدث ما هو أشدُّ مِنَ الرَّجرجَة فإنَّ فلاناً الذي ذكرته لَكَ أرسل لي بواسطة محام مدَّعياً أنَّ ذراعه انعطَبَتْ وأنَّ ساقه تضرَّرَت وأنَّ علَيَّ أنْ أبلِّغ شكواه بتفاصيله وحذافيرها إلى الشركةَ الضَّامنَة سيارتي.

وأعجب مِنْ هذا أنَّ فلاناً الذي سمَّيته لَكَ خاطبني بعد ذلك بالتلفُون سائلاً إيَّاي بدالَّة الصَّداقة المتينَة والأخوَّة المكينَة التي بيننا أنْ أزكِّي كَذِبَه وأوافقُ على تزويرِه فأشهدُ أنَّ ذراعه انعطَبَتْ في سيّارتي وأنَّ ساقه تأذَّتْ وهْوَ معي مِنْ تلك اللَّطمَة.

ولما قلت لصديقي: إنِّي ما تعوَّدْتُ أن أؤدِّي شهادَةَ زور. وليس مِنْ مقاصدي ولا مِنْ غاياتِي الآن أنْ أقتبسَ هذه الخَلَّة[1] ـ غضب واستاء وقال لي: وأيَّ شيء ستخسر فإنَّ الشركة هي التي ستدفع.

عندئذ قلت له في حَنَق[2]: أتسألني أيُّ شيء أخسر؟ أي شيء يا رجل أقدس مِنَ الشَّرف.

أيُّ شيء يا رَجُل أقدس مِنَ الشَّرف؟

وأيُّ شيء أعظم وأشرف مِنَ الصِّدق والإستقامة؟ والله[3] إن مضَيْتَ في دعواك فإنِّي لا أشهدُ إلاّ بالحقِّ وهذا يعني أنَّك لن تربح إلاّ الفضيحَة..

---

1 الخَلَّة الخَصْلَةُ يقال فيه خَلَّة حسنةٌ وخَلَّةٌ سيِّئةٌ ج خِلال.

2 الحَنَق: حَنِق عليه حَنَقاً اشتدَّ غيظُه فهو حَنِقٌ وحَنيق.

3 والله: الواو حرف قسم وأحرف القسم ثلاثة: الواو والباء والتاء. ولفظ الجلالة مقسم به مخفوض وعلامة خفضه الكسرة الظاهرة في آخرِه. وأمَا: حرف تنبيه، أمَا وألاَ تدخلان الجملة فقط اسميَّه كانت أو فعليّة وأكثر ما تقع ألا قبل «إن» نحو ألا إنَّهم السُّفهاء وقبل النِّداء ألا يا عين ويحكِ أسعِديني. وألا وأوْ وأما تستعمل أيضاً للطلب بلين أو العَرْض نحو «ألا تزورني» و«لو نزلت لأكرمنا مثواك». (راجع الشرتوني جـ 4 ص 372).

واستراح صديقي قليلاً ثمَّ استأنَفَ الحديث فقال: بعد الذي وقع لي وحكيتُه لك صرتُ أعتقد بضرورَة وضع قانُون صارم يُعاقبُ هؤلاء النّاس الذين يعيشُون بالإحتيال على الشركات ولا سيَّما شركات الضَّمان كما يُعَاقَب اللُّصُوص وقطَّاع الطرق ومُزوِّري الحوالات.

قلت يا صاحبي هوِّن عليك: فهؤلاء النّاس الذين انحطَّتْ أخلاقهم إلى هذا الدَّرك المُهين وهانَتْ عليهم كرامتهُم إلى هذا الحَدِّ قد عاقبُوا أنفسهم بما صنعُوا عِقاباً شديداً. وأيُّ قصاص أشدّ مِنْ أنْ يفقد الإنسان مُروءتَه وكرامته. بل دعني أَقُلْ لك أنَّ هؤلاءِ النّاسَ مَرْضَى الأرواح والأفكار. وهم خليقُون بالشَّفقة والرحْمَة مثل سائر المَرْضَى.

السَّمير: 4/ 3/ 1952

مَنْ هو أحمق النّاس

أنْ ينخدعَ المرء فليس ذلك دليل الجَهْل فيه ولا هو دليل الذَّكاء والدَّهاء في خادعه فإنَّ الرَّجل الكَريم عُرْضَةٌ[1] للإنخداع بالنّاس لأنَّه يحسنُ الظن دائماً بالنّاس.

فإذا رُمِيَ بالحماقَة مرة فإنَّه يوصفُ بطهارَة الوُجدان ألف مرة.

لقد سمعْنَا بأناسٍ كثيرين خدعهُم المحتالُون الأشرار ولكنَّنا لم نسمع بغير المُحتالين الذين يدَّعُون الذَّكاء والدَّهاء نزلُوا على كُرْهٍ منهم في السجُون!

كُلُّ إنسان معرَّض للإنخداع إمَّا بالنّاس وإمَّا بالأمور والحوادث. وانخداعه لا يُحْصَى عليه مِنَ الذنُوب ولكنه غلط في التقدير والتخمين والتصوُّر.

ولَكِنّ أقبح النّاس أغلاطاً وأقصرهُم نظراً وأضلَّهم حساباً رجل يخدع نفسه فيزيِّن لها الأشياء على غير حقيقتِها والنّاس على غير ما هُم. ويمضي في الحياة على هذا الوَهْم الفاسد والتَّصوُّر الخاطيء فتراه إذا نَسَبَ إلى شخصٍ رَذيلة ليسَتْ فيه، تصوَّر لحماقتِه أنَّ تلك الرذيلة قد لَصِقَتْ به وصارَتْ جُزءاً مِنْ جسدِه وكَبدِهِ وعينه وأنفه ورجله.

وإذا لاح له أنْ يتوهَّمَ أنَّه رجل ذو سلطان مضى يتصرَّف كأنَّه ذو سلطان فينتهي به الأمر إلى هُزْء النّاس وسخريتهُم لأنَّهم ينظرون إليه بعين الواقع لا بعين الوَهْم الخدَّاع. فيرونَه كما هو لا كما يتصوَّر نفسه!

ومَنْ هو الذي يتصوَّر نفسه على غير صورتِه الحقيقيَّة؟

هو إمَّا رجل مدخُول في عقلِه وإمَّا رجل جوعَان إلى شيءٍ مِنَ الشُّهْرة أو السُّلْطة. فهو لعجزه عن بلوغ ما يتمنَّى يُكِبُّ على خمرة الوَهم يَجْرَعُ منها الكأس بعد الكأس حتى يَكسِب شيئاً مِنَ الشجاعة

---

1 العُرْضَة يقال: جعله عُرْضَةً للشيءِ نَصبه له هَدَفاً.

على المُجاهَرَة بأنَّه لا يختلف عن أحدٍ مِنَ المشاهير وذوي السُّلطان. أو ربَّما حمله الوَهْم على التَّصوُّر بأنَّه فوق كُلِّ ذي شهرة وذي سلطان. ولا سيَّما إذا وجد من يُشْفِق عليه كما يُشْفَق على المريض فلا يعارضه في قول ولا عمل لئلاَّ يسلبه السَّعادة الوهميَّة التي يَنْعَم بها.

إنَّ هؤلاء الذين يخدعُون أنفسهم على هذه الصورة هم كالأطفال الذين يَعْجَزُون عن الدخُول إلى دُنيا الكبَار فيَقْنَعُون بدُنياهُم الصَّغيرة وما فيها مِنْ ألاعيب وأساطِير وحكايَات وخُرافَات.

ولكن ليس في الأطفال خُبْث[1] ولا رياء[2]. أمَّا أولئك فليس مِنْ شيء فيهم أظهر مِنَ الخُبْث والرِّياء والإدِّعاء الفارغ.

لا نَودُّ أنْ ندلَّ على أحد مِنْ هؤلاء بعينِه فنحن لا نبغي مِنْ هذه الكلمَة سوى التَّنبيه إلى آفة مِنْ شرِّ الآفات. وهي الغرُور. فعسى أنْ يستفيدَ بها الذين تَصْدُقُ أو تنطبقُ عليهم إنْ كانُوا لم يَطْمُس الغُرور على أفكارِهِم وقلوبهم. وبكلمة أوضح - إذا كانَتْ باقيَة فيهم قُوَّة على الإستفادَة مِنَ الغير. فإنَّ كثيرين مِنْ هؤلاء لا يتَّعظُون إلاَّ إذا رأوا العِبْرَة في أنفسهِم.

السَّمير: 16/ 4/ 1952

بعض النَّاس

«بعض النَّاس». إنَّ هذه الجملة ربَّما شَمَلَتْ «كُلَّ النَّاس» لأنَّه إذا جاز لُمتكلِّم بها أنْ يقولَ إنَّه لا يَعْني غير فريق معلُوم مِنَ النَّاس جاز لسِواه أنْ يزعمَ أنَّ المَعْنِي[3] بها فريق آخر. فهي مِنْ هذا القَبِيل مثل كلمة «فلان» التي لا تعني إنساناً بعينِه وتعني في الوَقْت ذاته كُلَّ إنسان. لأنَّ كُلَّ إنسان يمكن أنْ يُقال عنه «فلان»!

والخروج مِنْ حالة الإبهام والغمُوض يستلزم تمييز «بعض النَّاس» عن كُلِّ النَّاس بسرد صفاتهم أو وصف هيئاتِهم وأحوالهم وأعمالهم.

بعض النَّاس. يتوهَّمُون أنَّ الله خلق الشَّمْس لكي يستضيئوا بها وَحْدَهم دون كُلِّ الخَلْق. وأنَّ الحياة لا يجوز لها أنْ تَبْسم لغيرهِم. وإنَّ غيرهم عندما تطير شُهرتُه أو تكثر ثروته إنَّما جاءته الشُّهْرة بلا عَنَاء وحصل على الثَّرْوة بلا كدٍّ. وأنَّ الحظ ساعفَه ففاز على غير اسْتِحقاق ولا أهْلِيَّة.

هذا البعض[4] مِنَ النَّاس يرى الحسنَات في سواه ذنوباً ومساوِيءَ. ويرى الذنُوب والمساويءَ في

1 الخُبْث: خَبُثَ الشيءُ صار رديئاً مكروهاً.
2 وقوم مُراءُون والإسْم الرِّياء يقال فعل ذلك رياءً وسُمْعة وماراه مِراء جادله ومَراه حَقَّه جحدَهُ.
3 عُنِيَ بالأَمْر عَنْياً وعِنايةً اهتمَّ وشُغِل به فهو مَعْنِيٌّ به.
4 البَعْض بعض الشيء واحد أبعاضِهِ وقد بَعَّضَه تبعيضاً أيّ جزأَهُ.

نَفْسِه حسنات وفضائل!.. ويَذُمّ الحسنَاتِ في سواه لأنَّه ليس له مثلها. ويمدح المساويء في نفسِه لأنَّه لا يستطيع مَحْوَها ولا التخلُّص منها.

هذا البعض مِنَ النّاس.. آفة النّاس. لأنَّه جعل ديدَنَه [1] في الحياة ترويج الأراجيف [2] والإشتغال بالتخرُّصات [3] والإهتمام بأمُور لا تَعْنيه. والتَّدخُّل في قضايا ليس له فيها ناقةٌ ولا جمل. لعلَّه يصير له فيها ناقة أو جَمَلٌ. أو على الأقل شاةٌ أو عنزة!

هذا البعض يتكلَّم في غير موضوعه الذي يعنيه وفي موضوع تافِه في غير وقته ومجاله لمجرَّد [4] الرَّغبة في أنْ يسمعَ ذاته مُتكلِّماً لئلاَّ يقال عنه إنَّه لَزِم الصَّمت أو إنَّه أخرس. ولذلك تراه عندما يتكلَّم يرفع صوته عالياً كأنَّ الذين يستمعُون إليه في آذانِهم وَقْر. بل قُل إنَّه هو المُبتلِي بالوَقْر [5] في أذُنَيْه وإلاّ ماذا فحديثه لم يكن جاراً ولا صراخاً!

ومِنْ هذا البعض بعض آخر عاجز عن الصعُود في مراقي المجد والشرف فتراه أبداً ناقماً ساخطاً على الذين ارتفعُوا وحلَّقُوا رامياً إيَّاهُم بالمَعَايب محدِّثاً النّاس عنهم بأنَّهم كانُوا بالأَمْسِ في الحَضِيض [6] فكيف صارُوا في الأَوْج [7]؟!

وينسى أنَّ كُلَّ شجرة كانَتْ في أول أمرها بَـذْرَةً خبيثة في الثَّرى ولكنَّها بَذْرَة طيِّبَة أعانَها النُّور والمطر فصارَتْ شجرة ذات قُطُوف [8] دانية.

إنَّ هذا البَعْضَ الذي نتكلَّم عنه. والبعضَ الذي لم نتكلَّم عنه وإنْ كان أكثر انحطاطاً وفساداً لا يمكن أنْ يخلو مجتمع منه إلاّ إذا خلَتْ روضة مِنَ الحشرات والأشْواك...

إنَّهم كالكلمة الخبيثة لا يستطيع الإنسان الفاضلُ أنْ يمنعَ خروجها مِنْ فَمِ سفيهٍ ولكنَّه يستطيع أنْ يسدَّ أُذُنَيْهِ عنها. وأنْ يَعْرِضَ عن قائلِها إعراضَه عن اللَّغو [9] والسَّقَط [10]!

السَّمير: 29/ 4/ 1952

---

1 الدَيْدَنُ العادَة والدَّأب يقال فلان ديدَنه أنْ يفعل كذا.

2 الإرجاف واحد أراجيف الأخبار وقد أرجفوا في الشيء أي خاضوا فيه.

3 تخرّص كَذَب والخَرْص الكَذِب.

4 مجرّد: المُجرَّد ما يُدْرك بالذّهن دون الحواس. وتجرَّد للأمرِ أيْ جَدَّ فيه.

5 الوَقْر: بالفتح الثِّقَل بالأُذُن.

6 والحَضِيض القرار من الأرض عند مُنقَطَع الجَبَل والقَرار المُستَقَرّ مِنَ الأرض والمُنْقَطَع: ومُنْقَطَعُ كُلِّ شيء بفتح الطَّاء حيث ينتهي إليه طَرَفُهُ نحوُ منقَطَعُ الوادِي والرَّمْل والطَّريق.

7 الأَوْج: ضِدّ الهُبُوطِ.

8 القِطفْ ما قُطِفَ عن الثَّمَرَ والقِطْف العُنْقود ساعة يُقْطَف ج قِطافٌ وقُطُوف.

9 اللَّغْو: ما لا يعتدّ به من كلام وغيره وما لا يُحْصَلُ منه على فائدةٌ ولا نَفْع.

10 والسَّقَط: الخطأُ في القول والفِعْل ج أسْقاطٌ.

البلاء الأكبر

أجمعَ الحكمَاء على القول: إنَّ الخوف مِنْ البلاء شرٌّ مِنَ البلاء ذاته. كذلك أجمع الحكمَاء بل النّاس كُلُّهُم على أنْ الحرب هي البلاء الأكبر والوَباء [1] الأعظم.

هي بلاء لا ينقضُّ مِنَ السَّماء مع الرُّجُوم [2] ولا يخرج مِنَ البَحْر مع السَّحاب. ولا تدفعه الأرض مِنْ جوفِها كالماء ولكِنَّه بلاء يَجرُّهُ الإنسان على ذاتِه. فهو يَظْلِمُ نفسه ثمَّ ينسب الظلم إلى السَّماء.

وهذا الإنسان الذي يسعى إلى الحرب وفي الوَقْت ذاته يقول: إنَّه لا يسعى إليها. موجُود في كُلِّ مكان مِنَ الأرض.

هو في الكُوخ القائم في الغابة عند النَّهر. وهو في البيت الذي تخفق فيه الأرياح في البادية. وهو في الدَّسكَرَة [3] والقرية والبلدة والمدينَة.

هو في البيت والمَصْنع والمَكْتب والحانُوت هو أنتَ وأنا وهو.

إنَّنا اليوم في بلاء مُستطِير [4] لأنَّ الخوف يملأ جوانحنا [5] مِنْ وقُوع البَلاء الأكبر.. مِنَ الحرب.. فترانَا كلَّما تقرَّبَتْ دولة كبرى مِنْ دولة صغرى خامرَنَا [6] القلق وتصوَّرْنا أنَّ هذا التقرُّب مقدِّمة للحرب.

وكلَّما خرجَتْ رصاصة مِنْ بندقيَّة روسي فأصابَتْ أميركياً أو إنكليزياً على غير قَصْد قلنَا: إنَّ الأرض ستُزَلزِل زِلْزالها [7].

وكلَّما خرج وزير لمقابلة وزراء في غير بلاده. قلنا هذه عَلامة الحرب.

وكلَّما لاح في الأَوج الأَعلى نورٌ يسيرُ أو خيال يطير. استحوذ علينا الخوف مِنْ أنْ يكونَ هذا سلاح جديد للعَدُوِّ لم يتَّصل بنَا خَبَرُه.

بل نحن لشدَّة خوفنا لا يصعب علينا أنْ نتوهَّم الحوادث الطبيعيَّة كالزَّلازل والطُّوفانَات أموراً غير طبيعيَّة.. أموراً مِنْ صنع الإنسان. العدو..

إنَّ هذا الخوف المُستولي علينا الغامر أرواحنا وأفكارنا كالضَّباب. هو الذي سيقرِّب الحرب إلينا.

---

1 الوَبَاء بالكسر والمَدّ مَرَضٌ عامٌّ.

2 الرُّجُوم النُّجوم التي يُرْمى بها.

3 الدَّسْكَرَة القرية الكبرى.

4 المُستطير: استُطير فؤادُه أصابه ذُعْرٌ وفَزَع.

5 الجوانح: من الإنسان الأَضلاع.

6 خامر الشيءَ مارسه وخالطه يقال خامره الدَّاء وخامره الشَّكّ.

7 الزِّلْزال: وزَلْزَله زَلْزَلَةً وزِلْزالاً حَرَّكه والزَّلازِل البلايا.

بَلْ إلى الغابة والدَّسكَرة والقرية والمدينة لكي تلتهم الذين في الغابة والدَّسكَرة والقرية والمدينة.

ولن يكون المسؤول عن الحرب إذا شبَّتْ نارها شخص واحد ولا جماعة واحدة ولا أمَّة واحدة. بل البشريَّة كُلّها. لأنَّ الخوف منها شامل العالم كلّه في هذه الأيّام.

إنَّ خوف أميركا مِنْ روسيا وخوف روسيا مِنْ أميركا قد خلق الخوف في كُلِّ بلاد. وما دام الخوف مِنْ الحرب موجوداً فإنَّها واقعة لا محالة إنْ لم يكن عاجلاً فآجلا.

إذن فالعِلاج الوحيد الذي يقي الدُّنيا كارثة الحرب هو أنْ يتلاشى مِنْ قلُوب النّاس هذا الخوف القتَّال. فهل يتلاشى؟

أليس مِنَ الممكن أنْ يهتدي البشر إلى وسيلة تنزع مِنْ قلوبهم البُغْض وتزرع فيها الحبّ. فلا يعود يخاف شعبٌ مِنْ شعب ولا تطمع أمَّة بأمَّة. ولا يعود يرى الإنسان البطولة كُلَّ البطولة في قتل أخيه وهدم بيته وتَدْمير حَقْله وتشتيت أهله واستئصال نسله.

ألا يمكن أنْ تموتَ شهوات الحيوان في الإنسان؟

السَّمير: 19/ 6/ 1952

نُفُوس مريضة

كتبَتْ مجلة «الأديب» في الجزء الخامس منها الصادر في شهر أيار تعتذر عن نشر كُلِّ ما يردُها مِنَ القصص والقصائد ما يلي:

«يُلاحَظ أنَّ أكثر الشعراء وكتّاب القِصَّة يتجلَّى «الكبت الجنسي» في أكثر ما يرسلُونَه للنَّشر. فالشَّاعر لا يرى مِنَ المرأة غير نهدَيْها وفخذَيها والفراش الوثير. وكاتب القصة يمعن في وصف كيفيَّة التعبير عن أشواقِه الجنسيَّة نحو المرأة وعن كيفيَّة تمتُّعه بها. فالمرأة في القصة «مُتْعة» لبطلِها. هذا الكبت الجنسي والسّياسي والإجتماعي إلى آخره مُصيبَة الشَّرق العربي يتجلَّى للأسف في أكثر ما يكتبه الكتَّاب. لذلك أرجو ملاحظة ذلك».

إنَّ هذه الملاحظة التي جاءتْ بها مجلة الأديب هي مثل رأي لنا أبدَيْناه في فصل كتبناه لـ «السَّمير» ومجلَّة المُقتطَف بعنوان «المرأة في الشعر العربي».

ثمَّ لَمَّا كنَّا في دمشق بسطْنَا مثل هذه الملاحظة في حديث لنا مع محرِّر جريدة «ألف باء» عن الشعراء الذين يتغزَّلُون لأنَّ شعراء قبلَهُم تغزَّلُوا.. ويبكُون لأنَّ شعراء غيرُهُم بَكَوْا. ويذمُّون الدُّنيا لأنَّ شعراء قبلهُم ذمُّوها. فلا الغزَل الذي يصدر عنهم يصدر عن إحساس ولا الدُّمُوع التي يَذْرِفونَها [1] على الوَرَق

1 ذرَف الدَّمع سالَ.

تتساقط مِنْ أجفانِهِم وليس ذمّهُم الدُّنيا عن مقتٍ[1] وكُرْه.

فخرُوج هذا الصوت مِنْ دار «الأديب» دليل على أنَّ النفُوس استحوذَ عليها السأم والضَّجر مِنْ هؤلاء الشعراء والقصَّاصِين الذين يعتقدُون أنَّ الفن لا يكون فنّاً، والأدب لا يكون أدباً، بل الحياة لا تكون حياة إلاّ إذا انسابَتْ أفاعي الشَّهوات في ما ينثرُون وينظمُون.. يقلِّدُون بذلك جماعة المُتهتِّكِين مِنْ شعراء فرنسا الذين خدَّرُوا عقولهم واقنعُوا أنفسهُم بأنَّ حياة الشذوذ هي الحياة الحقّ والعيش الصَّادِق.

غير أنَّ هؤلاء الشعراء والقصَّاصِين المُقلِّدين فاتَهُم أنَّ ظهُور هذا النوع الخليع المُتهتِّك مِنَ الشعراء والقصَّاصِين في أمَّة كالأمَّة الفرنسيَّة عندها مِنَ الأدب الرفيع والعلم الرَّصين المُتألِّق شلالات لا ينقطعُ اندفاقها وهديرها ومنائر لا يخبُو ضياؤها ولا يَشِحُّ نورها. لا يعيبها ولا يضيرها بل ربَّما كان ظهُور جماعة مِنْ هذا الطِّراز[2] في حياتِها شيئاً طريفاً فيه تسلية وتفكهَة.

ولَكِنْ أُمَّةٌ كأمَّتِنَا مُشوَّشة الأوضاع مشوَّشَة طرائق الفِكْر. مُشوَّشة مناهج الحياة. تحلُم وتتوق أنْ يصيرَ لها كيان جميل ونبيل ومكان محترم تحت الشَّمْس يؤذيها ويُفْسِدُ عليها النُّور والهواءَ ظهُورُ هذا النوع الرَّخيص المُبتذَل المائع مِنْ الشعراء والقصَّاصين.

ولا يكفي في مكافحة هذا الوَبَاء النَّفْساني أنْ تمتنعَ مجلة كـ«الأديب» عن نشر قصائد وقِصَص هؤلاء النَّاس. ولا أنْ تنهالَ عليهم الألسِنَة والأقلام بالتَّعنيف والتوبيخ. بل يجب أنْ يبحثَ مَنْ يهمَّهُم مصير الأدب العربي بل مصير الشَّباب بل مصير الأمَّة كلّها عن أسباب انتشار هذا النوع مِنَ الأدب الرَّخيص ويعملوا على استئصالِها. فما هي هذه الأسباب؟ ما هي أسباب «الكَبْت الجنسي» الذي أشارَتْ إليه «الأديب»؟

يمكننَا أنْ نعدَّ مِنْ أوَّل الأسباب وأكبرها كون المرأة محجوبَة. فالنَّفس أكثر ما تكون رغبَة في شيء تشتهيه هي عندما يكون هذا الشيء محجوباً عنها ممنوعاً منها. فإذا صار في منالِها خمدَتْ حرارة الرَّغبة فيه.

فهذه الظَّاهِرَة في القِصص والقصائد التي تموجُ بها بعض الصُّحُف ليسَتْ في الواقع غير انعكاس أَخاييل وتصوُّرات نشأتْ في أذهَان أصحابها لأنَّهم مُبتلُون بالحرمَان.

أجل. وهذا هو السِّرُّ في أنَّ الشَّباب العرب الذين يذهبُون إلى فرنسا وسويسرا أوَّل ما يستلفتُ انتباههُم ويقيِّد أفكارهم مرأى الغِيد الحسان في المسارح والملاهي والأنديَة الليليَّة ممَّا لا عهد لهم به حيث وُلِدُوا وتَرَبُّوا[3] فيجُنُّ جنونهُم وتصير الحياة عندهم كُلُّ الحياة أنْ يطيرُوا على أجنحة الشهوات.

---

1 مقَته أَبغضهُ.

2 الطراز الهيئَة.

2 رَبَّ الولد ربّا وليَه وتعهَّده بما يغذِّيه ويُنَمِّيه ويؤَدِّبه فهو رابٌّ والولد مَرْبوبِ وربيب.

وأنْ يتهافتُوا على مناهِل اللَّذَّات تهافُت الفَراش على الضَّوء المُتألِّق.. ولا غَرْوَ[1] فمثل هذه المغريَات يَعْجَز عن مقاومتها الرجل الرشيد فكيف إذا عرضَتْ ذاتها على فتى طرير[2] أو غلام غِرير[3].. وهناك فريق آخر مِنْ هؤلاء الناشئين لا ينتقل إلى مكان، ولكنَّه يكبُّ على مطالعَة كتب الخلعَاء مِنْ أصحاب مذهب الأدب العاري - فيمضي يسير وراءهم في غير هدى ويحاول أنْ يقلِّدهُم ويكون منهم فتضطرب به طريقه ويبدو للعيَان[4] بَهْلواناً[5] بل مَرْقعاناً[6] لأنَّه في محيط أولئك وناس غير ناسهم. ثمَّ لأنَّه يهرب مِنَ الحياة التي يراها إلى حياة يتخيَّلها. ويتحدَّث عن أمورٍ يشتهيها ويتمنَّاها كأنَّه أدركَهَا وحازها وما حازَ منها أكثر ممَّا تُمْسِك اليدُ الخيال. ويَضْبِط الماءَ الغِرْبال!

ويظلُّ راكضاً وراء الأوهام قانعاً بالصور والطيوف والأحلام حتى يجيء يوم يصحُو فيه مِنْ نشوة الوَهْم فيجد أنَّه أضاع زمن الشَّباب الذي يجب أنْ يصرفَ في طلب المعالي وصار كالسَّيف عُرِّي متناهُ مِنَ الخَلَل. وكالغصن نفض عنه أوراقه فجفَّ ويَبس!

مَـنْ تـردَّى بـرداءٍ ... مـا رآه لأبـيـهِ
سـوف يـأتـيـه زمـانٌ ... يـتـمـنَّـى الموتَ فـيـهِ

إنَّ مُشْكلة هؤلاء الشَّباب هي مُشْكلة المرأة في الشَّرق العربي ثمَّ هي مشكلة نوعية التعليم في المدارس. فعلى المُصلحِين أنْ يفكرُوا في الوسائل التي تَصْرِف الشَّباب عن هذا الإتجاه السَّقيم إلى إتجاهات أصحَ وأسمى وأنفع لهم وللبلاد.

إنَّ الإمتعاض مِنْ حالة كائنَة لا يكفي لإزالتِها ومحوها أو تبديلها.

السَّمير: 24/ 6/ 1952

المدينة الصَّرعى[4]

... وترى القوم سُكارى. وما هم بسكارى. ولكن موجة طاغية مِنَ الحر العنيف زحفَتْ عليهم بروح عدو جبَّار مُنتقم فما استطاعُوا لها دفعاً. ولا استطاعُوا مِنْ وجهها فراراً. سلَّطَتْ الوَهْن على

---

1 لاغَرْو: الغَرْو العَجَب.

2 طَرِير: وطَرَّ البَنَتُ من باب رَدَّ نَبَتَ ومنه طَرَّ شارب الغُلام فهو طارٌ. والطَّرير ذو المنظر والرَّواء والهيئة الحَسَنة.

3 والغَرير: أي غير مُجرِّب.

4 العِيان: عاينه معايَنَةً وعِياناً لم أشكَّ في رؤيتي إيَّاه.

5 البَهْلوان: البارع في نوع من الألْعاب.

3 المَرْقَعان: بالفتح الأحمَق.

4 الصَّرْعى: الصَّريع المَصْروع يقال بات صريعَ الكأس ج صَرْعَى وصَرِيع على وزن فعيل ووزن فعيل يستوى فيه التذكير والتَّأنيث. فيقال: رجُلٌ قَتيل وامرأة قَتيل.

أجسامِهِم فتهدَّلَتْ. وعلى أجفانِهم فاسترخَتْ وذبلَتْ. وتغلغلَتْ حتى إلى موضع الأسرار. فكادَتْ الأسرار تفتضح لولا شيء كالشَّلل عقَلَ الألسُن عن الكلام. هو الخوف مِنْ أنْ تنجرحَ الحناجر مِنَ البَوح والشَّكْوى..

يومٌ بل يومان. كان كلاهما على النَّاس في المدينة الجبَّارة كأنَّه عصر مِنْ هموم وأثقال. أو كُوْمَة مِنْ تلال وجبال. فقد كان كُلُّ إنسان في المدنية يتوهَّم أنَّه وَحْده الغريق في هذا البَحْر الصّاهر. ولا سيَّما عندما طلب النوم فأعيَاه. واستعَان بالماء البارد فما كاد يدخُلُ إلى جوفِه حتى تفجَّرَ مِنْ مسام جسمه عرقاً ساخناً! ومضى إلى الشَّجرة يستظلُّ بها فإذا الشَّجرة مثله تبدو بأغصانِها الصامتَة كأنَّها تُصلِّي للسماء أنْ تدفعَ عنها غائلَة [1] القيظ. وذهب إلى الشاطيء فإذا رماله تَلْهَثُ أنفاساً حرَّى وتبدُو كأنَّها تُقلى في الشَّمْس وتُشوى...

أجل. كان كُلُّ شيء وكُلُّ حَيّ في قبضَة الحرِّ المُذيب.. حتى السَّماء لاحَتْ عليها قتَرَة [2]. وحتى الجماد بدا كأنَّه مشدُود باهت.. أمَّا البَحْر فكان ساجياً [3] ساهياً كأنَّه يخشى على ذاتِه أنْ يَجِفَّ ويَنْضُب!

إنَّما هذا الحر الطاغي لم يكن بلا فائدَة فقد حملَ النّاس في المدينَة الصخابَة على أنْ يقعدُوا عن الحركة مُكرهِين. فقعدُوا وفكَّروا فعَرَفُوا أنَّهم ضعفَاء عاجزُون وأنَّهم في نظر الطَّبيعة والنمل سَواء [4]. وأنَّ نواميسها تجري بالسَّواء على الإنسان والنمله.

ولكنْ ربَّما حالَتْ شدَّة الحر بين النّاس والتَّفْكير في أيِّ أمر. فلم يشعرُوا بِعَجْزٍ ولا بقوَّة. وسيعودُون بعد تراجع هذه الموجة الطاغيَة عنهم إلى ما كانُوا فيه مِنْ ذُهُول ونِسْيَان. وإلى الرَّكض والإندفاع وراء المعاش..

أجل. إنَّ المدينة الصرعى سوف تستردُّ حياتها الأولى وترجع بعد السكينة العارضَة إلى الدَّوران على ذاتِها كما يدورُ الدُّولاب الرقَّاص في الساعة على محورِه [5].. وإنْ توهَّمَ كثيرُون أنَّ الحرَّ الطاغي سيدُوم مع علمهِم أنْ لا شيء يدُوم!

السَّمير: 27/ 6/ 1952

---

1 الغائلة غاله الشيء اغتاله إذا أخذه من حيث لا يدري.

2 القتَرَج قَتَرَة وهي الغُبار.

3 سَجَى أي دام وسكن ومنه البحر السَّاجي وطَرْف ساج أي ساكِن.

4 أي عدل ووَسط فيما بين الفريقين وهما في هذا الأَمْرِ سَوَاء.

5 المِحْوَر: العُوْد من حديدٍ وغيره تدورُ عليه البَكَرَةُ.

كيف تنظر

لكُلِّ إنسان عينَان يبصرُ بهما الأشياء والنّاس والكائنات التي تعرض أمامه أو تمرُّ به ويمرُّ بها. ولكن ليس كُلُّ إنسان يرى الأشياء والنّاس كما يراها الآخرون. فمِنَ النّاس مَنْ لا يبصرُون غير الظواهر ومِنْهُم مَنْ يقنعُ بأنْ رأى مِنْ كُلِّ شيء سطحه. ومنهُم قومٌ لا يبصرُون شيئاً حتى وهم يبصرُون!

ومنهُم مَنْ يحاولُون اختراق الحُجُب والأستار والنَّفاذ إلى صميم الأشياء ولُبّها فيشقَوْن حيناً ويسعدُون حيناً. يشْقَوْن عندما يعييهم الوصُول إلى سرٍ مكنُون يبحثُون عنه. ويسعدُون عند وصولهم إليه وانتصارهم عليه.

فكيف تنظر أنتَ إلى الأمور وإلى النّاس؟

إنَّ مَنْ لا يمشي لا يصل إلى مكان

ومَنْ لا يفكّر لا يهتدي إلى حقيقة محجوبَة

ومَنْ يقنع بالنظر إلى الظواهر فسوف يظلُّ بينه وبين البواطن ما بين الأرض والسماء مِنَ البُعْد ولو كان الشيء الذي يُبصِره بين يديْه وأمام عينيه..

لذلك لا يصير للشيء قيمةٌ إلاّ إذا عَرَف الإنسان ما بطنَ منه وما ظهر. بل لا يصير للإنسان ذاته قيمةٌ إلاّ إذا كان ممَّن يبحثُون وينقّبُون للوصُول إلى لُباب الأمور.

وليس مِنْ إنسان عاقل إلاّ ويخامر نفسه الشوق إلى المجهُول. فإذا أضاع هذا الشوق أو فارقَه صار أقرب إلى الحيوان الأعجم بل صار سَواء هو والحجر الأصَمّ.

ولا يمكن أنْ يهتدي الإنسان إلى حقيقة محجوبَة عنه إلاّ إذا شَكَّ في ما بين يديه مِنَ الأمور وما ورثه أو أخذه عن ذويْه وجيرانه مِنْ عقائد وتقاليد وعادات. فالشَّكّ وَحْدَه يحرّك دولاب الفِكْر فيدُور وهو وَحْدَه اليد القادرة على تمزيق الأستار التي حاكَتها السُّنُون وألِفتها العيون!

أجل. مَنْ لا يشُكّ لا يفكّر ومَنْ لا يفكّر لا يهتدي - فشُكَّ وفكّرْ تُصبحْ مِنَ القوم المُهتدِين أو على الأقل المُتحرّرين مِنَ الأوهام والخُرافَات والتَّقاليد التي ذهب زمانُها واندثر أهلُها..

السّمير: 10/ 7/ 1952

الشُّعور الحقيقي - جمال النَّفس

الشُّعور الحقيقي يدلُّ على جمال النَّفس ويختلفُ عن المظاهر المألوفَة التي تتكرَّر أمامنا كُلَّ يوم. وهو ما يسير عليه بعض النَّاس عند نزول المُلِمَّات [1] والمصائب بالآخرين فتكثر المحابَاة والتَّصنُّع ويبدو الرِّياء بثوبه الشفَّاف ومِنْ تحت الثوب الخبث والمُداهنَة.

والشُّعور الصَّادق ليس شفاه تتحرَّك وألسِنَة تتكلَّم. وعيون تدمع وأيدٍ ممْدُودَة تتحرَّك وبكلمة ليس الشُّعور الصَّادق كلمات معسولَة منمَّقَة لا تعني شيئاً أو لا معنى لها على الإطلاق. ولا هو دور في رواية الحياة لا مغزى له وُجدَ لسدِّ فراغ أو لإكمال الرِّواية.

إنَّ الشعُور الحقيقي هو ما كان صادراً عن قلب كبير ونَفْسٍ حسَّاسة وإخلاص في القول لا يشوبَه شائبَة [2] النَّفْع الذاتي.

وهذا الشعُور الصامت دون إعلانه بالكلام الناعم المُزخرف والتَّدليل عليه خير مِنْ مئات الكلمات المُزوَّقة وأفضل مِنْ مائة دمعة يَذْرفها [3] مراوغ [4] مِرائِي [5].

فالشعُور النبيل في صَمْتِه بلاغة يحسُّ بها المرء فتملك عليه مشاعره وتخفِّف عنه ما به مِنْ همّ وكَدَر وتهوِّنُ عليه ما يلقَاه مِنْ صدمَات الدَّهر.

وهو الذي يجمع بين عاطفة الحنان والرأفة وفضيلة الحكمة في مشاطرة الآخرين حمل أثقال الحياة ومتاعبها. واستعادة الأمل والرجاء إلى القلُوب المنكسرَة بدخُول الأمور مِنْ أبوابِها عن طريق الرشاد والرَّويَّة.

إنَّ الحكمة في إبداء الشعُور الصَّادق تأتي بالعجائب إبَّان المُلِمَّات والمَصائب. والسِّرّ في ذلك هو أنْ تجعلَ نَفْسك مُساويةً لنفُوس الآخرين كأنَّها جُزْءٌ منها. وبذلك يكون لكلامِك التأثير المرغُوب والأثر الجميل البعيد في القلُوب.

ومَنْ كان ذا شعُور إنساني حقيقيّ لا يتصنَّع ولا يوارب ولا يضطر للمُداهنَة [6]، مداركه ساميَة وخياله صافٍ. وبالتدريب والتمرين يصبح الشعُور الإنساني مَلَكة [7] في المرء كسائر أمُور الحياة. وكما

---

1 المُلِمَّة الشِّدَّة. المُلِمَّة النَّازلة الشديدة من شدائِد الدَّهرِ.

2 الشَّائبة الشيء الغريب يختلط بغيره ويقال ما فيه شائبة ليس فيه شُبْهَة والدَّنَس والقَذر ونحوهما.

3 ذَرَف: الدَّمْع سال.

4 المُراوغ: راغ إلي كذا مال إليه سِرّاً وحاد وفلان يراوغ في الأَمْر مراوَغَةً.

5 المِرائي: وماراه مماراةً ومِراءً شَكَّ وامتراه حَقَّه جحدَهُ.

6 دَاهَنَه: المُداهَنَة كالمُصانَعَة.

7 وحَسَنُ المَلَكَةِ أَي حَسَن الصَّنيع إلى مماليكه.

تتمرَّن أصابع اليد على أوتار «العود» أو الكمنجَة فتأتي بعدئذ بالأنغام الشجيَّة العذبة. بشرط أنْ يكونَ للمرء الإستعداد ليكون موسيقياً كما يجب أنْ تكونَ في قلبه جَذْوة[1] الشعُور الصَّادق لينمّيها بالممارسة والمُزاولَة.

ولا يتوهمَنَّ أحد أنَّ الشعُور الحقيقي وقف على المريض والفقير التَّعيس والإشفاق عليهما دون سواهما. لا فإنَّ معاني الشعُور الإنساني أوسع وأسمى مِنْ أنْ تنحصر في غرفة العليل أو يحدُّها[2] كوخ الفقير بل هي تشمل سائر النّاس عامَّتهُم وخاصتهُم على السَّواء وكلُّنا في حاجة إليها. الأغنياء والفقراء.

قال أحد المفكِّرين الكبار: إنَّ الشعُور مع المتألِّم ليس أسمى مثال في الحياة ففي وُسْع أيُّ إنسان أنْ يبديَ شعوره مع صديق له في الشِّدَّة ويكون شعوره هذا سطحياً منمّقاً ويَكيل النصائح فتجيء بعد فوات الوَقْت عليها.

ومَنْ يخلُو قلبه مِنَ الشعُور الصَّادق فهو لا يتميَّز عن الحيوان الأعجم. أجل إنَّ هذا الحيوان الأعجم الذي نظلمه بتشبيهنَا به بعض النّاس العديمِي الشعُور هو أفضل بكثير مِنْ هذه الحيوانات الناطقة مِنْ بني البَشَر.

خذ الكلب مثالاً هذا «الحيوان الأعجم» وهو عندنا صِفة احتقار وازدراء ننعتُ به الخالِي مِنَ الإحساس العديم المُروءة[3] المُنحط بأدابه وأخلاقه. وهذا خطأ درجَ عليه النّاس ـ فهذا الحيوان له صفات الإخلاص والأمانَة ممَّا لا نراها في كثيرين مِنَ البشر الذين يتظاهرُون بالصَّداقة والإخلاص وهم على عكس ذلك.

ومِنْ بليغ القول «يجدر[4] بالمرء ألاّ يجعل مِنْ قلبِه جزيرة منفصلَة عن باقي الأرض».

وعلى الجُمْلة إنَّ الشُعور الإنساني الصَّادق فنٌّ سامٍ في حياتنا إذا تدرَّبنَا عليه وتمرَّنا به وأتْقنّاه فعندئذ يصبح هذا العالم فِرْدوساً يسودُ فيه السلام والرَّخاء.

السَّمير: 26/ 9/ 1952

في أتلنتك سيتي

الكلمة التي ألقاها صاحب «السَّمير» في مأدبَة الحلف الشَّرقي يوم الأحد في 19 تشرين الأول الجاري وذلك عقيب تسليمه شهادة التقدير لجهوده الأدبيَّة شاعراً وكاتباً ومجاهداً وطنياً...

---

1 الجَذْوَة: الجَمرَة.

2 الحَدُّ الحاجز بينَ الشَّيئين.

3 المُروءَة الإنسانِيَّة.

4 جَدَرَ بكذا وله صار خليقاً به فهو جدير ج جُدَراء.

إنَّه لشرف كبير لي أنْ ألتقي وإيَّاكم في ظلٍّ مؤسَّسة لنا كانَتْ إلى عشرين سنة خلَتْ سراً مضمراً وحُلُماً خفياً فأصبحَتْ اليوم تضم العشرَات مِنَ الجمعيَّات والأنديَة والآلاف مِنْ أبناء لبنان وسوريا وهي الحِلْف السوري اللبناني الأميركي في الولايات الشَّرقيَّة.

فإنَّ مَنْ يذكر ما كانَتْ عليه جوالينا قبل عشرين سنة مِنَ التفكُّك. وما كانَتْ عليه جمعيَّاتنا مِنَ التناحر وضآلة الأهداف لا يسعه إلاَّ أنْ يعترف بأنَّ تكوين هذا الحلف الكبير السَّامي الأهداف كان عملاً شاقاً عَسِيراً. ولو لم تضطلع به نفُوس بعيدة مطارح الخيال وهِمَم صُلْبة لا يتطرَّق إليها الكَلال[1] لبقي حُلُماً خَفِيّاً وسِرّاً مُضمراً في خاطر الدَّهر. ولبقِيَتْ جمعياتنا حلقات مبعثرة مشوَّشة الكيَان لا وزن كبير لها.

سادتي:

إسمحُوا لي أنْ أقولَ إنَّ المهاجرين بهذا التكتُّل الشَّعبي قدَّمُوا نموذجاً جميلاً راقياً في التعاون والتضامن والإنسجام لقومنَا المُتخلِّفين الذين ما أضرَّ بهم شيء كالتَّناحر والتطاحن وإعراضهُم عن التعاون.

كذلك أعطى المُهاجرُون مثالاً آخر للتضحية والتجرُّد عن الهوى وحب الإنصاف عندما عطفُوا على القضايا العربيَّة كلّها وبذلُوا في سبيلها الوَقْت والمال في حين لا مصالح شخصيَّة لهم هناك. ولا هُمْ يتوقَّعُون أجراً ولا شكراً على مساعيْهِم.

وقد قام رجال الحلف بأكثر مِنْ قسطِهِم[2] في هذا السَّبيل فأدُّوا خدمة مُزدوجَة للوطن الأميركي وللأمَّة التي جاؤوا منها. ولا غرابة في ذلك ففيهِم رهط كبير مِنَ المحامين الممتازين ورجال الفِكْر النَّابغين وأصحاب المواهب المختلفَة.

وقد شاء هذا الحلف الكريم أنْ يرفعَ مِنْ مكاني ويشرِّفني بهذه الإلتفاتَة الجميلة التي لا أدري إذا كنْتُ أستحقُّها فجعلني عاجزاً عن الإعراب عن تقديري لهذا الشُّعور النبيل. فما كنْتُ أتوقَّع أنْ ينالني الفخر مِنْ هيئة فصلَ الدَّهر بين سوادها الأعظم وبين اللغة العربيَّة التي أعيش فيها وأحيا لها.

أمَّا وقد غمرني حُبّه فأنا أطمع منه بأكثر. وأتوجَّه إليه بالرَّجاء أنْ يشجِّعَ ويُنَشِّط الذين في أوَّل الطَّريق مثلما يبارك الذين صارُوا في آخر الطَّريق. وأعني تشجيع ذوي المواهِب مِنْ ناشئتنَا فقد يكون بين هذا السِّرب[3] مِنَ الفتيان والصبايا شاعر أو فيلسُوف أو مخترع كبير نتمجَّد به عندما يرتفع عنه الستار. فما مِنْ تربة تنبتُ المجد مثل أرواح الشَّباب.

وبعد يا سادَة إذا كان شاعر مثلي يستحق أنْ يُكافَأ لأنَّه سلَّط مصباحه على ناحيَة جميلة في الحياة

---

1 وكَلَّ الرَّجل والبَعير من المَشْي بكَلُّ كلالاً وكلالَة أيضاً أيْ أعْيَا.

2 القِسْط: الحقُّ والنَّصيب.

3 السِّرْب الفريق من الطَّير والحيوان ج أسْراب.

ليرَاها النّاس فكم يستحق الذين وضعُوا الزيت في مِصْباحِه؟ وكم يستحق الذين وضعوا المصْباح في يده؟

وإذا كان كاتب أو شاعر يستحق التكريم لأنّه دعا إلى إغاثة شعب منكوب هو شعبه. وإلى تحرير وطن مُستعبَد. هو وطنه. فكم يجب أنْ تُكرَّم النفوس التي لبّتْ دعوته وأجابَتْ نداءه. فمسحَتْ الدُّمُوع وضمَّدَت الجراح وردَّت الأمن إلى قلب الخائف الملهُوف.

بل كم يجب أنْ يكرَّم الأبطال الذين استُهدِفُوا للموت في ساحات الوغَى مِنْ أجل الحَقّ والحرّيّة والشَّرف والخير العام. كهؤلاء الجنود السوريّين الموجُودِين الآن بيننا.

«هم الرئيس مصطفى حمداني والملازمُون مِنَ الدرجة الأولى ـ منير باشا. ومحمد استنبولي. وأدهم عوي. وعدنان فضلي».

إنَّ هؤلاء وأمثالهم أَولَى بالتّكريم وأحق.

وصدِّقُوني إنّكم أكرمتمُوني مِنْ قَبْلُ بل أكرمتُم كُلَّ شاعر إنساني عندما مسحتُم دمع اليتيم. وكسوتُم جسد العاري. وضمَّدتُم جراح الطَّعين. وأمّنتُم الخائف وأنصفْتُم المظلُوم.

وبالغتُم في تمجيد أمّتكُم عندما مضيتُم تُنْشدُون الحقَّ والخير والجمال في الحياة فأنّا بكم معتزٌ فخُور.

أمّا أنا فمعتقَدِي هو أنّي لا أستحق المكافأة ولا ينبغي لي أنْ أطلبَها لأنَّ الشَّاعر عندما تنفتحُ عيناه على جمال في الطَّبيعة أو في النّاس لا تتِمّ سعادته ولا تكمُل مُهِمَّه إلاّ إذا نقل ذلك الجمال إلى كُلّ العيُون.

بل يجوز القول أنَّ مشيئة الله تَتِمُّ فيه عندما يجيدُ نقل تلك الصور كما تتمُّ مشيئة الله في الزهرة عندما يكمُل تكوينها وتلوينها وتذيع شذاها. وكما تتمّ هذه المشيئة ذاتها في الأرض عندما تخرج البقل والحَبَّ والزَّهر.

وتلك هي المكافأة الكبرى للشاعر والزَّهرة والأرض.

السّمير: 27/ 10/ 1952

تأمّلات في العيد

لَمَّا أقبل العيد.. أخذ النّاس يتهافتون على شراء الهدايا للأحباب والأصدقاء. فالحوانيت كبراها وصُغْراها تعجُّ بالشارين.. بل الأصح أنْ نقولَ بالشاريَات.. فإنَّ الوَقْت يظلُّ غالياً ثميناً عند المرأة حتى يخطر لها أنْ تشتريَ سلعة ما. فإذا هي تنفقُ الوَقْت بلا حساب كما ينفق البَحْريّ السكران نُقوده..

إنَّ السيّد المسيح عليه السَّلام عندما جاء إلى هذه الدُّنيا جاء لكي يوقظ الإله النائم في الإنسان. وينفخ مِنْ جديد روحاً ساميَة في هياكل الطِّين.

ما جاءَ المسيح عليه السَّلام ليعلِّم النّاس كيف يأكلُون ويشربُون ويلبسُون. بل جاء لكي يعلّمهم

كيف يحبّون. وكيف يغفرُون وكيف يصفحُون وكيف يرحمُون..

جاء عليه السّلام لكي ينقذ الإنسان مِنَ البغض. لأنَّ البغض سمٌّ الروح. ولكي يحرّر الإنسان مِنَ الطمع لأنَّ الطمع كالجواد الشرس الجمُوح لا يأمن صاحبه أنْ يطوّحَ به في مهواة[1] أو أنْ يرميَه أرضاً ويدوسه.

جاء عليه السّلام لكي يقضي على الحواجز والسُّدود بين البشر ويمزّق أغشية الجهالَة المنسدلَة على قلوبِهِم وعقولهم لعلَّهم يدركُون الحقيقة الواقعة وهي أنَّ الإنسان أخو الإنسان. بقطع النَّظر عن الجنس واللون والوطن.

لهذا مِنْ غير الخطل أنْ يقال أنَّ العيد ليس في شراء الهدايا وإنْ كانَتْ غالية وليس في لبس الثياب الجديدة وإنْ كانَتْ مِنْ خزّ وديباج. ولا في الأضواء الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء المتألّقة في نوافذ البيوت وواجهات المخازن ولا في الأشجار الخضراء التي تُنصَب في البيوت وتجلى كما تجلى العرائس.

لا، وإنَّما هو شعُور ينبثق في النَّفس كما ينبثق الفجر فتظهر الأشياء والأحياء كلُّها جميلة وكلها جديرة بأنْ تُحَب.

فهل هذا الشعُور هو الذي يختلج في قلوب النّاس كلهم؟ إنَّنا نخاف أنْ نجيبَ بالإيجاب كما إنَّنا نخاف أنْ نجيبَ بالنفي؟ ففي حياة كُلٍّ إنسان لحظات يرتفع فيها إلى الملأ[2] الأنور. ولكنَّها لحظات كومضات البرق لا تلبث إلاّ قليلاً ثم تختفي. ويرجع المرء إلى الأرض لِيلصقَ بها أو تلصقُ به.

إذن فهو قادر على أنْ يكونَ أرفع ممّا هو وأسمى. ولكنَّه يطمُس شعلَة الألوهيَّة التي فيه بأغطيَة الجهل والطمع والنزعَات الحيوانيَّة. فإذا به يبحثُ جاهداً عن النقائص في النّاس فيجدها! ويتصوَّر القبح فيهم فإذا هم كما يتصوَّر. ويصير أميَلَ إلى الشَّرّ والأذى. ويصبح شأنَه كشأن ولد عطشان وصل إلى غدير صافٍ فغاص فيه برجلَيْهِ فلمَّا تعكَّر رجع عنه يشكُو أنَّه ماء عكر لا يصلُح للشُّرْب.

وعلى الجملة إنَّ الإنسان يرى الدُّنيا جميلَة إذا أحبَّ هو أنْ يراها جميلَة. وفي وُسْعِه أنْ يراها دَميمَة قبيحَة. فعلَيْه أنْ يختار ما يحلُو له.

ويجدر بكُلِّ إنسان في غَمْرة العيد أنْ يفكِّرَ كيف يمكنه أنْ يجعلَ كُلَّ يوم مِنْ أيامِه جميلاً بَهِجاً[3] كيوم العيد. وأنْ يسعَى في الأيّام الأخرى للترفيه عن الأرواح المضنُوكَة مثلما يسعى في الموسم. فتحسن الدُّنيا في عينَيْهِ ويحسن هو في عين الدُّنيا.

السّمير: 23/ 12/ 1952

---

1 المَهْواة: الهواء الجو كالمَهْواة والهُوَّة والهاوية.

2 المَلأ: الجماعة وهو الخُلق أيضاً وجمعه أمْلاء.

3 بَهِج به فرح وسُرَّ وبابه طَرِب فهو بَهِجٌ بكسر الهاء وبهيجٌ.

غيمة تنقشع

لم تصدر «السَّمير» طيلة الأُسْبوع الفائت.

ولم يكن إصدارها ممكناً.

ولذلك سبب واحد وهو أنَّ الأنفلونزا التي اجتاحَتْ المدائن والقرى عرَّجَتْ على «السَّمير» فأقعدَتْ اثنين مِنْ عمَّالِها في الفراش وكادَتْ تقعد الثالث. وقد حاولْنَا أنْ نطبعَ «السَّمير» في نيويورك كما فعلْنَا مِنْ قبلُ عندما انكسرَتْ المطبعَة فإذا بنا نحتاج في طبعِها في نيويورك إلى أيدٍ عاملَة أكثر ممَّا لديْنَا. وأكثر ممَّا نقدر الحصول عليه..

واهتدَيْنَا إلى مطبعة في بروكلن فابتهجنَا بالعثُور عليها كما ابتهجَ كولمبوس عندما ظهرَتْ اليابسَة.. ولكننَّا عندما أردنا الإتفاق مع صاحبِها تكاثرَتْ مطالبه وشروطه وتمادى في وضع العقبَات والعراقيل فلم يكن في طاقتنا الإتفاق معه إلاَّ إذا رهنَّا المطبعة والإدارة والبيت والأرواح.

ولعلَّ الرجل لم يكن لديه الوسائل الكافيَة لطبع جريدة يوميَّة وكبُرَ[1] عليه الإعتراف بالأمر الواقع فتشدَّد وتعنَّت.. لكي يخرجَ مِنَ المساومَة غير مفتضح..

نحمدُ الله أنَّ هذه الأزمة لم تطل. فقد شُفِيَ المرضى وعادُوا إلى الإدارة والمطبعَة لوصل ما انقطَع.

وإنَّ في ما حدث مجالاً للتفكير واستخراج العظَات. فما حدث في حياة الإنسان أزْمة إلا وجَنَى منها فائدة. بل ربَّما كانَتْ هذه الأَزمة ذاتها ضروريّة لحياتِه. ولعلَّ هذه العوارض التي تصيب المرء مِنْ رشح أو أنفلونزَا أو جرْح أو كسر أو ما شاكَلَ مِنَ الآفات لازمَة له لكي ينقطع عن العمل قليلاً فتهدأ أعصابه ويستريح جسمُه ولا سيَّما في مجتمع صخَّاب مُتدافع كالبَحْر الهائج.

ولقد قال الفيلسُوف نيتشه: «كلّ مُصيبة تصيبني ولا تقتلني فهي قوَّة لي». وإذا نحن تذكَّرنَا أنْ لا فَجْر بلا ليل. وأنْ لا ربيع بلا شتاء. سَهُلَ علينا أنْ نستقبلَ اللَّيل والشتاء مهما دَجا[2] الأوَّل وقسا الثاني بقلُوب مطمئنَّة واثقة مِنْ أنَّ اللَّيل مقدَّمة لكتاب لا كتاب. وأنَّ الشِّتاء العابس المُتجهِّم الواقف بالباب يجرُّ خلفه الرَّبيع الضاحك الطروب.

وممَّا تحقَّقناه في هذا الأُسْبوع أنَّ «السَّمير» عزيزة على قلُوب قرَّائِها فقد كثر السائلُون المُستفسِرُون وسرَّهم أنْ ليس هناك غير غَيْمة ضئيلَة مؤذنة بالإنقشاع.

فنحن اليوم نسوقُ شكرنا المُتناهي إلى أنصارِنا الأوفياء. ونأسف أنَّ ما حدث لم يكن في قدرتِنَا

---

1 وكبُرَ عليه الأَمر شَقَّ وثَقُلَ.

2 الدُّجَى الظُّلمة ودجا اللَّيل أَظلم قال الأَصمعي: دجا اللّيل إنما هو أَلبَس كُلَّ شيءٍ وليس هو من الظُّلْمَةِ.

الحؤول دون وقوعه. ونحمَدُ الله أنَّ وطأة الأنفلونزا في هذا الموسم كانَتْ غير ثقيلَة على النّاس وأنَّ الطب كان أقدر على صدِّها وتخفيف أذاها.

السَّمير: 9/ 2/ 1953

النِّسيان ـ نِعمة أم نِقمة؟

يسعد الإنسان ويشقى على مِقْدار ما يتذكَّر الأمور الجميلة المبهجَة أو الأمور الكريهَة المُزعجَة ـ إذن فليس النِّسيان في ذاتِه نعمة ولا نِقْمَة ولكنَّه يصيرَ نعمة كبرى إذا أحسنَ المرء نسيان المساويء والمصائِب ومحَا مِنْ صفحة ذاكرته الصور البغيضَة إلى نفسِه سواءٌ[1] كانَتْ صور حوادث أم صور أشخاص.

أمَّا كيف يصير نِقْمَة[2] عظمى وطامة كبرى[3] فهو عندما يعجز الإنسان عن نسيان خسارة أصابتْه في مالٍ له أو متَاع[4] أو عقَار[5] فيقضي الوَقْت يتذكر تلك الخَسارة وكُلَّما تذكر تلهَّف وتحسَّر فإذا بالخَسَارة تتضاعفُ وتتكرَّرُ كلَّما عاودَتْه ذكراها.

إنَّ الإنسان العاقل هو الذي لا يَنْسى عند إقبال الدُّنيا عليه أنَّه كان قبل اليُسر في ضَنْكٍ وعُسْر. لأنَّه إذا نسيَ نفخ في نفسِه شيطان الغرُور فإذا به يهزأ بالمُعسِرين مِنَ النّاس أو يتكبَّر على غير الموفَّقين المحظوظين في الحياة. فيخلُق في نفوسِ النّاس منه اشمئزازاً وفي عيونِهم عنه ازوراراً. وفي قلوبِهم نِقْمَة على كُلِّ مغرُور مثله حديث العهد بالغِنى.

إنَّ النِّسيان نعمة كبرى للمحزُونِين فلولاه لما تضاءلَتْ مُصيبَة. ولا صَغُرَتْ رزيئة[6] ولا خفَّ خَطْب[7].

وهو نقمَة فادحَة عندما ينسى الإنسان جميلاً أسدِيَ إليه. وصديقاً حَنَّ علَيْه. ورفيقاً كان به برّاً شفيقاً..

وهو كارثة عندما ينسى المرء الوطن الذي أنبَتَه والأمَّة التي لحمه لحمها ودمه دمها. فيصير كلَّما ذكر الوطن الذي جاء منه أبوه وأمُّه يتضاحكُ ساخراً لأنَّ ذلك الوطن ليس في مرتبَة الولايات المتحدة قوَّة وعظَمَة ورقياً ومساحةً وسُكّاناً..

---

1 سواءٌ أي عَدل ووَسط فيما بين الفريقين وهما في هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان.

2 وانتقم الله منه عاقبه والاسم منه النَّقِمَة والنَّقْمة المكافأة بالعُقوبة.

3 الطَّامة الكُبْرى: الطَّامة الدَّاهية تفوق ما سواها.

4 المَتَاع: المَنْفعَة والسِّلعَة والأدَاة وما تمتَّعت به من الحوائج ج أَمتِعَةٌ.

5 العَقَار: كُلّ مِلْكٍ ثابتٍ له أَصْل كالأَرْض والدَّار.

6 الرزيئة: المصيبَة.

7 الخَطْب: سبب الأمر تقول ما خَطْبُكَ.

وإذا حضر حفلة غناء عربيّة رأيته يتقزّز كأنّما يَشُمُّ رائحة كَريهة. متظاهراً بأنَّ له في الموسيقى والغناء ذوقاً رفيعاً.. ويكون أبوه في البيت يترنَّحُ على صوت العُنَيْز [1].. بل يكون هو ذاته لم يحضر في حياتِه كُلِّها حفلة غناء عربيّة ولا افرنجيّة...

إنَّ هذا النَّاسي أصله والنَّاسي ذاته أيضاً ربَّما كان يتوهَّم أنَّه يفعل حَسناً غير أنَّ النَّاس الذين يعرفونَه ويعرفُون كيف كانَتْ حياتُه مِنْ قَبْلُ وما هي حياتُه الآن لا يتوهَّمُون بل يعتقدُون أنّه لا يحتقر الفَنَّ بل يُهِين ذاته.

النِّسيان. يا له مِنْ بَرَكَة.. إذا انسدَلَ سِتْرُه [2] على عَيْب أو هفوة [3] أو إساءة.

ولكنَّهَ آفة [4] كبرى إذا محَتْ يده حسنَة وطوَتْ فضيلَة وغطَّتْ مأْثُرَة [5]. وكفَّنَتْ جمالاً.

فأنتَ ترى أنَّ الإنسان إذا عرف كيف ينسى وما يَنْسَى كان النِّسيان نِعْمَةً عظيمَة.

أمَّا إذا لم يعرف كيف ينسى ولا ما ينسى فإنَّه بالطَّبع [6] سيظلُّ في صُحْبَة الآلام والهمُوم والمتاعب والذكريات المُزعجَة

فاعْرِف كيف تنسى.

واعْرِف ما ومَنْ تنسى.

السَّمير: 17/ 2/ 1953

آفة يجب أنْ تزول

مرَّت بالصحافَة العربيَّة في المهجر فترة مِنَ الدَّهر كان البعض يستخدمونَها بدلاً مِنَ الرسائل. أو بالأحرى يجعلُون مِنْ صفحاتِها رسائل خصوصيَّة. فإذا وُلِدَ لأحدهم مولود أسرع أخوه أو حَمُوُه [7] أو نسيبه أو جاره إلى توجيه رسالة إليه على صفحات الجريدَة على النَّمط [8] التالي:

---

1 العَنْز الماعِزة وهي الأنثى من المَعْزِ ج عُنُوز.

2 السِّتْر السِّتار.

3 الهَفْوَةُ: الزَّلَّة.

4 الآفَة: العاهَة أو عَرَضٌ مُفْسِدٌ لما أصابَهُ.

5 المأْثرَة المكْرُمة لأنّها تؤثر يذكرها قَرْنٌ عن قَرْنٍ.

6 الطَّبع والطبيعة والطِّباع السَّجيَّة والطَّبع المِثال والصِّيغة تقول اضْرِبْه على طَبْع هذا.

7 حما المرأة أبو زوجها وحماتُها أُمُّه وحما الرَّجل أبو امرأته وحماته أُمُّها جمع حَمَا أَحْماء وجمع حماةٍ حَمَوات. حَمُو المرأة أبو زوجها.

8 النَّمَط: بفتحتين الجماعة من النَّاس أمرهم واحد والطَّريقة والنَّوع من الشيء.

«أهنيء ابن عمّي أو نسيبي وقرينته بالمولُود الجديد الذي أنعمَ الله به عليهما إلخ...».

وإذا تُوُفِّي أحدهم تكرَّرَتْ الحكاية ولكن بالتعزيَة بدل التهنئة.

وقد يكون المُهنيء أو المعزِّي صاحب الرسالة المنشُورَة في الجريدة مقيماً والشخص الذي يهنئه أو يعزِّيه في شارع واحد بل في بيت واحد. تحت سقف واحد.

تلك فترة في حياة الصَّحافة المَهْجَرِيَّة لم يكن لنا بُدٌّ[1] مِنَ المرُور فيها إذ لم يكن للصِّحافة في ذلك الدَّور أهداف بعيدة ولم يكن الجمهُور يتطلَّب مِنَ الجريدة أنْ تكونَ لها أهداف بعيدَة.

وأخذَتْ الشُّئُون تكرُّ بأَصباحها وأَمسائها وأَحزانها وأَفراحها. فارتقَى المهاجِر وصَلَحَ[2] عيشُهُ فصار بيتُه أجمل. وصار نَمطُ[3] حياتُه أفضل. وصارَتْ طريقته في التِّجارة أتمَّ وأكْمَل. وبالطَّبع شملَ الإرتقَاء والتَّحسُّن جميع أموره وكانَتْ للصِّحافَةِ حصَّتُها مِنْ هذا التقدُّم والتحسُّن. ولعلَّ شيئاً مِنَ التأثير ـ شيئاً كثيراً أو قليلاً ـ كان لرجَال الفكر الذين استعانُوا بالجرائد على نشرِ مقالاتِهم الإنتقاديَّة الإصلاحيَّة للكثير مِنَ العادات التي حملها المهاجرُون معهم ولا تَنْسَجِم مع المحيط الذي يعيشُون فيه.

وعندنا أنَّ تلك السخافَات التي رافقَتْ الصَّحافة في طفولتِها هي أهون ضرراً وأخفُّ مَحْمَلاً[4] على الطَّبْع[5] مِنَ الشوائب[6] التي نراها في بعض الجرائد والمجلات التي تصدر في لبنان ومصر. فهناك لا يهنئونَ ولا يعزُّون على صفحات الجرائد ولكنَّهم يتغزَّلُون ويبثُّون لواعجهم ويشرحُون عذابَهُم في الحُبِّ على صفحات الجرائد وربَّما كان العاشق المفتُون والمُحِبُّ الهائم مقيماً على بضع خطوات مِنَ التي يتغزَّلُ بها في الجريدة أو المجلَّة. فبماذا تفسِّر هذه الظَّاهرة أيها القاريء؟

نحن لا نقدر أنْ نردَّها إلى شيء إلاّ الجُبْنُ[7] المَقْرُون بالحَمَاقة[8] أو البَلَه[9]..

وأيَّة حماقَة أعظم منْ أنْ يَجْبُنَ المَرءُ عن مكاشفة شخص واحد بما في نفسِه. فيعمدُ إلى تَصْوير شعورِه على الورق ثمَّ نشره على الملأ[10]. ليعلن للنّاس أنَّه عاشق!! وأنَّ العِشْق قد أنحَلَ جسمه فهو

---

1 البُدُّ النَّصيب من كُلِّ شيء والعِوَض ويقال لا بُدَّ منه: لا مَفَرَّ ج أَبداد وبِدَدَة.

2 صَلَح الشيء صلاحاً كان نافعًا أو مُناسِباً.

3 النَّمَط الطريق والنَّوْع من الشيء.

4 مَحْمِلاً: المَحْمِل الهَودَج الزَّنْبيل الذي يُحمل فيه العنب ونَحْوُه ج مَحامِل.

5 الطَّبْع الصِّيغة والمِثال.

6 الشَّوائب: الشائبة الشيء الغريب يختلط بغيره ويقال ما فيه شائبة ليس فيه شُبْهَة والدَّنَس والقَذَر ونحوهما.

7 الجُبْن: صِفه الجبان وقد جَبَن الرَّجُل يَجبُنُ بالضَّمِّ جبناً فهو جبان.

8 الحَمَاقة: الحُمْق قِلَّة العَقْل.

9 البَلَه: بَلِه بَلَهاً وبَلاهَةً ضَعُفَ عَقْلُهُ وغلبت عليه الغَفْلة فهو أَبله وهي بَلْهاء ج بُلْهٌ.

10 الملأ الجماعة من النَّاس.

خَيال. وزرع الجَمْر في مضجعِه فهْوَ لا ينام. وأنساه نَفْسه فهْوَ لا يأكل ولا يشرب ولا يدري أهو في الأرضِ أم في عالم مجهُول...

ولكنَّه بعد أنْ تنشُرَ الجريدة شكواه يَفِيق مِنْ جنونِه ويمضي يتباهَى بأنَّ مقالَه لم تنشره الجريدة لو لم يكن تحفة أدبيَّة نفيسة!!

وعمله هذا بُرهانٌ واضح على أنَّ العِشقَ لم يدخل قلبه. وأنَّه كان يتصنَّع [1] الهَوى ويتكلَّفَه [2] وأنْ لا وجُود للتي يتغزَّل بها ويشكُو هَجرها وظُلمها!!

متى تتخلَّص الجرائد مِنْ هؤلاء المُوسَوسِين لِتُريحنا منهمُ وتستريح؟!

السَّمير: 26/ 2/ 1953

لماذا؟...

ما مِنْ مهاجِر ولا ابن مُهاجر سواءٌ أكان متعلِّماً أم غير متَعَلِّم. وصاحبَ متْجر أم صاحب حِرْفة. وغنياً كبيراً أم فقيراً مُعْدِماً [3] إلاّ وتَنْتصب في ذِهْنِه علامة الإستفهام عندما يدور الحديث عن النّاس في الأوطان القديمَة وما هم فيه مِنْ شِقَاق واختلاف في أمور وقضايا لا يُفِيدُ في حلِّها وتسييرها إلاّ نَبْذُ [4] كُلِّ سبَب يدعو إلى الخلاف.

إنَّ الباعث من جانبنا على هذا التساؤل هو الرَّغبة الصَّحيحة عند المتسائلين في أنْ يَروا أمّتهُم يَشِدُّ [5] بعضها بعضاً كالبنيَان [6] المرصُوص لكي تستطيع أنْ تنهض كما نهضَتْ الأُمَم. وأنْ تصمدَ للطواريء كما تصمُدُ الأمَم المُتضامنَة المُتكافلَة في السرَّاء [7] والضرَّاء [8].

ولَكِنَّ هذا المُتسائِلَ سَواءٌ كان مُهاجراً أم مقيماً ينسى أنْ يسأل نفسه لماذا لا يتَّفق مع جاره وابن وَطنه. ولماذا يختلف وإيَّاه على أمُور تافهَة. ولماذا يشدُّ به إلى الوراء كلَّما أراد أنْ يسيرَ إلى الأمام بفكرَة أو مَشْروع يلمح الخير في تحقيقِه؟

---

1 تصنَّعَ تظاهر بما ليس فيه.

2 تكلَّف تعرَّض لما لا يعْنيه.

3 المُعْدِم: وأعْدَم الرَّجُل فهو مُعْدِم وعديمٌ.

4 نَبَذَهُ ألْقاهُ.

5 شدَّ عَضُدَه قوَّاه.

6 البُنْيان: ما يُبْنى.

7 السَّرَّاء النِّعمة والرَّخاء والمَسرَّة.

8 الضرَّاء: الشِّدَّة كُلّ حالَةٍ تضرُّ.

لماذا؟ أجل. لماذا؟ إنَّ الأسباب التي حالَتْ وتحولُ دون قيام جمعيَّة شاملَة للمُهاجرين في أميركا هي نفس الأسباب التي حالَتْ وتحولُ دون قيام إتحاد عام ثابت الأسس بين الشعُوب العربية أو بين سكان البلدان العربية.

وليس الذنب على أحد. بل هو ذنب الأجيال التي تعاقبَتْ على هذه الشعُوب وهي تَرْسُفُ[1] في أغلال الخُرافَات والأوهام وتتخبَّط في مستنقعَات الجهل الذي يجعل مِنَ الإنسان مُتعصِّباً حاقداً على أخيْه الإنسان. لأنَّه لا يَلْبَسُ مثل ما يَلْبَس. ولا يأكل كما يأكل ولا يعبُدُ ما يعبُد. أو لأنَّه ليس مِنْ قريته ولا قبيلته ولا مَذْهبه.

أمَّا الخير الذي يَنْجُمُ[2] عن تعاونِ الفرد مع الفرد وتضامُن الجماعَة مع الجماعة. والبلد مع البلد. فلا يستطيع الجهلاء أنْ يروه لأنَّه غير حاصل ولا ماثل لعيونِهم ويستحيل عليهم أنْ يتصوَّروا حصوله مُمْكِناً. أو أن يصدِّقُوا القائلين بأنَّه أمر مستطَاع. بل ربَّما اتَّهمُوا هؤلاء القائلين في عقولِهم ووصمُوهُم بالغبَاوة والبلَه. هذا إذا لم يرشقُوهُم بكُلِّ كلمة مهينَة وتهمة جارحة.

ذلك لأن أرواحهم وقلوبهم لم تتطهَّر مِنْ شوائب[3] الأجيال السَّوداء. أو الأَدْران الموروثَة فهم يخافُون كُلَّ سعي في سبيل التَّفاهم والتَّقارُب مثلما يخاف الأرمد أنْ يواجهَ الشَّمْس. وما دام الرَّيْب[4] والشك والخوف وسوء الظن مُستحوذاً على عقولِهم. وهي كامنَةَ كالثعابين وراء أقوالهم وأعمالهم فسوف يظلُّ أمرهم بدَداً[5] وكلمتهم مُتفرِّقة. وقواهم مُبعثرة.

وستظلُّ هذه الكلمة «لماذا» تنطلقُ مِنْ كُلِّ فم.

السَّمير: 6/ 3/ 1953

الفجر الجديد

منذ تِسْعَةَ عَشَر قرناً وبعض القرن إندفقَ على الدُّنيا فجر جديد يختلفُ عن كُلِّ فجر مَرَّ بالأرض. أطلَّ على الدُّنيا لكي يملأها حُبّاً وإخاء وسلاماً ويفيضَ في قلوب سكان الأرض رضًى وإيماناً وحبوراً.

كان كثيرون بلا عيُون فخلقَ لهم هذا الفجر الجديد عيوناً تنفذُ إلى الخفايا. وخلقَ لأصحابِها

1 تَرْسُف: رَسَفَ تَرْسُفُ مشى مَشْيَ المُقيَّد.
2 نَجَمَ الشيء طَلَع وظَهَرَ.
3 الشائبة الشيء الغريب يختلط بغيره ويقال ما فيه شائبة ليس فيه شُبْهَة والدَّنَس والقَذَر ونحوهما.
4 الرَّيْب: الشَّكُّ والإسْم الرِّيبة وهي التُّهْمة والشَّكّ.
5 البَدَدُ: جاءَت الخيل بَدَداً بدداً متفرِّقة.

أَجْنِحةً ارتفعُوا بها عن الحضيض [1] وطارُوا بقوَّتِها مِنْ أرْوِقة الظَّلام وكهوف العَتْمَة. وعميت عيون كثيرة عندما اندفقَ عليها هذا الفجر المُتوهِّج لأنَّها عيون مِنْ تراب لا يُشْبعها ولا يَرْوِيها إلاّ التُّراب. وكَرِه الخَفافيش [2] هذا الفجر ولم يستطيعُوا الفرار منه لأنَّه في كُلِّ طريق فحاولُوا أنْ يَطْمسُوه وأنْ يلاشُوه فغيَّبُوه في القبر فإذا القَبْر يتحوَّلُ إلى سماء وسيعَة رحيبَة وإذا التُّراب الذي في القبر يتحوَّل كلّه إلى منابع للنُّور!

منذ تسعة عشر قرناً وبضع سنوات مات على الصليب في أرض أورشليم إنسان لكي يعلِّم النَّاس كيف تكون التضحية في سبيل الغير. وفي سبيل الفكر. وفي سبيل الرُّوح.

مات لكي ينتصر على الموت وسلَّم ذاته إلى القَتَلَة لكي يسجِّلَ عليهم إلى الأبد أنَّهم كانُوا لا يدرُون ما يصنعُون.

مات إنساناً بأيدي ناس لكي يُبْعَثَ مِنَ القبر إلَـهٌ بقوَّة ليستْ معهُودَة في أيِّ إنسان وليسَتْ لغير إله.

وها هو العالم كلَّما اقتربَتْ ذكرى يوم الصَّلْب تراءَتْ له صور المحبَّة والنُّبْل والعَفْو والرَّحمة ماثلَة في أقوال النَّاصريّ وأعماله. وتراءَتْ إلى جانبها صور كريهة دميمَة للبشريَّة الجاهلة الأُفعوانيَّة [3] النَّزَعات [4] الذِّئبيَّة [5] النَّزَوات [6]. وللمجتمع الأحمق المُستعبَد للتَّعصُّب الذميم المُتخبِّط في أشراك البَهيميَّة.

إنَّ أولئك النّاس المرضى القلُوب والعقُول لا يزال مِنْ سلالتهِم [7] في الأرض خلقٌ كثير. قد يكونُون في الحَيِّ الذي تَسْكنُهُ. أو معك في حانوتِك أو مكتَبِك أو معمَلِك أو في مزرعتك وحَقْلِك.

ربَّما كانُوا في الصَّحافَة أو الصِّناعَة أو المعاهد العِلْميَّة.

بل ربَّما كانُوا رؤساء وملوكاً ووزراء وسفراء وكتَّاباً وحجَّاباً.

بل ربَّما كانُوا حتى مِنْ رجال الدين الذين يحتفلُون في هذه الفترة بتذكار الصَّلْب والقبر والقيامة.

فليس كُلُّ المُنتَمِين إلى ربِّ العيد يعملُون بتعاليمِه السَّاميَة. بل الذين يعملُون بها قلَّة ضئيلَة في

---

1 الحضيض: القرار في الأرض ج أَحِضَّة وحُضُضٌ، والقرار المستقِرّ.

2 الخُفَّاش حيوانٌ ثَدْيِيّ قادر على الطَّيران ولا يطير إلاّ في اللّيل.

3 الأُفْعُوان ذكر الأَفاعي والأَفْعى حيَّة من شرار الحيَّات رَقشاء دقيقة العُنُق عريضة الرَّأس قاتلة ج أَفاعٍ. والأُفْعُوانِيّ نِسْبةً إلى الأُفْعُوان.

4 النَّزْعة: ونازَعَتِ النَّفْسُ إلى كذا نِزاعاً اشْتاقت.

5 الذِّئْب: حيوان من الفصيلة الكلبيَّة ورتبة اللَّواحِم يُسمَّى كَلْب البَرِّ ج أَذْؤُب وذئَاب وذُؤبان. والذِّئبيَّة نسبة إلى الذِّئْب.

6 النَّزْوَة: نزا وثب وبابه عَدا ونَزَواناً أيضاً بتفحتين.

7 السُّلالَة ما اسْتُلَّ من الشيء وانْتُزِعَ والنُّطْفَة وجماعة من الكائنات الحَيَّة تتفِق في صفاتِها العِرْقِيَّة المورُوثَة.

الأرض لأنَّ الحيوانيَّة لا تزال غالبَة على البشر حتى في هذا العصر.

مع ذلك لا يزال الفجر الذي انبثقَ واندفقَ منذ تسعة عشر قرناً يتجدَّدُ في كُلِّ يوم فكأنَّه انبثقَ واندفقَ الآن!

إذا احتفلْتَ أيها الإنسان غداً بعِيد قيامَة المسيح فاحتفل به بروحِك وعقلك وقلبك لا بارتداء الملابس الجديدة وترديد التهانيء المألوفَة فحَسْب..

إنزع مِنْ نفسِك الغرائز الحيوانيَّة وحرِّرها مِنْ أدران التُّراب تحدث أعجوبَة القيامَة في داخلِك وتصبح الدُّنيا كلُّها عندك نوراً وحبُوراً.

السَّمير: 3/ 4/ 1953

أصحاب فضل على العالم

تدورُ في لبنان أغنية لا مُردِّدُوها يتعبُون مِنْ ترديدها ولا هي شيء له نهاية. على ما يبدو!

هذه الأغنية التي تتراقص على أقلام الكتَّاب وتموجُ بها قصائد الشعراء. وتمتدُّ وتتطاولُ في الأزجال والعتابا هي: «إنَّنا أصحاب فضل على العالم» لأنَّنا أعطيناه الحرف وعلَّمناه صناعة الزّجاج والأصباغ. والملاحة..

وإنَّه لشيء ضروري لكُلِّ شعب أن يكون له في تاريخه ما يتباهَى به ويفاخِرُ الشعُوب الأخرى. فإذا لم يكن له هذا الشيء وجبَ عليه أنْ يبتدعَه ويوجده وأنْ يتغنَّى به في الآصال والأسحار حتى يصير عنده كأنَّه كان قبل كُلِّ وجود. فإنَّ ذلك ممَّا يملأ النَّفس شعُوراً بالعِزَّة والكرامَة. غير أنَّنا ونحن نُنْشِدُ هذه الأغنية كلَّما أردنَا أنْ «نشنف» آذاننا يَخْلُقُ[1] بنا أنْ نتذكَّر فضل العالَم علينا وأيادِيه الكثيرة عندنا فهو الذي أعطانَا الكهرباء والتلغراف والراديو والمَطْبعة والدرَّاجة والقطار والسيّارة وموقد الغاز والكهرباء وأعطانا آلات الجراحة الطبِّيَّة والعقاقير المختلفَة لمكافحَة الأوبئة والأمراض.

وأعطانا ألف اختراع واختراع ولا يزال يُعْطينَا ولا نزال نأخذ منه وعنه.

وهذا العالم الذي نترنَّمُ دائماً بأنَّنا أصحاب فضل عميم عليه هو الذي يبعثُ إلينا بالخبراء الإقتصاديِّين والفنيِّين والصّناعيّين لكي يعلِّمونَا كيف نزيد نتاج الحقل. وكيف نستخرج الكنُوز المدفونَة في جوف الأرض. وكيف نربِّي الطفل وكيف نرتِّب البَيْت؟.

بل نحن نأخذُ عن هذا العالم الذي نَمُنُّ[2] عليه كُلَّ شيء حتى جوارب النَّيْلُون ومُشْعلات السَّكاير

1 خَلُق فلانٌ بكذا وله خلاقَةَ جَدُر فهو خليق.

2 ومَنَّ عليه أَنْعَمَ.

وأقلام المِداد [1].

وليس هذا فقط بل نحن نأخذُ عنه النَّظريّات الفلسفيّة والعقائد السّياسيّة وطرائق الحكم ونقلِّدُه في اللِّباس والشراب والمشي والحديث.

وما نفاخر به عن غيرنا فهو ليس لنا. إنّه لسوانا لأناس كانُوا في هذه الدُّنيا ورحلُوا عنها منذ قرُون. ولعلّنا لا يحقُّ لنا أنْ ننتمي إليهم.

أفليس مِنْ أصالة [2] الرأي وحسن الذَّوق أنْ نسألَ هؤلاءِ المفاخرين بالأجداد لكونِهم قد اخترعوا الحرف وصنعوا الزّجاج مِنْ أينَ عَرَف إذاً الصِّينيُّون القُدماء صناعة الزُّجاج والتَّصوير والنَّسيج العجيب؟ وكيف عرف الهنُود في الأزمنة الغابرة أنْ يشيّدُوا تلك القصُور التي تدلُّ على مقدرة فنِّيَّة وهندسيَّة فائقة؟

أمّا الفِكْر فما نظنُّ أنَّ في الدُّنيا فلسفة تخلُو مِنْ أثر هندي أو صيني.

علينا لكي يَقْبَلَ منّا النّاس فَخْريَّاتَنا هذه أنْ نفعلَ نحن شيئاً يثبتُ أنَّنا أبناء أولئك النّاس الذين ذلَّلُوا البَحْر بالسُّفن وصنعُوا الزجاج والبرفير واخترعُوا الحرف!

فماذا فعلنَا حتى الساعة غير ترديد هذه اللازمَة [3]!!

السَّمير: 9/ 4/ 1953

على المكشوف

حديثنا اليوم عن أفراد قلائل يوجدُ مثلهُم في كُلِّ مجتمع لأنَّ الطبائع البشريَّة واحدة في كُلِّ الشعُوب. لذلك لا غضاضة [4] علينا إذا كان في مجتمعنا فئة مِنْ هذا الصَّنف.

أيَّة شجرة لم تَعْرِشْ [5] عليها الحشرَات

أيُّ بستان خلا مِنَ الأشواك؟

لهؤلاء الأفراد القلائل أثر في دفاتر التجّار وأصحاب الحوانيت والصَّحافيِّين بل في دفاتر الأنسباء

---

1 المِدَاد: النِّقسُ نقول منه مَدَّ الدَّواة وأَمَدَّها أَيضاً. والنِّقس بالكسر الذي يكتب به وجمعه أَنْقُس وأنقاس نقول منه نَقَّس دواته تنقيساً. والنِّقْس هو ما يعرف بالحِبْر في عصرنا الحَاضِر.

2 الأَصالة: ورجل أَصيل الرَّأي أي مُحْكَم الرَّأي وقد أَصُلَ من باب ظَرُف.

3 اللاَّزِمة عادةٌ فعليَّة أو قوليَّة تلازم المَرْءَ فيأتيها فتصدر عنه دون إرادةٍ ولا شُعور.

4 الغَضاضة: العَيْب يقال لا غَضاضَة عليك في هذا العَمَل.

5 عَرَش: العَرِيش عريش الكرم وهو أَيضاً خيمة من خشب وثُمَام والجَمع عُرُش. وعَرَش يَعْرِش ويَعْرُش بنى عَرِيشاً.

والأصدقاء.

إنَّهم الحلميَّات [1] البشريَّة التي تعيش على غيرها. فَمِنَ المحتُوم أنْ يكونَ لهم في كُلِّ دفتر أثر وأنْ يكون هذا الأثر شيئاً لا يشكر. فبعض النّاس يهمُّهم أنْ يتحدَّث بهم الخلق كيفما كان. وحيثما وجدْتَ إسماً مِنْ أسماء هؤلاء في أيِّ دفتر وجدْتَ إلى جانبِه نقطة سوداء دلالَة على أنَّه مِنَ القوم المُنافقين. أو أنَّه كان حيّاً فصار مِنَ الهالِكين.. وإذا لم تكن هناك نقطة سوداء فلا بُدَّ أنْ تكونَ إلى جانب الإسم سطُور حمراء كالمصابيح التي تُرفَعُ في الطَّريق للتَّحذير مِنْ خَطَر.

مِنْ هذا الفريق رجلٌ هبط السوق التجاريَّة وراح يدُور فيها باحثاً عن تاجر يفتح له حساباً ويقيِّد له إعتماداً فقيل له: إنَّ في السّوق تاجراً جديداً يهمُّه كثيراً الحصُول على زبائن فاذهب إليه. فهزَّ المحتال برأسِه استنكافاً ولم يلبث أنْ فاض ما في قلبِه على لسانِه إذ قال:

هذا الذي ذكرتمُوه لي تاجر صغير ليس له غير زبائن معدُودين. أمَّا أنا فأريد أنْ أتعاملَ مع بيت تجاري كبير كثير الزبائن لعلَّ اسْمِي يضيع في دفاتره!

وأكثر هؤلاء النَّصَّابين يميلُون إلى الفخفخَة ويتظاهرُون بالسَّخاء ولهم في التقرُّب مِنْ فرائسِهِم طرائق وأساليب شتَّى [2]. نعرفُ واحداً منهم كان كلَّما جاء إلى نيويورك يقيم الولائم في المطاعم فيُخيِّل للنّاس أنَّه مِنْ ذوي الثراء وأنَّه خليفة حاتم طَيِّ في الكرم. لأنَّهم يجهلُون أنَّ هذا المُسرف المُتلاف كان قبل كُلِّ وليمَة يستدِين مِنْ أحد التُّجَّار ما يُعينه على دفع المصاريف!

كان لهذا الرجل بعض المال فأضاعه وكانَتْ لبعض التجار به ثقة فتبدَّدتْ.. وهو الآن لا يستطيع أنْ يستدينَ ليأكل. ومع ذلك لا يزال ينتفخ كالضِّفْدَع [3] ويزدهي كالطّاووس [4] لأنَّ جريدة خبيثة ضحكَتْ عليه مرة ودعتْه زعيم أسرته ووجيه بلدته!

وإنَّك عندما تستعرض حياة هؤلاء كيف أزهرُوا سريعاً كما يُزْهر الزَّيزفُون وكيف انطووا كوميض البرق في صحراء تحضرُ إلى ذهنِك سيرة الثَّعالب فما مِنْ ثعلب إلاَّ وظَفِر بدجاجة أو دجاجات ولكنَّه أخيراً يقع في الفخ أو تصرعه بندقية الناطور.

آخرة المنافقين ـ هَلاك!

السَّمير: 13/ 4/ 1953

---

1 الحُلَيميَّات الثُّؤلول في وَسَط الثَّدْي والصغيرة من القِردان أو الضَّخمة ضِدّ ودودة تقع في الجلد فتأكله. والقِرْدان والقُرْدان: والقُراد دويبة متطفِّلة ذات أرجل كثيرة تعيش على الدَّواب والطُّيور ومنها أجناس الواحِد قرادة.

2 شتَّى: وقَوْم شتَّى وأشياء شتَّى وجاؤه أشْتاتاً أي متفرِّقين واحدهم شَتٌّ بالفتح.

3 الضِّفْدُع حيوانٌ بَرْمائي ذو نقيق ج ضَفَادِع.

4 الطَّاوُوس طائر حَسَن الشَّكل كثير الألوان يبدو كأنَّه يُعْجَبُ بريشِهِ وبِنَفْسِهِ يَنشُرُ ذنبَهُ كالطَّاقِ ج طواوِيس. والطَّاق: ما عُطِف وجُعِل كالقَوْسِ من الأبْنية ج. أطواق وطِيْقان.

نيسان الكئيب

كأنَّ الطَّبيعة أرادَتْ أنْ تقلِّدَ الإنسان في هذه الأيّام. فهي لا تضحك لأنَّه هو لا يَضْحَك. وتَعْبَسُ وتتجهَّم لأنَّه لا ينفك يعبس ويتجهَّم. فهل ساورها القلق مِنَ المستَقْبَل كما يساوره. أتخشى على أنظمتِها أنْ تتشوَّش وتزول كما يخشى الإنسان على نفسِه مِنَ الإنقراض بالأسلحة الذَّرِّيَّة. والقنابل الهيدروجينيَّة.

كاد ينقضي شهر نَيسان[1] وهو شهر الجَذَل والحبُور وفترة الإنعتاق والتَّحرُّر. ولم تَظْفَرْ الدُّنيا بعد منه بابتسامَة. فلا الأشجار جذلى مُترنِّحَة. ولا الأوديَة ضاحكَة مُترنِّمَة. ولا السهُول والرُّبَى سافرَة مُتهلِّلَة. فكأنَّما نَيسان صار له عقلُ رجل سياسي مِنْ سواس[2] هذه الفترة مِنَ الدَّهر لا يفتح شفتَيْه إلاّ بالحديث عن الحرب المقبلَة وأهوالها. ولا يفتح أجفانه إلاّ لكي يستحضر شبه إله الحرب.

أجل. إنَّ نيسان الذي عرفه النّاس مِنْ قَبْلُ طفلاً لعوباً طروباً هو اليوم معتِمٌ كئيب كشيخ أضاع أيامَه وأضاع معها أحلامه.

تلفَّحَتْ سماؤه بالغيُوم الدكناء وطال استتارُها واحتجابها حتى كادَتْ العيون تنسى أيَّ لون لونها.

وارتدَتْ الأرض الضَّباب فاختفَى تحته التُّراب وما في التُّراب. كانَتْ مِنْ قبلُ تَخرجُ في مثل هذا الوَقْت أزهارها وتنشُر ألوانها وأصباغها فإذا هي ديباجَة[3] تسرُّ النواظر وتبهج الخواطر. أمَّا في هذه السنة فقد غمرَها نَيسان بالمطر والضَّباب فإذا هي شاحبَة كئيبَة كالسماء التي فوقها. تتلجلَجُ في صدرِها البذُور لكي تنطلق فلا تنطلق. وتحاول الأشذاء النائمَة أنْ تستيقظَ وتنتشر فإذا هي مِنَ الضَّباب والمطر في أغلال وأوثاق.

وليس الضَّباب شيئاً جديداً في الأرض. ولا المطر شيئاً لا يُحبّ. ولكنَّ النفوس تَصْبِر على الضَّباب في كانُون لأنَّها تتوقَّع أنْ لا يكون في نَيسان!.

ولا تستغرب المطر ولا تستنكره في شهُور البرد والزَّمْهرير[4]. لأنَّها تحلُمُ بالصَّحو والإشراق بعد إنقضاء تلك الشهُور.

---

1 نَيسان سابع الأشهر الرُّوميَّة.

2 السَّائِس رائِض الدَّواب ومُدَرِّبُها ج سوَّاس.

3 الدِّيْباجة: دِيْباجة الكتاب فاتحته ويقال لكلامه وشعره وكتابته ديباجة حسنة والدِّيباج ضربٌ من الثِّياب سَداه ولُحمته حرير.

4 الزَّمْهَرير شِدَّة البَرْدِ.

أمَّا نَيْسان فلا يكون جميلاً إلاّ إذا انتشر في الدُّنيا ألَقاً[1] وفاض عَبَقاً[2].
ولكُلِّ شيء وقت وكُلُّ شيء في وقتِه جميل مُستحَب.
لقد خيَّب نَيْسان الآمال في هذا العام. ولكن لعلَّ زمن الخيبَة لا يطول.
ثمَّ لعلَّ الخير في ما تتذمَّر منه وتتضجَّر وتحسبه مِنْ غير الخير.
وربَّما كانَتْ الأرض مُحتاجَةً إلى المَطَر والضَّباب أكثر مِنَ النُّور والصَّحو.
بل لعلَّها لا تَصْلُحُ إلاّ بهما.
إذن فلنحِبَّ نَيْسان على عِلاّتِه. ولْنَنْسَ أنَّه مغمُوم كئيب.

السَّمير: 23/ 4/ 1953

ناس كالنَّعام

قِيْلَ للنَّعامة: «طيري» فقالت: أنا لسْتُ طائراً. إنَّما أنا جمل.
فقِيْل لها: »احملي» فقالت: أنا لست جملاً. إنَّما أنا طائر!
بماذا تذكِّرك ـ هذه الحكاية عن النَّعامة؟

ألا تذكِّرك بالكُسالى الذين ينتحلُون لأنفسهم شتَّى[3] المعاذير للتهرُّب مِنَ القيام بأيِّ عمل. فإذا كان الطَّقْس صاحياً رائقاً قالوا: إنَّ مثل هذا الطَّقْس للنُّزْهة والإستحمام بنور الشَّمْس لا للعمل المُضنِك[4]..

وإذا كانَتْ السَّماء شاتيَة قالوا: كيف يمكنْ أنْ يشتغلَ الإنسان تحتَ المطر!

ثمَّ ألا يذكِّرك مَثَلُ النَّعامَة بأولئك البُخلاء الذين تلتقي فيهم الثَّرْوة والفَلْسفة مثلما يلتقي الماء والزيت في وِعاء واحد.

يَقْصُد إلى واحد مِنْ هؤلاء الأغنياء البُخلاء وفد مِنْ جمعية قائمة بمشروع تهذيبي للحُصُول منه على مساعدة ماليَّة للمشروع فإذا به يتظاهر بأنَّه لا يفهم ما يقولُون. ويدَّعي أنَّه في أزمة ماليَّة وضَنْك شديد.. فيتعجَّب القوم ويرجِعُون عنه وقد تطرَّق الضَّعف إلى إيمانِهِم بالنَّجاح.

وبعد قليل يدخل على هذا الغَنيِّ المَضنُوك إنسان تعوَّد أنْ يستدينَ منه المال بفائظ باهظ فيستقبله

---

1 تألَّق البرق لَمَعَ. أَلِقَ البَرق أَلَقاً كَذَبَ.
2 وعَبِقَ به الطِّيب عَبَقاً ظهرت ريحه بثوبه أو بَدنه.
3 شَتَّى متفرِّقة.
4 الضَّنْك الضِّيق.

الغنيّ هاشاً باشاً[1] كما تستقبل العَنْكَبُوت[2] ذبابة وقعَتْ في شباكِها! ويسأله عمَّا يبتغي. فلا يكاد يفتح فمه برَغبتِه في اقتراض المبلغ بعد أنْ يستكتبَه صَكاً مُحكماً يرتهن به كُلّ ما للرجل مِنْ مَتَاع وأرزاق وربُّما[3] امرأته بل ربُّما امرأتَهُ وأولادُه!.

ولِنَضْرِبْ لَكَ مثلاً آخَر..

سُئِلَ أحدهم وهو مِنَ الذين ارتفعُوا على موجة الرَّخاء في أيّام الحرب: لماذا لا يشترك في جريدة عربيّة فأجاب مُمتعضاً مُتأفِّفاً: أنا لا أقرأ الجرائد العربيّة.

واتُّفِقَ أنَّ السائل مضى إلى جار له فرأى ذلك المُمتعض المُتأفِّف مِنَ الجرائد العربيّة يسأل ذلك الجار أنْ يعيرَه ما عنده مِنَ الجرائد العربيّة!

ورآه مرة أخرى يلتقط جريدة عربيّة مطروحَة على مقعد في محطة الصَّبواي ويهجُمُ على سُطورها كما يهجم جائع مسغُوب على قَطعة مِنْ طعام لِيَلْتَهِمها.

وللنَّعامة أشباه كثيرُون في كُلّ صنف مِنَ البَشَر ولا سيّما جماعة السُّوَّاس الذين يستطيعُون أنْ يكونوا جِمالاً عندما يريدُون وطيوراً عندما يلذُّ لهم. وأحياناً يصيرُون جِمالاً وطيوراً في وقت واحد أي جِمال لها أجْنِحة!

إنَّ النعامَة لا توجد إلاّ في مواقع معيَّنة مِنَ الأرض كالقفَار والصَّحارَى. أمَّا هذا الصَّنف النَّعاميّ مِنَ البَشَر فإنَّه موجُود في كُلّ مدينة وقرية. هو في كُلّ برّ وبَحر. وسَهْل وجَبَل. وهم طوراً[4] جِمال لكي يحصيهِم النّاس في الطيُور. وطوراً طيورٌ لكي يحُصيهُم النّاس في الجِمال.

وربَّما كانُوا طيوراً أو جِمالاً غير أنَّهم ليسُوا بشراً إلاّ في الصورة والشَّكْل!

السَّمير: 29/ 4/ 1953

---

1 وهَشَّ به يَهَشُّ بالفتح هشاشَةً إذا خَفَّ إليه وأرتاح إليه. والبَاشُّ: والبَشَاشَة طلاقَة الوجه.

2 العَنْكَبُوت دُوَيْبَة من رتبة العَنْكبيّات لها أربعة أزواج من الأرجُلِ تَنْسِجُ نسيجاً رقيقاً مُهَلْهَلاً تصيد به طعامَها ج عناكِب.

3 رُبَّ معناها التَّقليل وهي حرف جرّ وشرطها أن تكون في صدر الكلام وأن يكون مجرورها إسماً ظاهراً نكِرةً وكثيراً ما يكون موصوفاً نحوُ رُبَّ رَجُلٍ كريم لقيته. وقد تأتي للتكثير نحو «رُبَّ كاسيَةٍ في الدُّنيا عارِيَةٌ في الآخرة» تلحق رُبَّ ما الكافة فيبطل عملها غالباً وتدخل حينئذٍ على الإسم المعرفة والفعل نحو «رُبّما بطرس قائِمٌ وربُّما قام بطرس» وأَمَّا مع النَّكِرة فيبقى عملها وإنْ زيدت عليها «ما» نحو «رُبّما ضَرْبَةٍ بسيفٍ صَقيلٍ».

(راجع الشرتوني ج 4 ص 359).

4 طَوْراً: تارَةً.

مشكلة الشَّباب

قلنا مراراً: وقال غيرنا: إنَّ مِنْ أكبر أسباب الضَّنْك الذي يشكُو مِنْه الشَّباب في بلادنا ولا سِيَّما الشَّباب المُتعلِّم. هو أنَّ هؤلاء الشَّباب يأنفُون مِنَ العمل اليدَوي ويستنكفُون أنْ يراهم النّاس ينقُلُون حَجَراً أو خَشَبة أو سَلَّة فاكهة.. كما يخجَلُون أنْ تقعَ عليهم العيُون ينكشُون حقلاً أو يزرعُون بَقْلاً أو يحتفرُون بئراً أو يُمهِّدُون درباً. بل هم يعتقدُون أنَّ مِنْ واجب الغير أنْ يمهِّدُوا درباً. وأنْ مِنْ واجب الغير أنْ يمهِّدُوا الدرب لكي يتخطَّروا هم عليها في الضُّحى والأصيل[1]. ويجب أنْ يحرُثَ غيرهم الأرض ويَزْرَعَ الحَبَّ ويَغْرِس الشَّجر لكي يجيئوا هم فيجْنُون ويأكلُون بلا كدٍ ولا عَناء وبدون أنْ يَخْطُرَ في أذهانِهم أنْ يشكرُوا الذين زرعُوا وغرسُوا!

أجل. إنَّ معظم الشَّباب في بلادنَا الأُوْلى ولا سيَّما الحاصلُون على شهادة البكالوريا لا يَهُمُّهم أنْ يُحْسِنُوا شيئاً مثل التَّأنُّق في الملابس والتَّظَرّف[2] في الحديث وقتل الوَقْت في ما لا طائل تحته.

ويخيَّل إليك عندما يُطِلُّ عليك أحدهم بهِنْدامه[3] العصري أنَّه ممثل أميركي مِنْ هوليوود ـ كاليفورنيا ـ مدينة الممثلين والممثلات... لا مِنْ قرية في لبنان أو دَسْكرة في سوريا.

إنَّ هذا المَيَعَان[4] في الشَّباب لا علاج له إلاّ التجنيد الإلزامي مِنْ جهة والإكثار مِنَ المدارس الصِّناعيَّة وجعل الدخول إليها مجّاناً[5] وإلزامياً على حساب الحكومة. فإنَّ الشاب الذي يذوق طعم الإستقلال الذاتي يصير أكثر فَهْماً لإستقلال الوطن وأشدَّ حَدْباً[6] عليه ورعاية له. أمّا إذا كان الإنسان ـ شاباً أو كَهْلاً[7] ـ يجوع ويعرى في وطنه ويشعر أنَّه مستعبد مُهان فإنَّ عزَّتُه تموت. وإذا ماتَتْ هذه لا يعود يميِّز بين وطن حُرّ ووطن مُسْتَعْبَد.

لا فائدة للوطن مِنْ شابٍ يهوى المناظر الجميلة فيه مِنْ غابَات وكرُوم وسواقٍ وحدائق. بل الذي يستفيد الوطن منه هو ذاك الذي يخلُق الكَرْمَ ويُوجد الحديقةَ ويغرِس الأشجار ويشُقّ الأقنيَة ويرفَع الجسُور ويستولد الأنهر قوَّة وضِياء.

---

1 الأَصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه أَصُلٌ وآصال.

2 التَّظَرُّف: تظرَّف تكلَّف الظَّرْف والظَّرْف الكياسة. والكَيْس ضِدّ الحُمْق.

3 الهِندام: وشيء مُهَنْدم مُصْلَحٌ على مِقْدار وله هِنْدام معرَّب أَنْدام.

4 الميَعان: ومَيْعَة الشَّباب والنَّهار أوّلهما.

5 مَجّانًا وقولهم أخذه مجّانا أي بلا بَدَلٍ.

6 الحَدَب: حَدِب عليه انحنى وعطف.

7 الكَهْل: من جاوز الثلاثين إلى الخمسين ج كُهُولٌ.

إنَّ الذي يسهر اللَّيل يناجي القمر لكي يَطلُعَ في الغَدِ على النّاس ليقول لهم عذراً منكم لقد كنت أثناء اللَّيل مشغولاً عنكم بمناجاة القمر بأنَّه كان يناجي.. لا يشعر به اللَّيل ولا القَمَر وإنَّما الذي يسهر لكي يرفعَ جداراً أو يمهِّد درباً أو يصنع كُرْسياً أو أداة فهذا إنسان يباركه اللَّيل ويطَيِّبُه القمر ويَخْلُد في الوطن كهِضابه وأشجاره وأنهره وسواقيه ودروبه وكرومه...

فهل يدرك الشَّباب مُهِمَّتهم في الوطن وهل يؤدُّون الرسالة التي لا يمكن أنْ يؤدِّيها غير الشَّباب وهي رسالة الجهاد والعمل لجعل الوطن أحسن ممَّا هو وجَعْلِ سكَّانه أسعدَ ممَّا هُم؟.

السَّمير: 3/ 6/ 1953

مِحْنَةُ الأَدَب

كثُرَ في الآونة الأخيرة عدد القائلين في مِصرَ ولُبنانَ إنَّ الأدب العربيَّ في مِحْنة.

فماذا يعنُون بالأدب. وماذا يعنُون بالمحنة؟

ومَنْ هم هؤلاء القائلُون؟

إذا كانُوا يعنَون أنْ لا إنتاج أدبي في هذه الأيّام. فالعالم كلُّه اليوم قليل الإنتاج مِنْ هذه النَّاحية. إنَّ النّاس في هذا الوَقْت فئتان: فئة مُنْصرفَة إلى اختراع الأسلحة الجهنَّميَّة لوقاية نفسها مِنْ الدَّمار وصيانة تُراثها مِنَ الإندثار.

وفئة لا تخترع ولا تَسْتنبط تعيش مزلزلةَ الأعصاب لرؤْيتها الفئة الأولى تُصْبح وتُمْسي [1] لا تفكّر بغير الحرب.

وهذه الفئة كتلك الفئة تنام على فراش مِنَ الخوف وتستيقظ لترى الخوف ماثلاً أمامها في ما تأكلُ وتشرب وتَلْبَس.

فليس غريباً والعالم يغمره ضَباب الخوف مِنَ الغَدِ أن ينصرفَ عن الأدب إلى ما هو أهم مِنَ الأدب..

إنَّ البلابل لا تغرِّد في الزَّوابع الثائرة.

وعسير جداً أنْ تُخْرِجَ الأرض أزهاراً والثّلوجُ تغطِّيها!

ولعلَّ مِنْ أكبر أسبابَ المِحْنة التي يتكلَّم عنها الأدباء في بعض المجلاّت والجرائد أنَّ الأديب العربيَّ واحد مِنْ إثنين إمَّا رجل تثقَّف في أوروبا فهْوَ يطلب عند قومه مثل الذي عند القوم الذين قرأ عليهم

---

1 تصبح وتُمْسي فعلان تامَّان مكتفيان بالفاعل نحو ما يزال هذا التلميذ على حاله يُصبح كما يمسي أي يصبح هو كما يمسي هو.

وأخذ عنهم. فإذا لم يجد طلبته وهو لن يجدها رجع على أمَّتِه باللَّوم وربَّما التَّجْديف [1]. وإمَّا رجل لم يطَّلع إلاّ على قليل مِنَ الثقافة العالميَّة فهو يعيش دائماً في الأجيال الخاليَة. ويتعجَّب في نفسِه كيف أنَّ النّاس لا يَرَوْن رأيه في الأمور. ولا ينسجُون على منوالِه.

أضِفْ إلى ما تقدَّم أنَّ الشَّعب العربيّ ليس قِسطاً واحداً. وعندما تختلف مقاييس الفكر في أمَّة فإنَّها تصبح أمماً. لكُلٍّ واحدة منها مقاييسها. وهذه هي المحنة الكبرى والطَّامة [2] العظمى. مِحْنة الأدب ومِحْنة الفنّ ومِحْنة المرأة والرّجل والولد.

إذن فما أحرانا [3] أنْ نقولَ إنَّ المِحْنة ليسَتْ مِحْنة الأدب بل محنة العرب!

السَّمير: 5/ 6/ 1953

الماء والهواء

يقول العلماء الذين تقطَّعَتْ أعمارهم في البحث عن المصدر الأول للحياة إنَّها ابتدأت في البَحْر.. في الماء.

وجاء في القرآن الكريم «وخلقنَا مِنَ الماء كُلَّ شيء حي».

وقال البعض أنَّ جُرثومَة [4] الحياة الأولى هبطَتْ مِنَ الكواكب! غير أنَّ النَّظريَّة المُتَّفق عليها هي أنَّ الماء مصدر الحياة..

وفي الواقع أنَّ هناك شيئين لا غنى عنهما لأيٍّ حي سواء كان نباتاً أم حيواناً وهما الماء والهواء. فإذا لم يكن هواء ولا ماء فلا حياة.

على أنَّ هذا الماء الذي تَغْسِلُ به جسمك وثيابك وتروي عطشك وتسقي أرضك وتُصْلِح به طعامك. هو أحياناً خطر عليك وعدوّ مُبين [5] لك ولا سيَّما إذا تجمَّع في نهر وطغى. أو إندفق مِنَ الفضاء ودام تهطاله فإنَّه بدلاً مِنْ أنْ ينعشَ الحقُول يُغْرِقها ويجرُفها. وبدلاً مِنْ أنْ يرويَ النّاس يُهْلِكُهم ويَخْنُقُهم. أو يشرِّدهم في الأرض فيهيمُون على وجوهِهِم كأنَّما يتعقَّبَهُم طاغية.

والهواء.. إنَّه يظلُّ حياة وانتعاشاً وارتياحاً ونشاطاً حتى يَعْصِفَ ويثور ويتحوَّل إلى زَوبعَة تَهْدُم الدُّور وتقتلع الأشجار وتروِّع الآمنين. وتنشُرُ الخراب والهَول في طريقِها.

---

1 التَّجْديف: جَدَّف بالنِّعمة كَفَر وفي الحديث «لا تُجَدِّفوا بنِعمة الله».

2 والطَّامَة الدَّاهيَةُ.

3 ما أَحرى: ما أَحراه بكذا ما أَجَدره به.

4 جُرثُومَة: الجُرثُومة الأَصْل.

5 أبَان الشيءَ أظهره ووَضَّحه.

أجل. إنَّ الماء الذي هو بركَة ونِعْمَة يصير آفة كبرى أحياناً.

تأمَّل ما ألطف هذا الإسم «نهر الحليب» إنَّك ليحضرَ إلى ذهنِك عند ذكره خيال الجنَّة وما فيها مِنْ أنهرٍ جاريَة بين عَسَل ولبن وخَمر.

ولكنَّ هذا النَّهر الموجُود في ولاية مونتانَا لم يكن لطيفاً ولا ظريفاً في الأُسْبوع الماضي فقد أخذ يتعالَى على معدَّل قيراط في الساعة فطغى على السُّدُود التي تحجُزُه فأخذ السكان يفرُّون مِنْ وجهِه كالعصافير مِنْ وجه الصياد. مِنْ وجه الماء لا الحليب!

وبلغ مِنْ شدَّة النكبَة أنَّ حاكم الولاية استنجد الرئيس أيزنهاور فأنجدَه وأعلن منطقة الفَيَضان مِنْطقة منكوبَة لكي يتسنَّى للحكومة المركزيَّة بذل المعونَة لتلك الولاية بعقد القرُوض وتقديم المُهندِسِين وغير ذلك مِنَ المساعدَات التي تحتاج إليها المنطقة المنكوبَة.

وهكذا نرى أنَّ قوى الطَّبيعة لا تميِّز بين نائم وساهر ولا بين فقير وغني ولا بين جاهل وعالِم. وأنَّها جبَّارة البطش والفَتْك ولَكِنَّ قلب الإنسان الرَّاقي أقوى منْها فهي تجرح وهو يضمُدُ. وهي تخرِّب وهو يعمِّر ويرمِّم. وهي تفسد وتشوِّش وهو يصلح ويرتِّب وينظِّم.

ولكنَّه لا يقوم بهذه التضحيات ولا يبذل هذه الجهُود العظيمة إلاّ لأمر واحد وهو كي يصون ويحمي أخاه الإنسان!

هذه حقيقة تتجلَّى لك أكثر وضوحاً كلَّما تعمَّقت في تحليل وتعليل أعمال الإنسان. فهو يزرع الشَّجرة لكي يستظلَ بها إنسان. أو يأكل ثمرها إنسان. وهو يَشُقُّ الطَّريق لكي يسير عليها هو أو إنسان مثله. وهو يبني السفينة والقطار والطائرة لكي تُقَرِّبه من إنسان مثله بعيد عنه.

وما دام الإنسان يعمل على هذا النسق فإنَّه لن يَزولَ مِنَ الأرض مهما طغى عليه الماء ومهما ثار الهواء!

إنَّهما قويَّان. ولكنَّه هو أقوى منهما!

السَّمير: 9/ 6/ 1953

ضحايا الزّوابِـع

لله هذه الطبيعَة ما أقساها!

بيوتٌ كانَتْ قائمَة في الأرض تضحك نوافذها للشمس. وتهلِّلُ عتباتها للضيُوف. دهمَتْها الزوبعَة فقوَّضتْها فهي رُكَام مِنْ خشب وطين وحجر. أو أطلال خاليَة مهجُورَة!

أناس - فيهم الشيخ والكَهْل والولد. كانُوا يتذكَّرُون الأَمْس ليروِّحُوا عن قلوبِهِم المضنوكَة بالذِّكريَات. أو يتطلَّعُون إلى الغَدِ كأنَّه الفِرْدوس فيه. وكأنَّ الخيْرات والبركَات كلّها في مطلوبه.

لم يكن إلاّ كلمْح البَصَر فإذا هؤلاء النّاس قد إمّحُوا مِنْ سِفرِ [1] الحياة أنّهم قتلى وصَرْعَى [2] لا بِسَيفٍ ولا برمح ولا بخنجرٍ ولا بنار بندقية ولا بقذيفة ذَرِّيَّة. بل بالزوبعَة العمياء التي ظهرَتْ بجبروتِها وطغيانها كأنَّما في يدها ألف مِنْجَل [3] مِنْ مناجل عزرائيل. وكأنّما هي القنبلة الذريَّة بعينِها.

أولئك النّاس الذين كان لهم ماضٍ وحاضر ومستقبل أَمْسَوْا الآن رمماً هامدَة لا أمْسٍ لها ولا غد!

أجل.. في لحظات قليلة. تقوَّضَتْ منازل قضى أصحابها أعمارهم في تشييدِها وزخرفتها وتأثيثها. وحرسُوها مِنَ العابثِين وصانُوها مِنَ السارقِين وتوهَّمُوا أنّها باقيَة لهم فما دامَتْ ولا دامُوا.

وفي لحظات قليلة.. سقط أكثر مِنْ مائتي قتيل ومئات الجَرْحى والمعطُوبين في بعض جهات أوهايُو ومشغن وماستشوستس. ماتُوا وأوذُوا كأنَّهم أثِموا واجترحَوا المَوْبِقَات [4]. وهم أبرياء لم يرتكبُوا ذنباً ولم يقترفُوا جرماً.

ترى لو أنَّ عدوّاً باغتَنَا وألحقَ بنا هذه الأذيَّات وقتلَ منَّا هذا العدد مِنَ الخَلْقِ أمَا كُنَّا نَهُبُ رجالاً ونساءً وأطفالاً مِنَ البَحْر إلى البَحْر مُستعينين بكُلِّ وسيلَة مِنْ وسائل الحرب للبطش به والإنتقام منه وإلحاق خسائر به أعظم جداً مِنَ الخسائر التي نزلَتْ بنا؟

بلى.. وكنَّا نَنسبُ إليه الهمجيَّة والتَّوحُّش والبربريَّة وخرق المُعاهدَات ونكْثِ المواثيق والعبَث بكُلِّ اصطلاح وعُرْف [5] وتقليد وقانُون للنّاس المُتمدِّنين.

ولكنَّنا لم نفعل شيئاً لأنَّ عدوَّنا في هذه المعركة ليس إنساناً ولا حيواناً ولا شيطاناً بل هو الزوبعَة... والزوبعَة ليسَتْ جسماً منظُوراً فنَصْرَعها بالنَّار أو نقتلها بالسَّيف البتَّار. إنَّها قوَّة طبيعية عمياء ليس لإنسان سلطان عليها مهما يبلغ مِنَ القوَّة والبأس وشدَّة المِراس [6]. بل هي قوَّة غاشمَة ليس لها سلطان على ذاتِها.

إذن فخيْرُ ما نقوم به في هذا الموقف هو أنْ نسارعَ إلى إغاثة المنكوبِين بواسطة الجمعيَّة الإنسانيَّة المتأهبَة لحالات الطواريء. وهي جمعيَّة الصليب الأحمر.

فيا إخواننا في الدم واللُّغة والوطن والشعُور الإنساني. إنَّنا نناديكُم إلى مؤازرة هذه الجمعيَّة بالمال والتَّطوُّع لخدمتها والتَّبرُّع لها بالدم. فهذه هي الوسائل التي نستطيع بها تخفيف النكبات وإنقاذ الأرواح الممكن إنقاذها.

---

1 السِّفْر: بالكسر الكتاب والجمع أَسْفار.

2 الصَّريع المَصْروع يقال بات صريع الكأس ج صَرْعى.

3 المِنجَل ما يُحْصد به إسْم آلَة.

4 اجترح المَوْبِقات: وجَرَحَ اكتَسب واجترح مثله والموبقات: وبَق يَبِق وبُوقاً هَلَكَ.

5 العُرْف اسم من الإعتراف.

6 شِدَّة المِراس: المُمارَسة والمُعَالجة.

أذكرُوا الضّحايا وابذلُوا أكثر مِنَ الكلام. فإنّكم إذا قعدتُم عن الإغاثة والإعانَة كنتم وأولئك الضّحايا سواء. فهم الآن لا يقدرُون أنْ يعينُوا أحدا ولا أنْ يبذلُوا فَلْساً ولا أنْ يمدُّوا يداً فهل تَرْضَوْنَ وأنتم في الحياة ولكم قدرة وصَولَة أنْ يكونَ شأنكُم شأن القتلى والصَّرْعَى [1] والجرحى الذين لا يملكُون ضرّاً ولا نفعاً.

تقدّمُوا إلى فرُوع الصليب الأحمر فهي موجودة في كُلِّ مدينة وإذا أردتُم أنْ تتولّى «السمير» إيصال تبرُّعاتكُم إليها فإنّها تفعل ذلك بكُلِّ سرُور.

السّمير: 11/ 6/ 1953

العطلة الصيفيّة

ما كان أعظَمَ الفَرْق بين العطلة الصيفيّة في السنة الماضية والعطلة الصيفية في هذه السنة.

في السنة الماضية كان الطَّقس شاتياً بارداً فما نعمْنَا بالهواء الطَّلْق ولا بالنُّور الضَّاحي. بسبب الطَّقس البارد في ذَيْنِك الأُسْبوعَيْن. لذلك خشيْنَا عند اقتراب موعد العُطْلة في هذه السنة أنْ تتكرَّر تلك الحالة فلا نستفيد كثيراً.

ولكنَّ خوفَنا لم يكن في موضعِه. كذَّبَتْ الطبيعَة هواجسنَا [2] وظنوننَا وبالغَتْ بل جاوَزَتْ الحد في التكذيب فحبَسَتْ المطر عن البلاد كلِّها فذبلَتْ الحقُول وهزلَتْ الماشيَة وكاد النّاس أنفسهُم يهزِلُون ويَذْبُلُون. بل مات كثيرون مِنَ المرضَى والشيوخ الذين لم تحتمل أجسامهُم المضنوكَة وطأة الحر.

وراح النّاس يحسدُون السَّمك في الأنهر والبحَار ولكن حتى الأسماك تضايقَتْ في الأنهر. ومِنْ غريب ما حدث أنَّ درجة الحرارة في نهر غير عميق في إحدى الولايات الجنوبيّة ارتفعَتْ إلى التسعين فمات كلُّ السمك في ذلك النّهر.

وشابَتْ رؤوس الأشجار قبل الأوان وتساقطَتْ أوراقها كأنّها في الخريف.

واشتاق النّاس إلى بَرْد كانون وزَمْهَرير [3] آذار. وتمنّى كثيرُون لو أنّهم في بلاد الأسكيمو حيث الثّلوج لا تذوب ومنها يبني الأسكيمو مساكنهم!

كنّا قبيل العُطْلة نشتاق إليها ونستعجلُ الأيّام لنقترب منها. غير أنّنا بعد أنْ صارَتْ في حوزتِنَا وصرنا فيها شعرنا بحدوث شيء كالفراغ في حياتِنَا. لقد صار علينا أنْ نألفَ الإنقطاع عن العمل مثلما ألفنا العمل. فكان خيال القلم والمكتب يتبعنَا كيفما انطلقْنَا. وكُلُّ طقطقَة أو قرقَعَة تذكّرنَا بطقطقة

---

1 الصّريع المصروع ج صَرْعى.

2 الهاجِس: الخاطر يقال هَجَس في صدري شيء أي حَدس وباب ضرب أي وقع وخطَر.

3 الزّمْهَرير شِدّة البَرْدِ.

آلات التّنْضيد وقرقعة دواليب المطبعة.

ولا غرابة في ذلك فالإنسان يألف الأشياء والجمادات مثلما يألف الأحياء. وتملأ صورها نفسه فتصير جزءاً منه لا ينفصل. وترافقه في قيامه وقعوده.

يؤيد ذلك أنَّ المهاجر الذي فارق وطنه صغيراً لا ينفكُّ تتراءى له الشَّجرة التي كان يتعلَّق بأغصانها ويلعب في فَيْئِها [1]. وصورة الساحة التي كان يركض فيها. وصورة السَّاقية التي كان يخوض فيها. مع أنّه على بعد ألوف الأميال مِنَ الشّجرة والساحة والسَّاقيَة.. فضلاً عن السنين!

فكيف يراها وهي على هذا البعد السَّحيق [2]؟

إنّها حاصلة في ذِهْنِه. بل هي مطبوعَة في أذهان رفاقه وأترابه [3] وكُلِّ الذين عاشوا معها وصاحبُوها لا تغيب عن أذهانِهم حتى يغيبُوا في الثَّرى.

بل إنَّ صور الأشياء التي يعيش الإنسان معها تزداد وضوحاً في ذهنِه عند ابتعادِه عنها فكأنَّ الذاكرة تنتبه كلُّها وتستيقظ كلُّها عند اختفاء الأشياء أو انطماسها عن النَّظر.

والآن. وقد رجعنَا إلى القلم والطِّرس والمحبرة. وعاد الرِّفاق كُلٌّ إلى العمل الذي كان يمارسه فإنَّنا نحمد الله على أنَّ الشَّمْل عاد فالتأم. وعلى كونِنا رجعنا وفينا قُدْرة على التحدُّث إلى أنصارِنا الأوفياء الذين تهبُّ علينا عواطفهم في رسائلهم كأنَّها نسمَات الفَجْر اللطيفة المنعشة. وما شوقنَا إلى القلم والمحبرة والمَطْبعة غير الشوق إليهم. إلى التعاون وإياهم على الإستمرار في خدمة لغتنا وأمّتنا والمُداومَة على تأييد المباديء النَّبيلَة والقضايا العادلَة...

السَّمير: 8/ 9/ 1953

مِزراب العين

كان مزراب العين في أيّام أجدادنا ولا يزال في أيّامنَا شيئاً عزيزاً ثميناً في القرية اللبنانية. قد ينسى اللبناني الشَّجرة التي لعب تحتها. والطَّريق الذي ركض فوقَه. والساقيَة التي خوَّض فيها. والتِّينَة التي تسلَّقها. والصخرة التي اعتلاها. ولكنَّه يظلُّ يتذكر مزراب العين. ليس لأنَّ هذا المزراب أجمل شيء أو أعجب شيء في القرية بل لأنّه كلَّما نَسِيَه وقع حادث يستوجب التَّمثُّل بالقول المأثُور ـ كاسر مِزراب

1 الفَيء: ما بعد الزَّوال من الظِّلّ سُمّي فَيْئاً لرُجوعه من جانب إلى آخَر وقال ابن السِّكيت: الظِّلُّ ما نسخته الشَّمس والفيء ما نَسخَ الشَّمسَ.

2 السَّحيق: البعيد.

3 التِّرب: المماثل في السّنّ وأكثر ما يُستعمل في المؤنَّث.

العين ـ فتحضر إلى ذِهْنِه صورة العين ومزرابها وتتوارد إلى ذهنه طيُوف الفتيات والنِّساء قاعدات حول العين تقصُّ كُلُّ واحدة منهُنَّ على رفيقاتها ما سمعَتْ مِنْ أخبار.

إذا لم يكن مِزراب العين أجمل ولا أعجب شيء في القرية فإنَّه مِنْ أنفعِ الأشياء للعمُوم إذ بدونِه لا تستطيع المرأة ولا الرجل إملاء الجرَّة ولا الإبريق. إذن فالإنسان الذي يكسر هذا المزراب يعتدي على العمُوم ويجلب الأذى لسُكَّان القرية.

ولا يرتكب هذا الإثم إلاَّ طالب شهرة أعياه أنْ يُدْرِكَها مِنْ طريق شريف. وأنْ يبلغَها بالكدِّ والتَّعَب والعمل المبرُور. فيلجأ إلى كَسرِ مزراب العين. أو ما يشبه مزراب العين. لكي يتحدَّث به النَّاس.

وليسَتْ القرية وحدها التي تُنبتُ مثل هذا الأثيم. ففي كُلِّ مجتمع بشري سواء كان كبيراً أو صغيراً. لهذا المُقَصِّر العاجز أشباه وأمثال. يقولُون مع الشَّاعر القائل:

إذا أنت لم تنفع فضُرَّ فإنَّما ... يعيش الفتَى كيما يَضرّ وينفعا!

ولكن التجارب الكثيرة التي دوَّنُوها للتاريخ تخبر بألسِنَة نصاح أنَّ مَنْ يحطِّمَ مزراب العين يحطِّم معه سُمْعته. وأنَّ المزراب يستعاض عنه بغيرِه وأمَّا السمعة فلا عوضَ منها ولا بديل. والمجتمع كالبَحْر لا تغرقُ فيه الجيف بل تعوم لأنَّ طبيعة البَحْر لا تطيق الجيف فيلفظها إلى الشَّطِّ.

وهكذا يحدث لمن يكسر مزراب عين أو يحاول أنْ يفعل أمراً مُنكَراً مثل كسر مِزراب العَيْن.

﴿ولا يحيق المَكْر السَّيِّء إلاَّ بأَهْلِه﴾ [1]. ومَنْ يزرع الشَّوك لا يحصد العنَب!

السَّمير: 21/ 9/ 1953

منطق بعضِ الشُّعراء

لندَعْ الشؤون الساسيَّة جانباً ولنلتفتْ اليوم إلى ناحية مِنْ نواحي التَّفكير أو الطرائق التي يتبعها بعض الشُّعراء في التَّعبير عمَّا يجُول في صدورِهم. لنرى إلى أيِّ مدى وصلُوا. وأيَّ هدف بلغُوا.

أمامي الآن أبيات لشاعر عربي في بلاد الأرجنتين يقول فيها:

فكم نصرٍ يَتِمُّ بلا عناءٍ ... ومجهُودٍ يظلُّ بلا جَزاءِ
فلا تعجبْ لِخَيبة عَبْقَريٍّ ... فليس الفوزُ مقياسُ الذَّكاءِ

ليس في هذَيْنِ البيتين كلمة مُبْهَمة تحتاج إلى مراجعَة القامُوس للوقُوف على معناها. غير أنَّ كُلَّ كلمة فيهما تحتاج مِنْ حيث المنطق إلى شَرْح مُسْهَب وتوضيح أكثر.

---

1 43ك فاطر 35.

يقول الشَّاعر:

«فكم نصرٍ يَـتِمّ بلا عناءٍ»

فما هو هذا «النصر» الذي يَـتِمُّ بلا عناء؟

وأي «نصر» يجيء عفوا؟

كُلُّ شيء يَصِحُّ أنْ يُدْعى «نصرا» لا بُدَّ أنْ يَسْبقَه تَعب وعناء ومَشقَّة. كما قال أبو تمَّام: «لا تُنالُ العلى إلاّ على جسرٍ مِنَ التعب».

ولو تعمَّق الشَّاعر قليلاً في تفهُّم ما تعنيه كلمة «نَصْر» لأدركَ أنَّه أساء إليها عندما استعملَها بهذه الصِّيغة. فهو نَفْسه لم يَنْتَصِرْ على أيِّ معنى مِنَ المعاني الطريفَة التي صاغها شعراً إلاّ بعد عناء مُضْنٍك. فإذا كان الظَّفر بمعنى أو باستعارَة أو بقافيَة شرود[1] يسبقه ويرافقه إجهاد فكر وإعنات[2] نَفْس وكدُّ ذِهْن فما قولك بمن يُشَيِّدُ سَداً لِنَهْر. أو ينشرُ عُمْراناً في قَفْر. أو يُرَوِّجُ فِكْرة جديدة في مُحِيط مُتمسِّك بما وَرثَ مِنَ التَّقاليد. أو يبني شُهْرة. أو يزرعُ حقلاً أو يصنع آلة. أو يَنْحَتُ تمثالاً أو يعبِّد طريقاً أو يكشف صُقْعاً[3] مجهولاً أو يستنبط علاجاً مُفيداً. أو يَنْسُج ثوباً طريفاً أو يبتكرُ فنّاً أو أسلوباً في فَنٍّ أو عِلْم أو صِناعة.

إنَّ هذه كلّها انتصارات. ولا يجيء واحد منها عفواً بل بكثيرٍ مِنَ الجهد والعناء.

وما دام كُلُّ نَصْرٍ يستلزم عَناء حتى الفوز بكلمات تُنسَّق فتصير بيتاً مِنَ الشعر فلا يبقى ثمَّة[4] معنى لقول هذا الشاعر:

«وكم نَصْرٍ يَتِمّ بلا عناء»

لأنَّه وهو يقرِّرُ ما يظنُّه حقيقةً حاصلةً لا يقرِّر شيئاً بل يخالف بقولِه الحقيقة الحاصلة على خَطّ مُسْتقيم..

أمَّا الشطر الثاني وهو:

«ومجهود يظلُّ بلا جَزاء»

فلا تَحْسَبْ نصيبه مِنَ الحقيقة أحسن مِنْ نصيب الشطر الأول أو صدر البيت. فكلُّ مجهود سَواءٌ كان جَسَدياً أو عَقْلياً له نتيجته. ونتيجته هي جزاؤه. فإذا ضربْتَ حجراً بمِطْرَقَة فتحطَّم فإنَّ ضربك إياه «مجهود» وتحطُّمَه هو الجزاء. فبلَغْتَ غايتَك؛ وفي ذلك كُلُّ الجزاء. أمَّا إذا لم يتحطَّم الحجر فإنَّ الأثر

1 قافية شرود: القافية في الشِّعر آخِر جزء في البيت وقد يكون كلمة أو بعض كلمة ج قوافٍ. وشَرَد البعيد وغيره استعصى ونَفَر وشَرَد عن الطَّريق حادَ.

2 إعْنَات: عَنِتَ فلانٌ عَنَتاً وقع في مَشَقَّةٍ وشِدَّة.

3 الصُّقْع: بالضَّمِّ النَّاحية.

4 ثَمَّ اسم يشار به إلى المكان البعيد بمعنى هناك وقد تلحقه التّاء فيقال ثَمَّةَ.

الذي تركَتْه المِطْرَقة فيه هو جزاؤك سواء كان أثراً كبيراً أم صغيراً. وفي كُلِّ حال كان لمجهودِكَ جَزَاء.

إذا زرعْتَ شجرة تفَّاح ولم تأكل أنتَ مِنْ ثمرها فلا يعني ذلك أنَّ مجهودك ذهب عَبثاً ولم يكن له جَزاء لأنَّك عندما زرعتَها شعرْتَ بغبطَة لقُدْرتِك على زَرْعِها فكان شعورك هذا أوّل جزاء لمجهودِكَ ثمَّ عاشَتْ الشَّجرة ونمَتْ وأورَقَتْ وأزهَرتْ ففَرِحْتَ برؤيتِها وابتهَجْتَ لأنَّك زرعتَها فكان هذا جزاء آخر لمجهودِك.

وغبْتَ عنها عندما أثمَرتْ فجنى ثمرها أخٌ لك أو ولدٌ أو نسيبٌ أو صديقٌ وأكَلوا من ثمرِها فكان هذا جزاء آخرُ لمجهودِك..

وقد تذهب أنت وتبقى الشَّجرة تُورق وتُزْهر وتُعطي الثَّمر للآكلِينَ بَعدك. فأيَّ جَزاء تطلب أيُّها الشَّاعر أكثر مِنْ هذا الجزاء لمجهُود قليل مثل زرع شَجَرة!

أرأيْتَ أيها القاريء كيف تقوَّض هذا البيت بنفخة مِنْ فَمِ المَنْطق. فإذا الكلام الواضح تحوَّل إلى كلام مُبهَم غامض ليس له معنًى.

وإليك البيت الثاني:

فلا تعجبْ لِخَيبة عَبْقَريٍّ فليس الفوزُ مِقياس الذَّكاءِ

لو حذفْنَا الشطر الثاني ووضعنا مكانه قول الشَّاعر القديم:

«ذكاء المرء مَحْسُوبٌ عليه»

لحصَلَ للبيت معنى يقوم به أمَّا قوله: ليس الفوز مقياس الذَّكاء - فإنَّه إنكارٌ لرأي لم يَقُلْ به أحد لأنَّ الفوز ليس مقياساً لشيء ولكنَّه دليل على شيء. ولعلَّ الشَّاعر أراد أنْ يَعْتَذِرَ عن فشل العَبْقَريّ[1] ويبَرهن أنَّ الفوز لا يجيء بالذَّكاء فأخطأ وضلَّ لأنَّه بتقريرِه أنَّ العَبْقَري يخيبُ ويفشل لذكائِه قرَّر في الوَقْت ذاته أنَّ النَّجاح نَصيبَ المغفَّلين! وهذا لا يمكنُ أنْ يكونَ صحيحاً. لأنَّ النَّجاح ليس واحداً بل أنواع وأشكال كثيرة فإنَّ النَّجاح الذي ينشده عبقري مثل طوماس أديسن هو غير النَّجاح الذي يسعى وراءه تاجر أقمشة أو صاحب فبرِكَة. وهو غير النَّجاح الذي يسعى وراءه رسَّام فنَّان أو مُوسيقيّ مَوْهُوب.

إنَّ خيبة العَبْقَري المرِّيرَة هي عندما ينشدُ ما ينشده التَّاجر مِنَ الرِّبح وهو لم يخلق ليكون تاجراً.. بل شاعراً مبتكراً للمعاني التي يستطيع أن يسبكها في أبيات من الشِّعر يكون فيها اللَّفظ على قَدْر المعنى والمعنى على قَدْر اللَّفظ حتى تُكتب له ولأشعاره الشُّهرة والصَّيرورة والخلود.

السَّمير: 25/ 9/ 1953

---

1 العَبقَرِيُّ: عَبْقرع كثير الجنّ والعَبقَرِيّ الكامل من كُلِّ شيءٍ والسيِّد والذي ليس فوقه شيء والشَّديد.

كيف نرى أنفسنا وكيف يرانا النّاس

كيف نرى أنفسنا شيئاً

وكيف يرانا النّاس شيئاً آخرَ

والمسافة بعيدة جداً بين هذين الطرفَين

لذلك يجدر بكُلِّ إنسان أنْ يناقشَ نفسه الحساب ويبحث عن مواضع الضَّعف والعَجْز فيه لعلَّه يتداركها ويصلحها قبل أنْ يراها النّاس ويدلّوا عليها بأصابعِهِم وبألسِنتهم!

أجل. عليه أنْ يفعلَ هذا الأمر قبل أنْ يفتحَ عينَيْه على عيوب الآخرين. فإنَّ وجود عيوب في غيرِه لا يستر عيوبه ولا يمحوها!

مثال ذلك. إذا كان تاجراً وحدَّثته النَّفس الأمَّارة بالسوء أنْ يشنِّعَ على تاجر ينافسه ويزاحمه فمن الخير له أنْ يتروَّى ويتربَّص فلا يطلق سهاماً ربَّما ارتدَّتْ إلى صدرِه قبل أنْ تصلَ إلى صدر منافسه.. كأن يزعم أنَّ ذلك التَّاجر لا يصدُق في أقوالِه. وأنَّ رأسماله ليس رأسماله. وأنَّه أفلس مرة أو مرَّتين إفلاساً إحتيالياً..

ما أحسن وأجمل أنْ يسألَ هذا المنَدِّد المُغتاب نفسه عمَّا إذا كان هو يصدُق في أقواله مائة بالمائة أو أقلّ أو أكثر وعمّا إذا كان لا يخلُقُ لذاتِه أحياناً بالتمويه رأسمال ولا يمكن أنْ يظفرَ به حتى في المنام!؟

ورُبَّ سيدة لذَّ لها أنْ ترفعَ مِنْ شأن فروتها وأنْ تتباهَى بصيغتِها لتوهم السَّامعين أنَّها مِنْ ذوات الغنى الوفير فتراها تندفعُ في المبالغَة والغُلُو زاعمَة أنَّها دفعَت ألوف الدولارات ثمن فروتها ولكنَّها في الحقيقة لم تدفع غير المِئات بل رُبَّما كانَتْ الفروة التي عليها ليسَتْ لها..

أو تزعمُ أنَّها ابتاعَتْ صيغتها مِنْ أعظم وأنفس مخزن للجواهر والحُلِي في باريس أو نيويورك وقد تكون اشترتها مِنْ جوهري عادي في الحي!

أو ربَّما كانَتْ جواهرها مزيَّفة!

لا. إنَّ التحدُّث عن النَّفس في هذه الصورة مثل التحدُّث عن الغير بتلك الصورة لا يزيد في مقام المرء ولا يرفعه بل ربَّما أنقص مِنْ قدره وذهب بكثير مِنْ احترام النّاس له.

يجب أنْ نرى الفضائل في النّاس لكي يَحُقَّ لنا أنْ نتوقَّعَ منهم أنْ يبصرُوا الفضائل فينا.

وأحسن مِنْ هذا أنْ نمرَّ بعيوب الغير كأنَّنا لا نراها لكي يغضي النّاس عن عيوب فينا.

إذا أردتَ أنْ يكون رأي النّاس فيك جميلا فهذا أمرٌ هَيِّن جِداً لأنَّه في طاقتِك ومقدرتك. وذلك بأن تكونَ أنت جميلاً فيصير رأي النّاس فيك جميلاً.

إذا كنت مقامراً أو سِكِّيراً فلا لوم على النّاس إذا قالوا عنك إنَّك مقامر أو أنَّك سِكِّير.

وإذا كنت بخيلاً كَزّاً فلا تنتظر أنْ يقولَ النّاس عنك أنَّك أكرم مِنْ حاتم طي!

أمَّا إذا كنت إنساناً مهذّباً عالي الأخلاق محبّاً للنّاس راغباً في الخير حريصاً على كرامتِك وعلى سمعتِك غيوراً على قومِك. مُترفّعاً عن الدَّنايا فمهما يختلق النّاس عنك مِنَ الأقاويل فإنَّك تخرج أخيراً كالقمر مِنَ الغَمام. وكالسَّيف مِنَ الغِمْد. فتبدَّد كُل الأقاويل ويتبدَّد مروِّجُوها الكَذَبَة المُرجفُون كالدُّخان!

مهما يعلق بالذَّهب مِنَ الغُبار فإنَّه لا يفقدُ قيمته ولا يتحوَّل إلى معدن خسيس. أمَّا المعدن الخسيس فمهما يُطْلَ بالذهب ومهما يكثر متقلِّدُوه ومادحُوه فإنَّه يظلُّ أوّلاً وأخيراً معدناً خسيساً!

لا تبالِ بما يلفقُه الحسَّاد عنك إلاّ إذا كان ما يقولونَه صحيحاً!

إنَّ الغُبار مهما تعالَى لا يصلُ إلى الكواكب!

السَّمير: 5/ 10/ 1953

بعضٌ مِنَ الكُل

لم يقتصر مؤتمر الحِلْف السوري اللبناني الأميركي الذي انعقد في هوتال نيويوركر على أبناء وبنات الولايات الشَّرقيَّة وجاراتها بل كانَتْ كُلُّ ولاية في الإتحاد الأميركي تقريباً ممثلة في هذا المؤتمر مِنَ الباسفيك إلى الأتلانتيك - بل إنَّ التَّهافُت على حضورِه جاوز الولايات المُتحدة إلى كندا.. إلى أقاصي كندا فشاهدنا أشخاصاً مِنْ نوفاسكوشيا.

وزاد المؤتمر طلاوة وجمالاً أنَّ أكثر الدول العربيَّة كانَتْ ممثَّلة في المأدبَة التي أُقيمَتْ يوم الأحد وكانت غنيَّة بالخطباء المُفكِّرين.

وقد أسرّ الحضور أشدّ السّرور عندما أعلن عريف الحفلة الأستاذ قزما عنصره أنَّه سيقدِّم إليهم النائب اللبناني الجريء الأستاذ إميل البستاني الذي وصل بالطائرة مِنْ لندن في ذلك النهار. ووقف إميل يتصرَّف بالألبَاب تصرُّف خطيب قدير مُفتتِحاً كلامه بذكرى إجتماع جرى في بوسطن عندما كان هو تلميذاً في معهد (أم. آي. بي). إذ خطب في ذلك الإجتماع رفيق له في جامعة أخرى فاستقبل السَّامعُون كلامه بالهسهسَة [1] لأنَّه كان يخطب بالعربيَّة.

غير أنَّ هذا الخطيب صار بعدئذٍ شخصية عالميَّة - هو الدكتور شارل مالك.

وكان هو - أي إميل - يودُّ أنْ يخطبَ بالعربيَّة لعلَّه يشتهر كما اشتهر رفيقه. ولكن خشي أنْ لا يُقابَلَ بالهَسهَسَة فلا يبلغ أمنيته!

---

1 الهسهسة: كلّ ما له صوت خفي كالتهسهس.

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن البلدان العربيّة وما فيها مِنَ الكنُوز والإمكانيّات مؤكّداً أنَّ الدول العربية ستصير قوّة تُرَجِّح إحدى الكِفَّتين الدوليّتين.

وذَكَر ما دار بينه وبين المستر دالس وزير الخارجية الأميركيّة عند زيارته لبنان وأنَّ العرب ما يزالون يتوقَّعُون أنْ تعملَ أميركا على استرجاع مكانتها بتعديل سياستها الخارجية التي أضرَّتْ وآذت كثيراً.

ولما جاء دور المستر ماينُور سفير الولايات المتحدة في لبنان وصف الحالة في البلدان العربيّة وصف خبير ولم يحجم عن الإعتراف بأنَّ واشنطن ارتكَبَتْ مِنْ قَبْلُ في سياستها الخارجية أخطاء ولكنَّه أوضح أنَّها تعمل الآن على إصلاح هذه الأخطاء لأنَّها لا تستطيع أنْ تتجاهلَ مصالحها في الشَّرق الأوسط. ولا تقدرُ أنْ تغمضَ أجفانها وتتجاهل الخطر الشيوعي.

وبينما القوم تكاد أرواحهم تستشعر أنَّ كابُوس السياسة يقترب منها إذا بصوتٍ رخيم يتدفَّقُ كالفجر فيطرد ضباب الضجر عن النُّفوس. هو صوت الفتاة الموهوبَة سلوى مرهج فكان شعور القوم الحاضرين شعور الظمآن وجد ينبوعاً صافياً.

ومِنَ الخطبَاء الرسميِّين الذين استثارُوا إعجاب الحضور الدكتور فريد زين الدين سفير سوريا في واشطن ورئيس الوفد السوري لدى الأمم المتحدة. وقد ذكر الأستاذ إميل البستاني أنَّ الدكتُور فريد معلِّمه. وأنَّه كان مِنْ أركان الحركة الوطنيَّة منذ عهد بعيد.

وقد قام الدكتُور فريد بتقليد رئيسة الحلف السيدة شهربان ناصيف وسام الإستحقاق السوري اعترافاً بما لها مِنَ الخدمَات الطِّبية في مختلف النواحي الخيريَّة والإنسانيَّة والوطنيَّة.

وفي هذه المأدبَة منح الحلف الأستاذ يوسف سعدو وثيقة تقدير واعتراف بخدماتِه المُستمرَّة للحلف.

وعلى الجملة إنَّ الذين حضرُوا هذا المؤتمر عادُوا إلى منازِلِهم القريبة والبعيدَة ممتلئي الأرواح غِبْطة متزوِّدين تذكارات جميلَة ولا سيَّما لليلة الغنائيَّة العربية الأولى التي كانَتْ كأنَّها منسلخَة مِنْ ليالي بغداد في عصر هارون الرشيد. وكان بلبلها المطربَان عامر وسناء خدَّاج يرافقهما جُوْق موسيقيَّة ما اجتمع مثله في غيرها.

كذلك عادُوا إلى أماكنِهم وقد إتَّضحَتْ للكُل الحالة السِّياسية في الشَّرق الأوسط والإتجاه الجديد في سياسة الولايات المتَّحدة حيال تلك البقعة الخطيرة مِنَ الدُّنيا.

فضلاً عن المودَّات القديمة التي تجدَّدَت وهي التي ما كان قُيِّضَ لها أن تولد لولا هذا الاجتماع.

هذا بعض مِنْ كُلٍ إذ لا سبيل إلى الإحاطة بكُلٍّ ما جرى في المؤتمر.

السَّمير: 6/ 10/ 1953

كتاب الطَّبيعة

ينسى التَّاجر وهو قابع في مخزنه يتوقَّع الربح أو يخشى الخسارة أنَّ في الحياة ربحاً غير الربح الذي ينشده. كما أنَّ فيها خَسارة أعظم مِنَ الخَسارة التي يخشاها. وهو أنْ يتحسَّسَ الجمال في الطَّبيعة أو لا يتحسَّسه ففي الأوَّل غُنْمٌ ليس في أيَّة صفقة تجاريَّة رابحة. وفي عدم تحسُّس هذا الجمال الذي يحيط به مِنْ كُلِّ ناحية خَسارة أعظم مِنْ كُلِّ خسارة ماديَّة.

إنَّ إنساناً لا يبصر الجمال في ما حوله هو أعمى الرُّوح. وعلى عَقْله غشاوةٌ سَوداء.

ومثل هذا التَّاجر الضيق الأُفُق ذلك السِّياسي الذي يقضي وقته في خلقِ المعاثر لخصومِه. أو استنباط الحِيَلْ للوصُول إلى غاياتِه. فيذهلُ عمَّا في النّاس مِنْ جمال. بل يذهلُ عمَّا في نفسِه مِنْ جمال مكنُون. فإذا هو ثعبان في زيٍّ إنسان.

ومثل التَّاجر والسِّياسي كُلُّ شخص آخر يعيش ليأكل ويشرب وينام. وإذا اهتمَّ فبأنْ يكونَ طعامه أفخر مِنْ طعام جاره. وشرابه أغلى. وفراشه أنعم وأطرى. وما خَلا ذلك فهو عنده فضُول ومع ذلك لا يستشعر واحدهم القبح الصَّارخ في حقل حياته.

لا علاج لهذه الحالة إلاّ بعودة الإنسان إلى كتاب الطَّبيعة يطالعه فإنَّه الكتاب الأعظم الذي يشتملُ على السِّحر المُتجدِّد والحكمة التي لا تنفد..

وهي المعلِّم الأكبر الذي لا يحتاج المرء إلى غير الإصغاء إليه ليهتدِي إلى السَّعادة الخالصَة مِنَ الشوائب.

فأين نحن مِنَ الطَّبيعة؟ إنَّنا نشقى لأنَّنا لا نقترب منها. وننسى أنَّ ابتعادنا عنها ـ ابتعاد عن الجمال الحق والخير المَحض وعن الله.

السَّمير: 14/ 10/ 1953

الشَّهر السَّاحر

لو هَمَس الله في أعماق قلبك إنَّك لن تعيش غير شهر واحد وترك لَكَ أنْ تختارَ أيَّ شهر مِنْ شهُور السنة. فأيُّها تختار؟

لو سألتني أنا لقلتُ لك إنِّي أختار تشرين الأوّل[1]!

إنَّ العصافير تحبّه. والوحوش تحبّه. والإنسان نفسه يقف فيه على قِمَّة السَّنة.

إنَّ هذا الشَّهر هو كُلُّ الفصول مجموعة وموضوعة في علبة مؤلَّفة مِنْ إحدى وثلاثين يوماً ومربوطَة

---

1 تَشْرين اسم شَهرين من شهور السَّنَة السُّرْيانيَّة تَشْرين الأَوَّل وهو «أُكْتوبر» وتشرين الثاني وهو «نُوفَمبر».

بشريطَة مِنْ قوس قُزَح.

هو الفترة التي تعرضُ فيه الطَّبيعة السَّاحرة كُلَّ زينتها وكُلَّ فنونها. هو المَعْصَرَة[1] التي تستخرج مِنَ الشُّهور الأخرى كُلَّ ما فيها مِنْ عذوبَة وجمال. وفي هذا الشَّهر الشَّوق إلى الرَّبيع. وأفراح الصَّيف. ونشوة الخريف ورعشة الشِّتاء.

في هذا الشَّهر يستشعرُ كُل شيء في الأرض طَرباً متوهماً. ويحُسّ النشاط يغنِّي في عروقِه.

إنَّ مجد الكون يتجلَّى في هذا الشَّهر. فإذا كُلُّ هضبة تختال بالأشجار التي تُزَيِّنها.

أتحبَّ السَّرْو[2]؟ لن أختلف وإيَّاك. إذن أنا أحبُّ شجر الحُور[3]!

إنَّ الطيور تنظر بإمتعاض إلى الإنسان الأحمق يطوي المسالك في سيارتِه طلباً للنزهة والرَّاحة في شهر تموز!

إنَّ شهر تموز ليس شهر النزهة للطيور فهْيَ تعرف أكثر مِنَ الإنسان الوَقْت الموافق للسَّفر فتراها تهجُر أعشاشها في هذا الشَّهر وتمضي أسراباً أسراباً إلى الجَنُوب.

وفي هذا الشَّهر يَرِقُّ الهواء ويصفُو الجَلَد فتلوحُ النُّجوم أدنى إلى الأرض. ويتجلَّى القمر قريباً جداً حتى ليكاد المرء يتوهَّم أنَّه يستطيع أنْ يطالَه بيدِه. ويشعر كُلُّ إنسان كأنَّما على عينيْه نظَّارتَان ملوَّنتان. أو كأنَّ الأرض قد اندَفقَتْ عليها سحب مِنَ الألوان.

لا يعرفُ هذا الشَّهر حدوداً ولا تُخُوماً[4]. بل يغمُر بجمالِه السهول والهضاب والأوديَة والأنهر ويبعثُ النَّشْوة في الطيُور والأشجار وفي النَّاس. حتى ليكاد المرء يسمع دَبيبُ الموسيقى في عُروقِه.

وترى السِّنْجاب[5] المُتوقِّد العينينِ الكثَّ الذنَب يتحوَّلُ إلى شحيح حريص يكدح ليجمع في وَكْرِهِ الخفي ما يكفيه مِنَ البَلُوط إلى شهر آذار. ويكنز الدبُّ الشحمَ في بدنِه لكي يستهلكه أثناء نومه في الشِّتاء ويخرج في الرَّبيع كأنَّه تاجر أفلس.

وتصير الرِّيح في هذا الشَّهر كمنجَة تعزفُ في اللَّيل لحن الحب للشَّباب. وأجمل ألحان الشَّباب للشيُوخ. فهل تسهر لتسمعها؟ مِنَ الخير لك أنْ تسهر! فإنَّ هذا العازف سينتهي مِنْ عزفِ ألحانه ويمضي.

إنَّه يسكبَ في كؤوسنَا أطيب خمُور الحياة فمَنْ لا يشربُ منها الآن فهْوَ تاجرُ خَلّ!

السَّمير: 14/ 10/ 1953

---

1 المَعْصَرَة المكان يعصَر فيه السُّمْسُم ونحوه لاستخراج الزَّيْت.

2 السَّرْو: جنس شجر حَرَجيّ للتَّزيين من فصيلة الصَّنَوْبريَّات الواحدة سَرْوَةٌ.

3 الحُوْرُ: خشب أبيض اللَّون له مظهر متجانِس يستعمل في صُنْعِ ألواح خشب الطَّبقات.

4 التُّخوم: تُخُوم الأرض خدودها.

5 السِّنْجاب: حيوانٌ أكبر من الجُرُذ له ذنب طويل كثيف الشَّعْر يرفعه صُعُداً يضرب به المثل في خِفَّة الصعود ولونه أزرق رماديّ ومنه اللَّون السِّنْجابيّ.

تولد السمير

أطلَّ علينا هذا النَّهار الثاني من تشرين الثاني وأطلَّتْ معه ذكريات أربع وعشرين سنة مرَّتْ على تأسيس «السَّمير». ذكريَات فيها الحلو والمُرّ. وفيها المُبهجُ وفيها المُزعج. ولكنَّنا لم نحتفظ منها إلا بالجميل. وحتى المُزعج منها وجدْنَا فيه حلاوة لأنَّه كان طريقاً إلى المُبْهج.

صدرَتْ «السَّمير» مجلة نصف شهريَّة عندما كان كُلُّ شيء يُخْبر أنَّ حياة المجلَّة العربيَّة في المهجر أقصر مِنْ عمر الورد. وعندما كانَتْ عواصف الحطمة[1] الإقتصاديَّة موشكَة أنْ تهبَّ وتكتسح وتَجْرُف.

واستمرَّتْ «السَّمير» تصدر مجلة مدة سبع سنَوات كانَتْ كالسنوات العُجَاف[2] التي مرَّتْ في تاريخ مصر الفِرعونيَّة.

ثمَّ وجدنَا أنصار المجلَّة يطلبُون ويلحُّون أنْ تصيرَ جريدة ولو أُسْبوعيَّة فوثبْنَا بـ«السَّمير» مِنْ مجلَّة إلى جريدة يوميَّة. ورأسمالنا الأكبر ثلاثة هي:

أوَّلاً: الثِّقة بالله.

ثانياً: والثِّقة بالنّاس.

ثالثاً: والثِّقة بالنَّفس.

أجل. بالثقة التي لنا بالخالق وبالنّاس وبالنَّفس أقدمْنَا على إصدار «السَّمير» جريدة يوميَّة بالرَّغْم مِنَ المصاعب التي كانت في طريقِنا. لأنَّ الظروف لم تكن مؤاتيَة. وكان مَنْ يباشر عملاً جديداً في ذلك الوَقْت كمَنْ يُلْقي نفسه في بحر ثائر لكي يَسْبح! أو كمَنْ يطرح نفسه في أتون ساجر لكي يدفأ!

كنَّا نسير في حياتِنَا الصَّحافيَّة بإيمان المُسافر الظمآن المُوْقن بأنَّه سيصل أخيراً إلى ساقيَة صافية أو يَنْبُوع زلال[3] يروي بمائه عطشه.

وكنَّا نعمل بشوق الإنسان الساهر الذي يقطع اللَّيل مُطمئناً إلى أنَّه سيشاهد فجراً سَنياً في آخر اللَّيل.

---

1 الحُطْمَة: من أَسماء النَّار لأنَّها تحطِم ما تَلْقى.

2 العُجَاف: العَجَفُ الهُزال فهو أَعْجف والأُنْثى عَجْفاء.

3 الزُّلال: الماء العذب الصَّافي البارد السَّلِسُ.

ولهذا كنّا برغم الجهاد المُضْنِك المُضْني نشعر بغبطة روحيّة نَذْهَلُ معها عن المَشاق [1] والمتاعب ولا سيَّما عندما تتعالَى حولنا أصوات التشجيع مِنَ القُرّاء الأعزاء الذين يرجع إليهم الفضل في بقاء «السَّمير» ونُمُوِّها وازدهارها.

فنحن اليوم نودِّع السنة الرابعة والعِشْرين ونستقبل السَّنة الخامسة والعشرين والرَّغبَة في خدمة قومنَا مُتَّقدَة جذوتها [2] في النَّفس كأنَّما نحن ما زلنا في أوَّل الطَّريق!

ولا رَيْبَ في أنَّ رفاقَنا عندهم مِنَ الحب والتَّقدير اليوم مثل الذي غمرونَا به مِنْ قَبْلُ.

ولا نريد أنْ ندلِّلَ على ما قامَتْ به «السَّمير» مِنْ خدمة القضايا الوطنيَّة والمشاريع الخيريَّة والأدبيَّة بل الذي نريد أنْ نقولَه في هذا الموقف إنَّنا باقُون على العَهْد الذي قطعنَاه على أنفسِنَا منذ دخلنا حَوْمَة [3] الصَّحافة.

وشكراً لله ولكم يا رفاقنا ونصراءنا وأعواننا.

السَّمير: 2/ 11/ 1953

يجب أن نعيش في المستقبل

كنت أَمْس أستعرض بعض الحوادث التي تمرُّ في حياتِنَا كقوم فَلاَحَ لي أنَّنا نعيش في الماضي أكثر ممَّا نعيش في الحاضر. وإنَّنا قليلاً ما نعيش في المستقبل.

ولعلَّ هذا مِنْ أكبر العوامل في اضطراب أحوالنا وانعدام الإنسجام في أعمالنا ثمَّ لعلَّه مِنْ أهمّ الأسباب في تفرُّق كلمتنا وتأخُّرنا عن بقية الأمم.

ولست أريد أنْ أقولَ أنَّنا يجب أنْ ننسى الماضي ونَمْحو صورته مِنْ أفكارنا. فليس هذا بالأمر المُمْكن. لأنَّ الماضي موجُود فينا. إنَّه في دمائنا التي تجري في عروقِنا وفي عاداتنا التي نمارسها دون وَعي. وفي الأقوال التي نردِّدها على أنَّها أقوالنا وهي في الواقع ممَّا وَرِثنَاه عن الأسلاف؛ وفي الماضي أمجاد وبطولات وآيات مِنْ علم وفن وأخلاق.

إنَّ الذي أرمي إليه وأحبُّ أنْ أقوله لكُلِّ واحدٍ مِنْ أبناء بلادي هو أنَّ في الأيّام الماضية التي نَحْسَبُها مَجْداً وخيراً كُلَّها. سيِّئات وخطيئات، من المفيد لنا أنْ نطويها من غير أنْ ننشرها لأنَّ في نشرها أذيّة لنا. وأحسن مِنْ هذا وأفضل لحياتِنا أنْ نضع النقاط على الحروف فلا نصوِّر السَّيِّئات حسنَات. ولا ندع

1 المَشقَّة العَناء ج مَشَاقّ.

2 الجَذْوَة الجمرة المُلتهبة.

3 الحَوْمَةَ: من البحر معظمه ومن القتال أشدّ موضع فيه.

الأسلاف الذين صاروا تراباً في التُّراب يسيطِرُون على أرواحنا وعقولنا وسلوكنا ويكيِّفُون علاقاتنا مع النّاس.

إذا كان جدُّك وجدي اختصمَا واقتتَلا في الزّمن الغابر على شبر أرض أو على قَدْرٍ مِنَ المال. أو تَعَاديَا لأنَّ أحدهما تفوَّق على الآخر في فن أو مهنَة أو تجارة أو غلبَهُ في معركة حزبيَّة فهل يجب عليك يا حفيد ذلك الجَد أنْ تعادِيني بعد أنْ تعاقَبَتْ السُّنون على ذلك الخصام وصار أولئك المُتخاصمُون تحت أطباق الرَّغَام [1]؟

وهل مِنَ الضروري لصَلاح الحياة أنْ أحقدَ عليك لأنَّ جدي حقد على جدِّك؟ لا لسببٍ آخر؟!

إذا كان الأسلاف لم يعرفوا قيمة التعاون لأنَّهم كانُوا يعيشون كالنُّسَّاك بِمَعْزل عن العالم. فهل يليقُ بك وبي أنْ نفعلَ مثلهم ونحن الآن في عصر لم تبق قرية في الأرض غير متَّصلَة بالعالم كُلِّه؟

أَجل [2]. إنَّ أكثر الخلافَات في القرى هي مِنْ هذا النَّوع بل إنَّ النزاع بين الطوائف هو مِنْ مُخلَّفَات الأجداد وبقايَا تلك العصُور.

إذن نحن أحوج مِنْ كُلِّ النّاس إلى «عهد جديد»! عهد تتبدَّل فيه طرائقنَا في النَّظر إلى الحياة وإلى النّاس. فهذا أهم وأعظم مِنْ تبدُّل وجوه الحكّام. عهد يشعرُ فيه كُلُّ واحد أنَّه مسؤول عن جارِه وابن قريته بل عن وطنِه كُلِّه. فبدون هذا الشُّعور لا يصير أيُّ شعبٍ شعباً محترماً قادراً على تكييف شؤونه وتدبير أحواله.

نريد عهداً يسألُ فيه الإنسان نفسه ـ ماذا أقدر أنْ أعمل في سبيل بلادي وأمَّتي بدلاً مِنْ أنْ يقول: ماذا فعلَتْ بلادي وأمَّتي في سبيلِي.

نريد عهداً يقول فيه الإنسان لذاتِه عندما تتحرك فيه النِّقْمة الموروثَة على جارِه وابن وطنه ـ ألا يمكنني أنْ أصنعَ مِنْ هذا الجار صاحباً وصديقاً؟ أليس أنفع لي وله أنْ نكونَ صديقين يتعاونَان في كُلِّ الأمور بدلاً مِنْ أنْ نكون خَصْمَيْن يقضيَان الحياة في النِّزاع والمشادَات والعَداء [3]؟

ولكي يسهل على المرء أنْ يخفضَ جناحه لجارِه وابن وطنه يجب عليه أن يقول في نفسه: هل أنا المخطيء في ما وقع بينهما لأنَّه يجوز أنْ يكونَ هو الذي أساء مثلما يجوز أنْ يكون غيره المُسيء.

ليس لإنسان أنْ يدَّعي العِصْمَة [4] والكمال ولا يمكن أنْ يكون الحق كلُّه ما تتصوَّره أنت أو أنا أو هو أنَّه الحقّ.

إنَّ شجرة البغض تنمو كلَّما سقاها صاحبها ولكنَّها لا تثمر إلا الشَّوك المُؤْلم أو الثَّمَر المُرّ المذاق..

---

1 الرَّغَام بالفتح التّراب.

2 أَجل حرف جواب بمعنى نَعَم.

3 العَدَاء بالفتح والمَدِّ تجاوز الحَدِّ بالظّلم.

4 العِصْمَة: المنع يقال عَصَمه الطَّعام أيِ منعه من الجوع والعِصْمَة أيضاً الحِفْظ.

إذن فالخير كُلُّ الخير في أنْ نغرس شجرة المحبّة لأنَّ زرعها لا يستلزم مشقَّة ولا نفقة أكثر مِنْ غرس شجرة البغضاء!

ومَنْ لا يحب لا يعرف كيف يَصْفَحُ ويَغْفِر ويُغْضي عَنِ العيُوب.

السّمير: 14/ 12/ 1953

المكاسب الخفيَّة

أمّا والسّنة 1953 مُوشكَة أنْ تنطويَ وتغرق في بحر الزمن. فإنَّ التجار والموظفين والعمال منصرفُون في هذه الفترة إلى إحصاء ما ربحُوا فيها. ولكنَّهم لن يَعُدّو في الأرباح غير المكاسب الظّاهرَة المحسوبَة مِنْ مال وعقار وسندَات وبضائع وأدوات. إلا الذين صارَتْ لهم في الحياة آراء مثل آراء الفلاسفة فهؤلاء لا يذهلُون عن المكاسِب الخفيّة لأنَّهم يعرفُون ما هي ويعرفُون أنَّها أغلى المكاسب وأهمُّها.

مِنَ المكاسب الخفيّة ما يلي:

إذا كنتَ طالَعْتَ كتاباً لأحد جهابذة[1] المُفكّرين فلا رَيْبَ[2] في أنَّك استفَدْتَ منه عظة أو حكمة أو أضفْتَ إلى معارفِك معرفة جديدة أو وجدْت في مطالعتِه لذَّة عقليّة وغبطة روحيّة.

هذا مَكْسَبٌ عظيمٌ ولكنّه غيرُ مَنْظور.

وإذا كنت في خلال السنة المشرفة على الغياب قد ذهبْتَ في شتائها إلى إقليم حارّ أو انتقَلْتَ في صيفِها إلى جبل أو شاطيء لم تَزُره مِنْ قَبْلُ فإنَّك بالطَّبع رجعْتَ وفي ذهنِك صُوَرٌ رائعة لمحاسن الطَّبيعة كلَّما عُدْتَ إليه أحسَسْتَ كأنَّك قد انتقَلْتَ إليها وأنت قاعد في بيتِك أو مكتبك.

هذا ربحٌ لم يسجّله قلمٌ في دفتر!

وإذا كنت حَضَرْتَ حفلة غناء أو رقص وطَرَدَتْ عنك الألحان والأنغام هَمّاً كان رابضاً على صدرِك كالكابوس. فإنَّك قليلاً ما تذكر هذا الأمر لكثرة ما لديْك مِنَ المشاغل ولكن صدِّقنا إنَّك لو لم تذهب إلى تلك الحفلة لكان الهمُّ الرَّابض على صدرِك قد تضاعف. فأنت إذن في كِفَّة الرِّبح.. الرِّبح الذي لا يقع عليه نظر ماسك الدفاتر.

وربَّما تكون قد حاولت القيام بمغامرة فعَدَلْتَ عنها لأنَّ أصدقاء لك أوفيَاء وإخواناً عقلاء أوضحُوا لك أنَّها مغامرة فاشلة محفوفَة بالمكاره.. إذن فالطُّمَأْنينَة الروحيَّة التي أنت فيها الآن لأنَّك لم

---

1 الجِهْبذ: النقَّاد الخبير بغوامِض الأمُور ج جهابِذَة.

2 لا رَيْبَ: الرَّيْب الشَّكّ والاسم الرِّيبة وهي التُّهْمة والشَّكُ.

تركب متن الخطر، ربحٌ كبير. ولكنَّه ربحٌ لا يشعر به ولا يدركُ قيمته إلا أنت وحدك.

ولعلَّك وقعْتَ في شدَّة. وتلفَّتَّ حولك شاخصاً إلى صديق لك في انتظار المعونَة منه لأنَّك تعتقد أنَّه يغار عليك كما يغار على نفسه ويحرصُ على مصلحتك كما يحرصُ على مصلحته. فإذا ذلك الإنسان الذي كنتَ تحسبه عنوان الوفاء ورمز الإخلاص قد تحوَّل في تلك الساعة إلى خشبَة أو إلى صَنَم لا شعور له ولا إحساس. بل ربَّما رأيتَه يُظهرُ بك الشَّماته كأيٍّ خصم أو عدو.

إنَّ تجربَة كهذه موجعَة مؤلَمة ولكنَّها في الواقع نعمة جاءت في ثوب نِقْمَة. فلولاها لما تكشَّف لك ذلك الصاحب عن صورتِه الحقيقية وطبيعته المزيَّفة.

﴿وعسى أنْ تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم﴾ [1].

والمكاسب الخفيَّة التي مِنْ هذا الطِّراز أكثر مِنْ أنْ تُحصَى. وحسبُنَا أنْ نذكرَ منها ثلاثا:

أوّلاً: الصيت الحسَن. فإنَّ إنساناً محمود السُّمعة عطر الصِّيت بين النَّاس هو غني كبير وإنْ كان فقيراً. وذو السُّمعة السيِّئة المكروهة فقير ولو كانَتْ له ثروة قارون.

ثانياً: الصحة. هذه اعظم المكاسب. إذا كانَتْ موفورة للمرء فإنَّ كُلَّ شيء موفور له. إنَّ الحياة لا تبدو جميلة لإنسان سَقيم.

ثالثاً: الصَّديق المُخْلص. قالوا إنَّه ثالث المستحيلات لندُورتِه. وقال أحد الشعراء:

تمسَّك إنْ ظفَرتَ بذيل حُرٍّ   فإنَّ الحُرَ في الدُّنيا قليلُ

لا. إنَّ الصَّديق المخلص ليس خرافَة كالعَنْقاء [2] والغُول [3]. إنَّه موجود. ولكنَّنا نتوقَّع منه أنْ يكونَ إلهاً وهْوَ إنسان. وأنْ يضحِّيَ بنفسِه وماله وكُلِّ شيء له مِنْ أجلنَا فنحن إذن الذين نجعلُ منه خرافَة وشيئاً مستحيلاً.

فإذا كان لك صديق فلا تكلِّفه فوق طاقته ولا تطلب منه أكثر ممَّا يطلب منك.

هذه بعض المكاسب التي لا تدوَّن بالأرقام في الدفاتر. لأنَّها فوق الأرقام.. وهي مكاسب لا تُستَوفَى عنها ضرائب ومكُوس [4]. فإذا كانَتْ في حوزتِك وأدرَكْتَ قيمتها فأنت الإنْسان السَّعيد.. وأنت أخيراً في جانبِ الرِّبْح.

السَّمير: 15/ 12/ 1953

---

1 216 م البقرة 2.

2 العَنْقاء: الدَّاهية وطائر معروف الاسم مجهول الجسم.

3 الغُوْل: بالضَّمِّ الهَلَكة والدَّاهية والسّعْلاة ج أغوال وغيلان.

4 المكوس: المَكْس الجباية ج مكوس. والعَشّار قابِضهُ: وعَشرهم أخذ عُشْر أموالهم.

روحُ العيد

ها هي طلائع الميلاد ورأس السنة تطلُّ على النّاس مِنْ نوافذ المنازل أضواء حمراء وصفراءَ وزرقاءَ وبيضاءَ. وتُطِلُّ معها الأشجار اللابسة مختلف الزَّخارف.

وها هي بشائر العيد تتألَّق في الحوانيت حِلِيَ[1] وجواهر. أو ملابس وألاعيب. وأدوات وأثاثاً. وكُلّها تبعثُ الغِبْطة في الأرواح كما تُسَرُّ العُيُون.

ولكن أجمل هذه البشائر وأسمى هذه العلائم هي تلك الإبتسامات التي تموج في الوجُوه وعلى الثغُور أنّى ذهب المرء وكيفما التفت.

إذا لم يكن في الأشياء المرئيَّة غير هذه الإبتسامات التي تنمُّ على أفراحٍ جديدة في القلوب لكفى أنْ يعرفَ الإنسان أنَّ الدُّنيا تبدَّلَتْ مِنْ كآبتِها بشاشة. ومِنْ خوفِها طمأنينةً. ومِنْ بغضها حُبّاً ومِنْ شكِّها إيماناً.

فيا لَيْتَ شعريَ[2] ـ وفي وُسْع البَشَر أنْ تتولَّد في نفوسِهِم روح المحبَّة والتَّسامح أثناء المواسم والأعياد. لماذا تفارقهم روح العيد بعد انقضاء العيد؟

أسبَب ذلك أنَّ الإنسان يجدُ لذَّة في صُحبة الشَّقاء. وجيْرة القَسْوة والبَغْضاء؟!

أم أنَّ النسمَة العُلْويَّة المودَعَة في الإنسان لا تزال عاجزَة عن التغلُّب على الحيوانيَّة فيه؟!

أم تراه عندما تجيء المواسم يشعر أنَّه كان في الأيّام التي سبقَتْها وهي كثيرة ـ يسيرُ في طريق الإثم والضَّلال فهو يكفِّرُ عن خطاياه وآثامه في المواسم بتوزيع ما في قلبِه مِنَ الحُبّ ابتسامات وما في يدِه مِنَ المال هدايا وهبات؟

كانَتْ البشريَّة قبل مجيء النَّاصري مُنغمسَة في حَمْأة[3] الشر والبهيميَّة فلمَّا جاء عليه السَّلام كَشَف بتعاليمِه السِّتار المُسْدَل على ما فيها مِنْ محاسن فأدرك الإنسان أنّه يقدر أنْ يحبَّ كما يقدر أنْ يبغض. وأنَّه يستطيع أنْ يسوقَ الخير إلى جارِه مثلما يقدر أنْ يمشيَ إليه بالأذى.

وفوق ذلك.. واهمّ مِنْ ذلك أدرك الإنسان أنَّه يجدَ في عمل الخير لذَّة لا يجدها في عمل الشَّرِّ. ولا في التَّخاذل لذَّة لا يجدها في عمل الشر. ولا في التَّخاذل والتقاعد عن عمل الخير..

وهذه الرُّوح هي التي وثبَتْ بالبشريَّة مِنْ حَضيض الجهلِ المُتلِف المُدمِّر إلى أوجِ المعرفة البانيَة المُعمِّرَة. فكانَتْ الحضارة وكان الرُّقيّ.

السَّمير: 23/ 12/ 1953

---

1 الحِلِيّ ما: يتزيَّن به من مَصُوغ المعدنيَّات أو الحجارَة الكريمة.

2 ليت شِعْرِي فلاناً وله وعنه ما صَنَع أي ليتني شَعَرْتُ.

3 حمأة: الحَمَأ الطِّين الأَسود المُنْتِن والقطعة منه حمأةٌ.

بعد أربعة أيام

بعد بضعة أيام.. أربعة في العدد.. تسقط آخر ورقة في الروزنامة.. وتغرقُ في خِضَمِّ الزَّمن 356 يوماً كما غَرِقَتْ قبلها آلاف السِّنين. بل قل الملايين.. فهكذا يقول أهل العلم.

أجل. بعد أربعة أيّام يتبدَّل وجه الروزنامة فنصير ندوِّنُ في رسائلِنا وفواتيرنا ودفاترنا هذا الرقم 1954 بدلاً مِنْ 1953 لأنَّ الأرض دارَتْ دورتها فصار حَتْماً علينا أنْ ندور معها.

ويقف النّاس في كُلِّ مكان بعد أربعة أيّام يهتفُون ويزمِّرُون ويرقصُون احتفالاً بانقضاء سنة أخرى عليهم وهم أحياء في الوجود يأكلون ويشربون ويحبُّون ويبغضون ويطربون ويلعبون.

هكذا كان على الأرض منذ مئات وآلاف السنين ناس كالنَّاس الذين على سطحِها اليوم وكما يصنع هؤلاء اليوم كان أولئك يصنعون.

إذن فالنّاس الذين كانوا هنا منذ أجيال لم تندثر منهم إلا الهياكل والصور أمَّا آمالهم وأحلامهم وحبُّهم وبغضهم وضحكهم وبكاؤهم وطموحهم وقناعتهم.. إنَّ هذه كُلَّها لم تندثر لأنَّها لا تزال تتكرَّر كأنَّها وُلِدَتْ السَّاعة..

قد تبدَّل المأوى مِنْ كوخ إلى قصر وتبدَّل المَلْبَس مِنْ خيش إلى حرير.

ولكن الغاية مِنَ الآنيَة والمطيَّة والموقد لم تزل هي هي. فالإنسان لا يزال يَعْطش في عصر الكهرباء والذرَّة والرَّادار كما كان يعطش في عصر المقلاع والهِراوة[1] والسِّراج ولا يروي عطشه إلا الماء سَواءٌ جاءه في إناء مِنْ خزف أو خشب أو بِلَّوْر[2].

ولا يزال يجوع. ولا يشبعه إلا الطعام سَواءٌ أكان خبزاً أم قمحاً أم ثمراً أم لحماً. وهو حتى في أرْقى حضارة إذا لم يظفر باللَّحم مطبوخاً أو مقدَّداً[3] أكله نيئاً. وإذا أعوزَتْه السكِّين والشَّوكة مزَّقه بأسنانِه وأظفاره!

أجل. إنَّ النّاس ما زالوا اليوم كما كانوا منذ أجيال. ولكن معظم النّاس يتوهَّمون أنَّ العصور الخوالي كانت أهنأ وكان النّاس فيها أسعد. أو أنَّهم يتوهَّمون أنَّ الحياة اليوم أجمل وأكْمَل.

وهؤلاء مثل أولئك مخطئون ومصيبون معاً. ففي كُلِّ عصر سعادة وتعاسة. وفي كُلِّ محيط هناء وشقاء.

وليس للزَّمن يد في الأمرين. فالنّاس هُمُ الذين يجلبون الشَّقاء أو الهناء لأنفسِهِم على مقدار ما

---

1 الهِراوَة بالكسر العصا الضَّخْمة والجمع الهَراوَى بفتح الهاء والواو.

2 البِلَّوْرُ حجر أَبيض شفَّاف ونوع من الزُّجاج.

3 المُقَدَّد: القَدِيد من اللَّحم ما قُطِع طولا ومُلِّح وجُفِّف في الهواء والشَّمْس.

يبغضون أو يحبُّون. فحيث لا حبَّ ولا هناء فلا سلامٌ ولا طُمأنينة ولا اسْتِقْرار.

السَّمير: 28/ 12/ 1953

إزرع جميلاً ولو في غير مَوْضِعِهِ

هل سمِعْتَ قولهم - عملنا طِرْس [1] بركَة. طلع طِرْس لَعْنة؟. وهل خطر في ذِهْنك أنْ تتساءل لماذا تصير البَرَكَة أحيانا لَعْنة؟ وبكلمة ثانية يتحوَّل الخير إلى شرّ.

إنَّ كثيرين يردِّدون هذا المثل المشهور كما يردِّدون غيره مِنَ الأمثال بدون أنْ يُجْهِدوا أَنْفُسهم في التَّعليل والتَّحليل للإهتداء إلى السَّبب في إنقلاب البَرَكَة إلى لَعْنة.

إنَّ نقطة الحبر السَّوداء يجري بها قلم على الطِّرس في رسالة إلى صديق أو مقالة لطيفة أو حكاية ظريفة بَرَكَة تُحْمَد وتُشكَر وتُحَب. ولكن هذه النقطة ذاتها إذا وقَعَتْ على ثوبٍ أبيض شوَّهَتْه فصَارَتْ لَعْنة.

والشَّمعة التي يُستضَاء بها في اللَّيل تظلُّ بَرَكَة حتى يَغْفُلَ عنها مُوقدُها أو يَعْبَثَ بها طفل فيُدنِيها مِنْ ستارة النافذة أو مِنْ جريدة أو ورقة فإذا الشمعة تُحدثُ حريقاً فتصير نِقْمة بعد أنْ كانَتْ نِعْمة.

وهكذا كُلُّ شيء آخرَ. إذا أُسِيء استعماله أو إذا وُضِع في غير مَوْضعه..

يحدُث أحياناً أنْ تُسديَ جميلاً إلى شخصٍ فُضُوليّ [2] أو مُحتاج أو غريب الدَّار. فيقابلُك على جميلك بالعقُوق أو الجُحُود بل ربَّما جازاك عن إحسانك إليه إساءة. فتتعجَّب في نفسِك وترجع على ذاتك باللَّوم لأنَّك أحْسنت!

لا يا صاحبي. إنَّ الخاسر هُوَ، لا، أنت. ومهما يكن مِنْ سوء فعله وقبيح سلوكه فإنَّ جميلك يظلُّ جميلاً. ويجب أنْ تظلَّ أنت تعتقد أنَّك فعلْتَ أمراً حَسَناً.

ولا رَيْبَ في أنَّ ما لقيتَه مِنْ ذلك الجاحد العاقّ [3] يَهونُ عليك إذا أنت رَجعْتَ إلى الطَّبيعة ورأيْتَ كيف يضيع المطر المُحيي في الأرض الصخريَّة الشَّائكة.

إنَّ بعض النّاس كهذه الأرض الصخريَّة الشَّائكَة تشرَب المَطَر ولا يَبين فيها أيّ أثر.

ولكنَّ الغمائم الحُبْلَى بالماء تظلُّ تزورها كما تزورُ الحدائق والبساتين وتَسْكُب عليها ماءَها كما تَسْكُبه على تلك.

السَّمير: 18/ 1/ 1954

---

1 الطِّرْس الصَّحيفة ج طُرُوس.

2 الفُضولِيّ من الرِّجال المشتغل بالفُضُول أي الأمور التي لا تعنيه.

3 العاقّ: عَقَّ أباه عقّاً وعُقُوقاً استخفّ به وعصاه وترك الإحسان إليه فهو عاقٌّ وعَقُوق.

المخدِّر الفتَّاك

تُوالي الحكومات في كُلِّ بلد راقٍ مكافحة المُخَدِّرات [1] ومطاردة تجّارها وزرّاع شجرتها. لأنَّ هذه المُخدِّرات آفات ذات فَتك مُهْلك في الجُسوم والعقول. ومِنْ واجب كُلِّ حكومة أنْ تَحْرِصَ على صحَّة شَعبها وأنْ تسهرَ على سلامتِه مِنْ هذا الخطر مثل سهرها لوقايتِه مِنْ كُلِّ خطر آخر.

إنَّما في الشَّرق العربي.. ونعني به كُلَّ بلاد ينطِق أهلها بالضَّاد [2] نوع مِنَ المخدِّرات لا يُزرَع في أرض. ولا يُحْمَل في سفَط. ولا يُنقَل في حقيبة أو صندوق. ولا يُنشَق كالذّرور. ولا يُحرَق في سيكاره أو غليون كالتَّبغ. ولا يُشرَب في كأس أو أيِّ إناء كالخمور. وليس له طعم ولا لون ولكنَّه في الواقع أضرُّ مِنْ كُلِّ مخدِّر يتعاطاه المُبتَلون بهذه الآفة انتشاقاً وتدخيناً وشراباً.

هو سمٌّ زعاف للعقول والأرواح والهِمَم يقدِّمه تجّاره إلى الجماهير علناً كأنَّه الترياق الشَّافي ولا يخْشَون رقيباً ولا حسيباً ولا لوماً ولا تَبْكيتاً.

إنَّه هذا النوع مِنَ الأدب الذي يُزَهِّدُ الإنسان في كُلِّ ما في الدُّنيا مِنْ مَتاع. ويصوِّرُ له أنَّ الزهد هو الطَّريق القويم للسلامة والسَّعادة وأنَّ الغنى شرٌّ مستطير وإثمٌ لا غافر له.

ولأصحاب هذا المخدِّر السام منطق عجيب في زخرفة هذه الفلسفة السلبيَّة القاتلَة لكُلِّ طموح. فإذا ذُكِرَ ركفلر مثلاً وأُحصِيَتْ ثروته العظيمة قالوا إنَّ هذا الغَنيَّ مريض فهو تعيس. أو أنَّه على خلاف مع زوجته فهْوَ غير مستريح كأنَّ الفقير لا يختلف مع زوجتِه وكأنَّه في حرزٍ حريز مِنَ الأمراض! إنَّ الواقع الذي يتعامَى عنه تجّار هذه الفلسفة الهدَّامَة هو أنَّ إنساناً مثل ركفلر كان في أوَّل أمره فقيراً فلم يعجبْه الفَقر. ولم يجد السَّعادة ولا الراحة مع هذا الصَّاحب! فطَمعَ إلى حالة أفضل. وعَيْش أرقى وأجمل. ولمَّا طَمَعَ جاهد ولمَّا جاهد أفلح وهبَّتْ رياح الحظِّ موافقة فصار مِنْ جبابرَة المال. عصب الحرب وعصب السِّلم.

قد يكون هذا المُثْري القاروني لقي عناء وشقاء في جِهادِه. وقد يكون الآن يحزن ويفرَح كما يحزن ويفرح كُلُّ إنسان. ويرجو ويخشى مثلك ومثلي. وهو عِرْضَةٌ [3] مثلك ومثلي للمرض والخوف والحزن والقلق والغمّ. ويجب أنْ يكون كذلك إذ لا يقلق ولا يغتم ولا يتألَّم إلا النّاس الذين أحتوتْهُم المقابر..

---

1 المخدِّر مادَّة تُسبب في الإنسان والحيوان فِقدان الوعيّ بدرجات متفاوتَةٍ ج مُخَدِّرات.

2 الضَّاد أي لغة الضَّاد وهي اللغة العربية وسُمِّيت بلغة الضَّاد لأنَّ حرف الضَّاد هو أحد حروفها الأبجدية وغير موجود في أية لغة في العالم إلا فيها.

3 وجعلت فلاناً عِرْضَةً لكذا أي نصبته له.

إذن ليس صحيحاً قول أحدهُم في جريدة «الأيام» الدِّمشقيَّة «أنَّ العَظَمة والغنى والجاه والسُّلْطان أحقر ما في الدُّنيا إذا كان الإنسان لا يعرف راحة البال ولا يدري كيف يشتري راحة البال».

وقوله «لعلَّ الفقراء المساكين أمثالي يهنأون عندما يعلمون أنَّ راحة بالِهم كنز فاق كنز روكفلر!».

هذا هو المخدِّر الفتَّاك الذي أشلَّ قوى الأمَّة العربيَّة طيلة الأجيال الغابرَة. فإنَّها عندما صارَتْ تصغي إلى أقوال سفسطاتية كهذه وتأخذ بها كأنَّها حقائق لا رَيْبَ فيها ران عليها الكسل والخمُول والجمُود فتقهقرَت. وصارَت تنظر إلى الأشياء التي تشتهيها وتعلم أنَّ سعادتها فيها. كما نظر الثَّعلب إلى الدَّالية العالية فقال عن عنبها المُتوهِّج: إنَّه حُصرُم.

قد يجد زاهد مُتنسِّك سعادة في هجر العالم ولكن أنْ تُدْعى أمَّة بكاملِها أو السواد الأعظم فيها إلى الزهد بالحياة فهذه جريمة يجب أنْ يُقبَضَ على صاحبِها مِنْ عنقِه وأنْ يُزَجَّ في أعمق سجن لوقاية النّاس منه..

لَيْتَ أصحاب هذه السّفسطة درسوا حياة روكفلر لعلَّهم يدركُون كم له مِنَ الأيادي الخيريَّة والمستشفيَات والكنائس فقد فعل في هذا السبيل ما لم تفعله مجموعة مِنَ الدُّول. وإذا لم يكن له مِنْ مأثُرَة[1] غير المعهد المُسمَّى باسمه. لكان هذا وَحْده سبباً كافياً لتمجيده وتخليده. وداعياً إلى شكر الإنسانيَّة إيَّاه.

أجل. هذا ما فعله هذا الرجل الفاقد راحة البال.

أمّا هؤلاء المُرتاحو البال فماذا فعلوا يا تُرى؟

هل قدّموا إلى مريض دواء؟

هل أسْعفوا طالباً بمنحة؟

هل بنوا مستشفى؟

هل أسّسوا معهداً؟

هل نفعوا علماً؟

هل رَقُّوا صناعة؟

هل واسَوْا ضحايا نكبة بقوت أو كساء أو مال؟

إنَّنا نريد أنْ نُضْرِمَ نار الطموح في أرواح قومنا لا أنْ نخمُدَها. ونريد أنْ يعرفوا أنَّ هذه الحضارة الجميلة لم يشيِّدها الخاملون القانعون اللاَّصقون بالأرض. بل أصحاب الطُّمُوح الذين نفعوا أنفسهم ونفعوا أوطانهم ولم ينصرُهم حَسَبٌ ولا عشيرة ولا جاهٌ ولا دين بل كان ناصرهم الطُّمُوح وَحْده واعتقادهم بأنَّ المجال رَحِيب للمُجتهِدين.

1 مأثرة: المأثُرَه بفتح الثّاء وضَمّها المَكْرمة لأنَّها تُؤْثر بذكرها قرن عَنْ قرن.

ولو أنَّ هؤلاء شربوا هذا المخدِّر الفتَّاك. مخدِّر الزهد والقَناعة. والرِّضى بالعيش الخبيث [1] لما كانوا اليوم أحسن حالة مِنْ هؤلاء الذين يدَّعون «راحة البال» وليس لهم منها شيء!

السَّمير: 11/ 3/ 1954

الصَّداقة والعَداوة

مَنْ يكتسبْ صاحباً تبقى مودَّتهُ   فهْوَ الغنيَ به لا ذُو الملايين

أجل إنَّ الصاحب الذي تبقى مودَّته هو كنز ثمين ومَعْقل حصين. فإذا كان لك هذا الصاحب أيُّها القاريء العزيز فتمسَّك به وحاذر أنْ يتحوَّلَ عنك إلى غيرك. وهو لن يتحوَّل إلا إذا تبدَّلْتَ أنت فلم تحرصْ على مودَّتِه كما حَرِصَ هو على مودَّتِك. ولم تصُنْ سِرَّه كما صان سِرَّكَ. ولم تمسح دمعته عندما بكى. ولم يغمرْ وجهك الإبتسام عندما ضحك. بل حدَّثَتْكَ النَّفس أنْ تتجنَّى عليه فتصطنعَ له العُيوب والمساويء في حين كان يصطنع لك الحسنات والمِيزات. أو أنْ يغتابَه أحد عندك فتغتابه معه. أو أنْ تسيء إليه فتَدَّعي لستر عيبك أنَّه هو الذي أساء إليك.

إنَّ تصرُّفاتك هذه لن تستبقي لكَ ذلك الصَّديق.

ولسنا الآن نحدِّث شخصاً بعينِه بل كُلَّ شخص فالموضوع أكبر مِنْ أنْ ينحصرَ في إنسان بعينِه.

وإذا حَرِص على مودَّتِه وصُنْتَ سرّه وحَفِظْتَ كرامته غائباً وحاضراً وأغضَيْتَ عن سيئاتِه. ولم تلتفت إلى هفواتِه. وقَبِلْتَه على علاّتِه. فلم يحفظ عهدك ولم يَرْعَ وُدَّكَ فأنت في حِلٍّ [2] مِنْ كُلِّ عهد. ولا لوم عليك إذا هجرتَه أو نبذْتَه أو نسيتَ أنَّه في الوجود. ولا نقول أنْ تعاديَه فمن كان غير جدير بصداقتك فهْوَ غير جدير بعداوتك.

أنت لا تمنح إنساناً ودَّك إلا إذا كُنْتَ تعتقد أنَّه ندٌّ لك. وأنَّ عنده مثل الذي عندك مِنْ شمائل ومزايا. وأنَّ صفاته مجانسة لصفاتِك. فإنْ لم يكن على شيءٍ مِنَ الصِّفات الحميدة والأعمال الرَّشيدة المطلوبة في الرجل. فأنت تبغي على ذاتِك وتجورُ على سمعتِك إذا اتَّخذتَه صديقاً.

ولكن إذا كان لا يحسُنُ بك أنْ تؤاخيَه فمِنْ غير الحكمة أنْ تعاديَه. لأنَّك إذا نصَبْتَ مِنْ نفسِك له خصماً رفعته إلى منزلتك وساوَيْتَه بنفسك مع أنَّ الواجب يقضي عليك مع مثله أنْ تحتقرَه وتبتعد عنه كما تبتعد عن أجرب. وأنْ تُعْرِضَ عنه كما تُعْرِض بأنفِك عن رائحة كريهة مؤذيَة.

ولا تقل في نفسِك أنِّي سأشهره بين الملأ [3] وأجعله حديث الرَّائح والغادي. فإنَّك مهما بلغ مِنْ

---

1 الخبيث: ضِدّ الطَّيِّب.

2 الحِلّ بالكسر الأحلال وهو ضِد الحرام ورجل حِلٌ من الإحرام أي حلال.

3 الملأ الجماعة.

نفوذِك واتِّساع سلطانك لن تقدرَ أنْ تسيء إليه أكثر ممَّا أساء هو إلى نفسه. ولن تستطيع أنْ تزيدَ في هوانه هواناً ولا في شحوب أخلاقه شحوباً.

وأنَّى لك أنْ تصلحَ إنساناً يضعه النّاس بين الأدبَاء فيأبى إلاّ أنْ يضعَ نفسه بين الغَوْغاء[1]. وتشدَّه إلى أعلى فتشدُّه أخلاقه إلى أسفل. وتسترُ عيوبَه عن النّاس فيأبى إلا أنْ يكشِفَها بيده لكُلّ عابر سبيل.

إذن فالطَّريقة المُثلَى والخطة الفُضْلَى هي أنْ تعملَ بنصيحتنا المُشتمَل عليها هذا البيت:

فاْخْتَرْ صحابك وانظر في اخْتيارِهِمُ   إلى الخلائق قبل اللَّون والدِّين

فإذا أحسَنْتَ اختيار أصدقائك أَمِنْتَ الخيبة وسلِمْتَ مِنَ النَّدامة في النهاية.

السَّمير: 14/ 5/ 1954

داء لا دواء له ولا شفاء له

لَمَّا أنشأنا «السَّمير» لم يخطر لنا في صَحْو ولا نوم أنَّ وجودها سيخلُق في بعض النُّفوس حَنَقاً[2] وغيظاً. ويملأ بعض القلوب حِقداً مريراً إذ لم يكن غرضنا مِنْ إنشائها إلا خدمة قومنا الذين يقرأون اللغة العربيَّة ويهمُّهم أنْ تكونَ لهم جريدة تعالج القضايا التي لها إتصال بحياتهم ومَساس بمقدَّراتهم. وتوافيهم بأخبار العالم وأنباء الأوطان العربيَّة. وما تَرْشَح[3] به أقلام المُفكِّرين الخبَراء مِنَ الآراء والنَّظريَّات. وما يفيض على ألسِنَة الشعراء مِنْ روائع وآيات.

أجل كان غرضُنَا مِنْ إنشاء «السَّمير» خدمة قومنا على قَدْر ما يبلغ إليه الجُهْد مثل مؤازرَة مؤسَّساتنا الرُّوحيَّة والأدبيَّة والإجتماعيَّة وما يتَّصل بهذه المؤسَّسات.

وكان مِنْ أغراضنا تعزيز أصحاب المواهب والفنون مِنْ أبناء أمَّتنا. وإذاعة الحسنَات والإعراض عن السَّيِّئات.

ولم يكن مِنْ غرضِنَا قطّ إحناق نفس أو إيغار[4] صدر.

إنَّما الأمر الذي لم يكن مِنْ أهدافِنَا هو اليوم واقع كأنَّما نحن تعمَّدناه أنْ يكون. ويشهدُ الله أنَّنا ما أردناه أنْ يكون. وما لنا بوجوده يدٌ. بل لو كان في قدرتنا أنْ نَغْسِلَ تلك القلوب ممَّا فيها مِنْ أدران الحِقْد وأنْ نطهِّرَها مِنْ جراثيم الحسد والنقمة لفعلنا في الحال. ولكن هذا الأمر فوق طاقتنا كما هو

1 الغَوْغاء من النَّاس الكثير المختلطون.

2 الحَنَق الغيظ وج حِناق.

3 رَشَح أَي عَرِق وبابه قطع لم يرشح له بشيءٍ أَي لم يعطه شيئاً.

4 الوَغْر ويحرِّك الحقد والضِّغْن والعداوة والتوقّد من الغيظ.

الحسد مرض نَفْساني. وهو أشدُّ الأمراض خطراً وأعسرها شفاء. بل هو أوَّل مرض ظهر مع الإنسان في الأرض. وكان مِنْ ضحاياه المغفور له هابيل!.

وقد إرتقَتْ الدُّنيا وارتقى النّاس. واستأصلت شأفة[1] أمراض كثيرة إلا أنَّ هذا المرض باقٍ لا يزول. ولحكمة خَلَقَ الله الشَّوك في النبات وأوجد العقارب والحيَّات وغيرها مِنْ الحشرات المؤذيَة للزَّرْع والضَّرْع[2].

إذن فالحسد لن يزولَ مِنَ الأرض حتى ينقرض الشَّوك والعوسَج وتَبيد[3] الحشرات الضَّارَّة كلّها..

بل إنَّ هذا المرض النفساني شديد الخطر وعسير الشِّفاء. ولكن مِنْ حُسْنِ حظِّ البَشريَّة أنَّ المُبتَلِين به ليسوا بالعدد الكبير. وليس هو بالمرض الذي ينتقل بالعَدْوى. والمصاب به أحقُّ النّاس بالرحمة والعفو لأنَّه في عذاب لا ينتهي. وما ظنّك بإنسان يحمل في جوانحه[4] النَّار!.

أجل إنَّ الحسد نار ولكنَّها لا تأكل إلاّ الحاسد.

وهذا الذي يكابده[5] حسَّاد هذه الجريدة وحُسَّادنا. أعانَهُم الله على ما هُمْ فيه مِنَ البَلْوى!.

السَّمير: 1/ 7/ 1954

عُطْلَة «السَّمير الأُسْبوعيَّة»

يُروى أنَّ أحد الفلاسفة كان لإنهماكه في درس المسائل العويصة[6] يتناول طعامه وينسى بعد قليل أنّه تناولَه.

هذا ما حدث للفيلسوف صاحب الحكاية ولكن ليس لزاماً أنْ يكونَ الإنسان فيلسوفاً لكي يستولِي عليه النِّسيان أحيانا فَيَذْهلِ عن طعام أو شراب أو موعد أو حاجة له أو عن شخص معه. أو حتى عن دفع دين. فإنَّ هذه كلُّها أمور تحدث لأيِّ إنسان مُنهمك في عملٍ يحبُّه وعنده تقديس للواجب.

أمَّا الذين لا يَنْسَون فهُمْ أناس لا يشغلهم شاغل مِنْ فكرٍ أو عمل أو واجب. أو أنَّهم مِنْ ذوي

---

1 شأفة: الشَّأفة قرحة تخرج في أَسفل القدم فتُكوى فتذهب.

2 الضَّرْع: لكُلِّ ذات ظِلْف أو خُفّ.

3 أبادَ هَلَكَ.

4 الجوانح الأَضلاع التي تحت التَّرائِب وهي مِمَّا يلي الصَّدْر كالضُّلُوع مما يلي الظَّهْر الواحدة جانِحَة.

5 كابد: الأمر قاسى شدَّته.

6 العَويص من الشِّعْر ما يصعُب استخراج معناه وقد أَعْوص الرَّجُلُ.

العقول المحدودة التي تعرف أشياء بعينِها ولا تعرف شيئاً غيرها.

ليس النِّسيان عيباً بل كثيراً ما كان نعمَة مِنْ أكبرِ النِّعم على الإنسان.

أَوْشك الصَّيف أنْ يُهزَم بل قد تمشّى فيه الفَناء. ونحن نعلِّلُ النَّفس بالإنطلاق مِنَ المدينة التي لا تنام في صَيف ولا شتاء. لا زُهداً بها وجُنوحاً إلى غيرها فالمدُن كلّها سَواءٌ في فرضها لسُلطانِها على سُكّانها. بل شوقاً للأصدقاء الذين لا ينفكُّون يطالبونَنا ويلحُّون في المطالبة بأنْ نزورَهم. وتطالبنا النَّفس بما يطالبوننا هم به.

الجريدة العربيَّة في المهجر غَرْسة لا تمدُّها التّربة إلا بالنَّذْر[1] مِنَ الغذاء فعلى صاحبها أنْ يغذّيَها بدَمِهِ لكي يكفُل لها البقاء. وهي لقلَّة الأيدي العاملة لا تَقْدر أنْ تتخلَّى عن أيٍّ عامل فيها سواء أكان مترجماً أم حاسباً أم محرِّراً أم مُنضداً أم طَبّاعاً أم شاحناً.

ولهذا ينقضي الصَّيف دون أنْ نتمكَّن مِنَ الإنطلاق. وأحياناً لانهماكنا بمهام الجريدة وشؤونها نكاد ننسى الصَّيف والشتاء.

وها هي عطلة «السَّمير» السنوية تقترب بل صارَتْ منَّا قاب قَوْسين أو أدنى ونحن عنها في ذهول. كأنَّما لا عُطلة. أو كأنَّنا لَسْنا في أشدِّ الحاجة إلى الإسْتِجمام[2].

أينَ سنَصْرِف أيّام العطلة؟

يقترح علينا البعض أنْ نقضيَ أيّام العطلة مُعتزِلين عن النّاس إمَّا في جبل. وإمَّا في شاطيء. وإمَّا في موضع قصيّ ناء.

هذا رأي لا بأس به غير أنَّنا نعرف بالإختبار أنَّ الوحدة تحمل المرء على التَّفْكير ونحن إنَّما نرغب في البعد عن الجريدة لعلَّنا نبعد عن التَّفْكير.

والعزلة تستدعي أنْ يوجِدَ الإنسان لذاتِه ما يلهو به. ولَهْوَةُ[3] الكاتب أنْ يكتبَ. والشّاعر أنْ ينظمَ. وما هذا الذي نبغيه ونحتاج إليه في العُطْلة. فإنَّ العُطْلة معناها الإنقطاع عن العَمَل.

إذن فلنغرق في النَّاس لعلَّنا ننسى أَنْفُسنا. ولعلَّنا نذهل ولو قليلاً عمَّا نحن فيه الآن.

السَّمير: 18/ 8/ 1954

---

1 النَّذْر التعليل التّافِه.

2 الإِسْتِجمام: يقال إنّي لاستجِمّ قلبي بشيءٍ من اللَّهْو لأقْوى به على الحَقّ.

3 لها بالشيء لَهْوا لعب به أولع به والأُلْهُوَة ما يُتَلَهَّى به.

الخوف أصل الحرب

ما برح الإنسان منذ وجوده على الأرض في حرب مع العناصر والآفات الطبيعية.

والأصل في كُلِّ حرب هو الخوف.

خوف الإنسان مِنَ الضَّواري والأفاعي قاده إلى ابتداع الهِراوة والنَّبوت والمقلاع والسّهام والحراب.

وخوفه مِنْ أذى العواصف والأمطار والثُّلوج هداه إلى النَّار كما قاده إلى المغاوِر والكهوف ثمَّ إلى بناء الأكواخ والبيوت. وصنع الكساء مِنَ الجلد والنسيج ليقي جسمَه فتكات الزَّمهرير.

خاف مِنَ الجوع فأخذ يختزن الأثمار والحبوب واللُّحوم.

وخاف مِنَ العَطَش وهو بعيد عن مجاري الماء فاصطنع مِنَ الطِّين أكواباً وأباريق.

وخاف مِنْ جاره فبنى المتاريس حول دياره.

وخاف مِنَ اللَّيل فأوقد النَّار عند خيمته وزعم أنَّها لهداية المُدلَجين [1] في الظلام.

وخاف أنْ يعبرَ النَّهر سباحة فمدَّ فوقه جسراً.

هذه حروب الإنسان في بداوتِه ولا يزال اليوم في حرب مع الأمراض وعناصر الطَّبيعة.

وقد كان طيلة الأجيال الغابرة بالرَّغم ممَّا أحرزه مِنَ الإنتصارات يحسُدُ الطُّيور لأنَّها أسرع منه ولإعتقاده أنَّها أسعد وأهنأ منه. ولكَمْ تمنَّى لو نَبَتَتْ له أجنحة لعلَّه يطير إلى الحبيب أو إلى الوطن البعيد.

وتقدَّم مع السِّنين وارتقى واستنبط الباخرة والقطار والتّلفون والتلغراف والراديو وأشياء أخرى مثلها في الأهمية. إلا أنَّ رغبته في قَهْر المسافة وتدويخ الأبعاد لم تتحقَّق له إلا في هذا الجيل. فقد صارَتْ المسافة التي كان يظنُّ أنَّها لا تُطوى تُطْوى كأنَّها ثوب أو قرطاس.

وهذا يبرهِنُ أنَّ كُلَّ حُلُم يمرُّ في خاطر الإنسان قابل التَّحقيق. ومِنْ هنا استمرَّ إعجاب النَّاس بقَوْلِ نابوليون «لا مستحيل».

أجل. إنَّ القوَّة الكامنَة في الإنسان لا يمكن أنْ يوضعَ لها حد تنتهي عنده.

ولكنَّ الإنسان مع كُلِّ عِلْمه وحكمته ـ وقدرته لم تُطَهِّرْ [2] نفسُه بعد مِنَ الشَّوائب [3]. فهو لا يزال كإنسان الكهف في نزوعِه إلى الفتك لا بحيوان بل بأخيْه الإنسان.

---

1 أَدلَج: بتشديد الدَّال سار من آخِرِه والإسم أيضاً الدُّلْجَة والدَّلْجَة.

2 تَطَهَّر: فعل مضارع أصله تتطهّر والتاء في أوَّلِه تسمى تاء المضارعة أو الزائدة ويجوز حذفها وهي لغة بليغة.

3 الشَّوائِب: الأقذار والأدْنَاس.

نعم إنَّ الإنسان اليوم لا يخاف مِنْ أيِّ شيء إلا الإنسان.

ويلوح أنَّ النّاس وإنْ تشابَهَتْ سَحَناتِهم [1] وتماثلَتْ أغراضهم في الحياة فيهم ذئاب يلَذُّ لها ومِنْ طبيعتِها أنْ تفترس. وفيهم نعاج وحملان لا قُدْرَة لها على ردِّ الذئاب عن لحومِها..

إنَّ حضارة الإنسان مهما تبلغ مِنَ السُّمُو تظلُّ حضارة مشوَّهة حتى يتمكَّن مِنْ الإنتصار على الوحش القديم الرَّابض في كيانِه. فلا يعود إنسان يخشى أذى مِنْ إنسان.

وعندئذ تَبْطُلُ الحروب ويَتِمُّ الإنسان..

السَّمير: 20/ 8/ 1954

المعرفة والمسؤوليّة

يسألني البعض كيف أختار مواضيعي فجوابي هو أنِّي لا أختار ولا أنتقي بل أتناول ما يَعْرِض لي مِنْ حوادث أو شؤون وما أكْثَرَ الشؤون والحوادثَ التي يَقْدرُ الكاتب أنْ يستخرجَ منها عِظَة أو عِبْرة أو فُكاهَة. مثال ذلك أنِّي جئتُ إلى مكتبي في هذا الصباح وليس في ذِهْني أيُّ موضوع فوقع نظري وأنا أطالع جريدة التَّايمس على عبارة أعجَبَتِني لصِدْقِها فوقَفْتُ عندها ووجدْتُ فيها باباً إلى موضوع خطير.

هي عبارة ورَدَتْ في خطاب ألقاه العالِم الدانمركي ميلز يوهر المعدود مِنْ أعظم علماء الذَّرَّة في العالم وهي أنَّ مسؤولية الإنسان تزداد كلَّما ازدادَتْ معرفته.

ما أصدق هذه العبارة فإنَّنا نتجاوز عن هَفَوات الطِّفل لأنَّه لا يعرفُ ونحن نعرف. ولا نحمِّله مسؤولية لأنَّ معرفته بالأمور ضئيلة.

فهو عندما يقصف غَرْسة يجهل أنَّه يُودي بتَعَبٍ وجَهْدٍ ومالٍ ويقضي على مَوْرِد رِزْق أو مَشْهد جميل. إنَّه لا يقصد غير العبَث. ويجيء الرجل صاحب الغَرْسة العَتِيل [2] فيهزُّ رأسه أسفاً على جهودِه ولكنَّه لا ينتقم مِنَ الولد الجاني بل يذهب إلى والدَيْه يسألها أنْ يُفهمَا ولدهما أنَّه قد أساء وأفسد. وأنَّ تلك الغرسة لو تركها تعيش لأزهرَتْ وأثمرَتْ فلو كانَتْ له أكان يرضى أنْ يتلفَها أحد.

إنَّ الإنسان العارف يعذر أمَّا الجاهل فلا يَعْذِر ولا يَغْفِر ولا يعترف بذنبٍ ارتكبَه.

---

1 السَّحْنَة بفتحتين الهيئَة وقد تُسَكَّن.

2 العتيلة: في الأصل والأَصحّ العَتيل؛ عَتَل الرَّجل جذبه جذباً عنيفاً. متى كان فعول بمعنى الفاعل كصبور وفعيل بمعنى المفعول كجريح لا تلحقهما تاء التَّأنيث فيستوي فيهما المذكَّر والمؤنَّث مع ذكر الموصوف فيقال رجلٌ صبور وامرأة صبور وغلام جريح وفتاة جريح فإذا لم يذكر الموصوف لزمت التاء مع إرادة المؤنَّث فتقول رأيت جريحاً إذا اردت جريحاً وجريحة إذا أردت امرأة. (راجع الشَّرتوني جـ 4 ص 106).

ولهذا يصعبُ على العاقل أنْ يقنعَ جاهلاً بأنَّه على خطأ أو أنْ يحوِّلَه عن رأي اعتنَقَه ولكنَّه لا يلومه ولا ينتقم منه لأنَّه أدرك أنَّه غير مسؤول وهو غير مسؤول لأنَّه لا معرفة له.

ولكنَّ حصر هذا الموضوع في شخص أو جماعة ليس مِنَ الحكمة ولا سيَّما بعد أنْ بات العالَم ينام ويفيق وهو خائف مِنَ القنابل الذَّرِّيَّة... مِنْ إنسان غير مسؤول يلذُّ له أنْ يمتحنَ فعلها في البشريَّة..

هذا ما حمل العالِم الدانمركي على إلقاء خطابه داعياً الدُّول إلى التفاهم بشأن هذا المارد [1] الرَّابض على صدر الإنسانيَّة كالكابُوس واستخدام الطاقة الذرِّيَّة لخدمة الإنسان لا لإبادته واستئصاله.

والعلَماء في هذا العصر هم الأنبياء الذين أوتوا مِنَ المعرفة أكثر ممَّا أوتِيَ سواهم مِنَ الخلق. إنَّهم يتكلَّمون عن معرفة. وهم النّاس الذين يجبُ أنْ يثقَ به النّاس. والخير في الإصغاء إليهم والعمل بنصائحهم فهم يعرفون ما ينتظر الإنسانيَّة مِنْ ويلٍ إذا وسوَسَ إبليس لِمَنْ يمتلكُون القنابل الذرِّيَّة فاستعملوها للفَتْك والتَّدْمير. وما تجنيه مِنْ خيرٍ إذا وُجِّهَتْ إلى خدمة الإنسان في السِّلم.

السَّمير: 14/ 10/ 1954

الزَّوبعة هايزل

إنطلقَتْ في الأرض كاسحَة جارفَة تنشر الموت والخراب والهول في طريقِها لا تُميِّزُ بين شجرة تفَّاح وشجرة حَنْظل. ولا بين كَهْل في الستِّين وطفل في السادسة. ولا بين كوخ في حقل وبيت على شاطيء بَحْر أو زورق في ثَغْر.

هي تلك القوَّة العَمْياء الهَوْجاء التي يشاهد الإنسان مفاعيلها ويرى ضحاياها وتَعْجزُ عيناه عن أنْ تراها. لأنَّها تَسْعى بلا قَدَم وتَبْطُشُ بلا سَيف ولا رُمْح.

هي الزَّوبعَة الثامنة التي أطلقوا عليها إسم هايزل كما أسمَوْا الزَّوابع السَّبْع التي سبقَتْها بأسماء نساء. فهل تراهم تَمَشَّوْا بهذه الأسماء على حروف الهجاء لأنَّهم يتوقَّعون حدوث ثمانٍ وعشرين زوبعَة في هذه السَّنة. أم تراهم أرادوا مِنْ هذه الأسماء الجميلة اللطيفة إدخال شيء مِنَ الطُّمَأْنينَة إلى القلوب؟.

أم أنَّ ذلك مجرد عبَث ولهو؟

إنَّ تتابع هذه الأعاصير الهَوْجاء [2] واحدة إثر الأخرى ظاهرة غريبة في الطَّبيعة... غريبة على الأقل فينظر الإنسان الذي عرف شيئاً مِنْ أسرار الكون وفاتَتْه أشياء. وكُلُّ مجهول يبدو غريباً.

---

1 المارد: العاتِي.

2 الهَوْجاء: الهَوَج التَّسرّع والحُمق.

فهل تكون الغاية الخفيَّة مِنْ هبوب هذه الأعاصير الفتَّاكة صرف النّاس عن التَّفكير بإضرام حرب هيدروجينية أو ذرِّيَّة أو إبليسيَّة.. إلى التَّفكير باستحداث وسائل تحميهم مِنْ غضبات الطَّبيعة وثوراتها الجنونيَّة فإنَّ هذا الإنسان لا ينفكُّ مُغترّاً بقوَّته معتزّاً بأعماله ومُخترعَاتِه حتى تنزل به كارثة أو جائحة طبيعيَّة ليسَتْ في حسابِه فينكشف له ما فيه مِنْ عَجْز وضَعْف وهوان وغُرور.

بلغَتْ ضحايا هذه الزَّوبعَة مائة وخمسة أنفس. أمَّا الخسائر الماليَّة فتقدَّر بمئات الملايين في هايتي وتسع ولايات أميركيَّة.

وهناك خسائر معنويَّة قلَّما تناولها إحصاء وهي ما استولى على النّاس الذين في درب الزَّوبعَة مِنْ القَلَق المُضنك. وما استحوذ على أنسبائِهم وأصدقائهم مِنَ الجَزَع عليهم.

وأخيراً تلاشَتْ هايزل واضمحلَّت قواها في مدينة تورنتو كندا ولكن بعد أنْ عاثَتْ فيها وفي ما حولها على مسافة خمسة أمْيال فَسَاداً وتخريباً. فقد قتلَتْ هناك أكثر مِنْ ستِّين شخصاً وبلغ مِنْ هولِها أنَّ الماء تعالى في الشوارع مِنْ تتابُع المطر وغزارته فإذا المدينة كأنَّها في طُوفان. وقد جرف الماء سبعةَ عشرَ منزلاً مِنْ أحد الشوارع إلى النَّهر وكان ذلك عند منتصف اللَّيل.

وقذَفَتْ الزَّوبعَة سيارتين بمن فيهما إلى النَّهر. فاستخدَمَتْ السلطات طائرات الهليكوبتر لإنقاذ الغَرْقى مِنَ النَّهر الطَّاغي.

ويتطلَّع النّاس الآن إلى السَّماء فيرونها تضحك كأنَّها خارجَة مِنْ عُرْس [1]...

السَّمير: 18/ 10/ 1954

المدرسة الضروريَّة

أعتقد أنَّ لبنان لا يحتاج اليوم إلى مدارس ولا سيَّما مدارس العلوم النَّظريّة. فهذه كثيرة فيه. بل هي أكثر ممَّا يجب أنْ تكونَ فيه. وحاجته الكبرى إلى أرضٍ تصلح للزراعة وماء كاف لريِّ المزارع والحقول والبساتين. ونفوس لا تأنَف مِنْ العمل في الأرض ولا يستحي أصحابها أنْ تتلوثَ أيديهم بالتُّراب.

«وإذا كان لا بُدَّ مِنْ إنشاء مدرسة جديدة فيجب انشاؤها للكبار». ولا سيَّما أولئك النّاس المُستأثرون بخَيْرات الأرض وجهود المساكين.

مدرسة يتعلَّمون فيها أنَّ الوطن لا يَسْعَد وفيه فئات محرومة شقيَّة.

«مدرسة تلقِّنُ طلاَّبها قبل كُلُّ شيء أنَّ حُرِّيَّة المرء تنتهي عند حرِّيَّة الآخرين. وأنَّه فوق الكُلِّ لا

1 العُرْس بوزن القُفْل طعام الوليمة بذكَّر ويؤنَّث وجمعه أَعراس وعُرُسات.

خِرقَة [1] تُطوى وتُنشَر بِحَسَبِ [2] الأهواء والغايات».

«مدرسة تغرسُ في عقول تلامذتها أنَّ كُلَّ مواطن مسؤول عن سعادة جاره وسلامته وصيانة حرثه وضرعه وماله وكرامته وأنَّ الوطن جسم إذا تطرَّق الفساد إلى عضو مِنْ أعضائه تألَّم كُلّه ووهن كُلُّه».

إنَّ الكلام المُتقدِّم مُقتطَف مِنْ رسالة بعث بها صاحب «السَّمير» إلى صديق له كتب إليه يستفسره عن رأيه في مشروع مدرسة جديدة في لبنان وفي الواقع أنَّ حاجة لبنان الأولى في هذا الباب إلى العلوم العمليَّة التي تؤدِّي إلى تحسين البيت والحقل والطَّريق وتُغني الوطن عن أشياء كثيرة يستوردها مِنَ الخارج فبِغَير العلوم العلميَّة الحديثة لا تتقدَّم زراعة ولا صناعة ولا فنّ. وتظلُّ موارد الرزق بدونها شحيحَة.

لا يصرف النّاس عن الجدل إلا العمل فلولا البطالَة والفراغ الكبير لَما نشَأَتْ قضيَّة كتاب الخالدي ومسألة جورج شكر.

وإلى أنْ تزولَ البطالَة ويستهدف كُلُّ إنسان إسعاد غيره بإسعاد نفسه ستظلُّ هذه المنازعَات الجاهليَّة تذر قرونها بين فترة وأخرى.

ولو أنَّ الأعوام التي قضاها الشَّرقيُّون في الجدل الدِّيني واللاهوتي صرفوا جزءاً يسيراً منها في استثمار القوى والعقول البشريَّة واستغلال الأرض وما في جوفِها مِنْ كنُوز لكَانوا هم اليوم قادة العالم.

فيَا ضَيْعَة الأجيال التي انقضَتْ في اللَّهو والعبَث.

السَّمير: 29/ 10/ 1954

عيد الميلاد

أرسَلْنَا مِنْ قَبْل كلمة عن عيد الميلاد تذكيراً للأنسباء والأصدقاء والرِّفاق بأنَّ لهم وراء البَحْر أنسباء وأصدقاء ورفاقاً أعزَّاء هم الجنود. وأنَّ هؤلاء الغائبين لا يَختَصِرُ المسافة إليهم مثل رسالة أو هديَّة يشعرون معها أنَّهم غير منسيِّين.

واليوم نرى مِنْ واجبِنَا أنْ نرسلَ كلمة حول «عيد الشُّكْر» الذي أصبح على الأبواب.

إنَّ كثيرين يحسَبُون أنَّ كُلَّ ما يتطلَّبه العيد منهم هو أنْ تفتكَ سكاكينهم برقاب الدِّيوك الهنديَّة وأنْ

---

1 الخِرْقَة: القطعة من خِرَقِ الثَّوب.

2 بحَسَبِ قالوا: ليكن عَمَلُكَ بحَسبِ ذلك بالفتح أي على قَدْرِهِ.

تفتكَ أسنانهم بلحومِها.

أو أنَّهم يحسَبُون العِيْد هو أنْ يلتقوا في ذلك اليوم هم وأحبابهم وأصحابهم حول مائدة واحدة فيشرَبون الخمُور ويأكلون الأطايب. ويشكرون الله لأنَّهم اجتمعوا وشربوا وأكَلوا..

أجل. هذا كُلُّه يجري في العيد. ويرافقه في كُلِّ مدينة وقرية ودَسْكرة. وهذا كلُّه مِنَ العيد. ولكنَّه ليس العيد.

إنَّ الصِّحَة شيء ثمين بل هي أثمن الأشياء التي يَمْلِكها الإنسان فشكْرُ الله عليها واجب.

ووجود الأهل حول المرء تخفق قلوبهم بالحبِّ له هو مِنَ النِّعَم والآلاء. ومِنَ الواجب أنْ يشكرَ العناية مِنْ أجل ذلك.

والصَّاحب الوفيُّ الصَّادق الود برَكَة مِنَ السَّماء فعلى الإنسان الذي له هذا الصاحب أنْ يشكرَ الحياة على مِنحتِها الغاليَة.

ووجود الإنسان في حالة رخاء وطُمأنينَة نعمة كبرى وشكر الله ضروري فقد قِيْلَ بالشُّكر تدُومُ النِّعَم.

إنَّما الإقتصار على هذا النوع مِنَ التَّفْكير يدلُّ على أنانيَة طاغية. والأنانيَة الطَّاغية ليسَتْ شيئاً حسَنَاً. ولا صفة ممدوحَة.

إذن يجب علينا في عيد الشُّكر أنْ نفكِّرَ تفكيراً عميقاً بالغير. لكي تَقْوى فينا عادة التَّفْكير بسوانا فنذكرهم في كُلِّ يوم مِنْ أيَّام السَّنة.

أجل. لنفكِّر بالعاثرين السَّاقطين في معترك الحياة. الذين شلَّتْ منهم العزائم والأرواح. وأنْ نحنوَ عليهم كما نَحْنو على جندي أُصِيب في المعركة فانعطَب. بل يجب أنْ نساعدَهم ونَشْكُرَ الله أنَّنا قادرون على أنْ نساعدَهم.

لِنُفكِّر في العيد بالمرضى والعجزَة والأيتام والفقراء ولنَعْمَلْ على نجدتِهم بالدواء والغِذاء والكِساء ولنَشْفعْ هذه كلُّها بالكلمة الطَّيِّبة التي تَرُدُّ إليهم نعمة الرَّجاء. وتجدِّدُ إيمانهم المتهدِّم بالحياة والنَّاس.

أنت بالطَّبع لا تَقْدِر أنْ تفعلَ وَحْدَكَ كثيراً؛ فجهود الفرد محدودة.

ولكنَّك إذا فعلْتَ ما تَقْدِر عليه. وصَنَع غيرك ما في طاقتِه. إجتمعَ مِنْ قليلِك وقليله شيء كثير.

فاذْكُر في عيد الشُّكر الجمعيَّات الخيريَّة والمؤسَّسات الإنسانيَّة. وامدُد يدك إليها بالمعونَة مهما تكن ضئيلَة.

وفي وطنك الأوَّل فقراء وتعساء وأرامل وشيوخ عاجزون. فاْذكرهم واْجْعَل غيرَك يشتركَ معك في تخفيف بَلْواهم.

وإذا نسيْتَ فلا تَنْسَ اللاَّجئين المُشرَّدين.

إنَّنا نناديك لأنَّنا نعرفُ أنَّك غير بخيل فقد رأيْنَاك تنفق الألوف على الأعراس والولائم والمآتم.

كما رأيْنَاك تفتحُ يدك وجيبك لمشاريع هوائيَّة آخر مَنْ يؤمِنَ بصحَّتها أو نفعها ـ أنتَ.

إذا فعَلْتَ في العيد شيئاً ممَّا ذكرْنَاه لك فمن المؤكَّد أنَّك ستكونُ أكثر غِبْطة وفرحاً عند جلوسك أنتَ وأهلك وأصحابك حول المائدَة في العيد.

ومِنَ الثابت المُحقَّق أنَّ اللُّقمة تصير في فَمِكَ ألذَّ وأطيب.

السَّمير: 21/ 11/ 1954

الشَّيخ والطّفل

يمثِّلُ المصوِّرون العام المُشرف على النهاية شيخاً تعباً منهوكاً شَحَّ فتيلُ حياته واقتربَ مِنَ الإنطفاء. كما يمثّلون العام الطَّالع مِنْ وراء الحجاب طفلاً صغيراً تطفح قَسِمات وَجْهه حياة وحبُوراً. وأملاً مُنِيراً.

هي رواية تتكرَّر عند النّاس كلَّما دارَتْ الأرض دورة فيزعمون أنَّ السَّنة التي انتهَتْ قد زالَتْ وصارَتْ أثراً بعد عَيْن مع أنَّها لا تزال باقيَة فيهم.. في ما قالوا وما عملوا.. في البيوت التي شادوها. والطرق التي عبَّدوها. والأشجار التي غرسوها. وفي الصُّوَر التي رسموها. وفي الحروف التي كتبوها.

وإلى النَّاحية الأخيرة نظر الشَّاعر القائل:

فلا تكتب بكفِّكَ غير شيءٍ   يسرُّك في القِيَامة أنْ تراهُ

وكان كلامه أتمَّ وأعمَّ لو قال «يسرُّ النّاس دَوْماً أنْ يَرَوْهُ».

أجل. إنَّ الإنسان هو الذي يصنع سيرته ويرسم صورته للنّاس أصدق رسم وأدق تصوير بما يقول ويفعل.. إنَّه يدلّ النّاس على مكنونَات نفسه وإنْ ظنَّ أنَّه بما يعمل يستر تلك المكنونَات عن العيون.

كما إنَّه يدلُّهم على مقدار فهمه أو غباوته وحُسن أدبه أو سوء أدبه. فليس أحد سواه يخبر عنه مثلما يخبر هو عن ذاتِه.

ولا يقدر أحد أنْ يسيءَ إليه كما يسيء هو إذا حَمِق إلى نفسه.

وإذ جاز أنْ نقولَ كلَّما سلخنا آخر ورقة في الروزنامة «إنتهَتْ سنة» فلا يجوز القول أنَّ ما جرى في تلك السنة قد انتهى أو مضى بل هو باق فينا وفي ما فعلناه. وعليه يجدر بكُلِّ إنسان في هذه الفترة مِنَ الزَّمن أنْ يعودَ إلى نفسه فيحاسبها فيدوِّن لها الحسنات ويقابلها إلى ما اقترفت مِنْ سيئات. فإذا رجحَت كِفَّة الحَسَنات حقَّ له أنْ يستقبلَ السنة الجديدة معتزاً فخوراً. أمَّا إذا رجحَتْ كِفَّة السَّيِّئات فخليق به أنْ يستغفرَ ويتوب ويستقبل السَّنة الجديدة والرَّغبة في الخير. تملأ صدره. فإنَّ الأصل في كُلِّ عمل جميلاً كان أم قبيحاً هو رغبة المَرْءِ فيه.

أجل إنَّ السنة المُنْصَرِمة سوف تبقى معنا وإنْ انطوَتْ أيَّامُها فإنَّ ما فعلْناه في أيَّامِها لم ينطو معها.
ولسنا نحن الذين يفنون الزَّمن بل هو الذي يفنينا. فما أحسن أنْ نَفْنى في ما هو خير وجمال ومحبّة.
إنَّ الذين يسيرون على طريق الحَقِّ والخير والجَمال هم السُّعداء الذين تباركهم الحياة.
أمَّا الأشرار فلا سعادة لهم ولا هناء.
وإذا سَعِدوا فلا تدوم سعادتهم أكثر ممَّا يدوم زهر الزَّيزَفون.

السَّمير: 27/ 12/ 1954

الأوراق السَّاقطة

غداً تسقط آخر ورقة في الروزنامة التي صحبها النَّاس ثلاثمائة وخمسة وستِّين يوماً بأصباحِها وأمسائها. بحسناتِها وسيئاتها. بيسرها وعُسْرها وخِصبها وقَحطها. ولكُلِّ يوم خيره وشرّه.

وكانَتْ كلَّما غابَتْ شمس تسقط منها ورقة وتغيب في هاوية الأبد. فما انتبهوا إلى سقوط ثلاثمائة وأربع وستِّين ورقة وانتبهوا بكُلِّ جوارِحِهم وكُلِّ أفكارهم إلى سقوط هذه الورقة الأخيرة. وترنَّحوا طرباً لسقوطها كأنَّما سقطَتْ معها جبال مِنَ الأثقال عن أكتافِهم. وكأنَّما غاب معها كُلُّ شَرِّ يخافون وكُلُّ شيء يكرهون.

إنَّ سقوط ورقة مِنْ روزنامة أو كتاب أو سقوط ورقة مِنْ شجرة بل سقوط شجرة نامية بكُلِّ أوراقها لا يُطْرب جندياً ولا يُبْهجُ نَمْلة. والدَّليل أنَّ الجنادب والنّمال لم يتبدَّل مِنْ أطوارِها شيء. فما تزال النَّملة تكدُّ وتكدح. ولا يزال الجُنْدب يثب ويصدح.

ولكن البَشَر رأوا في سقوط ورقة مِنْ تقويم السَّنة باعثاً على الطرب والمَرَح.

وغداً يجيء اللَّيل فتعجُّ المراقِص وتكتظ الملاهي بالرَّاقصين الضَّاحكين. وتغصُّ الشوارع باللاعبين العابثين. وتمتلىء البيوت بالسَّاهرين الآكلين الشاربين أو بالصَّافرين الزَّامرين. أو بالمضاربين المقامرين الذين يتوسَّمون الخير في وجوه الفِتيان والبنات المرسومَة على الورق ويَنْسَوْن في غَمْرة الأَمَل فتيانهم وفتياتهم وقد يكونون على قِيْدِ[1] خطوات منهم..

السِّرُّ في هذا الذي يعمله النَّاس كلَّما انصرم عمر سنة هو أنَّهم يشعرون بانتصارِهم على الوقت. وإنْ كان انتصاراً سرابياً لا بقاء له ولا دوام.

وما أشبه الإنسان الفارح بانقضاء سنة مِنَ الدَّهر الذي لا ينقضي بمسافر طريقة طويلة وهو يعرف أنَّه طويل وأنَّ نهايته تعني نهايته فهْوَ كلَّما وجد واحة ظليلة ألقى رحاله وأقام هُنيهَة يستريح في فَيْئِها

1 القِيْد المقدار يقال بينهما قِيْدُ رُمْح.

ويروي عطشه بمائِها ثمَّ يرحل عنها ليتابع السَّير في الطَّريق إليها التي لها أمام وليس لها وراء. فالذين يفرحون بانقضاء سنة ويستبشرون بقدوم سَنَة هم كلُّهم هذا المسافر.

إذن ليطرب مَنْ شاء أنْ يطرب. وليلعب مَنْ يسعده أنْ يلعب. ولنملأ كلنا الدُّنيا هزجاً وغناء حتى ترقص النَّجوم في الفلك وتغنِّي معنا الجبال والبحار.

«فمَنْ يَعْلَمُ بعد اليوم ما يحدث أو يجري؟»

مَن؟.

السَّمير: 30/ 12/ 1954

الشِّعر المنثور

ليس في مهازل الحياة ما يستدعي ضَحِك الأديب العربي مثل الكلام المعلوك الذي يحاول أصحابه إكراه الناس على مطالعتِه فيسمُّونَه «شعراً» ويَخْشَوْن الفضيحة فيُلْحِقون هذه التَّسمية بقولهم «شعر مَنْثور».

وتخدعك التَّسمية فتهجم على قراءة هذا الشِّعر المَنْثور.. فيصيبكَ نوع مِنَ الغَثَيان الذي يصاب به متنشِّق الغاز. أو إذا لم تخدعْك التَّسمية لمعرفة سابقة لك بهذا الصَّنف مِنَ الهذيان فإنَّك تَشيح بوجهِك عنه فتَسْلَم روحُك مِنَ التمرمر ورأسك مِنَ الغَثَيَان ويسلم أصحابه مِنْ تجديفِك [1] ولعنَاتِك.

إنَّ أصحاب هذه الطَّريقة مثل الدُّعاة إلى العدُول عن اللُّغة الفصحى إلى اللُّغة العامِّيَّة يَكبُر عليهم أنْ يعترفوا بالعَجْز الذي فيهم فيتَّهمُون اللُّغة بالعَجْز.

وعبثاً تقول لهم أنَّ اللُّغة العامِّيَّة كانَتْ فُصحَى وفسَدَتْ. مثلما تَفْسُد الخَمْر فتصير خَلاًّ..

وهذا الذي يسمِّيه أصحابه شعراً مَنْثوراً يخرج عن أنْ يكونَ شِعراً كما يخرج عن أنْ يكونَ نثراً. فهو إذن خمرٌ فسدَتْ فصَارَتْ خَلاًّ. ولعلَّ الأصح أنْ نقولَ أنَّه خلٌّ في الأصل يقدِّمه أصحابه إلى النَّاس في كؤوس الخمر تضليلاً للنَّاس.

وهذا تمويه وتضليل لا يليق بأيِّ إنسان يحاول أنْ يُنْسَبَ إلى الأدب ويَحْصِي نفسه في صفوف أهله.

إنَّ الشعر غير المَوْزون كثير ولكن ليس منه شيء في ما نطالعه مِنْ ثرثرَات صِبيانيَّة هي عارٌ على الشِّعر والنَّثر معاً لأنَّها ليسَتْ كلاماً مستقيماً يحوي معنًى أو يشتملُ على فكرة أو صورة ولكنَّها حروف تُنَمَّق وكلمات تُزَوَّق لا رابط بها مِنْ شعور أو فِكْر. وينتهي القاريء منها فإذا به للخيبَة كالقابض بيدِه

[1] التَّجديف الكُفْر بالنِّعَم وقيل هو استقلال ما أَعطاه الله. عزَّ وجلَّ.

على الهواء.

ومثل هؤلاء دُعاة الشعر الرَّمزي بل إنَّ هؤلاء أشدُّ ضلالاً وأكثر سخفاً[1]. وأيُّ ضلال أعظم مِنْ أنْ ترسمَ حجراً لتلقي في ذِهْن رائيْه أنَّ البيت يبنى بالحجارة. هذا ما يريده منك ولكن هذا الحجر الذي يُبْنَى به البيت يجوز أنْ يسقطَ على رأسِك فيقتلك إمَّا بدافع عاصفة وإمَّا بيد عَدُوّ.. وهو مِنْ ناحية أخرى رمز الجماد والصَّلابَة. ويرمز أيضاً إلى العقبات والعثَرات.

وهكذا ترى أنَّ التخاطب بالرُّموز ليس للقوم المُتمدِّنين فإنَّ المُتوحِّشين هم الذين يستعينُون بالرُّموز للإعراب عمَّا في نفوسِهِم.

السَّمير: 14/ 1/ 1955

النَّجاح والفَشَل

يتعجَّب النَّاس كيف أنَّ أُناساً ينجحون على غير أهليَّة ولا اسْتحقاق وكيف أنَّ أُناساً ذوي أهليَّة لا يَنْجَحُون.

إنَّ النَّجاح كلمة يمكن تأويلها وتفسيرها تفاسير مختلفة ومُتضاربَة وَفْقاً[2] لاختلاف النَّظر إليه.

غير أنَّ هناك قاعدة عامَّة ومقياساً شاملاً للنَّجاح بكُلِّ أشكاله وهي أنْ يباشرَ المَرْءُ عملاً ويُخرِجه على أحسن ما يكون. فإذا هو أكملَه عُدَّ ناجحاً وإذا قصَّر عن القيام به عُدَّ فاشلاً.

بعض النَّاس لا يَصْلحُون لأنْ يكونوا تجَّاراً مثلا ولكنَّهم يَرَوْنَ تجاراً ناجحين فتخلُق فيهم رغبَة بأنْ يكونوا تُجاراً فلا يصيرون ولا يُفْلِحون. فيخرجون مِنْ حَومَة التِّجارة وهم يَنْسُبون فَشَلهم إلى الحظ وإلى الظّروف وإلى الشَّرائع وإلى كُلِّ أحد في الدُّنيا إلا أنْفسهم.

وما يَصْدقُ في التِّجارة يَصْدق في كُلِّ حَوْمَة[3] أخرى. فإنَّ الإنسان مطبوع على المحاكَاة والتَّقليد ولا سيَّما إذا كان ممَّن لم يرزقهم الله ذكاء خارقاً أو لم يمنحهم مَوْهبة مِنَ المواهب.

كلُّنا مثلاً نحبُّ أنْ نغنِّي ولكن الذين يحسنون الغناء أو يستطيعون أنْ يحسنوه قليلون وهؤلاء القليلون هم الذين يشتهرون لأنَّهم خُلِقوا لهذا الفنّ.

وكُلُّنا نريد أنْ نقودَ أمَّتنا إلى مراتِع الحرِّيّة والكرامة ولكن الذين أوتوا المقدرة على هذا الأمر لا يولدون كُلَّ يوم ولا يهبطون مِنَ السَّماء مع المطر. إنَّهم كالماس ذلك المَعْدِن[4] الكريم فهْوَ لا يصير إلى

---

1 السُّخف: رِقَّة العَقْلِ فهو سَخيف.

2 الوَفْق من الموافَقَة بين الشيئَين كالإلتحام يقال حلوبَتُهُ وَفْق عياله أي لها لَبَنٌ قَدْرُ كفايته لا فَضْلَ فيه.

3 حومة القتال مُعْظَمه.

4 المَعْدِن مكان كُلّ شيء فيه أَصْله وموضع استخراج المعادن من ذهب وغيره.

حالتِه مِنَ الصَّفاء واللَّمعَان إلا بعد أجيال تمرُّ عليه ويكون في طبعه ما يعين السِّنين في عملها.

وما مِنْ إنسان لا يحلُمُ بأنْ يُخلَّدَ اسمه في التَّاريخ بآية مِنْ عِلْمٍ أو فن أو مغامرة أو اكتشاف غير أنَّ الذين يستطيعون أنْ يحقِّقوا هذه الأحلام هم القوم المُختَارون.

ليس كُلُّ مَنْ يقول «يا ربّ يا ربّ» يدخل ملكُوت السَّماء لأنَّ كثيرين ترقص كلمة الربّ على شفاهِهِم وفي قلوبِهِم تتراقص الشَّياطين.

لا بُدَّ مِنَ الكفاءة والأهليَّة في كُلِّ فن وعلم وصناعة وتجارة. أمَّا الذين ينجحون ولا أهْلِيَّة لهم فإنَّهم في الواقع ينجحُون على حساب الأهليَّة في غيرِهِم. أو على حساب وضعيَّة في المحيط أو لظروف أوجَدَها غيرُهم فسهُلَ على أمثالِهِم استغلالها.

ومِنَ النّاس مَنْ يُدركون نجاحاً وهم أشرار وفيهم طبائع اللُّصوص والمحتالين والعيَّارين [1]. هؤلاء أيضاً أصحاب أهليَّة ولكن في باب غير مشروع. وما يبلغونَه مِنَ النَّجاح تظلُّ رائحته كريهة وصورته دميمَة شَوْهاء. ولا بُدَّ في النهاية أنْ يتبدَّدَ نجاحهم كالسَّراب فلا يبقى لهم ممَّا كسبوا بالحرام إلاَّ العار.

إنَّ للحياة نواميسَ لا يَقْدر أنْ يعبثَ بها إنسان بل لا يقدر أنْ ينجوَ مِنْ طائلِها [2] إنسان مهما يبلغ مِنَ القوَّة والسُّلْطان.

السَّمير: 27/ 1/ 1955

أنواع الخوف

قال لنا أحد زوّارنا الكثُر:

«إذا كان الذين يملكون القنابل الأطوميَّة والهيدروجينيَّة يتملَّكهم الذعر منها فكم يجب أن يخافَها الذين لا يملكونها. ولا يعرفون كيف يستنبطونها ولا كيف يتَّقونها. وليس لهم قدرة على منع مالكيها مِنْ إستخدامها في الحروب».

وقفنا عند مفاجأة الزائر إيَّانا بهذا السؤال مبهوتِين لأنَّه في الواقع سؤال وجيه. ولكنَّنا بعد قليل مِنَ التأمُّل والتَّفْكير أجبناه بما يلي:

«إنَّ الذين يملكون القنابل الذَّرِّيَّة يخافونها أكثر مِنْ سواهم لأنَّهم مطَّلعون على أسرارها عارفون بفتكاتِها وأهوالها إذا انطَلَقَتْ مِنْ عقالِها [3]. وليس خوفهم ممَّا في حوزتِهِم منها بل ممَّا في حوزة [4] غيرهم

1 العيَّار من الرِّجال الذي يتبع هَوى نَفْسِهِ.

2 الطائل: النَّفْع يقال هذا أمْرٌ لا طائلَ تحته ج طوائل.

3 العِقال: الحبل الذي يعقل به البعير ج عُقُل (والبعير مجازي)

4 الحَوْزة: الناحية وحَوْزة الرَّجل ما في مِلْكه وحَوْزة الإسلام حدوده ونواحيه.

مِنْ هذه الأسلحة الجهنَّميَّة. وخوف المرء مِنْ سلاحٍ هو بفتكِه عليم أعظم مِنْ خوفِ إنسان ليسَتْ له هذه المعرفة.

خذ مثلا على ذلك إذا تفشَّى مَرَضٌ مُعْداً في الحي أو في القرية أو في المدينة فإنَّ الكبار الرَّاشدِين هم الذين ينذعِرُون. بينما الأطفال الذين يهدِّدهم الوباء قبل غيرهم لا يدخلهم الخوف إلا على قَدْر ما يفهمون خطره مِنَ الأمهات والآباء.

والنّاس الذين لا يملكون القنابل الذريَّة والهيدروجينيَّة شأنهم حيالها [1] شأن الأولاد حيال مرض تفشَّى في الحيِ أو القرية أو المدينة. لأنَّهم لا يعرفون عنها إلا ما طالعوه في صحف الأخبار مِنْ أقوال العلماء وتصريحات الخبراء.

قد يقول قائل إنَّ خوف هؤلاء يجب أنْ يكونَ أعظم لمعرفتهم الضئيلَة عن هذه الأسلحة. وهذا الإفتراض لا غُبَار [2] عليه ولكنَّه ليس الأمْر الواقع. بل الأمْر الواقع هو أنَّ هؤلاء يتحدَّثون بها كما يتحدَّثون بأيِّ خبرٍ في سَهْرة ثمَّ ينصرفون عنها إلى موضوع آخر ولا شكَّ أنَّ الجَهْل في مثل هذه المواقف نِعْمة ليس أجلَّ منها إلا نِعْمة النِّسيان.

وقد سمعنَا أحدهم يقول: ما دام الموت سيكون بالجُمْلة فلا ينبغي لأحدٍ أنْ يحزنَ ولا أنْ يجزعَ لأنَّه لن يموت وَحْدَه!!

السَّمير: 23/ 2/ 1955

مخلوقات ضروريَّة

إذا ابتلاك الله أيها القاريء العزيز بإنسانٍ ثقيل الظِّلّ لا يشعرُ أنَّه ثقيل. مثلما لا يشعر الحجر أنَّه حَجَر والرَّصاص أنَّه رصاص. يدخل عليك وأنت مُنْهَمك في عملٍ تسابق الوَقْت لكي تَقْضِيه. واندفع يسألك عن صحتِّك ثمَّ عن تجارتِك أو صناعتِك. ثمَّ عن نسيبك فلان وعن قريبك فُلَيْتَان. وعمَّا حدث في سوريا وجرى في لبنان. وهل تنشب الحرب في الشَّرق الأوسط أم تذر قرونها في الشَّرق الأدنى. فعليْكَ يا صاحبي أنْ تتذرَّعَ بالصبر الجميل والحُلُم الطَّويل. وأنْ تتجرَّعَ زيت الخروع. فأحاديث الثُّقُلاء أحياناً مفيدة للسَّامعين مثل زيت الخروَع وإنْ كانَتْ كريهة المذاق مثله.

ولماذا تتململ وتتبرَّم به وبأقواله وتنسى أنَّ النِّعْمة تأتي أحياناً في ثوب نَقْمة.

أليس أمراً ممكناً أنْ يكونَ القَدَر ساقَه إليك لتعرف أنت مقدار صَبْرك على المكَارِه.

---

1 حيَال: الحِيال قبالة الشيء ويقال قعدت حياله وبحياله بإزائه.

2 لا غُبار عليه: الغَبَرة الغُبار (والتَّعبير مجازي).

أليس مِنَ المُحتَمل لو لم يقطع عليك عملكَ هذا الواغل أنْ ترتكبَ وأنت منهمك في عملِك خطأ يفسد عليك كُلَّ ما عملته. فجاء هذا الثقيل لكي تنجو مِنَ الخطأ الذي كان وقوعه ممكناً لو لم يجيء.

أليس مِنَ المُمْكن لو لم تغمر البرودة روحك مِنْ حديثه أنْ تظلَّ سارح الفِكْر في عالَم خَلَقَه لك الخيالُ فذهلتَ به عن العالم المَحْسوس وما في هذا العالم المحسوس مِنْ آفات ونكبَات وبلايَا ورزايَا. وما في هذا الذُّهول مِنَ الضَّرر لأنَّه يُبْعد بك عن حقائق العيش. فجاء هذا الثَّقيل يوقظك مِنْ سُباتِك ويردُّك إلى دنيا المَلْمُوسات. إذن فهْوَ قد أفادك وأنت تظنّ أنَّه قد أضرَّك وساءَك.

لكي تَحْسُن الدُّنيا في عينَيْك ويظلَّ إيمانك مكيناً بعدل الحياة يجب أنْ تتذكَّرَ أنَّ الله لم يخلُق شيئاً عَبَثاً حتى الثقلاء. وأنَّ وجود هؤلاء ليس شرّاً كما تتوهَّم.

ولماذا تحسَبهم مِنْ وسائل الأذى ولا تحسَبهم مِنْ وسائل التَّرفِيْه.

إنَّ المكاره تزول بالصَّبْر عليها فكُنْ مِنَ الصابرين تكن مِنَ الرَّابحين.

السَّمير: 11/ 3/ 1955

تكرُّر المشَاهد

الحياة - وإنْ تعدَّدَتْ مظاهرها وأدوارُها تكاد تكون صورة اليوم الواحد صورة كُلِّ يوم. وحالة النَّاس في أيِّ عصر هي حالة النَّاس في كُلِّ عصر. وما جرى في زمان هو مثال لكُلِّ ما يجري في كُلِّ زمان.

كان مِنْ قَبْلُ على هذه الأرض ناسٌ أخيار وناسٌ أَشْرار. ولا يزال عليها ناسٌ أخيار وناسٌ أشْرار.

وكان فيهم الجميل والقبيح والسَّخيّ والبخيل. والمُحب للخَيْر والماقِتْ لكُلِّ خير. والمجتهد الطَّموح إلى المجد والكسلان القانِع الخانع الرَّاضي مِنَ الدُّنيا بكِسْرَة[1] خُبْز.

ولا يزال في الدُّنيا كُلُّ هؤلاء الأصناف مِنَ البشر.

كان في الأرض خير وشرٌ وجمال وقبح وحُبٌّ وبُغْضٌ وعِزّ وذُلّ.

ولا تزال فيها هذه الأضداد كُلُّها.

لذلك لا ينبغي لأحد أنْ يتعجَّبَ مِنْ وجود إنسان يبغُضُ إلى جانب إنسان يُحِبُّ. ومِنْ وجود إنسان يحبّ الهدم والتَّدمير إلى جانب إنسان مولَع بالبناء والتَّعمير. فلو كان الوَقْت كلّه فجراً لضجِرتْ العيون مِنْ رؤيته. ولو كان كلّه ليلاً لتساوى فيه المُبْصرُون والعُمْيان.

---

1 والكِسْرَة بالكَسْر القطعة من الشيء المكسور ج كِسَرٌ.

ولولا هذه النَّزَعَات[1] الشرِّيرة في الأرض لما شعر أحد بالحاجة إلى نبيٍّ أو مُصْلح. بل لَما كان لأيِّ نبيٍّ أو مصلح فضل في صلاح دعا إليه أو طلاح نهى عنه.

إذا عرف الإنسان هذه الحقيقة أي أنَّ وجود الشَّوك الجارح الممزِّق يعلن فضل الزَّهر النافح المتأرجح. وأنَّ وجود الفَسَاد يستدعي قيام المُصْلحين المُناضلِين لتطهير الأرض منه.

إذا عرف الإنسان هذه الحقيقة لم يَعُدْ يَنْقِمُ على الأشرار بل يَسْري في عروقِهِ شعور الإشفاق عليهم لأنَّهم رضوا ـ ولهم عُقُول ـ أنْ يكونوا في الدُّنيا قُبحاً لا جمالا. وذُلاًّ لا مَجْداً. وأنْ يكونوا معاولَ تهدم. لا سواعد تبني وتشيد وتَرْفع.

إنْ نَكُنْ زَهْراً فما أَمْجَدَنا   أو نَكُنْ شوكاً فهذا الخَطَرُ

السَّمير: 25/ 3/ 1955

الرَّبيع

ما هذه اليَقْظة في الأشجار تَطِلُّ مِنَ الأغصان نديَّة خضراء لتعانق النُّور وتشربه فيتحوَّل فيها نَضَارة وقوَّة؟.

ما هذه اليَقْظة في التُّراب الباهت البارد. إنَّها تتمشَّى فيه حرارةً وتنتشر منه أعشاباً كانَتْ بالأمس باليَة فردَّتْ إليها الحياة. وكانَتْ ذاويَة فراجعَها الإنتعاش؟. حتى كأنَّ في كُلِّ ذرَّة مِنَ التُّراب قوَّة محرِّك كهربائي.

وهذه اليَقْظة في النّاس.. ما أجملها. فقد أخذوا يأتون بالأزهار والرَّياحِين ويغرسونها حول منازلهم. بل في منازلِهم. كما أخذوا يفكِّرون منذ الساعة بمغادرة المدينة ذات الأبراج التي تحجُبُ السَّماء عن الإنسان بل تحجُبُ الإنسان عن نَفْسِه. ويتأهَّبون للإنطلاق إلى الشواطيء والجبال شوقاً إلى مجاورة الفنَّان الأَعْظم. إلى الطَّبيعة التي تنفض الآن سحرَها في المروج والأوديَة وعلى القمَم والرُّبى. فإذا هناك مواكب خَرساء مِنَ الألوان والأنداء والأشذاء والتَّهالِيْل. وإذا الأرض كلّها هيكل فسيح تتصاعدُ منه التَّسابيح[2] إلى الله مِنَ الجداول والأنهار خريراً وهديراً ومِنَ الشَّلاَّلات اصْطفاقاً واصْطخاباً. ومِنْ حناجر الطَّير صُداحاً وتَرْنيماً. ومِنَ الجبال المُتَّشحَة بالنُّور صلاة مُضمرَة خاشعَة.

قال الكُلُّ مِنْ قَبْلُ استناداً إلى التقاويم الفلكيَّة: إنَّ الرَّبيع لم يبتديء في ذلك الموعد إلا في التَّقاويم. بل ظلَّ سِرّاً مكنوناً وخيالاً محجوباً عن العيون حتى كان الأحد الماضي فانطلَق في الدُّنيا كنهرٍ كان وراء

---

1 النَّزْعة: ونازعتِ النَّفْس إلى كذا نِزاعاً اشتاقت.

2 سبَّحك قال سبحان الله وسبَّح الله وله نَزَّهه وقدَّسه.

سَدّ وسقط السَّدّ. وخرج مِنَ الخبَاء [1] كلّه بكُلّ ما فيه مِنْ حلاوة ومَلاحَة وفن وعذوبَة.

أجل. إنَّنا الآن في الرَّبيع بل الدُّنيا كلّها فيه. بل هو كلُّه في كُلّ الدُّنيا. فما أجملَ هذه الفترةَ في عُمُر الدَّهر - بل ما أَجْملها وأَجَلّها في عُمْرِ الإنْسان.

السَّمير: 12/ 4/ 1955

السَّابع عشر من نيسان

بعض الأيّام تفضُلُ سواها. بل تفضُل أعواماً وأجيالاً. مثلما تفضُلُ ليلة القَدْر [2] كُلَّ اللَّيالي وتقوَّم بألفِ شهر.

وكان لـ 17 نيسان معنى أوسع مِنْ عيد وطني - فقد وافق اليوم السابع عشر من شهر نيسان في هذه السَّنة عيد القيامة عند الطَّوائف الأرثوذكسيَّة. وهو عيد يعني الإنتصار على الموت والتحرُّر مِنَ القبر والأكفان. وهذا المعنى السَّامي يتجدَّدُ في النُّفوس كلَّما جيء على ذكر معلِّم البشريَّة الأعظم وليد المِذْود الذي رَمَى في كُلّ قول قاله وعَمِل عمله إلى تغليب قوَّة الخير في الإنسان على قوَّة الشَّرِّ. وإلى قهر البَغضَاء بالمحبَّة. وإلى إفهام الإنسان أنَّه يقترب مِنَ الألوهيَّة كلَّما ابتعد عن النَّزعَات البهيميَّة. وأنَّه لا يكمُل إلا إذا صار يتصوَّر ذاته أنَّه غيره. فإذا أمكنَه هذا الأمر لم يَعُدْ في وُسْعِهِ أنْ يسيءَ ولا أنْ يظلمَ. بل لا يعود يفعل إلا ما هو فضيلة ولا يقول إلا ما هو جمال. لأنَّ الأنانيَّة تضمحلُّ فيه أو على الأقل تحتجب وتستتر وراء «الغيرية».

ولكنَّ الإنسان عَجَزَ [3] عن هذا الأمر لأنَّ غرائزه كانت أقوى وأغلب. وهي غرائز لا يمكنُ استئصالها في جيل ولا في أجيال. وتزداد الطَّريق إلى الكمال الإنساني طولاً ومشقَّة كلَّما استغلَّت التعاليم المسيحيَّة لغير الغاية منها.

---

1 الخِباء كَكِساء من الأَبنية يكون من وَبَرٍ أَو صُوْف أَو شَعَر.

2 ليلة القَدْر:

1 ك القَدْر 97. ﴿إنَّا أنزلناه﴾ أَي القرآن جملة واحدة من اللَّوح المحفوظ إلى السَّماء الدّنيا ﴿في لَيْلةِ القَدْرِ﴾ أي الشرف العظيم ﴿وما أَدْراكَ﴾ أَعلمك يا محمد ﴿ما لَيلَةُ القَدْرِ﴾ تعظيم لشأْنها وتعجيب منه ﴿ليلةُ القدر خيرٌ من أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر فالعمل الصَّالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها.

﴿تنزل الملائكةُ﴾ بحذف إِحدى التّاءين من الأَصل ﴿والرُّوحُ﴾ أَيْ جبريل ﴿فيها﴾ في اللَّيلة ﴿بإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بأَمْرِه ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قضاء الله فيها لتلك السَّنَة إلى قابل ومن سببيَّة بمعنى الباء ﴿سلامٌ هي﴾ خبر مقدَّم ومبتدأ ﴿حتى مَطْلَعِ الفجرِ﴾ بفتح اللاّم وكسرها إلى وقت طلوعِهِ جعلت سلاماً لكثرة السَّلام فيها من الملائِكة لا تمر بمؤمن ولا بمؤمنةٍ إلا سلمت عليه (تفسير الجلالين).

3 عَجَزَ فلان عن الشيء عَجْزاً ضَعُفَ ولم يَقْدِرْ عليه. فهو عاجزٌ ج عَجَزَةٌ.

ولكنَّ الأمر الواضح الذي لا خلاف فيه ولا مِراء [1] هو أنَّ الإنسان اليوم أرقى مِنْ إنسان ما قبل المسيح عليه السَّلام. وما دام قد ارتقى إلى هذا الحَدِّ في غضون ألفي سنة فإنَّه لا شكَّ واصل في النهاية إلى الكمال المَنْشود.

السَّمير: 18/ 4/ 1955

ذِكْرى الأَمْوات

بعد أيّام تَنْصرم حياة شهر أيّار وفي نهايته يقف النّاس الأحياء يفكِّرون في النِّهاية ـ نهاية الأحياء. ونهاية الأشياء. ويقودهم التَّفْكير إلى تذكُّر الآباء والأمَّهات والأقارب الذين فارقوا هذه الحياة وسكنوا ظُلُمات القبور فتستيقظ في نفوسهِم عاطفة عِرْفان الجميل. وتَحْمِلُهم هذه العاطفة على زيارة المقابر وتزيين الأضرحَة تكريماً للرّاقدين تحت التُّراب.

لعلَّ قائلاً يقول: إنَّما الإنسان الحيّ يسعى إلى تكريم نَفْسه لأنَّه يَسُنُّ سُنَّة [2] سَيناله منها بَعْدَ عُمَرٍ طَويل مثل الذي نال الذين يكرِّمهم.

وهو قولٌ فيه كثيرٌ مِنَ الصَّواب. ولكنَّه ليس ممَّا يعاب به الإنسان. بل إنَّ وجود هذا الشُّعور فيه وإنْ كان أنانيّة هو مِنْ حُسن حظ الإنسانيّة. فلو ذَهَلَ الإنسان عن التَّفْكير بنَفْسِهِ والعمل على تَمْجيدِها وتكريمها لكان أشدُّ ذُهُولاً مِنْ غيره. ولصار كائناً كالجَماد يمرُّ به القاتل فلا يغضَب ولا يتأثَّر وتُطْرح عنده جُثَّة المقتول فلا يتحرَّك ولا يتألَّم.

وعندنا أنَّ الأنانيّة أنواع كثيرة لا نوع واحد. وفيها الأنانيّة الجميلة النافعَة. وفيها الأنانيّة القبيحَة المُضرَّة.

ومثال الأنانيّة الكريهَة البغيضة المُضرَّة هي التي نراها في جماعة مِنَ الأغنياء لهم نفوس إسفنجيّة تمتصُّ الخير مِنْ كُلِّ مكان ولا تقطرُ ممَّا تمتصُّ قطرة في أيِّ مكان.

إنَّ الأنانيّة المكروهَة الممقوتَة ماثلة أمامنا في غَنِيّ يَقْدر أنْ يُغيثَ ملهوفاً فلا يُغِيثَهُ. وأنْ يكسوَ عارياً فلا يكسُوه. وأنْ يداوي مريضاً فلا يداويَه. وأنْ ينشيء مدرسة في قرية فقيرة فلا ينشئها. وأنْ يبني مصحّاً أو مستوصفاً يلجأ إليه المرضى المَساكين فلا يَبْنيه.

وأنْ يدعى إلى تخفيف كارثة أو نكبة في بلدٍ ما فينفُض طوقه ويقول: هذا لا يَعْنيني.

---

1 ماراهُ مَماراةً ومِراءً وامترى فيه وتمارى شَكَّ.

2 سَنَّ سُنَّةً: السَّنَنُ الطَّريقة يقال استقام فلانٌ على سَنَنٍ واحدٍ. ويقال امْض على سَنَنِكَ وسُنَنِكَ أي على وَجْهِكَ وتنحَّ عن سَنَنِ الطَّريق وسُنَنِهِ وسِنَنِه ثلاث لُغات والسُّنَّة السِّيْرَةُ. وسَنَّ السُّنَّة وضعها.
وسَنَّ السِّكِّين ونحوه سَنّاً أحدَّه فهو مَسْنون وسَنِين.

وبعبارة مختصَرَة إنَّ الأنانيَّة المكروهة هي التي يحصُر صاحبها اهتمامه بنَفْسه وَحْدها دون سائر الخَلْق. فهْوَ ذِئْبٌ في صورة إنسان لأنَّ الذئْب وأمثالَهُ مِنَ الحيوانات الضَّاريَة [1] لا تهتمُّ إلا بذاتِها.

أمَّا الأنانيَّة الجميلة النافعة فهي التي نراها في الجندي الذي يطلب المجد في ساحات الوَغَى [2]. فإنَّه في الوَقْت ذاته يصونُ وطناً ويحمي شَعْباً.

ونراها في الغنيِّ الذي يستكثر مِنَ الثَّرْوة ليهبها في النهاية لمؤسسة علميَّة أو معهد كيماوي أو مستشفى.

ونرى الأنانيَّة الجميلة في الأم التي تضحِّي بحياتها وراحتها في سبيل أولادها لكي تحصُل منهم على الحُبِّ والتَّكْريم. إنَّها تحافظ بهذه الأنانيَّة على ذاتِها. على كيانها وعلى بقائها.

ومِنْ أمثلة الأنانيَّة الفاضلة أنانيَّة الفنَّانين الذين لا يهتمُّون بما يهتم له النَّاس مِنْ مأْكَل ومَلْبَس ومَشْرَب ولَهو. لأنَّ هذه المطالب تبدو عندهم حقيرة تافهة بإزاء ما يراود أرواحهم مِنْ رُؤًى. وما يتراءى لهم في مسارح الطَّبيعة مِنْ آيات. فَيَذْهَلُون بها حتى عن أُمور ضروريَّة كُل الضَّرورة للكائن البشري.

أجل إنَّ الأنانيَّة تبلغ بالفنَّان إلى حدِّ نسيان ذاته. فيعيش يَكُدّ ويكدَحُ [3] ويجوع ويعطش ويَسْتَبدّ بنَفْسِهِ إرهاقاً وحِرماناً في سبيل شيء هو أعزُّ عنده مِنْ كُلِّ شيء!.. في سبيل الفَنّ.

حتى إذا حاز ذلك الشيء صار ثروة خالدة لأمَّتُه وبلاده بل للعالَم كُلِّهِ.

ونحن عندما نكرِّمُ موتانا لا نكرِّم عظاماً نَخِرة. ولا رِمماً باليَة. بل ما فعلوه مِنْ حسنات وتركوه مِنْ ذكريات. وليس ضرورياً أنْ يكونَ كُلُّ واحد منهم فنَّاناً عَبْقَرِيّاً ليستحق التَّكْريم والتَّمْجيد. يكفي أنْ يكونَ رجلاً غرس شجرة أو عبَّد طريقاً أو ربَّى ولداً.

ويكفي أنْ تكون امرأة نسجَتْ ثوباً أو عمَّرَتْ بيتاً أو اعتَنَتْ بعيْلَة أو سهرتْ على مَريض. أو ضمَّدَت جُرْحَ مُصاب. أو آسَتْ محزوناً. فإنَّ الحياة في جملتها مِنْ هذه الأمور التي نحسَبُها غير ذاتِ شأن. وهي في الواقع جَوْهَرُ كُلِّ شأن.

لنذهبْ يومَ الإثنين إلى المقابر. فكم مِنْ عظَةٍ بالغة في وَقْفَةٍ على القبر.

السَّمير: 26/ 5/ 1955

---

1 الضَّاري مِنَ السِّباع المولع بأَكْلِ اللَّحْم ج ضَوارٍ.

2 الوَغَى: الجلبة والأَصْوات ومنه قِيل للحرب وَغًى لما فيها من الصَّوْتِ والجَلَبة.

3 الكَدْحُ العمل والسَّعْي والكَدُّ والكَسْبُ.

مِنَ القلب إلى القلب

هذا حديث مِنَ القلب إلى القلب. لا كلفة فيه لأنَّه بيننا وبين أصدقائنا أنصار هذه الجريدة التي عرفَتْ فيهم المحبَّة والوفاء وعرفوها في كُلِّ أدوارها صحيفةً تلتزم الصَّراحَة في أقوالها وأعمالها.

بهذه الصَّراحة التي أحبُّوها مِنْ أجلِها نريد أنْ نحدِّثهَم اليوم بأمر اعتزَمناه ونجد مِنْ حقِّهم علينا أنْ نشرحَ لهم الأسباب التي أوجبَتْ علينا أنْ نعتزمَه.

إنَّه الحديث عن «السَّمير».

والحديث عن «السَّمير» يقود حَتْماً إلى التحدُّث عن الصَّحافة العربيَّة في المَهْجَر. وعن حاضر هذه الصَّحافة ومستقبلها.

والحديث عن هذه الصَّحافة يهمُّ كُلَّ قاريء عربي في العالم الجديد لأنَّ الجريدة العربيَّة صارَتْ جُزْءاً مِنْ حياتِه مثلما هو قِوام[1] حياتها. أمَّا النَّاس في الأقطار العربيَّة فلا تهمُّهم صحافة المهجر لأنَّها ليسَتْ لهم. ولم يضعوا في هيكلِها حَجَراً ولا حَصاة. ولم يقتلعوا مِنْ طريقِها عَوْسجة ولا شَوْكة. ولكنَّهم كثيراً ما جلسوا كأهلها على مائدتها وأكلوا ما طبَخَتْ وشربوا ما اعتصَرَتْ. وطاروا عنها لا يذكرون لها فضلاً ولا يحفظُون لها جميلاً.

هذه الصَّحافة كما يعرف المطَّلعون قامَتْ مِنْ ناحية التَّحرير والتَّحبير على أكتاف أفراد معدودين مِنْ حَمَلَة الأقلام العربيَّة كان رأسُ مالهم الأكبر في حومتها تلك الرَّغبَة المُضطرمَة إلى درجة الإفتتان في أنْ يشاهدوا بأعينهم فكرةً تجول في رؤوسهم تتجسَّد على أيديهم حِبراً وورقاً. وتدور في الأرض لتقعَ حيناً في بُقْعة خصيبة ولُود. وحينا في أرض عقيمَة عاقر. وأحياناً لا تقع في مكان لأنَّها لا تفارق مكانها. فكثير مِنَ الأفكار ليس لها أجنحة لتطير. وكثير مِنَ الأفكار يقتلها الظهور كما يقتل الصَّقيع الأثمار.

إنَّ هؤلاء الأدباء الماهدين ـ غواة الصَّحافة المَسْحورين برائحة الحِبْر. السَّاحرين النَّاس بالجمال الَّذين يفيضونه في الحِبر. قد توارى أكثرهم في ظلمات الأبد ـ بعد أنْ أدُّوا قسطهم للحرف العربي. وقاموا بأكثر مِنَ الواجب الذي فرضوه على أنفسهم نحو لغتهم وقومهم. كلٌّ على طريقته. وكُلٌّ على مقدار طاقته. ولولا هذا الرَّهط الكريم مِنْ جنود اليَرَاع لتهدَّمَتْ الجسور التي تصل بين المهاجرين وأوطانهم الأولى. بل لولا أقلامهم لتقطَّعَت الوشائج بين المهاجرين أنفسهم.

أمَّا النَّاحية العمليَّة الآليَّة في الصَّحافة العربيَّة. وهي العُقْدة الكبرى ـ فقد كان إلى جانب أولئك الأدباء الفاتحين عددٌ مِنْ منضِّدي الحروف الخبراء الذين يرجع إليهم فضل عظيم في ولادة الصَّحافة العربية في هذا المَهْجر ثمَّ في استمرارها.

---

1 القِوام قِوام كُلّ شيء عمادُه ونظامه وقِوام الأَمر ما يقوم به.

والمنضِّد ـ هذا الجندي المجهول ـ هو الدَّعامة الكبرى في الجريدة العربيّة ـ بل هو القوَّة وراء العرش حسب التَّعبير السَّاري. فإذا مرض مرضَتْ الجريدة معه. وإذا اضطربَتْ شؤونه اضطربَتْ شؤونها. وإذا انقطع عن العمل مُكْرَهاً أو عامِداً فمن العسير أنْ تصدرَ الجريدة في أوقاتِها.

غير أنَّ هذا المنضِّد ذو قوَّة خارقة على مقاومة العوارض. فهْوَ لا يمرض كباقي النّاس. ولا تضطرب أموره كما تضطرب أمور النّاس ولا يتواكَل ولا يتكاسَل كما يتواكَل ويتكاسَل بعض النّاس.

إنَّما هؤلاء المنضِّدون في الجرائد العربيّة بالرَّغم ممَّا أودع الله فيهم مِنْ جَلَد على المكاره وثبات في الشَّدائد سرى على بعضهم النَّاموس الأزلي الذي يسري على جميع الأحياء فقَلَّ عددهم كما قَلَّ عدد الكُتَّاب. ولم يبق مِنْ هؤلاء وأولئك إلا نفرٌ قليل يصابرون الأيّام ويذيبون الأرواح والأجسام على مذبح هذه المِهْنة التي أحبُّوها على ما فيها مِنْ إرهاق وتعب ومشقَّة فهم مَشْدودون إليها بأحد ثلاثة عوامل، ألا وهي: إمَّا قوَّة الإستمرار. وإمَّا مطالب العيش الملحَّة في هذا المعترك الصَّاخب القاسي. وإمَّا لأنَّهم مبتلون بهَوَس الأدب وجنونه.

ولو أنَّهم انتقلوا عن كراسيهم لما وجد بعدهم مَنْ يرضى الجلوس عليها لِمَا في صحبتها مِنْ همٍّ وعناء. وما في حومتها مِنْ نكَدٍ وضيق.

ولكن بعض النّاس يتوهَّمون أنَّها صنعة هيِّنة ليِّنَة. وأنَّ صاحبها الذي يعطي النّاس سواد بصره وسُوَيداء[1] قلبه لا يعطي شيئاً. ويحسَبون أنَّها حِرْفة ليسَتْ ذات تكاليف ـ مع أنَّ تكاليف جريدة «كالسَّمير» لا تقلُّ عن ستمائة دولار في الأُسْبوع. وأحياناً تزيد عن هذا المعدَّل كثيراً. فقد أنفقْنَا في سنة واحدة على إصلاح الآلات أكثر مِنْ ألفَي دولار.

وليس المال هو العقبَة.

ولكنَّ العقبة العارضة لا يذلِّلُها المال وإنْ كَثُر. وهي لا تعترض جريدة كبرى وحدها ولا جريدة صغرى وحدها. بل تعترض الصَّحافة العربيّة كُلَّها في المهجر. ولا ينكرُ هذا الأمر إلا المكابرون.

ولذلك صار العامل الواحد في الجريدة العربيّة يقوم بما كان يقوم به عاملان أو ثلاثة مِنْ قَبْلُ. ولولا آلة اللينوتيب العجيبَة لكان الخَطْبُ أعظم.

وتجاه هذا النقصان في الأيدي العاملة وتكاثر النَّفقات مِنْ ناحية ثانية واشتداد الضَّغط على أعصاب وأرواح رفاقنا في الجهاد الأدبي وجدنا أنْ لا راحة لهم ولا لنا ولا ضمان «للسَّمير» إلا بواحد مِنْ أمرين.

الأول: أنْ نرفعَ بدل الإشتراك إلى 25 دولاراً في السَّنة.

والثاني: أنْ نُبقي البدل كما هو الآن ونصدر «السَّمير» ثلاث مرَّات في الأُسْبوع مع زيادة المواد والرُّسوم. إذ لا سبيل إلى الإقتصاد في أثمان الأشياء ولا في أجور العمَّال.

---

1 السُّوَيداء بسواء القلب حبَّته وكذلك أَسْوده وسُوَيْداؤه.

ولمَّا كانَتْ الزيادة في بدل الإشتراك لا يقدر الكُلُّ أنْ يتحمَّلوها فقد اخترْنَا الأمر الثاني. وهو إصدار «السَّمير» في هذا الصَّيف مؤقَّتاً ثلاث مرَّات في هذا الأُسْبوع.

وفي الوَقْت ذاته نتوقَّع مِنْ كُلِّ مشترك أنْ يوافينا برأيِه. «فالسَّمير» لمشتركيها أكثر ممَّا هي لنا.

ونحن مستعدُّون للعمل برأي الأكثريَّة منهم مهما يكن في العمل مِنَ التضحية والمشقَّة.

والله الموفِّق إلى الصواب أوّلاً وأخيراً.

السَّمير: 2/ 6/ 1955

الخاصَّة والكافَّة

منذ حين قريب قام جدل في جرائد بيروت حول هذا السؤال ـ لمن يكتب الأديب؟ للخاصَّة أم يكتب للكافَّة.

واختلفَتْ الأقلام في مَنْ هُمُ الخاصَّة ومَنْ هم الكافَّة اختلافاً شديداً أسفر عن لا شيء. فلم يَقْدر أَحَدٌ منهم أنْ يحدِّدَ مَنْ هم الخاصَّة كما عَجَز أنْ يعيِّنَ بالذَّات مَنْ هم الكافَّة.

وانصراف الأقلام إلى هذا الموضوع في هذه الأيَّام التي تتمخَّض بالعظائم دليل على أنَّ قومنَا غير مدركين تمام الإدراك ما يجري في الدَّنيا مِنَ الأمور التي سيكون لها حَتْماً تأثير عليهم جميعاً. على الخاصَّة والكافَّة! وعلى الذين يكتبون للخاصَّة والكافَّة معاً.

ثمَّ إنَّ في تواثب الأقلام العربيَّة في هذه الحَوْمة حول الخاصَّة والكافَّة برهاناً ساطعاً على أنَّ الأدباء أنفسهم لم تتحرَّر عقولهم وأرواحهم مِنَ الطَّبقيَّة. أيْ أنَّهم لا يزالون يقسِّمون الشَّعب إلى طبقات. وهذه الظَّاهرة فيهم ليسَتْ مِنْ علائم الخير.

وهذا المبحَث الذي قتل فيه مُتناولُوه وقتاً ثميناً جِدّاً يذكرنا بالجَدَل بين النَّحويِّين والعروضيِّين في عصور انحطاط الدولة وتقهقر العقول وخمود الأرواح ـ حتى صار ظهور كاتب مُفكِّر في تلك الأيَّام أعجوبة خارقَة. وصار حَيَدَان الشَّاعر عمَّا أَلَف النِّظاميُّون كُفراً وتجديفاً على الأدب وعلى اللُّغة والبَيَان.

وعندنا أنَّ هذا الجَدَل الأخير الذي نشَبَ حول الخاصَّة والكافَّة يهُون كُلَّ الهَون [1] يظلُّ مِنَ العبَث واللَّهو إلا إذا دخل على إخواننا الأدباء أنَّهم مِنَ «الخاصَّة» فيرفعون بينهم وبين النّاس سَدّاً كسَدِّ الإسكندر. أو يحفرون بينهم وبين النّاس هاوية ويصيرون هم في جانب والنَّاس كُلّهم في جانب آخر. وتصير حياتهم كُلُّها تكلُّفاً وتصنُّعاً كحياة العَروضيِّين والنَّحويِّين في الزَّمَن القَديم.

السَّمير: 10/ 6/ 1955

1 الهَوْنُ أَيضاً مصدر هان عليه الشيء يهونُ أَيْ خَفَّ.

ولَمّا كانَتْ الزيادة في بدل الإشتراك لا يقدر الكُلُّ أنْ يتحمَّلوها فقد اخترْنَا الأمر الثاني. وهو إصدار «السَّمير» في هذا الصَّيف مؤقَّتاً ثلاث مرَّات في هذا الأُسْبوع.

وفي الوَقْت ذاته نتوقَّع مِنْ كُلِّ مشترك أنْ يوافينا برأيه. «فالسَّمير» لمشتركيها أكثر ممَّا هي لنا. ونحن مستعدُّون للعمل برأي الأكثريَّة منهم مهما يكن في العمل مِنَ التضحية والمشقَّة.

والله الموفِّق إلى الصواب أوّلاً وأخيراً.

السَّمير: 2/ 6/ 1955

الخاصَّة والكافَّة

منذ حين قريب قام جدل في جرائد بيروت حول هذا السؤال ـ لمن يكتب الأديب؟. للخاصَّة أم يكتب للكافَّة.

واختلَفَتْ الأقلام في مَنْ هُمُ الخاصَّة ومَنْ هم الكافَّة اختلافاً شديداً أسفر عن لا شيء. فلم يَقْدر أَحَدٌ منهم أنْ يحدِّدَ مَنْ هم الخاصَّة كما عَجَز أنْ يعيِّنَ بالذَّات مَنْ هم الكافَّة.

وانصراف الأقلام إلى هذا الموضوع في هذه الأيَّام التي تتمخَّض بالعظائم دليل على أنَّ قومنَا غير مدركين تمام الإدراك ما يجري في الدّنيا مِنَ الأمور التي سيكون لها حَتْماً تأثير عليهم جميعاً. على الخاصَّة والكافَّة! وعلى الذين يكتبون للخاصَّة والكافَّة معاً.

ثمَّ إنَّ في تواثب الأقلام العربيَّة في هذه الحَوْمة حول الخاصَّة والكافَّة برهاناً ساطعاً على أنَّ الأدباء أنفسهم لم تتحرَّر عقولهم وأرواحهم مِنَ الطَّبقيَّة. أيْ أنَّهم لا يزالون يقسّمون الشَّعب إلى طبقات. وهذه الظَّاهرة فيهم ليسَتْ مِنْ علائم الخير.

وهذا المبحَث الذي قتل فيه مُتناولُوه وقتاً ثميناً جِداً يذكرنا بالجَدَل بين النَّحويِّين والعروضيِّين في عصور انحطاط الدولة وتقهقر العقول وخمود الأرواح ـ حتى صار ظهور كاتب مُفكِّرٍ في تلك الأيّام أعجوبة خارقَة. وصار حَيْدَان الشَّاعر عمَّا أَلَف النِّظاميُّون كُفراً وتجديفاً على الأدب وعلى اللُّغة والبَيَان.

وعندنا أنَّ هذا الجَدَل الأخير الذي نشَبَ حول الخاصَّة والكافَّة يهُون كُلَّ الهَون [1] يظلُّ مِنَ العبَث واللَّهو إلا إذا دخل على إخواننا الأدباء أنَّهم مِنَ «الخاصَّة» فيرفعون بينهم وبين النّاس سَدّاً كسَدّ الإسكندر. أو يحفرون بينهم وبين النّاس هاوية ويصيرون هم في جانب والنَّاس كُلُّهم في جانب آخر. وتصير حياتهم كُلُّها تكلُّفاً وتصنُّعاً كحياة العَروضيِّين والنَّحويِّين في الزَّمَن القَدِيم.

السَّمير: 10/ 6/ 1955

---

1 الهَوْنُ أيضاً مصدر هان عليه الشيء يهونُ أيْ خفَّ.

المُماحِكون[1]

نحن ندركُ ما للوقت مِنْ قيمة ـ ونعرف ما لاستغلال الوَقْت في السُّبُل الخَيِّرة مِنْ نفع النّاس. ولهذا لا نسمح لأنفسنا بأنْ نصرفَ لحظةً مِنْ هذا الوَقْت الثمين في مُماحكَات لا طائل تحتها ويَفرِضُ علينا الشُّعور بقيمة الوَقْت أنْ نَصْرِفَه في أمرٍ مفيد أو سعي حميد. أو توجيه سديد لأنَّ الإنصراف إلى المُمَاحكات والتَّوغُّل في مجاهلِها لا يقتل الوَقْت فَحَسْب بل يقتل ما هو أعظم وأثمن مِنَ الوقت. وهو إحْترام الإنسان لنَفْسِه وإحْترام العُقَلاء له.

ولا يجعل مُماحكَة النّاس والتحكُّم بالنّاس دَيدَنه[2] في الحياة إلا إنسان عاجز مُقصِّرٌ صغير العقل صغير القَدْر لا يَعْرف ما للوقت مِنْ قيمة. ولا يدركُ أنَّ للنّاس عقولاً تميِّزُ بين صحيح القول وزائفه. وبين غاية نبيلة وغاية سافلة. وبين كلمة يُرادُ بها الخير وكلمة لا يُراد بها إلا العَبَث والإفساد.

وعندما ينسى الإنسان أنّه كائن ذو قِيمة يجب أنْ يحرصَ عليها لا يبقى لشيء قيمة عنده وتَلْتَبسُ عليه الأمور فيصير وهو يغوص في الأوحال يتباهى كأنَّما هو يستحمُّ في العطور ويصير يتصوَّر ضَحِكَ النّاس عليه وسخرهم منه تحبيذاً واستحساناً. ويتوهَّمُ أنّه ماء وهو سراب وأنَّه شيء كبير وهو لا شيء.

أجل. لا ينصرف إلى مُماحكَة النّاس غير إنسان أدركَه العَجْز والتَّقصير عن اللِّحاق بهم ولكن بقيَتْ فيه قوَّة على التَّطلُّع إلى ما يصنعون وكُلَّما تطلَّع ـ وما أكثر ما يتطلَّع ـ ورأى ما هم فيه مِنْ إرتفاع. وما هو فيه مِنْ انخفاض ازداد حَنَقُه[3] وغيظه وازدادَتْ مع حَنَقِه وغَيظه ووقاحَتُه[4] وشراستُه فيُمسِي ولا شيء حسن في عينَيْه ممَّا يراه النَّاس حُسْناً. ويصير يَذُمُّ كُلَّ فكرة تصدر عنهم ولو كانَتْ لخَيْرِه ونَفْعه. ولو كانَتْ هي الفكرة التي يجب أنْ تصدرَ عنه..

بل هو يصير كُلَّما سمع إنساناً يُمتَدَح مِنْ إنسان يشعر كأنَّه يتلاشى ويَضْمحلّ وكأنَّ الدُّنيا تضطرم في عروقه وأوصاله. فيثور ويضطرب ويهيج ويصخب لعلَّه يلفتُ إليه الأنظار. ولعلَّ النّاس يُحِسُّون أنَّه موجود. ولكي يبرهنَ لهم أنَّه يَقْدرَ أنْ يكونَ فُضُولياً وَقِحاً. وأنَّه يَسْهُلُ عليه أنْ يتدخَّلَ في ما لا يَعْنيه ويتعرَّضُ لقضايا ليسَتْ ممَّا يدخل في نِطاق فَهْمِه.

وعندما يبلغ التَّواقح بالمرء إلى هذه الحالة يصير تقويم ذَنَب الكلب أسهل مِنْ تقويمِه. وهدَايَة

---

1 مَحَكَ لَجَّ وتماحكا تلاَّجا. والمُلاَّجة التَّمادي في الخُصُومَةِ.

2 الدَيدَن الدَّأب.

3 الحَنَقُ الغَيظ.

4 وَقُح الرَّجُل قَلَّ حياؤه فهو وَقِحٌ وَوَقاحٌ.

الذئب وتعليمه أهون مِنْ هدايته وتعليمه.

إنَّ الذين يقتلون الوَقْت بالمُماحكَات يقتلون في الوَقْت ذاته أنفسهم. فهم مُجْرمون ولكنَّ القانون لا يطالبهم. لأنَّ القانون لا يقتصُّ مِنَ المُماحكِين أكثر ممَّا يهمه أنْ يقتصَّ مِنْ بعوضٍ يَطِنّ.

ومِنَ الخير أنْ يتجاهلَ المرء المُماحكِين كما تجاهلهم القانون.

السَّمير: 22/ 7/ 1955

بين الجهل والمعرفة

ساق إلينا أحد الأدباء السؤال التالي قال:

قرأتُ لكم قصيدة جاء فيها هذا البيت:

أيُّها الجاهلون دامت عليكم نِعْمةُ الجَهْل إنَّكم سُعَداءُ

فجئتُ أسألكم كيف يكون الجهل نعمَة وكيف توفِّقون بين قولكم هذا وقولكم في قصيدتكم الرَّائعة التي حيَّيْتُم بها الشآم:

فالجهل أنَّى كان كان عقوبةً والعلم أنَّى كان كان ثَواباً

أجل كيف يكون الجهل نعمة وهو عقوبة أو عقوبة وهو نعمة؟.

فهل مِنْ إيضاح تطمئن له النَّفس الحائرة

مُسْتَفْسِر

أيُّها المُستفسِر الأديب صاحب النَّفس الحائرة:

ليس بَيْنَ القولين تناقُضٌ يستوجب التَّوفيق بينهما. فإنَّ الجهل يكون أحياناً نعمة. وأحيانا عُقوبة. فمثال الجهل الذي هو نِعمَة جهل الولد متاعب الحياة وهمومها التي يعانيها الكبير ذو الرُّشد. فإنَّ هذا النوع مِنَ الجَهل لا يشعر صاحبه بمسؤوليَّة. ولا تلزمه واجبات فهُوَ يضحك مِلْءَ شِدْقَيْه [1] لأيِّ أمر تافه ويمرَح ما اتَّسعَ أمامه مجال المرح لا يخامره هَمّ ولا يخالج قلبه خوفٌ مِنْ طارىء أو استياء مِنْ حالة. فهُوَ سعيد لأنَّه جاهل. وجَهْلُه نعمَة عليه لأنَّه يحول بينه وبين التَّأثُّر بما يتأثَّر به العارف المُدرك. ولكنَّ هذا الجهل نفسَه يصير عقوبَة لصاحبِه لأنَّه يقف به في دائرة ضيِّقة لا يتعدَّاها ـ بينما ذو العلم يثب فوق الحدود ويطير مِنْ حَوْمَة إلى حَوْمَة لأنَّ العلم بالأشياء والأمور يعينه على معالجتها وممارستِها والدخول فيها والخروج منها غير هيَّاب ولا مُتردِّد. بينما الجاهل واقف باهت لا يدري ما يصنع. أيمشي إلى الأمام أم يرجع إلى الوراء.

---

1 الشِّدْق جانب الفَمّ وجمعه أشْداقٌ.

فالعِلم في هذا الموقف جزاء وثواب لصاحبِه. والجهل عقاب في ذاتِه لأنَّه يَشتمل على حِرْمان أَلِيم. إنَّ القول:

أيُّها الجاهلون دامت عليكمْ   نِعْمةُ الجَهْلِ إنَّكمْ سُعداء

ينبع مِنْ حالة نَفْسيَّة شَعَرَ القائل وهْوَ في غمرتِها أنَّ المعرفة هي التي جلَبَتْ عليه الأسى وأنَّ الجاهلين أسعدُ منه حالاً. وأَرْوح بالاً. لأنَّهم لا يرَون الأشياء كما يراها. ولا يتحسَّسون الأمور والحوادث كما يتحسَّسها هو فهم لذلك في نجْوَة مِنَ الكدر والغَمِّ. إنَّهم سعداءُ لأنهم جهلاء. وفي أمثالنا العامّة: «عينٌ لا تَقْشَع قلبٌ لا يُوجَعُ». فالجاهل مِنْ هذه النَّاحية فقط في نِعْمة وارفة. والجهل في هذه الحالة هو النِّعمة الكبرى. وأمَّا بالنِّسبة لكونه عقوبة فهو ظاهر في عجز أصحابه عن منافسة أهل العِلم في ترقية أحوالهم وتحسين شؤونهم واستثمار قواهم واستغلال ما في أوطانِهم مِنْ كنوز دفينَة وغير دفينَة. فيحُلُّ بهم الضَّنْك والعَوَز [1] وينزل بهم العِقاب - وهو تحكُّم ذَوِي المعرفة بهم والسيطرة على مقدَّراتِهم وتسخيرهم لخدمتهم واستغلالهم واستعبادهم كما هو حاصل الآن في بلاد المغرب.

وأيُّ ثواب أعظم مِنْ إشراق الشُّعور في أعماق الإنسان بأنَّه كان حُرّاً ليس لغيرِه أنْ يَحْكُمَه بدون رِضاه. فهذا الشُّعور يُكْسِبُه قوَّة معنويَّة فائقة على النِّضال في سبيل كرامتِه وعزَّته. كما يُكْسِبه غِبْطةً روحيَّة لا حدَّ لها.

فأنت ترى أنَّ الجهل نِعْمة. ولكن في حيِّز ضَيِّق ولأمَد مَحْدودٍ وحالة معيَّنة. غير أنَّه في حالة الشُّمُول [2] عقوبة قاسية. أمَّا العلم فإنَّه وإنْ جَلَبَ لصاحبه الحزن أحياناً فهْوَ في حالة الشُّمُول بركَة فائضَة ونِعْمَة عظيمَة لا تعادلها نِعْمة.

السَّمير: 15/ 8/ 1955

يَقُولونَ ما لا يَفْعلونَ

ما أكثر الذين تنفتح عيونهم على العيوب والأخطاء في سِواهم... في أنسبائِهم وأصدقائهم وعُشرائهم وأبناء بلادهم.. لأنَّ العيوب والأخطاء كالأثمار المعطوبَة في الشَّجرة أوَّل ما تقع عليها الأنظار أو كالشَّعرات البيضاء هي أوَّل ما يراه المرء أو المرأة عندما يتطلَّع في المرآة.

وتراهُم لا يلمحون خطأً أو عيباً حتى تتهافَت ألسِنَتُهم على تقبيحِه واستنكاره ورمي صاحبه إمَّا بالرُّعونَة والحماقة. وإمَّا بسوء النِّيَّة ولؤم الطَّبع. ولا يتورَّعون عن ذلك ولو كان الذي يسلقونه

---

1 العَوَزُ: وعَوِزَ الرَّجُلِ افْتقر.

2 الشُّمُول: شمِلَهم الأَمْر بالكسر شُمُولاً عَمَّهم.

بألسنتِهِم رجلاً كبيراً في قومِه. أو جماعة محترمَة في المجتمع أو شعباً كاملاً!.

وليس الإنتقاد محظوراً ولا هو خطيئة بل أمرٌ لازم وضروري ولا سيَّما الإنتقاد الصادر عن رويّة وتفكير. المُنبثِق مِنْ قلبٍ مخلص المنطلق مِنْ نفس نبيلة تنشد الكمال في الإنسان وفي أعمال الإنسان.

ولكنَّ الإنتقاد ولو جاء مِنْ إنسان مخلص لا شائبَة[1] في نيّتِه... ولو كان صائباً ـ لا تتمُّ الفائدة منه إلا إذا كان النَّاقد يتحاشى الأمر الذي يُنهي عنه. ولا يرتكبُ الخطأ الذي وقع فيه غيره وعدَّه هو إثماً كبيراً.

إنَّ النفخ في الرَّماد والصِّياح في وادٍ أجزل فائدة مِنْ هذا النَّوع مِنَ الإنتقاد.

نحن نعرف ـ وأنت أيها القاريء تعرف ـ أناساً ما اشتملَ عليهم مجلس إلا اندفعوا في ذم التعصُّب والمتعصِّبين في الدين وقالوا عن أنفسِهِم إنَّهم لا يفرِّقون بين مذهب ومذهب وبين مِلَّة ومِلَّة. ويسترسلون في النَّقد على هذا الوتَر حتى يُخيَّلُ إليك أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم مِنْ مذهب محيي الدِّين الصُّوفي القائل:

وقد صار قلبي قابلاً كُلَّ صورةٍ	فمَرْعى لغِزلانٍ وديرا لرُهْبانِ[2]
ومسجد أوثانٍ وكَعْبَةَ طائفٍ	وألواحَ تَوْراة ومِصْحَفَ قُرآنِ
أَدِين بدِين الحُبَّ أنَّى توجَّهَتْ	ركائبه فالحُبَّ دِيني وإيماني

ولكنَّك لا تكاد تعلن له أنَّك مِنْ مذهب غير مذهبه أو أنَّ لك في بعض القضايا رأياً يختلف عن رأيِه حتى تنتشر على مُحَيَّاه غمامة استياء وربَّما انتفضَ كأنَّما لدغتْه عقرب.

وصار يحاذر أنْ يكون صريحاً في حديثه معك كأنَّك غريب عنه. مع أنَّه جارك وصاحبك وابن وطنك. ويصير يعتقد في سرِّه أنَّكَ إنسان مُتمرِّد أو مُلْحِد مستوجِب نارَ جَهَنَّم!

وهكذا يتَّضح لك أنَّه مِنَ النَّاس الذين يقولون بأفواهِهِم ما ليس في قلوبهم. وإنَّهم يردِّدون كلاماً ليس لهم.

ونعرف نحن ـ وتعرف أنت أيها القاريء ـ أناساً كلَّما جرى ذكرُ حادث نِزاع في قرية مِنْ قرى الوطن أو قتال بين عائلتَيْن أو قريَتَيْن رأيتهُم يتعجَّبون كيف يتنازع المُتخلِّفون عن الوطن على عين ماء. أو على جدار كَرْم. وكيف يقتتلون مِنْ أجل مختار أو ناطور. فتقول في نفسك: ما أنبل هؤلاء النّاس وما أشرف مقاصدهم. إنَّهم محبُّون للسَّلام هائمون بالوئام. ولكنَّك إذا مضَيْتَ تستقي أخبارهم وتتنسَّم أسرارهم انكشف لك أنْ هؤلاء الكارهين للنِّزاع النَّاقمين على الخصام هم مَنْ وراء كُلِّ نزاع هناك. وأنَّهم كثيراً ما أرسلوا المال إلى أنسبائهم في الوطن ليعملوا على قَهْر جارٍ أو نكاية نَسيب إليهم ينازعهم

---

1 الشَّائبَة: واحدة الشَّوائِب وهي الأقذار والأَدْناس.

2 والرَّاهِب واحد رُهْبان النَّصارى ومصدره الرَّهْبَة، والرَّهبانِيَّة أو الرُّهبان بالضَّمِّ قد يكون واحداً ج رَهَابين ورهابنَة ورَهْبانُونَ.

على شجَرة أو صَخْرة. ويخاصمهم مِنْ أجل خروف أو عَنْزة. أو شيء كالخروف أو العنزة.

وإذا سَمَوْا في نكاياتِهم ومخاصماتِهم فلكي يقهروا كبيراً في بلدتهم يمقتونه أو لينصروا كبيراً آخر يحبُّونه.

أجل. إنَّ هؤلاء وأمثالهم يعرفون كيف ينتقدون. ولكنَّهم لا يعرفون كيف يكونون هم بعيدين عن الأخطاء التي ينتقدون الغيْر مِنْ أجلها.

لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مِثلَهُ   عارٌ عليك إذا فَعَلتَ عظيمُ

السَّمير: 19/ 10/ 1955

الأربعون

مِنَ الحالات النفسيَّة المُضرَّة في بلادنا الأولى أنَّ الإنسان لا يكاد يطأ عتبَة الأربعينَ مِنْ عمرِه حتى تنطلق مِنْ حنجرتِه بقوّة صاروخ ذرِّي قولة الشَّاعر العربي القديم:

«وماذا تبتغي الشعراء مِنّي   وقد جاوزْتُ حَدَّ الأربعينِ»

وتتلو هذا الصاروخ آهة مُجلجلَة تخرج مِنْ صدرِه كثيفَة عارمَة كالدخان الذي يتصاعد مِنْ فوَّهة بركان. وتنتشر على وجهه قَتَرَة[1] هي مزيجٌ مِنَ الكآبة واليأس والإستسلام فكأنَّما الأربعون هي الحَدّ الأقصى في عُمُر الإنسان. وهذا خطأ لم يقع فيه السُّذَّج وَحْدَهم بل وقع فيه كثيرون مِنْ غير السُّذَّج. أوَّلهم ذلك الشَّاعر الذي قطع الطَّريق على نفسه بقوله:

«وماذا تبتغي الشعراء منّي»..ألخ

وسَنَّ بقولِه هذا عادة ليس فيها شيءٌ مِنَ الفائدة. وفيها كثيرٌ مِنَ الأذى.

وتابَعَه بعد أجيال وأحقاب الكاتب المصري مصطفى المَنفلُوطي فكتب عند بلوغه الأربعين مقالاً اجتهد كثيراً في تنميقِه فجاء أشبه بكلام إنسان مريض مُدْنَف[2] حضرَتْ ساعته وأدرك أنّه شارف مَنيتَه.

وهذا يثبت أنَّ للوهم مِنْ سلطان وأنَّ له عدوى أشدُّ خطراً مِنْ عدوى الطَّاعون والكوليرا. وأنَّ جراثيمَه تعمِّر وتبقى مِنْ جيلٍ إلى جيل. وتنتقل مِنْ بلادٍ إلى بلاد كأنَّما هي شيء في الهواء.

بل إنَّ هذا الخطأ شائع بين الشَّباب في بلادِنا القديمة. وهو فيهم مجسَّم مُضخَّم أكثر ممَّا هو في سواهم حتى ذلك الشَّاعر الذي ألقى عصاه واسْتَسْلم عندما جاوز حَدَّ الأربعين فإنَّ كثيرين منهم يبكون مِنَ الدُّنيا ويتظلَّمون مِنَ القَدَر بكاءَ مَنْ لم يبق في نفسِه رجاء في شيء ولم يبق لأحدٍ رجاء فيه. وكأنَّما ليس في الدُّنيا شيء يستأهلُ أنْ يحيا المرء مِنْ أجلِه.

---

1 القَتَرَة: القَتَرُج قَتَرَة وهي الغُبَار.

2 المُدْنَف: دَنِفَ المريض أي ثَقُلَ فهو مُدْنِف ومُدْنَف.

وإذا صار المرء يتوهَّمُ أنَّه بلغ مِنَ الحياة كُلَّ ما يريد. وبلَغَتْ منه الحياة كُلَّ غاية لها. فَقُلْ: إنَّ شأنَه صار كشأن السَّيف الكَليل لا يصلُحُ إلا أنْ يكونَ أثراً يعلَّقُ على حائط.

وكلَّما دار الوَهْم في رأسِه اشتدَّ زهده في الحياة وازدادَتْ همَّته ضَعْفاً وعزيمته وهناً. ويصير كلَّما مرَّ به عام توهَّم أنَّه أعوام. وأحسَّ لشدَّة تملُّك هذا الوَهْم منه أنَّه يحمل في كُلِّ عام أثقال السِّنين كُلِّها.

وأكثر ما يستولي هذا الوَهْم على النّاس القاعدين بلا عمل. ولا سيَّما في القرى حيث أوقات الفراغ خَزَّان لا يَنْفد. فإنَّ المُستغرق في عمل يحبُّه. والمُنصرف إلى قضاء مهمَّة يقدِّسها، يَذْهلُ عن الوَقْت فلا يدري إذا كان يسرعُ أم يبطيء وإذا كان يطول أم يقصر. ولا تستشعر نفسه المَلَل إذ لا مُتَّسَع في الوَقْت لديه يشغله بالتَّضجُّر. وعندما ينتهي مِنْ عملِه لا يأسف على الساعات التي مرَّت به لأنَّه لم ينفقها عبثاً بل استغلَّها في عمل مُفيد وقَضَاها في واجب حَميد.

إنَّ الأوقات التي ينفقها القوم في البَطالة كمياه الأنهر والسَّواقي والينابيع المُنحدِرَة مِنْ أودية لبنان وسفوحه إلى البَحْر.. كلتاهما ذاهبة ضَياعاً. فخَسارة هذه الأوقات أعظم مِنْ خسارة الأموال. وأضرُّ بالوطن وأهله مِنْ مَحْلِ المواسم. فإنَّ خَسارة المال تعوَّض أمَّا الوَقْت الضَّائع فلا يمكن استرداده. ومَحْلُ المواسم شرّ. ولكنَّ الشَّرَّ الأعظم هو مَحْلُ الهِمم وبَوار العزائم وقَحْط الأرواح.

ليس أثقل مِنَ الوَقْت على الإنسان البطَّال.

وليس أثقل على الأرض مِنَ الإنسان البطَّال.

وأوطاننا الأولى علَّتها الكبرى أنَّ الوَقْت لا قِيْمة له عند النّاس هناك. وليس أدلّ على استهانتِهم بقيمة الوَقْت مِنْ قول الشَّاعر:

«وماذا تبتغي الشعراء منِّي وقد جاوزت حَدَّ الأربعينِ»

فقد قرَّر جازماً ومؤكِّداً أنْ ليس للوقت قيمة بعد الأربعين. مع أنَّ الخير كُلَّ الخير في السنين التي بعدها لأنَّها عصر النُّضوج والحِكْمَة.

السَّمير: 2/ 12/ 1955

طلاَّب الشُّهرة

ما مِنْ أحدٍ في الدُّنيا إلا ويَلَذ له أنْ يشتهر.

فالشُّهْرة نوعٌ مِنَ البقاء وأحياناً هي نوع مِنَ الخلود.

والإنسان مفطورٌ[1] على حبِّ البقاء. فتراه يحاول بكُلِّ وسيلة أنْ يستبقيَ ذِكْرَه في هذه الدُّنيا وأنْ

---

1 المَفْطور: الفِطْرَة الخِلْقَة التي يكون عليها كُلّ موجودٍ أوَّل خَلْقِهِ.
والفِطْرَة السَّليمة (في اصطلاح الفلاسفة) استعداد لإصابة الحُكْم والتَّمييز بين الحَقِّ والباطل. ج فِطَرٌ.

يظلَّ اسْمه يدوِّي في مسامع الدَّهر.

إنّما الذين يخلدون خلوداً طيِّباً قليلون.

والسُّبُل إلى الإشتهار كثيرة ومتعدِّدَة. منها السَّبيل السَّوي وهو سبيل الصَّالحين.

ومنها السَّبيل الأَعوج وهو سبيل الأشرار.

هذا رسَّام ينزوي عن النَّاس في غرفة زَرِيَّة الأثاث خافتَة الضوء ويُكِبُّ على لوحتِه ليَطْبعَ في وجهها وجهاً في مخيَّلته. أو طيفاً[1] لاح له في النَّهار وهو سائر في الطَّريق. أو مشهداً مِنْ مشاهد الطَّبيعة عند الفَجْر أو عند الأصيل.

إنَّ هذا الرسَّام يبغي بما يصنع أنْ يخلِّدَ ذاته بما يصوِّر ويرسم مِنَ المشاهد التي حوله أو الفِكَر التي تتمخَّض بها روحه.

وهذا عالمٌ منصرف عن اللّذَّات انصراف الزُّهَّاد لكي يَطْلُعَ على النّاس باختراع فيه منافع للبشريّة كلّها أو لأمّة أو لقبيلة. إنّه لا يصنع ما يصنع طَمَعاً بثروة أو مَنْصب رفيع ولكنَّه يطمع أنْ تملأ جوانب نَفْسه نشوة الظَّفَر والإنتصار على عَقَبة كانَتْ في طريق النّاس فمحاها. ثمَّ هو يطمع بأنْ يتحدَّث به النَّاس زمناً طويلاً. وحديث النّاس هو الشُّهْرة.

وقِسْ على الفنَّان والعالِم وغيرهما ممَّا يفعلون إرادة الحياة فيهم. بين جندي يغامر بحياتِه لِيَصُون عَلَمَ بلاده أو ليكسب لها فوز.

أو مُصْلح يُسْتَهْدف لكُلِّ مِحْنة وكُلُّ بلاء في سبيل إنقاذ أمَّته مِنْ ذُلٍّ وعبوديّة أو لكي يُنْقِذَها مِنْ نقائص[2] وعيوب فيها.

كُلُّ هؤلاء وأمثالهم يطلبون الشُّهْرة مِنْ أبوابِها ويَسيرون في السُّبُلِ القويمَة إليها وإنْ كانَتْ سُبُلاً طويلة وشاقَّة.

إنَّما إلى جانب هؤلاء الصَّالحين مِنْ ذوي العَبْقَريّة أناس لم يُخلقوا لِيَحْصُلوا على الشُّهْرة مِنْ هذه السُّبُل. فتراهم يطلبونَها بمخالفة القوانين كقُطَّاع الطُّرق والسَّرَّاقين والقَتَلَة ومَنْ على هذه الشَّاكلَة ممَّنْ تخلَّتْ عنهم السَّماء فاستولت عليهم الشياطين.

وهناك صِنْفٌ مِنَ النّاس لا يُحصى مِنَ القَتَلَه واللّصوص ولكنَّ أصحابه أثَمَة مثل القَتَلَة والمجرمين وهم أولئك الذين يَعْجَزُون عن أنْ يكونوا مِنْ ذوي المواهب فينشدُون الشُّهْرة بالتَّهجُّم والتَّطاول على أصحاب المواهب لعلَّهم يشتهرون. فيشتهرون ولكن مثلما اشتهر كاسر مِزْراب العَين في القَرْية.

ولقد كان بين تلاميذ المسيح واحد مِنْ هذا الصَّنَف المُنحط هو ذلك الذي باع سيِّده بثلاثين مِنَ

---

1 الطَّيف الخيال الطَّائف وهو ما يراه النَّائم.

2 النَّقص العيب.

الفضّة دون أنْ يَطْرِفَ[1] له جفن.

ولكنَّ المسيحيَّة لم تتمجَّد بيوضَاس بل بكُلِّ رسول إلا ذلك الخائن اللّعين.

السّمير: 17/ 12/ 1955

آفة كُبرى

عندما تقع في الجريدة غلطة مطبعيَّة تفسد المعنى وتشوِّهه تسارع الجريدة إلى تداركها بالتّنبيه عنها أنَّها غلطة. ووضع الصَّواب مكان الخطأ.

وعندما يجرح أيُّ إنسان يداه بأداة يخشى أنْ يفسدَ جرحه فيسرع إلى غَسْل يده بالضّمادات التي تقيه مِن الفساد.

وعندما يكون في المجتمع عِلَّة أخلاقيَّة أو عادة مُضرَّة يجد العقلاء الرَّاغبون في الخَير والصلاح والكمال مِنْ واجبهم أنْ يستأصلوا هذه العِلَّة بالوعظ والإرشاد والقُدْوَة[2] الحسنة حِرْصاً على سُمْعتهم التي هي جُزْء مِنْ سُمْعَة المجتمع.

لا يستدعي الطَّبيب إلا المريض.

ولا يحاربُ المصلحون فكرة سخيفة إلا لأنَّ لها أتباعاً وأنصاراً يتوهَّمون إنَّها غير سخيفة.

ونحن نحاول أنْ نكونَ في جانب الإنصاف حتى مع أعدائنا الذين لا يعرفون للإنصاف وزناً في سِلْمِهم وحربهم.

ولكنَّنا لا نقدر أنْ نوافقَ أيَّ صاحب فكرة سخيفة في ضلالِه. كما أنَّنا يصعب علينا أنْ نقنعَ أنفسنا بأنَّ الغناء في المآتم شيء جميل. وأنَّ الرقص حيال القبور والرِّمَم مِنَ الفضائل في هذا العصر!! وأنَّ العربدة والسُّكر والرقص العاري الخليع في نكبة هو منتهى الذَّوْق الرَّفيع!

وإذا كان بعض الكاتبِين تخلَّوْا عن عقولِهم ومداركهم وحطَّموا كُلَّ قياس منطقي لقاءَ دولارات استفادوها فنحن لا نقف منهم موقف المُحاسب. ولكنَّنا لا نقدر أنْ نَسْلُكَ الطَّريق الذي سلكوه لأنَّنا نحترم أنفسنا ونحترمُ الضَّحايا ونخشع أمام الموت.

وإذا كانوا أكثروا مِنْ ابْداء المعاذير وابتداع الأقاويل تبريراً للرَّقص على المقابر والعزف في المآتم فلا غرابة في صنيعهم. إنَّ الرائحة الكريهة تحتاج إلى عطور كثيرة لتحُول دون ظهورها وانتشارها.

لا يغسل النّاس إلا الثياب القذرة. ولا يرقّعون إلا الرداء المُنْخَرِق.

---

1 طَرَفِ البَصَرُ طَرْفاً تحرَّكَ جفناه.

2 القُدْوَة الأُسْوَة يقال فلان قُدْوَةٌ يُقْتدى به وقد يُضَمُّ فيقال لي بِك قُدْوَة وقِدْوَةٌ وقِدَةٌ.

ولكنَّهم في كُلٍّ ما فعلوا كانوا كالمقهور الذي يستدفيء بضوء النجوم!.

وكُلُّ ما نرجوه أنْ يكونَ هؤلاء المُكابرون في الحقائق السافرة على اتفاق ووئام مع عقولِهِم وضمائرهم. وأنَّهم مقتنعون حقاً بأنَّ الرقص حيال الأجداث والقتلى مِنَ الأمور الجميلة المرغوب فيها!.

أمَّا إذا لم يكونوا على وفاق مع أنفسهِم فإنَّنا نراهم جديرين بالشَّفَقة والعطف والمغفرة منَّا ومن غيرنا. فالرَّحمة شيء لا يقدرُ أحد أنْ يضنَّ به على محتاج إليها.

ولكن لعلَّهم وقد رأوا كيف كانَتْ نتيجة الهزء بآلام النّاس والسُّخر مِنَ الموتى والأحياء في وقت واحد.. لعلَّهم وقد رأوا إعراض العُقلاء عنهم يسارعون الآن إلى إصلاح غلطتهم فهْيَ أعظم وأبشع مِنْ خطأ مطبعي في جريدة. وأكثر ضرراً مِنْ جُرْح في إصْبَع أو ساعد.

إنَّها آفة خُلُقِيَّة عليهم أنْ ينقذوا أنفسهم منها. إذ لا أحد غيرهم يستطيع هذا الأمر!

ميامي فلوريدا..

السَّمير: 16/ 3/ 1956

ذِكْريات

رجعْتُ مساء أمس مِنْ ميَامي لا أحمل في حقيبتي غير ثيابي. ولا أحمل في يدي غير مِعْطَفي الشَّتوي. ولكنّي كنْتُ أحمل أشياء كثيرة غير منظورة هي أهم وأثمن وأعزّ مِنْ كُلِّ شيء يُوضَع في حقيبة. أو يُحْمَل في يد - هي ذكريات الأصدقاء الأوفياء والإخوان الأصفياء الذين لقيتهم هناك بين زوَّار مثلي ومقيمين مثل شقيقي - وما أحاطوني به مِنْ مظاهر الحب والوفاء.

أجل. عُدْتُ أحمل هذه الذكريات الجميلة المؤنسَة للرُّوْح وأحملُ معها خيالات المشاهد السَّاحرة التي اشترك الإنسان والطَّبيعة في تكوينِها. وانفرَدَتْ بها تلك الأرض التي تزداد عُمْراناً وسُكّاناً في كُلِّ لحظة. فإنَّ النّاس يتدفَّقون عليها مِنْ كُلِّ ولاية - حتى كاليفورنيا - كما كانوا يتدَّفقون على أميركا بعد اكتشافها.

وإنَّه لمن حظ المُسافر في الطائرة أنَّ الذكريات والصُّور الذهنيَّة والفِكَر والخوالج النفسيَّة لا توزَن كالحقائب والصُّرَر. ولا يؤخذ عنها رَسْمَ نَقْل ولا رَسْم جمركي. وإلا لَمَا حلَّقَتْ في الفضاء طائرة ولا سافر إنسان في طائرة لأنَّها ليسَتْ أشياء يسعها مكان. ويطيرُ بها جناحان. إنَّها أشياء لا يسعها إلا وعاء واحد هو قلب الإنسان.

وأنا الآن في مكتبي أستعرض موكب هذه الذكريات وأحاول أنْ أنقلَها مِنَ النَّفس إلى الطِّرْس فيعترضني خيال النكبة وأكاد أسمع صرخات المُشرَّدين وعويل النِّساء اللَّواتي فقدْنَ أزواجهُن

وأولادَهن أو أخواتهن. كما وأكاد أستدني مشاهد الفَزَع والهَول ومراكب الخائفين والشَّاكين والمُتضرِّعين الذين خسروا كُلَّ شيء كان لهم. وكادوا يفقدون الإيمان بالله. ويدوسون حتى الثقة بالإنسان.

وكلّما لاحَتْ لخيالي هذه المشاهد الكئيبَة المُحزنَة المُزلزلَة للرُّوح أحسَسْتُ كأنَّ كُلَّ قطرة مِنْ روحي تهتف بي - إلى النجدة! إلى النجدة! هذا وقت المَدَد والمعونَة. بل هذا هو الوَقْت الذي يبرهن فيه الإنسان عمَّا أودعَ الله فيه مِنْ عطف وحنان وحب لأخيه الإنسان.

ولكنَّني لست ممَّن يقنعون حيال نكْبَة مثل هذه بالتَّلهُّف والتَّحسُّر والتَّوجُّع للمنكوبين بل أنا ممَّن يسترشدون العقل في هذه المواقف والعقل يقول: إنَّ لجنة الإغاثة اللبنانية الأميركية يجب أنْ تستأنف الجهاد المَبْرور. فهي لجنة رسميَّة معترف بها مِنْ حكومة الولاية. وكُلُّ دولار يتبرَّعُ به أيُّ شخص عن يدها يُحسَمُ مِنْ ضريبَة الدَّخل.

ولَمَّا كنْتُ في ميامِي تحدَّثْتُ إلى بعض الأفاضل المعروفين فإذا هم مِنْ رأيي وسيؤلِّفون لجنة رسميَّة دائمة على غرار لجنة نيويورك للتَّعاون معها في الأزمة الحاضرة وفي كُلِّ أزمة تقع في المستقبل.

وكان صديقي الوجيه السيد يوسف سلمون ممَّن تحدَّثوا في هذا الموضوع فدفع إلَيَّ حوالة بمائة دولار لمنكوبي الزلزلَة كفاتحة الإكتتاب الجديد.

ووقفْتُ على رسالة مِنْ بيروت إلى السيدة عليا جريديني في ميامِي مِنْ شقيقتِها السيدة جميلة إبراهيم داغر تصف كيف جرَتْ الهزَّات في بيروت نقتطف منه ما يلي:

«لا تسألي عن الخوف الذي نحن فيه اليوم. فاجأتنَا الهَزَّة[1] الأولى ونحن سهرانِين في البيت وكان عندنا أربعة أشخاص مِنْ مجدلونا. فشعَرْنا أنَّ البيت كلَّه يميل ويرتجُّ والأبواب والشَّبابيك والزُّجاج يقرقع ويتحطَّم ويحدث ضجَّة عظيمة. فصرَخْنا وركَضنا نختبيء في الغرف. ثمَّ هدَأتْ الحال. وبعد ربع ساعة ابتدأت الهزَّة الثانية وكانَتْ أشدُّ وأقوى مِنَ الأولى. فخرجْنا مع ضيوفنَا إلى الشارع ومنْه إلى جنينة الصَّنائع حيث كان الألوف مِنَ السكان على الطرقات. والسيَّارات تنقل النّاس إلى خارج المدينة - حتى بلَغَتْ أجرة السيَّارة 150 ليرة بعدما كانَتْ ليرتَيْن!!..

«وما هي غير لحظات حتى حدَثَتْ الهَزَّة الثالثة. فجزعَ النّاس جزعاً عظيماً. وكانوا يخرجون مِنْ بيوتِهم بملابس النوم يطلبون النَّجاة... وكنَّا نركض مع النَّاس ونطلب مِنْ أصحاب السيَّارات أنْ ينقلونا مِنَ المدينة فلا أحد يسمع. وبقينا على هذه الحالة إلى نصف اللَّيل. وأخيراً عدنا إلى البيت مُسلمين أمرنا لله.

وفي اليوم التالي - السبت - حدَثَتْ هزَّة رابعة قبل الظهر. وكان صهرك في الشُّغل فجاء ركضاً إلى البيت فلم يجدنا. وبعد أنْ فتَّش علينا وجدَنَا في الجنينة القريبة منَّا. وبقينا خارج البيت حتى نصف

---

1 الهزَّة: هزَّه وبه حرَّكه.

اللَّيل. واليوم (الثامنَ عَشَرَ من آذار) قبل أنْ نكتبَ هذه الرسالة حصلَتْ هزَّتان خفيفتان».

ثمَّ تذكر كاتبة الرسالة القُرَى التي انهدَمَتْ فيها بيوت وقُتل فيها ناس. ولَمَّا كنَّا قد نشرنا أسماء هذه القرى مِنْ قبل في «السَّمير» فإنَّنا نكتفي بالإشارة إلى أنَّ «كفر حتَّى» التي نكبَتْ وبلغ عدد قتلاها ثلاثةَ عَشَرَ هي غير «كفر متَّى».

وتذكر الرسالة أنَّ بنايات ضخمة في بيروت تصدَّعَتْ. ومنها قصر الجمهوريَّة وبناية البوسطة والتلِّغراف. وبناية العسيْلي. وأنَّ النَّاس يعيشون الآن في خوف.

السَّمير: 28/ 3/ 1956

إستغاثة واستنجاد

يا ابن وطني

المُنتمي إلى أرض الفِكْر والإلهام وموطِن الشِّعر والجمال

بل يا نسمَة مِنْ نسمَات الحبِّ المنعشَة. وقبَساً مِنْ أقباس المُروءة والمَعْروف.

أيُّها المهاجر المُجاهد الرَّائع في أرض الحرِّيَّة والخَيْر والسلامة.

بل أيها الإنسان الذي يتفجرُ في قلبِه ينبوع حنان ورحمة كلَّما نزلَتْ بوطنِه جائحَة [1] ويطلع مُتوهِّجاً كلَّما دجا [2] ليل كارثة. تصوَّر عندما تأوي في اللَّيل إلى فراشِك لتنام مُستريحاً هادئاً أنَّ إنساناً شريداً هدم الزلزال بيتَه يطرقُ بيتَك مُستجيراً بك لتمنحه سقفاً يتظلَّلُ به ولو ليلة. وفراشاً ينام عليه ولو ساعة. ورغيفاً يحفظ به رمقَه [3] الذَّاهب. وكساء يستر به جسده المُرتعش.

قل لي بربِّك يا ابن وطني. لو جاء إليك إنسان هذه حالتُه مِنْ التَّعاسة أفكُنْتَ تردَّه عن بابِك وتقول له ـ لا مكان لك عندي. فاذهب إلى غيري؟.

لا. قد يفعل إنسان غيرك هذه السيئة. أمَّا أنت فحاشا لك أنْ تستبدل مِنْ طبيعتِك السَّخيَّة طبيعة بخيلة. وأنْ تنزع الإبتسامة عن محيَّاك المُتهلِّل لِتَلْبَسَ مكانها جَهْمَةً [4] وعبُوسَة [5].

أذكر يا أخي ـ سواء كُنْتَ رجلاً أم امرأة ـ أنَّ هنالك وراء البَحْر.. في وطنِك الحبيب الغالي..

---

1 الجائِحة: جاحَ فلانٌ جَوْحاً عدل عن المحَجَّة إلى غيرها وجاحت الجائحة المال أَهلكته وجاحت الجائحة النَّاس أَهلكت ما لهم واستأصلته.

2 دجا اللَّيل: دجا الليل عمَّت ظلمته وألْبَس كُلَّ شيء فهو داجٍ.

3 سَدَّ رَمَقه: الرَّمَقة بقيَّة الرُّوْح.

4 الجَهْمَة: الوجه الغليظ المجتمع السَّمْح.

5 وعَبَس وجهه عُبُوساً كَلَح وكَلَح تكشَّر في عُبُوس.

ألوفاً مِنَ النَّاس مَنْ كانوا يأوون إلى مضاجعِهِم في اللَّيل آمنِين كما تأوي أنتَ إلى مَضْجَعِك في أرض كولمبوس.. فأمسوا بعد الزلازل وليس لأحدٍ منهم جدار يسندُ إليه ظهره ولا وساد يلقي إليه رأسه.

وكُلُّ هؤلاء يطرقون بابك ويستنجدون بك.

وكُلُّ هؤلاء إخوان لك. لو زرتهُم قبل الكارثة التي حطَّمتهُم لفرشوا طريقك بالرَّياحين. وفتحُوا لك أبوابهم وقَبْلَ أبوابهم قلوبهم. وغمرُوك كما يغمر نور الشَّمس الأزهار.

ولكنَّهم الآن محتاجون إلى كُلِّ شيء. وقبل كُلِّ شيء إلى محبّتِك... إلى وطنيّتِك... إلى مُرُوءتك... إلى إنسانيّتك.

واذكر أنَّ الدُّنيا كلُّها عيون شاخصَة إليك لتعرف مقدار حبُّك لوطنِك الأوَّل. ومقدار غيْرتك على أبناء بلادك في هذه الكارثة.

فدع التَّاريخ عندما يذكر قسوة الزَّلازل أنْ يذكرَ معها رحمتك ومُروءتَكَ وشهامَتَك.

السَّمير: 23/ 4/ 1956

بعد عشرة قرون

إنقضَتْ عشرة قرون على وفاة فيلسُوف المعرَّة الضَّرير أبو العلاء المَعَرِّي.

وهذه القرون العشرة مرَّتْ بالعالم العربي وكأنَّها لم يمر منها به يوم واحد. فقد تبدَّلَتْ الأمم مِنْ أطوارِها أطواراً جديدة. ومِنْ حالاتِها السَّاذجَة الخشنَة حالات راقيَة رفيعَة. فتحرَّر الإنسان فيها مِنْ عبوديَّات كثيرة. وصار أكثر شعوراً بحقِّه. وأكثر احتراماً لحقِّ أخيْه.

أمَّا الشَّرق العربي.. وما شاكَلَ الشَّرق العربي. فإنَّه لا يزال في حاضرِه كما كان في ماضيه يتَّخذ الدِّيْنَ وسيلَة إلى أغراض وأهداف ليسَتْ مِنَ الدين في شيء. وهو للجهل المستحوذ عليه لا يدرك ما له مِنَ الحقوق كإنسان. وجهله حقوقه يجعله أكثر جهلاً لحقوق الآخرين. فهْوَ لذلك يسيرُ القهقَرى بينما العالم كُلُّه يسيرُ إلى الأمام.

ويقولون لك أنَّ العلم في هذا المعهد أكثر انتشاراً في الشَّرق مِنَ العهود الماضية. وأنَّ أهله آخذون بأسباب الحضارة الحديثة. وأنَّ روح التحرُّر مِنَ التقاليد الرثَّة والعادات الباليَة تمتدُّ وتنتشر وتدخل إلى الحانوت والمكتب والبيت.

وتصدِّق أنت ما يقولون وتظل متفائلا مُستبشراً حتى يقع حادث يمَسُّ الوتَر الحسَّاس - وتر الطائفيَّة. فإذا النّاس هناك يرجعون عشرة قرون إلى الوراء ويتصرَّفون كما كان يتصرَّف النّاس في تلك الأيّام.

في ذلك الزَّمان قال أبو العلاء يخاطب النّاس في عصرِه:

«إنَّ الديانات ألقَتْ بينكم إِحناً وعلَّمتكم أفانـين العَداواتِ»

وهُوَ قَولٌ صادقٌ. وغير صادق. أمَّا صدقه فهُوَ أنَّ النّاس في ذاك الزَّمن كانَتْ بينهم إِحَن[1] وأحقاد. وكانَتْ عداوة بعضهم لبعض أفانين.

وأمَّا أنَّ الديانات هي التي ألقَتْ بينهم الأحن وعلَّمتهم أفانين العداوات فهُوَ خطأ إذ ما مِنْ دِين يدعو إلى التَّباغض والتَّشاكس ويحضُّ على الحقد والإنتقام. بل كُلُّها تقول بالإخاء الإنساني والحبُّ والرحمة والصَّفح والتَّسامح.

لكنَّ الإنسان هو الذي يفسد الأمور على نفسِه بجهلِه وحماقته فإذا الدِّين قارورَة حقد وبغض وأداة عدوان وبغي وانتقام.

لقد اقتَتلَ النّاس في أوروبا باسْم الدِّين وارتكبوا باسْمه المَوْبِقات[2]. لكنَّهم أفاقوا مِنْ سكرَة غرورهم وتابوا. أمّا الشَّرقيُّون فيبدو أنَّ سكرتَهم بهذا السَّائل العجيب التي استمرَّتْ قروناً لم تزل ذات قدرة على البقاء في تلك الأرض أجيالاً أخرى. ولو لم يكن الأمر كذلك.

وكنَّا نعتقد أنَّ الطائفيَّة في لبنان سائرة في طريق الزوال مثل القدَّاحة والصَّوَّانة. لَكِنَّ الحوادث التي وقعَتْ في السنوات الأخيرة دلَّتْ على أنَّ التَّفْكير هناك لا يزال كالتَّفْكير منذ أجيال. أي على أساس الطائفيَّة.

إنَّنا لا نخشى على لبنان مِنْ طغيان الأنهر ولا ثورات البراكين. ولكنَّنا نخاف عليه مِنْ هذه العنعنَات. فهِي شَرٌّ مِنَ الوَباء والسُّمَ والنَّار.

السَّمير: 28/ 5/ 1956

الضَّواري البشريَّة

عندما كان الإنسان الأوَّل يعيش في الغابات والأدغال ويأوي إلى المغاور والكهوف دفعته غريزة حبُّ البقاء إلى الإستعانَة بالهِراوات الضَّخمة والحِجارة المحدَّدة لمحاربة الضَّواري ومقاتلة الأفاعي وقاية لنفسِه ومحافظة على كيانِه.

ثمَّ ارتقى وتحضَّر وسكن البيوت والقصُور وأنشأ المدن وعمَّر الأرض الخراب. فابتعد عن الوحوش والأفاعي. أو ابتعدَتْ هي عنه وأصبح آمناً على جِلْدِه مِنْ أظافرها وأنيابها لأنَّه صار أقدر على حماية نفسه منها. غير أنَّه وجد نفسه أحياناً مُستهدَفاً لخطر جديد يحتاج في إتِّقائِه إلى وسيلة غير

1 الإحَن: الإحْنَة الحقْد وج الإحَن.

2 المَوْبِقات: وبَقَه يَبِقه وُبُوقاً هَلَكَ والمَوْبِق مَفْعِل منه.

الهِرَاوَة والحَجَر وهو وجود ناس فيهم نزعَة الضَّواري إلى التَّخديش والتَّمزيق ـ تخديش السُّمعَات السليمَة لا الجلود. وتمزيق الكرامَات المحترمَة لا اللُّحوم. فوضع الشرائع وسنَّ القوانين ليحمي نفسه ويصون شرفه مِنْ هؤلاء الأشرار الأشد أذى مِنَ الأراقم [1] والعقارب والأولَع بالفَتك والتَّهشيم مِنَ الضَّواري.

إنَّ وجود اللصوص هو الذي أوجدَ الوصيَّة ـ لا تسرق. وهو الذي حمل المفكِّرين على وضع قانون يعاقب على السَّرقة.

ووجود قطَّاع [2] طرق يسلبون النَّاس أمتعتهم ونقودهم قضى بوضع قانون يعاقب السلاّبين والنهَّابين.

ووجود تجَّار محتالين يأكلون مال النَّاس ثمَّ يعلنون إفلاسهم أوجبَ وضع قانون ضد الإفلاس الإحتيالي.

ووجود أقلام سبَابة عيَّابَة في عالَم الصَّحافة قضى بوضع قانون للإقتصاص ممَّن يفترون على النّاس ويَرْشُقونَهم بالتُّهم الباطلَة بَغْياً وعدواناً وزوراً وبهتاناً [3].

وهذا القانون لازم كُلَّ اللُّزوم ـ إذ كيف يعاقب المجتمع ولداً حطَّم زجاج باب أو زجاج نافذة. ولا يعاقب مَنْ يحاول تحطيم سُمْعة وتَشْويه صيت وهدم كرامة؟.

فأنت ترى أنَّ القوانين وضعَتْ لحماية النّاس الفضلاء مِنْ أذى النَّاس الأردياء. وللإقتصاص مِنَ السُّفهاء الذين ينهشون أعراض النَّاس بألسِنَتِهم الساقطَة وأقلامهم القذرة.. أولئك النّاس الذين يجدون في تشويه سُمْعة إنسان طيِّب أو هدم صيت امرأة فاضلة لذَّة كالتي يجدها الذئب في شرب دم النَّعجة. وتراهم يدورون مِنْ بيتٍ إلى بيت لينشروا إشاعات السّوء أو يتحدَّثوا بها كأنَّهم سمعوها مِنْ غيرهِم. وهم الذين اختلقوها وفبركوها وزوَّقوها لكي يوجدوا اضطراباً في عائلة سعيدة. أو لكي يُقْلِقوا راحة جماعة مُطمئنَّة. أو ليهدموا صِيت تاجر. أو ليلوِّثوا سُمْعة أديب.

إنَّ هؤلاء الأشرار خطرٌ على المجتمع ـ لا وقاية منهم ولا سلامة إلا بالإلتجاء إلى القوانين التي تعاقب على الإفتراءات وتحاسب الذين يَرْشُقُون النّاس بالتُّهم الباطلَة حِساباً عَسِيراً.

السّمير: 6/ 6/ 1956

---

1 الأَراقم: الحيَّة التي فيها سواد وبياض ج أَراقِم.

2 قُطَّاع الطَّريق اللُّصوص.

3 وبَهتَه قال عليه ما لم يفعله فهو مَبْهوت وبَهتاً وبُهْتانا.

طاها حسين ينفّذ الإنقلاب

(ننقل هذا الخبر بحذافيره [1] لنقول كلمتنا التي يصل إليها القاريء بعد الإنتهاء مِنْ هذا الخبر) :

القاهرة الثامن من حزيران ـ نشرت «الجمهوريّة» أمس مقال الدكتور طه حسين المُنتظر والذي نسج فيه على منْوال جديد في كتابة اللُغة العربيّة. إذ استغنى فيه عن الألف المقصورة بالممدودة وحذف الألف مِنْ قولهِم «كتبوا» و«ذهبوا» وأثبت الألف في اسمه فصار «طاها».

وسيعرض طه حسين هذه التّبسيطات في الكتابة العربيّة على المجمع العربي في دمشق في دورتِه القادمَة مع مقترحَات منها توحيد شكل الهمزة.

وهذا مَثَلٌ ممَّا جاء في مقالة عن «خصام في غير موضع للخصام» متحدِّثاً عن الدولة فقال: «وكأنَّها لم تطمئن بعد «إلا» أنَّ الإمتيازات الأجنبيَّة قد ألغِيَت و«إلا» أنَّ القوانين المصريَّة يجب أنْ تنفذ «علا» الذين يسكنون مصر جميعاً وينشطون فيها مِنَ المصريين والأجانب «علا» السواء».

أو يقول: «كان التلاميذ المسيحيُون في ما «مضا» لا يتعلَّمون دينهم في المدارس الحكوميّة وكان «ذالك» إهمالاً مِنْ وزارة المعارف.

وقد حاولْت أنْ أصلحَ «هاذا» الإهمال حين كنت وزيراً للمعارف فقرَّرْتُ تعليم المسيحيَّة للمسيحيِّين مِنَ التَّلاميذ في مدارس الدولة لتحقيق المساواة بينهم وبين إخوانهم المسلمين الذين يتعلَّمون دينَهم.

تمخَّض الجبل فولد فأراً

ما مِنْ كاتب أو شاعر عربي أطلَّ على الدُّنيا في النّصف الأخير مِنَ القرن الماضي إلا عرض له أنْ يفكرَ في تبسيط اللغة العربيّة لِتَخِفَّ مؤونتها [2] ويصلح شأنها ويسهل على الكُل أنْ يتحدَّثوا أو يكتبوا بها بدون خوف مِنْ غِيلان [3] النَّحو وحيتان الصَّرف. ولكن لم يخطر في ذهن أحد أنَّ أديباً كبيراً مشهوراً مثل الدكتور طه حسين يعالج هذه المشكلة معالجة صِبْيانيّة فيكتفي بتوحيد الألف ليجعل «على ـ علا» و «إلى ـ إلا». ويخفى عليه ما في ذلك مِنَ التشويش والتلبُّك.

لا. إنَّ هذه الطَّريقة لا تزيل غموضاً ولا تَحُلُّ عُقْدة بل توجد غموضاً أعظم وتخلق عقداً جديدة. وليسَتْ مشكلة العربيَّة إنَّها تحتوي ألفاً ممدودة وألفاً مقصورة. ولا همزة عاليَة وهمزة خفيضة. فهذه

1 الحذافير: حَذَا غير الشيء أَعاليه ونواحيه والواحِد حِذْفار.

2 المُؤونة: ومأَنْتُ القوم احتملت مُؤُونَتهم.

3 غيلان: والغُوْل بالضَّمِّ من السَّعالَى. والسِّعْلاة أَخبث الغِيلان وكذا السِّعْلاء.

أخف أعبائها وأهون عِلَلِها. وإنّما علّتها الكبرى وداؤها العُضال[1] هو هذه الحركات في أواخر الكلمات بين ضم وفتح وكسر وتنوين. إنّها هناك صغيرة يكاد لا يتبيّنها النَّظر ولكن هذه الهَنَات[2] الصَّغيرة هي التي وقفَتْ باللُّغة العربيّة عن النمو وقضَتْ عليها بالجمود. وألقَتْ الزُّهد في نفوس المشتغلين بالأدب فهجروه. أمّا الذين أقاموا فقد كان هم الواحد الأول والأكبر أنْ يتحاشى الوقوع في الشَّوائب وأنْ يتجنَّبَ العثرات. ممّا سدَّ دروباً واسعة للفِكْر. وحدَّ مِنْ قوّة الخيال فقلَّ الإبتكار وتعذَّر الإبداع.

ونستطيع أنْ نقولَ أنَّ فكرة حذف الألف مِنْ «كتبوا وخطبوا وذهبوا» ليسَتْ جديدة. فقد قال بها كثيرون قبل الدكتور طه حسين واستعملوها في كتاباتِهم. فالدكتور طه حسين مقلِّد في هذا الأمر لا مُبتكِر.

ولكن حذف الألف في هذا المقام لا سَخافة فيه - بل السَّخافة في استعمال الألف الممدودة وحدها في مواقع يحتاج فيه إلى الألف المقصورة. فالكلى تصير كلا. والبِلى يصير البلا. إذن طريقة الدكتور حسين مُجلِبَة للمتاعب والمشاكل ومُضاعِفَة للإلتباس والإشكال.

كان الأحرى بالدكتور طه حسين وهو يريد تبسيط اللُّغة أنْ يرجعَ إلى فكرة المُصلح الكبير قاسم أمين فيدعو إلى العمل بها والنزول عليها. وهي تسكين أواخر الكلمات.

عندئذ يستوي الماء والخشبة. وتصير اللُّغة العربيّة كباقي لغات العالم سهلة المَنَال وكُلُّ علاج غير هذا العلاج باطل وقَبْض الرِّيح.

السَّمير: 18/ 6/ 1956

القريب البعيد

كم مرّة لقِيْتَ شخصاً مِنْ جنسِك. لغته لغتك. وتاريخه تاريخك. وعاداته عاداتك. وزيّه زيُّك. وطعامه طعامك. وأَغانيه أَغانِيكَ حتى مذهبه هو مذهبك. وكُلُّ شيء فيك يقرِّبك إليه. وكُلُّ شيء فيه يقرِّبه إليك. ولكنَّك بعد أنْ تجولَ معه في أيّة قضيّة مِنْ قضايا بلادك أو غير بلادك تشعر أنَّك غريب عنه وأنَّ بينك وبينه هاوية لا جسر فوقها تعبر عليه إليه. فتعود عنه وأنت كئيب حزين لأنَّك أضَعْتَ واحداً مِنْ أبناء أمّتك. أضعْتَه وهو موجود... وبعُدَ عنك وهو قريب منك وإذا بينكما ما بين غريبَيْن.

أتريد أنْ تعرفَ السَّبب في هذا التَّباين بل التَّناكر بينكما؟

إنَّ السَّبب بسيط جداً. وهو إنَّك تعيش في عَصْر. وهو يعيش في عصر آخر. أنت تتحدَّث عن

1 وداء عُضال وأَمْر عُضَال أَيْ شديد أَعيا الأَطِبّاء.

2 الهَنَات: الداهية ج هَنَوات.

الحاضر والمستقبَل. أما هو فليس عنده حاضر ومستقبَل بل الزّمان كلّه عنده هو الماضي. وهو لا يذكر مِنَ الزّمن الماضي غير الصفحات السّوداء فيه.

والسّرُّ الآخر في اختلافكما هو أنّك تسير إلى الأمام وتتطلّع إلى قدّام. أمّا هو فيأبَى أنْ يسير - وإذا مشى إلى الوراء مشَى متقهقراً.

وتحاول جهدك أنْ تفتحَ عينيْه على الأمور التي تراها وتعتقد أنَّ الخير في رؤيتها. فيحرن كما تحرن البغال أو يثور كما يثور البُرْكان فترجع عنه واليأس يحزُّ في نفسِك لأنّك عَجزت أنْ تخرجَه مِنْ كهف الإنكماش إلى فضاء الإنطلاق. إلى دنيا العقل المُتحرِّر.

أمّا هو فيمضي عنك وفي قلبه حِقْدٌ عليك وبُغْض لك لأنّك لا تقول كما يقول ولا تفعل كما يفعل. فأنت في رأيِه إنسانٌ متمرِّد على تقاليد آبائك وأجدادك. أو أنت في نظره عدو قومك وبلادك.

وكلّما التقى إنسان مثلك بإنسان مثله فإنَّهما لا بُدَّ مفترقَان إلى غير لقاء.

ذلك لأنَّ الجهل لا يقدر أنْ يُحِبَّ.. إنَّ المحبَّة بنت المعرفة وحدها. وهذه المحبَّة هي التي تبقى وتدوم.

والجاهل ضيّق الصدر أبداً يتوهَّم كُلُّ فكرة جديدة بِدْعة [1] وإلحاداً. ويتصوَّر كُلُّ مخالف له في رأي أو نظريَّة عدواً وإنْ كان أعظم فيلسوف.

وما كَثُرَ أمثال هؤلاء الجهلاء في أمَّة إلا ذلَّتْ وضعفَتْ وصارَتْ فريسة باردة لكُلِّ طامع. ومسرحاً لتعابين النِّفاق والشِّقاق والنزاع المُذهِبْ للقوى.

وأمَّة يكثر فيها هؤلاء الجهَلَة يكون العبء على كواهل المُتنوِّرين فيها أعظم وأصعب. والطَّريق إلى الحرِّيَّة والكرامة الوطنيَّة أطول وأصعب وأشق. إذ ليس مِنَ الأمور السَّهْلة أنْ تنقل إلى القرن العشرين أناساً يعيشون ويفكِّرون بعقليَّة القرن السابعَ عَشَرَ أو الثامنَ عَشَر.

كما إنَّه مِنَ العسير أنْ تبنيَ جداراً مِنْ حجارة غير متناسقة ولا مُتساوية. فالحجر الأملس المسطَّح لا يلتحم مع حَجَر غير أملس ولا مسطَّح.

ولو كانَتْ العقول تُنْحَت كما تُنْحَتُ الحِجارة لما كان الوَقْت الثمين يمضي في الأسف والحزن.

لا ﴿يستوي الّذين يَعْلَمونَ والّذين لا يَعْلَمون﴾ [2] ولله في خلقه شؤون!

السَّمير: 19/ 7/ 1956

---

1 البِدْعة: الحدث في الدِّين بعد الإِكْمال.

2 9ك الزمر 39 قال الله تعالى: ﴿قُلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكّر أولوا الألباب﴾ أي لا يَستويان كما لا يستوي العالم والجاهل. (تفسير الجلالين).

حكاية طبق الأصل

زار أحدهم دار جريدة عربيَّة. وبعد أنْ تثاءب وتمطَّى قال للمحرِّر: إنَّ لجريدتكم سُمْعةً حسنةً في بلدتنا وأنا مِنْ أنصارها.

قال المحرر: شكراً ومرحباً[1].

قال الزائر: عندي خبر وأظنُّ أنَّ الجريدة تحب أنْ تنشرَه.

قال المحرر: هاته. إنَّ الجريدة أُنشِئتْ لنشر الأخبار.

فتهلَّل الزائر وقال: أمَّا الخبر فهْوَ أنَّ الوجيه الكبير والصناعي الكبير صاحب الأيادي البيضاء على المشاريع الخيريَّة وصاحب النفوذ البعيد في الدوائر الرسميَّة حنين إبن بطوطة اعتزم السفر إلى الوطن حباً بالوطن الذي فارقَه منذ أربعين سنة.. ولمَّا علم الأصدقاء بعزمه على السَّفر تسابقوا إلى إقامة الولائم السخيَّة بالمآكل العامرَة بالمشارب على شرفِه. فاتحتها مأدبة في بيت صديقه حاتم طي صاحب الدَّار الجميلة. وواحدة في بيت نسيبه الهُمَام والتَّاجر المقدام بولس طماطم. وواحدة أحياها «نادي البطون» المشهور على شرف المسافر لأنَّه عضو عامل في النادي وله في سبيله خدمات جليلة. ومأدبة في قاعة جمعيَّة «الأبطال». ومأدبة في...

فقاطعه المحرر: قلت لي أنَّ لديْك خبراً. فأين هو؟

قال الزائر: يا عجباً. أليس ما سردْتُه عليك خبراً.

قال المحرر: كلا. بل الذي سردته سِلْسِلة نعوت وألقاب لا أدري إذا كانت تنطبق على أصحابها. بل لا أدري إذا كان أصحابها يرضون أنْ تسبغَ عليهم هذه النعوت والأوصاف والأَرْجح أنَّهم سوف يتكدَّرون ويغضبون إذا كانوا مِنْ ذوي الإحساس لأنَّ مدح الإنسان بما ليس فيه هو القَدْح[2] بعينِه. بل الأصح أنْ يقالَ إنَّه تهكُّم فاضح وسُخْرٌ مَرير.

فبُهِتَ[3] الزائر وقال: إذن كيف يكون الخبر؟

قال المحرر: الخبر. الخبر.. هو أنْ تقولَ عن إنسان سافر إلى مكان ـ «أنَّ فلاناً سافر إلى موضع كذا». وإذا مرض ولزم البيت فالخبر الصَّحيح هو أنْ تقول «أصابَتْ فلاناً وَعْكَة[4] لزم البيتَ بسَببها».

أمَّا النُّعوت الطنَّانة والألقاب الرنَّانة فهْيَ ليسَتْ أخبار. ولا يليق ابتذالها باستعمالها حيث يجوز

---

1 وقولهم مَرْحباً وأَهْلاً أي أتيت سَعَة وأَتَيْتَ أهْلا فاسْتأْنِس ولا تَسْتَوْحِش.

2 القَدْح: قَدَح فيه طَعَنَ.

3 بُهِتَ الرَّجُلُ دُهِش مأخوذاً بالحُجَّة.

4 الوَعْكَة: الوَعْك مَغْثُ الحمَّى وقد وَعَكَتْه الحُمَّى فهو مَوْعُوْك.

وحيث لا يجوز. وإذا لم تكن ألقاباً لذوي مِهَن أو وظائف فهي أماديح. والأماديح غير الأخبار. وأنت ألصَقْتَ بصاحبك المسافر ألقاباً ونعوتاً عظيمة. فهل لك أنْ تخبرني ما هي صناعته أو تجارته وما هو شأنه في المجتمع؟

فارتبك الزائر أمام هذا السؤال ولكنَّه تماسك وقال: إنَّه مِنْ ذوي الثَّراء.

قال المحرِّر: إذا كان صاحبك مِنْ ذوي الثراء فأيُّ الغنى غناه؟

قال الزائر: ماذا تعني. وهل الغنى أنواع.

قال المحرِّر: أجل. إنَّه أنواع كثيرة حسنة وسيِّئة. فمن أنواعه السَّيِّئة نوع يجعل مِنْ صاحبِه صَنَماً لا حِسّ فيه. ونوع يجعل صاحبة سَجيناً لا حرِّيَّة له. ونوع يجعل صاحبة جباناً يرتعد كلَّما طرق بابه طارق. ونوع يجعل صاحبه أبكم أصَم ولا سيَّما عندما يتنادى النّاس إلى الغوث والنجدة في نكْبة.

أمَّا أنواع الثراء الجميلة فهي تلك التي تهذِّب طباع صاحبها وترقِّق شعوره فيصير يُحسّ كأنَّه مسؤول عن إغاثة المَنْكوب. وعن مطاردة الجَهْل ومحاربة الأمراض. وهذه الأنواع مِنَ الثراء هي التي أوجَدَتْ المدارس والملاجيء والمستشفيات وعمَّرت المعابد والمكاتب.

أمَّا وقد شرحْتُ لك أنواع الثراء فأخبِرْني عن ثراء صاحبك مِنْ أيِّ نوع.

قال الزائر: أنا لا افهم ما تقول. كُلُّ ما أعرفه أنَّ صاحبي رجل غنيّ. وهو الذي أرسلَني إلى الجريدة لِتُخْبِرَ النّاس أنَّه مسافر إلى الوطن وأنَّه ذو شأن عظيم. وذلك لكي يحمل الجريدة معه ويستعين بها على تعريف نفسه إلى النّاس هناك. فالنّاس تخدعهم الكلمة المَكْتوبة...

قال المحرِّر: وهل صاحبك مشترك في الجريدة؟

قال الزائر: إنَّه غير مُشْترك في أيَّة جريدة.

قال المحرِّر: ولماذا هو غير مشترك في جريدة. ألم تقل لي إنَّه غنيٌّ كبير؟

قال الزائر: أجل. إنَّه غني. ولكنه يجهل القراءة والكتابة!...

قال المحرِّر: لعلَّه يجهل اللُّغة العربية.

قال الزائر: إنَّه يجهل اللُّغة العربية والإنكليزيَّة والفرنسويَّة وكُلُّ لغة في العالم!...

السَّمير: 1/ 10/ 1956

أُكتبْ هيك...

بيروت ـ «لمناسبة إفتتاح المدارس قصد طفل لا يتجاوز السادسةَ مِنْ عُمُرِهِ إلى مدرسة الرَّمل في محلة النَّهر. ودخل غرفة مُديرِها، طالباً تسجيلَ اسْمَه مُبرزاً الأوراق المطلوبَة مِنْ بطاقة هُويَّة وشهادة صحيَّة وغير ذلك.

ونَظَر إليه المدير باسماً وقال:

ـ بعدك صغير... عُدْ إليَّ السَّنَة القادمة.

فضحك الولد وقال:

ـ ليش هي قضية «شَعْر شايب»؟...

فدُهِش المدير لهذا الجواب. وقال:

ـ يظهر أنَّك تلميذ ذكي فلن أتركَك.

وأحاله إلى معلِّم ليجري له إمتحاناً. وكانَتْ النتيجة أنْ تجمَّعَ المعلِّمون حول الصبي لفرط ظرفه وسرعة خاطره. وصحبوه إلى المدير ليسجِّل إسمه. فسأله:

ـ ما إسم والدك

ـ جميل بهنان

ـ وآسمك

ـ سمير بهنان

ـ ما مهنة أبيك؟

ـ «مسبِّع كارات»

ـ ما مذهبك؟

ـ لبناني

ـ مذهبك. لا جنسيَّتك!

ـ لبناني

أقصد: ديانتك.

فأجابه: أنا فاهم... راح «تسوقها» بالطائفيَّة! أنا لبناني. وأبي لبناني. وأمِّي لبنانيَّة... أكتب هيك!»...

هذا ولد ذهب إلى المدرسة ليتعلَّم فكان معلماً. لا لأطفال. بل لرجال كبار بينهم المعلِّمون والفلاسفة والشعراء والكتَّاب والنوَّاب والوزراء والمدراء والرؤساء.

إستطاع هذا الولد الصغير أنْ يطهِّر نفسه وينقِّي قلبه مِنْ أدران الطائفيَّة بينما شعب بأسرِه يدري أنَّ الطائفيَّة علَّته الكبرى ويخشى أنْ يطهِّر نفسه مِنْ جراثيمِها. هذه الجراثيم المُعشعِشَة في أرواح الجهَلَة والمُتعلِّمين على السواء.

كم مِنْ مرَّة دخل غريب على جماعة مِنْ أبناء وطنِه ليطرد بهم الوحْشَة عن قلبِه. فكان أوَّل خاطر مرَّ في أذهانِهم أنْ يعرفوا مِنْ أيِّ طائفة هو.. كما أراد مدير مدرسة الرَّمل أنْ يعرفَ مذهب الولد. فيأخذون في طرح الأسئلة عليه ليصلوا إلى هدفهِم مداورَةً لا مجابهَةً. فيسأله أحدهم: ما اسْمُكَ؟ فإذا

كان اسْمه مِنَ الأسماء المشتركَة بين الطوائف كفؤاد أو جميل أو رشيد ـ تحوَّل إلى سؤاله عن البلد الذي هو منه. فإذا كان البلد قرية سكَّانها مِنْ كُلِّ المذاهب وأعجزَهُم أنْ يعرفوا ما هي طائفته أخذوا في سرد القصص والنَّوادر التي ينقبضُ لها أو يضحك لها. ولا يزالون يجولون في كُلِّ حومَة حتى يعرفوا مِنْ أيِّ مذهب هو. فإذا كان مِنْ أكثريَّتهم لقي تكريماً. أمَّا إذا لم يكن فإنَّه لا يلاقي جفاء ولكنَّه لا يلاقي البشاشة والحفاوة التي كان يمكن أنْ يلاقيها لو كان مِنْ بلدَتِهِم أو مِنْ طائفتِهِم...

وهكذا يجد نفسه غريباً بينهم وهو مواطنهم. ويحسُّ أنَّه بعيد عنهم وهو قاعد معهم. ويعذر الإنسان جماعةً مِنَ الجاهلين إذا هم انجرفوا مع تيَّار الطائفيَّة. ولكن أيُّ عذر للعقلاء المُتنوِّرين.. أيُّ عذر للقوم الحاكمين عن سكوتِهِم عن النظام الفاسد القائم في المدارس... النِّظام الذي لا يقبل ولداً قبل أنْ يعرفَ ما هو مذهبه؟

أليس قبيحاً ونكيراً أنْ تُزَجَّ الطائفية في المدارس وهناك نوَّاب ووزراء وكتَّاب وشعراء ينادون بإلغاء الطائفيَّة... أيَّة طائفيَّة يريدون أنْ تُلغَى؟

ليسَتْ حكاية هذا الولد حكاية يتندَّر بها النَّاس وإنَّما هي ثورة على نظام. وتمرُّد على عقليَّة. وإنْ لم تكن هي الثورة ذاتها فإنَّها مقدَّمة لها. فليس مِنَ الممكن أنْ يظلَّ للطائفيَّة سلطانها القائم وفي الجيل المقبل مثل هذا الولد الذي أدرك معنى الوطنيَّة الصَّحيحة أكثر ممَّا أدركها القاعدون في كراسي الحكم الذين يخيَّلُ إلينا أنَّهم قرأوا حكاية هذا الولد وابتسموا إعجاباً بذكائه. وما كانوا ليبتسمون لو شعروا أنَّها صفعة قاسية للنظام الطائفي ولأنصاره... هم!

السَّمير: 17/ 10/ 1956

ولادة الإنسانيَّة

بعد أقل مِنْ أُسْبوع مِنَ اليوم يحتفل العالم المسيحي ويشاركه العالم غير المسيحي بولادة طفل. والأصح أنْ نقولَ إنَّ الإحتفال في الواقع بولادة الإنسانيَّة ولادة جديدة راقيَة نبيلة. فقد كانَتْ الحياة قبل تلك الولادة قائمة على النزعات الحيوانيَّة في الإنسان. على تقديس القوَّة والتعبُّد للفتك والبطش. وعندما تَرِقُّ وتَعْطِفُ تمشي على قاعدة عين بعين وسنّ بسنّ. واستمرَّتْ تجري ولا تحيد عنها حتى جاء الناصري ينادي بالمحبَّة والصَّفح والرِّفق والعفو والغُفْران. لأنَّه أدرك أنَّ النَّاس الذين استحوذَتْ عليهم فلسفة القوَّة أجيالاً يأتون ما يأتون مِنَ المُنْكَرات والجرائم وهم يتوهَّمونَ أنَّهم يأتون أعمالاً مَجيدة. إنَّهم لا يدرون ما يصنعون فهم معذورون.. فآثامهم ليسَتْ آثامهم بل آثام آبائهم وأجدادهم. وليسَتْ ذنوبهم غير ذنوب عصرهم.

ولا تزال مِنْ ذلك العصر بقيَّة في كُلِّ عصر. ولا يزال في النَّاس كثيرٌ مِنْ طِباع وغرائز أولئك النَّاس

لأنَّ الروحانيَّة في الإنسان لم تبلغ مقداراً كافياً مِنَ القوَّة للتغلُّب على شهوات اللَّحم والدَّم. ولمعرفة الحقيقة المتجسِّدة أمام الشَّمْس وهي أنَّ الانسان يبطش بنفسِهِ عندما يبطش بأخيه الإنسان. وأنَّه يُهين كرامته عندما يقبل أنْ يَسْتذلّ بَشرياً مثله.

منذ حوالي ألفي سنة اهتزَّتْ البشريَّة طرباً لصوت الرَّبّ يسوع وهو يقول للمؤمنين: «أحبُّوا أعداءكم. باركوا لاعِنِيكم. أحسنوا إلى مُبغضِيكم».

وهي لا تزال تسمع كُلّ يوم هذه النَّصيحة الغالية. ولكن الذين يعملون بها هم بين النّاس أقلُّ مِنَ الغرِّيد[1] بين الغِرْبان.

وهذا لا يعني أنَّها مباديء لا تصلُح للعمل بها. بل يعني أنَّ طبيعة التُّراب في الإنسان لا تزال أقوى فيه مِنْ طبيعة الرُّوْح. ولذلك هو يَشْقى.

على أنَّ الإنسانيَّة التي ترتعد فرائصها[2] في هذه الأيَّام كُلَّما مرَّ في ذهنِها طَيْف الحرب ـ تدُلُّ بهذا الخوف على سُمُوِّها ورقيِّها وعلى أنَّها واصلة يوماً إلى الطُّوبى[3].. إلى حالة مِنَ الإخاء تضمحلُّ معها الفوارق بين الشُّعوب. وعندئذ لا يتعالَى قوي على ضعيف ولا كثير على قليل. ولا يتجنَّى مسلَّح على أعزل.

وإذا لم تبلغ هذه الحالة المنشودة في عصرنا هذا فلا نَغْلَط إذا قلنا أنَّ هذا العصر هو مقدَّمة لها.

ويا ليت الإحتفال بمولد المسيح يجري كُلَّ يوم لتظلَّ المحبَّة مُستيقظة في الأرواح. وتظلَّ القلوب تُحِسُّ مع القلوب. والأفكار مُتَّجهة إلى إسعاد السُّوَى[4] أقرباء وغرباء.

السَّمير: 19/ 12/ 1956

بَيْن عام وعام

ها نحن الآن واقفون بين سنة تَغْرَق في لُجَّة الأبد[5] وسنة تُطِلّ علينا من وراء الحجاب، هذا في اصطلاح الفلكيين. أمَّا في غير اصطلاحهم فان ملايين الأحلام تضمحل مع آخر ورقة في الروزنامة وملايين الأحلام تولد مع ولادة الرَّقْم الجديد.

وهذا لا يجري فقط عند انقضاء سَنة وبَدْء سَنة أخرى. بل هو يجري في كُلّ يوم بل كُلّ لحظة.

---

1 غَرِد الطَّائِر والإنسان غَرَداً رَفَع صوته بالغِناء وطَرَّب به فهو غَرِدٌ وغِرِّيد.

2 الفَرِيصة: العَضَلة الصَّدْريَّة ج فرائِص ويقال ارتعدت فرائِصه.

3 والطُّوبى الطَّيِّب وجمع الطَّيِّبة وتأنيث الأَطيب والحُسْنى والخَيْر والخِيَرَة وشجرةٌ في الجنَّة أو الجنَّة بالهنديَّة.

4 السُّوى العدل والوَسَط ج أَسْواء.

5 لُجَّة الأبَد: اللُّجَّة معظم البحر وتردَّد أمواجه ج لُجَجٌ ولِجاجٌ. والأَبَد: الدَّهْر والجمع آباد والأَبَد أيضاً الدَّائِم.

فولادة الأحلام والرَّغائب لا تقتصر على ذهاب فترة من الدَّهر اسْمها السَّنَة إنَّها تولد مع مطلع كل شَمْسٍ بل مع كُلٍّ تكَّة من تكَّات الساعة. ولكننا لا نشعر بها لأنَّها خافية مستترة عَنّا استتار الأعشاب والأزهار في جوف الأرض في زمن الخريف فنحن لا نرى في الشّتاء البراعم في الأغصان لأنَّها ليست في أديم الشَّجرة بل في عروقها في رَحِمها كالأجيال التي ستأتي.

ولكن الإنسان لمحدودية بصره وعقله وقُوَّته يقنع بما يقع تحت حواسه. فهو لا يبالي لأنه لا يدري ـ كم ذاق الأحياء في كل يوم انقضى من الغصص واللّذّات، والآلام والمسَرّات لأنه لا يحس من ذلك شيئاً غير ما ذاقه هو.

وهو للأنانية المتولِّدةَ فيه من محدودية عقله وقواه يتوهم أن انقضاء السَّنَة يعني انقضاء همومه ومتاعبه. وأَنَّ مجيء سنة أخرى يعني مجيء الخَيْر والسَّعادة.

ولو كانت الأيّام والليالي هي التي تجلب الخير وتدفع الضَّيْرْ لاختار الإنسان منها ما يرضيه ويسعده ويغنيه. ولكن الأمر على غير ما يتوهَّم.

ولكنه ما دام في هيكله اللحمي العظمي فسوف تظل له أشواقه وأحلامه وهمومه وحَسَراتُه.

إن الإنسان ـ لا الأيّام واللَّيالي ـ هو الذي يجلب الخير والشر لذاته. فما أضرم نار الحروب نهار ولا ليل. ولا نشر الحب والبغض كوكب ولا شهاب. بل هذا الإنسان الذي يسمو أحياناً حتى يكاد يبلغ درجة إلهٍ ـ وينحطّ ويسفل أحياناً حتى يَهْبط إلى منزلة شَيطان.

انه يبني ويعمِّر وينتج ويثَمِّر فإذا هناك حضارة بَدِيعة.

ثم يهدم ويخرِّب ويدمِّر تلك الحضارة كمنـزل خرب أو طلل داثر.

فلنتجه كلنا في مطلع السنة الجديدة إلى الخير.. إلى البناء.. إلى التَّجْديد.. إلى جعل هذه الدُّنيا أَملح وأَصلح مما هي.

وبذلك نجعل كل يوم موكب خيرات ومهرجان مَسَرَّات.

السَّمير: 28/ 12/ 1956

نعمة في ثوب نَقْمة

عندما كانت «السَّمير» طفلة بنت سنة. وكان ضباب الضائقة الإقتصاديَّة مخيماً على كبرى المؤسَّسات التجارية وصغراها ـ فَتَحْتُ حساباً في بنك فاعور. وكنت أعتقد أنَّ صخرة جبل طارق تتزلزَل وهذا البنك لا يتَزلزَل. لأنَّ كُلُّ شيء كان يدلُّ على أنَّه يختلف عن سائر البنوك.. ولكنَّه يا للأسف انحطم مثل سائر البنوك.

وجئتُ إلى مكتبي صباحاً. وكان الطبق الثاني مِنَ البناية المحاذيَة للبنك فرأيْتُ النّاس مجتمعين

أمام البنك وعيونهم على ورقة ملصوقة على بابه..

كان في هذه الورقة كُلُّ الخبر..

وكان كُلُّ الخبر أنَّ الحكومة اقفلَتْ البنك لأنَّ النقد الموجود فيه لا يزيد عن 18 ألف دولار. بينما الودائع تزيد عن ستمائة ألف دولار!

وتطلَّعتُ في وجُوه القوم فإذا الكآبة تبرقعها. أمَّا أنا فأخذَتْني نوبة مِنَ الضَّحك إذ قلت في نفسي:

ـ الله، الله. صار بنك فاعور مديناً لي! وصار لي في ذمَّتِه بضع مائة دولار. وهكذا صَدَق القول ـ شرُّ البليَّة ما يُضحِك.

وأمس جاءني مِنْ دِترويت مشغن خبر هو أنَّ اللُّصوص سطوا ليلاً على مخزن صديقي الكاتب اللَّبق إبراهيم سويد وسرقوا كُلَّ النقود الموجودة في العدادة وحملوا معهم سبعين كرتوناً مِنَ السكاير.

ولَمَّا كُنْتُ أعرف خُلُق إبراهيم الطروب حتى في أشدِّ الأزمات فإنِّي لا أشك في أنَّه وقف أمام هذه الحادثة وعيناه تشعَّان ابتساماً إذ أنَّه أصبح تاجراً يطمع به اللُّصوص!

ولا رَيْبَ في أنَّه مالَ على زوجتِه الغضبَى التي تستمطِرُ السَّماء سيلاً مِنَ اللَّعنات على اللصوص وقال لها ببرودتِه: لماذا الغضب؟ لو لو لم يكن عندنا شيء لَمَا سُرِق منَّا شيء.. ولو لم يكن السارقون في حاجة إلى ما سرقوا لما سرقوا!

ثم نتصوَّره يقول لها وعيناه تبرقان مِنْ تحت النظَّارتَيْن: وماذا سرق اللُّصوص منَّا: إنَّهم لم يسرقوا شيئاً ثميناً لا يمكن الإستعاضة عنه بمثله. إنَّ الأشياء الثَّمينَة حقّاً مثل النُّور والعِطر والصَّوْت لا تصل إليه الأيدي ولو كانَتْ أيدي سحَرَة. هوِّني عليك فاللُّصوص لم يسرقوا أصدقاءنا. ولا أحلامنا.. ولا رغَائبنا. ولم تنتزع أيديهم غير أشياء يمكننا أنْ نكون سعداء بدونِها. بل هم لَمَّا كسروا بابنا كسروا أعزَّ وأثمن شيء لهم وهو الشرف والكرامة. ولَمَّا حطَّموا زجاجنا حطَّموا مستقبلهم. وسيعود الزجاج أمَّا كرامتهم فلن ترجع أبداً. إنَّهم ربحوا عَرَضاً تافهاً بَخْساً وخسروا جوهراً ثميناً.

ويظلُّ إبراهيم ينقر على هذا الوتر حتى تقتنع زوجته بأنَّ اللُّصوص أحسنوا إليه وإليها وحتى تتمنَّى لو أنَّهم عادوا إلى الحانوت كُلَّ ليلة!

إنَّ فلسفة إبراهيم تُفيد في كُلِّ موقف مثل هذا الموقف ولا سيَّما في فترة المواسم.

السَّمير: 31/ 12/ 1956

ملك العِطر والسّحر

أخذ «النهار» يتمدَّد بعد التقلُّص ويطول بعد القصر.

إنَّه الآن يستردُّ شيئاً فشيئاً الدَّقائق والسَّاعات التي اختلسها منه «الليل» في شهور البرد والضَّباب والثُّلوج والعتَمَة.

وتمدُّد النَّهار وتقاصُرُ اللَّيل يعني أنَّ الرَّبيع ملك الصفاء والسَّناء والسِّحر والعطر قد رجع مرة أخرى إلى الأرض.

أجل. رجع لكي يطرِّز جوانب الأرض بالزَّنابق والورود.. ويفرش أغطيته السُّنْدُسِيَّة في السُّهول والمروج. ويلمس بيدِه السحريَّة الحقول الجرداء فتخصب وتنجب للأحياء أنواع الحَبّ والبقل... ويهمس في آذان الأشجار فتستيقظ الحياة في عروقها وتورق وتزهر وتثمر. ويمسح وجه السَّماء بعد الإنكدار وينهمر منها الإلهام.

أجل. قد ولِدَ الرَّبيع... ووُلِدَ معه الخرير في السَّواقي. والحرارة في الضِّياء. والنَّضارَة في النَّبات والأغراس. وكادَتْ الحياة تتراءى للأبصار حتى في الرِّمال الصَّامتة والصُّخور الباهتة.

فأين كان قبل مجيئه؟

أكان مُحتجباً وراء الغيوم؟

أم كان مُعتصماً في صومعة؟

أم كان محبوساً في كهف مِنْ كهوف الجِنّ؟

أين كانَتْ هذه الإشراقات الرُّوحانيَّة والنَّغمات الشعريَّة؟

لعلَّك تتراجع إلى الوراء مُستغرباً مُندهشاً إذا قلنا لك: إنَّ هذه كُلَّها كانت هنا وإنَّها لم تنفتح عليها العيون ولم تصل إليها الأيدي. فالبعض كانوا يرونها ويلمسونها ويجدون غِبْطة عامرة مجهولة مِنَ الذين أقصى ما يرون هو ما تقع عليه أبصارهم وأقصى ما يلمسون هو ما تصل إليهم أصابعهم... ولكن وراء ما يرون ويلمسون آيات أنظم وأبدع ممَّا تقع عليه العيون.

يكفي أنْ تستحضر إلى ذهنِك صورة نهر طروب أو مَرْج ضاحك لتصير لك الفتنتان وتسعد روحك بأنَّهما في حَوْزَتِك.

أمَّا إذا لم يساعدك خيالك على تصوُّر النَّهر الذي بعدْتَ عنه أو احتجبَ عنك فلا يكون لك منه شيء حتى قَطْرة. إذا غاب حبيب لك عن نظرك يغيب عن فكرك وقلبك؟

إذن كيف تحنُّ إليه وتشتاق إلى قربه؟

إعلم أنَّ الرَّبيع كان موجوداً معنا حتى في شهور الزَّمهرِير والضَّباب والثُّلوج. ولكن عند الذين يقدرون أنْ يجدوا النَّهر في صورة النَّهر. وتطلُّ عليهم الخميلة كلَّما ذكروا الخميلة..

هذا شأن النفوس الصافية النَّيرة. أمَّا النفوس الكثيفة المظلمة فإنَّها لا تشاهد جمال الرَّبيع حتى وهو ماثل لديها بكُلِّ بشاشاتِه وكُلِّ آياته.

وإذا نحن تركنا الخيال إلى الواقع. فالواقع هو إنَّنا كُنَّا في الصَّقيع نمشي على الرَّبيع.. على البذور الهاجعة تحت التُّراب بكُلِّ ما فيها مِنْ أوراق وأغصان. وبكُلِّ ما في أوراقِها مِنْ ألوان وطيوب.

إنَّ أيَّام الزَّمهرير والعتمَة والضَّباب كانَتْ فترة المَخاض بهذا المولود الجميل.

وكانَتْ ضرورية ليرجع إلينا بأزهارِه وأطياره وأنسامه العطريَّة.

وإذا رحل عنَّا بعد حين فالسَّعيد السَّعيد هو مَنْ يقدرَ أنْ يحتفظ به بعد ذهابه في ذاكرته. حتى إذا تضايق مِنَ الضَّباب والعَتْمة والزَّمْهَرير والكلوحة في الآفاق وجوانب الأرض رجع إلى ذاكرتِه فاستخرج منها مروجاً خضراء وحدائق غنَّاء وجداول مُترنِّمَة. وزهوراً وعطوراً ونوراً.

السَّمير: 25/ 3/ 1957

خاطر النَّهار

كلَّما أطلَّ الرَّبيع وشاعَتْ الحرارة في الهواء والغبراء والضياء. تهافَتْ النَّاس في الولايات المُتَّحدة وغير الولايات المُتحدَة على تنظيف البيوت مِنَ الأثاث العتيق وإخراج ما في زوايا الغُرَف والسَّراديب مِنْ أمتعَة مهجورَة وأشياء مهملَة لم تَبْقَ لأصحابِها بها حاجة.

إنَّ تنظيف المنازل مِنَ الأشياء المُهملَة والنفايات أمرٌ جميل ومفيد. ولكنَّ الأجمل والأفيَد في مثل هذا الفصل مِنَ السنة أنْ يلتفتَ النَّاس إلى ما في زوايا نفوسِهِم مِنْ حزازَات وأحقاد وضغائن هي أضرُّ وأقبح مِنْ كُلِّ النفايَات والأشياء العتيقة المُهملَة فهي ليسَتْ غير أثقال تبهظ أرواحهم وتحول بينها وبين الإنطلاق والتَّحرُّر بل أستار كثيفة تمنع النُّور مِنَ الدُّخول وتمنعهم مِنْ رؤية النُّور. فجدير بهم أنْ يمزِّقوا هذه الحُجُب وأنْ يطرحوها مع النفايات والأشياء المُهملة. فَتُطَهِّر أرواحهم كما طَهَّرت بيوتهم ونَظَّفَت سرادِيبهم.

وأهمُّ مِنْ هذا أو هو على الأقل مهم مثله أنْ يفتِّش المرء في زوايا دماغه عن أوهام سخيفة تملأ رأسه ويحسبها هو أشياء صَلدة وهي ليسَتْ غير هواء حار أو بارد. فإنَّه إذا لم يطرحها خارجاً بقِيَتْ روحه في عتمة الشِّتاء ولو غمر الأرض ألفُ ربيع.

قلنا إذا كان أمراً حسناً أنْ يطردَ الإنسان الغبار مِنْ بيتِه ويطرح الأشياء المهملَة خارجاً ويفتح الشَّبابيك ليدخل الهواء والنُّور إلى البيت مبالغة في العناية بصحَّتِه.

فكم ينبغي له أنْ يعتني ببيت هو أهم مِنْ كُلِّ بيت.. نعني ذاته.

أجل. إنَّ الإنسان العاقل الفاهم هو ا لذي يطهِّر ذاته مِنْ غُبار الجهل وعفونة النزعَات البهيميَّة فيصير يرى ربيعاً في كُلِّ ما يرى. وتصير الحياة أجمل في عينَيْه. ويصير يرى المحاسن في النَّاس.

يقول الفلاسفة: (إعرف نفسك). ولكن كيف يعرف الإنسان نفسه إذا لم يحاسبها حساباً دقيقاً فيحصي ما لها وما عليها ويكون مُتجرِّداً مُنصفاً فلا يحصي سيِّئة مع الحسنَات ولا حَسَنَة مع السّيِّئات. لأنَّه إذا لم يعدل كان مِنَ القوم الغاشمِين الذين لا يرجى منهم خَيْرٌ ولا لهم صلاح.

السَّمير: 29/ 3/ 1957

حكاية المُهاجر

ننشر اليوم في هذا الباب الخطاب الذي ألقاه صاحب «السّمير» في الإحتفال الكبير بتدشين الكنيسة الأرثوذكسيَّة الجديدة في مدينة بردجبورت كنتكت إجابة للمُطالبين بنشره. وهو كما يلي:

سادتي:

أريد أنْ أشكركم على الدعوة التي وجّهها إلينا راعيكم الوقور وجمعيّتكم المحترمَة. وأنْ أعتذر إليكم لأنَّ قرينتي تعذَّر عليها الحضور معي لمشاركتكم في هذا اليوم السَّعيد مع أنْ لا شيء أحبُّ إليها وإليَّ مِنْ زيارة هذه النَّاحية مِنْ ولاية كنتكت الجميلة التي عشنا فيها زمناً طويلاً حتى ردَّتنا رياح الحياة إلى بابل الجديدة... إلى المدينة العملاقة..

نيويورك التي كلَّما توغَّل فيها الإنسان شعر أنَّه يبتعد عن نفسه وعن الله. لما فيها مِنْ زحَام وما في زحامها مِنْ ضغط على الأعصاب وإرهاق للأرواح. حتى إنَّك قلَّما ترى النّاس فيها يضحكون كأنَّ الضَّحك يؤذي الشِّفاه أو يطير بالأسنان. والضَّحك هو إحدى ميزات الإنسان على الحيوان الأعجم. ولكنَّهم إذا أضاعوا هذه الميزة أو تخلَّوْا عنها فما أضاعوا الميزة الكبرى للإنسان منذ صار يمشي مُنتصباً على قدَمَيْن وهي الخيال و التصوُّر. فهُوَ عندما صار يتخيَّل أشياء ليسَتْ في حوزتِه أجمل وأفضل مِنَ الأشياء التي في حوزتِه. إشتاق إلى بلوغِها وسعى إلى إدراكِها وعندئذ أخذ يرتقي ويسمو ويتقدَّم...

لم يعد يعجبه النوم في مغارة أو كهف أو كوخ فبنى البيت وطمح إلى أحسن فَشَاد القصر.

ولم يعد يرضى بأنْ يكون لباسه مِنْ ورق الشَّجر ومِنْ جلود الحيوانات فغزَل وحَاك ونسَجَ وارتدى الصوف والحرير.

وكان يعيش في بقعة محدودة مِنَ الأرض عند ضفة نهر فحنَّ إلى أبعد منها وحمله الحنين على أنْ يمدَّ فوق النَّهر جسراً ويعبر عليه إلى أرضٍ أوسع وأخصب.

وأدرك بالتجربة أنَّ الأرض التي منها طعامه وشرابه ولباسه تعطيه أكثر إذا هو اعتنى بها أكثر فمضى يقلع ما لا ينفع ويزرع ما ينفع فكانَتْ الحقول والبساتين والغياض والرِّياض.

وكان الإنسان في أوَّل نشأته.. في أيّام سذاجته وبداوته يظُنُّ أنَّ الأرض لا تتَّسع إلا له ولقبيلته فكان ينظر إلى القبائل الأخرى نَظَرَه إلى عدوٍ لَدود يجب أنْ يحترس منه ويتأهَّب لقتاله.

ولكن بعد الخصام والقتال أدرك أنَّ الأرض تتَّسعُ له ولسواه. وإنَّ حرِّيته تنتهي عند حرية الآخرين. وهذا الإدراك دفعه إلى التعاون وأخيه الإنسان. وكان مِنْ ثمار التعاون المُتبَادَل أنَّ القبائل والعشائر صارَتْ شعوباً وأمَماً وصار لهذه الأمم حضارات جميلة ومدنيَّات رائعة.

غَيْر أنَّ الإنسان بالرَّغم ممَّا أدركه مِنَ المعرفة. وما بناه مِنَ الحضارات... بالرغم مِنَ الحقول

والبساتين.. والدُّور والقصور.. والأطالس والدِّيباج.. بالرَّغم مِنْ هذه كلّها ظلَّ يشعر أنَّ في حياته نقصاً وأنَّ سعادته غير كاملة. وأنَّ الوجود ذاته غير كامل.. وظلَّ يحسُّ ويتصوَّر أنَّ هناك عالماً أفضل وأجمل وأكمل يجب أنْ يسعى إليه وأنْ يكون له.

فأين هو هذا العالم الأجمل والأكمل؟ إنَّه ليس وراء الغيوم ولا فوق النجوم.

وليس هو شيئاً يُقتنَى كالذهب والألماس والجواهر الكريمة!

ولا هو ممَّا يُلمس باليد ويُرى بالعَيْن.

ومع ذلك قد وجده.

وجده لا على ضفَّة نهر ولا على قُمَّة جبل ولا في قاعِ بَحْر.

إنَّه وجده في أعماق نفسه. في ضميره..في وجدانه.

إنَّه الإيمان الذي يدفع الإنسان إلى السَّعي وراء الكمال الرُّوحي... إلى إتِّحاد ذاته بالذَّات العليا. وتحنُّ روحه التي هي نفحة مِنَ الله.. إلى الله!.

السَّمير: 3/ 4/ 1957

لمن يكتبون؟

لِمَنْ يرصف الكلام أولئك الشعراء الذين تحلَّلوا مِنَ الأَوْزان والقوافي ليأتوا بشيء جديد مُبتكَر. ليتَّسع المجال أمام خيالهم وتنطلق أفكارهم كالضِّياء في الفضاء لا تصدُّها عقبة ولا يقف في طريقها عائِق. ولكنَّهم حتى الساعة لم يأتوا بشيء جديد مُبتكر غير التَّحلُّل مِنَ الأوزان والتمرُّد على القوافي. فإنَّ أكثر كلامهم أقرب إلى وسوسَة الشياطين أو ثرثرة العرَّافين. طَلاَسِم وألغاز تحاول بكُلِّ ما فيك مِنَ الفَهم أنْ تفكَّ رموزها فترجع عنها تَعِباً فمضنوكاً يعضُّ الحزن روحك بأنيابِه الحادَّة ومِلْءُ صدرك الأسف على الوَقْت الذي أضاعوه في ابتداع هذا الأدب الذي باعدَ بينهم وبين النَّاس ولم يقترب منهم قيراطاً مِنَ الآلهة.

وإذا أنت لم تحزن عليهم فإنَّك بلا شك تشكُّ في فَهمِك وذكائك وتحزن على نفسك لأنَّك عجزت عن فهم ما كتبوا. حتى كأنَّما كنت وأنت تطالعه تقرأ شعراً فارسيّاً أو تركياً. حروفه عربيَّة ولكنَّه ليس عربيّاً. فقد حاولوا كما قلنا لك أنْ يخلقوا نمطاً جديداً مِنْ كلام. وحقاً إنَّهم نجحوا في محاولتِهِم فكانَتْ حصيلتها نمطاً غريباً شاذاً بعيداً عن أنْ يكونَ كلاماً مفهوماً مِنَ النّاس في محيطهم لأنَّهم جاءوا بهذه الطَّريقة مِنْ محيط غريب غير محيطهم فما سدَّت فراغاً ولا قضَتْ حاجة بل أضافَتْ كميَّة كبيرة إلى ما في اللغة العربيَّة مِنْ موميات. على أنَّه لا بُدَّ مِن الإعتراف بأنَّ السَّبب في هذا الإتجاه الشاذ هو ما في كثير مِنَ الشعر العربي مِنْ تفاهة وقيَم ورقابة وعفونَة في المعاني والقوافي. وأصحاب الطرائق الجديدة على

حَقٌ في أنْ لا يتابعوا أحداً مِنَ النَّظّامين الذين يقلّدون الشعراء ولا يحسنون حتى التقليد. ولكنَّهم ليسوا على حَقّ في أنْ يتابعوا شعراء في الغرب لهم أحاسيس خاصة يعثر ويَفْتَضِح مقلّدوها. فضلاً عن أنَّ للشعوب التي خرج منها أولئك الشُّعراء خصائص إجتماعيَّة وعنصريَّة وتاريخيَّة تختلف عن خصائص سواها مِنَ الشُّعوب. وعندها مِنَ الثَّروات الفكريَّة ما يجعلها تنظر إلى هذه الأنواع المُستحدَثَة مِنَ الأدب نظرها إلى حركَات بُهْلوانيَّة.

جاءني مرَّة أديب مِنْ هؤلاء ثائر على كُلّ ما في العربيَّة مِنْ أوضاع وعرَضَ عليَّ منظومَة له يمجِّدُ فيها الدَّعارة والفُجور ويلجّ في تركيب تعابير هي في منتهى الأغراب وبعضها مضحك مثل تشبيهه قامة المرأة بالبيلسان! فقلت له لماذا «البيلسان» وفي اللغة «الخيزران» وتأمَّلْتُ في وجهِه فرأيْتُ علائم الإستياء باديَة فيه مِنْ ملاحظتي. فلم أكترث لاستيائِه بل استرسَلْتُ في الكلام فقلت له: أنا لا أرى وجهاً للمقابلة بين قامة المرأة «والبيلَسَان» فهْوَ أكثر ما يكون أعوج وليس الإعوجاج مِنَ الجمال في قامة المرأة. وهو فاقد اللِّيونَة. وأحسن ما توصف به قامة المرأة هو اللّين والإنسجام.

ومضَيْتُ في هذا الشَّرح لعلّي أقنعه بسماجَة ذلك التَّشبيه ولكنَّه لم يقتنع. وكانَتْ الحجة التي يرتكز إليها ويتمسَّكُ بها هي أنَّ الشعراء الأقدَمين شبَّهوا القدّ بالخيزران وهو لا يريد أنْ يتابعَهُم!

قلت له: إذن لا يجب أنْ تحبَّ لأنَّهم أحبُّوا. ولا أنْ تتشوَّق لأنَّهم تشوَّقوا. ولا أنْ تنظمَ الشِّعر لأنَّهم نظموا. ولا أنْ تشربَ الحليب وتقول أنَّه أبيض اللَّون لأنَّهم شربوا الحليب وقالوا عنه أنَّه أبيض اللَّون.

وثمَّ قلت له: تستطيع أنْ تشبِّه القامة المُترنِّحة بأغنيَة مرقصة تمشي على قدَمَين. أو أنْ تقولَ إنَّها سحر مِنْ لحم ودم فتخالف الشُّعراء الأقدَمين أمَّا أنْ تشبِّه القامة «بالبيلَسَان» مُخالفَة لهم لأنَّهم شبَّهوها بالخيزران فإنَّك ترتكب سخفاً.

وهذا كُلُّه هيِّن عند أولئك الذين يركبون متن الأغراب فلا يفهمهم النَّاس مع أنَّ الإنسان لم يلجأ إلى اللُّغة إلا ليبلغ ما يجيش في نفسه إلى إنسان آخر. إلى جماعة مِنَ النّاس. ولذلك يجب أنْ يحسنَ التعبير وأنْ يكونَ كلامه جلياً واضحاً. أمَّا إذا تعمَّد التَّوريَة والتَّعميَة فإنَّه يفسدُ الأمر على نفسه.

فهل للأدباء الطَّالعِين أنْ يتذكَّروا أنَّهم يكتبون للنّاس. وأنَّهم إذا كانَتْ لديهِم فِكْرة أو صُورة أو خَاطِرة تجيشُ في أرواحِهِم فلا تعيش إلا إذا خرجَتْ مِنْ قلوبِهِم إلى قلوب النّاس. وعليهم أنْ يحسنوا تأديَتها إذا كانوا لا يريدون أنْ تختنقَ في صدورهِم.

السَّمير: 10/ 4/ 1957

الإسراف والبُخل

نَحْن شعب كريم مضياف فأمرٌ لا جدال فيه؛ لأنَّ تاريخنا كُلَّه منذ عَصْر الخَيْمة إلى عصر القَصْر، ومنذ عصر النَّاقة إلى عَصْر الطَّائرة- يشهد لنا شهادة حَقٍّ لا تزويرَ فيها ولا تزويقَ بأنّنا عُرِفْنَا بالكَرم وعُرِفَ الكَرَمُ بنا. وإنَّنا قومٌ لا يَقْتَصِر كَرمُنا على بَذْل المال وَحْدَه بل نجود أحياناً بأَنْفُسنا في سبيل اسْتبقاء هذه المِيْزَة لنا دون غيرنا، واستبقائها كاملة غير منقوصة ولا مشوَّهة.

ولكنّنا أحياناً نجاوز الحَدَّ في الجُوْد حتى يبدو كَرَمُنا مُزَيَّفاً مُصطَنَعاً. وحتى يتحوَّل مدح النَّاس لنا إلى اسْتخفافٍ بنا أو تَلويم وتَثْريب لِما نَصْنَع.

خذ مثلاً أعراسَنا. فإنَّ أعراس الأُمراء والمُلوك في الزَّمَن الخالي ليسَتْ أجملَ منها ولا أكثرَ نفقةً وكُلْفَة ولا أحسن تَنْسيقاً وتَرْتيباً.

ولو أنَّ الذين يتكلَّفون هذه الفَخْفَخَة والأُبَهَة في الأعراس همُ الأغنياء وحدَهم لكان الأمرُ مَحْمولاً هَيِّناً؛ فالأغنياء الذين اعْتزلوا النَّاس ـ أو قُلْ الذين ابتعد عنهم النّاس. يحتاجون إلى هذه المَظاهر الطَّنَّانَة لكي يُثْبِتوا وجودَهم ولكي يدلُّوا على أنَّهم مِنْ ذوي الثَّراء.

ولكنَّ الأمر غير قاصر على هؤلاء.. بل يكاد يكون البَذْل في هذا الباب عامّاً شامِلاً مِمَّا يدلُّ على أنَّ الرَّخاء أصاب الجميع وأنَّ الغِنى ليس وَقْـفاً على بعض دون بعض.

إستوى الماء والخَشَبَة. بل قُلْ إنَّ الذين يُنْفقون الأموال على الأَعراس وغير الأَعْراس وهم غيرُ أَغنياء هم أكرم مِنَ الأغنياء. فليس مَنْ ينفقَ الألف وعنده الألوف بكريمٍ بل الكريم هو الذي يبذُل الأَلْف؛ وليس له سواها.

وَلكن هذا الكرم على جماله وجلاله إذا رضِيَتْ عنه العاطفة، فلا يرضى عنه العَقل الرَّشيد. ومهما تكن الغايةُ منه فلن تكون غيرَ لذَّة عابرة لا تستأهل كُلَّ هذا الإسراف.

ومثل أعراسنا مآدبنا وولائمنا فمِنَ النَّادر أنْ تقام وليمة لِعَشْرةٍ لا يكفي ما يُهيأُ له مِنْ مطاعم ومشارب لثلاثين وأربعين وإذا لم يستطع أهل الدَّار هذه الأشياءَ كلَّها استعانوا بالخُبَراء وفي هذا ما فيه مِنَ التَّكاليف. ولذلك صار بعضُهم يدعو ضيوفَه إلى مطعم أو فندق تفادياً مِنْ أمرَيْن: الأوَّل إرهاق ربَّة الدَّار، والثاني إنفاق مالٍ لا لزوم لإنفاقه. ومهما تنتقي ربَّة البيت مِنْ أصناف الطَّعام ومهما تبالغ في إعداده. يظلُّ المَطْعم الكبير أوفى بالعنايَة وأكثرَ استعداداً.

إنَّنا لا نعيب على قومِنَا هذا السَّخاء المُتناهي. ولكنَّنا نودُّ أنْ يكونَ للمشاريع الإنسانيَّة والأدبيَّة والخيريَّة نصيبٌ مِنْ هذا السَّخاء. وبذلك يزداد كرمُنا جمالاً ويزداد شكرُ النَّاس لنا كما يزداد مَقامنا ارتفاعاً بين الأمَم.

نكتبُ هذه الكَلمة لا لِنَحُضَّ قومنا على البُخْل المَكْروه بل للتَّنبيه على أنَّ الكرمَ إذا تجاوزَ الحدَّ ولم يكن في مَوْضعِه هو مِثل البُخْل لا يُكْسِبُ صاحبَه غيرَ الذَّم. فالبُخل هو الطَّرَف الأقصى للإقتصاد، والإسراف هو الطَّرَف الآخر للكرم.

كلاهما مُسْتَهْجَنٌ مذموم. وكلاهما مُضِرٌّ بصاحبه. وقد قال الشَّاعر:

بين تبذيرٍ وبُخْلٍ رُتْبَةٌ　　　وكِلا هَذين إنْ زاد قَتَلْ!

السَّمير: 8/ 5/ 1957

عيد الإله الصغير

مع يوم الأحد القادم عيد عظيم يختلف عن جميع الأعياد.

هو ليس عيد قدِّيس ولا بطل ولا نابغة فأعياد القدِّيسين والأبطال كثيرة عند الأمم الرَّاقيَة.

ولكنَّه الكائن الذي يصنع الأبطال والنَّوابغ والقدِّيسين.

وينفح الدُّنيا بين حين وحين بالعلَماء والشعراء وأهل الفن.

إنَّه عيد الذي تتمثَّل فيه كُلَّ الصفات التي ترفع الإنسان مِنْ حَضِيض التُّراب المَهِين إلى أوج النُّور وملكوت الصَّفا والطّهر.

إذا طلبْتَ الرحمة فلا تجدها في كائن على الأرض كما تجدها في هذا الكائن السَّامي.

وإذا شئتَ معرفة ما هو الحنان والغفران والصَّفح والتضحية والإستشهاد في سبيل الغَيْر فهذه الفضائل لا تتجلَّى في حيٍّ كما تتجلَّى في هذا الكائن.

هو إله صغير أفاضَ على الإنسانيَّة جمالاً يستر نقائصها وعيوبها ويغطِّي مفاقرها ويمحو ذنوبها.

إنَّه.. الأُمّ

فإذا ذهبْتَ يوم الأحد القادم إلى الكنيسة لتصلِّي فتذكَّر أنَّ الإله الذي تصلِّي له جاء مِنْ أُمّ.

السَّمير: 10/ 5/ 1957

حول شُعراء المَهْجر

لمجلَّة الضاد التي تصدر في حلب عناية طيبة بالأدب والأدباء وهي كثيراً ما نثَرتْ رياحينها على صاحب «السَّمير» وحَمَّلته مِنْ الثناء ما تنوء روحه ويعجز عن وفائه. وآخر يد لها في هذا السَّبيل أنَّها نشرَتْ رسالة له بعث بها إلى الكاتب الكبير نظير زيتون تعليقاً على الفصول التي كتبها في الدفاع عن شعراء المهجر الذين لذَّ للبعض في مصر أنْ يتجنّوا عليهم عقيب المحاضرة التي ألقاها الشَّاعر جورج صيدح عنهم في القاهرة. وفي الرسالة عدا الثَّناء على الأستاذ زيتون رأي صاحب «السَّمير» في تلك الضجَّة المُصطنَعَة.

وهذه هي الرسالة نقلاً عن مجلة «الضاد» الزَّاهرَة.

أخي الكاتب الألمعي الأستاذ نظير زيتون.

أصافحك بالرُّوح. وأجِدُ لزاماً عليَّ أنْ أختلسَ قليلاً مِنَ الوَقْت لأشكرَ لك منافحتك عن الشُّعراء العرب في المهجر فقد بدَّدْتَ بمقالِك الرَّصين البليغ ذلك الغبار الذي إعلولى حول أسمائهم على ضفاف النِّيل إثر المحاضرة التي ألقاها صديقنا الشَّاعر جورج صَيْدح الذي يلوح لي إنَّ الذين دعوه ما دعوه إلا وفي أنفسِهِم أنْ يُثِيروا الغبار حوله وحولنا. وليس هذا الضَّجيج أمراً عجيباً فأهون أمر عند الذين لا يعملون هو التَّشنيع على الذين يعملون..

وما أخالني أتجنَّى إذا ذهبْتُ إلى القول أنَّ إخواننا هناك النَّاقمِين علينا بلا زُور وقد بهرَهم أنْ تبني فئة قليلة مِنَ الأدباء العرب في العالم الجديد دولة رفيعة للضَّاد لم يقم مثلها في التَّاريخ.

والأعجوبة الكبرى هي أنَّ هذه الفئة لم يكن لها ناصر مِنْ حكومة ولا مِنْ سلطان ولا مِنْ جمهور ولا مِنْ بيئة ولا مِنْ حزب. ولعلَّ أكثر ما أزعجَ أولئك السَّادة وأقلقهم هو تهافت الشَّباب على الطعام الرُّوحي الجديد الهابط عليهم مِنْ سماء المهجر فراحوا يستحدثون له العيوب تنفيراً للأرواح العطشى عن هذا المنهل العذب.

وما هذه اوَّل نبلة يطلقها علينا جماعة المُتزمِّين المُتعنِّتين فقد زعم الرَّافعي مرَّة ـ غفر الله له ـ وجاراه بعضهم في زعمه أنَّ أدباء المهجر يريدون هدم القُرآن...! أرأيتَ كيداً أعظم مِنْ هذا الكيد يا أخي الحَصِيف:؟. أرأيْتَ كيف أنَّ السمَّ النَّقيع ليس في حمة الأفعى وحدها!

ويبالغ بعضهم غير هازل حتى ليقول عن شعْرِ المهجر أنَّه ليس عَربيّاً!!؟

لماذا هذا الشعر غير عربي؟. لماذا؟

ألأنَّه لم يخرج مِنَ الباديَة

أم لأنَّه لا يشتمل على وصف النَّاقة والجمل والنُّواح على الأثافي والطَّلَل

أم لأنَّه ليس أماديح في أمير ولا مراثي في وزير؟

أم لأنَّه ليس نظماً يتحدَّى نظماً ولا معاني تتسلَّق على معانٍ؟

أم لأنَّه ليس لأهله دعاة يصفِّقون له ويتقاضَوْن أجرة التَّصفيق!

أم لأنَّ أصحابه لا يروجون لأنفسهم كما يروِّج التجَّار..

أم ليس مِنْ هذا شيء بل هي قِلَّة الإنصاف التي ذاق المُتنبِّي طعمها فقال:

وإنَّما قلة الإنصاف قاطعةٌ بين الأنام ولو كانوا ذوي رَحِم

ويغلط الجماعة غلطاً كبيراً عندما يقسِّمون الشعر إلى مُهاجر ومستوطن. ومسافر ومقيم فالخلاف ـ إذا كان هناك مِنْ خلاف ـ ليس بين شاعر في المهجر وشاعر في وادي النِّيل وليستْ المشادَة بين شعر صحيح كلّه وشعر غير صحيح كُلَه. ولا بين أدب تِلَيد وأدب طريف. بل الخلاف على ما أرى هو

بين نسق ونسق. ونزعة في الحياة ونزعة أخرى. وبين أرواح تهوى الإنعتاق والإنطلاق ولها قدرة على التجديد والتَّوليد. وأرواح متردِّدة مُتخاذلة تحسب هلاكها في التفلُّت مِنَ القيود والأغلال فهْيَ لا تحدد ولا تُوَلِّد. والفرق بينهما كالفرق بين النسور والجياد. إنَّ الجياد تركض وتخب في الدروب المعبَّدة أمَّا النُّسور فالفضاء كلّه طريقها..

أنا شديد الإيمان بالآية ﴿أمَّا الزَّبدُ فيَذْهبُ جُفاءَ وأمَّا ما يَنْفعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ﴾ [1] فليتصاعد الغبار مِنْ كُلِّ مكان وليتكاثف فإنَّه أخيراً يرجع إلى الأرض ويرجع غباراً.

لك يا عزيزي حُبِّي واحْتِرامي وشُكْري.

السَّمير: 17/ 5/ 1957

إلى قرّاء «السّمير» ومحبّيها

وما أنصارها ومحبُّوها إلا إخواني وأصدقائي أوجِّه هذه الكَلِمة وأنا في المستشفى منذ أيّام لعلَّة ما كانَتْ في الحِسْبَان. إنِّي أخاطبكم لا بِقَلَم ولا بِلِسان ولا بقلْب يتمنَّى أنْ تكونوا جميعكم في نَجْوة مِنْ عوارض الحياة وطواريء الأيَّام.

وليسَتْ العلَّة التي أعانيها بالعلَّة التي لا تُداوى. لَكِنَّ طَوْر النَّقاهة مِنْ أيَّة علَّة يستغرق وقتاً. وقد نَصَحَني الأطبَّاء بالإنقطاع عن العمل والتَّفكير فيه انقطاعاً تاماً مدة تتراوح بين شهرَيْن على الأقل وثلاثة أشهر على الكثير.

يريد الطَّبيب أنْ أكونَ بعيداً عن كُلِّ أمرٍ مُزْعِج. ولاسبيلَ إلى ذلك إلا بإيقاف «السَّمير» عن الصُّدور.

ففي هذه المدَّة يتسنَّى لي أنْ أبلغَ النقاهَة التامَّة بدون تَعْويق. كما ينفسحُ الوَقْت لديَّ للتفكير في الوصول إلى طريقة نتمكَّنُ معها مِنْ إصدار «السَّمير» في شكل أَحْسن وتَرتيب أَجْمل.

هي هدنة بين الجسم المُتْعَب المنهُوك والعمل.

وهي فرصة تتيح لكُلِّ واحد منَّا أنْ يفكِّرَ في أنَّ الإستجمام ضروري للإنسان سواءٌ كان كاتباً أو تاجراً أو عاملاً أو فناناً. ويجب أنْ أثنيَ على إخلاص واجتهاد الرِّفاق الأوفياء في إدارة «السَّمير» فقد بذل كُلٌّ منهم الجهود في متابعة إصدار «السَّمير» أثناء وجودي في المستشفى فلهم الشُّكر الجزيل.

وإلى أنْ تنقضيَ هذه الهدنة أو العطلة نسأل الأنصار الأوفيَاء أنْ يواصلوا صاحب «السَّمير» بالدُّعاء.

وإلى الملتقى على أحسن حال. إنْ شاء الله.

السَّمير: 28/ 6/ 1957

---

1 17م الرَّعد 13.

الفهرس